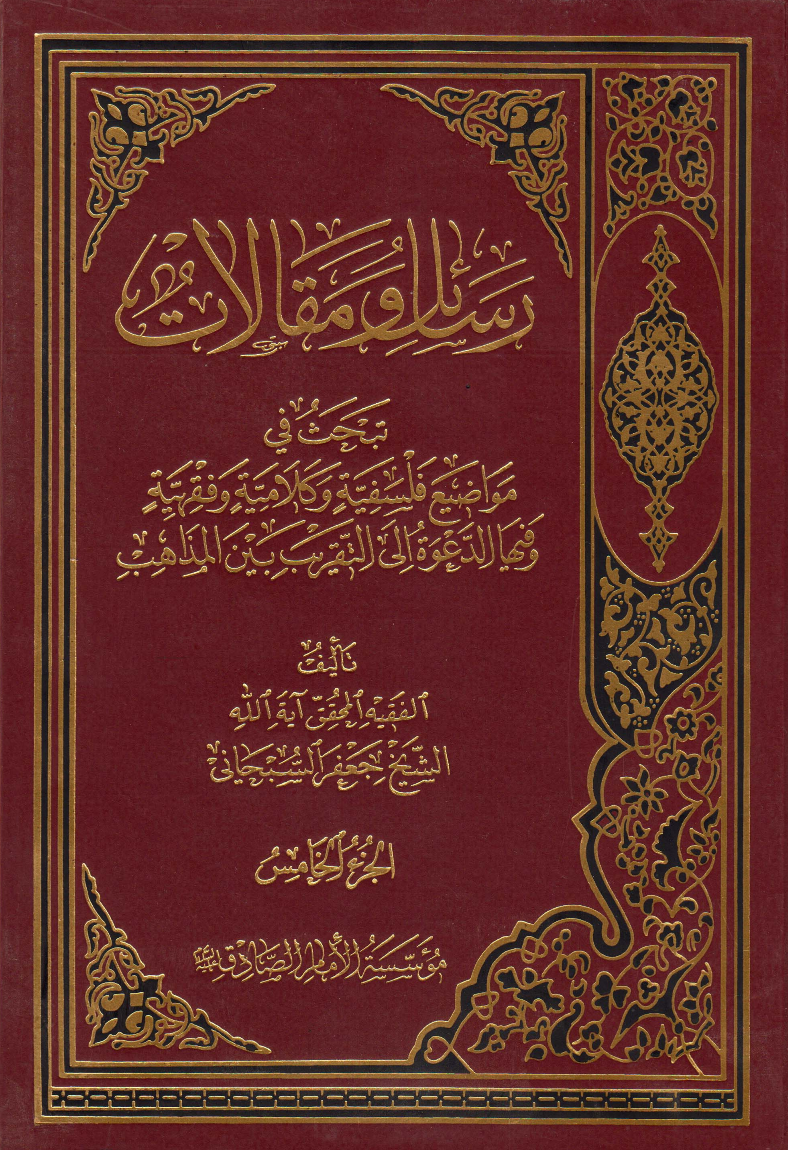
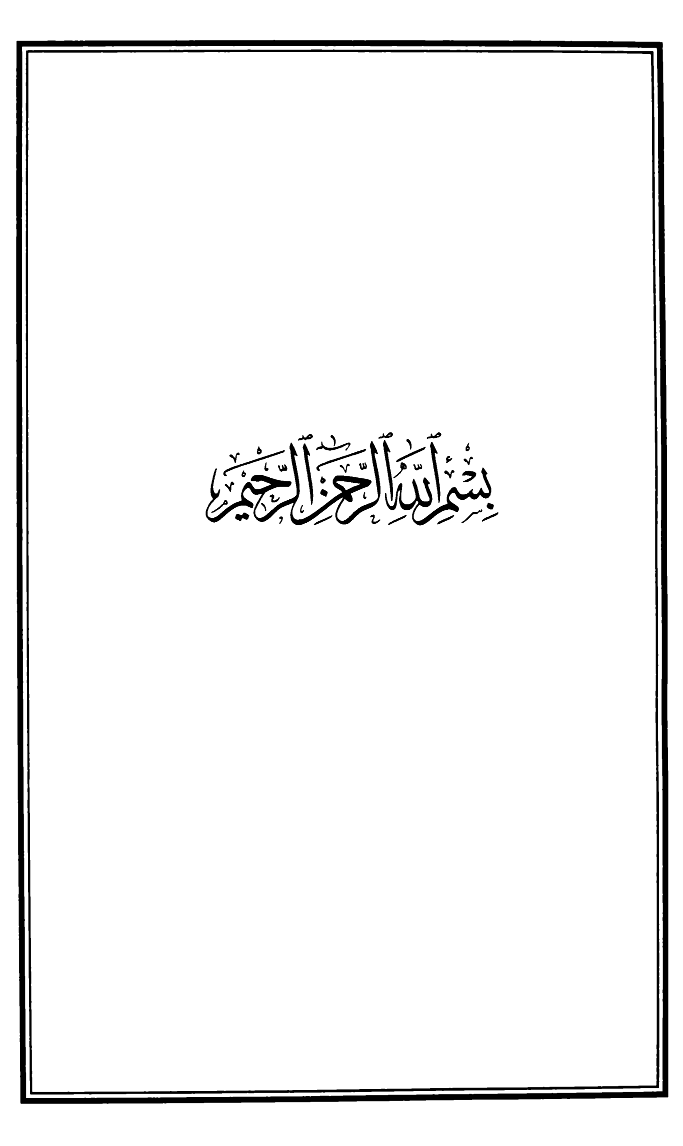


رسائل ومقالات
تبحث في
مواضيع فلسفية وكلامية وفقهية
وفيها الدعوة إلى التقريب بين المذاهب
تأليف
الفقيه المحقق آية الله
الشيخ جعفر السبحاني
الجزء الخامس
مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام


بسم الله الرحمن الرحيم



رسائل و مقالات

رسائل و مقالات

تبحث في

مواضيع فقهية، أُصولية، كلامية، تراجم، ومكاتبات و
حوارات مع بعض الأعلام

الجزء الخامس

تأليف

الفقيه المحقّق

جعفر السبحاني

مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام

ايران ـ قم

السبحانى التبريزي، جعفر، ١٣٤٧هـ.ق
رسائل و مقالات/ تأليف جعفر السبحاني. ـ قم : مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام، ١٤٢٦ق.=١٣٨٤
ج.
ISBN: 964 -357-205-6(ج. ٥)
كتابنامه به صورت زيرنويس.
مندرجات: ج.٢. تبحث في مواضيع فلسفية، كلامية، فقهية وفيها الدعوة إلى التقريب بين المذاهب. ـ ـ ج. ٣. تبحث في مواضيع فلسفية، كلامية، فقهية واجتماعية. ج٤. تبحث في مواضيع فقهية، أُصولية، كلامية و.... ج٥. مواضيع فقهية، أُصولية، كلامية، تراجم، ومكاتبات و حوارات مع بعض الأعلام.
١. شيعه ـ ـ عقايد ـ ـ مقالهها و خطابهها. ٢. اسلام ـ ـ مسائل متفرقه. الف. مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام. ب. عنوان.
٥ ر ٢س/ ٥/ BP ٢١١ ٢٩٧/٤١٧٢

اسم الكتاب:	رسائل و مقالات
الجزء:	الخامس
المؤلف:	العلاّمة المحقّق جعفر السبحاني
الطبعة:	الأُولى
المطبعة:	مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام
التاريخ:	١٤٢٦ هـ. ق
الكمية:	٢٠٠٠ نسخة
الناشر:	مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام
الصفّ والإخراج باللاينوترون:	مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام

Email: info@imamsadeq.org
www.imamsadeq.org

توزيع
مكتبة التوحيد
قم ـ ساحة الشهداء ـ ☎ ٧٧٤٥٤٥٧ و ٢٩٢٥١٥٢

بسم الله الرحمن الرحيم

العقيدة الإسلامية واحدة

رغم تعدّد المذاهب

الحمد لله الملك العلاّم، خالق النفوس والأجسام، الذي حارت عن إدراك كنهه، العقول، وضلّت الأوهام، والصلاة والسلام على المبعوث حجّة على الأنام، أقدس السفراء الفخام محمد ﷺ، وعلى الأطائب من ذرّيته، الحجج الغُرّ الكرام.

أمّا بعد: فانّ العقيدة الإسلامية الّتي نزل بها القرآن الكريم ودعت إليها السنّة الشريفة ودعمها العقل الحصيف، عقيدة واحدة على مر الحُقُب والقرون، ذلك لأنّ العقيدة تحكي عن حقيقة ثابتة لا تتبدّل ولا تتغيّر، شأن كل أمر كونيّ معتمِد على واقعيات خارجة عن تصوّرات الإنسان وتفكيره.

فالمعادلات الرياضية، والقوانين الميكانيكية، والأحكام العقلية القطعية، كلّها من الأُمور الثابتة لا يزعزعها تصور الإنسان الخاطئ، ولا يؤثر عليها التفكير الإنساني مهما بلغ من القوة مبلغاً لا يُشقّ شأوه.

ولمّا كانت العقيدة الإسلامية ممّا يجب اقتناصه من المصادر الصحيحة،

اختلف العلماء وفي مقدّمتهم أساتذة العقائد والكلام في كيفية الاقتناص والاقتباس، وهذا هو الّذي أعقب مذاهب عقائدية ومدارس كلامية لكلّ شأنه ودليله، وقيمته.

ولكن لمّا كان بين هذه المسائل، مسائل خاصة أوجبت تعميق الهوّة بين المسلمين فقد أحببتُ أن أطرحها على طاولة البحث والدراسة ليتجلّى الحق لطلابه وأكون ممّن شارك في التقريب بين المذاهب وتوحيد الخطى بينها، وهذه المسائل عبارة عن:

المسألة الأُولى: التفكير فريضة إسلامية وانّه لا غنىٰ للمسلم عن التفكير في ما يرجع إلى العقائد حتى يصدر عن دليل يقيني مفيد للعلم به، وانّ الذين يحرّمون الخوض في المعارف العقلية هم الذين وقعوا في مصيدة التجسيم والتشبيه، فلمّا رأوا أنّ البراهين القاطعة تعارض تفكيرهم وتُزعزع بنيانَ ما ورثوه من آبائهم، اضطرّوا إلى تحريم التفكير العقائدي لسدّ هذا الباب.

فصاروا يدعمون عقيدتهم البسيطة بالبرهان قائلين «لو كان المنطق(الاستدلال) طريقاً محصِّلاً لم يقع الاختلاف بين أهل الاستدلال».

ترى أنّهم كيف يستدلّون على بطلان الاستدلال، بالبرهنة والدليل.

هؤلاء الذين أقفلوا باب التفكير في صفاته سبحانه وأفعاله وشطبوا على البحوث العقلية بقلم عريض، فقد أنكروا في الحقيقة كثيراً من الآيات والروايات الّتي تبرهن على العقائد، وهذا هو الّذي عالجناه في المقالة الأُولى أو الفصل الأوّل من فصول الكتاب.

المسألة الثانية: وهي أنّ كثيراً من العقائد المنسوبة إلى السلف ــ و السلف الصالح بريء منها، براءة يوسف من الذنب الملصق به ـ مستقى من الخبر الواحد

الّذي لا يفيد علماً في باب العقائد.

فقد طرحنا هناك هذا النوع من المسائل وقلنا بأنّ الخبر الواحد في الشؤون الدينية بين الرفض والقبول؛ فقول الثقة حجة في مجال الأحكام وما يرجع إلى سلوك الإنسان من فعل وترك، ولكنّه ـ قول الثقة ـ ليس بحجة في مجال العقائد فإنّ المطلوب في هذا الحقل هو تحصيل اليقين، وخبر الواحد أقلّ شأناً من أن يفيد اليقين.

وبعبارة أُخرى: الأُصول والمعارف من الأُمور الّتي يطلب منها عقد القلب والإذعان بالقضية على نحو يطرد الطرف النقيض، وقول الثقة بما أنّه غير معصوم لا يورث إلاّ الظنّ وهو لا يغني في مجال العقيدة عن الحق شيئاً، وهذه المسألة طرحناها في المقالة الثانية من تلك المقالات أو الفصل الثاني من فصول هذا الكتاب.

المسألة الثالثة: وهي مسألة التساهل أو التطرف، وهي من الأُمور الهامة حيث نرى أنّ طائفة من المفكّرين يدعون إلى التساهل والتسامح ويصفون الإسلام بثقافة التساهل، وعلى النقيض من ذلك توجد جماعة يهتمون ويشدّدون على التكفير ويدعون إلى ثقافته:

وكلّ يدّعي وصلاً بليلىٰ   وليلىٰ لا تقرّ لهم بذاكا

وقد عالجنا هذه المسألة بالتفريق بين التساهل السلكوكي والتساهل في العقيدة والإيمان.

فليس للمسلم أن يتنازل عن عقيدته والأُصول الّتي بُني عليها الإسلام قيد شعرة، ولكنّه لا يمنع من التساهل في علاقته مع الفرق الأُخرى على نحو الهدوء والهدنة.

وقد ذكرنا عدداً من المسائل الّتي صارت سبباً للتطرف وطرد الآخرين من بين الطوائف الإسلامية.

وفي هذا الصدد نرى أنّ الشيخ الأشعري ـ و الّذي تاب عن الاعتزال ولجأ إلى مذهب أحمد بن حنبل ـ يؤلّف كتاباً في الفرق الإسلامية يسميه «مقالات الإسلاميين، واختلاف المصلّين» وهو يسمّى أصحاب المذاهب كلّهم أهل القبلة والصلاة، ومع ذلك اختلفوا في كثير من المسائل الكلامية والّتي لا تمت إلى الإيمان الواجب بصلة.

فيا ليت كان منهجُ الأشعري سائداً على هؤلاء المتطرّفين اللّذين يتحاملون على الفرق الإسلامية الأُخرى.

وقد تطرقنا إلى هذه المواضيع في المقالة الثالثة أو الفصل الثالث.

المسألة الرابعة: فتنة التكفير فتنة عمّت أكثر ربوع العالم الإسلامي دون أن يكون لهذا الاتّساع والانتشار حدّ وتوقف، ومن يقوم بهذه الفتنة يتمسّك بعناوين يصفونها بالبدعة دون أن يقوّموا مفهوم البدعة وخصوصياتها، فصار الترامي بالابتداع أمراً شائعاً تسمعه حيث ما كنت في الديار المقدسة.

وقد نتج من إشاعة التكفير ورمي الآخرين بالابتداع الإرهابُ الّذي غطّى البلاد الإسلامية، فإنّ كثيراً ممّن اغترّ بتكفير المسلمين ووصفهم بالابتداع، استقوا مواقفهم المتطرفة تلك، من هذه الفكرة، إلى أن استغلّ الأعداءُ ذلك فجعلوا الإسلام مساوياً للإرهاب و إراقة الدماء وقتل الأبرياء، دون أن يميّزوا بين الإرهابيّين الذين هم نتاج أعمال الأجانب وتضييقهم على المواطنين وبين الإسلام الواقعي الّذي تعلوه الرحمة الإلهية والأخوّة الإسلامية والتعاون البشري. وهذا هو محور المقالة الرابعة والّتي كانت بعنوان: فتنة التكفير وخطرها على مستقبل الأُمّة

الإسلامية.

ومع هذا فهذا الجزء يضم بين دفتيه مقالات أُخرى في الفقه وأُصوله والرجال والتراجم والرسائل الإخوانية الّتي دارت بيننا وبين عدد من المفكّرين والعلماء الأعزاء.

فنرجو من الله سبحانه أن يكون هذا الجزء كسوابقه مفيداً للقراء ومنيراً لدربهم.

نسأل الله سبحانه أن يصوننا من التقصير في التفكير والزلل في البيان والعمل إنّه خير مسؤول ومجيب.

جعفر السبحاني

مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام

قم المقدسة

٢٨ ربيع الأوّل ١٤٢٦هـ

الفصل الأوّل

تاريخ علم الكلام

وكيفية نشوئه وتكامله

ومدارسه

١

ما هو سبب تسمية علم الكلام بهذا الاسم؟

اختلفت كلمات أعلام المتكلّمين في وجه تسمية علم الكلام، وها نحن نذكر كلماتهم في المقام:

١. قال العلاّمة الحلّي (المتوفّى ٧٢٦هـ) في موسوعته «نهاية المرام في علم الكلام»: خُصِّصَ هذا العلم باسم الكلام لوجوه:

ــ العادة قاضية بتسمية البحث في دلائل وجود الصانع تعالى وصفاته وأفعاله، بالكلام في الله تعالى وصفاته، فسُمّي هذا العلم بذلك. ولا استبعاد في تخصيص بعض الأسماء ببعض المسمّيات دون بعض.

ـ أنكر جماعة البحث في العلوم العقلية والبراهين القطعية، فإذا سُئلوا عن مسألة تتعلّق بالله تعالى وصفاته وأفعاله والنبوة والمعاد، قالوا: نُهينا عن الكلام في هذا العلم، فاشتهر هذا العلم بهذا الاسم.

ــ هذا العلم أسبق من غيره في المرتبة، فالكلام فيه أسبق من الكلام في غيره، فكان أحقّ بهذا الاسم.

ـ هذا العلم أدق من غيره من العلوم، والقوة المميزة للإنسان ـ وهي النطق ـ إنّما تظهر بالوقوف على أسرار هذا العلم، فكان المتكلّم فيه أكمل الأشخاص البشرية، فسمّي هذا بالكلام لظهور قوة التعقّل فيه.

ـ هذا العلم يُوقف منه على مبادئ سائر العلوم، فالباحث عنه كالمتكلم في غيره، فكان اسمه بعلم الكلام أولى.

ـ إنّ العارفين بالله تعالى يتميزون عن غيرهم من بين نوعهم، لما شاهدوه من

ملكوت الله تعـالى، وأحاطـوا بما عرفـوه من صفاته، فطـالت ألسنتهم على غيرهـم فكان علمهـم أولى باسم الكلام.[١]

٢. وقال التفتازاني(المتوفّى عام ٧٩١هـ):سُمِّي علم الكلام كـلاماً، لأنّ مباحثـه كانت مصـدّرة بقولهم: كـلام في كذا وكذا، ولأنّ أشهـر الاختلافـات فيه كانت مسألة كلام الله تعالى انّه قديم أو حادث، ولأنّه يُورث قدرة على الكلام في تحقيق الشرعيات كالمنطق في الفلسفيات، ولأنّه كثر فيه من الكلام مع المخالفين والردّ عليهم ما لم يكثر في غيره، ولأنّه لقوة أدلّته صار كأنّه هو الكلام دون ما عداه كما يقال للأقوى من الكلامين هذا هو الكلام.[٢]

وقد ذكـر التفتازاني أيضاً في «شرح العقـائد النسفية» أسبـاب تسمية علم الكلام بهذا الاسم فقال: وسَمُّوا معرفة العقائد عن أدلّتها بالكلام:

ـ لأنّ عنوان مباحثه كان قولهم: الكلام في كذا وكذا.

ـ ولأنّ مسألة الكلام(في حدوث القرآن وقدمـه) كانت أشهر مباحثه وأكثر نزاعاً وجدالاً.

ـ ولأنّـه يـورث قـدرة على الكـلام في تحقيق الشرعيـات وإلـزام الخصـوم كالمنطق للفلسفة.

ـ ولأنّـه أوّل ما يجب من العلـوم التي تُعْلم وتُتعلم بالكـلام، فأطلق عليه هذا الاسم لذلك ثمّ خُصّ به ولم يطلق على غيره تميزاً له.

ـ ولأنّـه إنّما يتحقّق بالمباحثة وإدارة الكـلام بين الجانبين، وغيره قد يتحقّق بالتأمل ومطالعة الكتب.

ـ ولأنّـه أكثر العلوم خـلافاً ونزاعـاً فيشتد افتقاره إلى الكـلام مع المخالفين والرد عليهم.

---

١. نهاية المرام في علم الكلام:١/ ٨ـ٩.

٢. شرح المقاصد:١/ ١٦٤، تحقيق الدكتور عبدالرحمن عميرة.

ـ ولأنّه لقوة أدلّتـه صار كأنّه هو الكلام دون ما عـداه من العلوم، كما يقال للأقوى من الكلامين هذا هو الكلام.

ـ ولأنّـه لابتنائه على الأدلّة القطعيـة المؤيَّد أكثرهـا بالأدلّة السمعيـة، أشدّ العلـوم تأثيراً في القلب وتغلغـلاً فيـه، فسُمِّي بـالكـلام، المشتق من الكلم وهـو الجرح.[١]

وعلى كلّ تقديـر فقد يطلق على هذا العلم، علمُ أُصـول الدين، كما يسمّى أيضاً بعلم التـوحيد، أو علم التـوحيد والصفات، أو الفقـه الأكبر، أو علم النظر والاستدلال.[٢]

هـذا خلاصـة مـا ذكـروه غير أنّ كثيراً منها إبـداعيّ لا يَعتمِـدُ على دليل، خصوصاً مـا اشتهر بين الناس من أنّ وجه التسميـة بالكلام لأجل انّ البحث في الكلام الإلهي من حيث الحدوث والقـدم كان هو السبب وراء تسميـة هذا العلم بعلم الكلام. وذلك لأنّ البحث في الكلام الإلهي من حيث القدم والحدوث نجم في عصر المأمون عام ٢١٢هـ، مع أنّ هذا المصطلح كان دارجاً بين المسلمين قبل هذا العصر.

نظرنا في وجه التسمية

والظاهر انّ خطب الإمام وكلماته، كانت هي الأساس في التسمية وتدوين علم الكلام، فالمتكلّمون كـانوا يستدلّون بكلام عليعليه السلام في كذا وكـذا حتّى سمّى مجموع المسائل بعلم الكلام.

وسيوافيك أنّ المؤسس الأوّل لهذا العلم هـو الإمام علي بن أبي طالبعليه السلام، فإنّه أوّل من تكلّم بين الصحابة حول أسمائه سبحانه وصفاته وأفعاله بوجه بديع، وخطبه وكلماته أفضل شاهد على ذلك.

١. شرح العقائد النسفيّة: ١٥، ط آستانة ـ ١٣٢٦هـ.

٢. كشاف اصطلاحات العلوم: ٣٠؛ وعلم الكلام ومدارسه: ٥٣.

٢

تعريف علم الكلام

وقد عُرِّف علم الكلام بتعاريف مختلفة:

١. علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج ودفع الشبه.[١]

٢. هو العلم بالعقائد الدينية عن الأدلّة اليقينية.[٢]

٣. هو ملكة يقتدر بها الإنسان على نصرة الآراء والأفعال المحمودة التي صرّح بها واضعُ الملة وتزييف كل ما خالفها بالأقاويل.[٣]

٤. علم يتضمّن الحجاج على العقائد الإيمانية بالأدلّة العقلية والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقاد عن مذاهب السلف وأهل السنّة.[٤]

ويلاحظ على التعريف الأخير بأنّ المتكلّم ـ على ضوء هذا التعريف ـ هو من يدافع عن أُصول الدين لا عن فروعه. واختلاف السنّة مع غيرهم اختلاف في

---

١. المواقف:١/ ٣٣٣؛ كشاف اصطلاحات العلوم:٣٠.

٢. شرح المقاصد:١/ ١٦٣.

٣. موسوعة مصطلحات العلوم عند العرب:٢/ ١٠٦١.

٤. مقدمة ابن خلدون:ص ٤٥٨، الفصل العاشر في علم الكلام.

الفروع لا في الأُصول بما فيه الاختلاف في الإمامة، لأنّها عند أهل السنّة من الفروع وجزء من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلا معنى لتخصيص علم الكلام بالدفاع عن عقيدة السلف والسنّة، بل المتكلّم يدافع عن العقيدة الإسلامية المشتركة بين السنّة والشيعة.

وعلى ضوء هذه التعاريف يكون علم الكلام علماً آلياً يستخدم في إثبات العقائد الدينية، إمّا بإيراد الحجج أو دفع الشبه، ويكون موضوعه العقائد الدينية من حيث إقامة الحجج العقلية عليها أو دفع الشبه عنها.

وهذا النوع من التعاريف ينطبق على الكتب المؤلفة في العصور الإسلامية الأُولى التي اقتصر البحث فيها على المسائل العقائدية.

ولكن هذا الوضع لم يدم، ففي العصور المتأخرة شرع المتكلّمون في البحث عن أوسع الموضوعات وهو البحث عن الموجود بما هو موجود؛ فقسّموا المباحث الكلامية إلى: الأُمور العامة أوّلاً ، والطبيعيات ثانياً، والإلهيات ثالثاً.

وعلى ضوء ذلك سار نصير الدين الطوسي (المتوفّى٦٧٢هـ) في كتابه «تجريد الاعتقاد»؛ وتبعه غير واحد من المتكلّمين، منهم: العلاّمة الحلّي في غير واحد من كتبه الكلامية لاسيّما كتاب «نهاية المرام في علم الكلام»، والقاضي الإيجي (المتوفّى٧٥٦هـ) في «المواقف»، والتفتازاني(المتوفّى٧٩١هـ) في «مقاصده» و«شرحه»، والجرجاني (المتوفّى ٨١٦ هـ) في «شرح المواقف»، والفاضل المقداد(المتوفّى ٨٢٦هـ) في «اللوامع الإلهية» ، إلى غير ذلك من الكتب .

وهذه المسائل لا تمت إلى العقائد الدينية بصلة. نعم حاول محمد علي الفاروقي التهانوي من علماء القرن الثاني عشر إرجاع هذه المسائل إليها بالبيان

التالي:

وموضوعه هو المعلوم من حيث إنّه يتعلّق به إثبات العقائد الدينية تعلّقاً قريباً أو بعيداً، وذلك لأنّ مسائل هذا العلم إمّا عقائد دينية كإثبات القدم والوحدة للصانع، و إمّا قضايا تتوقف عليها تلك العقائد كتركب الأجسام من الجواهر الفردة وجواز الخلاء وانتفاء الحال وعدم تمايز المعدومات المحتاج إليها في المعاد، وكون صفاته تعالى متعددة موجودة في ذاته، والشامل لموضوعات هذه المسائل هو المعلوم المتناول للموجود والمعدوم والحال، فإن حكم على المعلوم بما هو من العقائد تعلّق به إثباتها تعلّقاً قريباً، و إن حكم عليه بما هو وسيلة إليها تعلّق به إثباتها تعلّقاً بعيداً،وللبعد مراتب متفاوتة.[1]

يلاحظ عليه: أنّه لا صلة بين إثبات الأحوال البهشمية المطروحة في الأُمور العامّة ونفيها والعقائد الدينية، وهكذا كثير من المسائل المطروحة في علم الطبيعيات.

وسيوافيك الرأي الحاسم في الفصل القادم.

---

١. كشاف اصطلاحات الفنون:٣١.

٣

موضوع علم الكلام

إنّ تحديد موضوع علم الكلام رهن كيفية تعـريفه، فلو قلنا في تعريف علم الكلام بأنّه علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج ودفع الشبه، يكـون موضـوعه العقـائد الدينيـة التي أذعن المتكلّم بصحّتهـا بدلائل إجماليـة، وتكون عوارضها إقامة الحجج التفصيلية عليها أو بدفع السهام المرشوقة إليها.

وأمّا لو قلنا في تعريف علم الكلام بـأنّه الباحث عن أحوال الموجود بما هو موجود كما يدلّ عليه مباحثه، فالموضوع هـو الموجود بما هو موجود الذي ثبوته من البديهيات ومسائله من النظريات، فعندئذٍ يتّحد موضوع علم الكلام مع موضوع الفلسفة، وغـاية ما يمكن أن يقـال في الفرق هـو انّ البحث في علم الكلام على نهج قـانـون الإسـلام بمعنى انّ المتكلّم ملتـزم بأن لا يخرج بنتيجـة يخالف فيهـا الإسلام ولكن الفيلسوف غير ملتزم بذلك.

ينقل الإيجي في «المواقف» ويقول: وقيل الموضوع هو الموجود بما هو موجود ويمتاز عن الإلهي باعتبار، وهو انّ البحث هاهنا على قانون الإسلام.[1]

١. المواقف: ١/ ٧.

وعلى ضوء ذلك فالفلسفة والكلام اسمان لعلم واحد، مشتركان في عامّة المسائل، غير أنّ همّ المتكلّم في النهاية إيراد الحجج على العقائد أو دفع الشبه بخلاف الفيلسوف.

وبذلك ظهر انّ الموضوع أحد أمرين:

أ. العقائد الدينية المبرهنة إجمالاً في غير علم الكلام. فيبحث عن العوارض الذاتية لها وهي ـ كما مرّ ـ إمّا إقامة الدليل أو دفع الشبهة.

ب. الموجود بما هو موجود الذي يؤمن به كلّ إنسان موضوعي ويبحث عن عوارضه الذاتية، وهي تقسيم الموجود إلى واجب وممكن، والممكن إلى مجرّد ومادّي وهكذا.

وقد تقدّم انّ التهانوي جعل الموضوع «المعلوم» من حيث إنّه يتعلّق به إثبات العقائد الدينية وكأنّه حاول الجمع بين الأمرين.

هذا هو المستفاد من كلمات القوم.

إيضاح وتفصيل

والحقّ أن يقال: أنّه لو قلنا بأنّ علم الكلام يتضمّن الاحتجاج على العقائد الإيمانية بالأدلّة العقلية والردّ على المبتدعة فموضوع علم الكلام «هو العقائد الإيمانية بعد فرضها صحيحة من الشرع من حيث الاستدلال عليها بالأدلّة العقلية فترفع البدع وتزول الشكوك والشبه عن تلك العقائد».

وقد كان علم الكلام في أوائل الأمر لا يتجاوز هذا الحدّ، و كان الغرض منه هو الذبّ عن العقائد الصحيحة، فالعقائد الإيمانية والبرهنة عليها بالأدلّة العقلية ورفع البدع و إزالة الشكوك من عوارضها موضوع له.

ولكن علم الكلام ـ بمرور الزمن ـ تجاوز هذا الحدّ فصار يواكب الفلسفة في حقولها الثلاثة: الأُمور العامّة، الطبيعيات والفلكيات، والإلهيات بالمعنى الأخصّ.

فعند ذلك لا محيص من القول من أنّ موضوع علم الكلام هو نفس موضوع الفلسفة ، لكن الغرض الأقصى للمتكلّم هو البرهنة على ما ثبت في الشرع في الحقول الثلاثة، وبالأخص ما يمت إلى العقائد بصلة؛ وهذا بخلاف الحكيم، فإنّ الغاية هو فهم حدود الوجود وتعيّناته من الواجب إلى الممكن ومن الجوهر إلى العرض ومن المادّة إلى المجرّد.

وبذلك يتيسّر لنا أن نقول: إنّ علم الكلام تطوّر عبر القرون، ففي القرون الأُولى كان الهدف هو الدفاع عن العقائد الإيمانية فقط، ولم يكن هناك أيّ غرض سوى ذلك، ولكن بمرور الزمن واحتكاك الثقافات وازدهار الفلسفة لم يجد المتكلّمون بدّاً من التوسع في المعارف الكونيّة من الطبيعيات والفلكيات والبحث عن القواعد العامّة في الأُمور العامّة وغير ذلك.

وبذلك اختلفت كلمتهم في بيان موضوع العلم.

استظهار موضوع العلم من خلال غايته

إنّ الوقوف على موضوع العلم يحصل من خلال الوقوف على غايته، فإنّ غاية العلم تُحدِّدُ موضوعَ العلم وبالتالي تعريفَه.

فالغاية القصوى للمتكلّم هي معرفة الله سبحانه وصفاته وأفعاله، ويدخل في أفعاله معرفة المعاد و الأنبياء والأئمّة وما يمت لهم بصلة، فإذا كانت هذه هي الغاية فلا معنى لاتخاذ الموجود بما هو موجود موضوعاً لعلم الكلام، فإنّ البحث

عن مطلق الموجود و إن لم يكن لـه صلة بالله وأسمائه وصفـاته وأفعالـه خارج عن الغاية المتـوخاة للمتكلّم، وبذلك تخرج كثير من المباحث المطـروحة في الفلسفة عن علم الكلام، نظير:

١. الأُمـور العامـة، كـالبحث عن الـوجود والماهيـة، والبحث عن العـدم وأحواله إلى غير ذلك من المسائل.

٢. الطبيعيـات، كـالبحث عن تـركّب الجسم من الهيـولى والصـورة، أو الفلكيات إلى غير ذلك.

وقـد مـرّ أنّ المتكلّمين في العصـور الأُولى لم يكن لهم هـمّ إلاّ طـرح المسـائل التي لها مسـاس بـالعقائد الـدينيـة ، ولكن لمّا اتسعت العلـوم ودام التنـازع بينهم وبين غيـرهم اتسعت دائرة علم الكلام إلـى مسائل لا تمت إليهـا بصلة ، وكانت الغاية من إدخال هـذه المسائل هي مجاراة الفلاسفة فيها حتّى لا يُتَّهمُوا بقلة الاطّلاع وضآلة الفضل والعرفان ، ولولا هذا لما شمل علم الكلام هذه المباحث .

ولذلك نرى أنّ العلاّمة الحلّيّ يذكر في غاية علم الكلام ماهذا نصّه:

إنّ الإنسان هـو مدني بالطبع يفتقـر في معاشه إلى غـذاء ولباس ومسكن، وهـذه الأُمـور لا يمكن صدورهـا عن صـانع واحـد وإنّما تحصل بـاجتماع خلق يتعاونون عليه ويتشاركون في تحصيله.

ثمّ إنّ الاجتماع على التعاون إنّما يتم إذا كـان بين بني النوع معاملـة وعدل، إذ كلّ منهم يشتهي مـا يحتاج إليه ويغضب على مـزاحمته فيـه ، وبحسب هاتين يحصل الجور فيقع الهرج والمرج فمسّت الحاجة إلى وضع قوانين إلى كيفية العدل.

وتلك القوانين لـو وضعها الناس لحصـل الاختلاف، فوجب في عنـاية الله

تعالى إرسال الأنبياء بشرائع تقتضي نظام الوجود ومجازاة الممتثل لها بإحسان ومقابلة المخالف بالعذاب الأُخروي، فوجب معرفة المجازي.(١)

ترى أنّه يبيّن غاية علم الكلام بحاجة الإنسان إلى القوانين العادية، ولا يحصل ذلك إلاّ بتشريع الله سبحانه، ومعرفة القوانين تتوقّف على معرفة الله سبحانه وأسمائه وصفاته وأنبيائه، وما وعد به المطيع، أو أوعد به المجرم.

فإذا كانت الغاية هي هذه، فالبحث عن الماهية والوجود والأحوال البهشمية أو عن أصالة الوجود والماهية أو المسائل الطبيعية بأجمعها يكون أمراً زائداً، ولذلك نرى أنّ العلاّمة الحلّي بعدما يذكر الغاية يعرّف علم الكلام بالشكل التالي:

علم الكلام هو المتكفّل بمعرفة المجازي، وكيفية آثاره وأفعاله وتكاليفه على الإجمال. وذلك هو سبب السعادة الأبدية والخلاص عن الشقاء الأبدي، ولا غاية أهمّ من هذه الغاية.(٢)

فإذا كانت هذه غاية علم الكلام حسب ما قرره العلاّمة الحلي اتّضحت الأُمور الثلاثة:

١. تعريف علم الكلام.

٢. موضوعه.

٣. غايته.

---

١. نهاية المرام:١/ ١٢ .

٢. نهاية المرام:١/ ١٣.

٤

التفكير فريضة إسلامية

إنّ الذكر الحكيم يعدّ التفكير فريضة دينية، يقول سبحانه: ﴿الّذينَ يَذْكُرونَ اللهَ قِياماً وقُعوداً وعَلىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتفكَّرون في خَلْقِ السَّمٰواتِ وَالأَرْض ربّنا ما خَلَقْت هذا باطلاً﴾.[١]

وقد تكرر قوله سبحانه في الذكر الحكيم: ﴿انّ في ذلِكَ لآيات لقَومٍ يَتفَكَّرون﴾.[٢]

فلو كانت الفريضة هي الجمود على ما ذكره السلف فيما يرجع إلى المبدأ والمعاد، فلماذا حثَّ سبحانه على التفكير في آياته وخلقه؟! أليس في ذلك دعوة لمعرفة المبدئ وأسمائه وصفاته وأفعاله حسب الطاقة البشرية من خلال التدبّر في آثاره وآياته الكونية؟.

إنّه سبحانه عندما يندِّد بالملحدين والمشركين يخاطبهم بقوله: ﴿قُلْ هاتُوا بُرهانكُم﴾، ويقول سبحانه: ﴿أَم اتّخذوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هاتُوا بُرهانكُمْ هذا

١. آل عمران:١٩١.

٢. الرعد:٣؛ النحل:١١؛ الزمر:٤٢؛ الجاثية:١٦.

ذِكْرُ مَنْ مَعيَ وَذِكْرُ مَن قَبلي بَلْ أَكثرهُمْ لا يَعْلَمُونَ الحقَّ فَهُم مُعْرِضُون﴾.[١]

وعلى ضوء ذلك فالبرهان هـو مدار الإيمان والصلاح والنجاح، فمَن طلب البرهان أو أبطل الوهم به، فقد عمل بالقرآن؛ وأمّا من أقفل على قلبه وعقله وقلّد السلف دون تفكير، فقد عطّل عقلَه وتفكيره.

ثمّ مـا الـدليل على أنّ السلف أفضـل من الخلف، وكأنّ السلـف قـد أحاطتهم هـالة من العصمة لا يخطأون ولا يشتبهـون. وسيوافيك أنّ خير السلف هو الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام وأهل بيته الطـاهرين، قـد فتحوا بـاب المعارف الإلهية بوجه الأُمّة على ضوء الكتـاب والسنّة الصحيحة والعقل الحصيف الذي به عرفنا ربّنا سبحانه، لا عن طريق المشاغبات والمجادلات.

إنّ القرآن الكريم يحثُّ على التعقّل في آياته سبحانه ويقول: **﴿كَذلِكَ يُبيّنُ الله آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُون﴾**.[٢]

ويقول سبحانه: **﴿أُفٍّ لَكُمْ وَلِما تَعْبُدُونَ مِـنْ دُونِ الله أَفَلا تَعْقِلُون﴾**[٣]، ويبيّن أنّ الغايـة من ضرب الأمثال هـو التعقّل ويقول: **﴿وَتِلْكَ الأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنّاسِ وَما يَعْقِلُها إِلاّ العالمُون﴾**.[٤]

ويبيّن انّ شر الدّواب هـو الإنسان الذي أغلق عقله وأعـدم تفكيره، يقول تعالى: **﴿إِنَّ شَرّ الدّوابِّ عِنْـدَ اللهِ الصُّمُّ البُكْمُ الَّذين لا يَعْقِلُون﴾**.[٥] إلى غير ذلك من الآيات الحاثّة على التعقّل.

---

١. الأنبياء:٢٤.

٢. البقرة:٢٤٢.

٣. الأنبياء:٦٧.

٤. العنكبوت:٤٣.

٥. الأنفال:٢٢.

أفهل يصحّ تخصيص هذه الآيات بالتعقّل في أُمـور الدنيا ومعاش الإنسان وما حوله من العلوم الطبيعية والفلكية فقط؟ أو أنّ مقتضى إطلاقها، هو التفكير في الطبيعة ومابعدها؟

فلـو صحّ ما يقـوله علماء السلف:«إنّما أُعطينـا العقل لإقامـة العبوديـة لا لإدراك الربـوبية، فمن شغل مـا أُعطي لإقامـة العبوديـة بإدراك الربـوبية فـاتته العبودية ولم يدرك الربوبية».[1]

فلو صحت هذه الجملة فمَن المخـاطب إذن بهذه الآيات التي تحتوي على براهين مشرقة؟!

﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الخالِقُون﴾.[2]

﴿لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلاّ الله لَفَسَدتا فَسُبحانَ الله رَبِّ العَرْش عَمّا يَصِفُون﴾.[3]

﴿ مَا اتّخذَ الله مِنْ وَلَدٍ وَما كانَ مَعَهُ مِنَ إِلهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلهٍ بِما خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ سُبْحانَ اللهِ عَمّا يَصِفُون﴾.[4]

إلى غير ذلك من الآيات التي وردت فيهـا أُصول المعـارف الإلهية التي تقع وراء الحس والطبيعة.

ثمّ إنّـه سبحانـه يأمـر بالشكـر بعـدما يـذكّـر ببعض مواهبـه من السمع والأبصار والأفئدة ويقول سبحانه: **﴿وَاللهُ أَخرجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمّهاتِكُمْ لاٰ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمعَ وَالأَبْصارَ وَالأَفئِدَة لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُون﴾**.[5]

---

١. الإثبات والتفويض لرضا نعسان معطي، نقلاً عن الحجة في بيان المحجة:٣٣ .

٢. الطور:٣٥. ٣. الأنبياء:٢٢.

٤. المؤمنون:٩١.

٥. النحل:٧٨.

والمراد من الشكر في ذيل الآية صرف النعمة في مواضعها، فشكر السمع والبصر هو إدراك المسموعات والمبصرات بهما، وشكر الفؤاد هو درك المعقولات وغير المشهودات به، فالآية تحرّض على استعمال الفؤاد والقلب والعقل في ما هو خارج عن إطار الحس وغير واقع في متناول أدواته.

ولأجل ذلك يتّخذ القرآن لنفسه في هذه المجالات موقف المعلِّم فيعلّم المجتمع البشري كيفية إقامة البرهنة العقلية على توحيده سبحانه في أمر الخلقة والتدبّر.

بالله عليك أيّها القارئ اقرأ الآيات التالية، ثمّ احكم بنفسك، هل يمكن لإنسان أن يقف على مغزاها بلا تفكير وتعقّل مبني على أُصول متعارفة أو موضوعة؟ فلو أعطينا العقل لإقامة العبودية لا لإدراك (مشاهد) الربوبية فماذا تهدف هذه الآيات التي أمرنا بالتدبّر فيها؟!

﴿نَحْنُ خَلَقْناكُمْ فَلولا تُصدِّقُونَ* أَفرَأيتم ماتُمْنُون* ءَأَنْتُمْ تَخلقونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخالِقُونَ*نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ*عَلىٰ أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ في ما لا تَعلَمُونَ* وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشأَةَ الأُولىٰ فَلولا تَذَكَّرُونَ* أَفرأَيْتُمْ مَاتَحْرُثُونَ* ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ* لَوْ نَشاءُ لَجَعَلْناهُ حُطاماً فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ* إِنَّا لَمُغْرَمُونَ* بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ* أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ* ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ* لَوْ نَشاءُ جَعَلْناهُ أُجاجاً فَلَوْلا تَشْكُرُونَ* أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الّتي تُورُونَ* ءَ أَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئونَ﴾.[١]

رغم انّ علم الكلام الذي هو من أفضل مظاهر التفكير، كان ضرورة زمنية دعت المخلصين الغيارى من علماء الإسلام إلى تدوينه ونشره حتّى يقوم الجيل

١. الواقعة:٥٧ـ٧٢.

الحاضر بالدفاع عن حياض الشريعة بقوة وحماس، ترى أنّ أكثر التابعين وحتّى أئمّة الفقه يعارضون علم الكلام بل يحرمونه، فهذا هو مالك والشافعي وأحمد بن حنبل وسفيان الثوري ذهبوا إلى رفض علم الكلام ومهاجمة المتكلمين.

فقد نقلوا عن الشافعي قوله في أثناء موته: لو علم الناس ما في الكلام من الأهواء لفرّوا منه فرارهم من الأسد.

وأمّا أحمد بن حنبل فقد استخدم في حقهم لفظ الزنادقة.

وأمّا مالك فقد رفض الكلام والمتكلّمين بحجة انّهم قوم على استعداد أن يغيّروا دينهم وفقاً للبراهين التي تعرض لهم أو تعرض عليهم، فقال: أرأيت إن جاء عالم الكلام من هو أجدل منه أيدع دينه كلّ يوم، لدين جديد.[1] إلى غير ذلك من الكلمات المروية عن التابعين وتابعي التابعين.

وهذا هو الإمام الأشعري لما عدل عن منهج الاعتزال والتحق بمذهب الإمام أحمد لم يحتفل به أصحاب الإمام أحمد .

قال عبد الله الحمراني : لمّا دخل الأشعري بغداد جاء إلى البَربهاري فجعل يقول: رددتُ على الجبائي وعلى أبي هاشم، ونقضت عليهم وعلى اليهود والنصارى والمجوس وقلت وقالوا؛ وأكثرَ الكلامَ، فلمّا سكت قال البربهاري: وما أدري ما قلت لا قليلاً ولا كثيراً، ولانعرف إلاّ ما قاله أبو عبد الله أحمد بن حنبل. قال: فخرج من عنده وصنف كتاب «الإبانة» فلم يقبله منه، ولم يظهر ببغداد إلى أن خرج منها.[2]

وقد اشتهر ذمُّ علم الكلام على لسان الذين عطلوا تفكيرهم وكرّسوا

---

١. علم الكلام ومدارسه: ٥١ـ٥٢.

٢. تبيين كذب المفتري: ٣٩١.

جهودهم بنقل الحديث دون وعيه ودرايته،و قد نُقلت في هذا المقام كلمات عن السلف نظير ما نقلناه. ولا بأس بذكر بعضها:

نقل ابن الجوزي بسنده عن الوليد بن أبان الكرابيسي أنّه قال لبنيه لما حضرته الوفاة: تعلمون أحداً أعلم بالكلام منّي ؟ قالوا: لا، قال: أفتتهمونني؟ قالوا: لا، قال: فإنّي أُوصيكم أتقبلون؟ قالوا: نعم، قال: عليكم بما عليه أصحاب الحديث فإنّي رأيت الحقّ معهم.

ونقل أيضاً عن إمام الحرمين أنّه كان يقول: لقد جُلْت أهل الإسلام جولة وعلومهم وركبتُ البحرَ الأعظم، وغصت في الذين نهوا عنه كلّ ذلك في طلب الحقّ وهرباً من التقليد، والآن فقد رجعت عن الكلّ إلى كلمة الحق، عليكم بدين العجائز، فإن لم يدركني الحق بلطيف برّه فأموت على دين العجائز ويختم عاقبة أمري عند الرحيل بكلمة الإخلاص فالويل لابن الجويني.

وكان يقول لأصحابه: يا أصحابنا، لا تشتغلوا بالكلام، فلو عرفتُ أنّ الكلام يبلغ بي ما بلغ ما تشاغلت به.

وقال أبو الوفاء ابن عقيل لبعض أصحابه: أنا أقطع أنّ الصحابة ماتوا وما عرفوا الجوهر والعرض، فإن رضيتَ أن تكون مثلهم فكن، وإن رأيتَ انّ طريقة المتكلّمين أولى من طريقة أبي بكر وعمر فبئس ما رأيت، وقد أفضى الكلام بأهله إلى الشكوك وكثير منهم إلى الإلحاد، تشم روائح الإلحاد من فلتات المتكلّمين، وأصل ذلك انهّم ما قنعوا بما قنعت به الشرائع وطلبوا الحقائق وليس في قوة العقل إدراك ما عند الله من الحكمة التي انفرد بها ولا أخرج الباري من علمه لخلقه ما علمه هو من حقائق الأُمور.[1]

---

١. انظر للوقوف على مصادر هذه الكلمات تلبيس إبليس:٨٢ـ ٨٣،ط دار القلم، بيروت.

هذه كلماتهم في ذم التعقّل والتفكّر وكم لها من نظير، وعلى القارئ الكريم أن يعرض كلماتهم على الذكر الحكيم حتّى يتبين الحقّ من الباطل، وأن يكون رائده إلى الحق كلامه سبحانه لا كلمات القوم.

مضاعفات تعطيل العقول عن التفكير

إنّ تعطيل العقول عن المعارف الإلهية بين أهل الحديث أو صنف منهم جرّهم إلى القول بالتشبيه والتجسيم باطناً و إن أنكروه ظاهراً، يقول ابن تيمية محيي الدعوة السلفية في القرن الثامن: أهل السنّة والجماعة يؤمنون بما أخبر الله به في كتابه من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، بل هم الوسط في فرق الأُمة كما أنّ الأُمّة هي الوسط في الأُمم، فهم وسط كما في باب صفات الله سبحانه وتعالى بين أهل التعطيل الجهمية وأهل التمثيل (المشبهة).[1]

والقارئ الكريم يتصوّر أنّه مشى على هذا الأصل إلى آخر كتابه، ولكنّه يقف على أنّه سرعان ما انقلب على وجهه وارتد على أدباره وغرق في التشبيه والتجسيم ونادى به وقال:

«وممّا وصف الرسول به ربّه في الأحاديث الصحاح التي تلقاها أهل المعرفة بالقبول ووجب الإيمان به قوله ﷺ :ينزل ربّنا إلى سماء الدنيا كلّ ليلة حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول: من يدعوني فاستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ ومن يستغفرني فاغفر له؟ وقوله : يضحك الله إلى رجلين، أحدهما يقتل

١ . مجموعة الرسائل والمسائل: ٤٠٠.

الآخر كلاهما يدخل الجنة. وقوله: لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول هل من مزيد حتّى يضع ربّ العزة فيها قدمه ينزوي بعضها إلى بعضه، وتقول: قط قط. وهذه الأحاديث متفق عليها.[١]

نحن نسأل «ابن تيميّة» و من لفّ لفّه: هل هو يأخذ بظواهر هذه الأحاديث التي لو وردت في حقّ غيره سبحانه لقطعنا بكونه جسماً، كالإنسان له أعضاؤه، أو يترك ظواهرها و يحملها على غيرها؟ فعلى الأوّل يقع في مغبّة التشبيه، و على الثاني يقع في عداد المؤوّلين و هو يتبرّأ منهم.

وأمّا الأخذ بظواهرها لكن بقيد «بلاتكييف» و «لاتشبيه» ـ فمضافاً إلى أنّه لم يرد في النصوص ـ يوجب صيرورة الصفات مجملة غير مفهومة، فإنّ واقعيّة النزول و الضحك و وضع القدم، إنّما هي بكيفيتها الخارجيّة، فحذفها يعادل عدمها. فما معنى الاعتقاد بشيء يصير في نهاية المطاف أمراً مجملاً و لغزاً غير مفهوم؟ فهل يجتمع هذا مع بساطة العقيدة و سهولة التكليف التي تتبنّاها السلفيّة في كتبهم؟!

فلو صحّ تصحيح هذه الأحاديث و الصفات الجسمانية بإضافة قولهم «بلاتمثيل» فليصحّ حمل كلّ وصف جسماني عليه بإضافة هذا القيد بأن يقال: الله سبحانه جسم لاكهذه الأجسام، له صدر و قلب لاكمثل هذه الصدور و القلوب، إلى غير ذلك مما ينتهي الاعتقاد به إلى نفي الإله الواجب الجامع لصفات الجمال و الجلال.

إنّ إقصاء العقل عن ساحة العقائد و تفسير القرآن و الحديث، لايُنتج إلا إجلاسه سبحانه على عرشه فوق السماوات، يقول «ابن قتيبة» ــ المدافع عن

---

١. نفس المصدر:٣٩٨ـ٣٩٩.

الحشوية و أهل الحديث ـ في تفسير قوله: ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمٰواتِ وَ الأَرْض ﴾ يستوحشون أن يجعلوا لله كرسيّاً أو سريراً و يجعلون العرش شيئاً آخر، و العرب لاتعرف العرش إلا السرير، و ما عُرِش من السقوف و الابار. يقول الله ﴿وَ رَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى العَرْشِ ﴾ أي على السرير.

و أُميّة بن أبي الصلت يقول:

مَجّدوُا الله و هو للمجد أهل
ربّنا في السماء أمسى كبيراً
بالبناء الأعلى الذي سبق النا
س وسوّى فوق السماء سريرا
شرجعا [1] ما يناله بصر الـ
ـعين ترى دونه الملائك صورا [2][3]

ترى أنّه يصور الله سبحانه ملكاً جبّاراً جالساً على عرشه، و الخدم دونه ينظرون إليه بأعناق مائلة، و هو يتبجّح بذلك تبجّح المتكبّر باستصغار الناس و ذلتهم.

و يقول أيضا:

«كيف يسوغ لأحد أن يقول: إنّه بكلّ مكان على الحلول مع قوله: ﴿ اَلرَّحْمٰن عَلٰى الْعَرْشِ اسْتَوىٰ ﴾ أي استقر، كما قال: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ

١. أي طويلاً.
٢. جمع «أصور» و هو المائل العنق.
٣. تأويل مختلف الحديث: ٦٧.

أَنْتَ وَ مَنْ مَعَكَ عَلَى الفُلْكِ ﴾أي استقررت .

و مع قوله تعالى : ﴿ **إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ** ﴾ .

كيف يصعد إليه شيء هو معه أو يرفع إليه عمل و هو عنده .[١]

ثم إنّه يستشهد بكونه سبحانه في السماء بما ورد في الحديث :

« إنّ رجلاً أتى رسول الله بأمة أعجميّة ، للعتق ، فقال لها رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم : أين الله تعالى؟

فقالت : في السماء ، قال : فمن أنا؟ قالت : أنت رسول الله ، فقال(عليه السلام) : هي مؤمنة ، و أمر بعتقها .[٢] فقد غاب عن «ابن قتيبة» إنّ المراد من كونه سبحانه بكلّ مكان ليس هو حلوله فيه ، بل المراد أنّ العالم بكلّ أجزائه وذرّاته قائم به قيام المعنى الحرفي بالمعنى الاسمي و انّ وجوده سبحانه وجود فوق الزمان و الزمانيّات و المكان و المكانيّات ، غني عنهما ، لايحتاج إليهما ، بل هو الخالق لهما .

و أمّا الحديث الذي استدلّ به فليس فيه دلالة على تصديق رسول الله بكلّ ما تعتقده الأمة ، بل انّه صلّى الله عليه و آله و سلّم اكتفى بما أظهرت من الاعتقاد الساذج بوجوده سبحانه و نبوّة نبيّه و إن أخطأت في الحكم بأنّه في السماء و لم تكن الظروف ـ إذ ذاك ـ تساعد ، لتفهيمها إنّه سبحانه منزّه عن المكان و الزمان و الجهة ، و إنّه ليس جسماً و لاجسمانياً حتى يحلّ في السماء .

على أنّ الرواية ، نقلت بصور مختلفة أوضحنا حالها في رسالة خاصة .

---

١ . نفس المصدر : ٢٧١ .

٢ . المصدر نفسه : ٢٧٢ .

٥

شبهات منكري علم الكلام

قد عـرفت أنّ التفكير فريضة إسـلامية وانّ الإنسان بطبعـه يفكِّر وينقض ويبرم ويتطلّع إلى مـوضوعات قـابلة للتفكير فيطلب إجـابة حاسمـة لها، ومع ذلك نرى أنّ أُنـاساً يعدُّون من طبقة المحـدِّثين ينكرون علم الكلام وينـددون به تحت غطاء شبهات نذكرها تباعاً: [1]

١. لو كان المنطق طـريقاً موصلاً، لم يقع الاختـلاف بين أهل المنطق، لكنّا نجدهم مختلفين في آرائهم.

يلاحظ عليه: أنّ القـائل استخـدم المنطق في إبطال المنطق، فإنّ مـا ذكـره قيـاس استثنـائي حيث قـال: لكنّـا نجـدهم مختلفين فـاستنتج بأنّ المنطق ليس طريقاً موصلاً.

أضف إلى ذلك انّ معنى كون المنطق آلـة للاعتصام، هو انّـه لو استعمل استعمالاً صحيحاً يعصم من الخطأ، وأمّا انّ كلّ مستعمل له، يستعمله صحيحاً

---

١. نقل قسماً من هذه الشبهـات، السيد الطباطبائي في الجزء الخامس من كتـاب الميزان، فلاحظ ص ٢٥٦ ـ ٢٧١، طبعة بيروت.

فـلا يـدّعيه أحـد، وهـذا نظير مـا يقـال: انّ السيف آلـة القطع، ولكن ليس كلّ مستعمل يستعمله، يترتّب عليه القطع.

٢. انّ هـذه الأُصـول إنّما روِّجت بين النـاس لصرف النـاس عن اتّبـاع الكتاب والسنّة أو لصدّهم عن باب أهل البيت، فيجب علينا الاجتناب.

يلاحظ عليه: أنّ المتكلّم لا يـدّعـي الاستغنـاء عن الكتـاب والسنّـة، بل الكتاب والسنّة الصحيحـة أحد الطرق إلى معرفة الحقـائق، وإنّما يستعان بالعقل أيضاً إمّا لدعم ما يستفاد منهما، أو لدفع الإشكال عنهما، أو لإثبات ما لا يستفاد منهما حسب فهمنا .كيف وأئمّـة أهل البيت هم الذين فتحوا باب التفكّـر بوجه الأُمّة؟!

٣. لا حاجة إلى آثار الكفّار والملاحدة مع وجود الكتاب والسنّة.

يلاحظ عليه: أنّ مـا نُقـل عن الحكماء يشتمل على الصحيـح والخطأ، والحسن والسيِّئ، والقرآن يدعو إلى أخذ الحسن دون السيِّئ، لا إلى رفض الجميع، يقول سبحانه: **﴿فَبَشِّرْ عِبادِ* الَّذينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَول فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَه أُولئكَ الَّذِينَ هَداهُمُ اللهُ وَأُولئك هُمْ أُولُوا الأَلْباب﴾**.[1]

وثمّة آيـات وروايات كثيرة تـؤكّد هـذا المعنى، ولا ريب في أنّ القـرآن هو الداعي إلى تعلم العلوم والأخذ بأحسنها وردّ سيّئها.

وبعبارة أُخرى: انّ الكتاب والسنّة يحثّان الإنسان على التوسع في استعمال الطرق العقلية الصحيحة، أعني: المقدّمات البديهيّة أو المنتهية إليها لتمييز الفكرة الصحيحة عن السقيمة، سواء كانت الفكرة شرقية أم غربية.

٤. انّ طريق السلف الصالح كان مبايناً لطريق الكلام والفلسفة والعرفان،

---

١. الزمر:١٧ـ ١٨.

وكانوا يستغنون بالكتاب والسنّة عن استعمال الأُصول المنطقية والعقلية.

يلاحظ عليه: أنّ السلف الصالح لم يكونوا على وتيرة واحدة، فعليّ عليه السلام وأهل بيته وشيعتهم ولفيف من أهل السنّة يرون التفكير فريضة إسلامية، وكانوا يخوضون في بحار المعارف ويستدلّون بالأقيسة الصحيحة على النتائج.

وأصحّ دليل على ذلك خطب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام واحتجاجات تلاميذه وتابعيه.

والحاصل: انّ رائدنا في الخوض في المباحث العقلية، هو قوله سبحانه: **﴿أدعُ إلى سَبيلِ ربّكَ بِالحِكْمَةِ وَالمَوعِظَةِ الحَسَنَةِ وجادِلْهُمْ بِالّتي هي أَحسَن﴾**.[١] فما هو المراد من الحكمة؟ فهل هي كلّ كلام أو فكر مقرون بالبرهان أو الدليل كما أنّ المراد من الجدل هو الاحتجاج على الخصم بأقواله؟

٥. وقال أبو الوفاء ابن عقيل لبعض أصحابه: أنا أقطع انّ الصحابة ماتوا وما عرفوا الجوهر والعرض، فإن رضيت أن تكون مثلهم فكن، وإن رأيت انّ طريقة المتكلّمين أولى من طريقة أبي بكر وعمر فبئس ما رأيت.[٢]

يلاحظ عليه: أنّ معنى ذلك إيقاف ركب العلم عن التقدّم، فلا شكّ انّ العلوم الكونية قد تقدّمت وكشفت عن مكامن وقوانين لم تكن معروفة للصحابة، أفيصحّ ـ في منطق العقل ـ رفض هذه العلوم بحجّة انّ الصحابة كانوا يجهلونها؟! لا أدري متى أصبحت طريقة الصحابة محوراً للحقّ ومعياراً لتمييز الصحيح عن الفاسد... والقرآن يدعو إلى التفكير في السماوات والأرض ويقول: **﴿أَوَ لَمْ يَنْظُروا في مَلَكُوتِ السَّمٰواتِ والأَرض﴾**[٣]، ويقول: **﴿أَفَلَمْ يَنْظُروا إِلى السَّماءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ**

---

١. النحل:١٢٥.

٢. تلبيس إبليس:٨٣، مرّ نقل ذلك أيضاً في ص٢٣.

٣. الأعراف:١٨٥.

﴿بَنَيْناها وَزَيَّنَّاها﴾[١] إلى غير ذلك من الآيات الحاثّة على التفكير في عالم المادة.

٦. انّ العقـول بريئـة أصحّ البراءة وأوضحهـا عمّا ادّعـوا عليها مـن معرفـة وجوب مـا لم يرد بـه كتاب من الله تعـالى، ومن معـرفة صحّة مـا ينـاقـض الآيات القرآنية، فانّه قد وضح للمحقّقين مـن نظار العقلاء وأذكيائهم انّه لا تعارض بين صحيح السمع وصحيح العقل، وانّ أصل البدع كلّها يوهم التعارض بينهما .[٢]

وحاصل الشبهة يرجع إلى أمرين:

أ. عدم وجوب معرفة ما لم يرد به كتاب من الله تعالى.

ب. انّ العقول بريئة من معرفة صحّة ما يناقض الآيات القرآنية.

يلاحظ على الأوّل: بأنّ المتكلّم ـ في مجال العقـائد ـ لا يهمُّـه إلاّ معرفـة ما جاء في الكتاب والسنّـة معرفة علمية لا تقليدية، فهـو عندما يتلو قولـه سبحانه: ﴿وَما كـانَ مَعَهُ من إلـهٍ إذاً لَذَهَبَ كُلُّ إلهٍ بِما خَلَـقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلىٰ بَعْض﴾[٣] يريد أن يفهم مغـزى هذه الآية بتحاليل عقلية، فلا هدف للمتكلّـم إلاّ معرفة ما ورد في كتاب الله وسنّة نبيّه، لكن معرفة رعاية لا معرفة رواية.

وأمّا في غير مجال العقائد فالقرآن ليس كتاباً في العلوم الطبيعية أو الرياضية أو الفلكية لكي تغنينـا دراسته عن دراسة سائر العلـوم، ولو قلنا بمقالـة القائل لوجب إغلاق كافة المراكز العلمية.

وأنّى لنا نسبة هذه الفكرة إلى الإسلام وهذا كتابه المجيد يتحدّث فيما يرجع إلى العلم قرابة ٨٠٠ مرة، أفيصحّ أن نرمي الإسلام بأنّه يصدُّ أبناءه عن دراسة ما ليس في كتابه؟!

---

١. ق:٦.

٢. إيثار الحق على الخلق:١١٢.

٣. المؤمنون:٩١.

ويلاحظ على الثاني: أنّه يمتنع التعارض بين القطعيين، وقد حقّقنا في محلّه انّه لابدّ في تعارض العلم مع القرآن الكريم من ملاحظة أمرين: إمّا القول بأنّ ما أثبته العلم ليس علماً بل تخيّل، أو انّ ما نفهمه من القرآن ليس فهماً صحيحاً، وإلاّ فيمتنع التعارض بين القطعيين.

٧. انّ علم الخلائق في (علم الله) مثلُ لا شيء في جنب ما لا نهاية له، والقصد، انّ من عُرف منه الخطأ في الجليات فكيف يكون حاله متى خاض في هذه الخفيات، وتَرَك عبارات الحق الذي نصّ على أنّها لا تُبدل كلماته، وأنّه لا معقِّب لحكمه، وانّ كتابه لو كان من عند غيره لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً، وانّه نور وشفاء وهدى لا ريب فيه، فكيف تترك عبارات هذا المعجز الباهر وتبدل بعبارات من لا عصمة له عن الخطأ بل عن القبائح والكفر».[1]

يلاحظ عليه: أنّ المتكلّم لا يدّعي أنّ علمه يساوي علم الله سبحانه، إذ لا يتكلّم بذلك إلاّ المجنون، كيف وهو يقرأ في كتابه العزيز: ﴿**وَما أُوتِيتُم مِنَ العِلْمِ إلاّ قَليلاً**﴾.[2]

ثمّ إنّ المتكلّم في العقائد الدينية لا يهدف إلى إيثار عبارات الآخرين على عبارات المعجز الباهر (فأين التراب من رب الأرباب؟!) وإنّما يريد أن يستثمر العقل الذي وهبه الله سبحانه لهذا الموجود فيسلّط الضوءَ على آفاق وآفاق، ليتعرف على أحكامها من الإمكان والوجوب والامتناع، وأين ذلك من ترك كتاب الله؟!

وحصيلة الكلام: انّ ما كتبه ابن الجوزي في «تلبيس إبليس» و ابن الوزير

---

١. إيثار الحق على الخلق:١٣٨، ط دار الكتب العلمية، بيروت.

٢. الإسراء:٨٥.

في«إيثار الحق على الخلق» وما جمعه مؤلف «علاقة الإثبات والتفويض» [١] من كلمات المنتمين إلى السلف، كلّها مشاغبات ومناظرات في غير محلّها، تكشف عن أنّ هؤلاء لم يَمسّوا كتاباً كلامياً، ولم يناظروا متكلّماً إسلامياً.

إنّ الإسلام دين عالمي تكلّم في الكون والتشريع بأبسط الوجوه، ومن المعلوم أنّ خصومه يتربّصون به الدوائر فيثيرون عجاجة الشبهات على أُصوله وفروعه بين حين وآخر، وطبيعة الحال تقتضي أن يكون هناك علماءٌ أفذاذ محيطون بمنطق الخصم وحقيقة الإسلام، ليردّوا عنه سهام الأعداء ، ويصونوا المسلمين من الوقوع في مصائد هؤلاء، والمتكلّم هو ذلك الإنسان الرسالي المدافع بمنطقه وأُسلوبه عن كيان الإسلام وعقيدة المسلمين بأساليب مختلفة و في كلّ زمان.

فلو ترك الإسلام دون أن يناظر في أُصوله وفروعه لاعتراه الوهن وخَمَد نوره، وانطلاقاً من ذلك صار علم الكلام ضرورة زمنية ملحة.

نعم إنّ العقيدة الإسلامية التي هي عصارة الكتاب العزيز، والسنّة النبوية ، بنيان مرصوص لا تتزعزع بالترّهات والشبهات ، فهي كالجبل الراسخ لا تحركه العواصف .

نعم العقيدة الإسلامية ـ كما وصفت ــ لها رصيدها الغيبي ، وهي مستقاة من الوحي الذي لا يتطرق إليه الخطأ .

لكن الذي يُحَفِّز المفكر الإسلامي على مزاولة علم الكلام ومدارسته ، والتطلّع إلى سائر المدارس البشرية أو الإلحادية ، هي أُمور نشير إليها إجمالاً:

١ . انّ المجتمع البشري صار ـ اليوم ــ كقرية واحدة ، والمسلمون يعيشون في أجواء وثنايا التيارات المتضادة وهم ليسوا ببعيدين عن أصحاب

---

١. طبع بمكة، وقدّم له ابن باز.

العقائد المختلفة، ومن الواضح انّ التعايش على صعيد واحد، يستلزم احتكاكات ثقافية، وتبادل أفكار و معلومات، الأمر الذي يُفضي إلى اختلاط الآراء الحقة بالدعاوي الباطلة التي تناقض العقيدة الإسلامية، ففي مجال تمحيص الحق، واستخلاصه من دنيا الباطل، لا محيص عن علماء واعِين يفرزون الأفكار الإسلامية الصحيحة، عن غيرها من الأفكار السقيمة، والأُصول الصحيحة عن الأُصول الباطلة بطرق علمية.

٢. لم يزل أصحاب الديانات الباطلة ـ بعد أن قبض النبي ﷺ ـ يسعون إلى طرح شبهات و إثارة تشكيكات فيما نزل به القرآن الكريم ودعا إليه النبي الأكرم، بُغية إزالة الإيمان عن قلوب المؤمنين، كما هو واضح لمن قرأ تاريخ الإسلام، ومكافحة علمائه مع الملحدين في الأدوار المختلفة، خصوصاً في أواخر العصر الأموي وأوائل العصر العباسي حيث تمتعت اليهود والنصارى والأسرى بحرّية تامة في بيان العقائد ونشر الآراء و المعتقدات وبثّ الشكوك والشبهات بأمان وحرية كاملة.

وهذا هو مفضل بن عمر الجعفي الكوفي الذي عاصر الأئمّة الأربعة من الباقر إلى الرضا عليه السلام يشرح لنا مدى الحرية التي نالها أصحاب المدارس الإلحادية في ذلك العصر ويقول:

كنت ذات يوم بعد العصر جالساً في الروضة بين القبر والمنبر وأنا مفكِّر فيما خصّ الله تعالى به سيّدنا محمّداً ﷺ، من الشرف والفضائل، وما منحه وأعطاه وشرّفه وحباه، ممّا لا يعرفه الجمهور من الأُمّة وما جهلوه من فضله وعظيم منزلته، وخطير مرتبته، فانّي لكذلك إذ أقبل «ابن أبي العوجاء» فجلس بحيث أسمع كلامه، فلمّا استقرّ به المجلس إذا رجل من أصحابه قد جاء فجلس إليه،

فتكلّم «ابن أبي العوجاء» فقال: لقد بلغ صاحب هذا القبر العز بكماله، وحاز الشرف بجميع خصاله، ونال الحظوة في كلّ أحواله؛ فقال له صاحبه: إنّه كان فيلسوفاً ادّعى المرتبة العظمى، والمنزلة الكبرى، وأتىٰ على ذلك بمعجزات بهرت العقول، وضلّت فيها الأحلام، وغاصت الألباب على طلب علمها في بحار الفكر، فرجعت خاسئات وهي حُسَّر، فلمّا استجاب لدعوته العقلاء والفصحاء والخطباء، دخل الناس في دينه أفواجاً، فقرن اسمه باسم ناموسه فصار يهتف به على رؤوس الصوامع، في جميع البلدان والمواضع التي انتهت إليها دعوته، وعلتها كلمته، وظهرت فيها حجته براً و بحراً، سهلاً و جبلاً، في كلّ يوم وليلة خمس مرّات مردداً في الأذان والإقامة، ليتجدد في كلّ ساعة ذكره، ولئلاّ يخمل أمره.

فقال «ابن أبي العوجاء»: دع ذكر محمد ﷺ فقد تحيّر فيه عقلي، وضلّ في أمره فكري، وحدثنا في ذكر الأصل الذي يمشي به... ثمّ ذكر ابتداء الأشياء، وزعم أنّ ذلك بإهمال لا صنعة فيه ولا تقدير، ولا صانع ولا مدبّر، بل الأشياء تتكون من ذاتها بلا مدبّر، وعلى هذا كانت الدنيا لم تزل ولا تزال!

محاورة المفضل مع ابن أبي العوجاء

(قال المفضل): فلم أملك نفسي غضباً وغيظاً و حنقاً، فقلت: يا عدو الله ألحدت في دين الله، وأنكرت الباري جلّ قدسه الذي خلقك في أحسن تقويم، وصوّرك في أتمّ صورة، ونقلك في أحوالك حتّى بلغ إلى حيث انتهيت.

فلو تفكّرتَ في نفسك وصدقك لطيف حسّك، لوجدت دلائل الربوبية وآثار الصنعة فيك قائمة، وشواهده جلّ وتقدّس في خلقك واضحة، وبراهينه لك لائحة.

فقـال: يـا هـذا إن كنت من أهل الكـلام كلّمنـاك، فإن ثبتت لك حجّـة تبعناك، وإن لم تكن منهم فلا كلام لك، وإن كنـت من أصحاب جعفر بن محمد الصادق فما هكذا يخاطبنـا، ولا بمثل دليلك يجادلنا، ولقد سمع من كـلامنا أكثر ممّـا سمعت، فما أفحش في خطـابنا، ولا تعـدى في جـوابنا وانّـه الحليم الـرزين، العاقل الرصين، لا يعتريه خرق ولا طيش ولا نزق، يسمع كلامنا، ويصغي إلينا، ويتعرف حجّتنـا، حتّى إذا استفرغنا ما عنـدنا، وظننّا إنّا قطعنـاه، دحض حجّتنا بكلام يسير، وخطاب قصير، يلـزمنا به الحجة، ويقطع العـذر، ولا نستطيع لجوابه رداً، فإن كنت من أصحابه فخاطبنا بمثل خطابه.

خروج المفضل من المسجد

قال المفضل: فخـرجت من المسجد محزوناً مفكّراً فيما بلي بـه الإسلام وأهله من كفر هذه العصابـة وتعطيلها، فدخلت على مولاي عليه السلام فرآني منكسراً، فقال: مـالك؟ فأخبرته بما سمعت من الـدهـريّين وبما رددت عليهما. فقال: يـا مفضل لألقين عليك من حكمـة البـاري جلّ وعـلا و تقـدّس اسمـه في خلق العـالم، والسباع، والبهـائم، والطير، والهوام، وكلّ ذي روح من الأنعام والنبـات والشجرة المثمرة، وغير ذات الثمـر والحبوب، والبقول، المأكول من ذلك وغير المأكـول، ما يعتبر به المعتبرون، ويسكن إلى معرفته المؤمنون، ويتحيّر فيه الملحدون، فبكّر عليّ غداً.[1]

ثمّ إنّ الإمـام أملى عليه دروسـاً في مجالس أربعـة، شرح فيهـا برهـان النظم التوأم مع وجـود الهادفية في عالم الكـون المنظّم، وقد طبعت باسم تـوحيد المفضل

---

١. توحيد المفضل:٣٩ـ٤٣، ط النجف الأشرف مع تقديم كاظم المظفر؛ بحار الأنوار:٣/ ٥٧.

غير مرّة، وترجمت إلى عدة لغات.

فلولا هـذه الشموس المضيئة والأقمار المنيرة لغطت ظلمة البـاطل الأقطار كلّها،وأصبحت كلمة التوحيد كحديث أمس الدابر لا ترى منها أثراً.

وقـد أخبر الرسـول عن هؤلاء الـرجال الغيـارى على الإسلام الـذابين عن أُصوله وفروعه في حديثه الذي رواه الكشي في رجاله قال:

يحمل هـذا الدين في كلّ قـرن عـدول ينفون عنـه تأويل المبطلين وتحريف الغالين وانتحال الجاهلين كما ينفي الكير خَبَث الحديد.[1]

ففي هـذا الجوّ الذي يتـدرّع فيه الخصم ــ اليـوم ـ بسـلاح العلم، ويشن الهجوم على عقـائدنا ومقـدّساتنـا، لا محيص من التدرّع بنفس السـلاح حتّى يُردّ الحجر من حيث جاء.

ونعم مـا قالـه المصلح السيـد شرف الدين العـاملي:«لا يأتي الهدى إلاّ من حيث أتت الضلالة».

وقد دخل الإمـام الصادق من حيث دخل ابن أبي العوجـاء وحلّ شبهته، على الأُصول التي اعتمد عليها ضمن مجالس أربعة.

٣. ولو شك باحث في لزوم دراسة المذاهب والمدارس العقائدية في الحقب الغابـرة، فلا يرتـاب في لزومه في العصر الراهن الـذي تطورت فيه أجهـزة الإعلام والاتصالات الـلاسلكية، وتوفر فيـه البث المباشر عبر الأقمار الصناعيـة، فتُحاك الشبهة في الغرب في ساعة وتُبثّ بعد دقيقة في الشرق وتعمّ العالم كلّه.

ومن هنا تفرض المسؤولية على المسلم الغيور أن يلمّ بعلم الكلام وقواعده

---

١. رجال الكشي:ص١٠.

ليشكل سداً منيعاً أمام التيارات الهدّامة للدين.

ويطيب لي ذكر ما أبرق به شيخ إسلام العثمانيين ـ قبل غَلَبة العلمانيّة ـ إلى المرجع الأعلى في النجف الأشرف الشيخ محمد كاظم الخراساني (١٢٥٥ـ ١٣٢٩هـ) وحاصل البرقية أنّ هذا السيل الجارف باسم الحضارة الحديثة انطلق من الغرب إلى الشرق إذا لم يكن أمامه سدّ منيع، سيطيح بالدين الإسلامي والحضارة الإسلامية.

وهذا ما أبرق به عام ١٣٢٧هـ، فما هو هذا السد الذي سيقف أمام هذا التيار الزاحف؟ إنّه ليس إلاّ دعم العقيدة الإسلامية ومكافحة الأُميّة بالاسلوب العلمي، وهو ما نعبّر عنه بعلم الكلام والتفكير المنطقي.

القول الحاسم في المقام

إنّ هؤلاء ــ أي الذين يحرّمون الخوض في المعارف العقلية، ويقولون: إنّ واجبنا هو الإيمان والإقرار أو التلاوة والسكوت ـ خلطوا مرحلة الإيمان القلبي المطلوب من جميع الناس، بمرحلة الفهم والنظر العقلي الذي لا يقوم به إلاّ الأماثل من الناس، وأصحاب المواهب والمؤهلات الفكرية الخاصة، وما ذكروه راجع إلى المرحلة الأُولى، فإنّ الإيمان المنقذ من الضلال والعذاب، هو الاعتقاد بصحّة ما جاء في الكتاب العزيز حول أسمائه وصفاته وأفعاله، حتى في مجالات الصفات الخبرية من اليد والوجه والعين والاستواء على العرش، وبما أنّ الأكثرية الساحقة لا يستطيعون فهم ما فيها من الدقائق والمعارف وربما يكون الخوض فيها منتهياً إلى ما لا يحمد، فإنّه يكفي لهم الإيمان والإقرار و الإمرار والسكوت، وما نقل عن الإمام مالك (المتوفّى١٧٩هـ): إيّاكم والبدع، قيل: يا أبا عبد الله ما

البـدع؟ قال: أصحـاب البدع هم الـذين يتكلّمـون في أسمائه وصفاتـه وكلامـه وعلمه وقدرته، و لا يسكتون عمّا سكت عنه الصحابة و التابعون لهم بإحسان .[١] لعلّه نـاظر إلى هـذه الطائفـة الذين لو خـاضوا فيهـا، فسدوا وأفسـدوا، ولم يأتوا بشيء.

وأمّا إذا انتُقل إلى المرحلة الثانية، أي مرحلة الفهم والدراية والبحث والنظر وصياغة العقـائد في ضوء الكتاب والسنّة والعقل، فلا يصحّ له الاكتفـاء بالإقرار والإمرار، فإنّ الاستطلاع أمـر طبيعيّ للبشر، وهو أحد الأبعاد الأربعة الـروحية له، فلا يمكن كبح جماح فهمه ونظره بحجّة أنّ الصحابة و التابعين سكتوا عنه، وكأنّ السلف هم القـدوة دون الـذكـر الحكيم، ودون النبي ﷺ وعترته الـذين تكلّموا فيهـا، وأضاءوا الطـريق لسـالكيـه، وكأنّ قوّة التفكير والنظـر والمواهب العقليـة المودعة في الإنسان خلقت سدىً وبلا غاية.

وهل يمكن أن يفـرض على عمالقـة الفكر وأصحـاب المواهب العقليـة أن يقفوا دون هذه المعـارف ويُطفئوا أنوار عقولهم ليصبحـوا كأجلاف البيداء لا همّ لهم سوى الأكل والشرب والسير طلباً للماء والعشب؟!

وعلى هذا فيجب تصنيف الناس إلى صنفين: قابل وغير قابل، مستعدّ وغير مستعـدّ، فلو صحّ الحرمـان فإنّما للسـوقـة من الناس دون مـن أُوتي تفكيراً قويـاً واستعداداً وقّاداً.

ثمّ إنّـه كما يجب تصنيـف النـاس، يجب تصنيف المسـائل بين مـا يمكن للإنسان الخوض فيه والرجوع عنها بفكـرة صحيحة، وما لا يمكن للإنسان دركه

---

١. الدكتـرر أحمد محمود صبحي: في علم الكلام:١/ ٢١ نقلاً عـن تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسـلامية، لمصطفى عبد الرازق:١٥٥، طبعة ١٩٤٤م.

وفهمه، فإنّ البحث عن ذاته سبحانه أمر غير ممكن، إذ ليس كمثله شيء حتى يعرف الذات به، ولأجل ذلك ورد النهي الأكيد عن البحث والجدال في ذاته، ومثله البحث عن حقيقة الوحي و النبوة، أو عن حقيقة الجنة والنار، إلى غير ذلك من الأُمور الغيبية التي لا يلمسها ولا يدركها إلاّ نبي يوحىٰ إليه أو إنسان خرج من الدنيا ودخل الآخرة، والواجب فيها الإيمان فقط، قال سبحانه: ﴿**الّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالغَيْبِ**﴾.[1] فإنّ الإنسان المحبوس في سجن المادة، لا يمكن له درك حقيقتها، و إن كان له حقّ البحث عن آثار الوحي والنبوة وخصائصهما.

أضف إلى ذلك انّه لا مفرّ للمانعين عن الخوض في المعارف القرآنية بل العقلية على الإطلاق، من سلوك أحد طريقين:

١. التلاوة والسكوت والإمرار والإقرار وتفويض معانيها إلى مُنزِّلها.

٢. الأخذ بظواهر الآيات الحرفية وتفسيرها بظواهرها الحرفية.

أمّا الأوّل فينتهي إلى تعطيل العقول عن المعارف وبالتالي يتنزّل الإنسان إلى حدّ الحيوان، وتكون وظيفة الحكيم العارف المقتدر على درك دقائق التوحيد ورقائقها، هي نفس وظيفة الجاهل البائل على عقبه، في مجال العقيدة والتفكير، وهو كما ترى.

وأمّا الثاني فهو ينتهي إلى التشبيه والتجسيم، وأقصى ما عند هؤلاء الذين يأخذون بالظواهر الحرفية هو ضمّ كلمة «بلا كيف ولا تمثيل» إلى مفاد هذه الآيات، فيقولون: إنّ لله يداً ورجلاً و عيناً واستواءً على العرش بنفس المعنى اللغوي، ولكن بلا كيف ولا تمثيل.

---

١. البقرة:٣.

يلاحظ عليه أوّلاً: أنّه لم تـرد تلك الجملة (بلا كيف) في نصّ قـرآني ولا سنّة نبوية، فمن أين لهم هذه الجملة وتفسير الآيات على ضوئها؟!

وثانياً: أنّ اليد وأضرابها موضـوعة حسب اللغة للأعضـاء المحسوسة، التي لها هيئـات ومواصفـات وهي مقـوّمـاتها، فإجـراؤها على الله سبحـانـه مع حفظ المقـوّمات، يستلـزم التشبيـه والتمثيل، ومع عـدمهـا، يستلزم التأويـل، فاليـد في ﴿**يَدُاللهِ فَوْقَ أَيديهِمْ**﴾ [1] إمّا مستعملة في اليد المحسوسـة فهو مثار التشبيه،وإمّا في غيرها فهو مثار التأويل الذي يفرّون منه فرار المزكوم من المسك.

وهذه المضاعفات ناشئة عن الجمـود على الظواهر الحرفية والأخذ بالظهور التصوّري، دون الظهـور التصديقي الـذي لا يخالف العقل قيد شعـرة في آية من الآيات.

إنّ الدعـوة السلفية التي أحدثت ضجـة في القرن الرابع عشر قـد طرحت الصفات الخبرية على صعيد البحث في الآونة الأخيرة، وتصرّ على الأخذ بمعانيها الحرفية، وقد عرفت أنّها تنتهي إلى التجسيم أو التأويل.

ومن المؤسف جـدّاً إنّ المتقـدّمين مـن السلف كـانـوا يصرّون على الأخـذ بحرفية الصفات، وإليك بعض نصوصهم:

١. قيل لعبـد الله بن مبـارك: كيف يعـرف ربّنـا؟ قـال: بأنّـه فـوق السماء السابعة وعلى العرش بائن من خلقه.

٢. وقـال الأوزاعي: إنّ الله على عـرشـه، و نـؤمن بما وردت بـه السنّـة من صفاته.

---

١. الفتح: ١٠.

٣. وقال الدارمي في مقدمة كتابه «الردّ على الجهمية»: استوى على عرشه فبان من خلقه.

٤. وقال القرطبي في تفسير قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى العَرْشِ﴾[1]،وقد كان السلف لا يقولون بنفي الجهة ولا ينطقون بذلك، بل نطقوا هم، والكافة بإثباتها لله تعالى كما نطق كتابه وأخبرت رسله ولم ينكر أحد من السلف الصالح أنّه استوى على عرشه حقيقة.[2] ﴿ذَٰلِكَ مَبلَغُهُم مِنَ العِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ .[3]

الدعوة إلى العلوم الحسّيّة

قد عرفت أدلّة المتقدّمين على منع الخوض في المعارف الإلهية، وهناك من يؤيد تلك الفكرة لكن بثوب جديد وهو انّ العلم المفيد هو العلم المعتمد على الحس والتجربة، فالخارج عن ذينك الحكمين لا يفيد شيئاً. وفي ذلك يقول فريد وجدي في بعض كتبه:

بما انّ خصومنا يعتمدون على الفلسفة الحسّية والعلم الطبيعي في الدعوة إلى مذهبهم، فنجعلهما عمدتنا في هذه المباحث، بل لا مناص لنا من الاعتماد عليهما، لأنّهما اللّذان أوصلا الإنسان إلى هذه المنصة من العهد الروحاني.[4]

---

١. الأعراف: ٥٤.

٢. لاحظ للوقوف على مصادر هذه الأقوال كتاب «علاقة الإثبات والتفويض»: ٤١، ٤٨، ٦٨، ١١٥.

٣. النجم: ٣٠.

٤. على أطلال المذهب المادي: ١/ ١٦.

وقال أبو الحسن الندوي :

وقد كان الأنبياء عليهم السلام أخبروا الناس عن ذات الله وصفاته وأفعاله وعن بداية هذا العالم ومصيره وما يهجم على النـاس بعد موتهم، آتاهم الله علم ذلك كلّه بـواسطتهم عفـواً بـلا تعب، وكفـاهم مـؤونـة البحث والفحص في علـوم ليس عندهم مبـادؤها ولا مقدّماتهـا التي يبنون عليها بحثهم ليتوصلـوا إلى مجهول، لأنّ هـذه العلوم وراء الحس والطبيعـة لا تعمل فيها حـواسّهم، ولا يؤدي إليهـا نظرهم، وليست عندهم معلوماتها الأوّلية.

إنّ الذين خاضوا في الإلهيات من غيـر بصيرة وعلى غير هدى جاءوا في هذا العلم بآراء فجّة، ومعلومات ناقصة، وخواطر سانحة، ونظريات مستعجلة فضلّوا وأضلّوا. [١]

و يلاحظ على كلا التقريرين :

أوّلاً: إنّ الاعتمـاد على الفلسفـة الحسّيـة و التـركيـز على الحسّ من بين أدوات المعرفة، مقتبس من الفلسفة المـادية التي ترفض الاعتماد على العقل و أدواتـه و لاتعترف إلا بـالحسّ و تحسبـه أداة منحصـرة للمعرفـة، و العجب أن يَلْهج بهذا الأصل مَنْ يدّعي الصلة بالإسـلام و يعد من المناضلين ضدالفلسفة الماديّة، ففي القول بهذا، إبطال للشرائع السماوية، المبنية على النبوّة و الوحي و نـزول الملك و سـائر الأُمـور الخارجـة عن إطـار الحسّ، و التي لاتـدرك إلا بالعقل و البرهنـة، فمن العجيب أن يلعب فريد وجدي و مقلّد الـدعوة السلفية «أبوالحسن الندوي» بحبال المادية من غير شعور ولااستشعار.

١ . ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين : ٩٧ .

و ثانياً: إنّه لـو صحّ قـول « النـدوي» إنّ: « هــذه العلـوم وراء الحسّ و الطبيعـة لاتعمل فيهـا حـواسّهم، و لايـؤدّي إليهــا نظـرهم، و ليست عنـدهم معلوماتهـا الأوّلية»، فلماذا يطرح الذكر الحكيم لفيفـاً من المعارف، و يحرّض على التـدبّر فيها و هـي ممّا يقع وراء الحسّ و الطبيعـة، و ليسـت الغـايـة من طرحها هو التلاوة و السكوت حتى تصبح الآيات لقلقة لسان لاتخرج عن تراقي القارئ بدل أن تتسلّل إلى صميم الذهن و أعماق الروح؟!

٦

المصير المأساوي للفلسفة

لقد مُنيت الفلسفة بنفس ما مُني به علم الكلام، والمراد من الفلسفة هو التفكير العقلي في صفحة الكون والوجود، وقد انتقلت الفلسفة إلى أوساط المسلمين عن طريق المترجمين في عصر العبّاسيّين، ولمّا كان فيها من الآراء ما لا يوافق الأُصول المسلّمة عند المسلمين، قام المتطرّفون بتحريم الكلّ وتكفير المتعاطي لها خلافاً لقوله سبحانه: ﴿**الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَول فَيَتَّبِعُونَ أَحسنه**﴾، لكن المنصفين من علماء الإسلام حافظوا على الاعتدال، فأخذوا الصحيح منها ونقدوا الباطل وتلقّوها ثروة فكرية بشريّة لا تختص بفئة دون فئة، لكنّها بحكم أنّها حصيلة الفكر البشري لا تخلو عمّا يخالف الحقّ، وها نحن ـ على وجه الإيجاز ـ نذكر كلمات بعض المنكرين لها بتاتاً:

١. الغزالي (٤٥٠ـ ٥٠٥هـ)

ألّف الغزالي كتابه المعروف «**تهافت الفلاسفة**» وهو يضمّ عشرين مسألة عالجها الفلاسفة القدماء ورأى تناقضهم فيها، فكفّرهم في ثلاث منها، دون غيرها من المسائل التي رأى أنّها قريبة من عقائد المعتزلة وغيرهم، وقد ذكر الغزالي

المسائل العشرين في ديباجة الكتاب ونحن نذكرها حسب ما ذكره، قال:

التي أظهرنا تناقض مذهبهم فيها في هذا الكتاب وهي عشرون مسألة:

المسألة الأُولى: إبطال مذهبهم في أزلية العالم.

المسألة الثانية: إبطال مذهبهم في أبدية العالم.

المسألة الثالثة: بيان تلبيسهم في قولهم: إنّ الله صانع العالم، وإنّ العالم صنعه.

المسألة الرابعة: في تعجيزهم عن إثبات الصانع.

المسألة الخامسة: في تعجيزهم عن إقامة الدليل على استحالة إلهين.

المسألة السادسة: في إبطال مذاهبهم في نفي الصفات.

المسألة السابعة: في إبطال قولهم: إنّ ذات الأوّل لا تنقسم بالجنس والفصل.

المسألة الثامنة: في إبطال قولهم: إنّ الأوّل موجود بسيط بلا ماهية.

المسألة التاسعة: في تعجيزهم عن بيان أنّ الأوّل ليس بجسم.

المسألة العاشرة: في بيان أنّ القول بالدهر و نفي الصانع لازم لهم.

المسألة الحادية عشرة: في تعجيزهم عن القول بأنّ الأوّل يعلم غيره.

المسألة الثانية عشرة: في تعجيزهم عن القول بأنّه يعلم ذاته.

المسألة الثالثة عشرة: في إبطال قولهم: إنّ الأوّل لا يعلم الجزئيات.

المسألة الرابعة عشرة: في قولهم: إنّ السماء حيوان متحرك بالإرادة.

المسألة الخامسة عشرة: في إبطال ما ذكروه من الغرض المحرِّك للسماء.

المسألة السادسة عشرة: في إبطال قولهم: إنّ نفوس السماوات تعلم جميع الجزئيات.

المسألة السابعة عشرة: في إبطال قولهم باستحالة خرق العادات.

المسألة الثامنة عشرة: في قولهم: إنّ نفس الإنسان جوهر قائم بنفسه ليس بجسم ولا عرض.

المسألة التاسعة عشرة: في قولهم باستحالة الفناء على النفوس البشرية.

المسألة العشرون: في إبطال إنكارهم لبعث الأجساد، مع التلذذ والتألّم في الجنة والنار باللذات والآلام الجسمانية.

فهذا ما أردنا أن نذكر تناقضهم فيه من جملة علومهم الإلهية والطبيعية، وأمّا الرياضيات فلا معنى لإنكارها ولا للمخالفة فيها، فإنّها ترجع إلى الحساب والهندسة.

وأمّا المنطقيات فهي نظر في آلة الفكر في المعقولات، ولا يتّفق فيه خلاف به مبالاة، وسنورد في كتاب «معيار العلم» من جملته ما يحتاج إليه لفهم مضمون هذا الكتاب إن شاء الله.[١]

أقول: وقبل الكلام في المسائل الثلاث التي كفّر بها الفلاسفة نلفت نظر القارئ إلى نكتة وهي انّ قسماً من هذه المسائل مبنيّ على أُصول الهيئة البطليموسية، أعني: المسائل الرابعة عشرة ـ الثامنة عشرة، فليس في الكون سماء حسب التفكير البطليموسي، حتّى نتكلّم في خصوصياتها، نعم لا شكّ أنّ القول بقدم العالم الملازم لاستغنائه عن الخلق والإيجاد كفر لا يتفوّه به الموحد فضلاً عن المسلم، وهكذا إنكار علمه سبحانه بالجزئيات، إذ صريح الآيات المتضافرة على أنّه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء. كما هو مقتضى البراهين الفلسفية التي غفل عنها الغزالي.

---

١. تهافت الفلاسفة: ٤١ـ٤٢، ط دار ومكتبة الهلال.

ويقرب من ذلك إنكار حشر الأجساد، فإنّ المعاد الجسماني من ضروريات الدين، يقول سبحانه: ﴿ **قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ** ﴾[١]، وأمّا ما سوى ذلك فإنّما هي آراء فلسفيّة أو كلامية وليست من أسباب الإيمان والكفر.

لكن الكلام في ثبوت الصغريات، فهل الفلاسفة المسلمون كانوا ينكرون حدوث العالم ويعتقدون بقدمه؟ وهل الفلاسفة الإسلاميّون كلّهم على النحو الذي يصفهم هو بقوله: قد رأيت طائفة يعتقدون في أنفسهم التميز عن الأتراب والنظراء بمزيد الفطنة والذكاء، قد رفضوا وظائف الإسلام من العبادات، واستحقروا شعائر الدين: من وظائف الصلوات، والتوقي عن المحظورات، واستهانوا بتعبّدات الشرع وحدوده ولم يقفوا عند توقيفاته وقيوده، بل خلعوا بالكلية ربقة الدين بفنون من الظنون، يتبعون فيها رهطاً يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً وهم بالآخرة هم كافرون، ولا مستند لكفرهم غير تقليد سماعي إلفي كتقليد اليهود والنصارىٰ، إذ جرى على غير دين الإسلام نشأهم وأولادهم؟ وعليه درج آباؤهم وأجدادهم، وغير بحث نظري، صادر عن التعثّر بأذيال الشبه، الصارفة عن صوب الصواب، والانخداع بالخيالات المزخرفة كلامع السراب، كما اتّفق لطوائف من النظّار في البحث عن العقائد و الآراء، من أهل البدع و الأهواء.[٢]

ونحن لا يمكن لنا إنكار ما ذكره أو تصديقه ولكن نجلّ أكثر الفلاسفة الإسلاميين عن هذه الآراء الساقطة خصوصاً من تقدّم عليه، نظراء: الفارابي، والشيخ الرئيس، ومن تأخر عنه كالمحقّق نصير الدين محمد بن محمد بن حسن

---

١. يس: ٧٩.

٢. تهافت الفلاسفة: ٢٧ـ٢٨.

الطوسي (٥٩٧ـ ٦٧٢هـ) و من تربّى على يديه، كالكاتب القزويني، والعلاّمة الحلّي، ومن أتى بعدهم كالمحقّق الداماد و مشايخه و تلاميذه.

وعلى كلّ تقدير نرجع إلى ما نسب إلى الفلاسفة المسلمين من المسائل الثلاث التي بها كفّرهم الغزالي، أعني:

١. حدوث العالم زماناً وذاتاً

أوجدت مسألة حدوث العالم حدوثاً زمانياً ضجّة كبرى بين أهل المنقول، فالمتكلّمون ـ تبعاً لما ورد في الروايات ـ على أنّ العالم حادث زماناً، ويقولون: كان زمان لم يكن للعالم فيه أيّ أثر.

غير أنّهم عجزوا عن البرهنة والاستدلال على معتقدهم هذا، إذ انّ الحدوث الزماني عبارة عن «سبق عدم العالم في زمان خاص وانّه كان زمان لم يكن للعالم فيه خبر ولا أثر».

وهذا الرأي أوقعهم في مشكلة، لأنّه ينقل الكلام إلى نفس «الزمان» فهل لهذا الزمان حدوث زماني أو لا؟

فإن اختاروا الأوّل لزم أن يكون للزمان زمان، أي أن يكون ثمة زمان لم يكن فيه من الزمان اللاحق أثر ولا خبر، وهذا باطل جدّاً، لأنّه ينقل الكلام إلى الزمان السابق وهكذا يتسلسل.

وإن اختاروا الثاني استلزم ذلك قدم الزمان وهم يفرّون من كلّ قديم زماني.

هذا و قد طال البحث والجدل حول هذه المسألة التي هي خارجة عن إطار هذا البحث ولو أنّهم فرقوا بين الحدوث الذاتي المتّفق عليه بين الإلهيين والحدوث الزماني الذي يستلزم القول به التسلسلَ، لكان أفضل وأقطع للنزاع.

على أنّ نظرية «الحركة الجوهرية» قد حلّت العقدة وأثبتت الحدوث الزماني للمادة بأوضح الوجوه لا بنحو يستلزم التسلسل، لأنّه إذا كان الزمان منبعثاً من تجدّد المادة وتدرّجها، فكلّ قطعة من المادة السيّالة ترسم عدم القطعة اللاحقة، فتصير كلّ قطعة من المادة موصوفة بأنّها لم تكن مع القطعة السابقة، وبالنتيجة لم تكن القطعة اللاحقة في الزمان السابق عليها.

وبتعبير آخر: إذا كان كلّ قطعة من المادة السيّالة وكلّ درجة منها متعانقاً مع الزمان، ولم يكن من القطعة اللاحقة فيها عين ولا أثر، صحّ توصيف القطعة اللاحقة بالحدوث الزماني، وهو انّه لم تكن القطعة اللاحقة في ظرف القطعة السابقة، وهكذا الحال إذا وضعنا البنان على كلّ جزء جزء من تلك المادة السيّالة.

وبهذا يثبت الحدوث الزماني للطبيعة من دون أي إشكال.

وفي هذا الصدد يقول الحكيم صدرالدين الشيرازي:

«لقد تبيّن انّ الأجسام كلّها متجدّدة الوجود في ذاتها، وانّ صورتها صورة التغيّر، وكلّ منها حادث الوجود مسبوق بالعدم الزماني كائن فاسد لا استمرار لهوياتها الوجودية، ولا لطبائعها المرسلة، والطبيعة المرسلة وجودها عين شخصياتها وهي متكثرة، وكلّ منها حادث ولا جمعية لها في الخارج حتّى يوصف بأنّها حادث أو قديم». [1]

وقال: «إنّ الطبائع المادية كلّها متحركة في ذاتها وجوهرها مسبوقة بالعدم الزماني، فلها بحسب كلّ وجود معيّن مسبوقية بعدم زماني غير منقطع في الأزل». [2]

١و٢. الأسفار:٧/ ٢٩٧ و ٢٨٥ وأيضاً راجع المصدر نفسه، ص ٢٩٢ـ ٢٩٣.

٢. علم الباري بالجزئيات

إنّ نفي علمه سبحانه بالجزئيات فكرة غير صحيحة لا يليق أن تنسب إلى الفلاسفة الإلهيين الذين اتّفق أكثرهم على علمه بها، و إنّما اختلفوا في الكيفية، وقد ذكر صدر المتألّهين أقوال المتقدّمين والمتأخرين منهم في الفصل الرابع من الموقف الثالث في الأسفار، وها نحن نذكر آراءهم في الموضوع ، والتي تحكي اتّفاقهم أو اتّفاق أكثرهم على العلم بالجزئيات ، والاختلاف بينهم إنّما هو اختلاف في الطريقة.

الأوّل: مذهب توابع «المشّائين» منهم الشيخان «أبو نصر» و «أبو علي» و «بهمنيار» و «أبو العباس اللوكزي» ، و كثير من المتأخرين ، وهو القول بارتسام صور الممكنات في ذاته تعالى وحصوله فيها حصولاً ذهنياً على الوجه الكلّي .

الثاني: القول بوجود صور الأشياء في الخارج، وهو مذهب المحقّق الطوسي وابن كمونة والعلاّمة الشيرازي ومحمد الشهرزوري.

الثالث: القول باتحاده تعالى مع الصور المعقولة، وهو المنسوب إلى فرفوريوس.

الرابع: ما ذهب إليه أفلاطون الإلهي من إثبات الصور المفارقة والمثل العقلية وانّها علوم إلهية.

الخامس: مذهب القائلين بثبوت المعدومات الممكنة قبل وجودها، وهم المعتزلة.

السادس: مذهب القائلين بأنّ ذاته تعالى علم بجميع الممكنات.

السابع: القول بأنّ ذاته علم تفصيلي بالمعلول الأوّل وإجمالي بما سواه وذات

المعلـول الأوّل علم تفصيلي بالمعلـول الثاني و إجمالي بما سـواه، وهكذا إلى أواخـر الموجودات، فهذا تفصيل المذاهب المشهورة بين الناس.[١]

وقد أنهى الحكيم السبزواري في شرح المنظومة عدد الأقوال في كيفية العلم بالجزئيـات إلى أحد عشر قولاً آخرهـا لصدر المتألّهين الذي استنبطه من القـاعدة الفلسفيـة، وهي أنّ بسيط الحقيقـة كلّ الأشيـاء وأنّ ذاتـه سبحـانـه حـاوٍ لكلّ الكمالات، فما يوجد في عالم الإمكان من الجزئيات، فـالله سبحانه جامع لكمالاته على نحو أبسط وأتمّ، كملكـة علم النحو التي تجمع كمالات الأجوبـة التفصيلية النحوية، وعندئذٍ يكون العلم بالذات نفس العلم بما سواه.

نحن لا نريـد أن نحوم حـول هذه الآراء لنميّز الصحيـح عن الزائف، بل المقصـود هو بيـان اتّفاقهم (إلاّ من شـذّ) على علمـه سبحانـه بالجزئيـات وإنّما اختلفوا في طريقته.

٣. حشر الأجساد يوم القيامة

المسألة الثالثة التي كفّر بها الفلاسفة هي إنكار حشر الأجساد وهي ليست على مـا نقل، نعم ينسب إلى النصارى بأنّ المعـاد روحاني وليس بجسمـاني، وأمّا الفلاسفة الإسـلاميون، فأقصى ما عندهم أنّ المعاد الروحـاني مبرهن عليه دون المعاد الجسماني فـلا برهان عليه، غير أنّ النصوص متضـافرة على حشر الأجساد.

يقول الشيخ الـرئيس: يجب أن يعلم: انّ المعاد منه ما هـو منقول في الشرع ولا سبيل إلى إثباته إلاّ مـن طريق الشريعة وتصديق خبر النبي وهـو الذي للبدن

---

١. الأسفار الأربعة:٦/ ١٨٠ـ ١٨١.

عند البعث، وخيرات البدن وشروره معلومة لا يحتاج إلى تعلم.

وقد بسطت الشريعة الحقّة التي أتانا بها نبيّنا وسيّدنا ومولانا محمّد ﷺ حال السعادة والشقاوة التي بحسب البدن، ومنه ما هو مدرك بالعقل والقياس.(١)

هذا نصّ كلامه، وأمّا من تأخّر عنه كصدر المتألهين، فقد قال في شرح الهداية الأثيرية: اعلم أنّ إعادة النفس إلى بدن مثل بدنها الذي كان لها في الدنيا، مخلوق من سنخ هذا البدن بعد مفارقتها عنه في القيامة، كما نطقت به الشريعة من نصوص التنزيل وروايات كثيرة متضافرة عن أصحاب العصمة والهداية غير قابلة للتأويل، كقوله تعالى: ﴿**قالَ مَنْ يُحْيِي العِظامَ وَهِيَ رَميم* قُلْ يُحْييها الَّذي أَنشأها أَوّل مَرّة وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَليم**﴾.(٢)

﴿**فَإِذا هُمْ مِنَ الأَجداثِ إِلىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُون**﴾.(٣)

﴿**أَيَحْسَبُ الإِنْسان أَلَّن نَجْمَعَ عِظامه* بَلىٰ قادِرينَ عَلىٰ أَنْ نُسوّيَ بَنانه**﴾.(٤)

وهذا أمر ممكن غير مستحيل فوجب التصديق به، لكونه من ضروريات الدّين وإنكاره كفر مبين.(٥)

ولعلّ هذا المقدار حول المسائل الثلاث كاف.

وأمّا سائر المسائل من المسائل العشرين فهي على أقسام:

١. ما لا موضوع لها في صفحة الكون حتّى يبحث فيها، فهي أشبه

---

١. الشفاء: ٢/ ٥٤٤، فصل في المعاد.

٢. يس: ٧٨ـ٧٩.

٣. يس: ٥١.

٤. القيامة: ٣ـ٤.

٥. شرح الهداية الأثيرية: ٣٨١، ط ١٣١٣هـ.

بالسالبة بانتفاء الموضوع، كالمسائل المبنية على الهيئة البطلميوسية.

٢. ما هو صحيح ومبرهن، أدعمه الذكر الحكيم كتجرد النفس وبقائها بإذن الله سبحانه و كون الواجب سبحانه صرف الوجود لا ماهية له.

٣. ما يعد مسائل فلسفية أو كلامية لا يناط بها الإيمان والكفر كسائر المسائل.

٢. ابن حزم الأندلسي (٣٨٤ـ٤٥٦هـ)

إنّ علي بن أحمد بن علي بن سعيد بن حزم الأموي بالولاء، أبو محمد الأندلسي القرطبي مروّج المذهب الظاهري ومنقحه قام بنقد الفلسفة في رسائله وفي كتابه «الفِصَل في الملل والأهواء والنحل»، أمّا في رسائله فقد ألّف رسالة في الرد على «رسالة الكندي إلى المعتصم بالله» في الفلسفة الأُولى وقد أسماه كتاب«الفلسفة الأُولى فيما دون الطبيعيات والتوحيد»، كما ناقش في «الفِصَل» بعض المسائل الفلسفية.[1]

٣. الشهرستاني (٤٦٧ـ٥٤٨هـ)

لقد ألّف أبو الفتح محمد بن أبي القاسم عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني الشافعي الأشعري كتاب «مُصارعة الفلاسفة» وردّ فيه على سبعة من المسائل الفلسفية المهمّة، يقول:

«هذه المصارعة في سبع مسائل من الإلهيات، من جملة نيّف وسبعين مسألة في المنطق والطبيعيات والإلهيات خنقتُه فيها بوتده، ورشقتُه بمشاقصه، ورددتُه في

---

١. اقرأ ترجمته في الأعلام: ٤/ ٢٥٤، و معجم المؤلفين: ٧/ ١٦، وغيرهما.

مهوى حُفـرته، وأركسته لأُمّ رأسـه في زُبيته[١]، ذلك من فضـل الله علينـا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون.

المسألة الأُولى: في حصر أقسام الوجود.

المسألة الثانية: في وجود واجب الوجود.

المسألة الثالثة: في توحيد واجب الوجود.

المسألة الرابعة: في علم واجب الوجود.

المسألة الخامسة: في حدوث العالم.

المسألة السادسة: في حصر المبادئ.

المسألة السابعة....[٢]

وقـد كان الـركب سائراً في نقـد الفلاسفـة عصراً بعد عصر، فهـذا هو أبـو البركات البغـدادي ينقد آراء الفلاسفة في إرادتـه سبحانه في كتـابه المعتبر(ج٣، ص ١٧٦). كما أنّ الإمام الرازي قام بنقـد الإشارات للشيخ الرئيس، ولم يقتصر على كتابه هـذا، بل له في غير واحد من كتبه (كـالمباحث المشرقية والبراهين وغير ذلك) ردود وتشكيكات، ومع ذلك كلّه فالقوم بدل أن يستهدفوا في كتاباتهم تمييز الصحيح عن الـزائف والاستماع إلى الأحسن، شطبوا على الجميع ورمـوهم بسهم واحد خلافاً لما دعا إليه الذكر الحكيم.

غير أنّ المحقّقين لم يلزموا جانب الصمت إزاء هذا الهجوم، بل تصدّوا للردّ على تلك الشبهات منهم: علمان جليلان وكوكبان مضيئان في سماء العلم

---

١. هذه العبارة تكشف عن روحيات الرجل ونزعاته، وانّ الـرد لم يكن بدافع نزيه بل كان لمجرّد إظهار الفضل والأنانية.

٢. مصارعة الفلاسفة:١٨ـ١٩.

والفلسفة:

أ. أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد الأندلسي (٥٢٠ـ ٥٩٥هـ) ألّف كتاب «تهافت التهافت» سنة (٥٧٥هـ) ردّاً على كتاب «تهافت الفلاسفة» لأبي حامد الغزالي، و قد أحدث هذا الكتاب منذ ظهوره دويّاً في الأوساط الدينية والفلسفية، يبدأ كتابه بقوله:

وبعد حمد الله الواجب والصلاة على جميع رسله وأنبيائه، فإنّ الغرض من هذا القول أن نبيّن مراتب الأقاويل المثبتة في كتاب التهافت في التصديق والإقناع وقصور أكثرها عن مرتبة اليقين والبرهان.

ب. نصير الدين محمد بن محمد بن الحسن الطوسي (٥٩٧ـ ٦٧٢هـ)، ألّف كتاباً باسم «مصارع المصارع» ردّ فيه على كتاب «مصارعة الفلاسفة» للشهرستاني الّذي ألّفه للرد على الشيخ الرئيس في مسائل سبع. يقول المحقّق الطوسي في مقدّمة الكتاب:

عثرت في أثناء طلبي على كتاب يعرف بالمصارعات للشيخ تاج الدين أبي الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني ادّعى فيه مصارعته مع الشيخ الرئيس أبي علي حسين بن عبد الله بن سينا في عدّة من المسائل والردّ عليه فيما ذكره في كتبه.

فدعتني دعواه إلى النظر فيه، واشتد حرصي من استماع اسمه على التأمّل في معانيه.

فلمّا طالعته وجدته مشتملاً على قول سخيف، ونظر ضعيف، ومقدّمات واهية، ومباحث غير شافية، وتخليط في الجدال، وتمويه في المثال، قد مازج به سفهاً يحترزُ عنه العلماء، ورثّاً من القول لا يستعمله الأُدباء، إلاّ المنتسبين بالانتقام، والمتسوقين عند العوام، قد انصرع في أكثر مصارعاته، وانهزم في معظم

مبارزاته.

فرأيت أن أكشف عن تمويهاتـه، وأُميز بين تخليطاته، غير نـاصر لابن سينا في مذاهبه، لكن مشيراً إلى مـزالّ أقدام صاحبه، ومنبّهاً على مغالطـات مشاغبه، وإن كلتـه في بعض المواضع بصاعـه، أو سقيتـه بكأسه، فـالله يعلم مني أنّ ذلك ليس ممّا يقتضيه دأبي، ولا يتعوده خلقي، بل الحرب يعدي، والكلام يجر الكلام.

ونقلت فيه متن كلامه، ونص مرامه، من صدره إلى ختامه، لئلا يحتاج من يقع إليه هذه النسخة إلى طلب أصل الكتاب، وسمّيته بـ«مُصارعُ المصارع»، فإن وقعت لي فيه زلة أو هفوة، فليصلح من اطّلع عليـه من إخواني، طلباً بذلك اقتناء الخير، وإحراز الأجر، وها أنا مفتتح الكتاب، والله ملهم الصواب.

ولم يزل النقـد والردّ قائماً على قـدم وساق بين المتخاصمين، وقـد عرفت أنّ القول الحاسم هو دراسة الأقوال والآراء والاستماع إلى أحسنها، هذا من جانب و من جانب آخر أنّ دراسة الفلسفة ومذاكرتها رهن قابلية وصلاحية خاصّة، وهي ليست شرعـة لكلّ وارد وشارد، وإنّما يـردهـا وارد بعد وارد، فهي رهن ذهن وقّـاد وصلاحية ممتازة كما يقول الشيخ الرئيس:

أيّها الأخ إنّي قـد مخضت لك في هذه الإشـارات عن زبـدة الحقّ، وألقمتك قفّي الحكم في لطائف الكلم، فضُنْه عن الجاهلين والمبتـذلين ومن لم يرزق الفطنةَ الـوقادة والـدربة والعـادة، وكان صغـاه من الغـاغة، أو كـان من ملحدة هـؤلاء الفـلاسفة ومـن همجهم، فإن وجدت مـن تثق بنقاء سريـرتـه واستقـامة سيرتـه وبتوقّفه عمّا يتسرع إليـه الوسواس وبنظره إلى الحقّ بعين الـرضا والصدق فآتـه ما يسألك منـه مدرّجـاً مجزءاً مفرقـاً، تستفرس ممّـا تسلفه لما تستقبلـه، وعاهِـدْه بالله وبأيمان لا مخارج لها ليجري فيما يأتيه مجراك متأسياً بك، فإن أذعت هذا العلم أو

أضعته فالله بيني و بينك، وكفى بالله وكيلاً.[١]

٤ . ابن تيمية وآراؤه الفلسفية

ألّف ابن تيميـة كتـاباً أسماه «درء تعـارض العقل والنقل» أو «مـوافقـة صحيح المنقـول لصريح المعقـول» حـاول فيـه رفع التنـاقض بين العقل والنقل، ولكنّه في الحقيقة يريـد العقل الذي يوافق النقل الموجود في الصحيحين وغيرهما، دون العقل المخالف، وإن دعمته البراهين الناصعة التي بها عـرفنا ربّنا سبحانه، فالأصل عنـده النقل، لا العقل، والسلفية اليـوم يكيلون لـه بكيل كبير ويضفون عليـه ألقـابـاً فخمـة، نظير شيخ الإسـلام، علم الأعـلام ، مفتى الأنـام، الإمـام المجاهد، الصـادق الصابر، سيف السنّة المسلول على المبتـدعين، والقاطع البتّار لألسنة المارقين الملحدين و....

هلمّ معي لنقف على عطاءاتـه الفكريـة في هذا المجال، وهل هـو عارض المبتدعين أو هـو أحد المبتـدعة؟ ونحن نستعـرض في ذلك شيئاً مـن آرائه ليكون كنموذج لما لم نذكره:

١ . قدم العالم نوعاً

قد تقدّم أنّ الغزالي كفّر الفلاسفة لقولهم بقـدم العالم وعدم حدوثه زماناً، وقد أحيا ابن تيمية تلك الفكرة، وقال بقدم العالم نوعاً، وحدوثه شخصاً، ذكره في غير واحـد من كتبه، مثل «مـوافقـة صحيح المنقـول لصريح المعقول» و«منهـاج السنة» وغيرهما.

وهذا نصّ عبارته في الموافقة:

---

١ . شرح الإشارات:٢/ ٤١٩.

وأمّا أكثر أهل الحديث ومن وافقهم فانّهم لا يجعلون النوع حادثاً بل قديماً، ويفرّقون بين حدوث النوع وحدوث الفرد من أفراده، كما يفرق جمهور العقلاء بين دوام النوع ودوام الواحد من أعيانه.[١]

والعجب أنّه نسبه إلى أكثر أهل الحديث، وأين هم من هذه البحوث الفلسفية؟! ومتى أدلوا بهذا الرأي؟! فانّ مذهبهم هو السكوت عمّا سكت عنه الكتاب والسنّة، وهل هناك آية أو رواية تدلّ على أنّ كلّ ما في العالم من الأنواع، قديم بنوعه، حادث بشخصه.

ويقول في منهاجه: وحينئذٍ يمتنع كون شيء من العالم أزلياً، وإن جاز أن يكون نوع الحوادث دائماً لم يزل، فانّ الأزل ليس هو عبارة عن شيء محدد، بل ما من وقت يقدر إلاّ وقبله وقت آخر، فلا يلزم من دوام النوع، قدم شيء بعينه.[٢]

ويقول أيضاً: وأين في القرآن امتناع حوادث لا أوّل لها.[٣]

أقول: إنّ صريح ذلك انّ الزمان بجنسه قديم، دون مصاديقه، وهكذا سائر الأنواع من إنسان وفرس، وبقر، فهل هذا ما نطق به الذكر الكريم أو السنّة النبوية؟!

ثمّ إنّ الذي دعاه إلى اختيار هذا الرأي، هو قوله بجلوس الرب على العرش، فعندما يثار بوجهه هذا السؤال إنّ العرش مخلوق لله سبحانه، فأين كان سبحانه قبل خلق العرش؟ فإنّه يحاول الخروج من هذا المأزق بما نقله عنه المحقّق الدواني في كتاب شرح العضدية، قال: وقد رأيت في بعض تصانيف ابن تيمية القول بالقدم الجنسي في العرش.[٤] ومعناه انّه كان يعتقد انّ جنس العرش أزلي أي

---

١. الموافقة:٢/ ٧٥، دار الكتب العلمية، بيروت.

٢. منهاج السنة:١/ ١٠٩.

٣. الموافقة:٢/ ٦٤.

٤. شرح العضدية:١٣.

ما من عرش إلاّ و قبله شيء إلى ما لانهاية وانّه يوجد و ينعدم ثمّ يوجد وينعدم، وهكذا فالعرش عنده قديم جنساً و لكن شخصه حادث.

هذا جزاء من أعدم العقل، وأكبَّ على النقل دون تمحيص.

وأعجب منه انّه يستدلّ على الجواز،بأنّه ليس في القرآن امتناع حوادث لا أوّل لها، فيكون سكوت القرآن عن امتناعه، دليلاً على إمكانه بل وقوعه.

فكأنّ القرآن كتاب فلسفي جاء لبيان ما هو الممكن والمستحيل، فإذا سكت عن استحالة شيء يكون دليلاً على إمكانه «ما هكذا تورد يا سعد الإبل»!!

٢. قيام الحوادث بذات الله سبحانه

ومن مبتدعاته التي خرق بها إجماع المتألهين على أنّه سبحانه منزّه عن قيام الحوادث به، قوله: فمن أين في القرآن ما يدلّ دلالة واضحة على أنّ كلّ متحرك محدث أو ممكن؟ وأنّ الحركة لا تقوم إلاّ بحادث أو ممكن، أو ما قامت به الحوادث لم يخلُ منها، وأنّ مالا يخلو من الحوادث فهو حادث؟

ويقول في مكان آخر: فإنّا نقول: إنّه يتحرك وتقوم به الحوادث والأعراض، فما الدليل على بطلان قولنا؟[١]

أقول: لو كان الكاتب درس الفلسفة والكلام عند أساتذتهما دون أن يكون له رأي مسبق في الموضوع لوقف على أنّ الذات القائم به الحوادث كالحركة والسكون حادث، لأنّ الحركة في العرض نابعة من الحركة في الجوهر، والحركة في الجوهر عبارة عن تغيير ذات الشيء وتحوّله من جوهر إلى جوهر، وأيّ

---

١. منهاج السنّة:١/ ٦٤و ٢١٠.

حادث أظهر من ذلك؟

وهو بهذا القول أحيا نظرية الكرّامية ـ أعني: أتباع محمد بن كرّام ـ حيث زعموا أنّ الحوادث تطرأ، أي تتجدد على ذات الله.

يقول الاسفرائيني في التبصير: ومـمّـا ابتدعوه ـ أي الكرامية ـ من الضلالات ممّا لم يتجاسر على إطلاقه قبلهم واحد من الأُمم لعلمهم بافتضاحه هو قولهم: بأن معبودهم محلّ الحوادث تحدث في ذاته أقواله وإرادته وإدراكه للمسموعات والمبصرات، وسَمُّوا ذلك سمعاً وتبصّراً، وكذلك قالوا: تحدث في ذاته ملاقاته للصفحة العليا من العرش، زعموا أنّ هذه أعراض تحدث في ذاته، تعالى الله عن قولهم». [1]

٣. قوله بالتجسيم

إنّ ابن تيمية وإن كان لا يصرّح بكونه سبحانه جسماً لكنّه يصرّح بأنّه لم يرد عن الصحابة والتابعين أنّ الله ليس بجسم، يقول: وأمّا الشرع فمعلوم أنّه لم ينقل عن أحد من الأنبياء ولا الصحابة ولا التابعين ولا سلف الأُمّة أنّ الله جسم أو أنّ الله ليس بجسم، بل النفي والإثبات بدعة في الشرع. [2]

ويقول أيضاً: وأمّا ذكر التجسيم وذمّ المجسّمة فهذا لا يعرف في كلام أحد من السلف والأئمة، كما لا يعرف في كلامهم أيضاً القول بأنّ الله جسم أو ليس بجسم، بل ذكروا في كلامهم الذي أنكروه على الجهمية نفي الجسم، كما ذكره أحمد في كتاب الردّ على الجهمية.

---

١. التبصير في الدين: ٦٦ ـ ٦٧.

٢. شرح حديث النزول: ٨٠.

وقال في موضع ثالث: أمّا ما ذكره من لفظ الجسم ومايتبع ذلك فانّ هذا اللفظ لم ينطق به في صفات الله لا كتاب ولا سنّة لا نفياً ولا إثباتاً، ولا تكلم به أحد من الصحابة والتابعين وتابعيهم ولا أهل البيت ولا غيرهم.[١]

إنّ فكرة التجسيم من مستوردات اليهود، وكتبهم مشحونة به وبالجهة وبالنزول والحركة. وهذا أمر ظاهر لمن راجع كتبهم، وابن تيمية تبعاً لما أدخله مستسلمة اليهود بين أصحاب الحديث، جوّز أن يكون سبحانه جسماً. ومن المعلوم أنّ الجسم ذو أبعاض يحتاج في تحقّقه إلى أبعاد، والمحتاج ممكن، والممكن ليس بواجب.

والعجب أنّه زعم أنّه لم ترد عن أهل البيت كلمة في نفي الجسميّة، وهذه خطب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وكلمات أبنائه الطاهرين عليهم السلام صريحة في ذلك لا يسعنا نقل معشار منها. إلاّ أن يكون «أهل البيت» عنده، غيرهم.

ثمّ إنّ أبناء التجسيم يصحّحون قولهم بالجسمية بأنّه سبحانه جسم لا كسائر الأجسام، وفي ذلك يقول أبو الثناء في كتابه «التمهيد لقواعد التوحيد» ما هذانصّه:

ثمّ إنّهم ناقضوا في ما قالوا، لأنّ الجسم اسم للمتركّب لما مرّ، فإثبات الجسم إثبات التركيب ونفي التركيب نفي الجسم، فصار قولهم جسم لا كالأجسام كقولهم: متركب وليس بمتركب، و هذا تناقض بيّن بخلاف قولنا: شيء لا كالأشياء، لأنّ الشيء ليس باسم للمتركّب وليس ينبئ عن ذلك وإنّما ينبئ عن مطلق الوجود، فلم يكن قولنا: «كالأشياء نفياً لمطلق الوجود، بل يكون نفياً لما وراء الوجود من التركيب وغيره من أمارات الحدث، فلم يكن

---

١. منهاج السنّة: ١/ ٣١٢.

ذلك متناقضاً ولله الحمد والمنّة».

وإذا ثبت أنّ الله تعالى لا يوصف بالجسم، فلا يوصف بالصورة أيضاً، لأنّ الصورة لا وجود لها بدون التركيب.[١]

٤. الله سبحانه محدود بالحدّ

ذهب ابن تيمية إلى صحّة نسبة الحدّ إلى ذاته تعالى، وقد نقله في كتابه «الموافقة» عن أبي سعيد الدارمي المجسِّم موافقاً له، فقال ما نصّه:

وقد اتّفقت الكلمة من المسلمين والكافرين أنّ الله في السماء وحدّوه بذلك إلاّ المريسي الضالّ وأصحابه، حتّى الصبيان الذين لم يبلغوا الحنث قد عرفوا ذلك إذا أحسن الصبي يثني. يرفع يده إلى ربّه ويدعوه في السماء دون ما سواها وكلّ أحد بالله وبمكانه أعلم من الجهميّة.[٢]

وقال في كتابه «تلبيس الجهميّة»: لقد دلّ الكتاب والسنّة على معنى ذلك، كما تقدّم احتجاج الإمام أحمد لذلك بما في القرآن ممّا يدلّ على أنّ الله تعالى له حدّ يتميّز به عن المخلوقات.[٣]

إلى غير ذلك من كلماته الصريحة في إثبات الحدّ وإخلاء العالم بأرضه وسمائه عن وجوده سبحانه.

لقد أثبت المفكّرون الواعون من المسلمين تنزيهه سبحانه عن الحدّ وذكروا

١. التمهيد لقواعد التوحيد: ٦٠.

٢. موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول: ٢/ ٢٩.

٣. بيان تلبيس الجهمية: ١/ ٤٤٥. وخفى عليه انّ رفع اليد في الثناء والسؤال إنّما هو تمثيل لرفعة شأنه وترسيم لعلوّ مقامه، لا كونه في السماء.

براهينه بها لسنا في مقام بيانها، ولكن إذا دار الأمر بين أخذ المعارف والعقائد من ابن تيمية أو تلميذه ابن القيّم أو مَن لفّ لفّهما و بين أخذها من ربيب بيت النبوة وعيبة علم النبي الإمام علي عليه السلام ، فلا شكّ أنّ الثاني أولى وأفضل، بل هو المتعيّن، ولقد صدع بذلك الرازي في مسألة الجهر بالبسملة وقال: ومن اقتدى في دينه بعليّ فقد اهتدىٰ، قال والدليل عليه قول رسول الله: «اللّهم أدر الحقّ مع عليّ حيث دار».[١]

وهذا هو الإمام يصف الله سبحانه بقوله: «ومن وصفه سبحانه ـ أي جعل صفاته غير ذاته ـ فقد قرنه، و من قرنه فقد ثنّاه، ومن ثنّاه فقد جزّأه، ومن جزّأه فقد جهله، ومن جهله فقد أشار إليه، ومن أشار إليه فقد حدّه، ومن حدّه فقد عدّه، ومن قال: فيم فقد ضمّنه، ومن قال على مَ فقد أخلى منه».[٢]

وفي كلام له: «الحمد لله اللابس الكبرياء بلا تجسّد، والمرتدي بالجلال بلا تمثّل، والمستوي على العرش بلا زوال، والمتعالي عن الخلق بلا تباعد منهم، القريب منهم بلا ملامسة منه لهم، ليس له حدّ ينتهي إلى حدّه، ولا له مثل فيعرف بمثله».[٣]

إلى غير ذلك من خطبه وخطب أبنائه وكلهم عليهم السلام.

٥. نسبة الجهة والمكان لله تعالى

لقد تكرّر إثبات الجهة والمكان لله سبحانه في كلمات ابن تيمية في «منهاج السنّة»، ويكفي في ذلك العبارتان التاليتان:

---

١. التفسير الكبير: ١/ ٢٠٤.

٢. نهج البلاغة، الخطبة الأُولى.

٣. الصدوق، التوحيد: ٣٣.

١. إذا قيل إنّه في جهة كان معنى الكلام أنّه هناك فوق العالم حيث انتهت المخلوقات، فهو فوق الجميع عالٍ عليه.[١]

٢. وجمهور الخلف على أنّ الله فوق العالم و إن كان أحدهم لا يلفظ بلفظ الجهة، فهم يعتقدون بقلوبهم ويقولون بألسنتهم ربهم فوق.[٢]

أقول: فمن أين لابن تيمية هذا العلم ؟! فهل هو يعلم ما تخفي الصدور؟!. لا أدري!!

وأسوأ من ذلك أنّه استدلّ على ثبوت الجهة لله بطلب فرعون أن يصنع له مصعداً ليطّلع إلى إله موسى، قال: والله قد أخبر عن فرعون أنّه طلب أن يصعد ليطّلع إلى إله موسى، فلو لم يكن موسى أخبره أنّ الله فوق، لم يقصد ذلك، فإنّه لو لم يكن مقرّاً به فإذا لم يخبره موسى به لم يكن إثبات العلوّ لا منه ولا من موسى عليه الصلاة والسلام، ثمّ قال: فموسى صدّق محمّداً في أنّ ربّه فوق وفرعون كذّب موسى في أنّ ربّه فوق، فالمقرّون بذلك متبعون لموسى ولمحمد والمكذبون بذلك موافقون لفرعون.[٣]

ما الدليل على أنّ موسى أخبر فرعون بأنّ ربّه فوق السماوات، وأيّ دليل على أنّه لم يأخذه من مجسّمة عصره؟!

وأين هذا من كلام الإمام جعفر الصادق عليه السلام حيث يقول: «سبحان من لا يعلم أحد كيف هو إلاّ هو، ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير، لا يحدّ ولا يحسّ ولا يُجسّ ولا يُمسّ ولا تدركه الحواسّ، ولا يحيط به شيء ولا جسم ولا

---

١. منهاج السنة:١/ ٢١٧.

٢. نفس المصدر:١/ ٢٦٢.

٣. المصدر نفسه:١/ ٥٢٦.

صورة ولا تخطيط ولا تحديد».[١]

وقد تضافر هذا التعبير عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام في غير مكان.

وهذا هو الإمام أبو الحسن الهادي عليه السلام يقول: «سبحان من لا يحدّ، ولا يوصف، ولا يشبهه شيء، وليس كمثله شيء، و هو السميع البصير».[٢]

و إثبات الجهة لله سبحانه إثبات مكان و إثبات تحديد، وأين هذا من الواجب الغنيّ عن المكان والجهة والحدّ؟!

٦. جلوسه سبحانه على العرش

ومن عجائب أفكاره في باب التوحيد، إثبات جلوسه سبحانه على العرش، يقول: ثمّ إنّ جمهور أهل السنّة يقولون: إنّه ينزل ولا يخلو منه العرش، كما نقل ذلك عن إسحاق بن راهويه وحماد بن زيد و غيرهما، ونقلوه عن أحمد بن حنبل في رسالته.[٣]

وقال في شرح حديث النزول: والقول الثابت هو الصواب، وهو المأثور عن سلف الأُمّة وأئمّتها أنّه لا يزال فوق العرش ولا يخلو العرش منه مع دنوّه ونزوله إلى السماء ولا يكون العرش فوقه.

ويقول أيضاً في فتاواه: وقال أهل السنّة في قوله: ﴿الرَّحْمٰن على العَرْش استَوىٰ﴾[٤]، الاستواء من الله على عرشه المجيد على الحقيقة لا على المجاز.[٥]

١. الصدوق: التوحيد: ٩٨، باب أنّ الله عزّ وجلّ ليس بجسم ولا صورة، الحديث ٤.

٢. المصدر نفسه، نفس الباب، الحديث ١٣، ص ١٠١.

٣. منهاج السنة: ١/ ٢٦٢.

٤. طه: ٥.

٥. مجموع الفتاوى: ٥/ ٥١٩.

وقال أيضاً في كتاب «تلبيس الجهمية»: الوجه الخامس: انّ العرش في اللغة السرير بـالنسبة إلى ما فـوقه كالسقف إلى مـا تحته، فإذا كان القـرآن قد جعل لله عرشاً و ليس هو بالنسبة إليه كالسقف، علم أنّه بالنسبة إليه كالسرير بالنسبة إلى غيره، وذلك يقتضي أنّه فوق العرش.[١]

وقال في تفسير سـورة العلق: إنّ عرشـه أو كرسيّـه وسع السماوات والأرض وإنّه يجلس عليـه فما يفضل منه إلاّ قدر أربعـة أصابع، وإنّـه ليئطّ أطيط الرحل الجديد براكبه.[٢]

هـذا هو الإلـه الـذي يعبده ابن تيميـة و مقلـدو منهجـه، فهو إلـه ينتقل ويتحرك وينزل، محدود بحـدود، له جهة ومكان، وأنّه يجلس على العـرش، وعرشه يزيد عليه بأربعة أصابع، فإذا كان هذا إله العالم وخالق البرايا، فرفض هذا الإله أفضل من إثباته، والرجل بعدُ قد تأثر بأخبار الآحاد المستوردة من مستسلمة أهل الكتاب، وتصوّر أنّها حقائق راهنة و أنّ بها تناط سعادة الأُمّة وأنّ عرش إله العالم يئطّ أطيط الرحل الجديد!

فإذا كان هذا هو الإله المعبود «فيا موت زر إن الحياة ذميمة»!!

هـذا جـزاء من أعـدم العقل وأكبّ على النقل بـلا وعي، وتلقّى روايـات الصحيحين كأوثق ما يكون، دون أخضاعها للنقد والتمحيص.

فإذا كان هذا شيخ الإسلام وحجة الدين فعلى الإسلام السّلام!

ولا يتصـوّر القارئ بأنّ شـذوذه وانحـرافـه عن الرأي العـام بين المسلمين

---

١. تلبيس الجهمية: ١/ ٥٧٦.

٢. مجموعة التفسير: ٣٥٤ـ ٣٥٥.

يختصّ بما ذكرنا، ولكن خطأ الرجل لا يختصّ بباب دون باب، و إليك قوله بفناء النار وانتهاء العذاب.

٧. فناء النار وانتهاء عذاب الكفّار

أكّد القرآن الكريم في آيات كثيرة على خلود المنافقين والكفّار في نار جهنم وعدم خروجهم من النار. قال تعالى: ﴿وعَدَ اللهُ المنافِقينَ والمُنافِقاتِ وَ الْكُفّارَ نارَ جَهَنَّمَ خالِدينَ فِيها هي حَسْبُهُمْ وَلَعَنهُمُ اللهُ وَلَهُمْ عَذابٌ مُقيم﴾.[١]

وقال في آية أُخرى: ﴿كَذٰلِكَ يُريهِمُ اللهُ أَعمالَهُمْ حَسراتٍ عَلَيْهِمْ وَما هُمْ بِخارِجينَ مِنَ النّار﴾ .[٢]

إلى غير ذلك من الآيات الصريحة في خلود الكفّار في نار جهنم.

ولكن هلمّ معي نقف على رأي ابن تيمية في المقام، يقول: وفي المسند للطبراني: أنّه ينبت فيها ـ النار ـ الجرجير».[٣]

فيحتج ابن تيمية بهذا الحديث على فناء النار مضيفاً أنّ القائلين ببقائها ليس معهم كتاب ولا سنّة ولا أقوال الصحابة.

وأضاف أيضاً: أنّ من قال بدوام النار محتجاً بالإجماع، فالإجماع غير معلوم، إلى أن زعم أنّ القول بفنائها فيه قولان معروفان عن الخلف والسلف.[٤]

أقول: قد عرفت أنّ الآيات صريحة في بقاء النار وخلود الكفّار فيها، ومع ذلك لا تصل النوبة إلى المرويّات التي لا تتجاوز أخبار الآحاد.

١. التوبة:٦٨.

٢. البقرة:١٦٧.

٣. الرد على من قال بفناء الجنة والنار: ٦٧.

٤. لاحظ للوقوف على نصّ ابن تيمية كتاب «فناء الجنةوالنار» :ص ٦٧ـ ٧١ وغيره.

وكم لابن تيمية من زلّات في باب التوحيد وفيما يرجع إلى النبوّة والنبي وغيرهما، بيْد أنّنا نقتصر على ذلك، لأنّ الإطناب ربما يكون مملاً.

إنّ دراسة العقائد الإسلامية بحاجة إلى الإلمام بالكتاب والسنّة الصحيحة المعتبرة (غير المأخوذة من مستسلمة أهل الكتاب)، والاستناد إلى العقل الصريح الذي يصون الإنسان من الوقوع في هذه المهالك. والله هو المسدّد.

٧

علم الكلام

وعوامل نشوئه

إنّ علم الكلام كسائر العلوم الإنسانية، ظاهرة علمية نشأت بين المسلمين في ظل أسباب سيوافيك بيانها، وانبثقت عنها مدارس مختلفة، كما كانت للأُمم السابقة مذاهب كلامية ومدارس دينية يبحث فيها عن اللاهوت والناسوت، وقد ألّف غير واحد من علماء اليهود[1] والنصارى كتباً كلامية يرجع تاريخها إلى القرنين الخامس والسادس، وأمّا عوامل نشأته بين المسلمين فتتلخص في عوامل داخلية وخارجية، إليك بيان الأُولى منهما:

العوامل الداخلية لنشوء علم الكلام

١. القرآن هو المنطلق الأوّل

إنّ الذكر الحكيم هو المنطلق الأوّل لنشوء علم الكلام بين المسلمين،

---

١. كدلالة الحائرين لابن ميمون وغيرها. هذا ما يرجع إلى سالف الأيام، وأمّا اليوم فما من شهر إلاّ ولهم كتاب أو رسالة حول ديانتهم.

وهو المصدر الأوّل عند المتكلّمين في دعم ما وافق وردّ ما خالف.

إنّ الآيات المتضمّنة للحوار بين الرسل ومن أرسل إليهم هي أحد أسباب التفكير الكلامي عند المسلمين، فلنذكر نماذج من تلك الحوارات:

١. حوار إبراهيم عليه السلام مع مدّعي الربوبية

هذا هو إبراهيم عليه السلام يحتجّ على مَن أنكر ربوبية الله سبحانه و تعالى، وينقل سبحانه احتجاجه بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلى الَّذِي حاجَّ إِبْراهِيمَ في رَبِّهِ أَنْ آتاهُ اللهُ الْمُلْكَ﴾ وهذا المقطع من الآية يكشف عن أنّ مَلِكَ زمانه كان مشركاً في الربوبية ويزعم أنّ ربوبية العالم وتدبيره مفوضة إليه، فاحتجّ إبراهيم عليه بقوله: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيت﴾، فأجاب الملك وقال: ﴿أَنا أُحْيِي وأُمِيت﴾.[1]

قال إبراهيم: ﴿فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِها مِنَ الْمَغْرِب﴾.

فعند ذلك بهت الملك ولم يدر بماذا يجيب، فيحكي سبحانه تحيّره وخذلانه أمام البرهان القاطع للخليل بقوله: ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَر﴾.[2]

٢. حوار إبراهيم عليه السلام مع عبدة الأصنام

إنّ لبطل التوحيد إبراهيم الخليل حواراً آخر مع المشركين بشأن أصنامهم

---

١. يذكر المفسرون انّه أمر بإحضار سجينين أمر بإطلاق سراح أحدهما وقتل الآخر، وبذلك صار مظهراً للإحياء والإماتة، ولمّا كان في هذه الإجابة مغالطة واضحة، أعرض إبراهيم عن الرد عليه، فاستمرّ الحجاج بشكل آخر كما ترى.

٢. البقرة:٢٥٨.

التي أقدم على كسرها وجعلها جذاذاً إلاّ كبيراً لهم ليكون عبرة لهم، فلمّا فوجئ المشركون بهذه الكارثة، تساءلوا عمّن قام بهذا الفعل الشنيع؟ فانتهى الأمر بهم إلى اتّهام إبراهيم عليه السلام بذلك، فأحضروه للكشف عن جليّة الحال، ودار بينه و بينهم حوار ينقله سبحانه بقوله:

ـ المشركون: ﴿أأنْتَ فَعَلتَ هذا بآلهتِنا يا إبراهيم﴾.

ـ إبراهيم: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبيرُهُم هذا فاسألُوهُمْ إن كانُوا يَنْطِقُون﴾.

ـ المشركون: ﴿لَقَدْ علِمْتَ ما هؤلاءِ يَنْطِقُون﴾.

ـ إبراهيم: ﴿ أفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ما لا يَنْفعُكُمْ شَيئاً وَلا يضُرُّكُمْ أُفٍّ لَكُمْ وَلِما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ الله أَفلا تَعْقِلُون﴾.

ولمّا أحسّ المشركون بالعجز عن إفحامه، تمسّكوا بمنطق القوة، فقالوا:

﴿حَرِّقُوهُ وانصُرُوا آلهتَكُمْ إنْ كُنتُم فاعِلين﴾.

ثمّ إنّه سبحانه نصر رسوله في هذه اللحظة الرهيبة بجعل النار برداً وسلاماً على إبراهيم كما يقول:

﴿ قُلْنا يـا نارُ كُونِي بَـرْداً وسلاماً عَلـىٰ إبراهيمَ* وَأَرادُوا بِهِ كَيْـداً فجَعَلْناهُمُ الأَخْسَرِين﴾.[1]

٣. حوار موسى عليه السلام مع فرعون

إنّ الحوار الدائر بين موسى الكليم عليه السلام وفرعون مدّعي الربوبية يُرينا بوضوح قوةَ منطق الكليم مع أحد جبابرة عصره الذي ذَبَح لحفظ عرشه مئات من الأطفال الرُّضع للحيلولة دون ولادة موسى عليه السلام والذي تنبّأ كهنة مصر بزوال عرشه

١. الأنبياء:٦٢ـ ٧٠.

على يد موسى ﷺ، وقد نقل القرآن ذلك الحوار مبسطاً في سورة الشعراء من الآية ١٦ إلى ٥١، ونحن نقتطف منه ما يلي:

ـ موسى: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ العالَمِينَ * أَنْ أَرْسِلْ مَعَنا بَنِي إِسْرائيلَ﴾.

ـ فرعون: ﴿قالَ أَلم نُرَبِّكَ فينا وليداً ولَبِثْتَ فينا من عُمُرِكَ سِنينَ* وفَعلْتَ فَعْلَتَكَ الّتي فَعَلْتَ وأنتَ من الكافرينَ﴾.

ـ موسى: ﴿قال فعلتُها إذاً وأنا من الضالِّينَ *ففررتُ مِنكُم لَمّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لي رَبِّي حُكْماً وَجَعَلَني مِنَ الْمُرسَلينَ* وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّها عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسرائيلَ﴾.

ـ فرعون: ﴿وما ربُّ العالمينَ﴾.

ـ موسى: ﴿ربّ السمٰواتِ والأرضِ وما بَيْنَهُما إن كُنْتُم مُوقِنين﴾.

ـ فرعون: ﴿قالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ﴾.

ـ موسى: ﴿ربّكُم وربُّ آبائِكُمُ الأوّلينَ﴾.

ـ فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُون﴾.

ـ موسى: ﴿رَبُّ المَشْرِقِ والْمَغْرِبِ وما بَيْنَهُما إنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

ـ فرعون: ﴿لَئِنْ اتَّخَذْتَ إِلهاً غَيرِي لأجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِين﴾.

ـ موسى: ﴿أَوَ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبين﴾.

ـ فرعون: ﴿فأْتِ بِهِ إنْ كُنْتَ مِنَ الصّادِقِين﴾.

ـ موسى: ﴿فَأَلْقىٰ عَصاهُ فَإِذا هِيَ ثُعبَانٌ مُبينٌ* ونَزَعَ يَدَهُ فَإِذا هِيَ بَيْضاءُ للنّاظرينَ* قال لِلمَلأ حَوْلَهُ إنّ هـذا لساحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَنْ يُخرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَماذا تَأْمُرُونَ﴾.

إلى آخر الحوار.

ترى أنّ موسى يستدلّ بالدليل والبرهان ويعرّف الربّ سبحانه بقوله: ﴿ربّ السمٰوات والأرض وما بينهما﴾ و بقوله: ﴿ربُّكُمْ وربّ آبائكُمُ﴾.

ولكن فرعون يتّهمه أوّلاً بالجنون ويقول: ﴿إنّ رسولَكُمُ الذي أُرْسِلَ إليكم لَمَجْنُون﴾.

ومن المعلوم أنّ المصلحين في العالم يُتّهمون دائماً بالجنون، لأنّهم يريدون التغيير الجَذريّ في المجتمع والذي يعدّه البسطاء أمراً محالاً، ويصفون الساعين إليه بالجنون، ولكن موسى لم يُعر أهمية لهذه التهمة وأعاد برهانه بقوله: ﴿ربُّ المشرقِ و المغربِ وما بينهما إن كُنتُم تَعْقِلُونَ﴾.

فعند ذلك واجهه فرعون بمنطق القوة وقال: ﴿لَئنِ اتّخذتَ إلهاً غيري لأَجعلنَّكَ منَ المسْجونينَ﴾.

ولما أثبت صلته بعالم الغيب بالإتيان بالمعجزة الباهرة وأثبت بوضوح انّه رسول ربّ العالمين، قابله فرعون بادّعاء أنّ ما أتى به سحر ولا نصيب له من الواقع.

٤ . حوار مؤمن آل فرعون مع قومه

إنّ الحوار الدائر بين مؤمن آل فرعون وبين فرعون ورهطه حوار صدر في ظروف عصيبة، قام به أحد المنتمين إلى فرعون (كان يُظْهر كفره ويكتُم إيمانه)، على مرأى ومسمع من فرعون وملئه، وفي جوّ مشحون بالتآمر على موسى عليه السلام واستئصال دعوته، وقد نقل الذكر الحكيم هذا الحوار على طوله في سورة غافر من الآية ٢٦ إلى ٤٥، نقتطف منه ما يلي:

ـ فرعون: ﴿ذَرُوني أَقْتُلْ مُوسىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّـهُ إِنّي أَخافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الفَسادَ﴾.

ـ موسى: ﴿إنّي عُذْتُ بِرَبّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لا يُؤْمِنُ بِيَومِ الحِسابِ﴾.

ـ مؤمن آل فرعون: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ وَقَدْ جاءَكُمْ بِالبَيِّناتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صادِقاً يُصِبْكُمْ بعضُ الَّذي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذّابٌ﴾.

ـ فرعون: ﴿يا هامانُ ابنِ لي صَرْحاً لَعلّي أَبْلُغُ الأَسْبابَ* أَسْبابَ السَّمٰواتِ فَأَطَّلِعَ إِلىٰ إِلهِ مُوسىٰ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كاذِباً﴾.

ـ مؤمن آل فرعون: ﴿يا قومِ اتّبعونِ أَهْدِكُم سبيلَ الرّشادِ﴾.

وكم في القرآن الكريم من نظائر لهذا الحوار دار رحاها بين رجال صالحين وأُناس طالحين وكان الظفر فيها حليف أصحاب المنطق والتفكير.

وبذلك يظهر أنّ القرآن الكريم بما فيه من الأدلة الساطعة والبراهين المحكمة على توحيده ذاتاً و فعلاً، وما نقل من الحوارات، كان هو المنطلق الأوّل لعلم الكلام.

***

٢. السنّة هي المنطلق الثاني

إذا كان الكتاب هو المنطلق الأوّل، فإنّ خُطَب النبي وكلماته ومناظراته مع المشركين واليهود والنصارى، كانت هي المنطلق الثاني للتفكير الكلامي.

إنّ النبي ﷺ ناظر المشركين وأهل الكتاب بمرأى ومسمع من المسلمين، وهذه احتجاجاته مع نصارى نجران في العام العاشر من الهجرة، حتّى أنّه ﷺ بعدما أفحمهم، دعاهم إلى المباهلة، وقد حفل التاريخ وكتب السير والتفسير بها

دار بين الرسول وبطارقة نجران و قساوستهم، وقد استدلّوا على إلوهية المسيح بقولهم: هل رأيت ولداً من غير ذكر؟ فأفحمهم رسول الله ﷺ بإيحاء من الله: وقال: ﴿**إِنَّ مَثَلَ عِيسىٰ عِنْدَ الله كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ قالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**﴾.[١] أي انّ مثل عيسى في عالم الخلقة كمثل آدم، وقد خُلق من غير أب ولا أُمّ، فليس هو أبدع ولا أعجب منه.

و إليك نموذجاً من مناظراته ﷺ:

احتجاج النبي مع اليهود في تبديل القبلة

لمّا أمر الله جلّ شأنه نبيّه ﷺ بتحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، جاء قوم من اليهود وقالوا: يا محمد هذه القبلة (بيت المقدس) قد صلّيت إليها أربع عشرة سنة ثمّ تركتها الآن. أفحقاً كان ما كنت عليه؟ فقد تركته إلى باطل، فانّ ما يخالف الحقّ فهو باطل؛ أو باطلاً كان ذلك، وقد كنت عليه طول هذه المدة فما يؤمننا أن تكون الآن على باطل؟!

وأساس الشبهة التي أشار إليها اليهود هو انّه لا يمكن أن يكون التوجه صوب القبلتين صحيحاً، فأحدهما باطل، إمّا السابق و إمّا اللاحق، ومن المحتمل أن يكون الباطل هو اللاحق فكيف نؤمن به؟

وقد غفل المجادل عن أنّ الأحكام تتغيّر حسب تغيّر المصالح والمفاسد، فلا مانع من أن يكون كلاّ من التوجّهين حقاً في ظرفه، وعلى ذلك تدور رحى النسخ في الأحكام الشرعية.

فأجاب النبي ﷺ بقوله: «بل ذلك كان حقّاً، وهذا حقّ، يقول الله: ﴿قُلْ

---

١. آل عمران:٥٩.

لله المشرقُ والمغربُ يهدِي مَنْ يشاءُ إلى صِراطٍ مُستقيم﴾[١] إذا عرف صلاحكم يا أيّها العبادُ في استقبال المشرق أمركُم به، وإذا عرف صلاحكم في استقبال المغرب أمركم به، وإن عرف صلاحكم في غيرهما أمركم به، فلا تنكروا تدبير الله تعالى في عباده وقصده إلى مصالحكم».

ثمّ قال لهم رسول الله ﷺ: «لقد تركتم العمل يوم السبت ثمّ عملتم بعده في سائر الأيام ثمّ تركتموه في السبت ثمّ عملتم بعده، أفتركتم الحق إلى باطل أو الباطل إلى حق؟! والباطل إلى باطل أو الحق إلى حق؟! قولوا كيف شئتم فهو قول محمد وجوابه لكم». قالوا: ترك العمل في السبت حق والعمل بعده حق.

فقال رسول الله ﷺ: «فكذلك قبلة بيت المقدس في وقته حق، ثمّ قبلة الكعبة في وقته حق».[٢]

٣. خطب الإمام علي عليه السلام هي المنطلق الثالث

إنّ خطب الإمام ورسائله وكلمه القصار، التي حفظها التاريخ من الضياع لأوضح دليل على أنّ الإمام كان هو المؤسس للأُصول الكلامية خصوصاً فيما يرجع إلى التوحيدوالعدل، وبين يديك «نهج البلاغة» الذي جمعه الشريف الرضي ممّا وصل إليه من خطبه، تجد فيه من الأُصول الكلامية ما لا تجده في غيره، وإلىٰ ذلك يشير السيد المرتضى في أماليه، فيقول:

اعلم أنّ أُصول التوحيد والعدل مأخوذة من كلام أمير المؤمنين عليه السلام وخطبه، فانّها تتضمن من ذلك ما لا زيادة عليه ولا غاية وراءه، ومن تأمّل المأثور في ذلك من كلامه، علم أنّ جميع ما أسهب المتكلّمون من بعد في

---

١. البقرة:١٤٢.

٢. الاحتجاج:١/ ٨٣.

تصنيعه وجمعه إنّما هو تفصيل لتلك الجمل وشرح لتلك الأُصول، وروي عن الأئمّة من أبنائه عليهم السلام في ذلك ما لا يكاد يحاط به كثرة، ومن أحب الوقوف عليه وطلبه من مظانه أصاب منه الكثير الغزير الذي في بعضه شفاء للصدور الشقية ولقاح للعقول العقيمة.[1]

وجاء في «الفهرست» للنديم: أنّ أبا الهذيل العلاّف، محمد بن الهذيل، قال: أخذت هذا الذي أنا عليه من العدل والتوحيد، عن عثمان الطويل، وكان معلم أبي الهذيل.

قال أبو الهذيل: وأخبرني عثمان أنّه أخذه عن واصل بن عطاء، وأنّ واصلاً أخذه عن أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية، وأنّ عبد الله أخذه من أبيه محمد بن الحنفية، وأنّ محمداً أخبره أنّه أخذه عن أبيه علي عليه السلام، وأنّ أباه أخذه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأنّ رسول الله أخبره أنّ جبرئيل نزل به عن الله تعالى.[2]

وبما أنّ خطب الإمام عليه السلام ورسائله تعجّ بالتوحيد والعدل، والتنزيه وغيرها من المعارف، فنحن في غنى عن نقل نتف منها.

٤. أئمّة أهل البيت عليهم السلام ودورهم في نشوء علم الكلام

إنّ أئمّة أهل البيت عليهم السلام وإن أُقصُوا عن منصّة الحكم ولكنّهم كلّما أُتيحت لهم الفرصة في عصر الأمويين أو العباسيين قاموا بمهمة بيان المعارف والأُصول التي كان القوم يتنازعون فيها، وها نحن نذكر مقتطفات من مناظراتهم

١. الشريف المرتضى، الأمالي: ١/ ١٤٨. ولاحظ شرح ابن أبي الحديد في هذا الصدد: ١/ ١٧.

٢. الفهرست: ٢٠٢.

ونبتدئ بمناظرة أُمّ الأئمّة النجباء مع خليفة زمانها .

روى المؤرخون أنّ فاطمة الزهراء عليها السلام لمّا مُنعت من إرثها ، لاثت خمارها على رأسها واشتملت بجلبابها ، وأقبلت في لُمّة من حفدتها ، ونساء قومها حتّى دخلت على أبي بكر وهو في حشد من المهاجرين والأنصار، فقالت مخاطبة إيّاهم بخطبة بليغة نقتصر منها على موضع الحاجة :

يا ابن أبي قحافة ، أفي كتاب الله أن ترثَ أباك ولا أرث أبي؟ لقد جئتَ شيئاً فريّاً على الله ورسوله ، أفعلى عمد تركتم كتاب الله ونبذتموه وراء ظهوركم؟ إذ يقول: ﴿وَوَرِثَ سُليمانُ داودَ﴾[١] ، وقال فيما اقتصّ من خبر يحيى بن زكريا عليهما السلام إذ قال : ﴿فَهَبْ لي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً *يَرِثُني وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوب﴾[٢]، وقال أيضاً: ﴿وأُولوا الأَرحام بَعْضُهم أَولىٰ ببعضٍ في كتابِ الله﴾[٣]، وقال : ﴿يُوصيكم الله في أولادِكم للـذّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثيين﴾[٤] وقال : ﴿وَإِنْ تَرَكَ خيراً الوصيّةُ للوالديْنِ والأقربينَ بالمَعْروفِ ... ﴾[٥]، وزعمتم أن لا حظوة لي ولا إرث من أبي ولا رحم بيننا ، أفخصّكم بآية من القرآن أخرج أبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم منها ؟ أم هل تقولون: إنّ أهل الملتين لا يتوارثان؟ أو لست أنا وأبي من أهل ملة واحدة؟ أم أنتم أعلم بخصوص القرآن وعمومه من أبي وابن عمي؟[٦]

نموذج من مناظرات الإمام الصادق عليه السلام مع أحد القدرية

لقد راجت فكرة استغناء الممكن في فعله «لا في ذاته» عن الله سبحانه في

١. النمل:١٦.
٢. مريم:٥ـ٦.
٣. الأنفال:٧٥.
٤. النساء:١١.
٥. البقرة:١٨.
٦. الاحتجاج:١/ ٢٦٧ـ٢٦٨.

عصر عبد الملك بن مروان (٦٥ـ٨٦هـ) وكان لهذه الفكرة دويّ في عصره، وقد طلب عبد الملك بن مروان من عامله في المدينة أن يوجه إليه الإمام الباقر عليه السلام حتّى يناظر رجلاً يتبنّى تلك الفكرة وقد أعيا الجميع.

فبعث الإمام الباقر ولده مكانه، فقدم الشام، وتسامع الناس بقدومه لمخاصمة الرجل، فقال عبد الملك لأبي عبد الله: إنّه قد أعيانا أمر هذا القدري، فقال الإمام: «إنّ الله يكفيناه»، فلمّا اجتمعوا، قال القدري لأبي عبد الله عليه السلام: سل عمّا شئت؟ فقال له: «اقرأ سورة الحمد»، قال: فقرأها، فلمّا بلغ إلىٰ قول الله تبارك وتعالى: ﴿**إيّاك نعبد وإيّاك نستعين**﴾ فقال جعفر: «قف مَن تستعين؟ وما حاجتك إلى المؤونة، إن الأمر إليك»، فبهت الرجل.[١]

احتجاج الإمام الرضا عليه السلام مع اليهود والنصارى والمجسّمة

إنّ للإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام احتجاجات ومناظرات مع أصحاب الديانات المختلفة وعلى رأسهم اليهود والنصارى والمجسمة وغيرهم، نقلها الشيخ أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي(المتوفّى حوالي ٥٥٠هـ) في كتاب «الاحتجاج» بصورة مفصلة، ونحن لا يسعنا نقل القليل منها فضلاً عن الكثير، وكان الخليفة المأمون يشارك في مجالس المناظرة مع الأحبار والقساوسة وأصحاب الحديث والتي كان يتجلّى فيها قوة منطق الإمام بالاستدلال عليهم بنصوص التوراة والإنجيل باللغة العبريانية والسريانية، وها نحن نذكر احتجاجه مع أبي قُرّة الذي كان يدّعي رؤية النبيّ لله سبحانه في هذه الدنيا.

١. راجع البحار:٥/ ٥٥ـ٥٦، الحديث٩٨.

ـ قال أبو قرة: إنّا رُوِينا انّ الله عزّ وجلّ قسّم الرؤيةَ والكلام بين اثنين، فقسّم لموسى عليه السلام الكلام، ولمحمد صلى الله عليه وآله الرؤية.

ــ قال الإمام: فمن المبلّغ عن الله عزّ وجلّ إلى الثقلين: الجن والإنس ﴿ لا تُدْرِكُهُ الأَبْصارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصار﴾(١) ، و ﴿ولاٰ يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً﴾(٢) ، و ﴿ليس كمِثْلِهِ شَيء﴾(٣)، أليس محمّداً صلى الله عليه وآله؟!

ـ قال أبو قرة: بلىٰ.

ـ قال الإمام عليه السلام: «فكيف يجيء رجل إلى الخلق جميعاً فيُخبرهم انّه جاء من عند الله، وانّه يدعوهم إلى الله بأمر الله، ويقول: ﴿ لاٰ تُدْرِكُهُ الأَبْصار وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصار﴾ و ﴿ولاٰ يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً﴾ و ﴿ليسَ كَمِثْلِهِ شَيء﴾ ثمّ يقول: أنا رأيته بعيني وأحطت به علماً، و هو على صورة البشر؟! أما تستحيون، ما قدرت الزنادقة أن ترميه بهذا، أن يكون يأتي عن الله بشيء ثمّ يأتي بخلافه من وجه آخر.(٤)

هذه هي العوامل الداخلية لنشوء علم الكلام بين المسلمين، وهناك عوامل خارجية لنشوئه، نذكر المهمّ منها:

العوامل الخارجية لنشوء علم الكلام

١. معطّلة العرب

إنّ الطابَع العام للعرب في العصر الجاهلي هو التوحيد في الذات والتوحيد في الخالقية، ولكنّهم كانوا مشركين في أمر الربوبية والعبادة، فكانوا معتقدين بربوبية غيره سبحانه كما كانوا يعبدون غيره كالأصنام والأوثان .

---

١. الأنعام:١٠٣.
٢. طه:١١٠.
٣. الشورى:١١.
٤. التوحيد للصدوق:١١٠ـ ١١١.

نعم كان عندهم صنف ينكر الخالق، ويشارك مع الطائفة الأُولى في إنكار البعث والإعادة.

يقول الشهرستاني: فصنف منهم أنكروا الخالق والبعث والإعادة، وقالوا بالطبع المحيي والدهر المفني وهم الذين أخبر عنهم القرآن المجيد ﴿وَقالُوا ما هِيَ إلاّ حَياتُنا الدُّنيا نَمُوتُ وَنَحْيا﴾[1] إشارة إلى الطبائع المحسوسة في العالم السفلي وقصراً للحياة والموت على تركّبها وتحلّلها، فالجامع هو الطبع والمهلك هو الدهر ﴿وَما يُهْلِكُنا إلاّ الدَّهر﴾.[2]

وصنف منهم أقرّوا بالخالق وابتداء الخلق والإبداع وأنكروا البعث والإعادة، وهم الذين أخبر عنهم القرآن: ﴿ وَضَرَبَ لَنا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قال مَنْ يُحْيِي العِظامَ وَهِيَ رَمِيم﴾.[3]

وصنف منهم أقرّوا بالخالق وابتداء الخلق ونوع من الإعادة وأنكروا الرسل وعبدوا الأصنام وزعموا انّهم شفعاؤهم عند الله في الدار الآخرة، وحجّوا إليها، ونحروا لها الهدايا وقرّبوا القرابين، وتقرّبوا إليها بالمناسك والمشاعر، وأحلّوا وحرّموا؛ وهم الدهماء من العرب إلاّ شرذمة منهم.

ومن العرب من يعتقد بالتناسخ فيقول: إذا مات الإنسان أو قتل اجتمع دم الدماغ وأجزاء بنيته، فانتصب طيراً «هامة» فيرجع إلى رأس القبر كلّ مائة سنة، وعن هذا: أنكر عليهم الرسول ﷺ فقال: «لا هامة ولا عدوى ولا صفر».[4]

---

١. الجاثية:٢٤. ٢. الجاثية:٢٤. ٣. يس:٧٨.

٤. الملل والنحل للشهرستاني:٢/ ٢١٦ـ٢١٧، المكتبة العصرية، بيروت. والحديث رواه أبو داود في سننه برقم (٣٩٢١)، وأحمد في مسنده:١/ ١٧٤.

إنّ العرب و إن اعتنقوا الإسلام ولكن جذور هذه الأفكار كانت موجودة في أذهانهم خلفاً بعد سلف، إذ لا تقلع الأفكار الراسخة بمضي يوم أو سنة أو سنين، وكان خصماء الإسلام يطرحون تلك الأفكار حيناً بعد حين في مناسبات خاصة، فصار هذا سبباً مناسباً لنشوء علم الكلام والدفاع عن العقائد الإسلامية بدليل و برهان، كما أنّ القرآن الكريم طرح شبهاتهم في التوحيد والمعاد وردّها بقوّة، مثلاً: إنّهم كانوا يستبعدون إحياء العظام وهي رميم، فاستدلّ لهم بالنشأة الأُولى، إذ اعترفوا بالخلق الأوّل، فقال عزّ وجلّ: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾[1] ، وقال سبحانه: ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾.[2]

٢. اليهود وعقائدهم في التجسيم والقدر

يقول الشهرستاني: اليهود تدّعي أنّ الشريعة لا تكون إلاّ واحدة، وهي ابتدأت بموسى عليه السلام وتمّت به، فلم تكن قبله شريعة، إلاّ حدود عقلية وأحكام مصلحية.

ولم يجيزوا النسخ أصلاً، قالوا: فلا يكون بعده «شريعة» أصلاً، لأنّ النسخ في الأوامر «بداء»، و لا يجوز البداء على الله تعالى، ومسائلهم تدور على جواز النسخ ومنعه، وعلى التشبيه ونفيه، والقول بالقدر والجبر وتجويز الرجعة واستحالتها.

---

١. يس:٧٩.

٢. ق:١٥.

أمّا النسخ فكما ذكرنا، وأمّا التشبيه فلأنّهم وجدوا التوراة ملئت من المتشابهات، مثل: الصورة والمشافهة والتكلّم جهراً والنزول على طور سيناء انتقالاً والاستواء على العرش استقراراً، وجواز الرؤية فوقاً وغير ذلك.

وأمّا القول «بالقدر» فهم مختلفون فيه حسب اختلاف الفريقين في الإسلام، فالربّانيون منهم كالمعتزله فينا، والقرّاؤون كالمجبرة والمشبهة.[١]

٣. النصارى و التثليث

لمّا رفع المسيح عيسى بن مريم عليه السلام إلى السماء، اختلف الحواريون وغيرهم فيه اختلافاً شديداً مع أنّه كان رسول التوحيد، فأثبت أتباعه لله أقانيم ثلاثة وسمّوها: الأب، والابن، وروح القدس.[٢]

وقد افترقت النصارى إلى: «ملكانية»، و «نسطورية»، و «يعقوبية»؛ و قد كان قسم منهم منتشراً في الجزيرة العربية.

إنّ وجود هذه التيارات الدينية مضافاً إلى غيرها ممّا لم نذكره كالصابئين والمجوس وكلّ من له شبهة كتاب في الجزيرة العربية، أوجد أرضية صالحة لنشوء علم الكلام في مختلف المسائل حيث كان المسلمون على مقربة منهم.

وقد أدى الاحتكاك بينهم إلى تغلغل أفكارهم في أوساط المسلمين، ممّا حدا بالعلماء المسلمين إلى إجراء الحوارات والمناظرات معهم، الأمر الذي ساهم في نشوء مباحث جديدة لعلم الكلام في الشرق الإسلامي.

---

١. الملل والنحل للشهرستاني: ١ / ١٧٨ . والقرّاؤون: الذين يعودون في فهم دينهم إلى التوراة مباشرة.

٢. الملل والنحل للشهرستاني: ١ / ١٨٦ .

٤ . الفتوحات الإسلامية والاحتكاك الثقافي

قام المسلمون بواجبهم ففتحوا البلاد ونشروا الثقافة الإسلامية بين الأُمم المتحضّرة، التي كانت تتمتع ــ وراء الآداب والفنون والعلوم والصناعات ـ بمناهج فلسفية و آراء كلامية لا يذعن بها الإسلام.

وقد كان لذلك الاحتكاك الثقافي واللقاء الحضاري تأثير بالغ، عاد على الإسلام والمسلمين بالخير الكثير، إلاّ أنّ هذا الاحتكاك لم يكن يخلو من مضاعفات، منها انتقال تلك الآراء والأفكار إلى الأوساط الإسلامية في وقت لم تكن فيه متدرّعة تجاه تلك الشبهات والمشاكل.

وأعان على ذلك أمر ثان وهو انتقال عدّة من الأسرى إلى العواصم الإسلامية بآرائهم وأفكارهم وعقائدهم المضادّة للإسلام وأُسِسِه، وكان بين المسلمين من لم يتورّع عن أخذ هاتيك العقائد الفاسدة، نظراء: عبد الكريم بن أبي العوجاء، وحمّاد بن عجرد، ويحيى بن زياد، ومطيع بن أياس، وعبد الله بن المقفّع، إلى غير ذلك بين غير متدرّع أو غير متورّع، فأوجد ذلك بلبلة في الأفكار والعقائد بين المسلمين.

وثَمَّة أمر ثالث كان له التأثير الحاسم في بسط الإلحاد والزندقة، وهو نقل الكتب الرومانية واليونانية والفارسية إلى اللغة العربية من دون نظارة ورقابة وجعلها في متناول أيدي الناس، وقد ذكر النديم تاريخ ترجمة تلك الكتب فقال:

«كان خالد بن يزيد بن معاوية مُحِبّاً للعلوم، فأمر بإحضار جماعة من فلاسفة اليونان ممّن كان ينزل مدينة مصر، وأمرهم بنقل الكتب في الصنعة من اللسان اليوناني والقبطي إلى العربي، وهذا أوّل نقل كان في الإسلام من لغة إلى لغة، ثم نقل الديوان وكان باللغة الفارسية إلى العربية في أيام الحجاج، وكان أمر

الترجمة يتقدم ببطء، إلى أن ظهر المأمون في ساحة الخلافة، فراسل ملك الروم يسأله الإذن في إنفاذ ما يختار من العلوم القديمة المخزونة، المدّخرة في بلد الروم، فأجاب إلى ذلك بعد امتناع، فبعث المأمون جماعة، منهم: الحجاج بن مطر، وابن بطريق، ومحمد وأحمد و الحسن بنو شاكر المنجّم، فجاءوا بطرائف الكتب، وغرائب المصنّفات في الفلسفة والهندسة وغيرهما»، ثم ذكر النديم أسماء النقلة من اللغات المختلفة إلى اللغة العربية، وجاء بأسماء كميّة هائلة[1] فأخذوا يصبون ما وجدوه من غث وسمين في كتب الوثنيين والمسيحيين على رؤوس المسلمين، وهم غير متدرّعين وغير واقفين على جذور هذه الشبه، مع أنّها كانت تزعزع أركان الإسلام.

ونقل المسعودي في وصف المنصور أنّه أوّل خليفة قرّب المنجّمين فعمل بأحكام النجوم، وكان معه نوبخت المجوسي المنجّم وأسلم على يديه وهو أبو هؤلاء النوبختية، وإبراهيم الفزاري المنجم صاحب القصيدة في النجوم، وغير ذلك من علوم النجوم وهيئة الفلك، وعلي بن عيسى الاسطرلابي المنجم. وهو أوّل خليفة ترجمت له الكتب من اللغات العجميّة إلى العربيّة، منها: كتاب «كليلة ودمنة» ، و كتاب «السند هند » ، و ترجمت له كتب ارسطاطاليس ، من المنطقيات وغيرها، وترجم له كتاب «المجسطي» لبطليموس وكتاب «الارثماطيقي» و كتاب «إقليدس» و سائر الكتب القديمة من اليونانية والرومية والفهلوية والفارسية والسريانية وأخرجت إلى الناس، فنظروا فيها، وتعلّقوا إلى علمها.[2]

وذكر في وصف المهدي العبّاسي: وأمعن في قتل الملحدين والذاهبين عن

---

١. النديم: الفهرست: ٣٥٢، ٣٥٦.

٢. مروج الذهب: ٤/ ٢٢٣، ط دار الأندلس.

الدين لظهوره في أيامه واعـلانهم باعتقاداتهم في خلافته، ذلك لما انتشر من كتب «ماني» و«ابن ديصان» و «مرجئون» مما نقله «عبد الله بن المقفع» وغيره وترجمت من الفـارسية والفهلـوية إلى العـربية، ومـا صنفـه في ذلك ابن أبي العوجـاء وحماد بن عجـرد ويحيى بن زياد و مطيع بن أيـاس من تأييـد المذاهب المانية والـديصانيـة والمرقيونية، فكثر بذلك الزنادقة وظهرت آراؤهم في الناس، وكان المهدي أوّل من أمر الجدليين من أهل البحث من المتكلّمين بتصنيـف الكتب على الملحدين ممّن ذكـرنـا من الجاحـدين وغيرهـم، وأقـامـوا البراهين على المعـانـدين وأزالـوا شبـه الملحدين، فأوضحوا الحقّ للشاكّين....[١]

وفي ظل انتشـار الكتب المترجمة بين أهـل العلم من المسلمين، استفحلت المناظرة في عصر المأمون، وكان أهل الفرق والمذاهب والنحل وأصحاب المقالات يتناظرون فيما بينهم على مرأىً ومسمع من الخليفـة، وهذا هو المسعودي ينقل عن يحيى بن أكثم أنّه قـال: كان المأمـون يجلس للمناظرة في الفقـه يوم الثـلاثاء، فإذا حضر الفقهاء ومن يناظـره من سائر أهل المقالات أُدخلوا حجـرة مفروشة، وقيل لهم: أنزعوا أخفافكم، ثم أحضرت الموائد، وقيل لهم: أصيبوا من الطعام والشراب وجدّدوا الوضـوء، ومن خفّه ضيق فلينزعه، ومن ثقلت عليه قلنسـوتُه فليضعها، فإذا فرغـوا أتوا بالمجـامر فبُخروا وطُيّبوا، ثمّ خـرجوا فاستـدناهم حتّى يدنـوا منه ويناظرهـم أحسن مناظرة، وأنصفها وأبعدهـا من مناظرة المتجبرين، فـلا يزالون كذلك إلى أن تزول الشمس، ثمّ تنصب الموائد ثانية فيطعمون وينصرفون.[٢]

ويذكـر في حياة الـواثق بالله أنّـه كان لـه مجلس في الفلسفة والطـب وكان الواثق بالله محبّاً للنظر، مكرماً لأهله، مبغضاً للتقليد وأهله محبّاً للإشراف على علوم

---

١. مروج الذهب: ٤/ ٢٢٣ـ٢٢٤.

٢. مروج الذهب: ٣/ ٤٣٢.

الناس وآرائهم، ممّن تقـدّم وتأخّر من الفـلاسفة وغيرهم من الشرعيّين، فحضرهم ذات يوم جماعـة من الفلاسفة والمتطببين، فجـرى بحضرته أنـواع من علومهم في الطبيعيات وما بعد ذلك من الإلهيات.[١]

لقـد أثار انتقـال هذه الشبـه والعقـائد والآراء إلى أوساط المسلمين ضجّـة كبرى بينهم، وافترقوا إلى فرقتين:

فـرقـة اقتصرت على الـذب عن حيـاض الإسـلام بتضليلهم وتكفيرهم وتوصيفهم بالزندقـة وتحذير المسلمين من الالتقاء بهم وقراءة كتبهم والاستماع إلى كلامهم، إلى غير ذلك ممـا كان يعدّ مكـافحة سلبية، لا تصمـد أمام ذلك السيل الجارف.

وفرقـة قد أحسّوا بخطورة الموقف وأنّ المكـافحة السلبية لها أثـرها المؤقت، وإنّ ذلك الـداء لو لم يعـالج بالـدواء الناجع سـوف يعمّ المجتمع كلّه أو أكثـره، فقامـوا بمكافحـة إيجابية، أي الدعـوة بالحكمـة والموعظة الحسنـة والجدال الذي يستحسنه الإسـلام، فأزالوا شبهاتهم، ونقـدوا أفكارهم في ضـوء العقل والبرهان، وقد نجحوا في ذلك نجـاحاً باهراً، وهؤلاء هم الشيعة خـرّيجو مدرسة أهل البيت أوّلاً، والمعتـزلة أتبـاع واصل بن عطـاء ثانيـاً الـذين أخـذوا أُصول مـذهبهم عن علي عليه السلام بواسطتين:

١. أبي هاشم ابن محمد بن الحنفية.

٢. محمّد بن الحنفية ابن علي بن أبي طالب.

ففي تلك الأجـواء المشحـونة بـالبحث والجدل استفحل أمـر الكـلام، أي العلم الباحث عن المبدأ وأسمائه وصفاته وأفعاله لغاية الذب عن الإسلام، فكان

---

١. مروج الذهب:٣/ ٤٨٩.

علم الكلام وليد الحاجة، ونتاج الصراع الفكري مع التيارات الإلحادية المتحدّية للإسلام والمسلمين، وفي هذه الظروف العصيبة قام أهل البيت عليهم السلام بتربية جموع غفيرة من أصحاب المواهب للذب عن الإسلام وأُصوله أوّلاً، وحريم الولاية ثانياً، في ضوء العقل والبرهان، فصاروا يناظرون كل فرقة ونحلة بأتقن البراهين وأسلمها، وقد حفظ التاريخ أسماء لفيف من الرافلين في حلل الفضائل والمعارف، وسوف توافيك أسماؤهم في هذه الموسوعة.

يقول الدكتور فيصل بدر عون أُستاذ جامعة عين شمس: على ضوء هذه الثقافات المتباينة انّه كانت توجد في الجزيرة العربية، وفي البلاد التي امتدت إليها الفتوحات الإسلامية فلسفات وعلوم وديانات متباينة، وكان لكلّ دين أو فلسفة أنصاره ومؤيدوه، وهؤلاء الأنصار أيضاً انقسموا فيما بينهم إلى شيع وأحزاب، ومع أنّ هذه الطوائف قد احتفظت بكثير من عناصرها وخصائصها الأصلية، فانّ امتزاجها قد أدّى فيما بعد إلى صعوبة التمييز بينها و بين معالم الدين الجديد، إلاّ أنّ ذلك لم يمنع من القول بأنّ معظم هذه الثقافات قد احتفظ بسماته العامة التي تميزه عن غيره، وهكذا أيضاً تجد انّ المسلمين قد ورثوا تراثاً إنسانياً ضخماً، كان عليهم أن يدرسوه ويمحّصوه ويضيفوا إليه ويقتبسوا منه ما يتفق ودينهم ويردّوا على الآراء التي لا تتفق والروح الإسلامية الجديدة.[1]

أقول: إنّ ما اقترحه الأُستاذ الفاضل من أنّه كان من واجب المسلمين دراسة التراث وتمحيصه، لم يعر له المشايخ أهمّيّة فقد حرّموا علم الكلام ودراسته وأدانوا الممارسين له، واستمرت فكرة التحريم إلى عصر أبي الحسن علي بن إسماعيل إمام الأشاعرة(٢٦٠ـ٣٢٤هـ) الذي كتب رسالة في استحسان الخوض في علم

١. علم الكلام ومدارسه: ٣١ ـ ٣٢.

الكـلام، وحاول بـذلك القضـاء على فكرة أهـل الحديث المحرّمين لعلم الكـلام والبحوث العقلية .

فمع أنّ الإمـام تـاب عن الاعتـزال والتحق بـركب الحنـابلـة، فمع ذلك استحسن الخوض في علم الكلام.

ولما كانت الرسـالة تحتوي على نكات بديعة تعرب عـن رسوخ الرجعيّة بين أهل الحديث وتعالج ذلك الـداء العضال، فقد ارتأينـا الإتيان بنصّها .قـال بعد التسمية والحمد والتسليم :

رسالة الإمام الأشعري في استحسان الخوض في علم الكلام[1]

أمّـا بعد فإنّ طـائفـة من الناس جعلـوا الجهل رأس مـالهم، وثقل عليهم النظر والبحث عـن الدين، ومالـوا إلى التخفيف والتقليد، وطعنـوا على من فتّش عن أُصـول الدين ونسبـوه إلى الضـلال، وزعموا أنّ الكـلام في الحركة والسكـون والجسم والعـرض والألوان والأكـوان والجزء والطفـرة وصفـات الباري عـزّ وجلّ بـدعة وضـلالة، وقـالوا: لـو كان هـدى ورشاداً لتكلّم فيـه النبي ﷺ وخلفـاؤه وأصحابه! قالوا: ولأنّ النبي ﷺ لم يمت حتّى تكلم في كلّ ما يحتاج إليه من أُمور الدين، وبيّنه بياناً شافياً، ولم يترك بعـده لأحد مقالاً فيما للمسلمين إليه حاجة من أُمور دينهم، وما يقربهم إلى الله عزّ وجلّ ويبـاعدهم عن سخطه؛ فلما لم يرووا عنه الكلام في شيء ممّا ذكـرناه ، علمنا أنّ الكلام فيه بدعة ، والبحـث عنه ضلالة ، لأنّه لو كان خيـراً لما فات النبي ﷺ ولتكلّموا فيه، قالـوا: ولأنّه ليس يخلو ذلك من وجهين: إمّا أن يكونوا علموه فسكتوا عنـه، أو لم يعلموه بل جهلوه، فإن كانوا

---

١ . الرسالة طبعـت للمرّة الثالثة في حيدر آباد الدكن (الهنـد) عام ١٤٠٠هـ/ ١٩٧٩ م، كما طبعت في ذيل كتاب اللمع للأشعري أيضاً.

علموه ولم يتكلموا فيه وسعنا أيضاً نحن السكوت عنه، كما وسعهم السكوت عنه، ووسعنا ترك الخوض كما وسعهم ترك الخوض فيه، ولأنّه لو كان من الدِّين ما وسعهم السكوت عنه، وإن كانوا لم يعلموه وسعنا جهله كما وسع أُولئك جهله، لأنّه لو كان من الدين لم يجهلوه، فعلى كلا الوجهين الكلام فيه بدعة، والخوض فيه ضلالة، فهذه جملة ما احتجوا به في ترك النظر في الأُصول.

قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: الجواب عنه من ثلاثة أوجه:

أحدها: قلب السؤال عليهم بأن يقال: النبي ﷺ لم يقل أيضاً إنّه من بحث عن ذلك وتكلّم فيه فاجعلوه مبتدعاً ضالاً، فقد لزمكم أن تكونوا مبتدعة ضُلاّلاً، إذ قد تكلّمتم في شيء لم يتكلّم فيه النبي ﷺ، وضلّلتم من لم يضلله النبي ﷺ.

الجواب الثاني: أن يقال لهم: إنّ النبيّ ﷺ لم يجهل شيئاً ممّا ذكرتموه من الكلام في الجسم والعرض، والحركة والسكون، والجزء والطفرة، وإن لم يتكلّم في كلّ واحد من ذلك معيناً، وكذلك الفقهاء والعلماء من الصحابة، غير أنّ هذه الأشياء التي ذكرتموها معينة، أُصولها موجودة في القرآن والسنّة جملة غير منفصلة.

فأمّا الحركة والسكون والكلام فيهما فأصلهما موجود في القرآن، وهما يدلاّن على التوحيد، وكذلك الاجتماع والافتراق، قال الله تعالى مخبراً عن خليله إبراهيم صلوات الله عليه وسلامه في قصة أُفول الكوكب والشمس والقمر[1] وتحريكها من مكان إلى مكان، ما دلّ على أنّ ربّه عزّ وجلّ لا يجوز عليه شيء من ذلك، وأنّ من جاز عليه الأُفول والانتقال من مكان إلى مكان فليس بإله.

وأمّا الكلام في أُصول التوحيد فمأخوذ أيضاً من الكتاب، قال الله

---

١. الأنعام:٧٥ـ٧٩.

تعالى: ﴿لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلاّ اللهُ لَفَسَدَتا﴾[١]، وهذا الكلام موجز منبه على الحجة بأنّه واحد لا شريك له، وكلام المتكلّمين في الحجاج في التوحيد بالتمانع والتغالب فإنّما مرجعه إلى هذه الآية، وقوله عزّ وجلّ: ﴿مَا اتّخذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ وَما كانَ مَعَهُ مِنْ إِلهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلهٍ بِما خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلىٰ بَعْضٍ﴾[٢]، إلى قوله عزّ وجلّ: ﴿أَمْ جَعَلُوا للهِ شُرَكاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾.[٣]

وكلام المتكلّمين في الحجاج في توحيد الله إنّما مرجعه إلى هذه الآيات التي ذكرناها، وكذلك سائر الكلام في تفصيل فروع التوحيد والعدل إنّما هو مأخوذ من القرآن، فكذلك الكلام في جواز البعث واستحالته الذي قد اختلف عقلاء العرب ومن قبلهم من غيرهم فيه حتّى تعجبوا من جواز ذلك فقالوا: ﴿أَإِذا مِتْنا وَكُنّا تُراباً ذٰلِكَ رَجْعٌ بَعيدٌ﴾[٤]، وقولهم: ﴿هَيْهاتَ هَيْهاتَ لِما تُوعَدُونَ﴾[٥]، وقولهم: ﴿مَنْ يُحْيِي العِظامَ وَهِيَ رَميمٌ﴾[٦]، وقوله تعالى: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنّكُمْ إِذا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُراباً وَعِظاماً أَنّكُمْ مُخْرَجُونَ﴾[٧]،وفي نحو هذا الكلام منهم إنّما ورد بالحجاج في جواز البعث بعد الموت في القرآن تأكيداً لجواز ذلك في العقول، وعلّم نبيّه ﷺ، ولقّنه الحجاج عليهم في إنكارهم البعث من وجهين على طائفتين: منه طائفة أقرّت بالخلق الأوّل وأنكرت الثاني، وطائفة جحدت ذلك بقدم العالم فاحتج على المقر منها بالخلق الأوّل بقوله: ﴿قُلْ يُحْييها الّذي أنشأها أوّلَ مرّةٍ﴾[٨]، و بقوله: ﴿وَهُوَ الَّذي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾[٩] وبقوله: ﴿كَما

---

١. الأنبياء:٢٢.
٢. المؤمنون:٩١.
٣. الرعد:١٦.
٤. ق:٣.
٥. المؤمنون:٣٦.
٦. يس:٧٨.
٧. المؤمنون:٣٥.
٨. يس:٧٩.
٩. الروم:٢٧.

بَدأَكُمْ تَعُودُونَ﴾[١]، فنبّهم بهذه الآيات على أنّ من قدر أن يفعل فعلاً على غير مثال سابق فهو أقدر أن يفعل فعلاً محدثاً، فهو أهون عليه فيما بينكم وتعارفكم، وأمّا الباري جلّ ثناؤه وتقدست أسماؤه فليس خَلْقُ شيء بأهون عليه من الآخر، وقد قيل: إنّ الهاء في «عليه» إنّما هي كناية للخلق بقدرته، إنّ البعث والإعادة أهون على أحدكم وأخفّ عليه من ابتداء خلقه، لأنّ ابتداء خلقه إنّما يكون بالولادة والتربية وقطع السرة والقماط وخروج الأسنان، وغير ذلك من الآيات الموجعة المؤلمة، وإعادته إنّما تكون دفعة واحدة ليس فيها من ذلك شيء، فهي أهون عليه من ابتدائه، فهذا ما احتجّ به على الطائفة المقرة بالخلق.

وأمّا الطائفة التي أنكرت الخلق الأوّل والثاني، وقالت بقدم العالم فإنّما دخلت عليهم شبهة بأن قالوا: وجدنا الحياة رطبة حارة، والموت بارداً يابساً، وهو من طبع التراب، فكيف يجوز أن يجمع بين الحياة والتراب والعظام النخرة فيصير خلقاً سوياً، والضدّان لا يجتمعان، فأنكروا البعث من هذه الجهة.

ولعمري إنّ الضدّين لا يجتمعان في محلّ واحد، ولا في جهة واحدة، ولا في الموجود في المحل، ولكنّه يصحّ وجودهما في محلّين على سبيل المجاورة، فاحتجّ الله تعالى عليهم بأن قال: **﴿الّذي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ ناراً فَإِذا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُون﴾**[٢]، فردّهم الله عزّ وجلّ في ذلك إلى ما يعرفونه ويشاهدونه من خروج النار على حرها ويبسها من الشجر الأخضر على برده ورطوبته، فجعل جواز النشأة الأُولى دليلاً على جواز النشأة الآخرة، لأنّها دليل على جواز مجاورة الحياة التراب والعظام النخرة، فجعلها خلقاً سوياً وقال: **﴿كَما بَدَأْنا أَوّلَ خَلْقٍ**

---

١. الأعراف:٢٩.

٢. يس:٨٠.

نُعِيدُهُ﴾.[١]

وأمّا ما يتكلّم به المتكلّمون من أنّ الحوادث أوّلاً [٢] وردهم على الدهرية أنّه لا حركة إلاّ وقبلها حركة، ولا يوم إلاّ وقبله يوم، والكلام على من قال: ما من جزء إلاّ وله نصف لا إلى غاية، فقد وجدنا أصل ذلك في سنّة رسول الله ﷺ حين قال: «لا عدوى ولا طيرة» فقال أعرابي: فما بال الإبل كأنّها الظباء تدخل في الإبل الجَربى فتجرب؟ فقال النبيّ ﷺ: فمن أعدى الأوّل؟ فسكت الأعرابي لما أفحمه بالحجة المعقولة.

وكذلك نقول لمن زعم أنّه لا حركة إلاّ وقبلها حركة: لو كان الأمر هكذا لم تحدث منها واحدة، لأنّ ما لا نهاية له لا حدث له، وكذلك لما قال الرجل: يا نبيّ الله! إنّ امرأتي ولدت غلاماً أسود وعرض بنفيه، فقال النبيّ ﷺ: هل لك من إبل؟ فقال: نعم! قال: فما ألوانها، قال: حمر، فقال رسول الله ﷺ: هل فيها من أورق؟ قال: نعم! إنّ فيها أورق، قال: فأنى ذلك؟ قال: لعل عرقاً نزعه، فقال النبي ﷺ: ولعلّ ولدك نزعه عرق. فهذا ما علّم الله نبيّه من ردّ الشيء إلى شكله ونظيره، وهو أصل لنا في سائر ما نحكم به من الشبيه والنظير.

وبذلك نحتج على من قال: إنّ الله تعالى و تقدّس يشبه المخلوقات، وهو جسم، بأن نقول له: لو كان يشبه شيئاً من الأشياء لكان لا يخلو من أن يكون يشبهه من كلّ جهاته، أو يشبهه من بعض جهاته، فإن كان يشبهه من كلّ جهاته وجب أن يكون محدثاً من كلّ جهاته، و إن كان يشبهه من بعض جهات وجب أن يكون محدثاً مثله من حيث أشبهه، لأنّ كلّ مشتبهين حكمهما واحد فيما اشتبها له،

---

١. الأنبياء: ١٠٤.

٢. بياض في الأصل.

ويستحيل أن يكون المحدث قديماً والقديم محدثاً، وقد قال تعالى وتقدّس: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[١]، و قال تعالى وتقدّس: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحدٌ﴾.[٢]

وأمّا الأصل بأنّ للجسم نهاية وأنّ الجزء لا ينقسم فقوله عزّ وجلّ اسمه: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْناهُ في إِمامٍ مُبين﴾[٣] ومحال إحصاء ما لا نهاية له، ومحال أن يكون الشيء الواحد ينقسم[٤] لأنّ هذا يوجب أن يكونا شيئين، وقد أخبر أنّ العدد وقع عليهما. وأمّا الأصل في أنّ المحدث للعالم يجب أن يتأتى له الفعل نحو قصده واختياره وتنتفي عنه كراهيته، فقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ ما تُمْنُونَ* ءَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخالِقُونَ﴾[٥]، فلم يستطيعوا أن يقولوا بحجّة أنّهم يخلقون مع تمنّيهم الولد، فلا يكون مع كراهيته له، فنبّههم أنّ الخالق هو من يتأتى منه المخلوقات على قصده.

وأمّا أصلنا في المناقضة على الخصم في النظر فمأخوذ من سنّة سيّدنا محمّد ﷺ، وذلك تعليم الله عزّ وجلّ إيّاه حين لقي الحبر السمين، فقال له: نشدتك بالله هل تجد فيما أنزل الله تعالى من التوراة أنّ الله تعالى يبغض الحبر السمين؟ فغضب الحبر حين عيّره بذلك، فقال: «ما أنزل الله على بشر من شيء»، فقال الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الكِتابَ الّذي جاءَ بِهِ مُوسىٰ نُوراً﴾[٦] فناقضه عن قرب، لأنّ التوراة شيء، وموسى بشر، وقد كان الحبر مقراً بأنّ الله تعالى أنزل التوراة على موسى.

---

١. الشورى:١١
٢. الإخلاص:٤.
٣. يس:١٢.
٤. بياض في الأصل.
٥. الواقعة:٥٨ـ٥٩.
٦. الأنعام:٩١.

وكذلك ناقض الـذين زعموا أنّ الله تعالى عهد إليهم أن لا يؤمنـوا لرسول حتّى يأتيهم بقـربان تأكلـه النـار، فقال تعـالى: ﴿ قُلْ قَـدْ جـاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِـالْبَيِّناتِ وَبِـالَّذي قُلْتُـمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَـادِقِينَ﴾[١] فناقضهم بـذلك وحاجهم.

وأمّا أصلنا في استدراكنا مغالطة الخصوم فمأخوذ من قوله تعالى : ﴿إِنَّكُمْ وَمـا تَعْبُـدُونَ مِنْ دُونِ الله حَصَـبُ جَهَنَّم أَنْتُمْ لَها وٰارِدُون﴾ ـ إلى قولـه : ـ ﴿ لا يَسْمَعُون﴾[٢]، فإنّها لما نـزلت هذه الآيـة بلغ ذلك عبد الله بن الـزبعرى ـ و كان جـدلاً خصماً ـ فقـال: خصمت محمداً وربّ الكعبـة، فجاء إلى رسـول الله ﷺ، فقـال: يـا محمـد! ألست تـزعم أنّ عيسى و عـزيـراً والملائكـة عبـدوا؟ فسكت النبيّ ﷺ لا سكـوت عي ولا منقطع، تعجباً من جهلـه، لأنّـه ليس في الآية مـا يوجب دخول عيسى و عزير والملائكة فيها، لأنّه قال: ﴿وما تعبدون﴾ ولم يقل و كلّ ما تعبدون من دون الله، وإنّما أراد ابن الزبعرى مغالطة النبي ﷺ ليوهم قومه أنّه قد حاجّه، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ الّذينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنّا الْحُسْنىٰ﴾ يعني من المعبودين ﴿ أُولئِكَ عَنْها مُبْعَدُونَ﴾[٣] فقرأ النبيّ ﷺ ذلك، فضجّوا عنـد ذلك لئلا يتبين انقطاعهم وغلطهم، فقالوا: ﴿ءآلهتنا خيرٌ أَمْ هو ﴾ يعنون عيسى، فأنزل الله تعالى: ﴿ولمّا ضرب ابن مَـرْيَم مَثـلاً إذا قَـومك مِنْـهُ يَصـدّون﴾ إلى قـولـه: ﴿خَصِمُون﴾[٤]، وكلّ ما ذكـرناه من الآي أو لم نذكره أصل، وحجـة لنا في الكلام

---

١. آل عمران:١٨٣.

٢. الأنبياء:٩٨ـ ١٠٠.

٣. الأنبياء:١٠١.

٤. الزخرف:٥٧ـ٥٨.

فيما نـذكـره من تفصيل، وإن لم تكن مسألـة معيّنـة في الكتاب والسنّـة، لأنّ مـا حدث تعيينها من المسائل العقليات في أيّام النبي ﷺ والصحابة قد تكلّموا فيه على نحو ما ذكرناه.

والجواب الثالث: إنّ هذه المسائل التي سألوا عنها قد علمها رسول الله ﷺ ولم يجهل منها شيئاً مفصلاً، غير أنّها لم تحدث في أيّام معيّنة فيتكلّم فيها، أو لا يتكلّم فيها، وإن كانت أُصولها موجودة في القرآن والسنّة، وما حدث من شيء فيما له تعلّق بالدين من جهة الشريعة فقد تكلّموا فيه وبحثوا عنه وناظروا فيه وجادلوا وحـاجّـوا، كمسـائل العـول والجدات من مسـائل الفـرائض، وغير ذلك من الأحكام، وكـالحرام والبـائن وألبتة وحبلك على غـاربك. وكـالمسـائل في الحدود والطلاق ممّـا يكثر ذكرهـا، ممّا قد حـدثت في أيّامهم، ولم يجئ في كلّ واحـدة منها نصّ عن النبي ﷺ، لأنّـه لـو نصّ على جميع ذلك مـا اختلفـوا فيهـا، ومـا بقي الخلاف إلى الآن.

وهذه المسائل ـ و إن لم يكن في كلّ واحـدة منها نصّ عن رسول الله ﷺ ـ فإنّهم ردّوها وقـاسوها على ما فيـه نصّ من كتاب الله تعالى والسنّـة واجتهادهم، فهذه أحكام حوادث الفروع، ردّوها إلى أحكام الشريعة التي هي فروع لا تستدرك أحكامهـا إلاّ من جهة السمع والرسل، فأمّا حـوادث تحدث في الأُصول في تعيين مسـائل فينبغي لكلّ عاقل مسلم أن يـرد حكمها إلى جملـة الأُصول المتّفق عليهـا بالعقل والحس والبديهة وغير ذلك، لأنّ حكم مسائل الشرع التي طريقها السمع أن تكون مردودة إلى أُصول الشرع الذي طـريقه السمع، وحكـم مسائل العقليات والمحسوسات أن يرد كلّ شيء من ذلك إلى بابه، ولا يخلط العقليات بالسمعيات ولا السمعيات بالعقليات، فلـو حدث في أيّام النبيّ ﷺ الكلام في خلق القرآن

وفي الجزء والطفرة بهذه الألفاظ لتكلّم فيه وبيّنه، كما بيّن سائر ما حدث في أيّامه من تعيين المسائل، وتكلّم فيها.

ثمّ يقال: النبيّ ﷺ لم يصحّ عنه حديث في أنّ القرآن غير مخلوق أو هو مخلوق، فلم قلتم: إنّه غير مخلوق؟

فإن قالوا: قد قاله بعض الصحابة وبعض التابعين، قيل لهم: يلزم الصحابي والتابعي مثل ما يلزمكم من أن يكون مبتدعاً ضالاً إذ قال ما لم يقله الرسول ﷺ.

فإن قال قائل: فأنا أتوقّف في ذلك فلا أقول: مخلوق ولا غير مخلوق، قيل له: فأنت في توقّفك في ذلك مبتدع ضالّ، لأنّ النبيّ ﷺ لم يقل: إن حدثت هذه الحادثة بعدي توقّفوا فيها ولا تقولوا فيها شيئاً، ولا قال: ضلّلوا وكفّروا من قال بخلقه أو من قال بنفي خلقه.

وخبرونا، لو قال قائل: إنّ علم الله مخلوق، أكنتم تتوقّفون فيه أم لا؟

فإن قالوا: لا، قيل لهم: لم يقل النبيّ ﷺ ولا أصحابه في ذلك شيئاً، وكذلك لو قال قائل: هذا ربّكم شبعان أو ريان، أو مكتس أو عريان، أو مقرور أو صفراوي أو مرطوب، أو جسم أو عرض، أو يشم الريح أو لا يشمها، أو هل له أنف وقلب وكبد وطحال، وهل يحج في كلّ سنة، وهل يركب الخيل أو لا يركبها، وهل يغتمّ أم لا؟ ونحو ذلك من المسائل، لكان ينبغي أن تسكت عنه، لأنّ رسول الله ﷺ لم يتكلّم في شيء من ذلك ولا أصحابه، أو كنت لا تسكت، فكنت تبيّن بكلامك أنّ شيئاً من ذلك لا يجوز على الله عز وجلّ، وتقدس كذا وكذا بحجّة كذا وكذا.

فإن قال قائل: أسكت عنه ولا أُجيبه بشيء، أو أهجره، أو أقوم عنه، أو لا

أسلم عليه، أو لا أعوده إذا مرض، أو لا أشهد جنازته إذا مات.

قيل له: فيلزمك أن تكون في جميع هذه الصيغ التي ذكرتها مبتدعاً ضالاً، لأنّ رسول الله ﷺ لم يقل: مَن سأل عن شيء من ذلك فاسكتوا عنه، ولا قال: لا تسلموا عليه، ولا: قوموا عنه، ولا قال شيئاً من ذلك، فأنتم مبتدعة إذا فعلتم ذلك، ولم لم تسكتوا عمّن قال بخلق القرآن، ولم كفّرتموه، ولم يرد عن النبيّ ﷺ حديث صحيح في نفي خلقه، وتكفير من قال بخلقه.

فإن قالوا: إنّ أحمد بن حنبل ، قال بنفي خلقه، وتكفير من قال بخلقه، قيل لهم: ولِمَ لم يسكت أحمد عن ذلك بل تكلّم فيه؟

فإن قالوا: لأنّ العباس العنبري ووكيعاً و عبد الرحمن بن مهدي وفلاناً و فلاناً قالوا إنّه غير مخلوق، ومن قال بأنّه مخلوق فهو كافر.

قيل لهم: ولِمَ لم يسكت أولئك عمّا سكت عنه ﷺ؟

فإن قالوا: لأنّ عمرو بن دينار و سفيان بن عيينة وجعفر بن محمد رضي الله عنهم وفلاناً وفلاناً قالوا: ليس بخالق ولا مخلوق.

قيل لهم: ولِمَ لم يسكت أُولئك عن هذه المقالة، ولم يقلها رسول الله ﷺ؟

فإن أحالوا ذلك على الصحابة أو جماعة منهم كان ذلك مكابرة. فإنّه يقال لهم: فلم لم يسكتوا عن ذلك، ولم يتكلّم فيه النبيّ ﷺ. ولا قال: كفروا قائله، وإن قالوا: لابدّ للعلماء من الكلام في الحادثة ليعلم الجاهل حكمها، قيل لهم: هذا الذي أردناه منكم، فلم منعتم الكلام، فأنتم إن شئتم تكلّمتم، حتّى إذا انقطعتم قلتم: نهينا عن الكلام؛ وإن شئتم قلّدتم من كان قبلكم بلا حجّة ولا بيان، وهذه شهوة وتحكّم.

ثمّ يقال لهم: فالنبيّ ﷺ لم يتكلّم في النذور والوصايا، ولا في العتق، ولا في حساب المناسخات، ولا صنف فيها كتاباً كما صنعه مالك والثوري والشافعي وأبو حنيفة، فيلزمكم أن يكونوا مبتدعة ضلالاً إذ فعلوا ما لم يفعله النبي ﷺ، وقالوا ما لم يقله نصاً بعينه، وصنّفوا ما لم يصنّفه النبي ﷺ، وقالوا بتكفير القائلين بخلق القرآن ولم يقله النبيّ ﷺ. وفيما ذكرنا كفاية لكلّ عاقل غير معاند.

نجز والحمد لله، وصلى الله على سيّدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

٨

بدايات الخلاف

في عصر الرسول ﷺ وبعد رحيله

ذكر أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني (٤٧٩ـ ٥٤٨هـ) بدايات الخلاف بين المسلمين في عصر الرسول ﷺ وبعده، ولكنّها بدايات خلاف وليست بدايات خلاف في مسائل كلاميّة، وكان عليه عقد فصل لبدايات الخلاف وفصل آخر لبدايات الخلاف في المسائل الكلاميّة. وها نحن نذكر كلتا البدايات في مقامين:

المقام الأوّل: في بدايات الخلاف في عصر الرسول ﷺ

إنّ الرسول الأعظم ﷺ ـ بما أنّه لا ينطق عن الهوى وأنّ ما يقوله ويفعله إنّما هو وحي يُوحى إليه ـ كان سدّاً منيعاً لنشوء الخلاف، ولو حصل هناك خلاف بين الصحابة فإنّما هو خلاف سطحي، يرتفع غالباً بإرشاداته وتوجيهاته، ونحن نذكر نموذجين من ذلك:

١. قسّم رسول الله ﷺ أموال بيت المال بين المسلمين في غزوة الطائف،

ووزّع الخمس (الـذي هـو حقّـه الخاص بـه) بين أشراف قـريش الحديثي عهـد بالإسلام بُغيـة تأليف قلوبهم، فأعطى من هذا المال لأبي سفيـان بن حرب، وابنه معاوية، وحكيم بن حزام، والحارث بن الحارث، والحارث بن هشام، و سهيل بن عمرو، و حويطب بن عبد العزّى، والعـلاء بن جارية، وصفوان بن أُمية، وغيرهم ممّن كانوا يعادونه إلى الأمس القريب، فأعطى لكلّ واحد منهم مائة بعير.[١]

لقد شق هـذا الأُسلوب في تقسيم الغنائم على الأنصار لجهلهم بـا لمصالح الّتي كـان النبيّ ﷺ يـراعيها ويتبنّـاهـا في هـذا التقسيم وكـانوا يتصـوّرون انّ التعصب القَبَلي هو الذي دفع بالـرسول إلى تقسيم خمس الغنيمة بين أبناء قبيلته، فجاء ذو الخويصرة التميمي فقال لرسول الله ﷺ بكل وقاحة: يا محمّد قد رأيتُ ما صنعتَ في هـذا اليوم لم أرك عـدلتَ، فغضب رسـول الله ﷺ من كلامـه، فقال: ويحك إذا لم يكُن العـدلُ عنـدي فعند من يكـون؟ فطلب عمـر بن الخطـاب من رسول الله ﷺ أن يأذن لـه بقتلـه، فلم يأذن لـه، ثمّ أخبر ﷺ عن مصيره السيِّـئ، وقال:

دعـه فإنّه سيكـون له شيعـة يتعمّقون في الـدين حتّى يخرجوا منـه كما يخرج السهم من الرمية.[٢]

٢. رفع سعد بن عبادة شكوى الأنصار حول كيفية تقسيم الخمس، فقال له النبي ﷺ: إجْمع مَنْ كان هـاهنا من الأنصـار، فتكلّم النبيّ ﷺ بعد حمد الله وثنائه وقال:

«يا معشر الأنصار ما مَقالةٌ بلغتني عنكم وجدَةٌ وجدتموها في أنفسكم؟ ألم

---

١. السيرة النبوية:٣/ ٤٤٣؛ إمتاع الأسماع:٤٢٣.

٢. السيرة النبوية:٢/ ٤٩٦؛ السيرة الحلبية:٣/ ١٢٣.

آتكم ضُلاّلاً فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله، وأعداءً فألّف الله بين قُلوبكم»؟!

قالوا: بلى، الله ورسوله أَمَنُّ وأفضلُ!

قال:

«ألا تجيبوني يا معشر الأنصار»؟

قالوا: وماذا نجيبك يا رسول الله؟ لرسول الله المَنُّ والفضل.

قال:

«أما والله لو شِئْتُمْ قُلْتُمْ فَصدَقْتُم، أتيتَنا مكذَّباً فصدّقناك، ومخذولاً فنصرناكَ، وطريداً فآويناك، وعائلاً فآسيناك!وَجدتُم في أنفسِكُم يا معشرَ الأنصار في شيء من الدُّنيا، تألّفتُ به قوماً ليسلمُوا ووكَلتُكُمْ إلى إسلامكم، أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟

والذي نفسُ محمّد بيده لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار، ولو سلك الناس شِعْباً وسلكتِ الأنصار شِعْباً لسلكتُ شِعْب الأنصار».

ثمّ ترحّم على الأنصار وعلى أبنائهم وعلى أبناء أبنائهم فقال:

«اللّهمّ ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار».

وقد كانت كلمات النبي ﷺ هذه من القوة والعاطفة بحيث أثارت مشاعر الأنصار، فبكوا بعد سماعها بكاء شديداً حتّى اخضلّت لحاهُمْ بالدُّموع وقالوا: رَضينا يا رسول الله حظّاً وقسماً!!!

ثمّ انصرف رسول الله ﷺ و تفرّقوا.[1]

---

١. السيرة النبوية:٢/ ٤٩٨ و ٤٩٩؛ المغازي:٣/ ٩٥٧ و ٩٥٨.

نعم قد وقع في عصر الرسول خلاف بينه و بين بعض أصحابه لم يحسم في حياته بل بقى الخلاف إلى أن قبض رسول الله ﷺ، وإليك شيئاً من هذا القسم.

١. تجهيز جيش أُسامة

كان النبيّ ﷺ مهتماً بالرّوم ويرى أنّهم يشكّلون خطراً كبيراً على الدولة الفتيّة الإسلامية، ولأجل ذلك سار في العام التاسع من هجرته إلى تبوك مع ثلاثين ألفاً من أصحابه، وجاء فلم ير هناك أثراً للعدوّ وعقد مواثيق مع رؤساء القبائل في المنطقة ورجع إلى المدينة وجهّز في أُخريات عمره، وقبل أن يطرأ عليه المرض جيشاً أمّر عليه أُسامة بن زيد الذي كان أبوه أيضاً أميراً على الجيش، وغزا في أرض مؤتة وكان الناس على استعداد للنفر وقد اجتمع كثير منهم في معسكر «جُرَف».

عقد رسول الله ﷺ اللواء لأُسامة، ثمّ مرض بشدة وأصابه صداع شديد ألزمه الفراش واستمرّ المرض عدّة أيّام حتّى قضى عليه ﷺ، وعندما شاهد النبي ﷺ وهو طريح الفراش استثقال صحابته في النفر و الحركة إلى تبوك، خرج من البيت وقال: جهّزوا جيش أُسامة، لعن الله من تخلّف عنه، فقال قوم: يجب علينا امتثال أمره، وأُسامة قد برز من المدينة.

وقال قوم: قد اشتدّ مرض النبي فلا تسع قلوبنا مفارقته، والحالة هذه، نَصْبر حتى نُبْصِر أيّ شيء يكون من أمره.

وعلى كلّ تقدير لم يتحقّق أحد آمال النبي في أيّام حياته، بسبب فقدان الانضباط بين الصحابة والذي أبداه فريق من شيوخ القوم وأعيان الجيش.

٢. الأمر بإحضار القلم والدواة

لمّا اشتدّ مرض رسول الله ﷺ وحضر عنده أعيان صحابته، أمر بإحضار القلم والدواة والقرطاس ليكتب لهم شيئاً حتّى لا يضلّوا بعده، وقد ذكر ذلك مسلم في صحيحه كما ذكره البخاري في صحيحه في عدّة مواطن، ونحن نذكر ماأخرجه مسلم في صحيحه عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس، قال:

لمّا حُضِرَ رسول الله ﷺ وفي البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب فقال النبي ﷺ: هلمّ، أكتب لكم كتاباً لا تضلّون بعده، فقال عمر: إنّ رسول الله ﷺ قد غلب عليه الوجع وعندكم القرآن، حسبنا كتاب الله، فاختلف أهل البيت فاختصموا... فلمّا أكثروا اللغو والاختلاف عند رسول الله ﷺ قال رسول الله ﷺ: قوموا عنّي ولا ينبغي عندي التنازع.

وكان ابن عباس يقول: إنّ الرزيّة كلّ الرزيّة ما حال بين رسول الله ﷺ وبين أن يُكتب لهم ذلك الكتاب من اختلافهم ولغطهم.[١]

الخلافات بعد رحيل الرسول ﷺ

كان وجود الرسول الأعظم ﷺ بين المسلمين، يمثّل ـ غالباً ـ سدّاً منيعاً أمام نشوب الخلاف والشقاق بينهم، وبعد رحيله ﷺ بدأ النزاع بينهم في المسائل الفقهية والعقائدية... وأخذ يتّسع شيئاً فشيئاً إلى أن بلغ درجة، تفرّقوا معها إلى فرق ومذاهب مختلفة.

والخلافات بعد رحيله تنقسم إلى قسمين:

---

١. صحيح مسلم:٥/ ٧٦، باب ترك الوصية لمن ليس له شيء يوصي فيه من كتاب الوصية.

١. الخلافات الفرعية كالخلاف في موضع دفنه، فقد اتّفقوا بعد الخلاف على دفنه في بيته لما روي عن النبي ﷺ أنّه قال: «الأنبياء يُدفنون حيث يَموتون».
ونظيره الخلاف في أمر فدك وأنّ النبي يورث أو لا، فادّعى أبو بكر أنّه سمع النبي ﷺ يقول: نحن معاشر الأنبياء لا نورّث، وخالفه عليعليه السلام وبنت النبي ﷺ وجميع أهل البيتعليهم السلام في أنّ النبي ﷺ يُورِّث كما يُورث الآخرون، وأنّ ما رواه أبو بكر خبر واحد مخالف للقرآن الكريم حيث ورث أبناء الأنبياء آباءَهم.

ولو كان النبي ﷺ كسائر الأنبياء لا يُورِّث، كان عليه أن يبيّن ذلك لأولاده حتّى لا يدّعوا بعده ما ليس لهم، كما عمل بذلك في باب الزكاة و قال: إنّ الصدقة حرام على آل النبي ﷺ.

٢. الخلافات الأُصولية أهمّها مسألة الإمامة بعد رحيل الرسول، وقد عدّ الشهرستاني ذلك الخلاف أعظم خلاف بين الأُمّة وقال: «ما سلّ سيف في الإسلام على قاعدة دينية مثل ما سلّ على الإمامة في كلّ زمان».

إنّ الخلافة في العقيدة الشيعية منصب إلهي كالنبوة يعطى لأفضل أفراد الأُمّة وأصلحهم وأعلمهم، والفرق الواضح بين الإمام والنبي، هو أنّ النبي مؤسس الشريعة، و يوحىٰ إليه، ويتلقّى الكتاب من لدن الله تعالى، والإمام وإن كان لا يتمتع بواحد من هذه الشؤون، إلاّ أنّه يقوم بوظائف النبيّ كلّها ـ عدا ما استثنى ـ كنشر الإسلام، وتفسير الكتاب، وتبيين الأحكام، وقيادة المسلمين، و... .

نعم الإمامة عند أهل السنّة مسألة فرعية من مسائل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وعلى كلّ تقدير فإنّ هذا الخلاف هو الأساس لعامة الخلافات، ولو كانت الصحابة عملت بوصية النبي ﷺ في أهل بيته حيث قال في غير موضع: «إنّي

تـارك فيكم الثقلين: كتـاب الله وعترتي ما إن تمسكتم بهما لن تضلّـوا...» لـذابت سائر الخلافات بين المسلمين، وذلك لأنّ أهل البيت(كما في حديث الثقلين)، هم المرجع العلمي للأُمّـة، والخلافات تُردّ إليهـم، فيكون رأيهم وقضاؤهم هـو الرأي الحاسم والقـاطع ولكن القـوم ـ عفـا الله عنّـا وعنهم ـ أقصـوا أئمّـة أهل البيت وطمعوا في الخلافة ورغبوا عـن الإمامة، فلو كانوا مقدّمين مَن قـدّم الله ومؤخّرين مَن أخّر الله، لأكلـوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم، وكـان المسلمون يـداً واحدة دون أية فرقة وشقاق.

هذا وقد تفاقم الأمر بعد رحيل الرسول في مسائل كثيرة، لعدول الأكثر عن الخط الذي رسمـه لهم الرسول، وهـو التمسّك بأئمّة أهل البيت بعـد رحيله فيما يرجع إلى دينهم ودنياهم، ونودّ أن نشير إلى هذه الأُمور بإيجاز:

١. تولّى أبو بكـر الخلافة قرابة ثلاث سنين وأوصى بها بعد وفـاته إلى عمر بن الخطاب خلافاً للأصل الذي كـانوا يتبنّونه في السقيفة من اختيار الخليفة عبر البيعة، فلمّا ولّاه الخلافة واجه رفض بعض الأصحـاب واعتراضهم، وقالوا له: قد ولّيتَ علينا فظّاً غليظاً.

٢. تسنّمَ عثمان عـرش الخلافة بشـورى سداسية، عيّن أعضـاءَها عمـرُ بن الخطاب، الـذي تناسى الأصل في تعيين الخليفـة من حديث البيعـة ولما استتبّ لعثمان الأمر ارتكب أُموراً كثيرة نقموا بها عليه:

منها: ردّه الحكم بن أُميّـة إلى المدينـة بعـد أن طـرده رسـول الله ﷺ (وكان يسمّى طريد رسول الله) وبعد أن تشفّع إلى أبي بكر وعمر أيام خلافتهما فما أجابا إلى ذلك، ونفاه عمر من مقامه باليمن أربعين فرسخاً.

ومنها: نفيه أبا ذر إلى الربذة.

ومنها: تزويجه مروان بـن الحكم بنته وإعطاؤه خمس غنائم أفريقيـة وقد بلغ

مائتي ألف دينار.

ومنها: إيـواؤه عبد الله بن سعـد بن أبي سرح (وكان رضيعـه)بعد أن هـدر النبي ﷺ دمه وتوليته إياه مصر بأعمالها.

ولما عاد الحقّ إلى نصـابه وأخـذ الإمام علي عليه السلام زمام الخلافة نكثـت طائفة كالـزبير وطلحة، وقسطت طائفة أُخـرى كمعاوية وأتباعـه، ومرقت طائفة ثـالثة وهم الخوارج، والحديث ذو شجون، والتاريخ متكفّل لبيانها.

المقام الثاني

بدايات المسائل الكلامية

إنّ ما ذكر كان إلماماً عابراً بالخلافات التي سبّبت شقاق المسلمين واختلافهم، وحان الكلام في المقام الثاني وهو المسائل الكلامية الّتي أوجدت الفرق الكلامية، وإليك جذور هذه المسائل.

١. الإمامة تنصيصية أو انتخابية؟

إنّ الاختلاف في الإمامة الذي نشب في السقيفة وحتى بعد زمن، كان اختلافاً سياسياً لا كلامياً، ولم يكن مبنيّاً على قاعدة دينية وجدال كلامي، يظهر ذلك من المحادثات التي جرت في السقيفة وبعدها، وكان الأنصار يرون أنفسهم أولى بإدارة الأُمور لأنّهم آووا النبي ونصروه، وكان المهاجرون يرون أنفسهم أولى بها لأنّهم أصل النبي وعشيرته، إلى أن غلب منطقُ المهاجرين منطقَ الأنصار، فخرج أبو بكر من السقيفة ظافراً بعدما بايعته قبيلة الأوس وخمسة أشخاص من المهاجرين.

وأمّا في أواسط القرن الأوّل، فقد أصبحت مسألة الإمامة مسألة كلامية، وأنّ الإمامة منصب تنصيصي أو منصب انتخابي.

٢. مسألة التحكيم

لما قَبِل عليّ عليه السلام التحكيم تحت ضغط طائفة من أصحابه (الذين أصبحوا فيما بعدُ من الخوارج)ندم الذين فرضوا التحكيم على عليّ، وقالوا: إنّ تحكيم الرجال على خلاف القرآن الكريم لقوله سبحانه: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لله...﴾.[1]

والفارق بين خلاف الناكثين والقاسطين وبين خلاف المارقين هو أنّ خلاف الطائفتين الأُوليين لم يكن قائماً على أساس ديني أو قاعدة دينية، بخلاف الخوارج فإنّ اختلافهم كان مبدئياً حيث كانوا يردّدون كلمة «لا حكم إلاّ لله» و كان علي عليه السلام وابن عباس يحتجّان عليهم بالقرآن والسنّة.

٣. حكم مرتكب الكبيرة

لمّا ظهر التطرف في خلافة عثمان ودبّ الفساد في أجهزة الحكم وأنصارهم نجمت مسألة كلامية ، تدور حول حكم مرتكب الكبيرة، وقد استفحل أمرها فيما بعد أيّام محاربة الخوارج للأمويين الذين كانوا معروفين بالفسق والفجور، وسفك الدماء وغصب الأموال، فكان الخوارج يحاربونهم بحجّة أنّهم كفرة لا حرمة لدمائهم ولا لأعراضهم لاقترافهم الكبائر.

فاختلفوا إلى أقوال:

أ. مرتكب الكبيرة كافر.

ب. مرتكب الكبيرة فاسق منافق.

---

١. يوسف: ٤٠.

ج. مرتكب الكبيرة مؤمن فاسق.

د. مرتكب الكبيرة لا مؤمن ولا فاسق بل منزلة بين المنزلتين.

فالأوّل خيرة الخوارج، والثاني مختار الحسن البصري، والثالث مختار الإمامية وأهل الحديث وتبعهم الأشاعرة، والرابع نظرية المعتزلة.

٤. تحديد مفهوم الإيمان

وقد انبثق من النـزاع السابق نزاع آخر يتعلّق بتحـديد مفهوم الإيمان، وهل أنّ العمل داخل في حقيقة الإيمان أو لا؟

فالخوارج والمعتزلة على الأوّل، فمن لا عمل له فلا إيمان له.

والشيعة ومن وافقهم على الثاني، وأنّ العمل وإن كان من أركان الإيمان إلاّ أنّ الإيمان يزيد وينقص، فالعمل شرط النجاة لا شرط تحقّق الإيمان .

٥. الإرجاء والمرجئة

كـان الخوارج يشنُّون الغـارة على كلّ من ارتكب معصية كبيرة ــ ولو مـرّة واحدة ـ ويرونـه كافراً فاقداً للإيمان، فكـان لتلك الفكرة ردُّ فعل سيّء وهو إيلاء الاهتمام بالإيمان القلبي وإقصاء العمل، فظهرت طائفـة اشتهرت بالمرجئة وكانوا يهدفون إلى تقديم الإيمان وتأخير العمل، ويقولون «لا يضرّ مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة».

وهذه الفكرة مع سذاجتها يوم نشوئها تحوّلت إلى الإباحية، وفتحت أبواب المعاصي أمام المسلمين بلا اكتراث.

٦. القضاء والقدر

قد ثبت في محلّه أنّ اليهود كانوا يولون اهتماماً واسعاً بالتقدير، وقد رسخت الفكرة في الأوساط العربية في عصر الجاهليّة حتّى أن عمر بن الخطاب نسب انهزام المسلمين في يوم حنين إلى تقدير الله سبحانه.[١] مع أنّ القرآن يشهد على خذلان الصحابة للنبي، وتولّيهم في ميدان الحرب.[٢]

قد كانت فكرة القدر راسخة في أذهان الصحابة، القدر الذي كان يُفسّر بسلب الاختيار عن الإنسان وتفويض مصير الإنسان إلى عالم التقدير فكأنّ الإنسان ريشة في مهبِّ الريح العاصف، روى عبد الله بن عمر أنّه جاء رجل إلى أبي بكر فقال: أرأيت الزنا بقدر؟ قال: نعم. قال: الله قدّره عليّ ثمّ يعذّبني؟! قال: نعم، يابن اللخناء، أما والله لو كان عندي إنسان أمرته أن يجأ أنفك.[٣]

لا شكّ أنّ القضاء والقدر من المعارف القرآنية التي لا يمكن لأحد إنكارها ولا تأويلها غير أنّ الكلام في موضعين:

١. هل القضاء والقدر يسلبان الاختيار عن الإنسان في الأعمال التي يُجازىٰ بها الإنسان ويثاب عليها ؟

٢. هل يحقّ للحكّام تبرير أعمالهم الجنائية بالقضاء والقدر، مثلما كان الأمويون يفعلون ذلك؟

يقول أبو هلال العسكري: إنّ معاوية أوّل من زعم أنّ الله يريد أفعال العباد كلّها.[٤]

---

١. الواقدي، المغازي: ٣/ ٩٠٤.

٢. التوبة: ٢٥.

٣. السيوطي، تاريخ الخلفاء: ٩٥.

٤. الأوائل: ٢/ ١٣٥.

٧. مسألة التشبيه والتنزيه

قد تقدّم أنّ التوراة ملئت بالمتشابهات مثل الصورة والمشابهة والتكليم جهراً، والنزول على طور سيناء انتقالاً، والاستواء على العرش استقراراً، وجواز الرؤية، وغير ذلك.

فصار التشبيه والتجسيم شعاراً لليهود أو لصنوف منهم، ويكفيك أنّ التوراة تصف الله بصورة إنسان وله صورة، وتقول: خلق الله آدم على صورته وتقول: فرغ الله في اليوم السادس من عمله الذي عمل فاستراح في اليوم السابع، وأنّه يمشي بين رياض الجنّة وله نداء، إلى غير ذلك ممّا ورد في العهد القديم من التشبيه والتجسيم والتمثيل.[1]

وقد دسّ الأحبار كثيراً من البدع بين الأحاديث لاعتماد الرواة على أُناس؛ نظراء: كعب الأحبار، ووهب بن منبه، وتميم الداري، وغيرهم؛ وأصبحت مسألة التشبيه والصفات الخبرية ذات أهمية بين المسلمين، وقد أخذت طريقها إلى الصحاح والمسانيد وكتب التفسير.

٨. النسخ في الشريعة

قد سبق[2] أنّ اليهود تبنّت امتناع النسخ في الشريعة، فقالوا: لا يكون بعد شريعة موسى أيّة شريعة، لأنّ النسخ بداء، والبداء لا يجوز على الله، وبذلك صارت مسألة النسخ مسألة كلامية.

---

١. التوراة، سفر التكوين: نشأة العالم والبشرية، ص ٧٠، ط دار المشرق، بيروت.

٢. راجع ص ٩١.

٩. عصمة الأنبياء

إنّ أبرز ما يفترق فيه القرآن عن العهدين هو مسألة صيانة رجال الوحي والهداية عن الذنب والعصيان، خلافاً للتوراة وبعض ما ورد في الإنجيل، فقد جاء فيهما أساطير خيالية تمس كرامة الله أوّلاً، ثمّ كرامة الأنبياء ثانياً، فالأنبياء يشربون الخمر ويمكرون ويقترفون الزنا!!

١٠. حدوث القرآن وقدمه

إنّ مسألة حدوث القرآن وقدمه أو خلق القرآن وعدم خلقه طرحت في أيام المأمون وشقّت عصا المسلمين ووحدتهم النسبية إلى طرفين، وكانت يد يوحنا الدمشقي تلعب بهذا الأمر من وراء الستار، وكان يحاول أن يثبت قدم عيسى ـ بما أنّه كلمة الله ـ بالقول بقدم القرآن.

١١. التحسين والتقبيح العقليان

شغلت قاعدة التحسين والتقبيح العقليين بال الكثيرين من أقدم العصور إلى يومنا هذا، إذ قلّما يتّفق لباحث أن يخوض في الكلام والأخلاق دون أن يشير إليها.

وقد صارت القاعدة أساساً لعدّة مسائل كلامية، نأتي برؤوسها:

١. وجوب معرفة الله عقلاً.

٢. وصفه بالعدل والحكمة.

٣. لزوم اللطف على الله.

٤. بعثة الأنبياء.

٥. حسن التكليف.

٦. لزوم تزويد الأنبياء بالبيّنات والمعاجز.

٧. لزوم النظر في برهان مدّعي النبوة.

٨. العلم بصدق دعوى الأنبياء.

٩. الخاتمية واستمرار أحكام الإسلام.

١٠. الله عادل لا يجور.

١١. ثبات الأخلاق والقيم.

هذه بدايات علم الكلام في القرنين الأوّلين، وتوالى البحث حول مسائل أُخرى إلى أن أصبح علماً متكامل الجوانب يواكب علم الفلسفة في بحوثه الثلاثة:

١. الأُمور العامة.

٢. الطبيعيات والفلكيات.

٣. الإلهيات بالمعنى الأخصّ.

لا شكّ أنّ أكثر ما احتفلت به الكتب الكلامية في حقل الطبيعيات والكلّيات وما يرجع إلى الجوهر والعرض كان اقتباساً ممّا نقله المترجمون عن الإغريقيين وغيرهم من الهنود والفرس، وأمّا ما يرجع إلى الإلهيات فللإسلاميين فيها دور فعال لا ينكر، خصوصاً الفلاسفة منهم، فقد أسسوا قواعد، وكشفوا أُصولاً فلسفية لم يسبقهم إليها أحد.

هذا وقد نقل سيّد مشايخنا العلاّمة الطباطبائي في مقال له أُلقي في الذكرىٰ المئوية لميلاد صدر المتألهين: «إنّ المسائل الفلسفية الموروثة عن اليونانيين وغيرهم

لم تكن تتجاوز مائتي مسألة، وقد تكاملت بأيدي فلاسفة الإسلام ومتكلّميهم إلى أن بلغت سبعمائة مسألة»، لكنّه ﷺ لم يشر إلى عناوين المسائل المنقولة، والمسائل المؤسَّسة، ويا ليته كان يشير إلى عناوين هذه المسائل ليريح الآخرين من القيام بالعبء الثقيل في طريق تمييز هذين النوعين من المسائل.

قال الدكتور شبلي شميل: إنّ الفلسفة الإلهية بلغت بين المسلمين شأواً ولكن البيئات النصرانية لم تستطع أن تحتفظ بها، وصارت الفلسفة بعد الانتشار بينهم محكومة بالفناء والاندثار، حتّى قام رجال الكنائس يكافحونها بكلّ قوة غير ما يرجع إلى لاهوتية المسيح.[1]

لو كانت تلك الفلسفة الإسلامية (المشيّدة القواعد والمحرّرة المسائل) منتشرة بين أبناء الغرب لما ظهر بينهم ما ظهر من المسالك المتناقضة والمذاهب المتبدّدة التي يقضي الوجدان السليم ببطلانها.

ولو كانت الفلسفة الإسلامية دارجة يرجع إليها المادي في شبهاته وشكوكه والإلهي في تقويم عقائده وتحكيم مبانيه، لما ظهر سلطان المادي في البيئات العلمية.

ولو كانت الفلسفة الإسلامية سائدة على المفكّرين من الغربيين لما تسنّى للسوفسطائي أن يبث تلك الدعاوي الفارغة والأساطير المكذوبة حينما قضى الدهر على أسلافهم بالفناء والهلاك، فجاء أخلافهم بعد لأي من الدهر يقتفون آثار آبائهم وأجدادهم البالية.

---

١. النشوء والارتقاء، الجزء الثامن حول القرآن والعمران.

٩

العوامل المؤثرة في نشوء

المدارس الكلاميّة

من أبرز العوامل التي أدّت إلى نشوء المدارس الكـلامية، هو الاختلاف في الأُصول، الـذي انتهىٰ إلى تأسيس مسالك مختلفة مع اتفاق الكلّ على أنّ الغـاية من تأسيس علم الكلام هي الذبّ عن الإسلام، أُصوله وفروعه.

وتتلخص الأُصـــول التي أوجـد الاختـــلافُ فيهـا فجـــوة كبيرة بين الآراء والأفكار، في أُمور أهمّها:

١ . الصفات الذاتية

لا شكّ أنّه سبحانه موصوف بالعلم والقدرة والحياة وغيرها من الصفات الجمالية، والسؤال: هل هـذه الصفـات هي غير الذات مفهـومـاً و عينها ذاتـاً ومصداقـاً، أو هي غير الذات مطلقاً، مفهـوماً ومصـداقاً؟ فالعـدلية على الأوّل، والأشاعرة على الثاني.

ثمّ إنّ القائلين بالوحدة على طائفتين:

الأُولى: انّ الصفات الجمالية متحقّقة في الذات، لكن لا تغاير بين الموصوف والوصف وجوداً، و إن كان بينهما تغاير مفهوماً، فالذات كلّها علم، وكلّها قدرة، وكلّها حياة وهكذا، ولا مانع من أن يكون قسم من الصفات ـ كالعلم ـ أمراً قائماً بالغير كما في الممكنات، وقسم منه أمراً قائماً بالذات كما في الواجب عزّ اسمه، وهذا مذهب الإمامية.

الثانية: انّ الذات نائب مناب الصفات، فالذات ببساطتها، تقوم بكلّ ما تقوم به الأوصاف، فكما أنّ الذات الموصوفة بالعلم والقدرة، والحياة يصدر منها الفعل بالعلم والإتقان، وهكذا ذاته سبحانه، النائبة مناب الصفات، يكون فاعلاً عالماً و متقناً لفعله، وهذا هو القول بالنيابة، وبه قال بعض المعتزلة.

يقول الحكيم السبزواري:

والأشعري بازدياد قائله   وقال بالنيابة المعتزله[١]

٢. الصفات الخبرية

والمراد، ما وصف به سبحانه نفسه في القرآن والحديث فأثبتا له اليد و الاستواء والعين وغيرها، فقد أوجد تفسير هذه الصفات اختلافاً عظيماً بين المتكلّمين؛ فالأشاعرة على حملها بمعانيها اللغوية على الله سبحانه غاية الأمر «يقولون الكيف مجهول» وقد عُرِفُوا بالمثبِتة، أي مثبتة الصفات؛ والمعتزلة على تأويل اليد بالقدرة، والاستواء على الاستيلاء وقد عرفوا بنفاة الصفات أوبالمؤوّلة.

وأمّا الإمامية فقد ذهبوا إلى أنّ المتبع هو الظهور التصديقي، لا التصوّري،

---

١. شرح المنظومة للسبزواري: ١٥٦.

وإن شئت قلت: المتبع هو الظهور الجُمْلي لا الإفراديّ، واليد والاستواء والعين وإن دلّت بظهورها التصوريّ أو الإفرادي على التشبيه والتجسيم لكنّه ليس بمتّبع، بل المتَّبع هو الظهور التصديقي، وهو المعاني التي كنّي عنها بهذه الألفاظ، وكلام العرب مشحون بالكنايات، والتفصيل في محله.

٣. الصفات الفعلية

ما يصدر عنه سبحانه من الخلق والرزق، والرحمة والعذاب صفات فعلية، فوقع الكلام فيما يجوز عليه تعالى وما لا يجوز، فالمعتزلة والإمامية على تحديد فعله سبحانه من خلال الإمعان في بعض صفاته ككونه حكيماً عادلاً، بالعدل والحكمة، فقالوا: يمتنع عليه سبحانه، التكليف بما لا يطاق، أو تعذيب المطيع، بخلاف الأشاعرة حيث إنّه سبحانه عندهم فوق أن يقع في إطار التحديد، حتّى يوصفَ بعضُ أفعاله بالوجوب والآخرُ بالامتناع، فيجوّزون التكليف بالمحال، وتعذيب المطيع.

٤. العدل

اتّفق المتكلّمون على وصفه سبحانه بالعدل، إنّما اختلفوا في تفسيره، فالأشاعرة على أنّ الدليل على وصفه سبحانه به، هو السمع، وعلى ذلك فكلّ ما صدر منه سبحانه فهو عدل، سواء أكان عدلاً، عند العقل أم لا، خلافاً للإمامية والمعتزلة فانّ الدليل على وصفه بالعدل هو العقل، ولو دلّ السمع على أنّه عادل فهو مؤيّد له، و العقل بنفسه يميّز مصداق العدل عن خلافه؛ وعلى ضوء ذلك، يستحيل صدور ما يعد ظلماً في منطق الفعل، فتكليف العاجز وتعذيب الطفل

الصغير، خلاف العدل، ونفس الظلم عند العدلية.

إنّ الاختلاف في تفسير العدل ينشأ من الاختلاف في المسألة التالية، وكأنّها هي المصدر الوحيد، لنشوء أكثر المدارس الكلامية.

٥. التحسين والتقبيح العقليان

إنّ القائلين بذاتيّة التحسين والتقبيح، يفسرونها بالقول: إنّ الفعل الصادر من الفاعل المختار، سواء أكان واجباً أم ممكناً، إذا نظر إليه العقل وتجرّد عن كلّ شيء يستقل إمّا بحسنه وانّه يجب أن يفعل، أو بقبحه وانّه يجب أن يترك، بغضّ النظر عمّا يترتّب عليه من المصالح والمفاسد، أو بغضّ النظر عن موافقته لغرض الفاعل أو مخالفته، فانّ كلّ هذه الضمائم ممّا لا حاجة إليها في قضاء العقل بالحسن والقبح، فكأنّ نفس الفعل علّة تامة ـ عند اللحاظ ـ لحكم العقل بالحسن أو القبح.

فإذا كان الشيء بذاته حسناً فهو حسن عند الكلّ يجب أن يفعل، وإذا كان الشيء قبيحاً فهو قبيح عند الكلّ يجب أن يترك، وبهذا يتميز ما يجب لله تعالى، عمّا لا يجوز عليه ويترتّب على ذلك:

١. قبح التكليف بغير المقدور، وبالتالي امتناعه.

٢. قبح تعذيب البريء وبالتالي امتناعه.

٣. قبح تزويد المتنبّئ الكاذب بالمعجزة وبالتالي امتناعه.

٤. قبح تضليل العباد وبالتالي امتناعه.

٥. حسن العمل بالوعد، وبالتالي لزومه و وجوبه.

٦. حسن العصمة في الأنبياء، وبالتالي لزومه و وجوبه.

٧. حسن انتخاب الأصلح، وبالتالي لزومه ووجوبه.

إلى غير ذلك من الآثار المترتبة على التحسين والتقبيح العقليّين، على خلاف القول بعجز العقل عن إدراك ما هو الحسن والقبيح، فالقائل به لا يعترف بواحد من هذه الآثار وبذلك تتسع الفجوة بين القائلين، وتحدث مسالك ومدارس كلامية.

٦. القضاء والقدر

إنّ القضاء والقدر من المعارف العليا وقد تضافرت الآيات والروايات على وقوع كلّ ما في الكون في إطار التقدير والقضاء واعترف به العدلية من المتكلّمين غير أنّ الكلام في تفسيرهما، فالأشاعرة يعطون للقدر سيادة على نحو يسلب الاختيار عن الإنسان، ويجعله كالريشة في مهب الريح اغتراراً ببعض الروايات المستوردة، فالقدر عندهم إله ثان والذي له السيطرة على الكون والإنسان، وليس للإنسان محيص إلاّ عن سلوك ما قُدّر، وتطبيق العمل على ما قُضي سواء أكان حُلواً أم مُرّاً؛ غير أنّ العدلية، مع الاعتراف بعمومية القدر والقضاء لأفعال الإنسان، يفسرونها على نحو لا يسلب المسؤولية عن الإنسان، وذلك ببيان أنّ المقدر ليس صدور الفعل من الإنسان بأي نحو شاء، بل المقدّر، صدوره منه عن إرادة واختيار، عن رؤية وتفكير.

هذه هي الأُصول المكونة للمدارس الكلامية المختلفة عبر العصور، وقد اقتصرنا على الرئيسية منها:

وهناك عوامل أُخرى غير رئيسية، انتهت إلى ظهور آراء في المسائل العقائدية، يرجع لبُّها إمّا إلى إعوجاج في الفكر وتفسير الآيات والروايات على غير

وجهها؛ أو تبنّي المدّعى أوّلاً، ثمّ طلب الدليل ثانياً.

فنحن نشير إلى أُمّهات المدارس الكلامية حسب تاريخ تكوينها، ونترك الفروع المشتقة من كلّ مدرسة، ومن أراد التفصيل فليرجع إلى كتابنا «بحوث في الملل والنحل».

١٠

المدارس الكلاميّة

المهمّة

نخصّ هـذا الفصل بدراسـة المدارس الكلاميـة بمناهجها المختلفـة وهي كثيرة، ولكلّ منهج، أُصول وكتب، وبُناة ودعاة، ولا يمكننا بسط الكلام فيها، فانّه يحوجنا إلى تأليف كتاب خـاص في ذلك، وقد قمنا به في موسـوعتنا المنتشرة باسم «بحوث في الملل والنحل».

وإنّما الغايـة في المقام، الإلماع إلى مـؤسسي المدارس وأُصولها وأعـلامها على وجه موجز.

١

المحكِّمة

و يعبّر عنهم بالخوارج، وقـد انقرضوا ولم يبق منهـم إلاّ فرقة معتـدلة وهي الإباضية.

إنّ حركة الخوارج ـ يـوم ظهرت ـ كانت حركة سيـاسية ولم يكن لها جذور كلامية خلافاً لسائر الفرق. والأُصول التي كانوا يتبنونها، لا تعدو ثلاثة:

١ . تكفير مرتكب الكبيرة.

٢ . إنكار مبدأ التحكيم.

٣ . تكفير عثمان وعلي ومعاوية وطلحة والزبير، ومن سار على دربهم ورضي بأعمال عثمان وتحكيم الإمام علي عليه السلام.

نعم انّ المحكِّمة عبر الاحتكاك بسائر الفـرق تبنّت أُصولاً أُخرى، وبذلك تأسّست مدرسة كلامية في إطار خاص وهو:

١ . عدم اشتراط القرشية في الإمام.

٢ . صفاته سبحانه عين ذاته.

٣ . امتناع رؤيته سبحانه في الآخرة.

٤ . القرآن حادث غير قديم.

وفي هذه الأُصول الثلاثة الأخيرة يتفقون مع العدلية بكلتا الفرقتين: الإمامية والمعتزلة.

٥. الشفاعة، وتعني: دخول الجنة بسرعة لا مغفرة الذنوب، وفي هذا الأصل يتفقون مع خصوص المعتزلة من العدلية.

٦. التولّي والتبرّي.

٢

المرجئة

وهي مأخوذة من الإرجـاء بمعنى التأخير، وهم يولون أهميـة للإيمان القلبي ولا يهتمـون بـالعمل، وقـد اشتهـروا بتقـديم الإيمان وتأخير العمل، فأخـذوا من الإيمان جانب مجرد الإقرار بالقول الكاشف عن الإذعان قلباً و إن لم يكن مصاحباً مع العمل، فـاشتهـروا بـالمرجئـة، أي المؤخـرة، وشعـارهم: «لا تضرّ مع الإيمان معصية، ولا تنفـع مع الكفر طاعـة...» وهؤلاء والخوارج في مسألـة العمل، على جانبي نقيض، فالمرجئـة لا يشترطون العمل في حقيقة الإيمان، والخوارج يضيّقون فيرون مرتكب الكبيرة كافراً مخلّداً في النار.

ويقـال: إنّ أوّل من وضع الإرجـاء الحسـن بن محمـد بن الحنفيـة (المتـوفّى ٩٩هـ) ولكن الإرجاء الذي قال به، ليس هو الإرجاء المصطلح.[١]

---

١. لاحظ تفصيل ذلك في موسوعتنا: بحوث في الملل والنحل:ج٣، فصل المرجئة.

٣

المعتزلة

المعتزلة بين المدارس الكلامية المختلفة مدرسة فكرية عقلية أعطت للعقل القسط الأوفر.

ومؤسس المذهب هو واصل بن عطاء تلميذ الحسن البصري، نقل الشهرستاني أنّه دخل شخص على الحسن البصري فقال: يا إمام الدين! لقد ظهرت في زماننا جماعة يكفّرون أصحاب الكبائر، والكبيرة عندهم يُخرج بها عن الملّة، وهم وعيديّة الخوارج، وجماعة يُرجئون أصحاب الكبائر ويقولون لا تضر مع الإيمان معصية، كما لا تنفع مع الكفر طاعة، وهم مرجئة الأُمّة، فكيف تحكم لنا في ذلك اعتقاداً؟

فتفكّر الحسن في ذلك وقبل أن يجيب، قال واصل بن عطاء: أنا لا أقول إنّ صاحب الكبيرة مؤمن مطلقاً ولا كافر مطلقاً، بل هو في منزلة بين المنزلتين، لا مؤمن ولا كافر، ثمّ قام واعتزل إلى اسطوانة المسجد يقرر ما أجاب به على جماعة من أصحاب الحسن، فقال الحسن: اعتزل عنّا واصل، فسمّي هو وأصحابه: معتزلة.[1]

---

١. الملل والنحل:١/ ٦٢.

والأُصول المهمّة التي تعدّ عماداً للاعتزال لا تتجاوز الخمسة وهي:

الأُصول الخمسة عند المعتزلة

١. التوحيد.

٢. العدل.

٣. الوعد والوعيد، أي يجب العمل بالوعيد كوجوبه بالوعد.

٤. المنزلة بين المنزلتين، فمرتكب الكبيرة لا مؤمن ولا كافر بل بين المنزلتين.

٥. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ،أي وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عقلاً .

وللمعتزلة أئمّة نضج المذهب بأفكارهم وآرائهم ووصل إلى القمة في الكمال وفي مقابل هؤلاء مشايخهم الكبار الذين لهم دور في تبيين المذهب دون أن يتركوا أثراً بارزاً يستحقّ الذكر، وإليك نزراً من أئمّتهم.

أئمّتهم

١. واصل بن عطاء (٨٠ـ ١٣١هـ).

٢.عمرو بن عبيد(٨٠ـ ١٤٣هـ)

٣. أبو الهذيل العلاّف(١٣٥ـ ٢٣٥هـ).

وهذا الأخير من أعيان المعتزلة، و يصفه ابن خلكان بقوله: «كان حسن الجدال، قويّ الحجة، كثير الاستعمال للأدلّة والإلزامات».

ويظهر من مناظرته مع صالح بن عبد القدّوس أنّ حركة الشكّ كانت استفحلت في عصره حتّى ألف صالح بن عبد القدوس كتاباً حول الشكوك،

يقول ابن خلكان:«لقي أبو الهذيل صالحَ بن عبد القدوس وقد مات له ولد وهو شديد الجزع عليه. فقال له أبو الهذيل: لا أعرف لجزعك عليه وجهاً، إذا كان الإنسان عندك كالزرع، قال صالح: يا أبا الهذيل: إنّما أجزع عليه، لأنّه لم يقرأ كتاب الشكوك فقال له: كتاب الشكوك ما هو يا صالح؟ قال: هو كتاب قد وضعته من قرأه يشك فيما كان، حتّى يتوهم أنّه لم يكن، ويشك فيما لم يكن، حتّى يتوهم أنّه قد كان، فقال له أبو الهذيل: فشكّ أنت في موت ابنك واعمل على أنّه لم يمت وإن كان قد مات، وشكّ أيضاً في قراءة كتا ب الشكوك وإن كان لم يقرأه.[1]

٤. النظّام(١٦٠ـ ٢٣١هـ).

٥. أبو علي الجبائي(٢٣٥ـ٣٠٣هـ)

٦. أبو هاشم الجبائي (٢٧٨ـ ٣٢١هـ).

٧. قاضي القضاة عبد الجبار(٣٢٤ـ ٤١٥هـ)

إلى غير ذلك من الأئمّة.

لقد ابتسم الدهر للمعتزلة في عصر أبي جعفر المنصور وامتد نشاطهم ـ إلاّ في عصر هارون ـ إلى خلافة الواثق(٢٢٧ـ ٢٣٢هـ)، ولمّا قضى الواثق نحبه وأخذ المتوكل زمام أمر الخلافة أفل نجمهم شيئاً فشيئاً إلى أن انقرضوا، وقد قتل كثير منهم بسيف محمود بن سبكتكين في أرض خراسان، ولم نعثر بعد الزمخشري (المتوفّى ٥٣٨هـ)وابن أبي الحديد(المتوفّى ٦٥٦هـ) على علم من أعلام المعتزلة سوى بعض الزيدية التابعين للمعتزلة في الأُصول.

---

١. وفيات الأعيان:٤/ ٢٦٦، منشورات الشريف الرضي، قم.

٤

الجهميّة

الجهمية منسوبة إلى جهم بن صفوان السمرقندي الذي قتل في آخر دولة بني أُميّة عام ١٢٨ هـ، وقاعدة مذهبه أمران:

الأوّل: الجبر ونفي الاستطاعة، فصار الجهم رأس الجبر وأساسه، ويطلق على أتباعه الجبرية الخالصة في مقابل غير الخالصة منها.

الثاني: تعطيل ذاته عن الوصف بصفات الجمال والكمال، ولأجل ذلك سمّيت المعطلة أيضاً.

وقد نسب إليه أيضاً الأُمور التالية:

١. كون القرآن الكريم مخلوقاً حادثاً.

٢. نفي رؤيته في الدنيا والآخرة.

٣. جواز الخروج على السلطان الجائر.

ولعلّه لهذا الأصل الثالث قتل بسيف بني أُميّة.

ثمّ إنّ كلّ من قال بنفي الصفات، أو بخلق القرآن، يرمىٰ بالجهميّة وإن لم يكن منهم، والجهمية في كلمات الإمام أحمد هم المعتزلة.[١]

---

١. السنة: ٤٩٠.

٥

المجسِّمة

إنّ إقصاء العقل عن ساحة العقائد، ألحق أضراراً جسيمة بالمجتمع الإسلامي فظهرت حركات هدّامة ترمي إلى تقويض الأُسس الدينية والأخلاقية، ومن هنا نجمت المجسِّمة التي رفع لواءها مقاتل بن سليمان المجسِّم (المتوفّى عام ١٥٠هـ) فهو وجهم بن صفوان مع تشاطرهما في دفع الأُمّة الإسلامية إلى حافّة الجاهلية، لكنّهما في مسألة التنزيه والتشبيه على طرفي نقيض.

أمّا جهم بن صفوان فقد أفرط في التنزيه حتّى عطَّل وصفه سبحانه بالصفات، وأمّا مقاتل فقد أفرط في التشبيه فصار مجسِّماً.[1]

---

١. ميزان الاعتدال: ٤/ ١٧٣؛ تاريخ بغداد: ١٣/ ١٦٦.

٦

الكرّاميّة

إنّ الكـرّامية، مثل المجسِّمـة وهي أيضـاً وليدة إقصـاء العقل والمنطق عن ساحـة العقائد والانكباب على الـروايات المدسوسـة المليئة بالأبـاطيل والترّهات التي وضعتها الأهواء، والكرّامية صنيعة محمد بن كرّام السجستاني (المتوفّى عام ٢٥٥هـ)، الـذي يعـرفـه ابن حبـان بقـولـه: «التقط من المذاهب أرداهـا، ومن الأحاديث أوهاها، وجعل الإيمان قولاً بل معـرفة، ومن آرائه أنّه سبحانه جسم لا كالأجسام، ومن آرائه: أنّ النبي أخطأ في تبليغ قوله: ﴿ **ومناة الثالثة الأُخرى**﴾ حتّى قال بعده: «تلك الغرانيق العلى، وانّ شفاعتها لترتجى»».

والحاصل: انّ الحركة الكـرّامية من أسوأ الحركات الرجعيـة التي ظهرت في القرن الثالث.[1]

---

١. ميزان الاعتدال: ٤/ ٢١؛ الفرق بين الفرق: ٢٢٢.

٧

الأشعرية

الأشعرية مدرسة كلامية أسّسها أبو الحسن علي بن إسماعيل بن إسحاق، من أحفاد أبي موسى الأشعري الصحابي المعروف، ولد عام ٢٦٠هـ وتوفّي سنة ٣٢٤هـ وعلى قول ٣٣٠هـ، وكان معتزلياً وتخرّج على يد أُستاذه أبي علي الجبائي (٢٣٥ـ ٣٠٣هـ)ثمّ أعلن براءته من هذا المذهب ـ بعد وفاة أُستاذه بسنتين ـ والتحق بمذهب الإمام أحمد، ونادى من على المنبر بأعلى صوته وقال: من عرفني فقد عرفني ومن لم يعرفني فأنا أعرفه بنفسي، أنا فلان بن فلان، كنت قلت بخلق القرآن وإنّ الله لا يُرى بالأبصار، وإنّ أفعال الشر أنا أفعلها، وأنا تائب مقلع معتقد للرد على المعتزلة.[١]

وهو وإن التحق بأهل الحديث لكنّه قد امتاز عنهم باستحسان الخوض في المسائل الكلامية والبرهنة على العقيدة بالدليل العقلي، ولذلك رفضه بعض أتباع الإمام أحمد كالبربهاريّ.[٢]

إنّ مذهبه وإن لم يتمتع بالانتشار في حياته، لكن تلاميذه وتلاميذ تلاميذه

---

١. فهرست النديم:٢٧١؛ وفيات الأعيان:٣/ ٢٨٥.

٢. تبيين كذب المفتري قسم التعليقة: ٣٩١.

قد نضّجوا الأُصول الموروثة عنه، و نشروه إلى حد، صار المذهب الأشعري، هو المذهب الرسمي لأهل السنّة.

يقول المقريزي بعد ذكر الأُصول الكلامية للمذهب الأشعري:«فهذه جملة من أُصول عقيدته التي عليها الآن جماهير أهل الأمصار الإسلامية، والتي من جهر بخلافها أُريق دمه.[1]

و إليك أُصول مذهبه المهمة:

١. الله سبحانه ليس بجسم. ٢. صفاته قديمة لا حادثة. ٣. صفاته زائدة على ذاته. ٤. الصفات الخبرية تحمل عليه سبحانه بلا كيف، مثلاً: له سبحانه يد، ووجه، بلا كيف. ٥. الله هو الخالق لأفعال العباد والعبد هو الكاسب. ٦. الاستطاعة مع الفعل لا قبله. ٧. رؤية الله سبحانه في الآخرة. ٨. كلام الله سبحانه، هو الكلام النفسي. ٩. كلامه قديم وليس بحادث. ١٠. الحسن والقبح شرعيان لا عقليان. لاحظ للوقوف على مصادر آرائه كتابي الإبانة واللمع، وهما من تأليفه .

وربما يتصور: انّ الشيخ الأشعري أعلن الالتحاق بمذهب الإمام أحمد، ليُجري الإصلاح في مذهب أهل الحديث، الذين غلب عليهم يومذاك القول بالتجسيم والجهة والجبر، فحاول أن يصلح ما فسد. ولكن هذا التصوّر غير دقيق. و إذا افترضنا انّ الشيخ كان يروم الإصلاح، فإنّ التوفيق لم يحالفه في ذلك للأسباب التالية:

١. إبقاء الأُصول الفاسدة في مسلك أهل الحديث، نظير: أفعال الإنسان مخلوقة لله سبحانه مباشرة، فلا شكّ انّ القول بهذا الأصل ينتهي إلى الجبر، لأنّ

---

١. الخطط:٢/ ٣٦٠.

معناه انّ المؤثـر في فعل العبـد هو قـدرته سبحـانه مباشرة ولا دور لإرادة العبد وقدرته المفاضة منه سبحانه إليه، وربما يعبر عنه بالجبر غير الخالص.

٢. تجويز رؤية الله يوم القيامة، وهو يـلازم القول بالتجسيم وكونه سبحانه ذا جهة.

٣. قولـه : إنّ القرآن قديم غير حـادث، أو غير مخلوق لله سبحـانه وذلك يؤدي في النهاية إلى فرض قديم ثان، وتصور ندّ له إلى غير ذلك من الأُصول التي تركها الأشعري بحالها ولم يحدث فيها أي تغيير.

نفي السببية عن الأسباب

إنّ من أبرز سمات منهج الأشـاعرة هـو نفي السببيّة والعليّـة حتّى با لمعنى الظلّي عن غيره سبحانه، وأنّه ليس في صحيفة الكون إلاّ علّة واحدة وسبب فارد، هو المؤثـر في الكون وبـذلك شطبوا على تأثير العلل الطبيعيـة بعضها في بعض، ونفـوا السببية في الكـونيات وزعمـوا أنّ القول بـذلك ينافي التـوحيد في الخالقيـة والربوبيـة وبذلك نازعوا وجـدانهم كما نازعوا الوحي المبين حيث إنّـه يثبت الأثر الطبيعي لكلّ سبب، وفي الوقت نفسه يربطهما بـالله سبحانه، قال: ﴿**الَّذي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْض فِراشاً وَالسَّماء بِناءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ مـاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرات رِزْقاً لَكُم فَلا تَجْعَلُوا لله أَنداداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُون**﴾.[1]

تجد أنّ الوحي اعترف بسببية الماء لخروج الثمرات الطيّبة وليست هذه الآية وحيدة في هـذا الباب، بل في القرآن الكريـم نماذج من هذا النوع، قال سبحـانه: ﴿ **وَفِي الأَرْضِ قطَعٌ مُتَجاوراتٌ وَجَنّـاتٌ مِـنْ أَعْنـاب وَزَرعٌ وَنَخيلٌ صنْـوانٌ وَغَيرُ**

---

١. البقرة:٢٢.

صِنوانٍ يُسْقى بِماءٍ واحدٍ وَنُفضّلُ بعضَها عَلىٰ بَعْضٍ في الأُكُلِ إِنَّ في ذٰلِك لآياتٍ لِقَومٍ يَعْقِلُون﴾.[١]

فتستدلّ الآية على أنّ تدبيره سبحانه فوق تدبير الفواعل الطبيعية، وذلك بشهادة أنّ الجنّات تثمر أثماراً مختلفة مع وحدة الشرائط والظروف المحيطة بها من وحدة الماء والأرض، وهذا يدلّ على أنّ وراء الأُمور الطبيعية والأسباب الماديّة مدبّراً فوقها، وعلى الرغم من هذا الاعتراف إلاّ أنّه لا ينفي تأثير العوامل الطبيعية ولكن يراها غير كافية في خلق هذا التنوّع.

وبذلك يظهر أنّ ما ذكره ابن خلدون حول تأثير الأسباب ولزوم الغضّ عنها دون شأنه جدّاً وكان المترقب منه غير ذلك، لكن سيطرة مذهب الأشعري على العقول، أثّرت على تفكيره فعاد يفكر كأنّه أشعري مطلق، بل حنبلي محض. يقول: تأمل من ذلك حكمة الشارع في نهيه عن النظر إلى الأسباب والوقوف معها فإنّه واد يهيم فيه الفكر ولا يحلو منه بطائل ولا يظفر بحقيقته ـ إلى أن قال: ـ فوجه تأثير هذه الأسباب في الكثير من مسبّباتها مجهول، لأنّها إنّما يوقف عليها بالعادة لاقتران الشاهد بالاستناد إلى الظاهر وحقيقة التأثير وكيفيته مجهولة، فلذلك أُمرنا بقطع النظر عنها وإلغائها جملة والتوجّه إلى مسبّب الأسباب كلّها وفاعلها وموجدها لترسخ صفة التوحيد في النفس.

فإن وقف عند تلك الأسباب فقد انقطع وحقّت عليه كلمة الكفر، وإن سبح في بحر النظر والبحث عنها وعن أسبابها وتأثيراتها واحداً بعد واحد فأنا الضامن له أن لا يعود إلاّ بالخيبة، فلذلك نهانا الشارع عن النظر في الأسباب

---

١. الرعد: ٤.

وأمرنا بالتوحيد المطلق.[١]

يلاحظ عليه أوّلاً: ما هو الدليل أنّ الشارع نهانا عن النظر في الأسباب، فإن أراد النظر فيها بمعنى التوقّف عند تلك الأسباب، وإضفاء الأصالة عليها وانقطاعها عن مسبِّب الأسباب، فذلك كما ذكره كفر محض، ولكن المؤمن الموحّد لا ينظر إلى الأسباب بذلك المنظار.

وإن أراد النظر فيها بما فيها من نظام بديع حاك عن كونه مخلوقاً لموجود عالم قادر حكيم فالنظر فيها بهذا المنظار هو نفس التوحيد، فكيف نهانا الشارع عن النظر في الأسباب؟ هذا هو القرآن الكريم يشرح لنا نظام الكون بأدق الوجوه ويجعلها آية لتوحيد خالق العالم ومدبّره.

يقول سبحانه: **﴿ إِنَّ في خَلْقِ السَّمٰواتِ وَالأَرض وَاختلاف اللَّيل وَالنّهار وَالفُلْكِ الّتي تَجري في البَحْر بِما يَنْفَعُ النّاسَ وَما أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّماءِ مِنْ ماءٍ فَأَحيا بِهِ الأَرضَ بَعْدَ مَوتها وَبثَّ فِيها مِنْ كُلِّ دابّةٍ وتصريفِ الرِّياحِ وَالسَّحابِ المُسَخَّرِ بَيْنَ السَّماءِ والأَرضِ لآياتٍ لِقَومٍ يَعْقِلُون﴾**.[٢]

إنّ قول الله ـ هذا ـ مضافاً إلى كونه مشيراً إلى برهان النظم يمكن أن يكون تلويحاً إلى عوامل استقرار الحياة على الأرض، ومذكراً للعقول بأنّه لا يمكن أن تجتمع كلّ العوامل ـ مع ما فيها من المحاسبات الدقيقة ـ عن طريق الصدفة العمياء دون أن يتدخل في ذلك تدبير «مدبر عاقل حكيم» ودون أن يكون قد جمعها على هذا النسق المناسب لظاهرة الحياة ـ «إله خالق عارف بالأُمور، محيط بالمحاسبات والسنن».

---

١. مقدّمة ابن خلدون، الفصل العاشر في علم الكلام: ٤٢٤.

٢. البقرة: ١٦٤.

كما يمكن أن يكون بعض الآيات الأُخر مشيراً إلى هذا البرهان(برهان النظم) مثل قوله تعالى: ﴿ اللهُ الَّذي رَفَعَ السَّمٰواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها ثُمَّ اسْتَوىٰ عَلى العَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسمّىً يُدبِّرُ الأمْرَ يُفصِّلُ الآياتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُون﴾ .[١]

وثانياً: أنّ قوله: «إنّما يوقف عليها العلّية بالعادة لاقتران الشاهد بالاستناد إلى الظاهر» يرمي إلى نفي العلّية والمعلولية ولو بنحو الظلّية بين الأسباب والمسببات، وأنّ المشهود هو ظهور الحرارة مقترنة بوجود النار والبرودة مقترنة بوجود الماء دون أن يكون بين الأثر و ما هو المؤثر في الظاهر صلة وعلاقة. وهذا هو الذي يدّعيه الإمام الأشعري من نفي العلّية، وإنّ ما نسمّيه علّية هو جريان عادة الله على وجود الآثار بعد الأسباب من دون أن يكون للسبب أيّ تأثير.

أقول: إذا كان الداعي لنفي السببيّة بين الظواهر الكونية هو تقوية روح التوحيد في الخالقية والربوبيّة وانّ المؤثّر الحقيقي هو الله سبحانه فهو أمر جميل؛ وإذا كان الداعي هو نفي السببية والعلّيّة بين الأسباب والمسببات الطبيعية، فهو على خلاف الكتاب أوّلاً، والوجدان ثانياً، وتشويه لسمعة الإسلام ثالثاً.

أعيان الأشاعرة

ثمّ إنّ هناك رجالاً ارتبطت أسماؤهم ببلورة المذهب الأشعري، ولولاهم لما قام لهذا المذهب عمود ولا اخضرّ له عود، وإليك أسماء أعلامهم عبر التاريخ:

١. أبو بكر الباقلاني (المتوفّى ٤٠٣هـ).

---

١. الرعد:٢.

٢. أبو منصور عبد القاهر البغدادي(المتوفّى ٤٢٩هـ).

٣. إمام الحرمين أبو المعالي الجويني(٤١٩ـ ٤٧٨هـ).

٤. حجة الإسلام الإمام الغزالي(٤٥٠ـ ٥٠٥هـ).

٥. أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني (٤٧٩ـ ٥٤٨هـ).

٦. أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي، فخر الدين الرازي(٥٤٤ـ٦٠٦هـ).

٧. أبو الحسن علي بن أبي علي بن محمد بن سالم المعروف بسيف الدين الآمدي(٥٥١ـ ٦٣١هـ).

٨. عبد الرحمن بن أحمد، عضد الدين الإيجي(٧٠٨ـ ٧٥٦هـ).

٩. مسعود بن عمر بن عبد الله المعروف بسعد الدين التفتازاني (٧١٢ـ ٧٩١هـ).

١٠. السيد علي بن محمد بن علي الحسيني المعروف بالسيد الشريف (المتوفّى ٨١٦هـ).

١١. علاء الدين علي بن محمد السمرقندي القوشجي(المتوفّى ٨٧٩هـ).

هذا بعض الكلام في المذهب الأشعري، والذي صار مذهباً رسمياً لأكثر أهل السنّة.

٨

الماتريدية

في الوقت الـذي ظهر فيـه مذهب الإمام الأشعـري بطابع الفـرعية لمذهب أهل الحديث، ظهـر مذهب آخـر، بهذا اللون والشكل لغـاية نصرة السنّـة وأهلها وبالتالي: إقصاء المعتزلة عن الساحة، وهو مذهب الإمام محمد بن محمد بن محمود الماتريدي السمرقندي(المتوفّى سنة ٣٣٣هــ) أي بعد ثـلاثة أو تسعـة أعوام من وفاة الإمام الأشعري.

والداعيـان كانـا في عصر واحد ولم تكـن بينهما أيّة صلـة، فالأشعـري كان يكـافح الاعتـزال ويُناصر السنّـة في البصرة متقلّـداً مذهبَ الشـافعي في الفقـه، والماتريدي يكـافح الاعتزال في الشرق الإسلامي متقلِّـداً رأي الإمام أبي حنيفة في الفقه؛ فكانت البصرة محط الأهواء ومعقلهـا، كما كانت أرض خراسان مأوى أهل الحديث ومهبطهم.

ولم يكن المـاتـريـدي نسيجَ وحـده في هـذا الأمر، بل معـاصره أبـو جعفـر الطحاوي صاحب العقيدة الطحاوية(المتوفّى سنة ٣٢١هـ) كـان أيضاً يناصر السنّة متقلّـداً مذهب أبي حنيفـة في الفقه، وقد صـدّر رسالته المعـروفة بـالعقيدة الطحاوية بقوله:

بيان عقيدة فقهاء الملة: أبي حنيفة وأبي يوسف ومحمد بن الحسن.[1]

اتّفق المترجمون للماتريدي على أنّه توفّي عام ٣٣٣هـ و لم يعيّنوا ميلاده، لكن القرائن تشهد على أنّه من مواليد عام ٢٤٨هـ. وقد أخذ العلم عن عدّة من المشايخ، وهم:

١. أبو بكر أحمد بن إسحاق الجوزجاني.

٢. أبو نصر أحمد بن العياضي.

٣. نصير بن يحيى، تلميذ حفص بن سالم (أبي مقاتل).

٤. محمّد بن مقاتل الرازي.

وتخرّج عليه عدّة من العلماء، منهم:

١. أبو القاسم إسحاق بن محمد بن إسماعيل الشهير بالحكيم السمرقندي (المتوفّى ٣٤٠هـ).

٢. أبو الليث البخاري.

٣. أبو محمد عبد الكريم بن موسى البزدوي، جدّ محمد بن محمد بن عبد الكريم البزدوي مؤلّف «أُصول الدين».

إنّ منهج الماتريدي يتمتع بسمات ثلاث:

أوّلاً: أعطى للعقل سلطاناً أكبر ومجالاً أوسع، وذلك هو الحجر الأساس للسمتين الأخيرتين.

ثانياً: منهجه أبعد عن التجسيم والتشبيه من منهج الأشاعرة.

ثالثاً: منهجه أقرب إلى الاعتزال من منهج الإمام الأشاعرة.

---

١. شرح العقيدة الطحاوية:٢٥.

وإليك بعض الفوارق بين المنهجين:

١. معرفته سبحانه واجبة عقلاً عند الماتريدية وسمعاً عند الأشاعرة.

٢. التحسين والتقبيح عقليان عند الماتريدية وسمعيّان عند الأشاعرة.

٣. لا يجوز التكليف بما لا يطاق عند الماتريدية خلافاً للأشاعرة.

٤. أفعال الله تعالى معلّلة بالأغراض عند الماتريدية دون الأشاعرة.

٥. الصفات الخبرية كالاستواء واليد والعين تثبت على الله سبحانه بنفس معانيها اللغوية لكن بلا كيفية عند الأشاعرة، وأما الماتريدية فهي بين مفوّضة معانيها إلى الله سبحانه، أو مفسّرة لها بنفس ما تفسّره العدليّة.

٦. صفاته عين ذاته سبحانه عند الماتريدية، زائدة عند الأشاعرة.

المذهب الماتريدي مذهب الأحناف خصوصاً في تركيا وآسيا الوسطى و شبه القارّة الهنديّة، ومذهب الأشاعرة مذهب الشوافع غالباً.

أعيان الماتريديّة

١. القاضي الإمام أبو اليسر محمد بن محمد بن عبد الكريم البزدوي(٤٢١ـ ٤٩٣هـ) ، له كتاب «أُصول الدين».

٢. أبو المعين النسفي (المتوفّى ٥٠٢هـ)، وهو من أعاظم أنصار هذا المذهب، له كتاب «تبصرة الأدلّة» الذي مازال مخطوطاً حتّى الآن، ويعدّ الينبوع الثاني بعد كتاب «التوحيد» للماتريديّة.

٣. الشيخ نجم الدين أبو حفص عمر بن محمد النسفي (المتوفّى ٥٣٧هـ) مؤلّف «العقائد النسفية»، ومازال هذا الكتاب محور الدراسة في الأزهر إلى يومنا هذا.

٤. الشيخ مسعود بن عمر التفتازاني (المتوفّى ٧٩١هـ)أحد المتضلّعين في العلوم العربية والمنطق والكلام، وهو شارح «العقائد النسفية».

٥. الشيخ كمال الدين محمد بن همام الدين الشهير بابن الهمام(المتوفّى ٨٦١هـ) صاحب كتاب «المسايرة» في علم الكلام ،نشره وشرحه محمد محيي الدين عبد الحميد وطبع بالقاهرة.

٦. العلاّمة كمال الدين أحمد البياضي الحنفي مؤلف كتاب «إشارات المرام من عبارات الإمام» أحد علماء القرن الحادي عشر الهجري، ويعدّ كتابه هذا أحد مصادر الماتريدية.

٧. الشيخ محمد زاهد بن الحسن الكوثري المصري (المتوفّى ١٣٧٢هـ) وكيل المشيخة الإسلامية في الخلافة العثمانية، أحد المتضلّعين في الحديث والتاريخ والملل والنحل.

٩

الزيديّة

الزيديّـة مذهب منتسب إلى الإمام زيد الشهيد بـن زين العابدين علي بن الحسين بن مـولى الموحدين علي بن أبي طـالب، ولد عـام ٧٥هـ واستشهـد سنة ١٢١هـ، وقد أدرك زيد ثلاثة أئمّة من أهل البيت عليهم السلام، وهم:

١. والده الإمام علي بن الحسين عليه السلام (٣٨ـ ٩٤هـ).

٢. أخوه الأكبر أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين عليهما السلام (٥٧ـ ١١٤هـ).

٣. ابن أخيه الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام (٨٣ـ١٤٨هـ).

أخذ عن أبيه، ثم عن أخيه محمد الباقر عليه السلام كما كانت أواصر الحبّ والودّ تجمعه بـالإمام الصادق، فلمّـا بلغ نعيـه إلى المدينة أخذ الناس يفـدون إلى الإمام الصادق يعزّونه.[1]

وقد ترك آثاراً علمية ، منها:

١. المجموع الفقهي.

٢. المجموع الحديثي.

٣. تفسير غريب الحديث.

---

١. الأغاني:٧/ ٢٥١.

٤. الصفـوة، وهـي دراسـة قـرآنيـة تتبنّى بيـان فضـائل أهل البيت عليهم السلام وتقديمهم على سائر الناس في مختلف المجالات.

إلى غير ذلك من المسائل.

زعمت الزيـدية انّه ادّعى الإمامـة لنفسه، ولكن كلمات زيد تخلـو من أيّة إشارة إلى ذلك، بل كلّها تعرب عن أنّه دعا للرضا من آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

لم يكن زيد الشهيـد صاحب منهج كـلامي أو فقهي مستقلّ، وإذا كان يقول بالعدل والتوحيد ويكافح الجبـر والتشبيـه فلأجـل أنّه ورثهما عن آبـائـه، وإذا كان يفتي في مورد ما، فإنّما كان يصدر في ذلك عن الحديث الذي يرويه عن آبائه.

نعم جاء بعد زيـد مفكّرون وعاة، وهم بين دعاة للمذهـب، أو بُنـاة للدولة في اليمن وطبرستان، فسـاهموا في إرساء مذهب باسم المذهب الـزيدي، منفتحين في الأُصول والعقائد على المعتزلة، وفي الفقـه وكيفية الاستنباط على الحنفية، ولكن الصلة بين ما كان عليه زيد الشهيـد في الأُصول والفروع وما أرساه هؤلاء في مجالي العقيدة والشريعة منقطعة إلاّ في القليل منها.

وعلى أية حـال، التقت الزيديـة مع شيعة أهل البيت في العدل والتـوحيد، كما التقوا مع المعتزلة في الأُصول الثلاثة التالية:

١. الوعد والوعيد.

٢. المنزلة بين المنزلتين.

٣. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ولأجل إيقـاف القارئ على الخطـوط العـريضة لعقـائدهم التي يلتقـون في بعضها مع المعتزلة وفي بعضها الآخر مع الإمامية نأتي بها:

١. صفاته تعالى عين ذاته، وفاقاً للإمامية.

٢. إنّ الله سبحانه لا يُرى ولا يجوز عليه الرؤية خلافاً للأشاعرة.

٣. العقل يدرك حسن الأشياء وقبحها.

٤. الله سبحانه مريد بإرادة حادثة.

٥. انّه سبحانه متكلّم بكلام، وكلامه سبحانه فعله: الحروف والأصوات.

٦. أفعال العباد ليست مخلوقة لله سبحانه.

٧. تكليف مالا يطاق قبيح، خلافاً للمجبّرة والأشاعرة.

٨. المعاصي ليس بقضاء الله.

٩. الإمامة تجب شرعاً لا عقلاً خلافاً للإمامية.

١٠. النصّ على إمامة علي والحسنين عند الأكثرية.

١١. القضاء في فدك صحيح خلافاً للإمامية.

١٢. خطأ المتقدّمين على عليّ في الخلافة قطعي.

١٣. خطأ طلحة والزبير وعائشة قطعي.

١٤. توبة الناكثين صحيحة.

١٥. معاوية بن أبي سفيان فاسق لبغيه ولم تثبت توبته.

هذه رؤوس عقائد الزيدية استخرجناها من كتاب «القلائد في تصحيح العقائد»، المطبوع في مقدّمة البحر الزخار.[1]

---

١. البحر الزخار:٥٢ـ٩٦.

١٠

الإسماعيلية

الإسماعيلية ، إحدى فرق الشيعة القـائلة بأنّ الإمامة منصب تنصيصي من النبي ﷺ أو الإمام القـائم مقامـه، غير أنّ هناك خـلافاً بين الـزيديـة والإماميـة والإسماعيلية في عدد الأئمّة ومفهوم التنصيص.

الإمام الأوّل للدعوة الإسماعيلية هو إسماعيل بن جعفر الصادق عليه السلام وكان والده شـديد المحبّة لـه والإشفاق عليه، مـات في حياة أبيه بـالعُريض وحمل على رقاب الرجال إلى أبيه بالمدينة حتّى دفن بالبقيع.[١]

الخطوط العريضة للمذهب الإسماعيلي

إنّ للمذهب الإسماعيلي علائم وسمات نشير إليها:

١ . انتماؤهم إلى بيت الوحي والـرسالة، وقد كان لهذه السمـة رصيد شعبي وكان المسلمون يتعاطفون مع من ينتمي إلى أهل بيت النبي ﷺ.

٢ . تأويل الظواهر ، إنّ تأويل الظواهر و إرجاعها إلى خلاف ما يتبادر منها في عـرف المتشرعة هي السمـة البارزة الثـانيـة للدعـوة الإسماعيلية، وهي إحـدى الـدعـائم الأسـاسيـة لهذا المذهب، بحيث لـو انسلخـت الـدعـوة عن التأويل واكتفت بالظواهر لم تتميز عن سـائر الفرق الشيعية إلا بصرف الإمامة عن الإمام

---

١ . المفيد، الإرشاد، ص ٢٨٤.

الكاظمعليه السلام إلى أخيه إسماعيل بن جعفر.

٣. تطعيم مذهبهم بـالمسائل الفلسفية حيث انجرفوا في تيارات المسائل الفلسفية وجعلوها من صميم الدين وجذوره، وانقلب المذهب إلى منهج فلسفي يتطور مع تطوّر الزمان، ويتبنى أُصولاً لا تجد لها في الشريعة الإسلامية عيناً ولا أثراً.

هذه سمات مذهبهم، وإليك رؤوس عقائدهم:

أمّا التوحيد، فيصفونه سبحانه بأنّه واحد لا مثل له ولا ضدّ.

وأمّا في مجال الصفات، فقد ذهبوا إلى نفي الصفات عنه على الإطلاق، واكتفوا في مقام معرفته بالقول بهوّيته وذاته، دون وصفه بصفات حتّى الصفات الجمالية والكمالية.

وأمّا عقيدتهم في العدل، فالإنسان عندهم مخيّر لا مسَيّر، والقضاء والقدر لا يسلبان الاختيار.

وأمّا عقيدتهم في النبوة فإنّها أعلى مراتب البشر والرسالة عندهم تنقسم إلى عامّة وخاصّة، وأنّ شريعة الأنبياء موافقة للحكمة، لكن لها ظاهر وباطن.

إنّ تقسيم الشريعة إلى ظاهرية وباطنية أعطى مبرّراً لكلّ إمام من أئمّتهم في أن يضع لكلّ ظاهر باطناً، ولكلّ واجب حقيقة يسمّي أحدهما شريعة ظاهرية، والآخر باطنيّة من دون أن يستدلّ على تأويله بدليل عقلي أو نقلي.

أمّا عقيدتهم بالمعاد فهو روحاني لا جسماني، وأنّ التناسخ محال.

وأمّا عقيدتهم في الإمامة، فالحديث عنها ذو شجون، فقد ذكروا لها درجات خمس ربما تضيق المقدمة عن بيانها.[1]

---

١. لاحظ في عقائدهم: راحة العقل للكرماني، ص ٤٧؛ تاج العقائد ومعدن الفرائد، وقد ذكرنا تفصيل عقائدهم في موسوعتنا: بحوث في الملل والنحل، ج٨.

١١

الوهّابيّة

الوهـابيّة منسـوبة إلى الشيخ محمد بن عبـد الوهـاب النجدي (١١١٥ـ ١٢٠٦هـ). كان الشيخ منـذ طفولتـه ذا رغبة شديـدة في مطالعـة كتب التفسير والحـديث والعقائد، وقـد درس الفقه الحنبلي عنـد أبيه الـذي كان من علمـاء الحنابلة، وكان ابنه محمّد يستقبح كثيراً مـن الشعائر الدينية التي كان يمارسها أهالي نجد، ولـم يقتصر تقبيحه على نجـد، بل تعدّاه إلى المدينة المنوّرة بعد انصرافه من مناسك الحج، فقد كان ينكـر على الزائرين التوسّل برسول الله ﷺ عند مرقده المقدّس.

وكان يكتـم عقائده هـذه خوفـاً من أبيه، ولمّا تُوفّــي أبوه، أخـذ بالـدعوة والالتقاء بـرؤساء القبائل، والتقى أخيراً بمحمد بن سعـود الجدّ الأعلى لآل سعود فاتّفقا على نشر الدعـوة، بشرط أن تكون القيادة الدينية لمحمد بـن عبد الوهاب، والسياسية لمحمد بن سعود، ومن ذلك اليوم ابتلي المسلمون بزمرة يشنّون الغارات على القبائل النجديـة وخارجها كاليمن والحجاز ونواحي سـوريا والعراق لأجل أخذ الغنائم تحت غطاء الدعوة إلى التوحيد، وقد ضبط التاريخ حروبهم وغاراتهم على المناطق الإسلاميـة وكانت النتيجة هي الدمار و إراقة الـدماء ونهب الأموال، إلى أن استولى آل سعود على الحرمين فسادَ الأمنُ في البلاد لكن مع الفقر المدقِع ،

والجوع الأسود إلى أن اكتشفوا آبار الذهب الأسود، فعند ذلك استتبّ الأمر للوهابية مفتين وأُمراء، وبذلك استغنوا عن شنّ الغارات والحروب الدامية.

ميزاتهم عن سائر المسلمين

يختلف الوهابية مع المسلمين في مسائل فقهية تارة، و مسائل كلامية أُخرى، ويغالون في المسائل الفقهية الخلافية ويعتبرونها خروجاً عن الدين والتوحيد، و إليك نبذاً من خصائصهم:

١. تحريم بناء القبور ولزوم هدم المشاهد عليها.

٢. حرمة بناء المساجد على القبور والصلاة فيها.

٣. حرمة شدّ الرحال لزيارة القبور والصلاة في المساجد.

٤. حرمة التوسل بالأنبياء والصالحين.

٥. حرمة طلب الشفاعة من النبيّ ﷺ.

٦. حرمة النذر للأنبياء والأولياء.

٧. حرمة التبرّك بآثار الأنبياء والصالحين.

٨. حرمة الاحتفال بمواليد أولياء الله ووفياتهم.

ولهم نشاطات تبشيريّة، ومنشورات ودوريات مختلفة.

١٢

الشيعة الإمامية

الشيعة: من أحبّ عليّاً وأولاده عليهم السلام باعتبارهم أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله الذين فرض الله سبحانه مودّتهم قال عزّ وجلّ: ﴿**قُلْ لاٰ أَسأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجراً إِلاّ الْمَودّة فِي الْقُربىٰ**﴾[١] وينضوي تحت لواء الشيعة (بهذا المعنى) كلّ المسلمين إلاّ النواصب، بشهادة أنّهم يصلّون على نبيّهم وآله في صلواتهم وأدعيتهم ويتلون الآيات النازلة في حقّهم صباحاً ومساء، وهذا هو الإمام الشافعي يصفهم بقوله:

يا أهل بيت رسول الله حبّكم	فرض من الله في القرآن أنزله
كفاكم من عظيم الشأن أنّكم	من لم يصلّ عليكم لا صلاة له[٢]

ولكن المراد من الشيعة في المقام من يشايع عليّاً وأولاده باعتبار أنّهم خلفاء الرسول صلى الله عليه وآله وأئمّة الناس بعده، نصبهم النبي لهذا المقام بأمر من الله سبحانه.

وليس التشيع كسائر المذاهب الإسلامية من إفرازات الصراعات السياسية كما هو الحال في المحكِّمة وغيرهم، ولا من نتائج الجدال الكلامي والصراع

---

١. الشورى:٢٣.

٢. الصواعق:١٤٨.

الفكري كما هو الحال في الأشعرية والمعتزلة.

بل الإسلام والتشيّع وجهان لعملة واحدة، وتوأمان ولدا في يوم واحد، ولو انّ كُتّاب العقائد درسوا تاريخ التشيع بدقة وموضوعية لعلموا أنّه ليس للتشيّع تاريخ ولا مبدأ سوى تاريخ الإسلام ومبدئه، وأنّ النبيّ ﷺ هو الغارس لبذرة التشيع في صميم الإسلام من أوّل يوم أُمر فيه بالصدع[1] فأصحر بالحقيقة إلى أن لبّى دعوة ربّه.

فالتشيّع عبارة عن استمرار قيادة النبيّ ﷺ بعد وفاته عن طريق من نصبه إماماً للناس وقائداً للأُمّة حتّى يرشدها إلى النهج الصحيح والهدف المنشود، فإذا كان التشيع متبلوراً في استمرار القيادة بالوصي فلا نجد له تاريخاً سوى تاريخ الإسلام والنصوص الواردة عن رسوله .

فالشيعة هم المسلمون من المهاجرين والأنصار ومن تبعهم بإحسان، أعني: الذين بقوا على ما كانوا عليه في عصر الرسول ﷺ في أمر القيادة ولم يغيروا ولم يتعدّوا ما رسم لهم الرسول إلى غيره.

والميزة الهامة للشيعة على الإطلاق وللإمامية خصوصاً هي أنّ الإمامة عندهم منصب إلهي يتصدى النبيّ ﷺ وبأمر إلهي لتعيين من يتبوّؤه.

وقد أخبر النبي ﷺ عن إمامة اثني عشر رجلاً من أهل بيته وذكر أسماءهم أوّلهم علي بن أبي طالب وآخرهم الإمام المهدي عليه السلام. و قد ذكر أهل السنّة روايات حول الأئمّة الاثني عشر دون أن يذكروا أسماءهم .

أخرج مسلم عن جابر بن سمرة، قال : انطلقت إلى رسول الله ﷺ ومعي

---

١. ﴿فاصدع بما تُؤمَر وَأَعرِضْ عَنِ الْمُشْرِكين* إنّا كفيناك المستهزئين﴾.(الحجر: ٩٤ـ٩٥).

أبي فسمعته يقول: «لا يزال هذا الدين عزيزاً منيعاً إلى اثني عشر خليفة فقال كلمة صمّنيها الناس، فقلت لأبي: ما قال؟ قال: كلّهم من قريش».[١]

ولسنا في هذا المقام بصدد تحرير تاريخ التشيع ودلائل إمامة الأئمّة الاثني عشر، بل الغاية الإلماع إلى أُصولهم الكلامية.

والشيعة الإمامية تتّفق مع الفرق الإسلامية ـ أعني: المعتزلة والأشاعرة والماتريدية ـ في أكثر المسائل العقائدية، ولكنّهم يفترقون عن الأشاعرة في مسائل، كما أنّهم يفترقون عن المعتزلة في مسائل أُخرى.

ونحن نشير إلى بعض الفوارق بين هاتين الطائفتين (الشيعة والمعتزلة)، وما ذلك إلاّ لأنّ قسماً كبيراً من كُتّاب تاريخ العقائد جعلوا الشيعة من فِرَق المعتزلة مع أنّ بين المنهجين الكلاميين مشتركات ومفترقات.

الفوارق بين الشيعة والمعتزلة:

١. الشفاعة عند الشيعة والأشاعرة هي غفران الذنوب أو إخراج العصاة من النار بخلاف المعتزلة، فإنّ نتيجة الشفاعة هي ترفيع الدرجة.

٢. مرتكب الكبيرة عند الإمامية والأشاعرة مؤمن فاسق، وقالت المعتزلة: بل هو في منزلة بين المنزلتين.

٣. الجنّة والنار عند الإمامية والأشاعرة مخلوقتان الآن بدلالة الشرع خلافاً للمعتزلة فانّهما غير موجودتين عندهم.

٤. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضتان واجبتان عند الإمامية

---

١. صحيح مسلم:٦/ ٣ـ٤.

والأشاعرة شرعاً، وعند المعتزلة عقلاً، نعم ذهب بعض الإمامية إلى وجوبها عقلاً أيضاً.

٥. اتّفقت الإمامية والأشاعرة على بطلان الإحباط، خلافاً للمعتزلة، حيث قالوا: إنّ المعصية تُحبط الثواب المتقدم.

٦. اتّفقت الإمامية والأشاعرة على أنّ قبول التوبة بفضل من الله ولا يجب عقلاً إسقاط التوبة للعقاب بخلاف المعتزلة فانّ التوبة مسقطة للعقاب على وجه الوجوب.

٧. اتّفقت الإمامية على أنّ الأنبياء أفضل من الملائكة، وأجمعت المعتزلة على خلاف ذلك.

٨. اتّفقت الإمامية على أنّ الإنسان غير مُسَيّر ولا مفوَّض إليه بل هو بين الجبر والتفويض، وأجمعت المعتزلة على التفويض.

٩. اتّفقت الإمامية والأشاعرة على أنّه لابدّ في بيان بعض التكاليف من دلالة الرسول، وخالفت المعتزلة وزعموا أنّ العقول تغني بمجرّدها عن السمع.

١٠. غالت المعتزلة في تمسكهم بالعقل وغالى أهل الظاهر في جمودهم على ظاهر النص، وأعطت الإمامية للعقل سهماً في ما له فيه مجال.

هذه هي الفوارق بين الشيعة الإمامية والمعتزلة وقد تبيّن أنّ الشيعة ليست فرعاً من المعتزلة وإن كانت الفرقتان تستمدّان التوحيد والعدل من كلام الإمام علي بن أبي طالب.

فإذا تبيّنت الفوارق بين الطائفتين فلنذكر بعض الفوارق بين الإمامية والأشاعرة.

الفوارق بين الإمامية والأشاعرة:

إنّ الشيعة الإمامية تخالف الأشاعرة في أُصول نذكر المهمّ منها:

١. صفاته سبحانه متّحدة مع ذاته، فليس هناك ذات وعلم، بل الذات علم كلّه، خلافاً للأشاعرة، فإنّ الصفات زائدة على الذّات.

٢. أفعال العباد عند الإمامية صادرة عن نفس العباد صدوراً حقيقياً بلا مجاز أو توسّع.

فالإنسان هو الضارب والقاتل والمصلّي والقارئ، ولم يثبت في لغة العرب استعمال كلمة الخلق في الأفعال فلا يقال: خلقت الأكل والضرب والصوم والصلاة، وإنّما يقال فعلتها، فالإنسان هو الفاعل لأفعاله بقدرة مفاضة من الله سبحانه، وأنّ قدرته المكتسبة هي المؤثرة بإذن من الله خلافاً للأشاعرة، إذ ليس لإرادة العبد ولا قدرته دور في إيجاد الأفعال.

٣. رؤية الله بالأبصار مستحيلة مطلقاً سواء أكان في الدنيا أم في الآخرة، خلافاً للأشاعرة حيث يجوّزون رؤية الله في الآخرة.

٤. التحسين والتقبيح عقليان عند الشيعة كما مرّ بيانه دون الأشاعرة، فانّهما عندهم شرعيّان .

هذه هي الأُصول التي تخالف الإمامية فيها الأشاعرة وربما توافقهم المعتزلة في بعض الأُصول.

الفوارق الرئيسية بين الشيعة وسائر الفرق:

هناك فوارق رئيسية بين الشيعة وسائر الفرق وأكثرها تعدّ من خصائص

الإماميّة.

١. وجوب نصب الإمام على الله سبحانه.

٢. عصمة الإمام المنصوب من الله.

٣. الاعتقاد بالإمام المهدي المنتظر المولود عام (٢٥٥هـ) وهو حيّ يرزق.

٤. القول بالبداء، وهو تغيير المصير بالأعمال الصالحة أو الطالحة، والبداء بهذا المعنى عند التحقيق من العقائد المشتركة.

٥. الرجعة وهي عبارة عن عودة جماعة قليلة إلى الحياة الدنيوية قبل يوم القيامة ثمّ موتهم وحشرهم مجدّداً يوم القيامة. ويشهد على إمكانها إحياء جماعة من بني إسرائيل[١] و إحياء قتيلهم.[٢]

هذه هي الخطوط العريضة للعقائد الكلامية عند الشيعة الإمامية، وبذلك تمّ بيان المدارس الكلامية الرائجة بين المسلمين، وبقي هناك مدارس كلامية أُخرى لا حاجة لذكرها إمّا لضآلتها أو لانقراضها.

١. البقرة:٥٥.

٢. البقرة:٧٢ـ ٧٣.

١١

علم الكلام الجديد

أو

المسائل الجديدة في علم الكلام

لقد شاع على ألسن بعض الجامعيين الجُدد عنوانُ «علم الكلام الجديد» و هم يلهجون بـه بفم ملؤه الإعجاب والاعتبار، ويبـدو لأوّل وهلة أنّ هناك علمين مختلفين أحدهما «الكلام القديم» والآخر «الكلام الجديد» ولكلّ تعريف وموضوع ومسائل وغاية.

ولكن الحقيقـة غير ذلك، إذ ليس ثمّـة علمان مختلفان، من حيث الموضـوع والغـاية، بل هـو علم واحد يتكـامل عَبْر الزمـان حسب تكامل الحضـارة وتفتّح العقول، وليس ذلك أمراً شاذاً في علم الكلام، بل هـو جارٍ في سائر العلوم أيضاً، فعلم النحو مثلاً لم يكن يوم ظهوره إلاّ عدّة مسائل ألقاها عليّ عليه السلام على تلميذه أبي الأسود الدؤلي وأمره بأن ينحو نحـوها، ثمّ أُضيف إليه في كلّ عصر مسائل حتّى تكامل وصار علماً متكامل الأطراف.

وكـذلك شأن علم الكلام، فلم يكـن يوم ظهـوره إلاّ عدّة مسـائل محدودة كالتـوحيد والعـدل والقضاء والقدر ومـا يشبهها، ولكنّه أخـذ بالتكـامل والتطوّر بسبب الاحتكاكات الثقافية وفي ظلّ سائر العوامل المؤثرة في تكامله.

وعلى ذلك يكـون التعبير الصحيح : المسـائل الجديدة في علم الكـلام لا علم الكلام الجديد.

وأظن ـ و ظنّ الألمعي صواب ـ أنّ الغاية من وصف بعض المسائل بالكلام الجديد، هـو تهميش الكلام الإسلامي الذي تكـامل عبر الزمان بيـد عمالقة الفن وأساتـذته بـزعم أنّ المدوّنات الكـلاميّة لا تلبّي حـاجات العصر ولا تشبـع رغبة الطالبين.

ولكنّه ـ يشهد الله ـ بخس لحق هذا العلم، فانّ الكـلام الإسلامي قادر على تلبية حاجات المتكلّمين فيما يتبنّونه في هذه الأيّام باسم فلسفة الدين وما يرجع إلى المعرفة الدينية.

إنّ الفقـه الأكبر (علم الكلام) كـالفقـه الأصغر يستطيع أن يحلّ المشـاكل ويجيب عن عامـة الأسئلة في حقل الدين، وقد قمنـا بطرح هذه الأسئلة وتحريـرها ضمن مقالات متنوّعة نشرناها في مجلّتنا الفصلية عبر سنين، وقد طبع ما يرجع إلى هذا الموضـوع في جزءين مستقلين وانتشر باللغة الفـارسية باسم «مـدخل مسائل جديد در علم كلام».

ولأجل إيقاف القـارئ على نماذج من هـذه المسائل التي عـرقلت خُطىٰ بعض المفكّرين ، نذكر عناوينها مقرونة ببيان موجز:

١ . ما هو السبب لنشأة الدين؟

لقد حاول بعض المفكّرين تفسير نشأة الدين وتعليل ظهور الاعتقاد بالله سبحانه بين البشر، بوجوه وهميّة صنعتها يد الخيال فهم ـ مكان أن يفسّروه بالفطرة وأنّ الدين نداء يسمعه الإنسان من ضميره وباطن عقله ـ حاولوا أن يفسّروه بعوامل ماديّة ألجأت البشر ـ حسب زعمهم ـ إلى اعتناقه .

فتارة يفسّرونها بالخوف من الحوادث الطبيعية المُرْعبَة ، قال ويل دورانت : «الخوف ـ كما قال لوكريشس ـ أوّل أُمّهات الآلهة و خصوصاً الخوف من الموت» . فهذا العامل وما يشبهه جعل البشر يلوذ إلى قوة عليا اخترعها ليسكن إلى حمايتها ويرتاح في كنفها .

وأُخرى يفسّرونها بالجهل بالعلل الطبيعية ، وحاصلها أنّ الإنسان البدائي عندما واجه الحوادث الطبيعية كالزلازل والسيول والكسوف والخسوف التي تحيط به ، ولم يعرف عللها الطبيعية الواقعية ، لجأ ـ لجهله ـ إلى اختراع فاعل لها واعتبره العلّة الوحيدة لكلّ شيء مباشرة .

فكان الاعتقاد بوجود الله وليد الجهل بأسباب الحوادث الكونية الطبيعية .

وثالثة يفسّرونها بالعامل الاقتصادي ببيان أنّ أصحاب الرق والإقطاعيّين والرأسماليّين في عهود (الرق والإقطاع والرأسمالية) كلّما خشوا ثورة العبيد والفلاّحين والعمال في وجه المستغلّين لهم بسبب ما يلاقونه من الضغوط ، عمدوا إلى التوسّل بالمفاهيم الدينية والروحية وترويجها بين المحرومين والكادحين الناقمين بهدف تخديرهم والتخفيف من غضبهم وصرفهم عن الانتفاضة والثورة .

ورابعة بأنّ التـديّن نزعة طفـولية، وقـد تبنّاها «فـرويد» و قال: إنّ الحـالة الطفولية لدى الإنسان والتي تتطلب له أبا رؤوفاً يأوي إليه في الأهوال، هي التي جرّته إلى أن يخترع فكرة الإله ليقيمه مقام الأب الحامي له في فترة الطفولة حتّى تحصل له الطمأنينة ويتوفّر له الاستقرار النفسي.

إلى غير ذلك من النظـريات الساقطـة التي لـم تكن إلاّ دعاوى فـارغة من الدليل، ظهرت لغايات سياسية.

و نحن لا نذكر ما في هذه النظـريات من إشكالات تجعلها عقيمة[1]، وإنّمـا نلفت نظر القـارئ إلى نكتة مهمـة، وهي أنّ أصحاب هـذه النظريـات كأنّهم اتّفقـوا على تغافل أنّ هنـاك لنشوء الاعتقـاد بالله في حيـاة الإنسان علـلاً طبيعية روحية كالفطرة، أو منطقية وعقلية كدلالة العقل الإنساني على وجود قوة عليا عندما يواجه هذا النظام البديع.

هـذه العلل تكشف أنّ لـلاعتقاد جـذوراً واقعيـة في العقل والنفس وهي التي دعت الإنسـان في عامـة القرون إلى الاعتقـاد بـالعوالم الغيبيـة غير عـامل الخوف من الحـوادث الطبيعية المـرعبة أو الجهل بـالعوامل الظـاهرة أو نظـرية الاستغـلال أو الحالـة الطفوليـة أو غير ذلـك من الفروض التي حـاكها الخيـال وأبطلها المنطق والتاريخ والتجربة.

٢. ما هي الحاجة إلى التديّن؟

هذه هي المسألة الثانية المطروحة باسم الكلام الجديد، وأكثر من يثيرها الماركسيـون قبل انهيار الاتحـاد السوفياتـي، وبما أنّ القوم لم يـدرسوا حـاجة

---

١. راجع في نقد هذه النظريات كتاب «الله خالق الكون»: ١٩ـ٨٨.

البشر إلى التديّن عادوا يرونه أمراً زائداً في حياة المجتمع الإنساني اليوم بعد أن كان مفيداً في غابر الزمان .

ولكنّهم جهلوا ما للدين من آثار بنّاءة لا يستغني عنها الإنسان في أيّة فترة من فترات حياته ، و نشير إلى بعضها ونحيل التفصيل إلى محلّه :

أ . التديّن إجابة عملية لسؤال مطروح لـلإنسان من أقدم العصور حتّى اليوم حيث كان يسأل نفسه في أنّه :

من أين أتى؟

لماذا أتى؟

وإلى أين يذهب؟

ولم تزل هذه الأسئلة تطالبه بالجواب بإلحاح شديد ... إنّه لا يمكنه أن يمرّ على هذه الأسئلة دون اكتراث ، وهو يرى لكلّ ظاهرة حياتية سبباً ، فكيف بهذا الكون العظيم وهذا الفضاء الواسع العريض وما يتّسمان به من جلال وإبداع؟ والدين يجيب على هذه الأسئلة بوضوح و إتقان .

ب . انّ الدين يطرد القلق المحيط بالإنسان عندما يحتمل أن يكون هناك قوة عليا ولها عليه سلطة وتكاليف ربما يحاسب لأجلها ، ويشتد هذا القلق عندما يراجع التاريخ البشري ويواجه مجموعة كبيرة ممّن يطلق عليهم «الأنبياء» قد أخبروا بوجود إله خالق لهذا الكون ، وأنّهم رسل الله إلى البشرية جاءوا ليخبروهم بأنّ ثمّة واجبات وتكاليف ، وأنّ هناك حياة أُخرى وحشراً ونشراً وحساباً وعقاباً ، وجنّة وناراً ، وأنّ الناس جميعهم مسؤولون محاسبون شاءوا أم أبوا .

إنّ هذا النوع من القلق هو الباعث على دراسة العقيدة والبحث عن الله وما يتبع ذلك من العقائد والتكاليف ولا يرتاح إلاّ بالنزول على عتبة الدين.

ج. التديّن مورث للطمأنينة: يواجه الإنسان في حياته أُموراً عديدة تنغّص عليه عيشه وتسبّب له أزمة روحية منها:

١. هاجس الفناء.

٢. المصائب والنكبات.

٣. المطامح المادية غير المحقّقة.

إنّ العقيدة الدينية قادرة على مواجهة عوامل الاضطراب هذه وعلى تحقيق السكينة للإنسان والتخفيف من أزماته الروحية، وذلك من خلال الإيمان بـ:

أوّلاً: أنّ الموت في العقيدة الدينية ليس فناء، بل هو انتقال من عالم ضيق إلى عالم فسيح ومن حياة زائلة إلى حياة أبدية، وعندئذٍ يتغيّر طعم الموت عند الإلهي عمّا هو عند المادي.

وثانياً: أنّ المصائب والآلام و إن كانت بظاهرها مرّة، ولكنّها لا تخلو من مصلحة وحكمة، مادام خالق الكون عالماً حكيماً، فإذا وقف الإنسان على أنّها من فعل الخالق الحكيم لم يحزن لما دهاه منها، بل يزداد صلابة واستقامة.

وثالثاً: أنّ العقيدة بما أنّها تُقدّم للإنسان تعاليم أخلاقية، تحد من سوْرة الحرص و فوْرة الطمع الذي يسبب الاضطراب نتيجة العجز عن تحقيق الطموحات المادية العريضة.

د. الاعتقاد بالله دعامة الأخلاق: الإنسان كتلة هائلة من الغرائز التي لا

تعرف الحدود، ومجموعة من الشهوات والمطامع والطموحات التي لا تعرف نهاية، فإذا ترك وشأنه لينال ما تدفعه إليه شهواته وغرائزه جرّ على نفسه وعلى مجتمعه الفساد والفناء، لتضارب المصالح والمطامع والطموحات، ومن هنا طرح المصلحون والاجتماعيون مسألة الأخلاق التي تهتمّ بتعديل هذه الغرائز.

ولكن الالتزام بالأخلاق لمّا كان يلازم التنازل عن بعض الطموحات لم تستطع التوصيات الأخلاقية وحدها من السيطرة على الغرائز، فلابدّ هنا من شيء يعزّز مكانة الأخلاق وهو أن يشعر الإنسان بأنّ هناك قوّة عليا ناظرة لأعماله تثيب من التزم طريق العدالة وحفظ الحدود والحقوق، و تعاقب مَن خالف ذلك، وهذا لا يحصل إلاّ عن اعتقاد ديني.

هـ. الاعتقاد بالله ضمانة لتنفيذ القوانين: قد أثبت التاريخ والتجربة أنّ وجود القانون وحده ليس كافياً في توفير الأمن للمجتمع وإن كان مُدعماً بقوة جهاز الشرطة في الردع وفرض الغرامة والحكم بالسجن، بل لابدّ مع ذلك من رقيب (مشرف) داخلي يعمل حتّى في حالة غفلة أجهزة الدولة والشرطة، وليس هو إلاّ الإيمان بالله واليوم الآخر ومخافة الحساب والعقاب وخشية المؤاخذة والمكافاة إلى غير ذلك من آثار بنّاءة للعقيدة الدينية.

٣. نطاق شمول الدين

وهذه هي المسألة الثالثة وهي تحديد دور الدين و هل هو رابطة روحية بين الخالق والمخلوق ويتلخص في تصفية الروح باتصاله بمبدأ الكمال، أو أن نطاقه يعمّ ذلك وغيره؟ فهو نظام شامل لحياة الإنسان في حقول مختلفة من غير فرق بين حقل السياسة والأخلاق والاقتصاد والاجتماع، فللدين بيان و بلاغ في

كلّ واحد من هذه الحقول.

وهذا لا يعني أنّ الدين يغني عن التفكير في هذه المجالات ويجعل الإنسان مقلّداً فارغاً عن التخطيط، بل بمعنى أنّ الأُصول الكلية الّتي عليها مدار السعادة في الدنيا والآخرة يبيّنها الدين ويترك التخطيط للإنسان على ضوء هذه الأُصول المسلّمة.

نعم من يلخّص الدين في مجرّد الصلة بين الخالق والمخلوق ويدعو الإنسان إلى الدعاء والمناجاة في الكنائس والمعابد ويترك باقي الأُمور لهوى الإنسان، فمثل هذا الدين نطاقه ضيّق غير شموليّ وهذا كالمسيحيّة الموجودة في العصر الراهن، فإنّ الكنائس لخّصت واجب الإنسان الديني في الدعاء والابتهال إلى الله في ساعة واحدة من يوم واحد من الأُسبوع.

ولعلّ ما يذكره القائل من تضييق نطاق الدين يجعل هذا النوع من الدين مقياساً لقضائه، أمّا لو عطف نظره إلى ما ورد في تلمود الكليم من الواجبات والمحرّمات وما في الشريعة المحمّدية من آلاف الأحكام في حقول مختلفة لرجع القهقرى من هذا النوع من التفكير.

٤. هل النبوة موهبة إلهية أو نبوغ اجتماعي؟

إنّ النبوّة عند الإلهيّين موهبة إلهية يهبها سبحانه إلى صالحي عباده وأفضلهم، ويجهّزهم بالآيات والبيّنات ليقيموا الناس بالقسط والعدل ويهدوهم إلى الصراط السويّ على أصعدة مختلفة.

نعم هناك من لم يؤمن بالنبوّة يفسرها بالنبوغ الاجتماعي، وأنّ الأنبياء دعاة ومفكّرون لهم من النجدة والفكر ما يميّزهم عن غيرهم، ولأجل إقناع

الناس و إلفات نظرهم إلى خطابهم نسبوها إلى السماء وما وراء الطبيعة و إلى الله ليكون أوقع في النفوس.

وهذا النوع من التفسير للنبوة رمي للأنبياء بالكذب، وأيّ افتراء أكبر من أن نصف عمالقة الإصلاح وأتقياء المجتمع بالفرية والكذب ولو لغاية الإصلاح!!

إنّ الأنبياء قد ضحّوا بأنفسهم ونفائسهم في طريق إصلاح المجتمع، أفهل يصحّ وصف هؤلاء بالكذب والدجل؟ وما هذا إلاّ لأنّ القوم لم يدرسوا حقيقة النبوّة وشروطها وواقع الوحي وحدوده.

٥. خلود الشريعة وبقاؤها

هل الشريعة السماوية تصلح لأن تُسْعد المجتمع الإنساني عبر القرون وترتقي به إلى أرفع المستويات؟ أو أنّ تعاليم الأنبياء تعاليم زمنية و إصلاحات وقتية تنتفع بها بعض المجتمعات في فترة حياة النبي أو بعدها بمدّة يسيرة؟

إنّ السائل خلط بين ما هو ثابت في الشريعة و ما هو متغيّر فيها، فانّ الأُصول المبتنية على الفطرة الإنسانية ثابتة لا تتغير ولا تتبدّل لثبات فطرتها.

نعم هناك مقرّرات في الشريعة تتبدّل وتتغيّر حسب تغيّر الظروف والحضارات، فالسائل لم يفرّق بين القوانين والمقرّرات، فالثابت هو الأوّل والمتغيّر هو الثاني، ومثال ذلك أنّ فريضة التعليم والتعلّم والكتابة من الأُصول الإسلامية التي لا تتغيّر، فالمسلم هنا مطالب بتحصيل العلم، وبذل أقصى الجهود في هذا المجال، وأمّا ما يتحقّق به هذا الأصل من الأدوات فهي تابعة للظروف والحضارة كما هو واضح، وقس على ذلك كلّ ما ورد في الشريعة من

الأُصول الثابتة والمقررات.

وفي مجال آخر، يُعدّ الدفاع عن كيان الإسلام وحفظ الاستقلال، استناداً إلى قوله سبحانه: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾[1] من الأُصول الثابتة، وأمّا كيفية الدفاع ونوع السلاح المستخدم وغير ذلك، فهي من الأُصول المتغيرة التي تخضع لمقتضيات الزمان.

٦. الوحدة أو التعدّدية الدينيّة

التعددية الدينية Religious Pluralism من المسائل الكلامية الحديثة الظهور، وقد جرت مؤخراً على الألسن، وصدرت حولها كتب ومقالات مختلفة في بيانها أو نقدها، يتكون عنوان (البيلوراليزم الديني) من كلمتين هما «بيلوراليزم» و «ديني» و المفهوم الثاني واضح نوعاً ما، إلاّ أنّ المفهوم الأوّل يحتاج إلى بيان.

تستخدم كلمة Plural اسماً أو صفة، وكذلك تأتي بمعنى «الجمع أو الكثرة» والحقيقة أنّ الكلمة المذكورة تشير إلى «الكثرة» و«التعدد» وتكملتها ism تعني تياراً، من هنا استخدمت في مجالات مختلفة أعمّ من الدين، كالفلسفة، والأخلاق، والحقوق والسياسة، فمثلاً «البيلوراليزم السياسي» نوع من التعددية السياسية، كما تشير إلى تعدّد الأحزاب والتشكيلات، والمقصود من التعدّدية الدينية ما يقابل الوحدانية والتفرّد، أو ما يصطلح عليه الانحصارية في الدين في مقابل الشمولية.

إنّ التعددية الدينية لها تفسيران:

---

١. الأنفال: ١٠.

١ . إنّ جميع أتباع الأديان (حسب تعبير المنظّرين) أو الشرائع (في ضوء تعبيرنا) قادرون على التعايش على أساس ما لديهم من المشتركات ، وأن يتحمّل بعضهم البعض وهو ما يُعرف ـ لدى السياسيّين ـ بالتعايش السلمي ، فالتعددية الدينية بهذا المعنى ممّا نادى به الإسلام وقبلها المسلمون شعوباً وحكّاماً حيث يُتاح للجميع التعايش مع بعضهم البعض في ظل السلام والاحترام المتبادل .

٢ . يكفي في سعادة الإنسان أن يؤمن بالله ويلتزم بإحدى الشرائع السابقة ، وهذا التفسير من التعددية الدينية مردود بنصوص الشريعة ، وإليك بعضها :

١ . انّ القول بخلود واستمرار كلّ شريعة يفضي إلى إلغاء فائدة تشريع الشرائع المتعدّدة وإرسال الرسل المحوريّين،وسوف لا نجني من ذلك شيئاً سوى التشويش وبث الفرقة.

٢ . إذا قلنا بأنّه يكفي في تحقيق السعادة اتّباع أية شريعة، فلماذا تحدد مسؤولية كلّ نبي بمجيء النبي الآخر بل والتبشير به؟

٣ . إذا كانت كل الشرائع خالدة فلا موجب لنسخ الأحكام، ولو بشكل إجمالي، ولما قال المسيح :﴿**ولأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُم**﴾ .[1]

٤ . إذا كانت شريعة عيسى صالحة ومعترفاً بها رسمياً حين نزول الشريعة اللاحقة، فلا وجه لدعوة اليهود والنصارى لاتّباع دين محمّد ﷺ مع أنّ القرآن يصرّح بضلال أهل الكتاب ما لم يؤمنوا بالدين الجديد: ﴿**فَإِنْ آمنوا بِمِثْلِ ما آمَنتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا**﴾ .[2]

---

١ . آل عمران: ٥٠.

٢ . البقرة : ١٣٧ .

٥. عندما نراجع نصوص الكتاب المقدّس والقرآن الكريم وأقوال ورسائل النبي ﷺ نجد انّ هـذه النظرية من الهشـاشة إلى درجة لا يصـدقها إلاّ من يقضي ويبرم جـزافاً، ثمّ يبحث عن الـدليل ويتشبّث من أجل نجـاته بكلّ غث فيـؤمن بهذه النظرية.

٦. تتـوقّف حياة الإنسـان في الآخرة على عقيـدة صحيحة وعمل صـالح، وتحقّقهما موجب للثـواب. وهنا نسأل: كيف يمكن للتضـاد في العقيدة أو العمل بأمرين متضادين، أن يضمن الحياة المعنويـة للإنسان؟ وكيف يُسعد الإنسان في الـدارين بتبنّي التـوحيـد على جميع الأصعـدة وفي الوقت نفسـه يسعـد بـالإيمان بالتثليـث وبتثليث الرب، أو يُسْعـد بتجنّب الخمر والربـا وكذلك مـع الإدمان وأكل الربا؟

٧. لو أعـرضنا عن هـذا، فإنّ واقعية السعـادة التي ستوفـرها هـذه الأديان ستكـون مشروطة بعـدم تحريفها، فهل هـذا الشرط صادق في الأديـان السابقـة؟ فـالإنجيل المتـداول ليس هـو كتـاب الله المنـزل على المسيح، بل هـو من تحريـر تـلامذتـه بشهـادة أنّ حياة المسيح قـد سجّلت في آخـر الأناجيل الأربعـة ضبط حياته عليه السلام بشكل خاص،وذكر صلبه ودفنه وعروجه إلى السماء.

فهل يمكن للإنجيل الذي خطّته يد البشر أن يُسعد جميع الناس على وجه الأرض؟ والتوراة أيضاً ــ مثل الإنجيل ـ حامت حولها الشكوك، فـالتوراة الحالية قُـرئت وكتبت على يد أحـد حفّـاظ التوراة في زمـان نبوخـذ نصّر [١] بعد اختفاء النسخـة الأصلية، وهـذه النسخـة تعرضت بعـد مـرور سبعين سنة للتحـريف، واشتملت على أحكـام ونصوص تخالف العقل، وقـد انتقدهـا القرآن بـاعتبارهـا

١. أي «بخت النصر» ملك بابل، وفي الكتاب المقدس«بنوكد نصر».

عاجزة عن توفير السعادة والهداية.

٨. ولو أعـرضنا عن كلّ ما تقـدم نقول: «إنّ الأديان التـاريخية الكبيرة هي بمنزلة مجموعة تتشكل من منظومة عقيدية واحدة» إلاّ أنّنا متى شخصنا الأكمل من بينها فعلينا ــ بحكم العقل ـ اتّباعها، وهـذه الحقيقة صرّح بها بعض أنصار البيلوراليزم. يقـول «وليم نلسون»: أنا لا اعتقد انّ جميع الأديـان التي امتدت على طول التاريخ حتى اليوم، متساوية من منظار علمي.

٧. تعارض الدين والعلم

لهذه المسألة (السـابعة) جذور في القـرون المتقدّمـة، فحينما ترجمت الكتب اليونانية والهندية والفارسية إلى اللغة العربية وانتشرت الفلسفة بين المسلمين، رأى غير واحـد من المفكرين أنّ هنـاك تعارضـاً بين السمع و بين ما في هـذه الكتب، فعـادوا يعبرون عن هـذه الفكـرة بتعـارض الـدين والفلسفـة أو تعـارض العقل والنقل.

وعندمـا ارتجّ العـالم بظهور الحضارة الصنـاعية وأخـذ العلم زمـام الحياة، وانتشرت نتـائج التجـارب في الأوسـاط وربما كان بعضهـا مخالفـاً لما في الكتـاب المقدّس أخذت هذه المسألة لنفسها عنواناً آخر، وهو تعارض العلم والدين .

وحصيلة الكلام في نقـد التعارض: أنّ المراد من الدين هو حصيلـة الوحي الإلهي لا أخبار الآحاد المنتشرة بين الكتب والأفواه، والوحي إدراك قطعي لا يقبل الخطأ، فعند التعارض لابدّ من انتخاب أحد الأمرين:

ما تلقّينـاه ديناً وما فهمناه من الكتـاب العزيز ليس بدين وإنّما هـو انتزاع ذهني وفهم خاطئ منّا.

أو ما أثبتته التجربة ليس من الحقـائق المسلّمة، بل فرضية سوف تتبدل إلى فرضية أُخرى.

وعندما ظهرت نظرية «دارون» في أُصول الإنسان، حسب الماديّون أنّهم قد توسّلـوا بسلاح حادّ لضرب المتدينين القـائلين بخلق الإنسان من الطين، ولكن لم يلبث أن قامت الأدلـة القاهـرة على بطلان هذه النظـرية وقامت مقـامها نظـرية أُخرى، وهكذا تتابعت النظريات إلى يومنا هذا.

٨. صلة الدين بالأخلاق

إنّ الأخلاق جزء من الـدين وليست شيئاً خارجاً عنه، وقـد مرّ أنّ الاعتقاد بالله دعامة الأخـلاق، بحيث لو انهارت هذه الدعامة لم يبق هنـاك ما يدعم القيم الأخلاقية، ولأجل إيضاح المقام نقول: إنّ الفضـائل والسجايا الكريمة جزء من فطرة كلّ إنسان، وإنّ الميل إلى الخير وكراهـة الشر أمران مغروسان في جبلّة البشر فهم يحبّـون الخير وأهلـه ويكـرهون الشر وأهلـه، ولكن هـذه البـذور والخمائر لا تستطيع مقاومة الغرائز ومـزاحمة الشهوات إلاّ إذا قويت ونمت، وهي لا تنمو إلاّ في ظلّ الـدين الـذي ينطوي على الاعتقـاد بـالله واليـوم الآخـر وما وعـد فيـه من مثوبات عظيمـة على الخيرات، أو عقوبات شديـدة على ارتكاب الشرور والآثام، وبهذا تكون العقيدة خير وسيلـة لتنمية السجايا النبيلـة في الكيان الإنساني وخير سبيل إلى تقويتها ودعمها.

وقد سبق منّا: انّ الدين دعامة الأخلاق ولنعم ما قاله الشاعر:

وإنّما الأُمم الأخـلاق مـا بقيت ... فإن هُمُ ذهبتْ أخلاقُهم ذهبوا

فإذا كانت هذه مكانة الأخلاق، فما هي مكانة الدين الذي هو دعامتها؟

٩. حريّة الإنسان في سلوكه الفردي والاجتماعي

إنّ الفيلسوف الطائر الصيت «سارتر» و من نحا نحوه أعطوا للحرية مكانة مرموقة، وكأنّ الإنسانَ خلق للحرية وفي خدمتها، وهم ـ لأجل ذلك ـ يرفضون الدين لأنّه يحدد حرية الإنسان ويزاحمها، وينكرون كلّ أمر فطري أطبق عليه العقلاء في كلّ قرن كحسن العدل و قبح الظلم، بحجة انّ الاعتراف بوجود هذا الميل الفطري، يحدد حرية الإنسان ويضع لها إطاراً خاصاً، فصارت الحرية عند هؤلاء، إلهاً يعبد مكان إله العالم.

وقد أخذ الإسلام من الحرّية، الجانب الأوسط، فرأى كرامة الإنسان في الحفاظ على حريته، ولكن لا على نحو تكون ذريعة للانحلال الأخلاقي فتُصبحَ وبالاً عليه، وتجعل الإنسان عبداً خاضعاً، للميول والغرائز تحت غطاء، صيانةالحرية. فالحرية بهذا المعنى، تذليل للإنسان وهدم لكرامته ونوع من العبودية للشهوات والغرائز الجامحة كما حدّد حرّيته بعدم الإضرار بمصالح الآخرين، و إن أردت التفصيل فنقول:

يتميّز الإنسان عن سائر الموجودات بالتفكير العقلاني، والحرّية في السلوك، وكأنّ هذين العنصرين: التفكير والحرية، جوهر الحياة الإنسانية.

أمّا التفكير فقد دعا إليه الإسلام في العديد من آياته إلى درجة عُدَّت تنمية القوة العقلية والتفكر في مظاهر الكون من سمات ذوي الألباب، قال سبحانه:

﴿إِنّ في خَلْقِ السَّمٰواتِ والأَرضِ واختلافِ اللَّيلِ وَالنّهارِ لآياتٍ لأُولِي الأَلباب* الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِياماً وقعوداً وعلى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرونَ فِي خَلْقِ السَّمٰواتِ

وَالْأَرْضِ رَبَّنَا ما خَلَقْتَ هذا باطِلاً﴾ .[١]

وقـد نهى الإسلام عن كلّ عمل أو سلـوك يضاد التفكير العقـلائي، فنهى عن الخمر، وكلّ مسكـر يزيل العقل، كما نهى عن التقليـد الأعمى، والاتّباع غير المدروس للآباء والأجداد.

وأمّا الحرّيـة فإنّ الإسلام حـذّر الإنسان من استعبـاد أخيه الإنسـان وقهره وإذلاله، كما حذّر من الخضوع للقهـر والتسلّط، فليس للإنسان إلاّ أن يعيش حرّاً كريماً بعيـداً عن أيّ شكل من أشكال الـذلّ و الصغار، قـال الإمام علي عليه السلام: «لا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حرّاً».[٢]

وقد روي عنهم عليهم السلام :«إنّ الله تبـارك وتعـالى فـوّض إلى المؤمن كلّ شيء إلاّ إذلال نفسه».[٣]

نعم الحرية موهبة إلهية منحها الله للإنسـان لحفظ كرامته وعزته وشرفه، فلو استخدمهـا في هدم كـرامته وشرفـه، فقد خـالف السنّة الإلهيـة، ولذلـك صارت الحريات الفـردية الشخصيـة في المجالات الاقتصاديـة أو السياسيـة محدّدة بعدم منافاتها لتكامله المعنوي، كما هي مقيدة بعدم إضرارها بالمنافع العامة.

فالحرية أصل أسـاسي في حياة الإنسان محددة باستخدامهـا في طريق رُقيّه وتكـامله، وعـدم إضرارهـا بمصالـح العامـة، لكي تكـون في خـدمـة الإنسـان ومصالحه، ومصالح المجتمع.

---

١ . آل عمران: ١٩٠ـ ١٩١ .

٢ . نهج البلاغة، قسم الرسائل، رقم ٣٨.

٣ .وسائل الشيعة: ١١/ ٤٢٤، كتاب الأمر بالمعروف، الباب ١٢، الحديث ٤ .

١٠. الهرمنوتيك أو تفسير النصوص

الهرمنوتيك كلمة يونانية بمعنى تفسير النصوص، والغاية من طرح هذه المسألة هو أنّ النصوص الدينية لا يمكن تفسيرها تفسيراً قطعياً، وأنّه يتعذّر اتخاذ رأي نهائي وقطعيّ في المفاهيم الدينية المأخوذة من الكتاب والسنّة.

قالوا في ذلك: «لا يوجد أي رأي نهائي وقطعي في الشؤون الدينية، لأنّ الخطاب الديني يجد معناه في نهاية الأمر عبر الارتباط بالله، فلا توجد لدينا فتوى قطعية ولا نظرية عقائدية نهائية وإنّما نعيش مساراً تفسيرياً دائماً...».

إنّ هذا القائل وإن خصّ النظرية بالنصوص الدينية، ولكنّ مؤسّسي النظرية في الغرب، أعني: «شلاير ماخر»(١٧٦٨ـ ١٨٤٤م) و«مارتين هايدگر» (١٨٧٩ـ ١٩٧٤م) و من تقدّم عليهما أو تأخّر عنهما، تبنّوها على نطاق وسيع، وقاموا بتعميمها على كلام كلّ متكلّم وأثر كلّ مؤلّف، وأنّه لا يمكن أن يصل المخاطب إلى المقصود النهائي منهما أبداً.

وقد أفردنا رسالة في نقد هذه النظرية وانتشرت انتشاراً واسعاً، فلا نعود إليها، إلاّ أنّنا نودّ أن نلفت نظر القارئ إلى أُمور:

أوّلاً: أنّ أصحاب تلك النظرية يتكلّمون عن أصحاب الكتب السماوية، وهم لا يعترفون بتلك النظرية بل يكذبونها، فإنّ القرآن الكريم يقسم آياته إلى قسمين: محكم ومتشابه، فيرى المحكم أُمّ الكتاب، وأنّ عقدة المتشابه تنحلّ بالرجوع إليه، يقول سبحانه: ﴿**هُوَ الَّذي أنزَلَ عَلَيْكَ الكتابَ مِنْهُ آياتٌ مُحْكَماتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتاب وأُخَرُ مُتَشابهاتٌ فَأمّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ ما تَشابَهَ مِنْهُ ابْتِغاءَ الفِتْنَةِ وابْتِغاءَ تَأْويلِهِ وَما يَعْلَمُ تَأْويلهُ إلاّ اللهُ والرّاسِخونَ فِي العِلْمِ يَقُولُونَ**

آمَنّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبّنا وَما يَذَّكَّرُ إِلاّ أُولُوا الأَلْباب﴾ .[١]

فالمحكمات من الآيـات ما أُحكمت دلالتها، واتّضحت معـا لمها، وتبيّنت مقاصدها، أفهل يصحّ وصف هذه الآيات بعدم وجود أي رأي نهائي في تفسيرها وتبيينها؟!

إنّ النظـرية تعني أنّ النصـوص الـدينية مجمـوعـة رموز وألغـاز يفسره كلّ إنسان، حسب مـا أوتي من مواهب وحسب ما لـذهنه من طابَع مع أنّـه تبارك وتعالى يصف كتـابه بأنّـه أُنزل بلسـان عربي مبين: **﴿ نَزَلَ بِـهِ الرُّوحُ الأَمين* عَلى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ المُنْذرينَ* بِلِسانٍ عَربيٍّ مُبِين﴾** .[٢]

إلى غير ذلك من الآيـات الآمـرة بـاستماع القـرآن والإنصـات إليـه لفهم مقاصده السامية.

وثانياً: أنّ القول بعدم وجود رأي نهائي وقطعي في الشؤون الدينية ناجم عن القول بنسبيـة الإدراكات التي ورثهـا الغرب عن «إيما نـوئيل كانت» الـذي أعاد السفسطـة اليـونانيـة ــ التي تهدمت بجهـود حكماء كبـار كسقراط وأفـلاطـون وأرسطاطاليـس ـ إلى الساحة العلمية في الغـرب، قائلاً بأنّ ما يـدركه الإنسان لا يحكي عن الـواقع مائة بـا لمائة وإنّما يحكي عنه بنسبـة خاصة، وذلـك لأنّ القوى المدركة في الإنسان مقـرونة بقوالب لها طابَعها الخاص ترد إليهـا المفاهيم والصور من الخارج لكن لا تبقى على سـذاجتها، بل تنصبغ بصبغة الـذهن وتنطبع بتلك الطوابع، وهذا نظير من نظر إلى غابة خضراء بمنظار أصفر فيراها بلون المنظار مع أنّها على خلافه.

---

١. آل عمران:٧.

٢. الشعراء:١٩٣ـ١٩٥.

وقد أثبتنا في محاضراتنا حول نظرية المعرفة، أنّ هذه الفكرة تنتهي إلى السفسطة مائة بالمائة، والفرق بين ما تبنّاه «كانت» وما تبنّاه بعض الإغريقيين هو أنّ الفرقة الثانية كانوا يطرحون أنظارهم ببساطة وسذاجة ويدعون أنّه ليس لنا علم بالخارج، ولكن الغرب وعلى رأسهم «كانت» يعرض تلك النظرية بثوب علمي يغري الجاهل.

وإذا كانت مدركات الإنسان تأخذ لنفسها أشكال القوالب الذهنية، فمن أين نعلم أنّ هناك عالماً وراء ذهننا ومدركاتنا ونحن ندركه ونعرف آثاره؟ لأنّ هذه الفكرة (وجود العالم الخارج عن الذهن) لا يمكن أن تعبّر عن الواقع مائة بالمائة لأنّها انصبغت بصبغة الذهن وأخذت شكل القوالب الذهنية.

٣. أنّ المطلوب في الدين هو الإيمان الجازم والتصديق القاطع، وقد بعث الأنبياء لتلك الغاية السامية، يقول سبحانه: ﴿ **آمَنَ الرَّسُول بِما أُنْزِلَ إِليه مِنْ رَبّه وَالمُؤْمِنُون كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلائكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقالُوا سَمِعْنا وَأَطَعْنا غُفرانَكَ رَبّنا وَإِلَيْكَ الْمَصير** ﴾. [1]

فلو كانت المفاهيم الدينية مفاهيم غير قطعية وإدراكات متزلزلة تتبدّل كل يوم إلى معنى يغاير الأوّل، فلا تحصل الغاية السامية من إنزال الكتب وبعث الرسل، لأنّهم بعثوا لإيجاد الإيمان القاطع بالله سبحانه وكتبه ورسله.

نعم إن هذه المسائل وأشباهها التي اشتهرت باسم الكلام الجديد، وذكرنا في المقام نماذج منها، كانت تتبلور في الغرب وتهز أركان الكنائس وتُضعف قدرتهم، وقد قوبلت في الغرب بقيام رجال مخلصين، تصدّوا لهذه الشبه ونقدوها أفضل النقد، وقد ألفوا في ذلك مئات الكتب، ولا يزال ينتشر في كلّ شهر أو

١. البقرة:٢٨٥.

أسبوع حول المواضيع المذكورة كتاب أو رسالة، وقد وصلت موجة هذه الشبه إلى الشرق عبر مَن تخرج من المعاهد الغربية دون أن تترسخ في أذهانهم المبادئ الدينية والعلمية، فتأثروا بذلك وحسبوها حقائق راهنة ، وأخذوا ينشرونها في الجامعات زاعمين أنّها منهاج فلسفي ثمين، غفل عنه الإسلاميون وانتبه له الغربيون.

مخطط الغربيّين لضرب الثقافة الإسلامية

بدأ الغربيّون يسيطرون على البلاد الإسلامية بفضل تفوّقهم الصناعي، يقودهم جند الاستشراق الذين يعرفون ما يملك المسلمون من طاقات مادية ومعنوية.

ولذلك فقد عملوا على صعيدين:

١. تصدير الصناعة بشكل ناقص بحيث يكون الشرق محتاجاً إلى الغرب في كلّ حين وزمان، وبالتالي تكون لهم السيادة وللآخرين الفقر والحاجة.

٢. إرسال البعثات التبشيرية إلى البلاد الإسلامية النائية، والبعيدة عن العواصم الإسلامية، كدول أفريقيا ودول شرق آسيا الذين أسلموا طوعاً ورغبة دون أن يكون عندهم علماء أقوياء في مواجهة التبشير. وقد نجحوا بعض النجاح في ذلك المجال، حتّى رفع البابا عقيرته قبل سنين بأنّ أفريقيا على رأس القرن الحادي والعشرين قارة مسيحية خالصة وليس للإسلام هناك أي شأن وقدرة، ولكنّها كانت مجرّد أُمنية لم يكتب لها النجاح.

وقد أحسّ الاستعمار أنّ السيطرة على البلاد الإسلامية الّتي ضرب الإسلام فيها بجرانه ، ليس أمراً سهلاً ، فدخلوا من باب آخر وهو بث الشكوك والشبهات

عن طريق المسائل الفلسفية والكلامية في المدارس والجامعات حتّى يخرج الإيمان من قلوبهم فيصبحوا شكّاكين حيارى، غير باذلين أيّ اهتمام في الدفاع عن الدين، فعند ذلك يسهل استعمارهم، وذوب ثقافتهم في ثقافة المستعمرين.

ولتنفيذ هذا المخطط فتحوا فروعاً لجامعاتهم في العواصم الإسلامية، وربّما نفذوا هذا المخطط أيضاً عن طريق بعث رجال العلم إلى الجامعات الإسلامية ـ وهم يحملون شهادات علمية ـ لغاية إيجاد الشك والتزلزل في قلوب الطلاب والطالبات.

وعلى ضوء ذلك نرى أنّ الفلسفة الغربية والكلام المسيحي أخذ ينتشر وينتعش في البلاد الإسلامية وخاصة في الجمهورية الإسلامية الإيرانية، والغاية من نشر هذه الأفكار هي إزالة الإيمان عن قلوبهم الذي أصبح سدّاً منيعاً أمام أطماع المستعمرين، وهاهنا نشير إلى بعض المسائل الكلامية الّتي طرحت لغرض إيجاد البلبلة الفكرية وتشويش أذهان الجامعيين وسوقهم إلى الشك والإلحاد.

١. فصل السياسة عن الدين

إنّ فصل السياسة عن الدين من أهمّ خططهم حتّى يحصروا علماء الدين في زوايا المساجد لكي لا يكون لهم شأن سوى الدعاء والأوراد، وعند ذلك يسهل لهم السيطرة على العباد والبلاد.

فلو أُريد من الدين، الدين الرائج في البلاد المسيحية حيث إنّ أصحاب الكنائس ليس لهم شأن إلاّ الدعاء وقراءة الأوراد في يوم واحد من أيام الأسبوع وترك الناس على أحوالهم دون تدخل في شأن من شؤون حياتهم، فالحق عدم

وجود الصلة بين السياسة والدين.

ولو أُريد منه، خاتمة الشرائع ـ أعني: شريعة الإسلام ـ فكتابها وسنّتها يصوّران السياسة والدين لحمة وسدى للشريعة، ففصل أحدهما عن الآخر محو لها، فكيف يمكن فصلها عن الدين إذا فسّرت السياسة بتدبير أُمور الأُمّة في معاشهم ومعادهم، وقد طفح الكتاب والسنّة بأُصول تتكفّل تدبير حياة المسلمين. يقول سبحانه: ﴿**الَّذِينَ إِنْ مَكَّنّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقامُوا الصَّلَوةَ وَآتَوُا الزَّكاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَللهِ عاقِبَةُ الأُمورِ**﴾.[١]

فالصلاة صلة العبد بالله سبحانه، والزكاة صلة الإنسان بالمجتمع، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو تدبير حياة الأُمّة بدفعها إلى المعروف ونهيها عن المنكر بأساليب مختلفة تقتضيها مصالح العصر.

٢. تعدّد القراءات

إنّ مسألة تعدّد القراءات للدين من أخطر المصائد الّتي نصبها المستعمرون في سبيل مسخ الهوية الإسلامية، لأنّ مغزاه انّ كلّ ما ورد في الكتاب والسنّة ليس له معنى واحد وقراءة واحدة، بل يمكن تفسيرها بطرق مختلفة، ولكلّ إنسان قراءته الخاصة في الدين، فربّما تكون نتيجة قراءة فردٍ فصل السياسة عن الدين والآخر ضمها إليه، وهكذا دواليك.

فإذا قام الخطيب بتفسير آية أو رواية في جانب من الجوانب الدينية والّذي لا يناسب أذواق المستعمرين وأذنابهم قاموا بوجهه قائلين بأنّ ما فهمته من الدين قراءة تختص بك وللآخرين من العلماء قراءة أُخرى، فلا يكون فهمك حجّة على

---

١. الحج:٤١.

الكل. وعند ذلك يصبح الإسلام بكتابه وسنته وكلمات علمائه مفاهيم غير واضحة، بل أُلعوبة بيد المنحرفين.

٣. حصر الشريعة بفترة خاصة

الشريعة الإسلامية بفضل نصوصها شريعة خاتمة للشرائع، وكتابها خاتم الكتب، ونبيّها خاتم النبيّين، وقد جاء بسنن وقوانين تستطيع أن تلبّي حاجات الإنسان فردية واجتماعية مادام هو يعيش في هذا الكوكب، ولمّا كان القول بالخاتمية ودوام الشريعة سدّاً منيعاً أمام أطماع المستعمرين حاولوا أن يحدّدوا شريعته بأجيال ماضية قد قضى عليها التاريخ، فعلى الإنسان أن يمهد طريقه في الحياة بأفكاره وآرائه، أو بما يمليه العلم في مختلف الجوانب دون أية حاجة إلى الوحي والشريعة.

هذه هي الأُصول المخططة لتضعيف الإيمان وسوق المجتمع إلى اللادينية والانحراف عن التمسّك بالشريعة، فعندئذٍ تسهل السيطرة على منافع البلاد وأرباحها ونفوسها ومصيرها ومستقبلها، فعلى علماء الإسلام ومحقّقيهم رصد هذه المناهج الضالّة والدفاع عن حياض الإسلام بتحليل هذه المناهج بالمشراط العلمي حتّى لا يذوب الإيمان في قلوب الناشئة وتصبح سدّاً منيعاً أمام هذه التيارات الضالّة.

وهذه دراسة إجمالية تدفع المفكّر الإسلامي إلى بذل التوجّه والاهتمام بالفقه الأكبر وأنّه ينال الدرجة الأُولى من الحاجات العلمية.

١٢

الكلام الشيعي الإمامي

في قفص الاتّهام

الكلام الإمامي في مراحله التي مرّ بها، كان يسير على ضوء الكتاب، والسنّة الصحيحة المأخوذة عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام، والعقل الحصيف، ولم يكن فيما يبرم وينقض، أو يعتقد ويرفض عيالاً على منهج من المناهج الكلامية خصوصاً الاعتزال، من غير فرق بين أهل الحديث والأثر منهم، كالشيخ الصدوق(المتوفّى ٣٨١هـ)، ومن تقدّم عليه كأُستاذه ابن الوليد(المتوفّى ٣٤٣هـ) وأحمد بن محمد بن عيسى الأشعري (المتوفّى حدود٢٨٠هـ) وسعد بن عبدالله القمي(المتوفّى٣٠١هـ)، وأهل البرهنة والاستدلال كعيسى بن روضة حاجب المنصور، وعلي بن إسماعيل بن ميثم التمار البغدادي، وأبي جعفر مؤمن الطاق، وهشام بن الحكم، وهشام بن سالم، ومن يليهم إلى عصر المفيد والمرتضى والشيخ الطوسي، والجميع على اختلاف مشاربهم درسوا العقيدة الإسلامية على ضوء ما ذكرنا، خصوصاً خطب الإمام علي عليه السلام وكلماته، فلو قالوا بالتوحيد، والعدل، والتنزيه، ونفي الرؤية، والقدرة، والاستطاعة فإنّ جميع هذه المفاهيم مستقاة من

عين صافية، وهي أحاديث أئمّة أهل البيت في مقدّمهم، خطب الإمام علي عليه السلام.

فلو اتّفقوا مع المعتزلة في قسم من الأُصول المذكورة، فلا يُعدّ هذا دليلاً على أنّهم أخذوه عن المعتزلة، بل الطائفتان اجتمعتا على مائدة واحدة وانتهلتا من معين واحد.

وقد ذكرنا في موسوعتنا[١] نصوص أئمّة الاعتزال على أنّ مذهبهم يتصل بالإمام علي عليه السلام، ونأتي هنا بنموذجين:

قال القاضي عبد الجبار: فأمّا أمير المؤمنين عليه السلام فخطبه في بيان نفي التشبيه و إثبات العدل أكثر من أن تحصى.[٢]

وقال أيضاً: وأنت إذا نظرت في خطب أمير المؤمنين وجدتها مشحونة بنفي الرؤية عن الله تعالى.[٣]

وهذا هو ابن المرتضى يقول: وسند المعتزلة لمذهبهم أوضح من الفلق، إذ يتّصل إلى واصل وعمرو اتصالاً ظاهراً، وهما أخذا عن محمد بن علي بن أبي طالب وابنه أبي هاشم عبد الله بن محمد، ومحمد هو الذي ربّى واصلاً وعلّمه حتّى تخرّج واستحكم، ومحمد أخذ عن أبيه علي بن أبي طالب عليه السلام من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.[٤]

وهانحن نذكر خطبة من خطب الإمام، وهي جواب لسؤال من قال: صِفْ لنا ربّنا مثل ما نراه، فغضب عليه السلام، ونادى الصلاة جامعة، فاجتمع إليه الناس حتّى غصّ المسجد بأهله فقال كما يرويه الشريف الرضي:

وَأَشْهَدُ أَنَّ مَنْ شَبَّهَكَ بِتَبايُنِ أَعْضاءِ خَلْقِكَ، وَتَلاحُمِ حِقاقِ مَفاصِلِهِمْ

١. بحوث في الملل والنحل: ٣/ ١٨٨ـ ١٩٠.

٢. فصل الاعتزال وذكر المعتزلة: ١٦٣.

٣. شرح الأُصول الخمسة: ٢٦٨.

٤. المنية والأمل: ٥ـ٦.

المُحْتَجِبَـةِ لِتَـدْبيرِ حِكْمَتِكَ، لمْ يَعْقِدْ غَيْـبَ ضَمِيرِهِ عَلىٰ مَعْرِفَتِكَ وَلَمْ يُبَـاشِرْ قَلْبَـهُ الْيَقِينَ بِأَنَّهُ لاٰ نِدَّ لَكَ، وَكأَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ تَبَرُّؤا التّابِعينَ مِنَ الْمَتْبُوعِينَ إِذْ يَقُولُونَ: ﴿**تَاللهِ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبينٍ* إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعالَمِينَ**﴾.

كَـذَبَ العـادِلُـونَ بِكَ إِذْ شَبَّهُـوكَ بِأَصْنـامِهِمْ وَنَحَلُـوكَ حِلْيَـةَ الْمَخْلُـوقِينَ بِأَوهـامِهِمْ. وَجَزَّأوكَ تَجْزِئَةَ الْمُجَسَّماتِ بِخَواطِـرِهِمْ، وَقَدَّرُوكَ عَلى الْخِلْقَـةِ الْمُخْتَلِفَةِ الْقُوىٰ بِقَرائِحِ عُقُولِهِمْ.

وَأَشْهَدُ أَنَّ مَنْ سَـاوَاكَ بِشَيءٍ مِنْ خَلْقِكَ فَقَدْ عَدَلَ بِكَ، وَالْعادِلُ بِكَ كـافِرٌ بِما تَنَزَّلَتْ بِـهِ محكَماتُ آياتِكَ، وَنَطَقَتْ عَنْـهُ شَواهِدُ حُجَجِ بيِّنـاتِكَ،وَإِنَّكَ أَنْتَ اللهُ الَّذِي لَمْ تَتَنَـاه فِي الْعُقُولِ فَتَكُونَ فِي مَهَبِّ فِكْرِهَـا مُكَيَّفاً وَلاَ في رَوِيَّاتِ خَواطِـرِهَا فَتَكُونَ مَحْدُوداً مُصَرَّفاً.

ومن كـان عنده هـذا الكنز الثمين وأمثـاله فهـو في غنى عن التطفّل على موائد الآخرين، وفي منتدح عن أن يتفوّه بالتجسيم والتشبيه أو بالجهة والرؤية، أو يصير عيالاً على غيره.

ومع هذا التاريخ الوضّاح لكلام الشيعة الإماميّة فقد اتّهموه ببعض التهم: نذكر منها أمرين:

١. اتّهام الشيعة بالتجسيم

إنّ مشايخ الإمامية كانوا على عقيدة التشبيه والتجسيم والجهة والرؤية، إلاّ نفراً قليلاً عدلوا إلى التنزيه والعدل، لأجل مصاحبتهم المعتزلة.

وحـاصل التهمة: انّ الشيعـة الإمـامية، كـانـوا مجسّمة غير أنّ أقلّيـة منهم اتّصلت با لمعتزلة فتأثّروا بعقائدهم وصاروا من أصحاب التوحيد والعدل.

يقول أبو الحسين الخياط(المتوفّى٣١١هـ):«وأمّا جملة قول الرافضة، فهو: إنّ الله عزّ وجلّ ذو قَدٍ، وصورة، وحدّ يتحرّك ويسكن، ويدنو ويبعد، ويخفّ ويثقل...» هذا توحيد الرافضة بأسرها، إلاّ نفراً منهم يسيراً صحبوا المعتزلة واعتقدوا التوحيد،فنفتهم الرافضة عنهم، وتبرّأت منهم، فأمّا جُملَتُهم ومشايخهم، مثل: هشام بن سالم، وشيطان الطاق، وعليّ بن ميثم، وهشام بن الحكم، وعليّ بن منصور، والسكّاك، فقولهم ما حكيت عنهم...».(١)

و يقول ابن تيمية :ومعلوم أنّ المعتزلة هم أصل هذا القول(العدل الإلهي)، وانّ شيوخ الرافضة كالمفيد(٣٣٦ـ ٤١٣هـ) والسيد المرتضى(٣٥٥ـ ٤٣٦هـ) والطوسي(٣٨٥ـ ٤٦٠هـ) والكراجكي(المتوفّى ٤٤٩هـ) إنّما أخذوا ذلك من المعتزلة، و إلاّ فالشيعة القدماء لا يوجد في كلامهم شيء من هذا.

ويقول الذهبي، زميل ابن تيمية: ومن حدود سنة ٣٧٠هـ إلى زماننا هذا تصادق الرفض والاعتزال وتواخيا.(٢)

يقول ابن حجر ـ موسّعاً زمان التآخي ـ: و إنّ الطائفتين لم يزالا متواخيين من زمان المأمون العباسي .(٣)

أقول: وأنّى لأبي الحسين الخياط وابن تيمية والذهبي وأشباههم الإلمام بتاريخ الشيعة، وتقييم عقائدهم، وهم يكتبون تاريخ الشيعة بنفسية خاصة وبعقيدة مسبقة في حقّهم.

كيف يكون الشيعة عيالاً على المعتزلة من عصر اتّصال المفيد بهم مع أنّ

١. الانتصار:١٤.

٢. ميزان الاعتزال:٣/ ١٤٩.

٣. لسان الميزان:٤/ ٢٤٨.

مشايخ الشيعة، قد رفعوا لواء التوحيد في القرون المتقدّمة على المفيد.

وها نحن نذكر لفيفاً من مشايخ الشيعة(في القرنين الثاني والثالث) الذين ألّفوا كتباً حول التوحيد، منهم:

١. **علي بن منصور الكوفي، البغدادي.**

له كتاب التدبير في التوحيد والإمامة.

وكان من حضار مجلس يحيى بن خالد البرمكي الذي كان يعقده للمناظرة. قال المسعودي: كان إمامي المذهب،ومن نظّار الشيعة في وقته.

فمن كان يناظر في المسائل الكلامية والفلسفية بمحضر جمع من متكلّمي الإسلام، هل يتصور أن يقول بالتجسيم والتشبيه والجهة؟!

٢. **محمد بن الخليل البغدادي،** أبو جعفر السكّاك(المتوفّى بعد ٢٠٨هـ).

له كتاب باسم التوحيد وآخر باسم المعرفة.

وهو من المتكلّمين المرموقين في عصر هارون الرشيد، وكان يرتاد الندوة التي كان يعقدها خالد بن يحيى البرمكي ببغداد.

٣. **محمد بن أبي عمير البغدادي**(المتوفّى ٢١٧هـ).

له كتاب التوحيد.

كان من مشايخ الشيعة، ولذلك اعتُقل في أيام هارون الرشيد وكفى في مقدرته العلمية أنّ هشام بن الحكم وهشام الجواليقي لمّا أرادا المناظرة في بعض المسائل العلمية، اشترط الجواليقي أن تجري المناظرة بينهما بحضور ابن أبي عمير.

٤. **علي بن الحسن بن محمد الكوفي،** المعروف بالطاطري (المتوفّى بعد ٢٣٠هـ).

ألّف في الكلام كتاب التوحيد.

وهو أحد أقطاب الشيعة في عصره.

٥. محمد بن الحسين بن أبي الخطاب (المتوفّى ٢٦٢هـ).

ألّف كتباً، منها: كتاب التوحيد، وكتاب الرد على أهل القدر.

وهو صاحب الباع الطويل في الفقه والحديث والكلام.

٦. سهل بن زياد الآدمي (المتوفّى بعد ٢٦٠هـ).

عاصر الإمامين محمد الجواد وعلي الهادي عليهما السلام.

صنف كتاب التوحيد.

وهو يروي مناظرة موسى بن جعفر عليهما السلام مع أبي حنيفة، وهي بصدد نفي الجبر عن العبد، وتصحيح التقدير على نحو لا يخالف حرية الإنسان.[1]

هذه نماذج من مشايخ الشيعة الذين عاشوا في القرنين الثاني والثالث، وقبل أن يولد الشيخ المفيد بسنين متطاولة، فكيف يصحّ لهؤلاء المتسرّعين ذلك القضاء الباطل الذي يبخس حق الشيعة، ويتنكّر لأصالة آرائهم ونظرياتهم الكلامية؟!

والعجب العجاب أن تصبح شيعة أمير المؤمنين (الذي منه عليه السلام انتشر التوحيد والعدل) مجسّمة مجبّرة، ويكون الأغيار أهل التنزيه والعدل!!

وليس هذا من خصائص الكلام الإمامي و حسب، فانّ الزيدية المقتفية أثر خُطَب الإمام وكلماته، رفعت أيضاً لواء التوحيد والعدل منذ زمن قديم، منهم:

أبو محمد القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل الرسّي الحسني (١٦٩ـ٢٤٦هـ)

---

١. انظر تراجم هؤلاء الأعلام في هذا الجزء من الكتاب.

فقد ألّف كتاب التوحيـد والعدل الصغير، طبع في بيروت، دار مكتبة الحياة ضمن مجموعة رسائل من العدل والتوحيد.

كما ألّف كتـاب التـوحيـد والعدل الكبير وهـو ردود على المشبهـة والمجبرة والقدرية والمرجئة طبع أيضاً في بيروت في نفس الدار.

يحيى بن الحسين الزيدي(٢٢٠ـ ٢٩٨هـ) له العدل والتوحيد كما في الجامع الكبير.[١]

إلى غير ذلك من الكتب المؤلفة حول التوحيـد والعدل بيد مشايخ الشيعة إماميهم وزيـديهم وقد اشتهـر بين المتكلّمين: العدل والتـوحيد علـويان، والجبر والتشبيه أمويان.

إنّ كتاب الكافي لمؤلفـه الشيخ الكليني(٢٦٠ـ ٣٢٩هـ) يزخـر بالأحاديث الدالة على نفـي التشبيه والتجسيم والجبر، ويليه كتاب التوحيـد للشيخ الصدوق (٣٠٦ـ ٣٨١هـ) فقد أخرج فيه ما روي عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام في مجال التوحيد و العـدل، وقـد جمع العـلاّمـة المجلسي(١٠٣٧ــ ١١١٠هــ) في مـوسـوعتـه الحديثية«بحار الأنوار»، كلّ ما ورد حولهما من الأثر عن النبي وأهل بيته فاستغرق ستة أجزاء من كتابه.

أفبعـد هـذه الأحـاديث المتـوافـرة تُتّهم، شيعـة آل البيت بـالتجسيم والتشبيـه،ظلماً و عـدوانـاً؟! ولأجل الملازمـة بين التشيع و حبّ آل البيت و بين العدل والتوحيد يقول الصاحب بن عباد:

لو شُقَّ عن قلبي يُرى وسْطه ... سطران قـد خُطّا بلا كـاتب
العدل والتوحيد فـي جـانب ... وحبّ أهل البيت في جـانب

---

١. الجامع الكبير:٢/ ٦٧٥.

والعجب من ابن تيمية يـرى القذى في عين غيره، ولا يـرى الجذع في عينه، فهو وزميله الذهبي ينسبان للشيعة ما عرفت، مع أنّ كتب الحنابلة مكتظة بأخبار التجسيم والجبر وهـذا هو محمد بن إسحـاق بن خزيمة(المتوفّـى ٣١١هـــ) ألف كتـاباً بـاسم «التوحيـد و إثبات صفـات ربّ العالمين»، جمع فيـه من هنا وهنـاك روايات التجسيم، وقد أصبح هذا الكتاب وكتاب «السنّة»، لعبد الله بن أحمد بن حنبل(٢١٣ـ ٢٩٠هـ)، مـرجع المجسّمة، فقد جاء فيهما ضحـك ربنا، واصبعه، ويده، ورجله، وذراعيه وصـدره إلى غير ذلك من الإسرائيليات والمسيحيات التي خـدع بها المغفلون من الحشـويـة، فملأوا بها كتبهـم، وهم يحسبون انّهم يحسنـون صنعاً.

وقد نـال توحيد ابن خـزيمة مكانة عظمى لـدى الحنابلة، وصـار مصدر العقيدة الإسلامية عندهم.

قـال ابـن كثير في حـوادث ٤٦٠هـــ: وفي يــوم النصف من جمادى الأُولى قُرئ«الاعتقاد القادري» الذي فيه مذهب أهل السنّة والإنكار على أهل البدع وقرأ أبـو مسلم الكجي البخـاري، المحـدث، كتـاب «التوحيـد» لابن خـزيمـة على الحاضرين وذكـر بمحضر من الـوزير ابـن جهير وجماعة الفقهـاء وأهل الكـلام، واعترفوا بالموافقة.(١)

وقد وقف الرازي على ما في الكتاب من الشرك والبدع، فشطب عليه، وقال في تفسير قوله سبحـانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيءٌ﴾: واعلم أنّ محمد بـن إسحاق بن خزيمة أورد استـدلال أصحابنا بهذه الآية في الكتاب الـذي سمّاه بـ«التوحيد»ـ وهو في الحقيقة كتاب الشرك ـ واعترض عليها وأنا أذكر حاصل كلامه بعد حذف

---

١. البداية والنهاية:١٢/ ٩٢.

التطويلات، لأنّه كان رجلاً مضطرب الكلام، قليل الفهم، ناقص العقل.[١]

ولمّا وقف شيخنا الصدوق على اتّهام قدماء أصحابنا بالتجسيم والتشبيه، ألف كتاب «التوحيد»، في ردّ هذه الوصمة فقال في مقدّمة الكتاب: إنّ الذي دعاني إلى تأليف كتابي هذا، إنّي وجدت قوماً من المخالفين لنا ينسبون عصابتنا إلى القول بالتشبيه والجبر، لما وجدوا في كتبهم من الأخبار التي جهلوا تفسيرها ولم يعرفوا معانيها، ووضعوها في غير مواضعها، ولم يقابلوا بألفاظها، ألفاظ القرآن فقبّحوا بذلك عند الجهال مذهبَنا، ولبّسوا عليهم طريقتنا، وصدّوا الناس عن دين الله، وحملوهم على جحود حجج الله، فتقربت إلى الله تعالى ذكره بتصنيف هذا الكتاب في التوحيد ونفي التشبيه والجبر.

اتهام هشام بن الحكم بالتجسيم

اتّهم أبو الحسين الخياط «الهشامين: هشام بن الحكم، و هشام بن سالم» ومؤمن الطاق و غيرهم بالتجسيم والتشبيه وتبعه غيره، لكنّها شنشنة أخزمية، نسمعها من كلّ من يكنّ العداء لشيعة آل البيت. ومن وقف على جانب من جوانب شخصية «هشام بن الحكم» و انّه كان رائد الدليل والبرهان في الأندية الكلامية لأذعن بأنّ نسبة التجسيم إليه و إلى نظرائه، فرية بلا مرية.

وهذا هو المسعودي يعرفنا مكانته بين أعلام عصره، ونبوغه في الجدل والبرهان، فيقول: وقد كان يحيى بن خالد ذا علم ومعرفة وبحث ونظر، وله مجلس يجتمع فيه أهل الكلام من أهل الإسلام وغيرهم من أهل الآراء والنحل، فقال لهم يحيى وقد اجتمعوا عنده: قد أكثرتم الكلام في الكمون والظهور، والقدم

١. مفاتيح الغيب:٢٧/ ١٥٠.

والحدوث، والإثبات والنفي، والحركة والسكون، والمماسّة والمباينة، والوجود والعدم، والجرّ والطفرة، والأجسام والأعراض، والتعديل والتجريح، ونفي الصفات وإثباتها، والاستطاعة والأفعال، والكمية والكيفية، والمضاف، والإمامة أنصّ هي أم اختيار، وسائر ما توردونه من الكلام في الأُصول والفروع، فقولوا الآن في العشق على غير منازعة، وليورد كلّ واحد منكم ما سنح له فيه، وخطر إيراده بباله.

فقال علي بن ميثم وكان إمامي المذهب من المشهورين من متكلّمي الشيعة: أيّها الوزير العشق ثمرة المشاكلة ....

وقال الثالث: وهو محمد بن الهذيل العلاّف، وكان معتزليّ المذهب وشيخ البصريين: أيّها الوزير، العشق يختم على النواظر، ويطبع على الأفئدة، مرتقى في الأجساد....

وقال الرابع: وهو هشام بن الحكم الكوفي شيخ الإمامية في وقته وكبير الصنعة في عصره ـ: أيّها الوزير، العشق حِبالةٌ نصبها الدهر فلا يصيد بها إلاّ أهل التخالص في النوائب....

وقال النظّام إبراهيم بن سيّار المعتزلي وكان من نظار البصريين في عصره: أيّها الوزير العشق أرق من السراب وأدبُّ من الشراب....

ثمّ قال السادس والسابع والثامن والتاسع والعاشر ومن يليهم، حتّى طال الكلام في العشق بألفاظ مختلفة ومعان تتقارب وتتناسب، وفيما مر دليل عليه.[1]

أفيصحّ بعد هذا أن نتّهمه بأنّه كان يقول بأنّ معبوده سبعة أشبار بشبر

١. مروج الذهب:٣/ ٣٧٢، طبعة دار الأندلس، بيروت.

نفسه وانّه في مكـان مخصوص وجهة مخصوصة، وانّه يتحـرك وحركته ... وليست من مكان إلى مكان و قال: هو متناه بالذات غير متناه بالقدرة.

وحكى عبـد الله عيسى الـوراق أنّه قـال: إنّ الله تعـالى ممـاس لعرشـه، لا يفضل منه شيء عن العرش ولا يفضل من العرش شيء منه.[١]

إنّ هـذه الأفكار ألصق بـالحشويـة منهـا بشيعة آل البيت الـذين تربّـوا في أحضان التوحيد و العدل.

إنّ أفضل السُّبُل للوقوف على شخصية إنسان وأفكـاره ونزعاته هو تسليط الضوء على الآثار التي تركها بعد رحيله، فالمترجمون له، يذكرون له كتباً، منها:

١. كتاب التوحيد.

٢. كتاب المجالس في التوحيد.

٣. كتاب الشيخ والغلام في التوحيد.

٤. كتاب الردّ على ارسطاطاليس في التوحيد.

٥. كتاب الدلالات على حدث (حدوث) الأجسام.

٦. كتاب الردّ على الزنادقة.

٧. كتاب الردّ على أصحاب الاثنين.

٨. كتاب الردّ على أصحاب الطبائع.

٩. كتاب في الجبر والقدر.

١٠. كتاب القدر.

١١. كتاب الاستطاعة.

---

١. الشهرستاني، الملل والنحل:١/ ١٤٩، طبعة المكتبة النصرية، بيروت.

١٢. كتاب المعرفة.

١٣. كتاب الألطاف.

١٤. كتاب الألفاظ، ولعلّه كان يعني شرح المصطلحات التي كان يستعملها هو أو كانت تستعمل في الكلام.

إنّ من يرد على أرسطاطاليس في التوحيد، ويناضل ذلك المعلم الأوّل، يستحيل عليه أن يقدِّر ربه بأشبار نفسه، أو يجلسه على عرشه الذي لا يزيد عليه ولا ينقص منه.

وقد كفانا في دفع هذه السهام المرشوقة على شخصية مثل هشام بن حكم، أو هشام بن سالم أو مؤمن الطاق، ما قام به القدامى من علمائنا، منهم الشريف المرتضى، حيث يقول:

«...فأمّاما رُمي به هشام بن الحكم من القول بالتجسيم، فالظاهر من الحكاية عنه القول بـ«جسم لا كالأجسام»، ولا خلاف في أنّ هذا القول ليس بتشبيه، ولا ناقض لأصل، ولا معترض على فرع، وأنّه غلط في عبارة، يرجع في إثباتها ونفيها إلى اللّغة، وأكثر أصحابنا يقولون: إنّه أورد ذلك على سبيل المعارضة للمعتزلة ، فقال لهم: إذا قلتم: إنّ القديم تعالى شيء لا كالأشياء، فقولوا :إنّه جسمٌ لا كالأجسام، وليس كلّ من عارض بشيء وسأل عنه أن يكون معتقداً له ومتديّناً به، وقد يجوز أن يكون قصد به إلى استخراج جوابهم عن هذه المسألة ومعرفة ما عندهم فيها، أو إلى أن يُبينِّ قصورهم عن إيراد المرتضى في جوابها، إلى غير ذلك ممّا لا يتّسع ذكره.

فأمّا الحكاية أنّه ذهب في الله تعالى أنّه جسم له حقيقة الأجسام الحاضرة، وحديث (الأشبار) المدّعى عليه فليس نعرفه إلاّ من حكاية الجاحظ عن النظّام،

وما فيها إلاّ متّهم عليه غير موثوق بقوله، وجملة الأمر: أنّ المذاهب يجب أن تؤخذ من أفواه قائليها وأصحابهم المختصّين بهم ومن هو مأمون في الحكاية عنهم، ولا يرجع إلى دعاوي الخصوم....

و ممّا يدلّ على براءة هشام من هذه التهم، ما روي عن الإمام الصادق عليه السلام في قوله: «لا تزال يا هشام مؤيّداً بروح القدس ما نصرتنا بلسانك».

وأمّا الجبر وتكليفه [تكليف الله] بما لا يطاق ممّا لا نعرفه مذهباً له...».[١]

وفي معالم ابن شهر آشوب، قال الصادق عليه السلام: «هشام رائد حقّنا، وسائق قولنا، المؤيّد لصدقنا، والدامغ لباطل أعدائنا، من تبعه وتبع أثره تبعنا، ومن خالفه وألحد فقد عادانا وألحد فينا».[٢]

ولا ريب في أنّ العارف بفنّ المناظرة والأساليب المتّبعة في هذا الفنّ، يُدرك ما يرمي إليه المناظر القدير من مقاصد في كلامه، ويبدو أنّ أبا الفتح الشهرستاني (المتوفّى ٥٤٨هـ)، قد فهم هذا المعنى، وأدرك مغازي تلك المناظرات، فقال: وهذا هشام بن الحكم صاحب غوْر في الأُصول، لا يجوز أن يُغفل عن إلزاماته على المعتزلة، فإنّ الرجل وراء ما يلزمه على الخصم، ودون ما يظهره من التشبيه، وذلك أنّه ألزم العلاف، فقال: إنّك تقول الباري عالم بعلم وعلمه ذاته، فيشارك المحدثات في أنّه عالم بعلم، ويباينها في أنّ علمه ذاته، فيكون عالماً لا كالعالمين،

---

١ الشافي:١/ ٨٣.

٢. معالم العلماء:١٢٨.وقد قام المحقّق المعاصر الشيخ محمد رضا الجعفري(حفظه الله) بالدفاع العلمي عن شيخ الشيعة ومتكلّمهم هشام بن الحكم في مقال خاص نشره في مجلة تراثنا العدد٣٠، ط قم فلاحظ.

فلم لا تقول هو جسم لا كالأجسام، وصورة لا كالصور، وله قدر لا كالأقدار، إلى غير ذلك.

ويقول أحمد أمين: إنّ هشام بن الحكم أكبر شخصية شيعية في الكلام، وكان جداً قوي الحجّة، ناظر المعتزلة وناظروه، ونقلت له في كتب الأدب مناظرات كثيرة متفرقة تدل على حضور بديهيته وقوة حججه.

وأقصى ما يمكن أن يقال: إنّ الرجل كان في بداية أمره من تلاميذ أبي الشاكر الديصاني، صاحب النزعة الإلحادية في الإسلام، ثمّ تبع الجهم بن صفوان، الجبري المتطرّف المقتول بترمذ عام ١٢٨هـ، ثمّ لحق بالإمام الصادق عليه السلام ودان بمذهب الإمامية، وما تنقل منه من الآراء التي لا توافق أُصول الإمامية، فإنّما هي راجعة إلى العصرين اللّذين كان فيهما على النزعة الإلحادية أو الجهمية، وأمّا بعد ما لحق بالإمام الصادق عليه السلام فقد انطبعت عقليّته بمعارف أهل البيت إلى حدّ كبير، حتّى صار أحد المناضلين عن عقائد الشيعة الإمامية.[١]

وإنّني أعتقد أنّ هذا الكلام الواضح كالشمس في رابعة النهار، يبدّد كلّ السحب السوداء التي أحاطت بآراء ومقالات هشام، ولم يُبق لطلّاب الحقيقة من عذر في جهل شخصية هشام، وسمو منزلته في العلم والإيمان والعقائد الصحيحة.

٢. الشيعة ورثة المعتزلة

هذه هي التهمة الأُخرى التي ألصقها خصوم الشيعة بهم، وقد مرّ في كلام الخياط وغيره الإشارة إليها واجترّها الباحث الغربي «آدم متز» في كتابه «الحضارة

---

١. راجع بحوث في الملل والنحل: ٦/ ٥٧٨.

الإسلامية في القـرن الرابع»، وقد خصّص الفصل الخامس من كتـابه للشيعة، ولم يكن عنده ـ حسب اعترافه ـ إلاّ مخطوط علل الشرائع للصدوق (٣٠٦ـ ٣٨١هـ) وقد عثر عليه في مكتبة برلين، ولم يذكر في هذا الفصل شيئاً مهماً عن الشيعة سوى الصراعات والفتن التي دارت في هذا القرن ومـا قبله بين السنّة والشيعة في بغداد وغيرها، وقد جمع تلك الصفحات بجدّ وحماس، وكأنّه يريد أن يلخّص الشيعة في إثارة الفتنة والفساد، متناسياً دورهم الكبير في الدين و الأدب، ومشاركتهم سائر المسلمين في بنـاء الحضـارة الإسـلاميـة، وإن أشـار في ثنـايـا كتـابـه إلى بعض الشخصيـات اللامعـة منهم كنصير الدين الطـوسي، وليته اكتفى في رسم صـورة تلك الطائفة بما ذكره، ولم يتّهمهم بكونهم تبعـاً للمعتزلة في الأُصول والآراء، و إنّه لم يكن لهم في القرن الرابع مذهب كلامي مدوّن، وإليك نصَّ كلامه:

إنّ الشيعة هم ورثـة المعتزلة، ولابـدّ أن تكون قلّة اعتـداد المعتزلة بـالأخبار المأثورة ممّا لاءَم أغراض الشيعة، ولم يكن للشيعة في القرن الرابع (٣٠٠ـ ٤٠٠هـ) مذهب كـلامي خاصّ بهم، فتجد مثلاً أن عضـدالدولة (المتوفّى ٣٧٢هــ) وهو من الأُمراء المتشيّعين يعمـل على حسب مذهب المعتـزلة، ولم يكن هناك مـذهب شيعي للفاطميين، ويصرح المقدسيّ بأنّهم يوافقون المعتزلة في أكثر الأُصول، وعلى العكس من هذا نجد الشيعة الزيدية يرتقون بسند مذهب المعتزلة حتى ينتهي إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنـه، ويقولون: إنّ واصلاً أخـذ عن محمد بن علي بن أبي طالب، وأنّ محمّداً أخـذ عن أبيه، والزيدية يوافقـون المعتزلة في أُصولهم إلاّ في مسألة الإمامة، ويـدلّ على العلاقة الوثيقة بين المعتزلـة والشيعة أنّ الخليفة القادر جمع بينهما حينما نهى في عام (٤٠٨هـ) عن الكلام والمنـاظرة في الاعتزال والرفض (مذهب الشيعة) والمقالات المخالفة للإسلام.

ثمّ إنّ الطريقة التي سار عليها ابن بابويه القمّي أكبر علماء الشيعة في القرن الرابع الهجري في كتابه المسمّىٰ بكتاب «العلل» تذكّرنا بطريقة علماء المعتزلة الذين يبحثون عن علل كلّ شيء.(١)

إنّ في كلام هذا الباحث مناقشات كثيرة قد أشرنا إليها في مقال تحت عنوان «الشيعة وعلم الكلام عبر القرون الأربعة»، نشر بمناسبة الذكرى الألفية لوفاة الشيخ المفيد برقم ٣٢ لكن نشير في المقام إلى الغرض الأسنى من هذا البحث.

من قرأ تاريخ التشيع والاعتزال يقف على أنّ الطائفتين تتصارعان صراع الأقران في المسائل التي اختلفتا فيها، فكيف يمكن أن تكون الشيعة عالة على المعتزلة في عقائدها؟ فأين مبادئ الشيعة من مبادئ الاعتزال والطائفتان وإن كانتا تشتركان في التوحيد والعدل وبالتالي في نفي التجسيم والرؤية والجبر والقول بالتحسين والتقبيح العقليين، لكنّهما تفترقان في كثير من الأُصول، وكفاك في هذا المضمار ما ألّفه الشيخ المفيد باسم «أوائل المقالات في المذاهب والمختارات».

يقول في ديباجة كتابه: «فإنّي بتوفيق الله ومشيته مثبت في هذا الكتاب ما آثر إثباتَه من فرْق ما بين الشيعة والمعتزلة، وفصل ما بين العدلية من الشيعة ومن ذهب إلى العدل من المعتزلة، والفرق ما بينهم من بعد، و ما بين الإمامية فيما اتّفقوا عليه من خلافهم فيه من الأُصول، وذاكر في أصل ذلك ما اجتبيته أنا من المذاهب المتفرعة عن أُصول التوحيد و العدل و القول من اللطيف في الكلام وما كان وفاقاً منه لبني نوبخت رحمهم الله، وما هو خلاف لآرائهم في المقال وما يوافق

---

١. الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري: ١/ ١٠٦ـ١٠٧.

ذلك مذهبه [١] من أهل الاعتزال وغيرهم من أصحاب الكلام ليكون أصلاً معتمداً فيما يمتحن للاعتقاد، وبالله استعين على تبيين ذلك وهو بلطفه الموفق للصواب». [٢]

وقد سبق منّا في الفصل العاشر الفوارق بين المنهجين في الكلام. [٣]

إنّ المناظرات التي دارت بين الشيعة والمعتزلة من عصر الإمام الباقر عليه السلام إلى العصر الذي ارتمت فيه المعتزلة في أحضان آل بويه، أدلّ دليل على أنّ النظام الفكري للشيعة لا يتفق مع المعتزلة. [٤]

وأمّا ردود الشيعة على المعتزلة فحدّث عنها ولا حرج، وإليك أسماء بعضها:

١. محمد بن علي بن النعمان، مؤمن الطاق (المتوفّى نحو ١٦٠هـ): أحد المتكلّمين البارزين، وله مجالس مع الآخرين، له كتب، منها: الرد على المعتزلة في إمامة المفضول، وكتاب الجمل في أمر طلحة والزبير وعائشة. [٥]

٢. هشام بن الحكم (المتوفّى ١٩٩هـ): متكلّم الشيعة في عصره. له ردود على مختلف الفرق، منها: كتاب الردّ على المعتزلة، وكتاب الردّ على المعتزلة وطلحة والزبير. [٦]

---

١. الضمير يرجع إلى الشريف الرضي حيث أشار إليه فيما سبق من كلامه هذا.
٢. أوائل المقالات: ١ـ٢، طبعة تبريز.
٣. لاحظ ص ١٦١ـ١٦٣ من هذه الرسالة.
٤. لاحظ هذه المناظرات في الكتابين التاليين: ١. الفصول المختارة من العيون والمحاسن، ٢. كنز الفوائد، للكراجكي (المتوفّى ٤٤٩هـ).
٥. فهرست الطوسي، رقم ٥٩٥.
٦. رجال النجاشي: ٢/ ٣٩٧ برقم ١١٦٥.

٣. الفضل بن شاذان الأزدي النيسابوري(المتوفّى ٢٦٠هـ): فقيه متكلّم بارع. له ردود، منها: النقض على الاسكافي، الرد على الأصمّ، كتاب في الوعد والوعيد.[١]

٤. الحسن بن موسى بن الحسن بن محمد بن العباس النوبختي(المتوفّى حدود ٣١٠هـ) له ردود على المعتزلة نذكر منها ما يلي:

النقض على أبي الهذيل العلاّف في المعرفة (أبو الهذيل متكلم معتزلي توفّي سنة ٢٣٥هـ)، النقض على جعفر بن حرب في الإمامة (وهذا متكلّم معتزلي توفّي سنة ٢٣٦هـ)، نقض العثمانية للجاحظ، الردّ على أصحاب المنزلة بين المنزلتين في الوعيد، إلى غير ذلك من آثاره.

٥. محمد بن عبد الرحمن بن قبة المتكلّم المعروف، المتوفّى قبل سنة (٣١٩هـ)، له كتاب الردّ على الجبائي، و نقل النجاشي عن أبي الحسين السوسنجردي، أنّه قال: مضيت إلى أبي القاسم البلخي إلى بلخ بعد زيارتي الرضا عليه السلام بطوس فسلّمت عليه وكان عارفاً بي ومعي كتاب أبي جعفر ابن قبة في الإمامة المعروف بالإنصاف، فوقف عليه ونقضه بـ«المسترشد في الإمامة»، فعدت إلى الري فدفعت الكتاب إلى ابن قبة فنقضه بـ«المستثبت في الإمامة»، فحملته إلى أبي القاسم فنقضه بـ «نقض المستثبت»، فعدت إلى الري فوجدت أبا جعفر قد مات.[٢]

وأخيراً قام الشيخ المفيد بنقض كثير من كتب المعتزلة، فله الكتب التالية وكلّها ردود عليهم:

---

١. رجال النجاشي: ٢/ ١٦٨ برقم ٨٣٨.

٢. رجال النجاشي: ٢/ ٢٨٨ برقم ١٠٢٤.

١ . الرد على الجاحظ العثمانية.

٢ . نقض المروانية.

٣ . نقض فضيلة المعتزلة.

٤ . النقض على ابن عبّاد في الإمامة.

٥ . النقض على عليّ بن عيسى الرماني.

٦ . النقض على أبي عبد الله البصري في المتعة.

٧ . نقض الخمس عشرة مسألة للبلخي.

٨ . نقض الإمامة على جعفر بن حرب.

٩ . الكلام على الجبائي في المعدوم.

١٠ . نقض كتاب الأصمّ في الإمامة.

١١ . كتاب الردّ على الجبائي في التفسير.

١٢ . عمد مختصرة على المعتزلة في الوعيد.

إنّ تلميذه الفارس البطل في حقل الكلام السيد المرتضى (٣٥٥ـ ٤٣٦هـ) نقض بعض كتب المعتزلة فألف الشافي ردّاً على الجزء العشرين من كتاب «المغني» للقاضي عبد الجبار(المتوفّى ٤١٥هـ).

كلّ ذلك يعرب عن أنّ الطائفتين تتفقان في أُصول وتختلفان في أُصول أُخرى وليست إحداهما فرعاً للأُخرىٰ، بل الجميع يصدرون في قسم من الأُصول عن عين صافية، أعني: خطب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ويختلفون في أُصول كلامية.

إلى هنا تمّ تبيين بعض التهم المرميّ بها الكلام الإمامي وتركنا بعض التهم الجزئية لضآلتها ، ولله الحمد.

١٣

المراحل الأربع

التي مرّ بها الكلام الإماميّ

قد أصبح اليوم تاريخ كلّ علم موضوعاً مستقلاً وراء العلم حتّى غلا بعضهم في القول بأنّه ليس للعلم حقيقة سوى تاريخه ومراحله التي مرّ بها العلم عبر قرون، والفرق بين ذات العلم ودراسة تاريخه ومراحله يتجلّى في المثال التالي:

هناك من يبحث في علم الطب من منظار داخلي وتُثمر جهودُه في نفس ذلك العلم، وتتبعه اكتشافات في الداء والدواء، وهناك من يبحث في ذلك العلم من منظار خارجي و تنصب جهوده في تاريخه والمراحل الّتي مرّ بها العلم، وما أعقبه من نضوج وتكامل، وهذا ما نهدف إليه في هذا الفصل الذي هو خاتمة المطاف في هذا التقديم.

المرحلتان المتواكبتان

إنّ الشيعة الإماميّة منذ عصر الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام إلى عصر

الشيخ المفيد كانوا على منهجين متقاربين لا متضادّين:

١. منهج جمع الحديث وتدوينه مجرّداً عن التعمّق والتمحيص إلاّ قليلاً.

٢. منهج تدوين الحديث مع تمحيص السنّة الصحيحة عن الموضوعة.

وكانت الطائفتان على ذينك المنهجين وكلّ يدافع عن منهجه بجدّ وحماس إلى أن وصل دور الرئاسة إلى الفارس الباسل في ميدان العلوم والمعارف: الشيخ المفيد فأطفأ ثورة الطائفة الأُولى وقلع فكرة الجمود على النقل من دون تمحيص ونظر.

نعم كان المنهجان يتواكبان في عصر واحد دون أن يكون لواحد تقدّم زمنيّ على الآخر، وقد اتخذت الطائفة الأُولى بلدة قم والريّ مركزاً لتعاليمها وثقافتها، كما كانت الكوفة وبغداد مركزاً للطائفة الثانية، وستقف على أعلام كلّ طائفة على وجه الإجمال.

جدير بالذكر أنّ اختلاف المنهجين في المسائل الكلامية التي لا يجب الاعتقاد فيها بواحد من القولين، رغم أنّهم كانوا متّفقين في الأُصول التي تناط بها السعادة كالتوحيد والعدل ونفي الرؤية، وعينية الصفات للذات وحدوث القرآن ونفي الجبر عن أفعال العباد، وهانحن نشير إلى أعلام كلّ منهج بإيجاز:

أعلام المنهج الأوّل

١. سعد بن عبد الله بن أبي خلف الأشعريّ. يقول النجاشي: شيخ هذه الطائفة وفقيهها ووجهها، كان سمع من حديث العامة شيئاً كثيراً و سافر في طلب الحديث، لقى من وجوههم: الحسن بن عرفة ومحمد بن عبد الملك الدقيقي وأبا حاتم الرازي وعباس الترقفي، ولقى مولانا أبا محمد عليه السلام(توفّي سنة ٣٠١هـ،

وقيل ٢٩٩هـ).[١]

٢. سهل بن زياد أبو سعيد الآدمي الرازي، كان ضعيفاً في الحديث غير معتمد فيه ، له كتاب التوحيد، تُوفّي بعد ٢٥٥.[٢]

٣. محمد بن الحسن الصفّار، يقول النجاشي:كان وجهاً في أصحابنا القميّين، ثقة، عظيم القدر، راجحاً، قليل السقط في الرواية. توفّي عام ٢٩٠هـ. له كتاب الردّ على الغلاة، وغير ذلك.[٣]

٤. أحمد بن محمد بن خالد البرقي، أبو جعفر، نقل العلاّمة الحلّي عن ابن الغضائري: طعن عليه القميّون وليس الطعن فيه، وإنّما الطعن فيمن يروي عنه، فإنّه كان لا يبالي عمّن أخذ على طريقة أهل الأخبار، توفّي عام ٢٧٤هـ.[٤]

٥. عبد العزيز بن يحيى بن أحمد بن عيسى الجلودي البصري أبو أحمد ، شيخ البصرة وأخباريّها، وكان عيسى الجلودي من أصحاب أبي جعفر الجواد عليه السلام.[٥]

٦. محمد بن زكريا بن دينار مولى بني غلاّب، قال النجاشي: كان هذا الرجل وجهاً من وجوه أصحابنا في البصرة، وكان أخباريّاً واسع العلم وصنّف كتباً كثيرة، توفّي عام ٢٩٨هـ.[٦]

٧. أحمد بن إبراهيم بن معلّى بن أسد العمّي، قال النجاشي: كان ثقة في

١. رجال النجاشي، برقم ٤٦٥.
٢. رجال النجاشي، برقم ٤٨٨.
٣. رجال النجاشي، برقم ٩٥٠.
٤. رجال النجاشي برقم ١٨٠؛ وخلاصة الرجال للعلاّمة، القسم الأوّل، باب أحمد، برقم ٧.
٥. رجال النجاشي برقم ٦٣٨.
٦. رجال النجاشي برقم ٩٣٧.

حديثه، حسن التصنيف، وأكثر الرواية عن عامّة الأخباريّين.[١]

وأخيرهم لا آخرهم:

٨. أبو جعفر محمد بن علي بن بابويه المعروف بالصدوق القمي أبو جعفر نزيل الـريّ. قال النجاشي: شيخنـا وفقيهنا ووجه الطـائفة بخراسـان، وكان ورد بغداد سنة ٣٥٥هـ، وسمع منه شيوخ الطائفة وهو حدث السنّ.[٢]

هـؤلاء هم مشاهير المقتفين للمنهـاج الأوّل، وقـد مرّ أنّ النجـاشي يصف أكثرهم بالأخبارية، وقد مرّ أنّهم كـانوا يسكنون مدينة قم أو الري، ويُستنتج ممّا جاء في تراجمهم انّهم كانوا يتميزون بأُمور:

١ . كـانوا يمارسـون الأخبار ويـروونها لكن بـلا تمحيص، ومع ذلك لم يكن الجميع على منـزلة واحـدة من هذه الجهـة للفـرق الواضح بين مـا ألّفه الصـدوق وغيره.

٢. كانوا يعتمدون على العقل بأقلّ ما يمكن.

٣. يرون أنّ خبر الآحـاد حجة في العقائد والمعـارف كما هو حجّـة في الفقه والأحكام.

أعلام المنهج الثاني

وأمّا أعلام المنهج الثـاني الذين كانوا أكثـر اعتماداً على العقل والبرهان من الطـائفـة الأُولى، فقـد ورثوا هـذا الخط من عصر الإمـام الصـادقعليه السلام، ونبـغ في

---

١. رجال النجاشي برقم ٢٣٧.

٢.رجال النجاشي برقم ١٠٥٠.

أحضانه متكلّمون واعون نشير إلى بعضهم:

١. زرارة بن أعين. يقول النجاشي: شيخ أصحابنا في زمنه ومتقدّمهم كان قارئاً، فقيهاً، متكلماً، شاعراً، أديباً، قد اجتمع فيه خصال الفضل والدين، له كتاب في الاستطاعة والجبر.[١]

٢. محمد بن أبي عمير زياد بن عيسى. يقول النجاشي: بغدادي الأصل والمقام؛ جليل القدر، عظيم المنزلة فينا وعند المخالفين. له من الكتب: كتاب الكفر والإيمان، كتاب البداء، كتاب الاحتجاج في الإمامة، توفّي عام ٢١٧هـ.[٢]

٣. يونس بن عبد الرحمن مولى علي بن يقطين. يقول النجاشي: كان وجهاً في أصحابنا، متقدّماً، عظيم المنزلة، روى عن الكاظم والرضا عليهما السلام. له كتاب المثالب، كتاب البداء، كتاب الردّ على الغلاة، كتاب الإمامة.[٣]

٤. الفضل بن شاذان، أبو محمد الأزدي. كان أبوه من أصحاب يونس، وكان ثقة، أحد أصحابنا الفقهاء والمتكلّمين، وله جلالة في هذه الطائفة، ومن كتبه: كتاب النقض على الاسكافي في تقوية الجسم، كتاب الوعيد، كتاب الردّ على أهل التعطيل، كتاب الاستطاعة، كتاب الأعراض والجواهر، إلى غير ذلك من كتبه.[٤]

٥. أبو محمد حسن بن موسى النوبختي. يقول النجاشي: الحسن بن موسى أبو محمد النوبختي شيخنا المتكلّم المبرّز على نظرائه في زمانه قبل الثلاثمائة

---

١. رجال النجاشي، برقم ٤٦١.

٢. رجال النجاشي، برقم٨٨٨.

٣. رجال النجاشي، برقم١٠٢٩.

٤. رجال النجاشي، برقم ٨٣٨.

وبعدهـا. له على الأوائل كتب كثيرة، منها: كتـاب الآراء والديانـات، كتاب كبير حسن يحتوى على علوم كثيرة، قرأت هذا الكتاب على شيخنا أبي عبد الله. ثمّ ذكر فهـرس كتبـه الكثيرة عامّتهـا في الكـلام وقسم منهـا نقوض وردود. تـوفي حـوالي ٣١٠هـ.(١)

٦. أبو سهل إسماعيل بن علي بن إسحاق النوبختي. يقول النجاشي: كان شيخ المتكلّمين من أصحابنـا وغيرهم، له جـلالة في الدنيـا والدين، يجري مجرى الوزراء في جلالـة الكتاب.صنّف كتباً كثيرة، منها: الاستيفاء في الإمـامة، وكتاب التنبيه في الإمامة، إلى غير ذلك من النقوض والردود.(٢)

٧. أبـو الجيش مظفر بـن محمد البلخي. يعـرّفـه النجاشي بقـولـه: متكلّم مشهـور الأمـر سمع الحديث فأكثـر، لـه كتب كثيرة، منهـا :نقض العثمانيـة على الجاحظ، كتــاب مجالسـة مع المخــالفين، إلى غير ذلك من الكتب، تــوفّي عـام ٣٦٧هـ وقد قرأ على أبي سهل النوبختي.(٣)

أخيرهم لا آخرهم:

٨. محمـد بن محمـد بن النعمان المفيـد، الغني عن التعـريف، كـان فـارسَ ميدان العلوم والمعارف، ومن أبرز تخصّصاته أنّه كان متكلماً بارعاً ذا منهج خاص ومناظـراً منقطع النظير، انتهت إليه رئاسـة كلام الشيعـة في أواخر القـرن الرابع، توفّي عام ٤١٣هـ.

هذه إشارة عابرة إلى رجال المنهجين، والطابع الغالب على الأوّل التحديث

---

١. رجال النجاشي، برقم١٤٦.

٢. رجال النجاشي، برقم ٦٧.

٣. رجال النجاشي، برقم١١٣١.

والعمل بخبر الآحاد في العقائد والمعارف، كما أنّ الطابع العام لمقتفي المنهج الثاني هو العمل بالكتاب والسنّة المتضافرة والعقل الحصيف.

وهناك سبب آخر لتمايز المنهجين، وهو أنّ روّاد المنهج الأوّل كانوا في منطقة طابَعها العام هو التشيع وكانت السنّة بينهم في قلّة، فلم يكن هناك ما يحفِّز كثيراً على إعمال العقل والنظر والاحتجاج، لكن روّاد المنهج الثاني كانوا يتواجدون في بغداد والكوفة وفيها السنّة بطوائفها، و كان الاحتكاك الثقافي يلزمهم بالجدل والمناظرة و إعمال الفكر لتحصين العقائد.

ومع سيادة طابعين مختلفين على أصحاب هذين المنهجين إلاّ أنّهم لم يختلفوا في الأُصول وإنّما اختلفوا في مسائل كلامية، تظهر بمراجعة كتاب «تصحيح الاعتقاد» للشيخ المفيد، وهو تعليقات على كتاب «عقائد الإمامية» للشيخ الصدوق، ناقشه في عدّة من المسائل الكلامية.

وبالرجوع إلى «تصحيح الاعتقاد» تظهر مواقع الاختلاف بين المنهجين، وبما أنّ «تصحيح الاعتقاد» طبع وانتشر على نطاق واسع، فإنّنا لا نجد هنا ما يُلزم لبيان الفوارق بينهما.

ولأجل إعلام القارئ بوجود النقاش بين أصحاب المنهجين نذكر عبارة المفيد التي سطّرها في بعض فصول هذا الكتاب يقول:

«لكن أصحابنا المتعلّقين بالأخبار، أصحاب سلامة وبعد ذهن وقلّة فطنة، يمرّون على وجوههم فيما سمعوه من الأحاديث ولا ينظرون في سندها، ولا يفرقون بين حقّها وباطلها، ولا يفهمون ما يدخل عليهم في إثباتها، ولا يحصلون معاني ما يطلقونه منها...».(١)

١. تصحيح الاعتقاد: ٣٨، طبع تبريز.

نقل الشيخ المفيد آراء بعض المحدّثين بما لا يوافق مذهب الإمامية، ولأجل ذلك خطّأهم ونسبهم إلى التقصير قال: وقد سمعنا حكاية ظاهرة عن أبي جعفر محمد بن الحسن بن الوليد[1] لم نجد دافعاً في التقصير، وهي ما حكي عنه أنّه قال: أوّل درجة في الغلوّ نفي السهو عن النبي والإمام، فإن صحت هذه الحكاية فهو مقصّر مع أنّه من علماء القمّيين ومشيختهم.

قد وجدنا جماعة وردوا إلينا من قم يقصّرون تقصيراً ظاهراً في الدين، وينزلون الأئمة عن مراتبهم، يزعمون أنّهم كانوا لا يعرفون كثيراً من الأحكام الدينية حتّى ينكت في قلوبهم.

ورأينا في أُولئك من يقول: إنّهم ملتجئون في حكم الشريعة إلى الرأي والظنون، ويدّعون مع ذلك أنّهم من العلماء، وهذا هو التقصير الذي لا شبهة فيه.[2]

وها نحن نأتي ببعض المسائل الّتي اختلف فيها العلَمان، وهي إمّا موضوعات قرآنية أو مسائل كلاميّة.

١. معنى كشف الساق

قال سبحانه: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾.[3]

قال الصدوق: الساق وجه الأمر وشدّته.

وفسّره الشيخ المفيد بأنّه سبحانه يريد به يوم القيامة ينكشف فيه عن أمر

---

١. شيخ القمّيّن وفقيههم ومتقدّمهم ووجههم، نزيل قم، مات سنة ٣٤٣هـ.

٢. تصحيح الاعتقاد:٦٦.

٣. القلم:٤٢.

شديد صعب عظيم، وهو الحساب والمداقّة على الأعمال والجزاء على الأفعال، وظهور السرائر وانكشاف البواطن...

ترى أنّ الاختلاف بين العلمين بسيط، وبيان الشيخ توضيح لما ذكره الصدوق في تفسير الآية.

٢. تأويل اليد

قال سبحانه: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾.[١]

قال الصدوق: معنى الآية: ذو القوّة، وقال الشيخ المفيد: فيه وجه آخر وهو أنّ اليد عبارة عن النعمة. قال الشاعر:

له عليّ أيادٍ لست أكفرها ... وإنّما الكفر أن لا تُشْكر النعم

٣. نفخ الأرواح

قال سبحانه: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾.[٢]

قال الصدوق: هي روح مخلوقة أضافها إلى نفسه كما أضاف البيت إلى نفسه، حيث قال: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ﴾.[٣]

قال الشيخ المفيد: ليس وجه إضافة الروح[والبيت] إلى نفسه والنسبة إليه، من حيث الخلق فحسب، بل الوجه في ذلك التمييز لهما بالإعظام والإجلال، والاختصاص بالإكرام....

---

١. ص:١٧.

٢. الحجر:٢٩.

٣. الحجر:٢٦.

٤. الخدعة والمكر والنسيان

قال سبحانه: ﴿يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾.[١]

وقال سبحانه: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ﴾.[٢]

قال سبحانه: ﴿نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ﴾.[٣]

قال الصدوق: إنّ المراد بذلك كلّه جزاء الأعمال.

وقال المفيد: هو كما قال، إلاّ أنّه لم يذكر الوجه في ذلك. ثمّ ذكر الوجه.

٥. خلق أفعال العباد

قال الصدوق: أفعال العباد مخلوقة خلق تقدير لا خلق تكوين، ومعنى ذلك أنّه تعالى لم يزل عالماً بمقاديرها.

وخالفه المفيد، وقال: إنّ العلم بالشيء لا يعدّ خلقاً له. ثمّ هو نفى كون أفعال العباد مخلوقة لله بأيّ نحو كان، واستدلّ بما روي عن أبي الحسن الثالث أنّه سئل عن أفعال العباد؟ فقيل له: هل هي مخلوقة لله تعالى، فقال عليه السلام: لو كان خالقاً لها لما تبرأ منها ، قال سبحانه: ﴿أَنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾.[٤]

٦. الجبر والتفويض

ورد عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام: «لا جبر ولا تفويض بل أمر بين الأمرين»، ففسّره الصدوق بنحو والشيخ بنحو آخر.

---

١. النساء:١٤٢.

٢. آل عمران:٥٤.

٣. التوبة:٦٧.

٤. التوبة:٣.

٧. المشيئة والإرادة

قال الصدوق: «شاء الله وأراد، ولم يحب ولم يرض، وشاء عزّ اسمه ألاّ يكون شيء إلاّ بعلمه، وأراد مثل ذلك». و حاصله: أنّ أفعال العباد تعلّقت بها إرادة الله ومشيئته ولكنّها غير محبوبة ولا مرضيّة.

وخالفه الشيخ المفيد وقال: إنّ الله تعالى لا يريد إلاّ ما حسن من الأفعال، ولا يشاء إلاّ الجميل من الأعمال ولا يريد القبائح ولا يشاء الفواحش. يقول سبحانه: ﴿**وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبادِ**﴾.[1]

٨. الكلام في القضاء والقدر

قال الصدوق: الكلام في القدر منهيّ عنه.

وخالفه الشيخ المفيد وحمل الأخبار الناهية على وجهين:

١. أن يكون النهي خاصّاً بقوم كان كلامهم في ذلك يفسدهم ويضلّهم عن الدين ولا يصلحهم في عبادتهم إلاّ الإمساك عنه وترك الخوض فيه ولم يكن النهي عنه عامّاً لكافة المكلّفين.

٢. النهي عن الكلام في ما خلق الله تعالى وعن علله وأسبابه وعمّا أمر به وتعبّد وعن القول في علل ذلك، إذ كان طلب علل الخلق والأمر محظوراً، لأنّ الله تعالى سترها عن أكثر خلقه.

٩. معنى فطرة الله

قال الصدوق: إنّ الله تعالى فطر جميع الخلق على التوحيد.

---

١. غافر:٣١.

ووافقه الشيخ، ولكن فسّر معنى ذلك.

١٠ . الجدال في الله

ذهب الصدوق إلى أنّ الجدال في الله منهيّ عنه، لأنّه يؤدّي إلى ما لا يليق به.

قال الشيخ المفيد: الجدال على ضربين: أحدهما بالحق والآخر بالباطل، فالحقّ منه مأمور به ومرغّب فيه، والباطل منه منهي عنه ومزجور عن استعماله، ثمّ استشهد ببعض الآيات.

هذه نماذج ممّا اختلف فيه العلمان، وربما ذكر الشيخ المفيد عقيدة الصدوق ولم يخالفه بشيء، وربما اتّفقا في المعنى لكن أجمل الصدوق وأفصح المفيد، وثالثة اختلفا جوهراً و لبّاً، والاختلاف في هذه المسائل إمّا اختلاف في تفسير الآية، أو في مسألة كلامية لا تمتّ إلى صميم العقيدة بصلة.

و إليك قائمة بما لم نذكر كلامهما فيه:

١١ . معنى الاستطاعة، ١٢ . معنى البداء، ١٣ . اللوح والقلم والعرش، ١٤ . النفوس والأرواح، ١٥ . الموت، ١٦ . سؤال القبر، ١٧ . العدل، ١٨ . الأعراف، ١٩ . الصراط، ٢٠ . العقبات، ٢١ . الحساب والميزان، ٢٢ . الجنة والنار، ٢٣ . حدّ التكفير، ٢٤ . نزول الوحي والقرآن، ٢٥ . العصمة، ٢٦ . الغلو و التفويض، ٢٧ . التقيّة، ٢٨ . آباء النبيّ، ٢٩ . تفسير قوله سبحانه: ﴿**قُلْ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبىٰ**﴾[1]، ٣٠ . الحظر والإباحة، ٣١ . الطب، ٣٢ . حكم الأحاديث المختلفة.

---

١ . الشورى:٢٣.

وهذه المقدار من الاختلاف في جنب ما اتّفقا عليه من الأُصول والأُمّهات، أمر طفيف.

المرحلة الثالثة: تجديد المنهج الحديثي

قد سبق أنّه كان بين محدّثي مدرسة قم ومحدّثي مدرسة بغداد اختلاف في بعض المسائل الكلامية خصوصاً في ما يرجع إلى مقامات النبي ﷺ والأئمّة عليهم السلام.

وكان النزاع بين أصحاب المنهجين قائماً على قدم وساق إلى أن حسمه الشيخ المفيد عندما انتهت إليه رئاسة الإمامية في الكلام والفقه، فقد جمع أصحاب المنهجين على مائدة واحدة بتأليف كتابين:

١. أوائل المقالات في المذاهب والمختارات.

٢. تصحيح الاعتقاد.

وقد علّق على عقائد الإمامية للصدوق وأثبت أنّ بعض ما ذكره الصدوق ليس من عقائد الإمامية وإنّما هو نتيجة استخراجه من أخبار الآحاد.

وبما أنّ الشيخ ربّى جيلاً عظيماً كالشريفين: المرتضى والرضيّ والشيخ الطوسي والكراجكي والديلميّ وغيرهم، فقد أخذ تلامذة الشيخ زمام البحوث بعد رحيله، وجمعوا الإمامية على أُصول موحّدة، ولم ينجم بينهم خلاف مُعتبر إلى أن ظهرت الحركة الأخبارية.

كان مطلع القرن الحادي عشر مسرحاً للتيارات الفكرية المختلفة، فمن مكبّ على العلوم الطبيعية كالنجوم والرياضيات، والطب والتشريع، إلى آخر متوغّل في الحكمة والعرفان، إلى ثالث مقبل على علم الشريعة كالفقه

والأُصول.

في تلك الأجواء ظهرت المدرسة الأخبارية التي شطبت على العلوم العقلية بقلم عـريض، ولم تـر للعقل أيّ وزن وقيمـة لا في العلوم العقليـة، ولا في العلـوم النقليـــة، وقـــد رفع رايـــة تلك الفكـــرة الشيـــخ محمـــد أمين بن محمـــد شريف الاسترابادي(المتوفّى ١٠٣٦هـ).

وأمّا مـا هو السبـب لظهور ذلك التيّـار في ربوع الشيعـة، فقد ذكـروا هنا فروضاً مختلفة وذكرنا ما هو الحقّ بين تلك الفروض.[1]

وعلى كلّ تقدير فقـد تأثرت الأوساط العلمية بالتيـار الأخباري وذاع صيته وكثر أتبـاعه، وهـم بين متطـرّف ـ كمـؤسّسه ــ يطعن على العلماء، ومعتدل يحترم المخالف.

ومن أُصـول ذلك المنهج: نفي حجّية حكم العقل في المسـائل الأُصوليـة، وعدم الملازمـة بين حكـم العقل والنقل، وادّعـاء قطعية صدور أحـاديث الكتب الأربعة، وأنّه عند تعارض العقل والنقل يؤخذ بالنقل.

وهذا الأصل الأخير صـار سبباً لتقديم أخبار الآحـاد على أحكام العقل في باب المعارف والمسائل الكلامية.

ولذلك نـرى أنّ المجلسي الأوّل (١٠٠٣ـ ١٠٧٠هـ) وكـذا ولده المجلسي الثاني(١٠٣٧ــ ١١١٠هــ) والفيض الكاشاني(١٠٠٧ـ ١٠٩١هــ) والمحـدّث الحرّ العاملي (١٠٣٣ـ ١١٠٤هـ) و غيرهم ممّن تأثروا بالمنهج الأخباري إلى ظهور المحقّق البهبهاني (١١١٨ـ ١٢٠٦هـ) نبـذوا كلّ ألوان التفكير العقلي في أُصول الفقه على الإطـلاق وفي مجال العقائد على نحـو خاص حتّى أنكـروا تجرّد النفس الإنسانيّة.

ولمّا كـان المظهر الأتمّ لهذا التفكير في العقـائد هـو كتـاب «بحار الأنـوار» الـذي جمع درر أخبار الأئمّـة الأطهار بـلا تمحيص ولا تنقيح، فقد قـام أُستاذنـا العلاّمـة الطباطبـائي بالتعليق على مـواضع من بيانـات العلاّمـة المجلسي حول الروايات، ولكنه ﴿رحمه الله﴾ تـوقّف عـن العمل بسبب الضغـوط التي مـورست عليـه، وبذلك خسر العلم والـدين ثروة زاخرة في مجال تمحيص روايـات ذلك الكتاب على ضوء الكتاب العزيز والسنّة القطعية والعقل الحصيف.

المرحلة الرابعة: إحياء المنهج العقلي

كان للمحقّق البهبهاني الدور الرئيسي في إرجاع العقل إلى الساحة في مجالي أُصول الفقه والعقائد، وقـد ألّف في التحسين والتقبيح العقليين وأثبت فيه حجّية العقل في المستقلات العقليّة.

وأصبح المحقّق البهبهاني رائد الحركة الفكريـة في النصف الثاني من القرن الثـاني عشر وأوائل القرن الثـالث عشر ، ثمّ قاد هـذه الحركة لفيف من تـلامذتـه وتـلامـذة تـلامذتـه، الأمـر الـذي مكّن من إعـادة العقل إلى السـاحـة في مجال الاستنبـاط والمعارف العقليـة، ولذلك تـرى أنّ مـا أُلّف حول المسـائل الكلاميـة يختلف عمقاً واعتباراً عمّا أُلّف في عهد المجلسيّين أو قبلهما أو بعدهما.

هذه إشارة عابرة إلى المراحل الأربع الّتي مرّ بها الكلام الإماميّ، وليعذرني إخواني في هذا الإيجاز في بيان المرحلتين الثالثة والرابعة.

خاتمة المطاف

دور أئمّة أهل البيت عليهم السلام

في تبيين العقيدة الإسلامية

إنّ للأئمّة الاثني عشر عليهم السلام دوراً كبيراً في بيان العقيدة الإسلامية، وإرساء قواعدها، وترسيخ جذورها من خلال بثّ الآراء والأفكار المعبّرة عن روح الإسلام ونهجه السامي.

كما قاموا ــ هم وتلامذتهم ـ بدور بالغ الأهمية في صيانة العقيدة والدفاع عنها، ومواجهة التيارات المنحرفة والأفكار الضالة، والتصدّي للثقافات الأجنبية والمذاهب الفاسدة المتأثرة بالفلسفة الإلحادية وإسرائيليات اليهود وآراء النصارىٰ وغيرها، ومناقشتها وبيان هشاشتها على ضوء البراهين والحجج العقلية الرصينة، والنصوص الدينية الصحيحة.

وقد أخبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن نشاط هؤلاء الرساليين حين قال: «يحمل هذا الدين من كلّ قرن عدول، ينفون عنه تأويل المبطلين وتحريف الغالين، وانتحال الجاهلين، كما ينفي الكَيْر خبث الحديد».[1]

---

١. لاحظ تاريخ الفقه الإسلامي وأدواره: ٣٨٦ـ ٣٩٠.

و قبل أن نذكر ـ بإيجاز ـ ما قاموا به في مجال صيانة العقيدة الإسلامية في أدوار مختلفة، نودّ أن نذكر مقدّمة لها صلة بالموضوع وهي:

إنّ الدين السائد في الجزيرة العربية ـ وخاصّة منطقة أُمّ القرىٰ ـ قبل بزوغ شمس الإسلام كان هو الشرك بالله في التدبير والعبادة، وهذا أمر واضح لا يرتاب فيه ذو مسكة، وكان العرب في تلك المناطق يعيشون في خِضَمٍّ الخرافات، ويستسلمون في مجال العقيدة إلى الأساطير والقصص الخرافية إلى حدّ لا يمكن أن نذكر معشار ما دوّنه المؤرّخون في ذلك المجال، لكنّا نشير إلى بعض أفكارهم التي بقيت رواسبها في أذهان بعض المسلمين حتّى بعد بزوغ الإسلام:

١. كانوا يدينون الله تبارك وتعالى بالجبر وسلب الاختيار عن الإنسان، وكانوا يبرّرون شركهم وعبادتهم للأصنام بمشيئة الله تبارك وتعالى قائلين: ﴿**لَوْ شاءَ اللهُ ما أَشْرَكْنا وَلا آباؤُنا وَلا حَرَّمْنا مِنْ شَيْء**﴾[1] ونظيره قوله: ﴿ **وَقالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شاءَ اللهُ ما عَبَدْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْء**﴾[2] إلى غير ذلك من الآيات المعربة عن عقيدتهم الراسخة في الجبر وأنّ كلّ المعاصي والمحرّمات بمشيئة من الله سبحانه على نحو تسلب الاختيار عن الإنسان، وبالتالي فالله هو المسؤول عن أعمالنا لا نحن أنفسنا، وقد بقيت رواسب هذه العقيدة في أذهان بعض الصحابة ويشهد له ما رواه الواقدي في مغازيه عن أُمّ الحارث الأنصارية وهي تحدّث عن فرار المسلمين يوم حنين. قالت: مرّ بي عمر بن الخطاب منهزماً فقلت: ما هذا؟! فقال عمر: أمر الله.[3]

---

١. رجال الكشي:١٠.

١. الأنعام:١٤٨.

٢. النحل:٣٥.

٣. مغازي الواقدي:٣/ ٩٠٤.

وهذا هـو السيوطي ينقل عن عبـد الله بن عمر أنّه جـاء رجل إلى أبي بكر فقال: أرأيت الزنا بقدر؟ قال: نعم، قال: فإنّ الله قدّره عليّ ثمّ يعذّبني؟ قال: نعم يابن اللخناء، أما والله لو كان عندي إنسان أمرته أن يجأ أنفك.[١]

لقد كان السائل في حيرة من أمر القدر فسـأل الخليفة عن كون الزنا مقدَّراً من الله أم لا؟ فلما أجـاب الخليفة بنعم، استغـرب من ذلك، لأنّ العقل لا يسـوّغ تقديـره سبحانـه شيئاً بمعنى سلب الاختيـار عن الإنسـان في فعله أو تركـه ثمّ تعذيبه عليه، ولذلك قال: فإنّ الله قـدّره عليّ ثمّ يعذبني؟! فعند ذاك أقرّه الخليفة على ما استغربه وقال: «نعم يابن اللخناء...».

٢. كانت العـرب تدين بالتجسيم والتشبيـه، وتعتقد انّ إله العـالم بصورة الصنم والـوثن الذي يُعبـد حتّى اتخذت كلّ قبيلة لنفسهـا ربّاً، وصـارت الجزيرة العربية مسرحاً للأصنام ومستودعاً لـلأوثان، ويتجلّى هذا الأمر من قول شاعرهم الذي أسلم وراح يستنكـر التجسيم وعبادة الأصنام المتعدّدة الخارجـة عن العدد والإحصاء:

أربّـــــاً واحـــــــداً أم ألـف ربّ
أديـن إذا تقسّمـت الأُمـــــــــور؟

عـــزلـت الـــلاّت والعـــزّى جميعـــاً
كـــذلـك يفعل الجلِـــدُ الصبُـــور

ولكـن اعبـــــد الـــــرحمن ربّي
ليغفـــر ذنبـي الـــربّ الغفـــور[٢]

---

١. تاريخ الخلفاء: ٩٥.

٢. بلوغ الارب في معـرفة أحـوال العرب: ٢/ ٢٤٩. والأبيـات لزيـد بن نفيل الذي فـارق الوثنيـة قبل البعثة.

إلى غير ذلك من العقائد الفاسدة التي كانت العرب تدين بها، وهذا الإمام علي أمير المؤمنين يصف عقائدهم في بعض خطبه ويقول:

«وأهل الأرض يومئذ مللٌ متفرقة، وأهواء منتشرة، وطرائق متشتّتة، بين مشبّه لله بخلقه أو ملحد في اسمه أو مشير إلى غيره، فهداهم به من الضلالة، وأنقذهم بمكانه من الجهالة».[1]

وفي خطبة أُخرى له:

«إنّ الله بعث محمّداً ﷺ نذيراً للعالمين وأميناً على التنزيل، وأنتم معشر العرب على شرّ دين، وفي شرّ دار منيخون بين حجارة خشن، وحيات صُمّ تشربون الكدر وتأكلون الجشب، وتسفكون دماءكم وتقطعون أرحامكم، الأصنام فيكم منصوبة والآثام بكم معصوبة».[2]

وللأسف أنّ هذه العقائد الباطلة بعدما شطب الإسلام عليها جميعاً عادت ـ بعد رحيل الرسول ـ إلى الساحة الإسلامية بثوب آخر وبغطاء جديد. وقدبذل أئمّة أهل البيت عليهم السلام جهوداً مضنية في طريق تثبيت العقيدة الإسلامية، وصيانتها عن الانحراف، بما وصل إليهم من آبائهم، وإليك نماذج منها:

١. مكافحة الجبر والتفويض

قد عرفت أنّ العرب في العصر الجاهلي كانوا يدينون بالجبر وأنّ القرآن ندّد به وعرّف الإنسان بأنّه مختار في مصيره، يقول سبحانه: ﴿**فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شاءَ فَلْيَكْفُر**﴾.[3]

١. نهج البلاغة، الخطبة رقم١، ط صبحي الصالح.
٢. نهج البلاغة، الخطبة٢٥.
٣. الكهف:٢٩.

ولله در الشهيد السعيد زين الدين العاملي في قوله:

لقد جاء في القرآن آية حكمة
تدمّر آيات الضلال ومن يُجبر
وتخبر أنّ الاختيار بأيدينا
فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفُر

وقد اعتنق الجبرَ طائفة كبيرة من المسلمين وألّفوا في ذلك رسائل ذهبوا فيها إلى القول بأنّ من قال بالقدر والاختيار يُجلد ويوثق، وقد بلغ حماس الأمويين في ترسيخ الجبر بين المسلمين إلى حدّ كُبحت معه ألسن الخطباء عن الإصحار بالحقيقة، فهذا الحسن البصري الذي يُعدّ من مشاهير الخطباء ووجوه التابعين كان يسكت عن أعمالهم الإجرامية، غير أنّه كان يخالفهم في القول بالقدر بالمعنى الذي كانت السلطة تروّجه آنذاك، فلمّا خوفه بعض أصدقائه من السلطان، وعد أن لا يعود. روى ابن سعد في طبقاته عن أيّوب قال: نازلت الحسن في القدر غير مرّة حتى خوّفته من السلطان، فقال: لا أعود بعد اليوم.[١]

ولم يسلم محمد بن إسحاق صاحب السيرة النبوية المعروفة من الجلد لمخالفته القدر، قال ابن حجر: إنّ محمد بن إسحاق اتُّهم بالقدر و قال الزبير عن الدراوردي«وجلد ابن إسحاق يعني في القدر».[٢]

وقد ألّف عمر بن عبد العزيز رسالة في الردّ على القدرية القائلين بالاختيار نقلها أبو نعيم الاصفهاني في ترجمة عمر بن عبد العزيز.[٣]

---

١. الطبقات الكبرى:٧/ ١٦٧، ط بيروت.

٢. تهذيب التهذيب:٩/ ٣٨و٤٦.

٣. حلية الأولياء:٥/ ٣٥٣.

كما انتشر التفويض في عصر الإمام الصادق عليه السلام بمعنى إيكال الأُمور إلى البشر واستغنائهم في أفعالهم عن الله سبحانه، ويظهر من بعض الروايات أنّ فكرة التفويض استولت على بعض المفكّرين في عصر عبد الملك بن مروان على نحو أعجز العلماء في الشام، فكتب عبد الملك رسالة إلى الإمام الباقر عليه السلام يدعوه لنزول أرض الشام، ومناظرة ذلك الرجل القدري (التفويضي)، فلمّا جاءت الرسالة كتب إليه الإمام بقوله: إنيّ شيخ كبير لا أقوى على الخروج، وهذا جعفر ابني يقوم مقامي فوجّهه إليه، فلمّا قدم على الأمويّ أزراه لصغره، وكره أن يجمع بينه و بين القدريّ مخافة أن يغلبه، وتسامع الناس بالشام بقدوم جعفر لمخاصمة القدريّة، فلمّا كان من الغد اجتمع الناس بخصومتهما، فقال الأمويّ لأبي عبد الله عليه السلام إنّه قد أعيانا أمر هذا القدريّ، وإنّما كتبت إليه[1] لأجمع بينه و بينه، فإنّه لم يدع عندنا أحداً إلاّ خصمه، فقال: إنّ الله يكفيناه.

قال: فلمّا اجتمعوا قال القدريّ لأبي عبد الله عليه السلام: سل عمّا شئت! فقال له: «اقرأ سورة الحمد»، قال: فقرأها، وقال الأمويّ وإنّا معه: ما في سورة الحمد؟!، غُلبنا، إنّا لله وإنّا إليه راجعون!! قال: فجعل القدريّ يقرأ سورة الحمد حتّى بلغ قول الله تبارك وتعالى: ﴿**إيّاك نعبد وإيّاك نستعين**﴾ فقال له جعفر: «قف؛ مَن تستعين؟ وما حاجتك إلى المؤونة إن الأمر إليك؟» فبهت الّذي كفر، والله لا يهدي القوم الظالمين.[2]

كان الطابَع العام على السلفية وأهل الحديث، هو الجبر ونفي القدر بمعنى الاختيار إلى أن جاء الإمام الأشعري فأحسّ بخطورة الموقف وأنّ القول بالجبر

---

١. الضمير يعود إلى أبي جعفر الباقر عليه السلام.

٢. بحار الأنوار: ٥/ ٥٥، رقم الحديث ٩٨ نقلاً عن تفسير العياشي.

يساوي بطلان التكليف ولغوية بعثة الأنبياء، فحاول أن يصحّح عقيدة أهل الحديث بإضافة الكسب على عقيدتهم، فقال: إنّه سبحانه خالق لأفعالنا والعبد كاسب، فهو حاول أن يخرج أهل الحديث عن الجبر الخالص إلى فسيح الاختيار، لكنّه أضاف عقدة إلى عقدة، فلم يُعْلَم ما هو مراده من الكسب؟! إلى حدّ صار أحد الألغاز في جنب سائرها، يقول الشاعر:

مما يقال ولا حقيقة عنده
معقودة تدنو إلى الافهام

الكسب عند الأشعري والحال
عند البهشمي وطفرة النظّام[1]

ففي خضم هذه التيارات الضالّة شمّر أئمّة أهل البيت عليهم السلام عن ساعد الجدّ، فنشروا فكرة الأمر بين الأمرين وأنّه لا جبر ولا تفويض بل أمر بين الأمرين، وبذلك فسروا الآيات الواردة في الجبر والتفويض وقضوا على الفكرتين، فكرة الجبر التي تساوق بطلان التكليف، وفكرة التفويض التي تساوق الشرك واستغناء الممكن في فعله عن الله سبحانه، ولهم في ذلك بيانات شافية لا يمكننا نقل معشار ما ذكروه.

إنّ فكرة الأمر بين الأمرين مستنتجة من القرآن الكريم. يقول سبحانه: ﴿ **فلم تَقْتُلوهُم ولكنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ وما رَمَيْتَ إذْ رَمَيْتَ ولكِنَّ اللهَ رَمَىٰ** ﴾.[2]

إنّه سبحانه ينسب الفعل(الرمي) إلى العبد وفي الوقت نفسه يسلبه عنه

---

١. القضاء و القدر لعبد الكريم الخطيب المصري: ١٨٥.

٢. الأنفال:١٧.

وينسبه إلى الله سبحانـه، وهو نفس الأمر بين الأمرين، فـالفعل مستند إلى العبد، وفي الوقـت نفسه إلى الله سبحانـه، وقد كتـب الإمام الهادي عليه السلام رسالة في نفي الجبر والتفويض نقلها المجلسي في موسوعته.[1]

وقال الإمام الصادق عليه السلام في ردّ كلا المنهجين:

«إنّ الله أكرم من أن يكلّف النـاس مالا يطيقون، والله أعـز من أن يكون في سلطانه مالا يريد».[2]

٢. مكافحة التجسيم والتشبيه

اتّفق الإلهيون على كـونه تعالى مـوصوفـاً بصفات الكمال والجمال من العلم والقدرة والحياة ولكنّهم اختلفوا في كيفية إجرائها عليه سبحانه.

ذهبت أكثر المعتزلة إلى نيابـة الذات عن الصفات من دون أن يكون هناك صفة، وإنّما ذهبوا إلى ذلك لأجل أنّهم رأوا أنّ الاعتراف بأنّ هنـاك ذاتاً وصفة هو التركيب، لأنّ الصفة غير الموصوف، والتركيب آية الإمكان، فلذلك ذهبوا إلى نفي الصفات، ولما رأوا أنّ ذلـك يجرّهم إلى القول بخلـوّ الذات عن الكمال قـالوا: إنّ الذات تنوب مناب الصفات وإن لم تكن هناك واقعية للصفات وراء الذّات.

وأمّا الأشـاعرة فقد ذهبوا إلى زيـادة الصفات على الذات، وبـذلك صاروا معترفين بالقدماء الثمانية، نظير التثليث الذي اعتنقه النصارى، بل أسوأ منه.

ومن المعلوم أنّ لازم ذلك هو تركيب الـذات من أُمور مختلفة والتركيب آية الإمكـان والافتقار. وأمّـا أئمّـة أهل البيت عليهم السلام فاعترفـوا بأنّ لله سبحانـه صفات

١. بحار الأنوار:٥/ ٧١ـ٧٥، كتاب العدل والمعاد، الباب ٢، الحديث ١.

٢. بحار الأنوار:٥/ ٤١.

كمالية، ولكنّها ليست زائدة على الذات، بل هي عينها.

صحيح أنّ الصفة غير الموصوف، ولكن هذا في الموجودات الإمكانية، وأمّا الواجب بالذات فكما هو واجب في ذاته واجب في صفاته، فلا مانع من أن تكون صفاته عين ذاته دون أن يكون هناك تركيب أو تشبيه. يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه، لشهادة كلّ صفة أنّها غير الموصوف وشهادة كلّ موصوف أنّه غير الصفة، فمن وصف الله فقد قرنه، ومن قرنه فقد ثنّاه، ومن ثنّاه فقد جزّأه، ومن جزّأه فقد جهله».(١)

وفي هذا الكلام تصريح بعينية الصفات للذات، وفيه إشارة إلى برهان الوحدة، وهو أنّ القول باتحاد صفاته مع ذاته يوجب تنزيهه عن التركيب والتجزئة ونفي الحاجة عن ساحته، ولكن إذا قلنا بالتعدّد والغيريّة فذلك يستلزم التركيب ويتولد منه التثنية، والتركيب آية الحاجة، والله الغني المطلق لا يحتاج إلى من سواه.

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «لم يزل الله جلّ وعزّ ربّنا والعلم ذاته ولا معلوم، والسمع ذاته ولا مسموع، والبصر ذاته ولا مبصر، والقدرة ذاته ولا مقدور».(٢)

والإمام عليه السلام يشير إلى قسم خاص من علمه سبحانه ـ وراء عينية صفاته وذاته ـ و هو وجود علمه بلا معلوم وسمعه بلا مسموع. وما هذا إلّا لأجل أنّ ذاته من الكمال والجمال بلغت إلى حدّ لا يشذ عن حيطة وجوده أيّ شيء، وتفصيل هذا القسم من العلم يُطلب من محالّه.

٣. مكافحة فكرة رؤية الله

اتّفقت العدلية على أنّه سبحانه لا يُرى بالأبصار لا في الدنيا ولا في

---

١. نهج البلاغة، الخطبة رقم١.

٢. التوحيد للصدوق: ١٣٩.

الآخرة، وأمّا غيرهم فالكرّامية والمجسّمة فقد جوّزوا رؤيته في الدارين بلا إشكال، وأمّا أهل الحديث وبعدهم الأشاعرة فمع أنّهم يصفون أنفسهم بالتنزيه ويتبرّأون من التجسيم والجهة، لكن قالوا برؤيته سبحانه يوم القيامة خضوعاً للرواية التي رواها الإمام البخاري في صحيحه.

وهؤلاء تركوا صحيح النص في القرآن الكريم، أعني: ﴿**لا تُدرِكُهُ الأبصارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ**﴾[١]، كما تركوا قضاء العقل الصريح وأخذوا بالرواية، ولولا وجود هذا الحديث في الصحيح لما أخذوا بهذا القول، ولكنّهم غفلوا عن أبسط الدلائل على امتناع الرؤية، لأنّ الرؤية لا تخلو عن حالتين: إمّا تقع على الذات كلّها، أو على البعض؛ فعلى الأوّل يلزم أن يكون المرئي محدوداً متناهياً محصوراً شاغلاً لناحية من النواحي وتخلو النواحي الأُخرى منه، وعلى الثاني يلزم أن يكون مركّباً متحيّزاً ذا جهة.

إنّ فكرة الرؤية فكرة مستوردة جاءت من جانب الأحبار والرهبان بتدليس خاصّ. فإنّ أهل الكتاب يدينون برؤيته سبحانه، و قد تصدّى أئمّة أهل البيت عليهم السلام لتلك الفكرة بخطبهم وأحاديثهم التي لا يسعنا إيرادها في هذا البحث. قال الإمام علي عليه السلام في خطبة الأشباح:

«الأوّل الذي لم يكن له قبلُ فيكون شيء قبله، والآخر الذي ليس له بعدُ فيكون شيء بعده، والرادع أناسيّ الأبصار عن أن تناله أو تدركه».[٢]

وقد سأله ذعلب اليماني فقال: هل رأيت ربّك يا أمير المؤمنين؟ فقال عليه السلام: «أفأعبد مالا أرى؟» فقال: كيف تراه؟ فقال: «لا تدركه العيون بمشاهدة العيان

---

١. الأنعام:١٠٣.

٢. نهج البلاغة، الخطبة٨٧، ط عبده.

ولكن تدركه القلوب بحقائق الايمان، قريب من الأشياء غير ملابس، بعيد منها غير مبائن». [١]

٤. مكافحة قدم غيره سبحانه

ذهبت النصارى إلى قدم الأقانيم الثلاثة، فقالوا بالتثليث وقدم الأب والابن وروح القدس، وبذلك خرجوا عن عداد الموحّدين، والأسف أنّ أهل الحديث تأثروا بدون وعي بالمسيحيّين فقالوا بقدم القرآن و نفي حدوثه وبذلك اعترفوا بقدم غيره سبحانه، وقد بذلوا جهودهم على طريق ترسيخ هذه العقيدة التي لا يعلم مرامها وما هو المقصود منها، فإنّ محلّ البحث والنزاع لم يحرر بشكل واضح بحيث يمكن تحليله. فهاهنا احتمالات يمكن أن تكون محطّ النظر لأهل الحديث والأشاعرة عند توصيف كلامه سبحانه بالقدم، نطرحها على بساط البحث ونطلب حكمها من العقل و القرآن.

أ. الألفاظ والجمل الفصيحة البليغة التي عجز الإنسان في جميع القرون عن الإتيان بمثلها، وقد جاء بها أمين الوحي إلى النبي الأكرم، وقرأها الرسول فتلقتها الأسماع وحررتها الأقلام على الصحف المطهّرة، ومن الواضح أنّها مخلوقة على الإطلاق لله سبحانه.

ب. المعاني السامية والمفاهيم الرفيعة في مجالات التكوين والتشريع والحوادث، وأشار إليها بألفاظه وجمله وهي حادثة بلا ترديد.

ج. ذاته سبحانه وصفاته من العلم والقدرة والحياة التي بحث عنها القرآن، ومن المعلوم أنّ ذاته وصفاته قديمة ولكن الألفاظ التي أشار بها إليها

---

١. نهج البلاغة، الخطبة ١٧٤.

حادثة.

د. علمه سبحانه بكلّ ما ورد في القرآن الكريم. ولو كان المراد هذا، فلا شكّ انّه قديم و البحث فيه بلا طائل.

هـ. الكلام النفسي القائم بذاته الذي هو أحد الألغاز.

و. القرآن ليس مخلوقاً، أي مصنوعاً للبشر و إن كان مخلوقاً لله.

وقد جرّت هذه العقيدة ويلات على المسلمين وسفكت فيها الدماء وحبس فيها الأبرياء، وقد أدرك أئمّة أهل البيت عليهم السلام أنّ المسألة اتّخذت لنفسها طابعاً سياسيّاً فامتنعوا عن الخوض فيها ومنعوا أصحابهم أيضاً، فقد سأل الريان بن الصلت الإمام الرضا عليه السلام وقال له: ما تقول في القرآن؟ فقال عليه السلام: «كلام الله لا تتجاوزوه، ولا تطلبوا الهدى في غيره فتضلّوا».[1]

نعم في بعض المواقف الخاصة التي يأمن فيها الأئمّة من الفتنة أدلوا برأيهم في الموضوع وصرّحوا بأنّ الخالق هو الله وغيره مخلوق، والقرآن ليس نفسه سبحانه، وإلاّ يلزم اتحاد المنزِل والمنزَل فهو غيره، فيكون لا محالة مخلوقاً.

روى محمد بن عيسى بن عبيد اليقطيني أنّه كتب علي بن محمد بن علي بن موسى الرضا عليه السلام إلى بعض شيعته ببغداد: «بسم الله الرحمن الرحيم، عصمنا الله وإيّاك من الفتنة، فإن يفعل فقد أعظم بها نعمة، وإن لا يفعل فهي الهلكة، نحن نرى أنّ الجدال في القرآن بدعة، اشترك فيها السائل والمجيب، فيتعاطى السائل ما ليس له، ويتكلّف المجيب ما ليس عليه، وليس الخالق إلاّ الله عزّ وجلّ، وما سواه مخلوق، والقرآن كلام الله، لا تجعل له اسماً من عندك فتكون من الضالين، جعلنا

١. التوحيد للصدوق: ٢٢٣، باب القرآن ما هو، الحديث٢.

الله و إيّاك من الذين يخشون ربّهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون».[١]

٥. مكافحة الغلوّ والنصب

الغلاة هم الذين غلوا في حقّ النبي وآله حتّى أخرجوهم من حدود الخليقة، والخطابية والمغيرية من هذه الصنوف، كما أنّ القول بالتفويض وهو تفويض تدبير العالم إلى النبي والأئمة وأنّهم هم الخالقون والرازقون والمدبّرون للعالم، شعبة من الغلوّ.

ويقابله النصب و هو تنقيص أئمّة أهل البيت عليهم السلام ونصب العداء لهم، وقد كافح أئمّة أهل البيت عليهم السلام هاتين الفكرتين الهدّامتين، فبيّنوا أنّ الغلوّ كفر وخروج عن الإسلام كما كشفوا عن فضيحة أهل النصب، وها نحن نذكر حديثين في هذا المجال:

قال أمير المؤمنين عليه السلام في حديث الأربعمائة: «إيّاكم والغلوّ فينا، قولوا: عبيد مربوبون وقولوا في فضلنا ما شئتم، من أحبنا فليعمل بعملنا ويستعن بالورع».[١]

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «لعن الله من قال فينا ما لا نقوله في أنفسنا، لعن الله من أزالنا عن العبودية لله الذي خلقنا، وإليه مآبنا ومعادنا، وبيده نواصينا».[٣]

وقد أوضح الإمام أمير المؤمنين عليه السلام موقف أئمّة أهل البيت عليهم السلام في خطبته: «لا يقاس بآل محمّد صلى الله عليه وآله من هذه الأُمّة أحد، ولا يسوّى بهم من جرت نعمتهم عليه أبداً، هم أساس الدين وعماد اليقين، إليهم يفيء الغالي وبهم يلحق التالي،

---

١. التوحيد للصدوق: ٢٢٤، باب القرآن ما هو ، الحديث ٤.

٢. الخصال للصدوق: ٢/ ٦١٤.

٣. الكشي، الرجال: ١٥٩ في ترجمة المغيرة بن سعيد.

ولهم خصائص حق الولاية، وفيهم الـوصية والوراثة، الآن إذ رجع الحق إلى أهله، ونقل إلى منتقله».[١]

وفي كلام له عليه السلام: «نحن آل محمد النمط الأوسط، الذي لا يدركنا الغالي ولا يسبقنا التالي».[٢]

وقـال أيضـاً: «سيهلك فيّ صنفان: محب مفـرط يـذهب بـه الحبّ إلى غير الحق، ومبغض مفرط يذهب به البغض إلى غير الحق، وخير الناس فيّ حالاً النمط الأوسط فألزموه».[٣]

إلى غير ذلك من الكلمات التي ترشد الأُمّة الإسلامية إلى ما لهم من المكانة الرفيعة دون الغلوّ وفوق ما يزعمه النصاب ـ أعداء أهل العصمة ـ.

٦. عصمة الأنبياء

النبوّة سفـارة بين الله و بين ذوي العقول من عبـاده لإزاحة علّتهـم في أمر معـادهم ومعـاشهم، والنبي هـو الإنسان المخبر عـن الله تعالى بإحـدى الطـرق المعروفـة، والأنبياء هم الصفوة من النـاس الذين تحلّـوا بزينة التقـوىٰ والعصمة، حتّى صاروا أهلاً لحمل الرسالة الإلهيـة إلى عباده والله سبحانه يصفهم بقوله: ﴿**إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّار * وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيارِ**﴾.[٤]

وبقوله: ﴿**واجْتَبَيْناهُمْ وهَديناهُمْ إلى صِراطٍ مُستقيم**﴾.[٥]

---

١. نهج البلاغة، الخطبة رقم٢.

٢. الكافي:١/ ١٠١، رقم الحديث٣.

٣. نهج البلاغة، الخطبة١٢٧.

٤. ص:٤٦ـ ٤٧.

٥. الأنعام:٨٧.

فمن يصفه سبحانه بأنّه من المصطفين الأخيار يستحيل عادة أن يعصي الله سبحانـه ويخالفه، ولذلك اتّفق أهل العدل على عصمـة الأنبياء في المرحلتين قبل البعثة وبعـدها، واستدلّوا على ذلك بأدّلـة عقلية وآيات قرآنيـة، غير أنّ لفيفاً من أهل الحديث اغتروا بروايات رواها مستسلمـة أهل الكتاب في حق بعض الأنبياء كداود وسليمان وغيرهما، وقد مـلأت هذه الروايات المدسـوسة كتب التفسير التي يندى الجبين من نقلها ونشرها في حياة هذين النبيين الكريمين.

والعجب أنّ أهل السنّـة قالـوا بعدالة الصحـابة من أوّلهم إلى آخـرهم، بل بعصمتهم وإن لم يتفوّهوا بها، فلو سمعوا من باحـث موضوعي شيئاً يمسّ كرامة صحابي كفسق الـوليد بن عقبـة الذي جاء وصفـه بالفسق في الـذكر الحكيم[١]، لطاشت عقولهم ورموْا القائل بالحقد والعـداء للصحابة، بل إلى قلّة الدين وعدم الإيمان.

وبما أنّ أهل الحديث اغتروا ببعض ظـواهر الآيات مـن دون أن يقفوا على مغزاهـا، فقد قـام أئمّة أهل البيت عليهم السلام بتفسيرها وتبيين مقـاصدهـا، فمن حاول الـوقـوف على كلماتهم في هـذا الموضـوع فليرجع إلى كتـاب «الاحتجـاج» للشيخ الطبرسي.

ولعلّ ما ذكرنا كـاف في تبلور دور أئمّة أهل البيت عليهم السلام في صيانة العقيدة السامية، والدفاع عن حياض الدين بالبرهنة والخطابة.

لكن إكمالاً للبحث نأتي ببعـض المنـاظـرات التي دارت بينهم و بين أهل الضلال عملاً بقولـه سبحانه: ﴿**ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِـالْحِكْمَةِ وَالْمَوعِظَـةِ الْحَسَنَةِ وَجادِلْهُمْ بِالَّتي هِيَ أَحْسَنُ**﴾.[٢]

---

١. الحجرات:٦

٢. النحل:١٢٥.

إنّ الدعوة الصحيحة تتحقق بأُمور ثلاثة:

١. الدعوة بالحكمة والحجّة العقلية التي تفيد العلم والإذعان با لمدّعىٰ، وقد استخدمها القرآن الكريم في مجال التنديد بالوثنية ودحض الشرك، يقول سبحانه: ﴿**مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ وَما كانَ مَعَهُ مِنْ إِلهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلهٍ بِما خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ سُبْحانَ اللهِ عَمّا يَصِفُونَ**﴾.[١]

٢. الدعوة بالموعظة الحسنة، وهي البيان الذي تلين به النفس ويرقّ له القلب لما فيه صلاح حال السامع،ويستخدمه الآباء عند إرشاد الأبناء، والخطباء عند الجلوس على منصّة الخطابة.

٣. الجدل وهو الحجّة التي تستعمل لإفحام الخصم باستخدام مسلّما ته، غير أنّ القرآن يدعو إلى العظة بالتي هي أحسن، وبالطبع إلى الجدل مثلها، وقد استخدمها العترة الطاهرة في أكثر المجالات، ولأجل إيقاف القارئ على قسم من مناظراتهم التي صانوا بها العقيدة الإسلامية عن الانحراف، نأتي ببعضها:

الأُولى: تفسير القضاء والقدر

كانت العرب في العصر الجاهلي قائلة بالقضاء والقدر بمعنى كون الإنسان مسيّراً لا مختاراً، وأنّه أمام الحوادث مكتوف اليديْن، ولا محيص له عن التسليم لما قُضي. وقد كانت هذه العقيدة راسخة في أذهان كثير من المسلمين في عصر النبي وبعده، حتّى روي أنّ رجلاً سأل عليّاً عليه السلام بعد انصرافه من الشام فقال: يا أمير المؤمنين أخبرنا عن خروجنا إلى الشام أبقضاء وقدر؟

فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: «نعم يا شيخ، ما علوتم تلعة ولا هبطتم بطن

---

١. المؤمنون:٩١.

وادٍ إلاّ بقضاء من الله وقدر».

فقال الرجل: عند الله أحتسب عنائي، والله ما أرى لي من الأجر شيئاً!!

فقال علي عليه السلام: «بلى، فقد عظّم الله لكم الأجر في مسيركم وأنتم ذاهبون، وعلى منصرفكم وأنتم منقلبون، ولم تكونوا في شيء من حالاتكم مكرهين، ولا إليه مضطرّين».

فقال الرجل: فكيف لا نكون مضطرّين والقضاء والقدر ساقانا، وعنهما كان مسيرنا؟!

فقال أمير المؤمنين عليه السلام: «لعلّك أردت قضاءً لازماً، وقدراً حتماً، لو كان ذلك كذلك لبطل الثواب والعقاب، وسقط الوعد والوعيد، والأمر من الله والنهي، وما كانت تأتي من الله لائمة لمذنب، ولا محمدة لمحسن، ولا كان المحسن أولىٰ بثواب الإحسان من المذنب، ولا المذنب أولى بعقوبة الذنب من المحسن، تلك مقالة إخوان عبدة الأوثان، وجنود الشيطان، وخصماء الرحمن، وشهداء الزور والبهتان، وأهل العمى والطغيان، هم قدريّة هذه الأُمّة ومجوسها، إنّ الله تعالى أمر تخييراً، ونهى تحذيراً، وكلّف يسيراً، ولم يعص مغلوباً، ولم يطع مكرهاً، ولم يرسل الرسل هزلاً، ولم ينزل القرآن عبثاً، ولم يخلق السماوات والأرض وما بينهما باطلاً، ذلك ظنّ الذين كفروا، فويل للذين كفروا من النار».

قال: ثمّ تلى عليهم: ﴿وَقَضىٰ رَبُّكَ أَلّاَ تَعْبُدُوا إلاّ إيّاهُ﴾[1]. قال: فنهض الرجل مسروراً وهو يقول:

أنت الإمام الذي نرجو بطاعته ... يوم النشور من الرّحمن رضواناً[2]

---

١. الإسراء:٢٣.

٢. الاحتجاج:١/ ٤٩٠.

الثانية: عدم احتجابه سبحانه بالسماوات السبع

لقد كان التجسيم والاعتقاد بوجود الجهة لله من عقائد اليهود، وقد تسربت تلك العقيدة عن طريق مستسلمة أهل الكتاب إلى أوساط المسلمين، فحسبه أهل الحديث أنّه سبحانه فوق السماوات السبع، وأنّه جالس على عرشه، والعرش يئط أطيط الرحل، ولم تزل هذه العقيدة محفوظة عند ابن تيمية وأتباعه.[١] وهي عقيدة سخيفة ساقطة تضاد القرآن الكريم والعقل الحصيف.

وقد كافح أئمّة أهل البيت عليهم السلام هذه الفكرة المستوردة، وهذا هو الإمام علي ابن أبي طالب عليه السلام سمع رجلاً يقول: «والذي احتجب بسبع طباق» فعلاه بالدرّة، ثمّ قال له: «يا ويلك! إنّ الله أجلّ من أن يحتجب عن شيء، أو يحتجب عنه شيء، سبحان الذي لا يحويه مكان، ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء».

فقال الرجل: أفأكفّر عن يميني يا أمير المؤمنين؟

قال: «لا، لم تحلف بالله فيلزمك كفّارة، وإنّما حلفت بغيره».[٢]

الثالثة: اتحاد الصفات مع الذات

المتسالم عند الناس هو أنّ الصفة غير الموصوف وانّ الأُولى عارضة للثاني، وقد اختمرت تلك الفكرة في أذهان العامّة حسب احتكاكهم بالماديات، فهناك إناء وله لون، وإنسان وله علمه، وعلى ضوء ذلك زعموا أنّ علمه سبحانه زائد على ذاته وانّ مقتضى الصفة هو الاثنينية.

---

١. العقيدة الواسطية، الرسالة التاسعة من مجموع الرسائل الكبرى: ٣٩٨.

٢. الاحتجاج: ١/ ٤٩٦؛ التوحيد للصدوق، ص ١٧٤ الباب ٢٨ ، الحديث٣.

ولما كـان هـذا القـول مـؤدياً إلى الشرك وتعـدّد القـدمـاء قـام أئمّـة أهل البيت عليهم السلام بوجه تلك الفكرة الخاطئة في بعض مناظراتهم.

روى محمد بن مسلـم عن أبي جعفر عليه السلام قال: في صفة القـديم: إنّه واحد صمد، أحديّ المعنى، ليس بمعانٍ كثيرة مختلفة.

قـال: قلت: جعلت فداك إنّـه يـزعم قوم مـن أهل العراق أنّـه يسمع بغير الذي يبصر، ويبصر بغير الذي يسمع؟

قال: فقـال: «كذبوا وألحدوا، وشبّهوا الله تعـالى، إنّه سميع بصير، يسمع بما به يبصر، ويبصر بما به يسمع».

قال: فقلت: يزعمون أنّه بصير على ما يعقله؟

قـــال: فقـال:تعــالى الله إنّما يعقل من كـــان بصفـة المخلــوق، وليس الله كذلك».[1]

الرابعة: البرهنة على أنّ الحسنين من أبناء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

لقد أراد أهل النصب وأصحـاب العداء أن ينكروا كـون الحسنين من أبناء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وقد أشاعوا تلك الفكرة، لأنّ الولد عندهم عبارة عمّن ينتسب إلى الرجـل بنفسه أو عن طـريق ابنه لا بنتـه، أخذاً بـالرأي الجاهلي في تفسير الـولد، قالوا:

بنونـا بنـو أبنائنـا وبناتنـا　　　　بنوهن أبناء الرجال الأباعد

وبما انّ الحسنين كانا يتصلان بالنبي عن طريق بنته فاطمة عليها السلام فلا يصحّ وصفهما بأنهّما من أبناء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

---

١. الاحتجاج:٢/ ١٦٧ـ١٦٨.

وقـد رد على تلك الفكرة، تـلاميذ أبي جعفـر الباقـر عليه السلام ببعض الآيات القرآنيـة، حيث عدّ القـرآن عيسى بن مريم من آل إبـراهيم وقال: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ [إبراهيم] داودَ وَسُلَيْمـانَ وَأَيُّـوبَ وَيُـوسُفَ وَمُـوسىٰ وَهـارونَ وَكَـذٰلِكَ نَجْـزِي الْمُحْسِنِينَ* وَزَكَرِيّا وَيَحْيىٰ وَعِيسَى وَإِلْيـاسَ كُلٌّ مِنَ الصّالِحين﴾.[1] حيث عدّ «عيسى» من ذريّة إبراهيم وهو يتصل به من جانب الأُمّ.

كما احتجـوا عليهم بقـوله سبحـانـه: ﴿ فَقُلْ تَعالَـوْا نَدْعُ أَبْناءَنـا وَأَبْناءَكُمْ وَنِساءَنا وَنِساءَكُمْ وَأَنْفُسَنا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللهِ عَلى الْكاذِبين﴾[2]، وقد اتّفق المفسرون على أنّ المراد من قوله:﴿أبناءنا﴾ هو الحسنان.

هذا هـو الذي احتجّ بـه تلاميذ الإمـام و مَن تربّى في حجـره، لكن الإمام الباقرعليه السلام احتجّ بشكل آخـر فقـال مخاطبـاً أبـا الجارود: «والله يـا أبـا الجارود ! لأعطينّكها من كتـاب الله آيةتسمّيهما أنّهما لصلب رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا يردهـا إلاّ كافر».

قال: قلت: جعلت فداك وأين؟

قال: «حيث قال الله تعالى: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمّهاتُكُمْ وَبَناتُكُمْ ـ إلى قوله: ـ وَحَلائِلُ أَبْنائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلابِكُمْ﴾[3]، فسلهم يا أبا الجارود هـل يحلّ لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نكاح حليلتيهما؟ فإن قـالوا: نعم، فكذبوا والله، و إن قـالوا: لا، فهما والله ابنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لصلبه، وما حرّمن عليه إلاّ للصلب».[4]

---

١. الأنعام:٨٤ـ ٨٥.

٢. آل عمران:٦١.

٣. النساء:٢٣.

٤. الاحتجاج:٢/ ١٧٦.

الخامسة: النظام الهادف آية وجود الخالق

لم يزل برهان النظـام دليلاً واضحاً ومقنعاً لعامة النـاس، بالأخص إذا كان هادفـاً لغاية خاصـة، إذ لا تخضع الهادفية للصدفـة، بل هي تكشف عن خضوع النظام لخالق مدبّر عالم، أوجد مصنوعه، لغاية عقلانية.

وهذا النوع من البرهـان كثير الدوران في الذكر الحكيم والـروايات الشريفة نذكر منها ما يلي:

دخل أبو شاكـر الديصاني على أبي عبد الله عليه السلام وقال يا جعفـر بن محمد : دلّني على معبودي!.

فقال له أبو عبد الله عليه السلام: «اجلس!» فإذا غلام صغير في كفّـه بيضة يلعب بها، فقال أبو عبد الله عليه السلام: «ناولني يا غلام البيضة!» فناولـه إيّاها ، فقال أبو عبد الله عليه السلام: «يـا ديصاني! هـذا حصن مكنون، لـه جلد غليظ، وتحت الجلـد الغليظ جلد رقيق، وتحت الجلد الرّقيق ذهبة مايعة، وفضة ذائبة، فلا الذهبة المائعة تختلط بالفضّة الذائبة، ولا الفضّة الذائبة تختلط بالذهبة المائعة، فهي على حالها، لم يخرج منها خارج مصلح فيخبر عن إصلاحهـا، ولم يدخل فيها داخل مفسد فيخبر عن إفسادهـا، لا يدرى للذكـر خلقت أم للأُنثى، تنفلق عن مثل ألـوان الطواويس، أترى له مدبّراً؟».

قال: فأطرق مليّاً ثمّ قال: أشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له وأشهد أنّ محمّداً عبده ورسـوله، وأنّك إمام وحجّة من الله على خلقـه، وأنا تائب [إلى الله تعالى] ممّا كنت فيه.[1]

---

١. الاحتجاج: ٢/ ٢٠٢.

السادسة: قياس الخالق بالمخلوق

قد تعرفت على أنّ التجسيم والجهة كان مختمراً في أذهان المسلمين وقلّما يتّفق لأحدٍ منهم أن يتصوّر تصوّراً صحيحاً من إحاطته سبحانه بالعالم إحاطةً قيّوميّة.

وهذا ابن أبي العوجاء زنديق عصره بعدما سمع كلمة «الله» سبحانه عن الصادق عليه السلام قال له:

ذكرت الله فأحلت على غائب، فقال أبو عبد الله عليه السلام: «ويلك! كيف يكون غائباً مَنْ هو مع خلقه شاهد، وإليهم أقرب من حبل الوريد، يسمع كلامهم ويرىٰ أشخاصهم ويعلم أسرارهم؟» فقال ابن أبي العوجاء: فهو في كلّ مكان، أليس إذا كان في السماء كيف يكون في الأرض، وإذا كان في الأرض كيف يكون في السّماء؟!

فقال أبو عبد الله عليه السلام: «إنّما وصفت المخلوق الذي إذا انتقل من مكان اشتغل به مكان، وخلا منه مكان، فلا يدري في المكان الذي صار إليه ما حدث في المكان الذي كان فيه، فأمّا الله العظيم الشأن، الملك الديّان، فلا يخلو منه مكان ولا يشتغل به مكان، ولا يكون إلى مكان أقرب منه إلى مكان».[1]

فقد استدلّ الإمام بأنّ إنكار إله محيط بالعالم نابع عن قياس الممكن بالواجب والمخلوق بالخالق. فالممكن لأجل كونه محدوداً إذا وقع في مكان يخلو عنه مكان آخر، و أمّا الواجب لأجل سعة وجوده وعدم تحديده يكون حاضراً في كلّ مكان، لا حضوراً حلوليّاً، بل قيّوميّاً، لقيام كلّ ممكن بوجوده قيام المعنى الحرفي بالمعنى الاسمي.

---

١. الاحتجاج:٢/ ٢٠٨، المناظرة ٢١٨.

السابعة: إبطال القياس

لقد شاع العمل بالقياس بعد رحيل النبي الأكرم ﷺ،لقلّة النصوص في المسائل المستجدّة، فلم يجدوا بدّاً من العمل بالقياس والاستحسان وسائر القواعد التي لم يدلّ على حجيتها الكتاب والسنّة، وإنّما التجأوا إليها لإعواز النصوص والإعراض عن أئمّة أهل البيت عيبة علم الرسول ﷺ.

كان أبو حنيفة من أعلام العاملين بالقياس، ولذلك عُرف فقهاء العراق بأهل القياس، وفيما دار بينه و بين أبي عبد الله عليه السلام من المناظرة يظهر قوة منطق المناظر ورجوع الخصم إلى الحق.

قال أبو عبد الله عليه السلام: «فانظر إلى قياسك إن كنت مقيساً أيّما أعظم عند الله: القتل أم الزنا؟»

قال: بل القتل.

قال: «فكيف رضى الله تعالى في القتل بشاهدين، ولم يرض في الزنا إلاّ بأربعة؟» ثمّ قال له: «الصلاة أفضل أم الصيام؟» قال: بل الصلاة أفضل.

قال عليه السلام: «فيجب على قياس قولك على الحائض قضاء ما فاتها من الصّلاة في حال حيضها دون الصيام، وقد أوجب الله تعالى عليها قضاء الصوم دون الصلاة».

قال له: «البول أقذر أم المني؟».

قال: البول أقذر.

قال عليه السلام: «يجب على قياسك أن يجب الغُسْل من البول دون المني، وقد أوجب الله تعالى الغُسل من المني دون البول».[1]

---

١. الاحتجاج: ٢/ ٢٦٩، المناظرة ٢٣٧.

الثامنة: إبطال الرؤية يوم القيامة

إنّ أبا قرّة كـان أحد المحدّثين الكبار في عصر الإمـام أبي الحسن الرضا عليه السلام فدخل عليه ودار بينهما كلام طويل، نورد منه ما يلي:

قـال أبـو قـرّة: فإنـا رُوِينـا انّ الله قسّم الـرؤيـة والكـلام بين نبيّين، فقسّم لموسى عليه السلام الكلام ولمحمد صلى الله عليه وآله وسلم الرؤية.

فقال أبو لحسن عليه السلام: «فمن المبلّغ عن الله إلى الثقلين الجن والإنـس أنّـه لا تدركـه الأبصار ولا يحيطون به علماً وليس كمثلـه شيء، أليس محمد صلى الله عليه وآله وسلم ؟!» قال: بلىٰ.

قال أبو الحسن عليه السلام: «فكيف يجيء رجل إلى الخلق جميعاً فيخبرهم أنّه جاء من عنـد الله، وأنّه يـدعوهم إلى الله بأمـر الله، ويقول: إنّـه لا تدركـه الأبصار، ولا يحيطون به علماً وليس كمثله شيء، ثمّ يقول: أنـا رأيته بعيني وأحطتُ به علماً وهو على صورة البشر، أما تستحيـون؟! ما قدرت الزنادقة أن تـرميه بهذا: أن يكون أتى عن الله بأمر ثمّ يأتي بخلافه من وجه آخر».[١]

التاسعة: تصحيح فهم الحديث النبوي

لم يـزل أصحـاب الحديث يستـدلّـون على التجسيم بـالحديث المروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: «إنّ الله خلق آدم على صورته».

فالضمير حسب زعمهم يرجع إلى الله، فتكون النتيجة أنّ لله سبحانه صورة كصورة الإنسان وقد خلق آدم على غرار صورته.

١. الاحتجاج:٢/ ٣٧٥، المناظرة ٢٨٥.

فلمّا سُئل الإمام الرضا عليه السلام عن هذا الحديث قال:

«قاتلهم الله لقد حذفوا أوّل الحديث، إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مرّ برجلين يتسابّان، فسمع أحدهما يقول لصاحبه: «قبّح الله وجهك ووجه من يُشبهك». فقال له صلى الله عليه وآله وسلم: «يا عبد الله لا تقل هذا لأخيك! فإنّ الله عزّ و جلّ خلق آدم على صورته».[1]

العاشرة: مكافحة الغلو

كانت ظاهرة الغلو فاشية في عصر الإمام الصادق عليه السلام وبعده إلى أن بلغت أوجها في عصر الإمام العسكري عليه السلام.

و إليك مناظرة دارت بين الإمام الرضا عليه السلام وأحد السائلين، قال السائل: بأبي أنت وأُمّي يابن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم! فإنّ معي من ينتحل موالاتكم ويزعم أنّ هذه كلّها من صفات علي عليه السلام، وأنّه هو الله ربّ العالمين.

قال: فلمّا سمعها الرّضا عليه السلام، ارتعدت فرائصه وتصبب عرقاً وقال: «سبحان الله عمّا يقول الظالمون والكافرون علوّاً كبيراً! أو ليس عليّ كان آكلاً في الآكلين، وشارباً في الشّاربين، وناكحاً في الناكحين، ومحدثاً في المحدثين؟ وكان مع ذلك مصلّياً خاضعاً، بين يدي الله ذليلاً، و إليه أوّاهاً منيباً، أفمن هذه صفته يكون إلهاً؟! فإن كان هذا إلهاً فليس منكم أحد إلاّ هو إله لمشاركته له في هذه الصفات الدالات على حدوث كلّ موصوف بها».[2]

---

١. الاحتجاج: ٢/ ٣٨٥، المناظرة ٢٩٢.

٢. الاحتجاج: ٢/ ٤٥٤، المناظرة ٣١٤.

الحادية عشرة: استنطاق القرآن في مورد إسلام الذمّيّ

قدم إلى المتـوكل رجل نصراني فجر بامرأة مسلمـة، فأراد أن يقيم عليه الحد فأسلم.

فقال يحيى بن أكثـم: قد هدم إيمانـُه شركه وفعلـه، وقال بعضهـم: يضرب ثلاثة حدود، و قال بعضهم: يُفعل به كذا وكذا.

فأمر المتوكّل بالكتاب إلى أبي الحسن العسكري عليه السلام وسؤاله عن ذلك.

فلمّا قرأ الكتاب كتب عليه السلام: «يضرب حتّى يموت»، فأنكر يحيى وأنكر فقهاء العسكـر ذلك، فقـالـوا: يا أمير المؤمنين! سلـه عن ذلك فـانّـه شيء لم ينطق بـه كتاب، ولم يجئ به سنّة.

فكتب إليه: إنّ الفقهـاء قد أنكروا هذا، وقـالوا: لم يجئ به سنّـة ولم ينطق به كتاب، فبيّن لنا لِمَ أوجبت عليه الضرب حتّى يموت؟

فكتب: **﴿بِسم الله الـرّحمن الرّحيم فلمّـا رَأَوْا بَأْسَنـا قَالُـوا آمَنّا بِـاللهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنـا بِما كُنّا بِهِ مُشْـرِكينَ* فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمانُهُمْ لَمّا رَأَوْا بَـأْسَنا﴾** الآية.[١] قال: فأمر به المتوكّل فضرب حتّى مات.[٢]

الثانية عشرة: اعتراف الزنادقة بعجزهم عن نقض القرآن

اجتمع ابن أبي العوجاء وأبو شاكر الديصاني الزنديق وعبد الملك البصري وابن المقفع عند بيت الله الحرام، يستهزئون بالحاج و يطعنون على القرآن.

---

١. غافر: ٨٤ـ ٨٥.

٢. الاحتجاج: ٢/ ٤٩٨ـ٤٩٩.

فقال ابن أبي العوجاء: تعالوا ننقض كلّ واحد منّا ربع القرآن وميعادنا من قابل في هذا الموضع، نجتمع فيه وقد نقضنا القرآن كلّه، فإنّ في نقض القرآن إبطال نبوّة محمّد، وفي إبطال نبوته إبطال الإسلام و إثبات ما نحن فيه، فاتّفقوا على ذلك وافترقوا، فلمّا كان من قابل اجتمعوا عند بيت الله الحرام، فقال ابن أبي العوجاء:

أمّا أنا فمفكّر منذ افترقنا في هذه الآية: ﴿**فَلَمّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيّاً**﴾[1]، فما أقدر أن أضمّ إليها في فصاحتها وجمع معانيها شيئاً، فشغلتني هذه الآية عن التفكّر فيما سواها.

فقال عبد الملك: وأنا منذ فارقتكم مفكّر في هذه الآية: ﴿**يا أَيُّهَا النّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُباباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبابُ شَيئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ**﴾[2]، ولم أقدر على الإتيان بمثلها.

فقال أبو شاكر: وأنا منذ فارقتكم مفكّر في هذه الآية: ﴿**لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلاّ اللهُ لَفَسَدَتا**﴾[3]، لم أقدر على الإتيان بمثلها.

فقال ابن المقفع: يا قوم! إنّ هذا القرآن ليس من جنس كلام البشر، وأنا منذ فارقتكم مفكّر في هذه الآية: ﴿**وَقِيلَ يا أَرْضُ ابْلَعي ماءَكِ وَيا سَماءُ أَقْلِعي وَغِيضَ الْماءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلى الجُوديّ وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَومِ الظّالِمين**﴾[4]، لم أبلغ المعرفة بها، ولم أقدر على الإتيان بمثلها.

---

١. يوسف: ٨٠.

٢. الحجّ: ٧٣.

٣. الأنبياء: ٢٢.

٤. هود: ٤٤.

قال هشام بن الحكم: فبينما هم في ذلك. إذ مرّ بهم جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام فقال: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هٰذَا الْقُرآنِ لاٰ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾(١)، فنظر القوم بعضهم إلى بعض وقالوا: لئن كان للإسلام حقيقة لما انتهت أمر وصية محمّد صلى الله عليه وآله إلاّ إلى جعفر بن محمّد، والله ما رأيناه قطّ إلاّ هبناه واقشعرّت جلودنا لهيبته، ثمّ تفرّقوا مقرّين بالعجز.(٢)

هذه نماذج من مناظرات أئمّة أهل البيت في مجالات مختلفة، و من أراد التفصيل فليرجع إلى كتاب «الاحتجاج» للعلاّمة الطبرسي و«بحار الأنوار» للعلاّمة المجلسي.

وقد تربىٰ في أحضانهم رجال صاروا أبطال المناظرة، فخرجوا في حلبة الجدال العلمي بوجوه مشرقة، منهم: هشام بن الحكم، مؤمن الطاق، فضال بن حسن بن فضّال، إلى غير ذلك من متكلّمي عصر الأئمّة الذين تقرأ تفاصيل حياتهم في هذه الموسوعة.

---

١. الإسراء: ٨٨.

٢. الاحتجاج: ٢/ ٣٠٦ و ٣٠٧، المناظرة ٢٥٧.

ختامه مسك

هذه رسالة متواضعة في علم الكلام وعلل نشوئه ومناهجه ومسائله إلى غير ذلك، قدّمناها إليك أيّها القارئ الكريم لتكون على بصيرة من سير هذا العلم، وتكون تمهيداً لما سيوافيك من حياة روّاد هذا العلم من المتقدّمين والمتأخّرين، الذين بذلوا جهوداً جبارة في إرساء قواعد هذا العلم وردّ الشبهات والتمويهات عن وجه الدين القويم.

وأنا أختم رسالتي هذه بما ختم به الشيخ أحمد التلمساني مؤلف «نفح الطيب»، مقدّمة كتابه حتّى يكون ختامه مسك.

ومن يتوسّل بالنبيّ محمّد
شفيع البرايا السيد السند الأسنى
فذاك جدير أن يكفر ذنبه
ويمنح نيل القصد والختم بالحسنى

تمّ تحرير هذه الرسالة، يوم ميلاد النبيّ الأعظم، محمد المصطفى وسبطه الإمام الصادق عليه السلام السابع عشر من شهر ربيع الأوّل من شهور عام ١٤٢٤ من الهجرة النبوية.

والحمد لله ربّ العالمين

جعفر السبحاني

قم ـ مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام

الفصل الثاني

الخبر الواحد في الشؤون الدينية

بين الرفض والقبول

الخبر الواحد في الشؤون الدينيّة

بين الرفض والقبول

بعث الله سبحانه نبيّه الخاتمﷺ بدين مشرق يحتوي على أُصول يجب الاعتقاد بها وعقد القلب عليها، وأحكامٍ عملية يطلب العمل بها، وتطبيق السلوك عليها في الحياة الفردية والاجتماعية، فكأنّ لفظ الإسلام شارة العقيدة والشريعة.

فالمطلوب من العقيدة هو الإذعان القلبي، كما أنّ المطلوب من الشريعة هو العمل، فكأنَّ الشريعة ثمرةُ العقيدة، وكل إنسان ينطلق في سلوكه من عقيدته وإيمانه.

والّذي يجب إلفات النظر إليه هو أنّ السلوك العملي وتطبيق الحياة على الحكم الشرعي ليس رهن الإذعان بصحة الحكم الشرعي، بل ربّما يعمل به الإنسان أو يتركه مع الشك والترديد في صحة حكم ما، بشهادة أنّ جميع الأحكام الفرعية ليست من القطعيات، بل هي بين مقطوع ومظنون بها، كما أنّ له تلك الحالة مع الظن بصحة الحكم دون اليقين بها، فالعمل والتطبيق في متناول الإنسان في أيّ وقت شاء، سواء أشك في صحة الحكم أو ظنّ بها أو قطع.

وأمّا العقيدة بمعنى عقد القلب على شي ء وأنّه الحق تماماً دون غيره فتختلف عن الأحكام الفرعية، فهي رهن أُسس ومبادئ تقود الإنسان إلى الإذعان على نحوٍ لولاها لما حصلت له تلك الحالة و إن شاء وأصرّ على حصول اليقين.

فالعمل بالأحكام من مقولة الفعل وهو واقع تحت إرادة الإنسان، ربّما يعمل بها لا يجزم بصحته كما يعمل مع الجزم بها، ومثال ذلك أنّ أئمة المذاهب الفقهية مختلفون في الآراء والمصيب منهم واحد، ومع ذلك فأتباع كل إمام يعملون بفقهه مع علمهم بخطئه إجمالاً في بعض الآراء لعدم عصمته .

ولكن الإذعان من مقولة انفعال النفس با لمبادئ الّتي تؤثر في طروء هذه الحالة على صحيفتها، ولولا تلك المبادئ لماترى له أثراً في الذهن .

يقول سبحانه: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ .[١] ماذا يريد الله سبحانه من هذه الجملة؟ هل يريد أنّ الدين لا يمكن أن يتعلّق به إكراه؟! لأنّه من شؤون القلب الخارجة عن القدرة، تماماً كالتصورات الذهنية، وانّما يتعلّق الإكراه بالأقوال والأفعال الّتي يمكن صدورها عن إرادة القائل والفاعل.[٢]

يقول العلاّمة الطباطبائي: إنّ الدين وهو سلسلة من المعارف العلمية الّتي تتبعها أُخرى عملية، يجمعها أنّها اعتقادات، والاعتقاد والإيمان من الأُمور القلبية الّتي لا يحكم فيها الإكراه والإجبار، فإنّ الإكراه إنّما يؤثر في الأعمال الظاهرية والأفعال والحركات البدنية المادية.

وأمّا الاعتقاد القلبي فله علل وأسباب أُخرى قلبية من سنخ الاعتقاد

---

١. البقرة:٢٥٦.

٢. تفسير الكاشف:١/ ٣٩٦.

والإدراك، ومن المحال أن ينتج الجهل علماً، أو تولّد المقدّمات غير العلمية تصديقاً علمياً.[١]

فما ادّعاه أعداء الإسلام من: «أنّ الإسلام قام بالسيف والقوة» ما هو إلا ادّعاء فارغ يجانب العقل،لأنّ السيف لا يؤثر في العقيدة والإذعان وإن كان يؤثر في تطبيق العمل وفق الشريعة.

وعلى ضوء ذلك قال المحقّقون بحجية خبر الواحد العادل في الأحكام العمليّة دون الأُصول والعقائد، لأنّه لا يفيد العلم واليقين الّذي هو أساس العقيدة إلا إذا احتفّ بقرائن خارجية تورث العلم والجزم،وما هذا إلا لأنّ المطلوب في الأحكام هو العمل، وهو أمر اختياري يقوم به الإنسان حتّى في حالتي الشك والتردد في صحة الحكم.

وأمّا الأُصول والمعارف فالمطلوب فيها عقد القلب والإذعان على نحو يطرد الطرف النقيض بإحكام، والخبر الواحد بما هو هو ـ وإن كان الراوي ثقة خصوصاً إذا كان بعيداً عن مصدر الوحي ـ لا يورث إلا الظن، وهو لا يغني في مجال العقيدة عن الحق شيئاً.

فعلى ما ذكرنا فالخبر الواحد إذا كان راويه ثقة وسنده صحيحاً، فإنّه يوصف بالصحة، ولكن لا ملازمة بين صحة السند، وصحة المضمون، لأنّ أقل ما يمكن أن يقال في آحاد الثقات انّهم ليسوا بمعصومين، ويحتمل في حقّهم الخطأ والاشتباه في السمع والبصر والذاكرة، فكيف يفيد قولهم العلم بالصحة؟ ومع ذلك فالخبر الواحد حجة في الفرعيات الّتي لا تعدّ ولا تحصىٰ، لأنّ فرض

١. الميزان:٢/ ٣٤٢.

تحصيل العلم فيهـا يستلزم الحرج، وربّما لا ينـاله الفقيـه، ولذلك اعتبره الفقهـاء حجة من عهـد الرسولﷺ إلى يـومنـا هذا كما اعتبره العقـلاء حجـة في حيـاتهم الاجتماعية وسلوكهم الفردي.

وأمّا الأُصول والمعارف فهي رهن دليل قطعي حاسم يجلب اليقين ويخاصم الطرف المقابل.

نعم شذّ عن هـذه القاعـدة الّتي تؤيـدها الفطـرة والكتاب والسنّـة جماعةٌ اغترّوا بروايات الآحاد فجعلوها أُسساً للعقائد والأُصول، يقول ابن عبد البرّ: ليس في الاعتقاد كلّه في صفات الله وأسمائه إلا ما جاء من أخبار الآحاد في ذلك كلّه أو نحوه يسلم له، ولا يناظر فيه .

وقال أيضاً : وكلّهم يـدين بخبر الواحد العـدل في الاعتقادات ، ويعادي ويـوالي عليهـا ، ويجعلهـا شرعـاً وديناً في معتقـــده ، وعلى ذلك جماعـة أهل السنّة .[١]

وجـــاء في شرح الكـوكب المنير: ويعمل بـــآحـــاد الأحـاديث في أُصـــول الديانات، وحكى ذلك ابن عبد البر إجماعاً.[٢]

يقـول ابن القيم: إنّ هـذه الأخبـار لـو لم تفـد اليقين، فإنّ الظن الغـالـب حاصل منها، ولا يمتنع إثبات الأسماء والصفات بها، كما لا يمتنع إثبات الأحكام الطلبية بها... ولم تزل الصحابة والتابعون وتابعوهم وأهل الحديث والسنّة يحتجون بهذه الأخبار في مسـائل الصفات والقـدر والأسماء والأحكام، ولم ينقل عـن أحد منهم البتة أنّه جوّز الاحتجاج بها في مسائل الأحكام دون الإخبار عن الله وأسمائه

١. التمهيد:١/ ٨.

٢. شرح الكوكب المنير:٢/ ٣٥٢ وانظر: لوامع الأنوار الإلهية:١/ ١٩.

وصفاته....[١]

وقد نقل هذه النصوص مؤلف كتاب «موقف المتكلمين من الكتاب والسنّة» عن المصادر الّتي أشرنا اليها في الهامش واستنتج من هذه الكلمات ما يلي:

يرى أهل السنّة والجماعة الأخذ بكل حديث صحّ عن النبيّ ﷺ في العقائد، واعتقاد موجبه، سواء أكان متواتراً أم آحاداً، إذ إنّ كلّ ما صحّ عن النبيّ ﷺ وجب القطع به واعتقاده والعمل به، سواء أوصل إلى درجة التواتر أم لم يصل، وسواء أكان ذلك في الاعتقادات أم فيما يسمّى بالعمليات، أي: المسائل والأحكام الفقهية.

ـ إلى أن قال: ـ فمن أفاده الدليل العلم القاطع وجب عليه الأخذ به وتيقن دلالته، ومن أفاده الظن الغالب لم يجز له أن يترك هذا الظن الغالب لعجزه عن تمام اليقين.[٢]

إلى غير ذلك من الكلمات الّتي يشبه بعضها بعضاً، ويدعو الكل إلى لزوم بناء العقيدة على العلم واليقين إنْ تيسّر، وإلا فعلى الظن ولا يجوز ترك الظن الغالب، لعجزه عن اليقين.

أقول: إن هؤلاء ـ نوّر الله بصيرتهم ـ لم يفرّقوا بين الأحكام العملية والأُصول العقائدية، وقاسوا الثانية بالأُولى مع أنّ القياس مع الفارق، فالمطلوب في الأحكام هو العمل وهو يجتمع مع العلم والظن، ولكن المطلوب في الثانية هو عقد القلب والجزم ورفض الطرف المخالف، وهو لا يتولّد من الظن، فإنّ الظن لا يُذهب

---

١. مختصر الصواعق٢/ ٤١٢.

٢. موقف المتكلّمين:١/ ١٩٨.

الشك، بخلاف اليقين فأنّه يطردهما معاً.

وتكليف الظان بموضوع، بالإذعان به وعقد القلب عليه تكليف بما لا يطاق، كتكليف الظان بطلوع الفجر، بالإذعان به.

ولو كان العمل بالظن في العقائد أمراً مطلوباً لما ندّد به القرآن الكريم في غيرواحد من الآيات. قال سبحانه: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلا يَخْرُصُونَ﴾[1]، وقال: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلا ظَنّاً إِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً﴾[2]، إلى غيرذلك من الآيات .

معطيات الخبر الواحد في العقائد

لو قمنا بتنظيم العقيدة الإسلامية على ضوء الخبر الواحد لجاءت العقيدة الإسلامية أشبه بعقائد المجسّمة والمشبّهة بل الزنادقة.

نفترض أن الخبر الواحد في العقيدة حجة إذا كان السند صحيحاً، فهل يصحّ لنا عقد القلب على ما رواه مسلم عن أبي هريرة عن النبي صلَّى الله عليه وآله وسلَّم أنّه قال :

لاتُملأ النار حتّى يضع الرب رِجْلَه فيها

تحاجّت النار والجنّة فقالت النار: أُثرتُ بالمتكبّرين والمتجبّرين، وقالت الجنة: فمالي لا يدخلني إلا ضعفاء النّاس وسقطهم وعجزهم، فقال الله للجنّة: أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي، وقال للنار: أنت عذابي أُعذب بك

---

١. الأنعام:١١٦.

٢. يونس:٣٦.

من أشاء من عبادي، ولكلّ واحــدة ملؤها، فأمّا النّار فلا تمتلئ فيضع قـدمه عليها فتقول: قط قط فهنالك تمتلئ ويزوى بعضها إلى بعض .

ولنا على الحديث ملاحظات تجعله في مدحرة البطلان:

الأُولى:أي فضل للمتكبّرين والمتجبّرين حتى تفتخـر بهم النـار، ثُمّ ومن أين علمتْ الجنةُ بأنّ الفائزين بها من عجزة الناس مع أنّه سبحانه أعدّها للنبيّين والمرسلين والصدّيقين والشهداء والصالحين؟!

الثانية: ثمّ هل للجنة والنار عقل ومعـرفة بمن حلّ فيهما من متجبّر ومتكبّر أو ضعيف وساقط من الناس؟

الثالثة: انّه سبحانه قد أخبر بأنّه يملأ جهنم بالجِنّة والناس لا برجله تعالى، كما قال سبحـانه: ﴿لَأَمْـلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْـكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[1] ، وقال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجِنَّةِ وَالنّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.[2]

وعلى ذلك فالموعـود هو امتلاء جهنم بهما، وما هو المتحقّـق إنّما هو امتلاء النار بوضع الرب رجله فيها، فما وُعد لم يتحقّق، وما تَحقّق لم يُعد.

الرابعة: هل لله سبحانه رجل أكبر وأوسـع حتى تمتلئ بها نار جهنم إلى حدّ يضيق الظرف عن المظروف فينادي بقوله: قط قط؟!

فالحديث أشبه بالأُسطورة، وقد صاغها الراوي في ثوب الحديث عن رسول الله ﷺ فجنى به على الـرسول وحديثـه وسوّد صحـائف كتب الحديث وصحيفة عمره ـ أعاذنا الله من الجهل المطبق، والهوى المغري ـ.

---

١. ص :٨٥.

٢. هود:١١٩.

ولا يتصوّر القارئ أنّ ما ذكرناه حديث شاذ بين أخبار الآحاد، لا بل هناك أخبار كثيرة لو اعتمدنا عليها لجاءت العقيدة الإسلامية مهزلة للمستهزئين، فإن كنت في شك فلاحظ الحديث التالي:

نزول الرب كلّ ليلة إلى السماء الدنيا

أخرج البخاري في صحيحه، عن أبي عبد الله الأغر وأبي سلمة بن عبد الرحمان، عن أبي هريرة:

إنّ رسول الله ﷺ قال: يتنزّل ربنا تبارك وتعالى كلّ ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، يقول: مَن يدعوني فأستجيب له، مَن يسألني فأعطيه، ومَن يستغفرني فأغفر له. [1]

وفي الحديث تساؤلات:

أوّلاً: أنّ ربّنا هو الغفور الرحيم، وهو القائل عزّ من قائل: ﴿**فَمَنْ تابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾. [2]

والقائل تبارك وتعالى: ﴿**أَفَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾. [3]

والقائل سبحانه: ﴿**قُلْ ياعِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلىٰ أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ**

---

١. صحيح البخاري:٨/ ٧١، باب الدعاء نصف الليل من كتاب الدعوات؛ وأخرجه مسلم في صحيحه:٢/ ١٧٥، باب الترغيب في الدعاء من كتاب الصلاة عن أبي عبد الله الأغر وعن أبي سلمة بن عبد الرحمان عن أبي هريرة.

٢. المائدة:٣٩.

٣. المائدة:٧٤.

رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُالذُّنُوبَ جَميعاً ﴾.[١] إلى غير ذلك من الآيات التي تكشف عن سعة رحمته لعموم مغفرته.

كما أنّه سبحانه وعد عباده بأنّه يستجيب دعاء من دعاه ويقول: ﴿ادْعُوني أَسْتَجِبْ لَكُم﴾[٢]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على قُرب المغفرة من المستغفرين، والإجابة من الله سبحانه للسائلين آناء الليل والنهار فأي حاجة إلى نزول الرب الجليل من عرشه الكريم في الثلث الأخير من الليل إلى السماء الدنيا وندائه بقوله: « مَن يدعوني فاستجيب له».

ثانياً: تعالى ربّنا عن النزول والصعود والمجيء والذهاب والحركة والانتقال وسائر العوارض والحوادث، وقد صار هذا الحديث سبباً لذهاب الحشوية إلى التجسيم والسلفية إلى التشبيه، وإن كنت في شكّ فاستمع لكلام من أحيا تلك الطريقة بعد اندثارها وانطماسها، يقول الرّحالة ابن بطوطة في رحلته:

وكان بدمشق من كبار فقهاء الحنابلة تقي الدين بن تيمية كبير الشام يتكلّم في فنون، إلا أنّ في عقله شيئاً، وكان أهل دمشق يعظّمونه أشدّ التعظيم، ويعظهم على المنبر، وتكلّم مرّة بأمر أنكره الفقهاء. ورفعوه إلى الملك الناصر فأمر بإشخاصه إلى القاهرة، وجمع القضاة والفقهاء بمجلس الملك الناصر، وتكلم شرف الدين الزواوي المالكي، وقال: «إنّ هذا الرجل قال كذا وكذا» وعدّد ما أُنكر على ابن تيمية، وأحضر الشهود بذلك ووضعها بين يدي قاضي القضاة.

قال قاضي القضاة لابن تيمية: ما تقول؟ قال: لا إله إلا اللّه، فأعاد عليه

---

١. الزمر:٥٣.

٢. غافر:٦٠.

فأجاب عليه بمثل قـوله: فأمر الملك الناصر بسجنـه، فسجن أعواماً، وصنّف في السجن كتاباً في تفسير القرآن سمّاه بـ «البحر المحيط».

ثمّ إنّ أُمّه تعـرضت للملك الناصر، وشكت إليه فأمر بإطـلاقه إلى أن وقع منـه مثل ذلك ثـانية، وكنتُ إذ ذاك بـدمشق، فحضرتُـه يـوم الجمعة، وهـو يعظ الناس على منبر الجامع ويذكـرهم، فكان من جملة كلامـه أن قال: إنّ الله ينزل إلى السماء الدنيـا كنزولي هذا،ونزل درجـة من درج المنبر، فعارضه فقيه مـالكي يعرف بابن الزاهراء، وأنكر ما تكلّم به، فقـامت العامة إلى هذا الفقيه وضربوه بالأيدي والنعال ضرباً كثيراً. (١)

نحن ومؤلّف «موقف المتكلّمين»

ألّف الشيخ سليمان بن صالح بن عبد العزيـز الغصن كتاباً باسم «**موقف المتكلّمين من الاستـدلال بنصوص الكتـاب والسنّة، عـرضاً ونقـداً**» في جـزأين، وقدّمـه إلى كلية أُصـول الدين بجامعـة الإمام محمد بن سعـود الإسلاميـة في عام ١٤١٣ هــ، لنيل درجـة الـدكتوراه في قسم العقيـدة والمذاهب المعـاصرة، وقـد حصل على مرتبة الشرف الأُولى.

وقد أدان ـ المؤلّف في خاتمة ذلك الكتاب ـ المتكلّمين بأُمور عديدة منها:

١ . يـرى المتكلمـون أنّـه لا يجوز الاستمسـاك بأخبـار الآحـاد في مسـائل العقيدة بحجّـة أنّها ظنيّة، ومسـائل العقيدة مبنـاها على القطع، وقـد تبيّن بطلان هذا الزعم وتناقضه ومخالفته لمنهج السلف. (٢)

---

١ . ابن بطوطة: الرحلة: ١١٢، طبع دار الكتب العلمية .

٢ . موقف المتكلّمين: ٢/ ٩١٨.

أقول: أراد الكاتب إدانة المتكلّمين المجاهدين في معرفة الله وصفاته، والذين وعد الله سبحانه أمثالهم بقوله: ﴿**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ**﴾[١] ، ولكنّه في الوقت نفسه مدحهم من حيث لا يشعر، لاتّباعهم الذكر الحكيم في ترك الظن في الأُصول والعقائد ، وبالتالي ترك المنهج الذي نسبه إلى السلف، وإن كان قسم من السلف بريئاً من هذه الوصمة.

٢. إنّ المتكلّمين غلوا في تعظيم العقل حتى جعلوه حاكماً على الشرع، ومقدّماً عليه عند التعارض، وحتى أوجب بعضهم على الله ـ بالعقل ـ أُموراً، ومنعوا عليه أُموراً أُخرى.[٢]

نلفت نظر الكاتب إلى أمرين :

١. انّ الوحي دليل قطعيّ، لا يتطرق إليه الخطأ والاشتباه، كما أنّ حكم العقل إذا استمدَّ حكمه من البرهان، مثله، أمر قطعي، فكيف يمكن أن يقع التعارض بين القطعيين؟! فما يُتراءى من صورة التعارض بين الوحي القرآني وما استنبطه العقل أو دلّت عليه التجربة فلا يخلو الحال من أحد أمرين:

١. إمّا أن يكون ما فهمناه من الشرع أمراً خاطئاً، دون أن يتطرّق الخطأ إلى نفس الشرع، أو يكون ما استفدناه من البرهان مغالطة، حدثت لقصور أو تقصير في المبادئ، وقد ذكرنا تفصيل ذلك في نقد الفروض العلمية الّتي ربّما يتصوّر كونها معارضة للقرآن.

نعم إذا كان المنسوب إلى الشرع أمراً ظنياً، غير قطعي، كأخبار الآحاد، فلو كان هناك تعارض بينه وبين العقل القاطع، فالمجال للثاني، لانعدام الظن

١. العنكبوت:٦٩.

٢. موقف المتكلّمين:٢/ ٩١٩.

بالقطع بخلافه .

٢. إنّ الكاتب لم يفرّق بين الإيجاب المولوي والإيجاب الاستكشافي، فخلط أحدهما بالآخر، فأمّا الأوّل فهو كفر وزندقة، فأنّى للعبد تلك المولوية حتى يكلّف ربَّه بما حكم به عقله؛ وأمّا الثاني فهو نفس التوحيد، أعني: استكشاف الآثار من المؤثرات، فإذا وقف الباحث على أنّ من صفاته سبحانه كونه عدلاً حكيماً، فيستكشف من خلال هذه الصفات أنّه بريء من الظلم والقبح، وأنّه لا يأخذ البريء بذنب غيره، وبعبارة أُخرى: يستكشف وجود الملازمة بين كونه حكيماً عادلاً وبين أن يفعل كذا وأن لا يفعل كذا.

والحقّ أنّ الكاتب أُميّ بالنسبة إلى منطق المتكلّمين ؛ فلو رجع إلى كتب المحققّين من المتكلّمين لعرف مقاصدهم، ولَما شنّ عليهم هذه الحملة العشواء.

وما ذكره من الإدانة ليس أمراً جديداً ابتكره الكاتب، وإنّما هو أمرٌ سبق إليه غير واحدٍ من خصماء العقل وأعداء البرهان وإن كانوا يتظاهرون بالعقل والتفكير منهم الرازي ؛ قال: «لا يجب على الله تعالى شيء عندنا ،خلافاً للمعتزلة فإنّهم يوجبون اللطف والعوض والثواب، والبغداديون خاصة يوجبون العقاب ويوجبون الأصلح في الدنيا.

لنا:إنّ الحكم لا يثبت إلا بالشرع ، ولا حاكم على الشرع فلا يجب عليه شيء.

والإشكال بمعزل عن التحقيق ـ وأظن أنّ الرازي كان واقفاً على وضعه ـ وقد أجاب عنه المحقّق نصير الدين الطوسي وقال: ليس هذا الوجوب بمعنى الحكم الشرعيّ كما هو المصطلح عند الفقهاء، بل هذا الوجوب بمعنى كون الفعل بحيث يستحقّ تاركه الذمّ، كما أنّ القبيح بمعنى كون الفعل بحيث

يستحق فاعله الذّم. والكلام فيه هو الكلام في الحسن والقبح بعينه، ويقولون: إنّ القادر العالم الغنيّ لا يترك الواجب ضرورةً. [١]

٣. أبطل المتكلّمون دلالات كثيرٍ من النصوص الشرعية من خلال عدة طرق، كاتّباع المتشابه والقول بالمجاز والتأويل والتفويض. [٢]

أقول: قد نسب الكاتب إلى المتكلّمين في هذه العبارة القصيرة أُموراً أهمها أمران:

١. تفويض المراد من الصفات الخبرية إلى الله سبحانه.

٢. التأويل.

الأمر الأوّل: تفويض المراد من الصفات الخبرية إلى الله سبحانه

إنّ التفويض شعار مَن يرى أنّه يكفيه في النجاة قول رسول الله ﷺ: «بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحج، وصوم رمضان»، وعند ذاك يرى أنّ التفويض أسلم من الإثبات الّذي ربّما ينتهي ـ عند الإفراط ـ إلى التشبيه والتجسيم المبغوض، أو إلى التعقيد واللغز الّذي لا يجتمع مع سمة سهولة العقيدة.

إنّ القائلين بالتفويض رأوا أنفسهم بين محذورَيْن، فمن جانب أنّه سبحانه أثبت لنفسه هذه الصفات الخبرية ولابد من إثباتها عليه سبحانه بلا كلام، ومن جانب آخر أنّ إثباتها بما لها من المعاني الإفرادية والتصورية يُشرف الإنسان على التجسيم والتشبيه، فاختاروا طريقاً للتخلّص من المحذورَيْن

---

١. النقد المحصّل: ٣٤٢.

٢. موقف المتكلّمين: ٢/ ٩١٩.

بتفويض معانيها إلى الله سبحانه مع الإيمان بمعانيها حسب ما أنزله سبحانه.

ولا يُعاب على الرجل إذا اختار طريق الاحتياط وجمع بين الواجب (الإيمان بصفات الله الخبرية) والتحرز عن مغبّة التشبيه والتجسيم.

وقد نقل نظير ذلك عن إمام السلفيّين أحمد بن حنبل يقول حنبل بن إسحاق: سألت أحمد بن حنبل: ألم ترو عن النبيﷺأنّ الله ينزل إلى السماء الدنيا؟ قال أحمد: نؤمن بها ونصدق ولا نرد شيئاً منها إذا كانت الأسانيد صحاحاً ـ إلى أن قال ـ : قلت: أنُـزُوله بعلمه أو بماذا؟ قال: اسكت عن هـذا، ما لك وهذا، معنى الحديث على ما روي بلا كيف ولا حدّ. [١]

إنّ الاعتقاد بنزوله سبحانه بلا كيف وحدّ تعبير آخر عن الاعتقاد بالنزول وتفويض واقعه إلى الله سبحانه.

ولو قلنا بتغايرهما فالقول بالتفويض أهون بمراتب من الإيمان بالنزول بلا كيف، فإنّ واقع النزول هو كيفية وتحرك النازل من مكان إلى مكان، ونفي الكيف يساوق نفي النزول أساساً، فالقول به بلا كيف أشبه بقولنا بوجود أسد لا رأس له ولا ذنب ولا مخلب.

ثم إنّ التفويض ليس إلا عقيدة قليل من المتكلّمين الذين دعاهم الاحتياط إلى ترك التدبّر في مفاهيم الصفات باللجوء إلى التفويض. وأمّا المحقّقون منهم فهم لا يعطّلون العقول عن معرفته سبحانه ومعرفة محامد أوصافه وجلائل نعوته، قائلين بأنّه سبحانه أنزل القرآن ﴿تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾[٢]، فإذا كان تبياناً لكل شيء، فكيف لا يكون تبياناً لنفسه ؟!

---

١. شرح أُصول السنّة للألكائي كما في علاقة الإثبات والتفويض: ٩٨.

٢. النحل: ٨٩.

هذا ما يتعلّق بالأمر الأوّل وهو التفـويض الّذي نسبه الكاتب إلى المتكلّمين، وقد عرفت ما هو سبب لجوء هؤلاء إلى التفـويض وإن كانوا بالنسبة إلى المحقّقين من القلّة.

وإليك تحليل الأمر الثاني:

الأمر الثاني: التأويل

قـد نسب الكـاتب إلى المتكلّمين التأويل وأردفـه بـاتّباع المتشـابـه، وكأنّ تأويلهم نوع من اتّباع المتشابه المنهي عنه في الذكر الحكيم[1]، لكن لابد من تبيين حقيقة التأويل وله صورتان:

١. حمل الآيات على خلاف ظاهرها

ربّما يُفسّر التأويل بحمل الآية على خلاف ظاهرها، جمعاً بينها وبين حكم العقل أو العلم، وبالتالي درء التعارض بين الوحي والعقل والعلم.

والتأويل بهذا المعنى مـرفوض جـدّاً، فإنّ ظاهـر القرآن حجّـة بلا كـلام، وليس لأحد أن يصرف الآية إلى خلافها إلا بـدليل قاطع مقبول عند العقلاء، كما هـو الحال في حمل العمـوم على الخصوص، والمطلق على المقيّـد، حيث إنّ عمـوم الآية أو إطلاقهـا يُخصّص أو يُقيّد بآية أُخـرى أو بالسنّة النبويـة الّتي قام الدليل على حجيتها فهذا النوع من التصرف أمر شـائع بين العقلاء، خصوصاً في مجالس التقنين والتشريع، وبما أن القرآن نـزل نجومـاً والأحكام شُرعت تـدريجاً فربما ورد العام والمطلق في برهـة وورد مخصصه ومقيده في برهة أُخـرى، وهذا يوجب الجمع

---

١. لاحظ آل عمران:٧.

بينهما بالتخصيص والتقييد، وبالتالي صرف الآية عن ظاهرها، على نحو مقبول عند عامّة الناس.

وأمّا التأويل بمعنى صرف الآية عن خلاف ظاهرها في غير مجال التقنين، فهو أمر باطل لا يسير عليه إلا الفرق الباطلة كالباطنية، وأمّا غيرهم فالجميع على حجية الظواهر في عامة المجالات.

٢. الأخذ بالظهور الجُمْلي لا الإفرادي

نعم لابد من تشخيص الظاهر الّذي يجب الأخذ به وعليه عامّة العقلاء في محاوراتهم، فالمراد من الظاهر ليس هو الظهور التصوري والإفرادي بل الظهور الجُمْلي والتصديقي، فلو قلت: رأيت أسداً في الحمّام، فالظهور الإفرادي للفظة أسد يقتضي تفسيره بالحيوان المفترس، ولكن بالنسبة إلى الظهور الجمْلي «مجموع الجملة» والتصديقي يقتضي حمله على الرجل الشجاع، يقول القائل:

أسدٌ عليّ وفي الحروب نعامة رَبْداءُ تجفُلُ من صفير الصافرِ [1]

فالجمود على الظهور الإفرادي والتصوري يقودنا إلى حمل الأسد على المعنى اللغوي، ولكنّه بالنظر إلى القرائن الحافّة بالشعر والغرض الّذي صيغ لأجله الكلام يقودنا إلى حمله على الإنسان الجبان الّذي يتظاهر بالشجاعة لدى الضعفاء ولكنّه في ساحة الحرب جبان ينزوي هارباً.

وبعبارة أُخرى: لا يشكّ أيّ متشرّع غير الباطنية من أنّه يجب الأخذ بظواهر الكتاب دون العدول عنه قيد شعرة، غير أنّ المهم هو تعيين الصغرى وأنه ما هو الظاهر، فلنأت بمثال يوضح المقصود، يقول سبحانه: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ

---

١. لعمران بن حطان السدوسي يهجو به الحجاج.

مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُوراً ﴾ . (١)

فالناظر في الآية لا يشكّ في أنّه ليس المراد هو بسط الجارحة أو قبضها، بل المراد هو المعنى المكنّى عنه وهو البخل والتقتير أو الجود والبذل الخارج عن الحدود المعتادة.

فتفسير الآية حسب ما ذكرنا تأويل صحيح بمعنى أوْل الآية وإرجاعها إلى المعنى المقصود.

وهذا رهن رفض الظهور الإفرادي والتصوري والأخذ بالظهور الجملي والتصديقي، وهو طريقة العقلاء في تفسير الكلمات فها نحن نذكر نوعاً من هذا التأويل ليُعرف ما هي طريقة المحققين في تفسير الصفات الخبرية.

أفيصح لمفسّر أن يأخذ بظاهر قوله سبحانه: ﴿**وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً**﴾ . (٢)

فإنّ في الأخذ بالظهور الإفرادي والتصوّري وضعاً للإنسان الضعيف الّذي ابتلي بالعمى وفقد البصر لعوامل وراثية أو بيئية أو ما شابه ذلك، فلا محيص من رفض الظهور الإفرادي والأخذ بالظهور التصديقي وتطبيقها على الكفّار الفاقدين للبصيرة الذين ﴿**لَهُمْ قُلُوبٌ لاَ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَ يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ**﴾ . (٣)

---

١. الإسراء: ٢٩.

٢. الإسراء: ٧٢.

٣. الأعراف: ١٧٩.

طريقة المحقّقين في تفسير الصفات الخبرية

طالما تمسّك السلف والسلفيون، بالآية التالية لإثبات الرؤية الحسّية لله، قال سبحانه:

﴿كَلا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ * وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ﴾ [١]، وقال سبحانه: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ * تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾.[٢]

إنّ هذه الآية شغلت بال المثبتين والمنكرين للرؤية، فالفرقة الأُولى تُصرّ على أنّ النظر بمعنى الرؤية، والثانية على أنّها بمعنى الانتظار.

غير أنّ الإصرار على تفسير لفظ الناظرة وأنّها هل هي بمعنى الرؤية أو الانتظار ليس أمراً مهماً، بل المهم هو التفسير الجملي لا الإفرادي.

نحن نسلم أن النظر هنا بمعناه اللغوي قطعاً، ولكن القرائن تدلّ على أنّ المراد الجدّي هو الانتظار، فاستعمل اللفظ في المعنى اللغوي ولكن صار ذريعة إلى المعنى الثاني المكنّى عنه بمعنى الانتظار، كما في قولك: (زيد كثير الرماد) في مقام المدح مشيراً به إلى سخائه، وإلا فالمعنى الإفرادي يكون ذمّاً لا مدحاً.

وبما أنّ حمل الجملة على الكناية ليس بصحيح إلا بقرائن قاطعة تقود الإنسان إليها، نعطف نظر القارئ الكريم إلى تلك القرائن:

نجد إنّ هنا آيات ست وتقابلات ثلاثة والتنظيم لها بالشكل التالي:

١. ﴿كَلاَّ بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾ يقابلها ﴿وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ﴾.

---

١. القيامة: ٢٠ـ ٢١.

٢. القيامة: ٢٢ـ ٢٥.

٢ . ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ﴾ يقابلها ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴾ .

٣ . ﴿إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ يقابلها ﴿تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴾ .

فلا شك أنّ الآيات الأربع الأُول واضحة لا غموض فيها، إنّما الإبهام وموضع النقاش هو الشق الأوّل من التقابل الثالث، فهل المراد منه جداً هو الرؤية، أو أنّها كناية عن انتظار الرحمة؟ والذي يعيّن أحد المعنيين هو أنّ ما يقابله ـ أعني: ﴿تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴾ ـ صريح في أنّ أصحاب الوجوه الباسرة ينتظرون العذاب الكاسر لظهرهم ويظنون نزوله، ومثل هذا الظن لا ينفكّ عن الانتظار، فكل ظان لنزول العذاب منتظر، فيكون قرينة على أنّ أصحاب الوجوه المشرقة ينظرون إلى ربّهم، أيّ يرجون رحمته، وهذا ليس تصرفاً في الآيات ولا تأويلاً لها، وإنّما هو رفع الإبهام عن الآية بأُختها المتقابلة وإرجاع الآية إلى معناها الواقعي، وتعيين أحد المحتملين بالأدلّة القاطعة.

وترى ذلك التقابل والانسجام في آيات أُخرى، وكأنّ الجميع سبيكة واحدة، كما في الآيات التالية:

١ . ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ﴾ يقابلها ﴿ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ﴾

٢ . ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾ يقابلها ﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾.[١]

فإنّ قوله : ﴿ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ﴾، قائم مقام قوله: ﴿إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ فيرفع إبهام الثاني بالأوّل.

٣ . ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ﴾ يقابلها ﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ * تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً﴾ .[٢]

---

١ . عبس:٣٨ـ ٤٠.

٢ . الغاشية:٢ـ٤.

٤. ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ﴾ يقابلها ﴿لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾.[1]

انظر إلى الانسجام البديع، والتقابل الواضح بينهما، والهدف الواحد. والجميع بصدد تصنيف الوجوه يوم القيامة، إلى: ناضرة، ومسفرة، وناعمة، و: باسرة، وغبرة، وخاشعة.

أمّا جزاء الصنف الأوّل فهو الرحمة والغفران، وتحكيه الآيات التالية:

﴿إِلَى رَبِّهَا نَاظِرة﴾ ، ﴿ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَة﴾ ، ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾.

وأمّا جزاء الصنف الثاني فهو العذاب، والابتعاد عن الرحمة، وتحكيه الآيات التالية:

﴿تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَة﴾ ، ﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَة﴾ ، ﴿تَصْلَى نَاراً حَامِيَة﴾.

أفبعد هذا البيان يبقى الشكّ في أنّ المراد من قوله ﴿إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ هو انتظار الرحمة!! والقائل بالرؤية يتمسك بهذه الآية، ويغضّ النظر عمّا حولها من الآيات، ومن المعلوم أنّ هذا من قبيل محاولة إثبات المدّعى بالآية، لا محاولة الوقوف على مفادها.

ويدلّ على ذلك أنّ كثيراً ما يستخدم العرب النظر بالوجوه في انتظار الرحمة أو العذاب:

وإليك بعض ما ورد:

١. وجوه بها ليل الحجاز على الهوى ... إلى ملك كهف الخلائق ناظرة
٢. وجوه ناظرات يوم بدر ... إلى الرحمن يأتي بالفلاح

١. الغاشية:٨ـ١٠.

فلا نشك أنّ قوله: «وجوه ناظرات» بمعنى رائيات، ولكن النظر إلى الرحمن كناية عن انتظار النصر والفتح.

٣. إنّي إليك لما وعدت لناظر نظر الفقير إلى الغني الموسر

فلا ريب أنّ اللفظين في الشعر وإن كانا بمعنى الرؤية، ولكن نظر الفقير إلى الغني ليس بمعنى النظر بالعين، بل الصبر والانتظار حتى يعينه.

وأوضح دليل على أنّ المراد الجدّي من النظر، ليس هو الرؤية، هو نسبة النظر إلى الوجوه لا إلى العيون، فلو أراد الرؤية الحسّية، لكان اللازم أن يقول: عيون يومئذ ناظرة، لا وجوه يومئذ ناظرة.

هذه هي طريقة المحقّقين من المتكلّمين، ولا أظن أن الإنسان البعيد عن الأهواء غير المتأثر بالبيئة والرأي المُسبق، إذا تأمّل ما ذكرنا يبقى له شك في المراد بالآية، وهذا النوع من التأويل ليس من باب فرض العقيدة على الآية ، وانّما هو استنطاق للآية بنفسها وبما يشابهها من الآيات الأُخرى.

وليس التأويل بهذا المعنى، يهدف إلى صرف الآية عن ظاهرها، بل هو عين الأخذ بالظهور الجملي، مكان الظهور الإفرادي، وإرجاع الآية إلى المراد الجدّي منها، وإخراجها عن الظهور المتزلزل إلى الظهور المستقرّ بالتدبر والتفكير فيها وما ورد حولها من الآيات الأُخرى.

تقدير لا تصويب

لسنا في هذا المقام بصدد تصويب جميع المناهج الكلامية والمسالك الفكرية، إذ كيف يمكن تصويب الجميع، مع أنّ المصيب واحدٌ؟! بل الهدف

تقدير جهـودهم الّتي بذلوها في سبيل فهم العقيدة الإسلاميـة على ضوء الكتاب والسنّة والعقل الحصيف.

ومـا أبعـد مـا بينهم وبين المتقــاعسين عن فهم العقـائد المقتصرين على الظهور الإفـرادي في فهم النصوص المقـدّسة، المؤثـرين راحة النفس على التـدبّر والتفكّر في مضامين الآيات ومداليلها.

ثَمّـةَ رجلان انطلقـا إلى جبل ليتباريـان في تسلُّقه، فلمّا رأى الأوّل شمـوخَ الجبل وعلوّ قمّتـه، ضَعُفت إرادتُه وانهارت مُنَّتُهُ، وقَعـدتْ به عن إنجاز مـا كان يسعى إليه همّتـهُ، فآثر البقـاء حيث هو في أسفل الجبل ومنحـدره، دون أن يخطوَ خطـوة واحـدة في طـريق تسلُّقـه؛ أمّا الثـاني فلم يتهيّب بُعـد القمّـة ولا شـدائد الطريق، فمضى بعـزم ومضاء، وظل يكـافح ويناضل ويبذل جهـده في الصعود والارتقاء، إلى أن استبـدّ به التعب وخـارت قُواه، فـوقف في أثناء الطـريق دون أن يبلغ القمّة ويُدرك مُناه.

إن مثَل المتكلم المجـاهـد الّـذي حـاول أن يتعـرف على أسمائه وصفـاتـه سبحـانه عن طـريق التدبّـر والتفكّر بجـدّ وإخلاص إذا أخطأ في بضع مسـائل كمثل متسلّق الجبال الّذي لم يتهيّب بُعْد القمّة ولا مصاعب الطريق فمضى بعزم ومضـاء، وإن خارت قـواه، ولم يصل إلى المقصـد الأسنى، فهـو ممدوح في جهـده وسعيه؛ وأمّا السلف والسلفيـون الذين يأخذون بظواهر الآيـات دون تدبّر وتعقّل ويحتجـون بـالظهـور الإفـرادي دون الجملي ويعتقـدون بـالظهـور التصـوّري لا التصـديقي لإراحـة أنفسهم عن تعب البحث والتفكير، فحـالهم حـال من رأى ارتفاع الجبل فآثر البقاء في أسفل الجبل ومنحدره.

فأيّهمـا أحق بالمـدح والثنـاء. وأيّهمـا أحقُ أن يشمله قـولُـه سبحانـه:

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا . . . ﴾ .(١)

السلف وتفسير الصفات الخبرية

يقول مؤلّف «موقف المتكلّمين»: يعتقد أهل السنّة (٢) إنّ الله خاطبنا بما نفهم وأراد منّا اعتقاد ظاهر النصوص «على الوجه اللائق». فنصوص الصفات مثلاً تجري على ظاهرها «بلا كيف»، كما تضافرت عبارات السلف في ذلك، فتثبت له الصفات الواردة بلا تمثيل، فلو كان ظاهر النصوص غير مراد لما خاطبنا بها ربنا تعالى ولما أمرنا بتدبّر كتابه، كما قال: ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَ لِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الأَلْبَابِ﴾ .(٣)

فعلى هذا نعلم أنّ الواجب الأخذ بظواهر النصوص وأنّه ليس هناك باطن يخالف الظاهر، فالباطن الحق عند السلف موافق للظاهر الحق، وكلّ معنى باطن يخالف ظاهر الكتاب والسنّة فهو خيال وجهل وضلال .(٤)

يؤخذ على الكاتب أُمور، منها :

١ . انّ الكاتب خلط الحق بالباطل ، وذلك لأنّ الأُمّة الإسلامية (غير الفرقة الباطنية) كلّهم يعتقدون بالأخذ بظاهر النصوص ، وليس الأخذ بالظواهر من خصائص السلف ، بل كلّ من اتّخذ القرآن دليلاً وهادياً ، يأخذ بها ، غير أنّ

---

١ . العنكبوت:٦٩.

٢ . احتكر الكاتب لفظ «أهل السنّة» وخصّه بأهل الحديث فقط، كأحمد بن حنبل وأسلافه أو أخلافه، ورأى أنّ سائر الفرق حتّى الأشاعرة ليسوا منهم .

٣ . ص :٢٩.

٤ . موقف المتكلّمين:١/ ٧٢ـ٧٣، نقله عن كتاب الدرء والتعارض:٥/ ٨٦ وكتاب إبطال التأويلات:٦ـ١٣ مخطوط.

الّذي يهمّنا هو تشخيص الظاهر، فهل المراد الظهور الإفرادي أم الظهور الجُمْلي؟ وهل المراد الظهور التصوّري أو الظهور التصديقي؟ فالسلف والسلفيّون على الأوّل، والمحقّقون على الثاني، فهم أولى بالآية التالية: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ دون المتسمّين بالسلفية، إذ ليس لهم أي شأن حول الآيات سوى الأخذ بظواهر مفردات الآية.

٢. إنّه تبعاً لأسلافه لمّا رأى أنّ الأخذ بظواهر النصوص على النحو الإفرادي والتصوّري يوجب التجسيم والتشبيه والجهة الّتي هي مذهب الزنادقة، حاول أن يفرّ من مغبّة ذلك المسلك بعبارتين:

١. تفسير النصوص في حقّه سبحانه على الوجه اللائق به.

٢. بلا تمثيل ولا كيف.

إذا كانت الوظيفة حمل النصوص على ظواهرها فما هذا التقييد ـ أعني: «اللائق به» أو «بلا تمثيل ولا كيف» ـ فإنّها قيود مبتدعة دون أن يكون لها سند في الكتاب والسنّة، وما هذا إلا لأنّ السلف والسلفيّين أبناء التشبيه والتجسيم والجهة، ولكنّهم اتّخذوا هذين التعبيرين جُنَّة للدفاع وغطاء لستر معايب منهجهم كالتشبيه والتجسيم والجهة.

السلفية ونفي المجاز

قد عرفت أنّ بعض السلف وأتباعهم يحاولون حمل الصفات الخبرية الواردة في القرآن الكريم على الله سبحانه بنفس معانيها الحرفية، ولأجل ذلك حاولوا إنكار المجاز في القرآن الكريم لئلا يكون القول به ذريعة لنفي الصفات بالمعنى اللغويّ.

يقول مؤلف «موقف المتكلمين»: إنّ البحث في المجاز لو كان أمراً لغوياً لم يكن به بأس، ولكنّه ربّما يقع سُلّماً ومطيةً لأهل البدع بتحريف بعض نصوص الشرع عن حقائقها. ولو كان مجرد اصطلاح لا يترتب عليه خوض في مسائل الشريعة لما حصل فيه خلاف كبير ولما احتدم فيه النقاش، ولكن لمّا أدرك العلماء خطورتَه وكثرةَ المتدّرعين به سارعوا إلى تحقيق القول فيه بين ضعف قواعده وقصور مباحثه.

وذكر في ذلك الفصل حجج المنكرين للمجاز قائلاً إنّ أبرزها ما يلي:

١. أنّ المجاز كذب؛ لأنّه يتناول الشيء على خلاف حقيقته، ومن المعلوم بالضرورة أنّ كلام الله تعالى كلّه حق، وكلّ حق فله حقيقة، وكل ما كان حقيقة، فإنّه لا يكون مجازاً.

٢. أنّ العدول عن الحقيقة إلى المجاز يقتضي نسبة الحاجة أو الضرورة، أو العجز إلى الله تعالى، وهذا محال على الله تعالى.

٣. أنّ الله تعالى لو خاطب بالمجاز لصحّ وصفه بأنّه متجوّز، ومستعير، وهو خلاف الإجماع.

٤. أن المجاز لا يُفهم معناه بلفظه دون قرينة، وربّما تخفى، فيقع الالتباس على المخاطب فلا يفهم مراد الله، وهذا يخالف حكمة الخطاب.[1]

هذه أدلّته على نفي المجاز لا لغاية التحقيق في اللغة، بل للتحرز عن حمل الصفات الخبرية على المعاني المجازية، وهذا يعني أنّه اتخذ موقفاً خاصاً من الصفات الخبرية وصار ذلك سبباً لإنكار المجاز، وإلا فلو دخل في البحث مجرداً عن عقيدة مسبقة لما أنكر المجاز ولما اعتمد على هذه الأدلّة الواهية الّتي تُضحك الثكلى.

---

١. موقف المتكلمين: ١/ ٤٥٩ـ ٤٦٠.

و إليك دراستها مع الاعتذار إلى القرّاء الكرام :

أمّا دليله الأوّل ـ أعني: وصف المجاز بالكذب ـ فسبحان الله كيف يصفه بالكذب وبالتالي ينكر وجوده في القرآن الكريم وهذا كتابه العزيز يشهد عليه؟!

يقول سبحانه حاكياً عن نساء مصر: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّيناً وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ للهِ مَا هَذَا بَشَراً إِنْ هَذَا إِلا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾.[١]

هل هناك إنسان يتّهم نساء مصر بالكذب، لأنهنّ نفينَ كون يوسف بشراً، بل قلن بجدٍّ، إنّه ملك كريم؟!

كلاّ ولا، لأنّ القرائن الحافّة بالكلام أوضح دليل على أنّ الوصف ادّعائي لا حقيقي.

ولذلك عادت امرأة العزيز بإدانتهن وقالت: ﴿فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾.[٢]

تريد بكلامها هذا، أنّ يوسف بما أنّه بلغ من الحسن والجمال حدّاً يليق أن يقال فيه أنّه ليس بشراً بل هو ملك، صار ذلك سبباً لغرامي وتعلّق قلبي به.

أترى أنّه سبحانه كذب في قوله: ﴿وَ مَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾.[٣]

فهو لا يريد من الأعمى في كلا الموردين المعنى الحقيقي وهو الضرير

---

١. يوسف:٣١.

٢. يوسف:٣٢.

٣. الإسراء:٧٢.

ومكفوف العينين، وانّما يريد من عَمي قَلبُه، ومن المعلوم أنّ «الأعمى» وضع للضرير، فاستعماله في غيره على نحو من المجاز.

وقال سبحانه: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾.(١)

فإنّ اللباس حسب اللغة هو ما يلبسه الإنسان ويستر به بدنه، والله سبحانه استعمله في الجوع المحيط بالإنسان، وكأنّه شمله الجوع كما يشمل اللباسُ البدنَ.

وبعبارة أُخرى: إنّه سبحانه يُخبر عن إحاطة لباس الجوع عليهم، فهل هو سبحانه ــ والعياذ بالله ـ يكذب في ذلك؟! إذ لا شكّ أنّ الجوع ليس لباساً ولم يوضعَ اللفظ له ومع ذلك يخبر عن وجود هذا اللباس، وما هذا إلا لأنّ القرائن الحافة بالكلام تُخرج الكلام عن كونه كذباً، ولا يخطر ببال أيّ مخاطب أنّه كذب، بل لو فُسّر الكلام بالمعنى الحقيقي لعاد كذباً.

وأمّا دليله الثاني، أيّ كون العدول عن الحقيقة سبباً لنسبة الحاجة إلى الله سبحانه...

يلاحظ عليه: بأنّ الله سبحانه كتب على نفسه أن يخاطب الناس عن طريق الوحي بلغتهم ويحاورهم بكلامهم، يقول سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.(٢)

---

١. النحل:١١٢.

٢. إبراهيم:٤.

فليس العدول عن الحقيقـة آية الحاجـة أو الضرورة أو العجز، بل كلّ ذلك لغـاية إفهام الناس وهدايتهم.

وأمّا الدليل الثالث، فلا ملازمـة بين كونه مستعملاً للمجاز وجواز وصفه بأنّه متجوّز أو مستعير، لأنّ أسماء الله توقيفية ويشهد على ذلك:

إنّ أفعال العبـاد عند أهل السنّة مخلـوقة لله سبحـانه، فمع ذلك لا تصحّ تسميته سبحانه بكونه آكلاً، شارباً، ضارباً، قاتلاً.

إنّه سبحانه يصـف نفسه بقوله: ﴿أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَـهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾.[١] فهل تصحّ تسميته بكونه زارعاً، ودعوته في مقام الدعاء «يا زارع؟!».

وأمّا الـدليل الرابع، فيلاحـظ عليه: أنّ من شرط استعمال المجاز احتفـافه بالقرينة الواضحة، فاستعمال اللفظ مجازاً مع اختفـاء القرينة يضادّ البلاغة، وهو لا يناسب ساحة البلغاء.

إكمال

المعروف أنّ اللفظ إن استعمـل فيما وضع له فهو حقيقـة، وإن استعمل في غيره بعلاقة معتبرة مع قرينة صارفة عن المعنى الحقيقي، فهو مجاز.

لكن المختار عنـدنا تبعاً لمشايخنا الكبـار، كالعلاّمة مجد الـدين الاصبهاني (١٢٨٦ ـ ١٣٦٢هـ)، والسيد الإمـام الخميني (١٣٢٠ ـ ١٤٠٩ هـ) رضوان الله عليهما: انّ الألفـاظ مطلقـاً حتّى في الموارد الّتي تـوصف بـالمجـاز، مستعملـة في معانيها الأصليّة وليس المعنى المجـازي، معنى مقابلاً للمعنى الحقيقي، كما يوهمه قولهم: الأسد مستعمل في الرجل الشجـاع. وجه ذلك: أنّه إذا استعمل اللفظ في

---

١. الواقعة: ٦٤.

معناه الأصلي ولم يكن هناك أيّ ادّعاء، يوصف الاستعمال بالحقيقة، وإن استعمل في نفس معناه الأصلي، وكان مقروناً بادّعاء أنّ المورد من مصاديق ذلك المعنى الأصلي يوصف بالمجاز.

مثلاً استعمل لفظ «ملك» في قوله: ﴿مَا هَذَا بَشَراً إِنْ هَذَا إِلا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾[1] في نفس معناه الأصلي مدّعياً بأنّ يوسف من مصاديقه. والّذي يُضفي على الكلام حسناً وجمالاً، هو نفس ذلك الادّعاء، وإلا فلو استعمل لفظ «ملك» في يوسف بلا توسيط معناه الأصلي وبلا ادّعاء أنّه من مصاديقه، لسقط الكلام عن قمّة البلاغة، ولم يبق للتعجب وجه.

فلو قال القائل: إني قاتلت في جبهات القتال أسداً هصوراً، أو قابلت أمس قمراً منيراً. وهو لم يقابل إلا رجلاً شجاعاً باسلاً، أو وجهاً صبيحاً، فلا يريد بكلامه هذا اللقاء، بهذين الشخصين بلا توسيط المعنى الأصلي بل يستعملهما في معناهما الأصليين لكن بادّعاء أنّ الموردين من مصاديق الأسد، والقمر.

وهذا الشاعر، يمدح محبوبته متعجباً ويقول:

قامت تُظلِّلُني ومن عجبٍ شمس تُظلِّلُني من الشمس

وإنّما يصحّ أن يتعجّب إذا استعمل لفظ الشمس في نفس معناها الحقيقي، أعني: النيّر الكبير، فعند ذلك صحّ أن يتعجب، ان شمساً (محبوبته) قامت تظلّله من الشمس.

وهنا يظهر حال الكناية وإن جعلها الأُدباء قسيماً ثالثاً للحقيقة والمجاز، وذلك لأنّ الألفاظ في الكنايات أيضاً مستعملة بالإرادة الاستعمالية في معانيها الأصلية لكن صار ذلك سبباً لتعلّق الإرادة الجدية بشيء آخر، وهو لازم المعنى

---

١. يوسف:٣١.

الأصلي، كلّ ذلك بالقرائن الحالية أو المقالية .

مثلاً من ألفاظ المدح عند العرب. قولهم: فلان طويل النجاد، أو كثير الرماد؛ والأوّل كناية عن طويل القامة، والثاني عن كثرة الضيافة، كلّ ذلك بعلاقة الملازمة بين المعنى الاستعمالي والمعنى الجدي. والمسوّغ للاستعمال هو كون المتكلّم في مقام المدح، ولأجل ذلك ربّما يستعمل «طويل النجاد» في من لم يشتمل سيفاً طول عمره ولم يصاحب عاتقه نجاداً.

السلفية وتفسير الصفات الخبرية

إنّ السلفيّين يصفونه سبحانه بالصفات التالية، معتمدين في ذلك حسب زعمهم على الذكر الحكيم وهي:

١ . العلو .

٢ . الاستواء.

٣ . النزول.

٤ . الإتيان والمجيء.

٥ . الغضب والضحك.

٦ . الوجه.

٧ . العين.

٨ . اليدان.

٩ . القدم.

١٠ . الرؤية.

وعلى هذا فالله سبحانه مستوٍ على عرشه وجالس عليه، وأنّه خلق آدم

بيـديـه، وهـو ينـزل إلى السماء الـدنيـا في الثلث الأخير من الليل، ويأتي ويجيء، ويغضب ويضحك، ويراه الإنسان بأُم عينيـه، إلى غير ذلك من الصفات، فهو ـ جلّ اسمه ـ يوصف بها بنفس المعـاني الحرفية واللغـويّة، وأقصى ما عندهم في تنزيه الرب أنّه موصوف بها «بلا كيف»، و «حسب ما يليق بساحته».

وبما أنّ دراسـة جميع هذه الأوصـاف الواردة في الكتـاب والسنّة على نحـو يقلع الشبهة عن أذهان المغرورين بكتبهم ورسائلهم، تتطلّب تأليف كتاب مفرد، فنقتصر هنا على إيضـاح صفتين وردتا في الـذكر الحكيـم، لأنّهم يعتمدون عليهما أكثر من سائر الصفات.

الأُولى: الاستواء على العرش

نقول: ورد استـواؤه على العرش في غير واحـد من السور [1]، ونحن نذكر آيتين ونحيل الباقي إلى القارئ الكريم:

قال سبحانه: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّام ثُمَّ اسْتَـوَى عَلَى الْعَرْشِ يُـدَبِّرُ الأَمْـرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلا مِنْ بَعْـدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّـهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾. [2]

وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّام ثُمَّ اسْتَـوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَـارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثـاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُـومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَ الأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾. [3]

---

١. الرعد:٢، الفرقان:٥٩، السجدة:٥، غافر:١٥، طه:٥، باختلاف يسير.

٢. يونس:٣.

٣. الأعراف:٥٤.

إنّ هؤلاء ـ الذيـن يتبرّأون من المشبِّهة والمجسِّمـة (ولكنهم منهم) ويتستّـرون بـ «البلكفة» أو «مـا يليق بساحتـه سبحانـه» ـ أخذوا بحـرفية قـوله سبحـانه: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ والظهور التصـوري المتزلـزل وتركـوا الظهور التصـديقي المستقرّ.

قال مـؤلّف «موقف المتكلّمين»: روي عن ابن مسعود رضي الله عنـه قال: والعرش فوق الماء والله فوق العرش لا يخفى عليه شي ء من أعمالكم.[١]

وعن الأوزاعي قال: كنّا والتابعون نقول إنّ الله على عرشه، ونؤمن بما وردت به السُّنّة.[٢]

وذكر ابن القيّم: أنّـه روى غير واحد بـاسناد صحيح عن عبـد الرحمن بن مهـدي أنّـه قال: إنَّ الجهميـة أرادوا أن ينفـوا أن الله كلّم مـوسى وأن يكـون على العرش، أرى أن يُستتابوا، فإن تابوا وإلا ضُربت أعناقهم.[٣]

إلى غير ذلك من الكلمات الظاهرة في التجسيم، وأنّه سبحانه في السماء لا في الأرض، يجلس على سريره ينظر إلى ما دون العرش ولا تخفى عليه أعمال عباده.

هـؤلاء بدلَ أن يتـدبّروا في نفس الآيـات الوارد فيهـا الاستواء على العـرش ويرجعـوا إلى عقولهم، لاذوا بكلمات السلف غير المعصومين ثم أوعـدوا المخالف بالسيف، كما في كلام ابن القيّم.

وأمّا المحقّقون الَّذين يتدبّرون القرآن حسـب ما أمر به الذكرُ الحكيم، فقد رجعـوا إلى نفس الآيات وتـدبّروا الجملَ الحافّـة بهذه الجملة، ثم قـاموا بتفسيرهـا

---

١. التمهيد، لابن عبد البر: ٧/ ١٣٩.

٢. الأسماء والصفات للبيهقي: ٥١٥.

٣. الفتوى الحموية: ٥/ ٤٠.

وخرجوا بالتنزيه لا بالتجسيم، وإليك البيان :

إنّ الآية الأُولى تتحدث عن الأُمور التالية:

١ . إن ربّكم هو الّذي خلق السماوات والأرض.

٢ . خلقهما في ستة أيام.

٣ . ثم استوى على العرش.

٤ . يدبّر أمر الخلقة وليس هنا مُدّبر سواه.

٥ . لو كان هناك شفيع (علّة مؤثرة في الكون) لا يشفع ولا يؤثّر إلا بإذنه.

٦ . هذا هو رَبُّنا الّذي فرضت علينا عبادتهُ.

هذا هو حال الآية الأُولى.

وأمّا الآية الثانية، فتتحدث عن الأُمور التالية:

١ . إنّ ربّكم هو الّذي خلق السماوات والأرض.

٢ . خلقهما في ستة أيام.

٣ . ثم استوى على العرش.

٤ . يُغشي الليل النهار، يغطّي كلاً منهما بالآخر ويأتي بأحدهما بعد الآخر.

٥ . يطلبه حثيثاً فيدركه سريعاً.

٦ . والقمر والنجوم مسخرات بأمره. مذلّلات جاريات في مجاريهنّ بأمره وتدبيره.

٧ . ألا له الخلق والإيجاد والإبداع.

٨ . والأمر: أمر التدبير أو أمره في خلقه بما أحبّ .

٩ . تبارك الله رب العـالمين : تعاظم الله رب العالمين تعالى فيمـا لـم يزل ولايزال .

نعود مرّة أُخرى ونتدبّر هذه المقاطع، فنجد أنّ قائل هذه الجُمَل ـ عزّ اسمه ـ يتحدّث عن عظمتـه وأنّه الخالق، خالق العالم ومدبّره، وأنّـه خلقه في ستة أيّام، ويغشي الليل النهار، وهـو يطلبه، وأنّ الشمس والقمر والنجوم مسخـرات بأمره، وليس هناك من خـالق ومدبّر إلا هـو، ولا مؤثّر في الكـون إلا بإذنه، ثم رتّب على ذلك تارة وجوب عبادته، لكونه القائم بالخلق والتدبير والأمر، فتجب عبادته دون غيره كما في الآية الأُولى؛ وأُخرى تعظيمه وتنزيهه كما في الآية الثانية.

ما ذكرنـاه خلاصة مضمون الآيتين ، فعندئذ يجب أن تكون هنـاك مناسبة ذاتية بين استوائه على العرش والإخبار عن هذه الأُمور الكونية ، فلو فُسّر الاستواء بمعنى الجلوس على العرش ، تفقد الجملة المناسبة وتصبح جملة فاقدة الصلة بما قبلها وما بعدها .

فما هي المنـاسبة بين التحدّث عن عظمـة الخلقة وسعتها ومـا فيها من السنن الكـونيـة والتحـدّث عن جلـوسـه على السـريـر، وهـذا هـو الّـذي دفع المحقّقين إلى التـدبّر في الآيـة حتى يفسّروهـا بالظهـور التصديقي لا بـالظهور التصوّري ، وبالظهور الجُملي لا بالظهور الإفرادي . وهذا يتحقّق بأمرين :

أ. تفسير الاستواء بالاستيلاء ، لا بالجلوس والاستقرار .

ب. جعل العرش كناية عن السلطة والقدرة، لا بمعنى السرير .

أمّا الأوّل: فقد استعمل في اللغـة العربية لفظ الاستيـلاء بمعنى الاستواء، قال الأخطل يمدح بشراً أخا عبد الملك بن مروان حين تولّى إمرة العراقيين:

قد استوى بِشر على العراق   من غير سيف ودم مهراق

فالحمد للمهيمن الخلاق

فليس المراد من الاستواء الجلوس أو الاستقرار، بل التمكّن والاستيلاء التام والسيطرة على العراقيين وكسح كل مزاحم ومخالف. وإلا فالجلوس المجرّد على السرير، لا يكون مدحاً.

وقال الطرمّاح بن حكيم:

طال على رسم مهدد أبده   وعفا واستوى له بلده

والمراد استقام له الأمر واستتب.

وقال شاعر آخر:

فلمّا علونا واستوينا عليهم   تركناهُمُ صرعى لنسر وكاسر

حتّى أنّ لفظة «استويت» في قوله سبحانه مخاطباً نوحاً عليه السلام: ﴿**فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ للهِ الّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**﴾.[1] ليس بمعنى الركوب على الفلك أو الجلوس عليه، بل المراد إذا تمكّنت من الفلك على نحو صار زمامها بيدك. ولذلك فسره السيوطي بـ «اعتدلت».

ومثله قوله تعالى: ﴿**وَ الذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَ الأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ * لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ**

---

١. المؤمنون:٢٨.

﴿وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ .[١]

فليس المراد من الاستواء هو الجلوس في الفلك أو الركوب على ظهر الأنعام، بل المراد هو التسلّط على الفلك والأنعام والاستيلاء عليها، بشهادة أنّه سبحانه يأتي بالاستواء بعد الركوب ويقول: **﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ * لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ﴾**، فهو يُعرب على أنّ الاستواء غير الركوب.

فليس الاستواء مجرد الجلوس والركوب، بل هو السيطرة والسلطة على الشي ء ولكن كُلٌّ بحسبه، فاستواء الإنسان على الفلك والأنعام سيطرته عليهما بحيث يوجهها إلى أي صوب شاء، كما أنّ استواءه سبحانه على العرش (سيوافيك معنى العرش) هو استيلاؤه وسيطرته على عالم الإمكان بحيث لا يشذ عن إرادته شي ء.

ولأجل هذه السيطرة والاستيلاء فهو يُدبّر العالم بعد الإيجاد فهو خالق ومسيطر على الأُمور والكل«مُدبَّر».

وأمّا الثاني: أي تفسير العرش

نقول: إنّ العرش حسب اللغة هو السرير، ولكن بما أنّ الملوك يجلسون عليه ويدبّرون من فوقه ملكهم ويُصدرون منه أحكامهم، صار العرش مظهر القدرة والسلطة وسبباً لأن يُكنّى به عنهما بقول الشاعر:

إذا ما بنو مروان ثلّت عروشُهم ... وأوْدَتْ كما أودتْ إيـاد وحمير

فليس المراد تهدّم العروش الّتي كانوا يجلسون عليها، بل كناية عن زوال الملك والسيطرة وانقطاع سلطتهم.

---

١. الزخرف:١٢ـ١٣.

ويقول الآخر:

ان يقتلوك فقد ثللت عروشهم بعتيبة بن الحارث بن شهاب

والله سبحانه أخرج كلامه على المتعارف من كلام العرب حيث يقولون:

استوى الملِك على عرشه: إذا انتظمت أُمور مملكته، وإذا اختلّ أمر ملكه قالوا: ثُلَّ عرشه، وربّما لا يكون له سرير، ولا يجلس على سرير أبداً.

وحصيلة الكلام: إنّ الملاحظة الدقيقة للآيات الّتي ورد فيها استيلاؤه سبحانه على العرش تكشف عن أنّه لا يُراد منه الجلوس والاستقرار عليه، بل المراد هو السيطرة والتمكّن من صحيفة الكون والخلقة، وأنّها بعد الخلقة في قبضة قدرته و حوزة سلطنته لم تفوّض لغيره.

ولأجل ذلك يذكر في سورة يونس بعد هذه الجملة أمر التدبير ويقول: يدبِّر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه معرباً عن أنّه المدبِّر لأمر الخلقة، وذلك لاستيلائه على عرش ملكه. فمن استولى على عرش ملكه يقوم بتدبيره، ومن ثلّ عرشه أو زال ملكه أو انقطع عنه لا يقدر على التدبير. ولكنّه سبحانه في سورة الأعراف يذكر بعد هذه الجملة كيفيّة التدبير و يقول: ﴿**يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ألا لَهُ الخَلْقُ وَالأمْرُ**﴾فهذه الجمل (بما أنّها تعبّر عن تدبيره صحيفة الكون، وكونه مصدراً لهذه التدبيرات الشامخة) دليل على أنّه مستول على ملكه، مهيمن عليه، مسيطر على ما خلق ولم يخرج الكون عن حوزة قدرته، ومثله سائر الآيات الواردة فيها تلك الجملة، فإنّك ترى أنّها جاءت في ضمن بيان فعل من أفعاله سبحانه. ففيها دلالات على «التوحيد في التدبير» الّذي هو أحد مراتبه.

وأمّا إذا فسّرنـا الاستواء بـالجلوس ، والعـرش بالكـرسي الّذي يتربّع عليـه الملوك، يكون المعنى غير مرتبط بما ورد في الآية من المفـاهيم، كما تقدّم، إذ أيّ مناسبة بين التربّع على الكرسي المادي والقيام بهذه التدابير الرفيعة؟ فإنّ المصحِّح للتدبير هو السيطرة والهيمنـة على الملك وهو لا يحتاج إلى التربّع والجلـوس على الكرسي، بل يتوقّف على سعة ملكه و نفوذ سلطته.

والمعطّلة (الذين عطّلوا عقولهم عن التدبّر والتفكير)، يحسبون أنّ ما ذكرناه تأويل، لأنّـه مخالـف للظهـور الإفـرادي، حيث لفظ «العــرش» بإفـراده بمعنى «السرير» لا السلطة والسيطرة على الملك، لكنّـك عرفت أنّ الميزان في تفسير الآية هو الظهور «الجُمْلي» والتصديقي بمعنى التدبّـر في مجموع الجملة وما يدل عليه ـ بعد رعاية السيـاق وغيره من القرائن ـ وعليه، فليس ما ذكرنـاه تأويلاً، بل إرجاع الآية إلى واقعها، وإخـراج لها من الظهور المتزلزل (الإفـرادي) إلى الظهور المستقرّ (التصديقي) كما هو المتعارف في تفسير سـائر الآيات وكلمات البلغاء والفصحاء بل عامة العقلاء. وليس التأويل المقبـول إلا إرجاع الآية إلى معناها، كما أنّ تأويل الرؤيا في الذكر الحكيم، هو إرجاعها إلى واقعها وجذورها.

۲. خلق سبحانه آدم بيديه

قد تعرّفت على مفاد قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾وأنّه لا يدلّ على ما يرومه ابن تيمية وأتباع مسلكـه من أنّه سبحانه يجلس على سريره الخاص، وأنّه ينظر إلى العالم من فوق عرشه .

بقي الكلام في تفسير قـوله: ﴿يَا إِبْلِيـسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَـا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ .[1]

---

۱. ص:۷٥.

قال ابن تيميـة: إنّ لله يدين مختصتين ذاتيتين ـ كما يليق بجـلاله ـ وإنّه سبحـانه خلق آدم بيده... .[١]

فابن تيميـة يحمل اليدين على المعنى الإفرادي، جموداً على الظهـور البدائي دون أن يتدبّر في القـرائن الحافّة بالآية، التي تعطـي للآية مفاداً آخـر، وهو نتيجة الظهور التصديقي.

وممّا تقـدّم من أنّ الميزان هو الظهـور المستقرّ لا المتزلـزل، يجب الإمعان في موقف الآية وهـدفها، وليس لنا صرف الآية عن ظهورهـا بتوهّم أنّه يخالف حكم العقل كما مرّ عليك، ولو كان هناك تعارض فهـو بدائي مرتفع بأحد الأمرين: إمّا لأجل تطرق الخطأ إلى فهم المفسّر في تبيين مفاد الآيـة، أو طروء القصور والتقصير على العقل في مبادئ البرهان.

وعلى ضوء ذلك لا محيص من القول بأنّ اليـدين في الآية بمعنى الجارحة، لكن اللفظ كنـايـة عن لازمـه وهـو الاهتمام بخلقـة آدم، حتى يتسنّى بـذلك ذم إبليس على ترك السجود لآدم فقـوله سبحانه: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ كناية عن اهتمامه سبحانـه بهذا المخلوق، وانّه لم يكن مخلوقاً لغيري حتّى يصحّ لك يا شيطـان تجنّب السجود له، بحجّة أنّـه لا صلة له بي، مع أنّه مـوجود خلقتـهُ بنفسي، ونفختُ فيـه من روحي، فهـو مصنـوعي و مخلـوقي الّـذي قمت بخلقه، فمع ذلك تمرّدت عن السجود له.

فأُطلقت الخلقة باليد و كنّي بها عن قيامه سبحانه بخلقه، وعنايته بإيجاده، وتعليمه إيّـاه أسماءه، لأنّ الغالب في عمل الإنسان هـو القيام به بـاستعمال اليد،

---

١. مجموعة الفتاوى:٦/ ٣٦٢.

يقول: هذا ما بنيته بيدي، أو ما صنعته بيدي، أو ربّيته بيدي، ويراد من الكلّ هو القيام المباشري بالعمل، و ربّما استعان فيـه بعينه و سمعه و غيرهما من الأعضاء، لكنّه لا يـذكرهـا و يكتفي باليـد، وكأنّه سبحـانه ينـدِّد بالشيطان بأنّـك تركت السجود لموجود اهتممت بخلقه و صنعه.

و نظير ذلك قوله سبحانه: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾[1]، فالأيدي كناية عن تفـرّده تعالى بخلقها، لم يشركه أحد فيها. فهي مصنوعة لله تعالى والنـاس يتصرّفون فيها تصرف المـلاك، كأنّها مصنـوعة لهم، فبـدل أن يشكـروا يكفرون بنعمتـه. وأنت إذا قـارنت بين الآيتين تقف على أنّ المقصود هو المعنى الكنائي، والمدار في الموافقة والمخالفة هو الظهور التّصديقي لا التصوّري.

قال الشريف المرتضى: «قوله تعالى:﴿ لما خلقت بيديّ﴾ جار مجرى قوله «لما خلقت أنـا»، و ذلك مشهور في لغـة العرب، يقول أحـدهم: هذا مـا كسبت يداك، ومـا جرّت عليك يداك. و إذا أرادوا نفي الفعل عن الفاعل استعملـوا فيه هذا الضرب من الكلام فيقولون: فلان لا تمشي قدمه، ولا ينطق لسانه، ولا تكتب يـده، وكـذلك في الإثبـات، ولا يكـون للفعل رجـوع إلى الجوارح في الحقيقـة بل الفائدة فيه النفي عن الفاعل».

وقس على ما ذكـر سائر الموارد البـاقية التي أوعزنـا إلى عناوينهـا في صدر البحث.

فابن تيمية وأتباعه يأخذون بحرفية المعنى، والظهور البدائي دون التدبّر في الظهور التصديقي، وما يعطيه السياق أو سائر القرائن.

---

١. يس: ٧١.

بين التجسيم والتعقيد

قد عـرفت أنّ ابن تيمية وأتباعـه يفسّرون الصفات الخبرية بنفس معـانيها الإفرادية، ولمّا كـان القول به ملازماً للتجسيم والتشبيه تـدرّعوا، بلفظ «بلا كيف» أو «ممّا يليق بسـاحته» أو ما أشبهه. وصـار ذلك سبباً لاتّسام العقيدة الإسـلامية بالتعقيد، مع أنّ العقيدة الإسلامية متّسمة بالسهولة والوضوح.

ذلك لأنّ اليد والوجه والرِّجل موضوعة للأعضاء الخاصة في الإنسان ، ولا يتبادر منهـا إلا ما يتبادر عنـد أهل اللغة، وحينئذٍ فإن أُريـد منها المعنى الحقيقي يلزم التشبيه، وإن أُريد غيره فذلك الغير: إمّا معنى مجازي أُريد من اللفظ بحسب القرينة فيلزم التأويل، وهم يفرّون منـه فرار المزكوم من المسك، وإمّا شي ء لا هذا ولا ذاك، فما هـو ذلك الغير؟ بيّنوه لنـاحتى تتّسم العقيدة بـالوضـوح والسهولـة، ونبتعـد عن التعقيد والإبهام، وإلا فـالقـول بأنّ لـه وجهاً لا كـالـوجوه، ويـداً لا كالأيـدي، ألفاظ جوفـاء وشعارات خـداعة لا يستفاد منهـا شي ء سوى تخديش الأفكار وتضليلها عن جادة الصواب.

وبـاختصـار: إنّ المعنى الصحيح لا يخرج عن المعنى الحقيقي والمجـازي، وإرادة أمر ثـالث خارج عن إطـار هذين المعنيين يعدّ غلطـاً وباطـلاً، وعلى هذا الأساس لو أُريد المعنى الحقيقي لزم التشبيه بلا إشكال، ولو أُريد المعنى المجازي لـزم التأويل، والكلّ ممنـوع عنـدهم، فما هـو المراد من هذه الصفـات الـواردة في الكتاب والسنّة؟!

إنّ ما يلهجـون به ويكرّرونـه من أنّ هذه الصفات تجري على الله سبحـانه بنفس معانيها الحقيقيـة ولكن الكيفية مجهولة، أشبـه بالمهزلة، إذ لو كـان إمرارها على الله بنفس معـانيها الحقيقيـة لـوجب أن تكون الكيفيـة محفـوظة حتى يكـون

الاستعمال حقيقياً، لأنّ الواضع إنّما وضع هذه الألفاظ على تلك المعاني التي يكون قوامهابنفس كيفيتها،ويكون عمادها وسنادها بنفس هويتها الخارجية، فاستعمالها في المعاني، حقيقة بلا كيفية، أشبه بقولنا أسد، لكن لا ذنب له ولا مخلب ولا ولا...

فقولهم:«المراد هو أنّ لله يداً حقيقة لكن لا كالأيدي»أشبه بالكلام الذي يناقض ذيله صدره.

عفا الله عنّا وعنهم، فللّه درّ الشيخ محمود صاحب الكشاف فقد عرفهم بقوله:

قد شبّهوه بخلقه وتخوّفوا   شنَعَ الورى فتستروا بالبلْكفة

كلمة شيخ الأزهر

الشيخ سليم البشري[1]

حول الصفات الخبريّة

ونحن نختم هذا البحث بذكر كلمة شيخ الأزهر الشيخ سليم البشري كتبه حول سؤال رفعه إليه الشيخ أحمد علي بدر شيخ معهد «بلصفورة» وإليك خلاصة السؤال:

ما قولكم ـ دام فضلكم ـ في رجل من أهل العلم يتظاهر باعتقاد ثبوت جهة الفوقية لله سبحانه و تعالى و يدّعي أنّ ذلك مذهب السلف، وتبعه على ذلك بعض الناس وجمهور أهل العلم ينكرون ذلك، والسبب في تظاهره بهذا المعتقد عثوره على كتاب لبعض علماء الهند نقل فيه صاحبه كلاماً كثيراً عن ابن تيمية في إثبات الجهة للباري سبحانه وتعالى و يخطّئ أبا البركات ـ رضي الله عنه ـ في قوله: في خريدته:

منـــزه عـــن الحلـــول والجهـة والاتصـــال والانفصـــال والسفـه

---

١. تولّى مشيخة الأزهر مرّة بعد أُخرى، توفّي عام ١٣٣٥هـ.ق.

يخطئه في موضعين من البيت قوله: والجهة، وقوله: والانفصال.

والشيخ اللقاني في قوله:

ويستحيل ضدّ ذي الصفات

في حقّه كالكون في الجهات

وبالجملة هو مخطّئ لكلّ من يقول بنفي الجهة مهما كان قدره.

ولا يخفى على فضيلتكم أنّ الكلام في مسألة الجهة شهير، إلاّ أنّه من المعلوم أنّ قول فضيلتكم سيما في مثل هذا الأمر هو الفصل، وأرجو أن يكون عليه إمضاؤكم بخطكم والختم ولا مؤاخذة، لازلتم محفوظين ولمذهب أهل السنّة والجماعة ناصرين آمين.

نصّ الجواب

وقد كتب إليه شيخ الأزهر جواباً لسؤاله وهذا نصّه:

إلى حضرة الفاضل العلاّمة الشيخ أحمد علي بدر خادم العلم الشريف ببلصفورة:

قد أرسلتم بتاريخ ٢٢محرم سنة ١٣٢٥هـ مكتوباً مصحوباً بسؤال عن حكم مَن يعتقد ثبوت الجهة له تعالى، فحررنا لكم الجواب الآتي وفيه الكفاية لمن اتّبع الحق وأنصف، جزاكم الله عن المسلمين خيراً.

«اعلم أيدك الله بتوفيقه وسلك بنا وبك سواء طريقه، أنّ مذهب الفرقة الناجية وما عليه أجمع السنّيون أنّ الله تعالى منزّه عن مشابهة الحوادث، مخالف لها في جميع سمات الحدوث، و من ذلك تنزهه عن الجهة والمكان كما دلّت على ذلك البراهين القطعية، فإنّ كونه في جهة يستلزم قدم الجهة أو المكان وهما من العالم،

وهو ما سوى الله تعالى، وقد قام البرهان القاطع على حدوث كلّ ما سوى الله تعالى بإجماع من أثبت الجهة ومن نفاها، ولأنّ المتمكن يستحيل وجود ذاته بدون المكان مع أنّ المكان يمكن وجوده بدون المتمكن لجواز الخلاء، فيلزم إمكان الواجب ووجوب الممكن، وكلاهما باطل، ولأنّه لو تحيز لكان جوهراً لاستحالة كونه عرضاً، ولو كان جوهراً فإمّا أن ينقسم و إمّا أن لا ينقسم، وكلاهما باطل، فانّ غير المنقسم هو الجزء الذي لا يتجزأ وهو أحقر الأشياء، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

والمنقسم جسم وهو مركّب والتركيب ينافي الوجوب الذاتي، فيكون المركّب ممكناً يحتاج إلى علّة مؤثرة، وقد ثبت بالبرهان القاطع أنّه تعالى واجب الوجود لذاته، غنيّ عن كلّ ما سواه، مفتقر إليه كلّ ما عداه، سبحانه ليس كمثله شيء وهو السّميع البصير....

هذا وقد خذل الله أقواماً أغواهم الشيطان وأزلّهم، اتّبعوا أهواءهم وتمسّكوا بما لا يجدي فاعتقدوا ثبوت الجهة تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً.

واتّفقوا على أنّها جهة فوق إلاّ أنّهم افترقوا؛ فمنهم من اعتقد أنّه جسم مماس للسطح الأعلى من العرش، وبه قال الكرامية واليهود، وهؤلاء لا نزاع في كفرهم.

ومنهم من أثبت الجهة مع التنزيه، وأنّ كونه فيها ليس ككون الأجسام، وهؤلاء ضلاّل فسّاق في عقيدتهم، و إطلاقهم على الله ما لم يأذن به الشارع، ولا مرية أنّ فاسق العقيدة أقبح وأشنع من فاسق الجارحة بكثير سيما من كان داعية أو مقتدى به. وممّن نسب إليه القول بالجهة من المتأخّرين أحمد بن عبد الحليم بن

عبد السلام بن تيمية الحراني الحنبلي الـدمشقي من علماء القرن الثامن، في ضمن أُمور نسبت إليه خالف الإجماع فيها عملاً برأيه، وشنّع عليه معاصروه، بل البعض منهم كفّروه، ولقى من الذل والهوان ما لقى، وقد انتدب بعض تلامذته للذب عنه وتبرئته ممّا نسب إليـه وساق له عبارات أوضح معناهـا، وأبان غلط الناس في فهم مراده.

واستشهد بعبـارات له أُخرى صريحة في دفع التهمة عنـه، وأنّه لم يخرج عمّا عليه الإجماع، وذلك هو المظنون بالرجل لجلالة قدره ورسوخ قدمه، وما تمسّك به المخالفون القائلـون بالجهة أُمور واهية وهمية، لا تصلح أدلّـة عقلية ولا نقلية، قد أبطلها العلماء بما لا مزيد عليه، وما تمسكوا به ظواهر آيات وأحاديث موهمة:

كقوله تعالى: ﴿**الرَّحْمٰنُ عَلى الْعَرش اسْتَوىٰ**﴾، وقوله: ﴿**إليهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّب**﴾، وقولـه: ﴿**تَعرجُ المَـلائكة وَالـرُّوح إليه**﴾، وقولـه: ﴿**أأَمِنتُمْ مَـنْ فِي السَّماء أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرض**﴾، وقوله: ﴿**وَهُوَ الْقاهِرُ فَوقَ عِبادِهِ**﴾.

وكحديث: «إنّه تعالى ينزل إلى سماء الدنيا كلّ ليلة».

وفي رواية « في كلّ ليلـة جمعة فيقـول هل من تائب فأتـوب عليه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟».

و كقوله للجاريـة الخرساء: «أين الله فأشارت إلى السماء» حيث سأل بأين التي للمكان ولم ينكر عليها الإشارة إلى السماء، بل قال إنّها مؤمنة.

ومثل هذه يجاب عنها بأنّها ظـواهر ظنيّة لا تعارض الأدلّـة القطعية اليقينيّة الدالّة على انتفـاء المكان والجهة، فيجب تأويلها وحملهـا على محامل صحيحة لا تأباها الدلائل والنصوص الشرعية، إمّا تأويلاً إجمالياً بلا تعيين للمراد منها كما هو

مذهب السلف، وإمّا تأويلاً تفصيلياً بتعيين محاملها وما يراد منها كما هو رأي الخلف، كقولهم: إنّ الاستواء بمعنى الاستيلاء كما في قول القائل:

قد استوى بشر على العراق

من غير سيف ودم مُهراق

وصعود الكلم الطيب إليه قبوله إيّاه ورضاه به، لأنّ الكلم عرض يستحيل صعوده، وقوله: من في السماء: أي أمره وسلطانه أو ملك من ملائكته موكّل بالعذاب.

وعروج الملائكة والروح إليه صعودهم إلى مكان يتقرب إليه فيه. وقوله: فوق عباده أي بالقدرة والغلبة، فإنّ كلّ من قهر غيره وغلبه فهو فوقه، أي عال عليه بالقهر والغلبة، كما يقال: أمر فلان فوق أمر فلان، أي أنّه أقدر منه وأغلب.

ونزوله إلى السماء محمول على لطفه ورحمته وعدم المعاملة بما يستدعيه علوّ رتبته وعظم شأنه على سبيل التمثيل، وخصّ الليل لأنّه مظنّة الخلوة والخضوع وحضور القلب.

وسؤاله للجارية بـ«أين» استكشاف لما يظن بها اعتقاده من أينية المعبود كما يعتقده الوثنيون، فلمّا أشارت إلى السماء فهم أنّها أرادت خالق السماء، فاستبان أنّها ليست وثنية، وحكم بإيمانها. وقد بسط العلماء في مطولاتهم تأويل كلّ ما ورد من أمثال ذلك، عملاً بالقطعي وحملاً للظني عليه، فجزاهم الله عن الدين وأهله خير الجزاء.

ومن العجيب أن يدع مسلم قول جماعة المسلمين وأئمّتهم ويتمشدق

بترّهات المبتدعين وضـلالتهم. أما سمعوا قـول الله تعالى: ﴿**وَمَنْ يَتَّبع غير سَبيلِ المُؤْمنين نُـولّه ماتَـولّى وَنُصْلهِ جَهَنَّم وَسـاءَتْ مَصيراً**﴾ فليتب إلى الله تعــالى من تلطخ بشيء من هذه القاذورات ولا يتبع خطوات الشيطان فـانّه يأمر بالفحشاء والمنكر، ولا يحملنـه العناد على التمادي والإصرار عليه فـانّ الرجـوع إلى الصواب عين الصواب والتمادي على الباطـل يفضي إلى أشدّ العذاب ﴿**مَنْ يَهْدي اللهُ فَهُوَ الْمُهْتد وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِـدْ لَهُ وَلِيّاً مُـرشِداً**﴾ نسأل الله تعـالى أن يهدينا جميعـاً سواء السبيل وهو حسبنا ونعم الوكيل، وصلّـى الله تعالى و سلّم على سيّدنا محمّد وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أمـلاه الفقير إليه سبحـانه (سليم البشري) خـادم العلم والسادة المالكيـة بالأزهر عفا عنه آمين آمين.[١]

اقتراح

وفي الختام نوصي رؤسـاء الطوائف الإسلامية بـالابتعاد عن العصبية وعن الآراء التي ورثوهـا عن أُناس غير معصومين، وبالاستعـداد لإجراء الحوار الهادئ فيم اختلف فيه كلمة المحقّقين من العلماء حتّى يرتفع كثير من الخلافات النابعة من تقديم الهوى على الحقّ.

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام: «إنّ أخوف ما أخاف عليكم اثنان :اتّباع الهوى و طـول الأمـل؛ فأمّـا اتبـاع الهوى فيصـدّ عن الحقّ، وأمّـا طـول الأمل فينسي الآخرة».[٢]

---

١ . فرقان القرآن: ٧٤ـ٧٦.

٢ .نهج البلاغة: الخطبة ٤٢، طبعة عبده.

دور أئمّة أهل البيت عليهم السلام في مكافحة البدع

انّ المرجع الديني ــ بعد رحيل الرسول ـ حسب حديث الثقلين، هو الكتاب والعترة ــ كما قال صاحب الرسالة العظمى في غير موقف من مواقف حياته ــ : «إنيّ تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي، ما إن تمسكتم بهما لن تضلّوا»، وقد تضافرت بل تواترت ألفاظه وتواصلت حلقات أسانيده من عصر الرسالة إلى هنا، وأُلّفت حول الحديث كتب ورسائل.[1]

والأسف كلّه على هؤلاء المتسمّين بالسلفية، حيث يسندون دينهم وشرعهم إلى أقوال السلف من صحابي أو تابعي و... ولكنّهم لا يستضيئون بعلوم أئمة أهل البيت الذين مثلهم كمثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق.[2] فلا تجد في كتب هؤلاء خصوصاً الجدد من أتباعهم نقل حديث منهم أو استدلالاً بكلامهم، فكأنّهم ليسوا من السلف، أو أنّ النبي لم يوص الأُمّة بالاهتداء بهم.

والذي يورث الأسى أنّهم يأخذون بقول كلّ سلفي من غير فرق بين المرجئ والناصبي، والخارجي والجهمي والواقفي.[3] إلى غير ذلك من الفرق.

إنّ لأئمّة أهل البيت دوراً بارزاً في مكافحة البدع، والردّ على الأفكار الدخيلة على الشريعة عن طريق أهل الكتاب الذين تظاهروا بالإسلام وبزيّ المسلمين، نظراء: كعب الأحبار، وتميم الداري، ووهب ابن منبه، ومن كان على

١. انظر: عقبات الأنوار للعلاّمة مير حامد حسين الهندي(المتوفى١٣٠٦) فقد خصّ أجزاء من كتابه لبيان أسانيده.

٢. حديث مستفيض.

٣.تدريب الراوي للسيوطي:٢/ ٣٢٨.

شاكلتهم.

إنّ كتب الحديث ـ من غير فرق بين الصحاح وغيرها ـ مشحونة بأخبار التجسيم والتشبيه والجبر ونفي الاستطاعة المكتسبة ونسبة الكذب والعصيان إلى الأنبياء والرسل، وقد تأثّر بها المحدثون السُّذَّج وحسبوا أنّها حقائق مسلّمة فنقلوها إلى الأجيال اللاحقة، وقد حيكت العقائد على نول هذه الأحاديث، ولم يتجرّأ أحد من المفكرين الإسلاميين القدامى والجدد على نقدها إلاّ من شذّ.

نرىٰ في مقابل هذه البدع أنّ أئمّة أهل البيت يكافحون التجسيم والتشبيه والجبر وغيرهما، بخطبهم ورسائلهم ومناظراتهم أمام حشد عظيم، وفي وسع القارئ الكريم مراجعة: «نهج البلاغة» للإمام عليّ عليه السلام و كتاب «التوحيد» للشيخ الصدوق (٣٠٦ ــ ٣٨١هـ)، وكتاب «الاحتجاج» للشيخ الطبرسي (المتوفّى ٥٥٠ هـ)، إلى غير ذلك من الكتب المؤلّفة في ذلك المضمار، وما أحلى المناظرات التي أجراها الإمام عليّ بن موسى الرضا عليه السلام في عاصمة الخلافة الإسلامية (مرو) يوم ذاك مع الماديين والملحدين وأحبار اليهود وقساوسة النصارىٰ، بل ومع المتزمّتين المغترّين بتلك الأحاديث.

كانت لفكرة الإرجاء التي تدعو إلى التسامح الديني في العمل، واجهة بديعة عند السذج من المسلمين ولا سيما الشباب منهم، فقام الإمام الصادق عليه السلام بردّها والتنديد بها، وقد أصدر بياناً فيها حيث قال: «بادروا أولادكم بالحديث قبل أن تسبقكم إليهم المرجئة». [1]

هذا هو الإمام الثامن عليّ بن موسى الرضا عليه السلام يكافح فكرة رؤية الله تبارك وتعالى بالعين، ويرد الفكرة المستوردة من اليهود والتي اغترّ بها بعض المحدّثين،

---

١. الكافي: ٦/ ٤٧، الحديث ٥، ولاحظ البحار: ٦٨/ ٢٩٧.

وإليك ما جرىٰ بينه وبين أحدهم باسم أبي قرّة.

قال أبو قرّة: إنّا روينا أنّ الله عزّ وجلّ قسم الرؤية والكلام بين اثنين، فقسم لموسى عليه السلام الكلام ولمحمد صلى الله عليه وآله وسلم الرؤية.

فقال الإمام عليّ بن موسى الرضا عليه السلام: «فمن المبلّغ عن الله عزّ وجلّ إلى الثقلين الجنّ والإنس ﴿**لا تُدْرِكُهُ الأَبْصارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصارَ**﴾[1]، ﴿**ولا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً**﴾[2] و ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**﴾[3] أليس محمّداً صلى الله عليه وآله وسلم؟»

قال أبو قرّة: بلىٰ.

قال الإمام: «فكيف يجيء رجل إلى الخلق جميعاً فيخبرهم أنّه جاء من عند الله وأنّه يدعوهم إلى الله بأمر الله ويقول: ﴿**لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار**﴾ و﴿**ولا يحيطون به علماً**﴾ و ﴿**ليس كمثله شيء**﴾ ثم يقول: أنا رأيته بعيني وأحطت به علماً وهو على صورة البشر. أما تستحيون؟! ما قدرت الزنادقة أن ترميه بهذا أن يكون يأتي عن الله بشيء ثم يأتي بخلافه من وجه آخر».[4]

هذا نموذج من نماذج كثيرة أوردناه حتىٰ يكون أُسوة لنماذج أُخرى.

وإن أردت أن تقف على مدىٰ مكافحة الأئمة الاثني عشر للبدع المحدثة، فعليك مقارنة كتابين قد أُلّفا في عصر واحد بيد محدّثين في موضوع واحد، وهما:

١ـ التوحيد لابن خزيمة (المتوفّى ٣١١ هـ).

٢ـ التوحيد للشيخ الصدوق (٣٠٦ ـ ٣٨١ هـ).

---

١. الأنعام:١٠٣.

٢. طه:١١٠.

٣. الشورى:١١.

٤. الصدوق: التوحيد، باب ما جاء في الرؤية: ١١١.

قارن بينهـا، تجد الأوّل مشحونـاً بأخبار التجسيم والتشبيـه والجبر وما زال المتسمّون بالسلفية ينشرونه عاماً بعد عام، كأنّ ضالّتهم فيه.

وأمّـا الثاني ففيـه الدعـوة إلى التوحيـد وتنـزيه الحق، ومعـرفته بين التشبيـه والتعطيل، وتبيين الآيات التي اغترّ بعضهم بظـواهرهـا من دون التدبّر بـالقرائن الحافّة بها.

وبذلك تبيّن أنّ النبيّ الأكرم قـد جعل من الأئمّة عليهم السلام واجهة دفاعية لصد البدع وأفكار المتبدعين ولا تتبين تلك الحقيقة إلاّ بعد معرفتهم ومراجعة كلماتهم.

جعفر السبحاني

قم ـ مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام

٢٥ شوال المكرم ١٤٢٤هـ

الفصل الثالث

الإيمان والكفر

بين التساهل والتطرّف

تمهيد[1]

من سمات العقيدة الإسلامية هي بساطتها ووضوحها، ويُسرُ تكاليفها ووظائفها، وقد كان هذان الأمران من أسباب انتشار الإسلام في ربوع الأرض بصورة سريعة عند بزوغ شمس الهداية.

مثلاً، التوحيد الّذي هو الركن الركين للدعوة، قد بيّنه الذكر الحكيم في سورة التوحيد، بلغة واضحة يُدركها الناس ويستفيد منها كلّ بحسب فهمه ومقدرته الفكرية، قال سبحانه: **﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ* اللهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ* وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحدٌ﴾**.[2]

فأين هذه العقيدة الواضحة في توحيده سبحانه من عقيدة التثليث والأقانيم الثلاثة للنصرانية الّتي تدّعي أنّها من دُعاة التوحيد ومكافحي الشرك والثنويّة، وفي الوقت نفسه تدعو إلى التثليث وتدّعي أنّه يجب الإيمان به دون أن يدرك واقعه؟

ومثل التوحيد، الاعتقاد بنبوّة النبي الخاتم وخلود شريعته.

ويتلوه في الوضوح الاعتقاد بالحشر والنشر والعود إلى الحياة الجديدة.

---

١. الذّي دعاني إلى اختيار هذا الموضوع هو الأوضاع الراهنة الّتي نمرّ بها والّتي شاع فيها التطرّف بين الطوائف الإسلامية، بحيث عاد يكفّر بعضها بعضاً لمجرّد وجود فوارق بسيطة لا تمتّ إلى ملاك الإيمان والكفر بصلة.

٢. الإخلاص:١ـ٤.

فـالأُصول التي أُنيط بهـا الإيمـان هي الأُصول الثـلاثـة المشار إليهـا من التـوحيد والنبـوّة والمعاد، فلهـا من الوضـوح والبسـاطة مـا يجعلها في متنـاول الجميع بعيداً عن التعقيد.

هـذا كلّـه حـول العقيـدة الإسـلاميـة، وأمّـا يسـر التكـاليف والفـرائض الإسلامية، فالكلّ محدّد بإطار عدم الحرج والضرر وما لا يطاق. قال سبحانه: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾.(١)

وقال سبحانه: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلاّ وُسْعَهَا﴾.(٢)

وقال ﷺ: «لا ضرر ولا ضرار».(٣)

فأين هذه التكـاليف الحنيفية الميسورة والسهلـة من الدعوة إلى العـزوبة والرهبـانية المبتـدعة الّتي تضـادّ فطرة الإنسان وتنتهي إلى انقطـاع النسل؟ ومن التكاليف الشاقة التي تحفل بها الشرائع السابقة.

فالدخـول في حظيرة الإسلام رهن الإيمان بأُصول بسيطـة وواضحة، كما أنّ الفوز والنجاح رهن العمل بأحكامه الميسورة.

نجاح الرسول ﷺ في دعوته

لقد حـالف التوفيق الرسول الأعظم ﷺ في دعـوته الرساليـة حيث ضرب الإسلام ـ غبّ دعـوته ـ بجرانه في أكثـر الربوع العامـرة في مدّة قليلة حتّى دخل الناس في دين الله زرافات ووحداناً، وإنّ من أبرز أسبـاب نجاحه هو دعوته إلى

---

١. الحج:٧٨.

٢. البقرة:٢٨٦.

٣. مسند أحمد:٥/ ٣٢٦؛ الوسائل:١٧، الباب٢ من إحياء الموات، الحديث٥.

عقيدة واضحة المعالم، وتكليف مرفق باليُسر.

نعم لم يكن الرسول ﷺ متساهلاً في قبول الإيمان، ولا متشدّداً فيه.

أمّا أنّه لم يكن متساهلاً في قبول الإيمان فإنّه ﷺ قَبِلَ إسلام قوم ـ عندما أسلموا بلسانهم ـ لكن رفض إدّعاء إيمانهم، إذ كان لعقاً على ألسنتهم، وقد اطّلع على واقع اعتناقهم عن طريق الوحي، فلمّا وفدوا إليه ﷺ وقالوا آمنا، أمره الله سبحانه أن يجيبهم بقوله: ﴿ **قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلٰكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** ﴾.[1]

وقد كان حزب النفاق من أبرز المنتمين إلى هذه الطائفة حيث كانوا يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، فلذلك اشتهروا بالنفاق ولم يكن الرسول ﷺ يعتمد عليهم، ولذا رفض التساهل في قبول الإيمان، وإدخال من لم يكن مؤمناً في حظيرة الإيمان. وقد أماط سبحانه الستر عن كثير من نيّاتهم وفِتَنهم وتخطيطاتهم في ضرب الإسلام.

وكما أنّه لم يكن متساهلاً، لم يكن أيضاً متطرفاً متشدّداً في قبول الإيمان، فإذا دلّت الأمارات على أنّ الرجل آمن بلسانه وقلبه، ونبذ عبادة الأصنام وآمن بنبوته وشريعته وحشره يوم القيامة، قَبِلَ إيمانَه وأدخله مدخل المؤمنين، وأثبت له من الحقوق ما للآخرين دون أن يسأله وراء الأُصول الثلاثة: «التوحيد والنبوّة والمعاد» عن أعرافه وعاداته وتقاليده القومية التي تختلف حسب البيئات والظروف المختلفة.

---

١. الحجرات: ١٤.

فقد ندّد سبحانه بالسَّريّة الّتي بعثها الرسول ﷺ لغاية من الغايات فالتقت برجل صاحب أموال وثروة فحسبوه كافراً، فأرادوا قتله، فتكلّم هو بما يدلّ على إسلامه كإلقاء تحية الإسلام إليهم أو النطق بالشهادة ونحوها، فاعتبرها بعضهم مجرّد كلمات يدفع بها عن نفسه القتل، فعمدوا إلى قتله، ولمّا وصل الخبر إلى النبي ﷺ شقّ ذلك عليه، وأنّب القاتل فقالوا له: إنّما تعوّذ بها من القتل، فقال النبي ﷺ للقاتل: «هلاّ شققت قلبه؟» و قد نزل في ذلك قوله سبحانه: ﴿**وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيا فَعِنْدَ اللهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللهَ كانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً**﴾.[1]

قال ابن كثير: روى الإمام أحمد عن ابن عباس، قال: مرّ رجل من بني سليم بنفر من أصحاب النبي ﷺ يرعى غنماً له فسلّم عليهم، فقالوا: لا يسلّم علينا إلاّ ليتعوّذ منّا، فعمدوا إليه فقتلوه، وأتوا بغنمه النبي ﷺ، فنزلت هذه الآية: ﴿**يا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا** ...﴾ إلى آخرها.[2]

وحصيلة الآية: أنّ من أظهر الإسلام ولم يدلّ على أنّه آمن بلسانه دون قلبه، فله ما للمسلمين وعليه ما عليهم، خصوصاً فيما يرجع إلى حقن الدماء وحفظ الأموال.

ثمّ إنّه سبحانه نقض منطق القاتل ــ إنّما تعوّذ بهذه الكلمة لينجو من القتل ــ بمنطق العقل والوجدان، فقال: ﴿**كَذلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللهُ عَلَيْكُمْ**﴾ أي قد كنتم من قبل في هذه الحالة كهذا الّذي يُسرّ إيمانه ويُخفيه من

---

١. النساء: ٩٤.

٢. تفسير ابن كثير: ٢/ ٣٦٣.

قـومه، أو انّكم كنتم مشـركين من قبل، ثمّ دخلتـم الإسلام بنفس الكلمـة الّتي نطق بها، وبهـا حُقنت دماؤكم وأموالكم، فكان عليكم أن تقبلـوا من القتيل ما قبله النبيّ منكم.

والآية تدلّ على حكمين شرعيّين:

١. وجوب التثبّت في كلّ شيء خاصّة فيما يرجع إلى الدماء والأموال.

٢. إنّ كلّ من أظهر الإسلام ونطق بـالشهادتين فحكمه حكم المسلمين ما لم يدلّ دليل على نفاقه.

وهذا هو موضوع مقالنا وتحقيق القول في الموضوع يأتي ضمن أُمور:

١

ثقافة التساهل

لقد شاعت ثقافة التساهل بين الساسة الغربيّين والمثقّفين في الشرق، حيث استخدموا هذه الكلمة في مجالات مختلفة أعمّ من الدين والفلسفة والأخلاق والحقوق والسياسة، ونحن نركّز في المقام على خصوص التساهل الديني أو «البيلوراليزم الديني» حسب مصطلح الغربيين، ونفسّره بوجهين:

١. التساهل السلوكي

قد يطلق التساهل ويراد به الخضوع للتعدّدية الدينية وقبولها في صعيد الحياة مع الناس والأخذ بالمشترك الأصيل بين الشرائع السماوية الّذي لا يختلف فيه اثنان من أتباعها، والغمض عن الاختلاف في غيره، أخذاً بقوله سبحانه: ﴿**لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ**﴾[١] وقوله تعالى: ﴿**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوا إِلَى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ أَلاّ نَعْبُدَ إِلاّ اللهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنّا مُسْلِمُونَ**﴾.[٢]

---

١. الكافرون:٦.

٢. آل عمران:٦٤.

والتساهل بهذا المعنى ركيزة التعايش الاجتماعي وأساسه، في مجتمع استولت عليه الثقافات المختلفة، والأفكار المتنوّعة.

وكلٌّ يدّعي وصلاً بليلىٰ وليلى لا تقرُ لهم بذاكا

فليس للإنسان الراغب في الحياة إلاّ الغمض عن نقاط الافتراق، والتركيز على المشتركات لتدور رحى الحياة لصالح الجميع، مثلاً أصحاب الديانات المختلفة في شبه القارة الهنديّة الّتي هي أشبه بـ «متحف المذاهب» لا محيص لهم من الأخذ بالتعدّدية الدينية حسب التفسير السلوكي، حتّى يعيش أتباع الديانات المختلفة جنباً إلى جنب حياة سِلْميّة، ويتحمّل بعضهم البعض الآخر، فتكون النتيجة هو تقليل التعصّب الديني بالمعنى السلبي بين أتباع الديانات الأُخرى وإيجاد التعاون والتفاهم على طريق تحقيق العدالة الاجتماعية، وإقامة الصلح ونشر الصفاء بين المواطنين.

فالتساهل السلوكي لا يضاد مبادئ الإسلام وأُسسه.

واعترافه بأتباع الشرائع السماوية كاليهودية والنصرانية والمجوسية آية قبول التسالم السلوكي، مالم يتآمروا على مصالح المسلمين وأهدافهم العالية.

وقد اعترف الفقه الإسلامي بحقوقهم، ففيه فصول تعكس تعاطف الإسلام مع أتباع هذه الشرائع، نذكر على سبيل المثال:

عندما كان الإمام علي عليه السلام يتجوّل في شوارع المدينة رأى رجلاً أعمى يستعطي الناس، فسأل: «ما هذا؟» فقيل: رجل نصراني، فأجاب الإمام: «عجباً، استعملتموه حتّى إذا كبر وعجز منعتموه! اصرفوا عليه من بيت الله لتصونوا وجهه». [1]

---

١. الوسائل: ١١/ ٤٩، الباب ١٩ من أبواب الجهاد، الحديث ١.

إنّ الحياة السليمة لا تختص بأهل الكتاب، بل جوّز القرآن ذلك التعامل مع المشركين أيضاً، شريطة عدم اشتراكهم في حرب ضدّ المسلمين، وعندئذٍ يجب معاملتهم بالحسنى والعدل والقسط، لأنّ الله يحبّ المقسطين.

وهذا السلوك لا ينطوي على شيء من النفاق، وإنّما هو من صميم الدين الإسلامي، بل كان هذا أحد الأسباب المشجّعة على اعتناق الإسلام. وليس في هذا الشأن أجمل من كلام الإمام علي عليه السلام وهو يخاطب واليه على مصر، إذ يقول: «**وأشعِر قلبكَ الرحمةَ للرعية والمحبةَ لهم، واللطف بهم، ولا تكون عليهم سبعاً ضارياً تغتنم أكلهم فانّهم صنفان:**

[أ.] **إمّا أخ لك في الدين.**

[ب.] **أو نظير لك في الخلق**».[1]

نعم التساهل بهذا المعنى، لا يعني توفر السعادة الأُخروية للناس في جميع الأعصار ومن أتباع أيّ دين، فالتساهل الديني بهذا المعنى ـ و إن صدر عن بعض الكُتّاب ـ تفسير خاطئ يناقض القرآن الكريم الذي يرى الفوز والسعادة والإيمان بما نزل على محمد صلى الله عليه وآله وسلم، والعمل به، يقول سبحانه: ﴿**فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدُوا**﴾[2]، وقد أوضحنا التساهل الديني بهذا المعنى في كتابنا «مفاهيم القرآن» وفنّدنا أدلّة اتباع تلك الفكرة في الأوساط الإسلامية.[3]

---

١. نهج البلاغة، قسم الكتب، الكتاب ٥٣.

٢. البقرة:١٣٧.

٣. مفاهيم القرآن:٣/ ٢٠٠ـ ٢١٤.

٢ . التساهل العملي

التساهل العملي عبارة عن فكرة الإرجاء، بمعنى الاكتفاء في فوز الإنسان بالسعادة الأُخروية ودخوله في حظيرة الإيمان، بالإقرار باللسان والإيمان بالقلب، وإن اقترف المعاصي، وترك الفرائض، فهؤلاء هم القائلون بالإرجاء، والمعروفون بالمرجئة.

وفي هذا النوع من التساهل ـ لو صحّت نسبته إلى المرجئة ـ خطر على أخلاق المجتمع، ولو ساد لم يبق من الإسلام إلاّ رسمه ومن الدين إلاّ اسمه، ويكون المتظاهر بهذه الفكرة كافراً حقيقة، اتّخذ هذه الفكرة واجهة لما يكنّ في ضميره.

ولقد شعر أئمّة أهل البيت عليهم السلام بخطورة الموقف، وعلموا بأنّ إشاعة هذه الفكرة عند المسلمين عامّة، والشيعة خاصّة، سترجعهم إلى الجاهليّة، فقاموا بتحذير الشيعة وأولادهم من خطر المرجئة فقالوا:

«بادِرُوا أولادكُم بالحديثِ قبلَ أن يَسبقكُم إليهم المرجِئَةُ». [١]

وحصيلة الكلام: انّ فكرة الإرجاء وإن كانت تضرّ بالمجتمع عامّة. ولكن الإمام خصّ منه الشباب لكونهم سريعي التقبّل لهذه الفكرة، لما فيها من إعطاء الضوء الأخضر لهم لاقتراف الذنوب والانحلال الأخلاقي والانكباب على الشهوات مع كونهم مؤمنين.

ولو صحّ ما تدّعيه المرجئة من الإيمان والمعرفة القلبيّة، والمحبّة لإله العالم، لوجب أن تكون لتلك المحبّة القلبيّة مظاهر في الحياة، فإنّها رائدة الإنسان وراسمة حياته، والإنسان أسير الحبّ وسجين العشق، فلو كان عارفاً

---

١. الكافي: ٦/ ٤٧، الحديث ٥.

بالله، محبّاً له، لاتّبع أوامره ونواهيه، وتجنّب ما يُسخطه وعمل بما يرضيه، فما معنى هذه المحبّة للخالق الّتي ليس لها أثر في حياة المحبّ؟!

ولقد وردت الإشارة إلى التأثير الـذي يتركه الحبّ والودّ في نفس المحبّ في كلام الإمام الصادق عليه السلام حيث قـال: «ما أحبّ الله عـزّ وجلّ من عصـاه» ثمّ تمثّل وقال:

تعصي الإله وأنت تظهر حبّـه ... هـذا محالٌ في الفعـال بديـع

لو كان حبّك صـادقاً لأطعتـه ... إنّ المحبّ لمن يحبّ مطيع[1]

---

١. سفينة البحار: ١/ ١٩٩، مادة «حبّ».

٢

ثقافة التكفير

إذا كان التساهل يطلق ويراد به تارة التساهل السلوكي، وأُخرى الانحلال الأخلاقي. والأوّل منهما أساس الحياة الاجتماعية، والثاني دعامة المادية المحضة، فهكذا التكفير، يطلق ويراد به أحد الأمرين:

١ . إنكار دعائم الإيمان

للإيمان في الكتاب والسنّة دعائم ثلاث، قامت عليها خيمة الإيمان وعرشه، ألا وهي:

١ . الإيمان بتوحيده سبحانه، وانّه واحد لا ثاني له، ولا مدبِّر غيره، ولا معبود سواه.

٢ . إنّ محمّداً ﷺ رسول الله وخاتم النبيّين، لا نبي بعده، وإنّ كتابه خاتم الكتب، وشريعته خاتمة الشرائع.

٣ . إنّ الساعة آتية لا ريب فيها، وانّ الله يبعث من في القبور.

هذه هي الأُصول الثلاثة التي تدور عليه رحى الإيمان، فمن اعتنقها فهو مؤمن، ومن أنكرها فهو كافر.

فمن أنكر هـذه الأُصول، أو واحـداً منها، أو ثبت بـالدليل إنكـاره، فهو محكوم بـالكفر، خـارج عن ساحـة الإيمان، فلـو ولد من والـدين مسلمين أو أحدهمـا مسلم، ومع ذلك رفضها أو رفض واحـداً منها، فيحكم عليه بـالكفر والارتداد، وللكافر والمرتد أحكام محرّرة في الكتاب والسنّة.

أمّـا من شكّ فيها، تأثّـراً بتيارات كـلاميـة مناهضـة للدين، ولكن بغيـر إنكار، بل مع محاولة جادّة لإزالة الشّك عن ضميره، فلا يحكم عليه بالكفر ولا بالارتداد.

فهذا النـوع من التكفيـر ـ القائم علـى ثبوت إنكار الـرجل دعـائم الإيمان وأُسسه، بـاعترافه أو بدليل قـاطع ـ ممّا ثبت بـالكتاب والسنّة، قال سبحـانه: **﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَنْ دِينِـهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كافِرٌ فَأُولئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـالُهُمْ فِي الدُّنْيا وَالآخِرَةِ وَأُولئِكَ أَصْحابُ النّارِ هُمْ فِيهَا خالِدُونَ﴾**.[١]

وهذا هو القـرآن الكريم، يحكي لنا اتّخاذ اليهـود، الإيمان بالنبيﷺ ثمّ الارتداد عنه في عصر الرسالـة، ذريعة لإيجاد الريب والشكّ في قلوب البسطاء من الناس، قال سبحانه: **﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾**.[٢]

إنّ شيـوع الارتـداد بين المـؤمنيـن، هـو إحـدى الأُمنيـات الكبـرى لأهل الكتـاب، لأجل انّ الارتداد كمـا يضرّ بـدين المـرتد، يضـر بالمجتمع الـديني أيضاً، ويـورث الفوضى في اعتناق الديـن، ويزعزع الإيمان بـالأُصول، وينبت العداء بين المسلمين، يقول سبحانه حاكياً عن أُمنية كثير من أهل الكتاب، في

---

١. البقرة:٢١٧.

٢. آل عمران:٧٢.

أن يروا ارتداد المسلمين على أعقابهم: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ .[١]

فتكفير من أنكر الأُصول ودعائم الإيمان، لا صلة له بالتشدّد والتطرّف، بل هو عمل بالكتاب والسنّة، وقد أطبق عليه فقهاء الإسلام وعلماؤه.

قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا المؤمنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ في سَبيلِ اللهِ أُولئِكَ هُمُ الصّادِقُونَ﴾ .[٢]

فالإيمان بالله ورسوله، من دعائم الإيمان ولا ينفك الإيمان بالرسول، عن الإيمان بالحياة الأُخروية. فمن آمن بهذه الاصول فهو مؤمن بشرط أن لا يطرأ عليه الريب والشكّ دون أن يسعى في قلعه و إزالته.

وأمّا الجهاد الوارد في الآية فهو من علائم الإيمان وأماراته، فالتضحية بالنفس والنفيس آية الإذعان بالذي ضحّى من أجله، وأراق دمه في طريقه.

هذه هي نصوص الكتاب، أمّا كلمات المحقّقين فنذكر منها ما يلي:

١. قال أبو الحسن الأشعري(المتوفّى ٣٢٤هـ): إنّ الإيمان هو التصديق لله ولرسله في أخبارهم، ولا يكون هذا التصديق صحيحاً إلاّ بمعرفته والكفر هو التكذيب.[٣]

٢. قال القاضي الايجيّ(المتوفّى ٧٥٦هـ) : الكفر وهو خلاف الإيمان، فهو عندنا عدم تصديق الرسول في بعض ما علم بمجيئه به ضرورة.[٤]

---

١. البقرة:١٠٩.
٢. الحجرات:١٥.
٣. أُصول الدين لأبي منصور البغدادي:٢٤٨.
٤. المواقف:٣٨٨.

٣. وقال سديد الدين الحمصي الرازي (المتوفّى حوالي ٥٨٥هـ): وقد أجمعت الأُمّة على أنّ الإخلال بمعرفة الله تعالى وتوحيده وعدله، والإخلال بمعرفة رسوله، وبكلّ ما تجب معرفته ممّا يعدّ من أُصول الدين، كفر.[1]

٤. وقال ابن ميثم البحراني (المتوفّى ٦٩٩هـ): الكفر هو إنكار صدق الرسول، وإنكار شيء ممّا علم بمجيئه به بالضرورة.[2]

٥. وقال الفاضل المقداد(المتوفّى ٨٢٦هـ): الكفر اصطلاحاً إنكار ما علم ضرورة مجيء الرسول به.[3]

إلى غير ذلك من الكلمات الحاكية عن أنّ منكر أحد الأُصول الثلاثة محكوم بالكفر أو الارتداد.

فاللازم على حكّام الإسلام وفقهاء المسلمين تصفية المجتمع الإسلامي من المرتدّين بعد السعي إلى هدايتهم وإزالة شبهاتهم وحلّ عُقَدِهم، مهما استغرق ذلك من الوقت، وكلّف من الثمن، وإلاّ فيحكم عليهم بما حكم به الكتاب والسنّة.

٢. مسلسل التكفير بلا ملاك

فإذا كان ملاك الإيمان هو التصديق القلبي بالأُصول الثلاثة، وهي جامعة لكلّ ما يجب الاعتقاد به على وجه الإيجاز، فأبناء الطوائف الإسلامية الذين يؤمنون بها بجد وحماس،ويُقرّون بها باللسان، كلّهم مؤمنون وفي حظيرة الإيمان متبوّئون، فمن التطرّف تكفير طائفة لم يظهر منها إنكار أحد الأُصول وإن غلب عليها

---

١. المنقذ من التقليد:٢/ ١٦١.

٢. قواعد المرام:١٧١.

٣. ارشاد الطالبين:٤٣٣.

الهوى فاقترفت معاصي أو تركت فرائض، دون أن تُنكر جزءاً من هيكل الشريعة الإسلامية.

نعم إنّ القول بإيمان هؤلاء المحكومين بهوى النفس، لا يعني عدم الاهتمام بالعمل، وأنّ مجرّد التصديق هو المنقذ من عذاب النار، بل يعني أنّ الّذي ينقل الإنسان من الكفر إلى الإيمان ـ والّذي من آثاره حرمة دمه وعرضه وماله ـ هو التصديق القلبي المقترن بالإقرار باللسان إن أمكن أو بالإشارة إذا امتنع، وأمّا المنقذ من عذاب الله سبحانه، أو المُدخل إلى الجنة، فهو أمر آخر، مرهون بالعمل بالشريعة وترك المعاصي وأداء الفرائض.

ولذلك ترى أنّ الآيات تركّز على العمل بعد الإيمان نحو قوله سبحانه: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ**﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿**وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْماً وَلَا هَضْماً**﴾.[2]

وقال عزّ من قائل: ﴿**وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإنسانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**﴾.[3]

فللتصديق القلبي المظهر بالإقرار، أثر، وهو احترام دمه وعرضه وماله، وله ـ مقروناً بالعمل بالصالحات ـ أثر آخر، وهو الفوز بالسعادة الأُخروية.

مبدأ التطرّف في التكفير

ظهر التطرّف في أمر التكفير من الخوارج الذين كفّروا مرتكب الكبيرة

١. البينة: ٧.

٢. طه: ١١٢.

٣. العصر: ١ـ٣.

وأخرجـوه من ساحة الإيمان، وتشدّدوا إلى حـد جعلوه مخلّداً في النـار لخروجه عن ربقة الإيمان، إلاّ أن يتوب.

وتلتهم المعتزلـة، الذين جعلوا لمرتكب الكبيرة منـزلة بين المنزلتين، فـلا هو مؤمن ولا هو كافر، ولكنّهم اقتفوا أثـر الخوارج فجعلوه مخلداً في النار إذا مات بلا توبة، وحُرم من شفاعة الشفعاء.

إنّ المسلمين اليـوم بأمسّ الحاجـة إلى تـوحيـد الكلمـة ورصّ الصفـوف، والابتعاد عن كلّ ما يُفرّق جمعهم. ويشتّتُ كلمتهم. ولـو جعلنا هذه الفوارق وما شابهـا ممّا يوجب خروج هـذه الجماعة من الإسلام لتمزّقت وحـدة الأُمّة، وسهل حينئذٍ ابتلاعها جميعاً من قبل أعداء الإسلام المتربّصين الطامعين.

ونحن نأسف لما مضى من إقدام أتباع بعض المذاهب الإسلامية على تكفير بعضهـا بعضاً من دون تـورّع وتحرّج، فأهل الحديث والحنـابلة يكفّـرون المعتزلـة، والمعتزلة يكفّرون أهل الحديث والحنابلة.

ثمّ لمّا ظهر الأشعري، وحاول إصلاح عقائد أهل الحديث والحنابلة، ثارت ثائرة تلك الطائفـة ضدّه، فأخذ الحنابلة يكفّرون الأشـاعرة، ويلعنونهم ويسبّونهم على صهوات المنابر.

فهذا هو تـاج الدين السُّبكي يقول حول تكفير الحنابلـة للأشاعـرة: هذه هي الفتنة التي طـار شررهـا فملأ الآفـاق وطال ضررهـا فشمل خراسـان والشام والحجاز والعـراق وعظم خطبُها وبلاؤهـا، وقام في سبّ أهل السُّنة(يـريد بهم الأشاعرة) خطيبهـا وسفهاؤها، إذ أدّى هذا الأمر إلـى التصريح بلعن أهل السنّة في الجمع، وتوظيف سبِّهم على المنابر، وصار لأبي الحسن الأشعري ـ كرّم الله وجهه ـ بهـا أُسوة بعليّ بن أبي طالب ـ كرّم الله وجهـه ـ في زمن بعض بني أُميّة

حيث استولت النواصب على المناصب، واستعلى أُولئك السفهاء في المجامع والمراتب.[١]

كما نأسف لسريان هذه الحالة إلى مجال الفروع فإذا بأصحاب المذاهب الفقهية الأربعة تختلف وتتشاحن وتتنازع، ونجمت عن ذلك فتنٌ كثيرة دامية بينها.

فقد وقعت فتنة بين الحنفية والشافعية في نيسابور ذهب تحت هياجها خلقٌ كثير، وأُحرقت الأسواق والمدارس وكثُر القتل في الشافعية فانتصروا بعد ذلك على الحنفية وأسرفوا في أخذ الثأر منهم في سنة ٥٥٤هـ، ووقعت حوادث وفتنٌ مشابهةٌ بين الشافعية والحنابلة واضطرت السلطات إلى التدخّل بالقوّة لحسم النزاع في سنة ٧١٦هـ وكثر القتلُ وحرق المساكن والأسواق في أصبهان، ووقعت حوادثُ مشابهة بين أصحاب هذه المذاهب وأتباعها في بغداد ودمشق وذهب كلٌّ واحد منها إلى تكفير الآخر. فهذا يقول: من لم يكن حنبليّاً فليس بمسلم، وذاك يغري الجهلة بالطرف الآخر فتقع منهم الإساءة على العلماء والفضلاء منهم وتقع الجرائم الفظيعة.[٢]

يا لله ولهذه الدماء المراقة، والأعراض المهتوكة والأموال المنهوبة وقد صارت ضحيّة التعصّب الممقوت والجهل المطبق بالشريعة السمحة السهلة، والحنيفية البيضاء.

لم يكن الشافعي ولا أحمد مختلفين في الأُصول وأركان الدين ودعائمه بل

١. طبقات الشافعية:٣/ ٣٩١.

٢. راجع: البداية والنهاية لابن كثير:١٤/ ٧٦؛ مرآة الجنان:٣/ ٣٤٣؛ الكامل لابن الأثير:٨/ ٢٢٩؛ تذكرة الحفّاظ:٣/ ٣٧٥؛ طبقات الشافعية:٣/ ١٠٩، وغيرها. ولاحظ الإمام الصادق عليه السلام لأسد حيدر، فقد أشبع المقال في هذا المجال.

كانا متعاطفين، وقد تبرّك أحمد بشرب الماء الّذي غُسِلَ فيه قميص الشافعي، وفي قاموس الدهر أن يرث المأموم ما ورّثه إمامه، فلو كان بينهما اختلاف فإنّما كان في الفروع ولم تزل الأُمّة مختلفة فيها بعد غروب شمس الدين ومصباحه وكلّ مأجور في فتياه إذا كانت جامعة للشرائط.

يقول محمد صالح العثيمين:

«لقد جرى في سنة من السنين مسألة في «منى» على يدي ويد بعض الإخوان، وقد تكون غريبة عليكم، حيث جيء بطائفتين، وكلّ طائفة من ثلاثة أو أربعة رجال، وكلّ واحدة تتّهم الأُخرى بالكفر واللعن ــ وهم حُجّاج ـ و خبر ذلك أنّ إحدى الطائفتين، قالت: إنّ الأُخرى إذا قامت تصلّي وضعت اليد اليمنى على اليسرى فوق الصدر، وهذا كفر بالسنّة، حيث إنّ السنّة عند هذه الطائفة، إرسال اليدين على الفخذين؛ والطائفة الأُخرى تقول: إنّ إرسال اليدين على الفخذين دون أن يجعل اليمنى على اليسرى، كفر مبيح للّعن، وكان النزاع بينهم شديداً.

ثمّ يقول: فانظر كيف لعب الشيطان بهم في هذه المسألة التي اختلفوا فيها، حتّى بلغ أن كفّر بعضهم بعضاً بسببها التي هي سنّة من السُّنن، فليست من أركان الإسلام، ولا من فرائضه، ولا من واجباته، غاية ما هنالك إنّ بعض العلماء يرى أنّ وضع اليد اليمنى على اليسرى فوق الصدر هو السنّة وآخرين من أهل العلم يقولون: إنّ السنة هو الإرسال، مع أنّ الصواب الذي دلّت عليه السنّة هو وضع اليد اليمنى على الذراع اليسرى».[1]

---

١. محمد بن صالح العثيمين: دروس وفتاوى في الحرم المكّي:٢٦.

أقـول: لا أظنّ أنّ الشباب أو غيرهم ــ الذين يتنـازعون في مسألـة القبض ونظائرها حتّـى كادوا أن يقتتلوا ـ مقصّرون، وإنّما يرجـع التقصير إلى خطباء القوم وعلمائهم، فانّ خطيب كلّ مذهب يثني على إمام مـذهبه إلى درجة يُصوّر فيها انّ الحقّ يدور على قـوله وفعله، وبالتـالي عندما يبرز الخلاف في الفتـوى، فأتباع كلّ إمام يتّهم الآخر بالانحراف عن الحقّ، وربّما ينتهي الأمر إلى ما لا تحمد عقباه.

فالشافعي وابن حنبل وعامّة أئمّـة المذاهب، كلّهم خرّيجو مدرسة الكتاب والسنّة الّتي تدعو إلى الاعتصام بحبل الله والتحرّز عن الجدال والتفرقة.

يقول تعالى شأنه: ﴿ **وَٱعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُوا وَٱذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْداءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْواناً** ﴾ .[١]

ويقول سبحانه: ﴿ **وَلاَ تَكُونُوا كَـالَّذِينَ تَفرَّقُوا وَٱخْتَلَفُوا مِنْ بَعْـدِ مَا جاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ** ﴾ .[٢]

موقف النبي من تكفير المسلم

لقد حذر النبيّ ﷺ المؤمنين من تكفير بعضهم بعضـــاً، ونحن نعكس في هذه الصفحات بعض ما أُثر عنه ﷺ:

١. بني الإسلام على خصال: شهادة أن لا إله إلاّ الله، وانّ محمّداً رسول الله، والإقرار بما جاء من عند الله، والجهاد ماض منـذ بعث رسله إلى آخر عصابة تكون من المسلمين... فلا تكفّروهم بذنب ولا تشهدوا عليهم بشرك».[٣]

٢. أخرج أبـو داود عن نافع، عن ابن عمر، قال: قـال رسول الله ﷺ: «أيّما

---

١. آل عمران:١٠٣.
٢. آل عمران:١٠٥.
٣. كنز العمال:١/ ٢٩، برقم ٣٠.

رجل مسلم أكفر رجلاً مسلماً، فإن كان كافراً وإلاّ كان هو الكافر».[١]

٣. أخرج مسلم، عن نافع، عن ابن عمر، انّ النبيّ ﷺ قال: «إذا كفّر الرجل أخاه فقد باء بها أحدهما».[٢]

٤. أخرج مسلم، عن عبد الله بن دينار، أنّه سمع ابن عمر، يقول: قال رسول الله ﷺ: «أيّما امرئٍ قال لأخيه يا كافر، فقد باء بها أحدهما إن كان كما قال، وإلاّ رجعت عليه».[٣]

٥. عقد البخاري باباً باسم «المعاصي من أمر الجاهلية ولا يكفر صاحبها بارتكابها إلاّ بالشرك»، يقول النبي ﷺ: إنّك امرؤ فيك جاهلية، وقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لا يَغفرُ أَنْ يُشركَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذٰلِكَ لِمَنْ يَشاءُ﴾.[٤][٥]

٦. أخرج الترمذي في سننه عن ثابت بن الضحاك، عن النبيّ ﷺ قال: «ليس على العبد نذر فيما لا يملك، ولاعن المؤمن كقاتله، ومن قذف مؤمناً بكفر فهو كقاتله».[٦]

٧. أخرج أبو داود عن أُسامة بن زيد قال: بعثنا رسول الله ﷺ سرية إلى الحرقات، فنذروا بنا فهربوا، فأدركنا رجلاً فلمّا غشيناه قال: لا إله إلاّ الله، فضربناه حتى قتلناه، فذكرته للنبي ﷺ فقال: «من لك بلا إله إلاّ الله يوم القيامة؟» قال:

---

١. سنن أبي داود: ٤/ ٢٢١، برقم ٤٦٨٧، كتاب السنّة.

٢. صحيح مسلم: ١/ ٥٦، باب «من قال لأخيه المسلم يا كافر» من كتاب الإيمان.

٣. صحيح مسلم: ١/ ٥٧، باب «من قال لأخيه المسلم يا كافر» من كتاب الإيمان، وأخرجه الإمام أحمد في مسنده: ٢/ ٢٢ و ٦٠ و ١٤٢؛ وأخرجه الترمذي في سننه: ٥/ ٢٢ برقم ٢٦٣٧، كتاب الإيمان.

٤. النساء: ٤٨.

٥. صحيح البخاري: ١/ ١١، باب «المعاصي من أمر الجاهلية» من كتاب الإيمان.

٦. سنن الترمذي: ٥/ ٢٢، برقم ٢٦٣٦، كتاب الإيمان.

قلت: يا رسول الله، إنّما قالها مخافة السلاح والقتل، فقال: «أفلا شققت عن قلبه حتّى تعلم من أجل ذلك قالها أم لا؟ من لك بلا إله إلاّ الله يوم القيامة؟» قال: فمازال يقولها حتى وددت اني لم أسلم إلاّ يومئذ.[١]

٨. لما خاطب ذو الخويصرة الرسول الأعظمﷺ بقوله: اعدل، ثارت ثورة من كان في المجلس، منهم خالد بن الوليد قال: يا رسول الله ألا أضرب عنقه؟ فقال رسول اللهﷺ: «لا، فلعلّه يكون يصلّي» فقال: إنّه رب مصل يقول بلسانه ما ليس في قلبه، فقال رسول اللهﷺ: «إنّي لم أُؤمر أن أنقب قلوب الناس ولا أشق بطونهم».[٢]

وعلى ضوء هذه الأحاديث المتضافرة والكلمات المضيئة المرويّة عن الرسول ﷺ يعلم أنّ تكفير المسلم ليس بالأمر الهيّن، بل هو من الموبقات.

إجابة عن شبهة

إنّ هؤلاء المكفّرين ـ المتطرّفين عندنا ـ ربّما يشتبه عليهم الأمر ويقولون: إنّ الكتاب وإن أمر بالاعتصام بحبل الله ونهى التفرقة، والرسولﷺ وإن حذّر من التكفير، لكن مصب الآيات أو موضوع الروايات، هم المسلمون والمؤمنون، وهؤلاء الذين نكفِّرهم أو نغتالهم، ونقتلهم وننهب أموالهم، ليسوا منهم، فتُستحل دماؤهم وأعراضهم وأموالهم؟

هذه الشبهة الّتي تدرّعوا بها في سفك الدماء، محجوجة بكلام الرسول ولا شيء في المقام أحسم وأقطع منه، فهو ﷺ لا يعتبر في وصف الرجل بالإسلام

---

١. سنن أبي داود:٣/ ٤٥برقم ٢٦٤٣؛ صحيح البخاري:٥/ ١٤٤، باب بعث النبي أُسامة بن زيد إلى الحرقات من كتاب المغازي.

٢. صحيح البخاري:٥/ ١٦٤، باب بعث علي وخالد بن الوليد من كتاب المغازي.

والإيمان سوى الإيمان بالأُصول الثلاثة، وهذه هي كلماته:

١. أخرج البخاري ومسلم في باب فضائل علي عليه السلام أنّه قال رسول صلى الله عليه وآله وسلم يوم خيبر: «لأُعطينّ هذه الراية رجلاً يحبّ الله ورسوله يفتح الله على يديه».

قال عمر بن الخطاب: ما أحببتُ الأمارة إلاّ يومئذٍ، قال: فتساورتُ لها رجاء أن أُدعى لها، قال فدعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عليّ بن أبي طالب فأعطاه إيّاها، وقال: «إمشِ ولا تلتفت حتّى يفتح الله عليك» فسار «عليٌّ» شيئاً ثمّ وقف ولم يلتفت وصرخ: يا رسول الله على ماذا أُقاتل الناس؟

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «قاتِلهُمْ حتّى يشهدوا أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمّداً رسول الله، فإذا فعلوا ذلك فقد مُنِعُوا منك دماؤهم وأموالهم إلاّ بحقّها وحسابهم على الله».(١)

٢. روى الشافعيّ في كتاب «الأُمّ» عن أبي هريرة، أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لا أزال أُقاتل الناس حتّى يقولوا لا إله إلاّ الله، فإذا قالوا لا إله إلاّ الله فقد عصموا منّي دماءَهم وأموالهم إلاّ بحقّها وحسابهم على الله».

قال الشافعي: فأعلمَ رسول الله أن فرض الله أن يقاتلهم حتّى يُظهروا أن لا إله إلاّ الله فإذا فعلوا منعوا دماءهم وأموالهم إلاّ بحقّها، يعني إلاّ بما يحكمُ الله عليهم فيها وحسابهم على الله بصدقهم وكذبهم وسرائرهم، اللهُ العالم بسرائرهم، المتولّي الحكم عليهم دون أنبيائه وحكّام خلقه، وبذلك مضت أحكام رسول الله فيما بين العباد من الحدود وجميع الحقوق، وأعلمهم أنّ جميع أحكامه على ما يظهرون وأنّ الله يدين بالسرائر.(٢)

٣. روى الجزريّ في «جامع الأُصول» عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: «من شهد

---

١. صحيح البخاري: ٢، مناقب عليّ عليه السلام؛ صحيح مسلم: ج٦ باب فضائل علي عليه السلام.

٢. الأُمّ: ٧/ ٢٩٦ـ ٢٩٧.

أن لا إله إلاّ الله، واستقبل قبلتنا، وصلّى صلاتنا، وأكل ذبيحتنا، فذلك المسلمُ، له ما للمسلم، وعليه ما على المسلم».[١]

وقال: قال رسول الله ﷺ روى أنس قال: إنّ رسول الله ﷺ قال: «أُمرت أن أُقاتل الناس حتّى يقولوا: لا إله إلاّ الله وأنّ محمّداً رسول الله، فإذا شهدوا أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمّداً رسول الله واستقبلوا قبلتنا وأكلوا ذبيحتنا وصلُّوا صلاتنا، حرمت علينا دماؤهم وأموالهم إلاّ بحقّها».

كلّ هذه الأحاديث تصرّح بأنّ ما تُحقَن به الدماء وتُصان به الأعراض ويدخل به الإنسان في عداد المسلمين هو الاعتقاد بتوحيده سبحانه ورسالة الرسول، فإذا كان هذا هو ملاك الدخول في الإسلام، فقد حفظ الله للمقرّين بها، أنفسهم وأعراضهم وأموالهم وحرم انتهاكها، وقال ﷺ في خطبة حجة الوداع:

«إنّ الله حرم دماءكم وأموالكم إلى أن تلقوا ربّكم كحرمة شهركم هذا».[٢]

موقف علماء الإسلام من تكفير المسلم

وقد تشدّد علماء الإسلام في تكفير المسلم ونهوا عنه بقوّة، وبالغوا في النهي عنه.

قال ابن حزم حيث تكلّم فيمن يكفّر ولا يكفر[٣]: وذهبت طائفة إلى أنّه لا يكفَّر ولا يفسَّق مسلم بقول قاله في اعتقاد أو فُتيا، وأنّ كلّ من اجتهد في شيء من ذلك فدان بما رأى أنّه الحقّ فإنّه مأجورٌ على كلّ حال، إن أصابَ فأجران،

---

١. جامع الأُصول: ١/ ١٥٨ـ ١٥٩.

٢. السيرة النبوية: ٢/ ٦٠٥. والمذكور في السيرة، يختلف مع ما في سائر الجوامع الحديثية بشيء يسير.

٣. الفصل بين الأهواء والملل والنحل: ٣/ ٢٤٧.

و إن أخطأ فأجرٌ واحدٌ.

(قال): وهذا قول ابن أبي ليلى وأبي حنيفة والشافعي وسفيان الثوري وداود ابن علي، وهو قول كلّ من عرفنا له قولاً في هذه المسألة من الصحابة (رض) لا نعلم منهم خلافاً في ذلك أصلاً.

وقال شيخ الإسلام تقي الدين السُّبكي: إنّ الإقدام على تكفير المؤمنين عَسِر جداً، وكلُّ من كان في قلبه إيمان يستعظم القولَ بتكفير أهل الأهواء والبدع مع قولهم لا إله إلاّ الله، محمّد رسول الله، فإنّ التكفير أمرٌ هائل عظيم الخطر(إلى آخر كلامه وقد أطال في تعظيم التكفير وتفظيع خطره).[1]

وكان أحمد بن زاهر السرخسي(وهو أجل أصحاب الإمام أبي الحسن الأشعري) يقول: لمّا حَضَرتِ الشيخ أبا الحسن الأشعري الوفاةُ بداري في بغداد أمرني بجمع أصحابه فجمعتُهُم له فقال: إشهَدوا عليّ أنّني لا أُكفّر أحداً من أهل القبلة بذنبٍ، لأنّي رأيتهم كلّهم يشيرون إلى معبودٍ واحد، والإسلام يشملهم ويعمّهم.[2]

وقال القاضي عبد الرحمان الإيجيّ: جمهور المتكلّمين والفقهاء على أنّه لا يكفَّر أحد من أهل القبلة ـ واستدلّ قائلاً ـ : إنّ المسائل التي اختلف فيها أهل القبلة ـ من كون الله تعالى عالماً بعلم، أو موجداً لفعل العبد أو غير متحيّز ولا في جهة ونحوها ـ لم يبحث النبيﷺ عن اعتقاد من حكم بإسلامه فيها ولا الصحابة ولا التابعون، فعلم أنّ الخطأ فيها ليس قادحاً في حقيقة الإسلام.[3]

١و٢. اليواقيت والجواهر:٥٨.

٣.المواقف:٣٩٣، طبعة القاهرة، مكتبة المتنبي، لاحظ ذيل كلامه ترى أنّه يستدلّ على أنّه لا يجوز تكفير أية فرقة من الفرق الإسلامية إذا اتّفقوا على أصل التوحيد والرسالة.

وقال السيد محمّد رشيد رضا: إنّ من أعظم ما بُليَت به الفرق الإسلامية رميَ بعضهم بعضاً بالفسق والكفر مع أنّ قصد الكلّ الوصول إلى الحقّ بما بذلوا جهدهم لتأييده، واعتقاده والدعوة إليه، فالمجتهد و إن أخطأ معذور....[1]

١. تفسير المنار:١٧/ ٤٤.

٣

التكفير والمسائل الكلامية الخلافية

المسائل العقائدية على قسمين:

الف. ما اتّفق فيها المسلمون على رأي واحد، فإنكارها يوجب الكفر، ويناقض الاعتقاد برسالة الرسول، كرسالة النبي وخاتميته.

ب. ما اختلف فيها المسلمون. ونحن نركّز الكلام على القسم الثاني ونأتي ببعض الأمثلة.

١. رؤية الله في الآخرة

إنّ رؤية الله يوم القيامة، من المسائل الخلافية بين علماء الإسلام ومفسّري القرآن، فهم بين مثبت وناف، ونحن لا نخوض في الموضوع، إنّما نركّز على أنّ إنكار رؤية الله يوم القيامة لا يلازم إنكار ما جاء به النبي، إذ لم يثبت انها ممّا جاء به النبي بضرورة من الدين وإن كان المثبت يستدلّ عليها بآية قرآنية نظير: ﴿**إِلىٰ رَبِّها ناظِرَةٌ**﴾[١]، لأنّ الثاني أيضاً يستدلّ بآية أُخرى نحو: ﴿**لا تُدْرِكُهُ الأَبْصارُ وَهُوَ**

---

١. القيامة:٢٣.

يُدْرِكُ الأَبْصارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ . [١]

نحن نأسف على الجواب الّذي صدر من مفتي السعودية السابق: عبد العزيز بن باز المؤرخ بـ ٨/ ٣/ ١٤٠٧هـ رقم ٧١٧/ ٢ على السؤال الّذي وجّه إليه حول الائتمام بمن ينكر الرؤية يوم القيامة، أي رؤية الله جلّ وعلا من قبل أهل الجنة.

فنَقَل عن عدّةٍ منهم بأنّه كافر، منهم: ابن تيمية وتلميذه ابن القيّم، فقال الأوّل: والذي عليه جمهور السلف أنّ من جَحَدَ رؤية الله في الدار الآخرة فهو كافر، فإن كان ممّن لم يبلغه العلم في ذلك عُرِّف ذلك كما يُعرَّف مَن لم تبلغه شرائع الإسلام، فإن أصرّ على الجحود بعد بلوغ العلم فهو كافر.

إنّ هذه الفتوى تضادّ ما تضافر عن النبيّ ﷺ من أنّ أركان الإسلام عبارة عن التوحيد والإقرار بالرسالة وغيرهما ممّا مضى ذكره، فهل كان النبيّ يفرض على من يعترف بالشهادتين، الاعتقاد برؤية الله؟!

إنّ الرؤية مسألةٌ اجتهاديةٌ تضاربت فيها أقوال المفسّرين، ومن نفى الرؤية فإنّما اجتهد في النصوص التي زعم القائل دلالتها عليها.

إنّ التكفير أمر خطير له من المضاعفات ما لا تحمد عقباه، ولا يصحح بأي مقياس، وهو بطبيعته يقتضي الحزم والتثبت، ولا أقلّ من دعوة المكفَّر كالنافي لرؤية الله يوم القيامة لإراءة دليله من الكتاب والسنّة، فلو كان ذلك مقنعاً للغير، أو على الأقلّ مقنعاً لنفس المستدل، فيجتنب عن تكفيره، إذ لا ملازمة عند النافي بين نفي الرؤية، وإنكار رسالته ﷺ.

ولعمر الحقّ انّ ما يعاني منه مجتمعنا اليوم من التطرّف والإرهاب والخوف،

---

١. الأنعام:١٠٣.

بل تفجير المراكز والمؤسّسات المدنية، وقتل النفوس وحرق الأموال، ناجم عن هذا النوع من الفتيا، وقد ابتليت البلاد الإسلامية بهذا الشر بلا استثناء حتّى صارت الأراضي المقدسة هدفاً له، وأُعيد الحجر إلى ما جاء منه.

٢. الاعتقاد بعلم الغيب للأنبياء والأولياء

كثيراً ما نرى المتطرّفين في التكفير، يكفّرون من أثبت علم الغيب لغيره سبحانه، بزعم أنّ هذه العقيدة تضاد قوله سبحانه: ﴿**قُلْ لاَ يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاّ الله**﴾.[١]

ولا أظنّ أنّ مسلماً واعياً يصف الأولياء بعلم الغيب بنفس المعنى الّذي يصف به الله سبحانه، فعلمه سبحانه بالغيب، نابع من ذاته، غير مكتسب و لا محدود؛ والآخر تعلّم من ذي علم مأخوذ من الله سبحانه، مكتسب محدد، وأين المعنى الأوّل من الآخر؟ وليس علم الأنبياء والأولياء بالغيب ـ بإذن الله سبحانه ـ في موارد خاصّة، إلاّ كعلم صاحب موسى بالأُمور الخفية الّتي تعلّمها من لدنه سبحانه، قال تعالى في وصفه: ﴿**فَوَجَدا عَبْداً مِنْ عِبادِنا آتَيْناهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا وَعَلَّمْناهُ مِنْ لَدُنّا عِلْماً**﴾.[٢]

ولأجل تحلّيه بهذا العلم اللّدني، طلب منه موسى عليه السلام أنْ يعلّمه من ذاك العلم وقال له: ﴿**هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمّا عُلِّمْتَ رُشْداً**﴾.[٣]

فالاعتقاد بهذا النوع من العلم بالمغيّبات، لا ينافي تخصيص علم الغيب بالله سبحانه.

---

١. النمل:٦٥.

٢. الكهف:٦٥.

٣. الكهف:٦٦.

٣. الاعتقاد بالقدرة الخارقة للعادة

الاعتقـاد بكون الأوليـاء مصـادر لأُمور خـارقـة للعادة، كنفس الاعتقـاد، بعلمهم بالغيب،لا يستلـزم كفراً وانكـاراً لأصل من الأُصول الثـلاثة، وذلك لأنّ غير الله سبحـانه لا يملك لنفسـه شيئـاً، وأنّ ما يصـدر منـه من الأفعال، سـواء أكانت عـادية أو غيرها انّما هـو بإقداره سبحانه عليهـا، ولولا إفاضـة القدرة على العبد الّـذي لا يملك شيئاً، لعجـز عن أبسط الأعمال فضلاً عن الأُمـور الخارقة للعادة.

فالاعتقاد بهذا النـوع من المقدرة المفاضة من الله سبحانه لا ينـافي التوحيد أبداً، لأنّ هنا قادراً بالذات وهو الله سبحـانه، وقادراً بالغير (الإنسان)، فهو قادر بفضله وبإفاضة منه سبحانه.

هـذا هو الـذكـر الحكيم يخبر عن مقدرة خـارقـة للعادة لبعض أصحـاب سليمان. ويقول: ﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ* قَـالَ عِفْـرِيتٌ مِنَ الجِنِّ أَنَـا آتِيكَ بِهِ قَبْـلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَـامِكَ وَإِنّي عَلَيْـهِ لَقَـوِيٌّ أَمِينٌ﴾.(١)

هذه هـي المقدرة الخارقة للعـادة الّتي أثبتها سبحـانه لعفـريت من الجن، أثبتهـا بشكل أوسع إلى من كـان عنده علم من الكتـاب حيث استطـاع أن يأتي بالعرش قبل أن يرتد إلى سليمان طرفُه، كما أشار سبحانه إلى هذه الحقيقة بقوله:

﴿قَالَ الَّـذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتـابِ أَنَا آتيكَ بِـهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْـكَ طَرْفُكَ فَلَمّا رَآهُ مُسْتَقِرّاً عِنْدَهُ قَالَ هَذا مِنْ فَضْلِ رَبِّي﴾.(٢)

---

١. النمل:٣٨ـ٣٩.

٢. النمل:٤٠.

وقـد شعر سليمان أنّ ذلـك كلّه من فضل ربّـه وكـرمـه، وحينئذٍ نـدرك بما لاريب فيه أنّ تفضّل الله على بعض عباده بـالكرامة لا ينافي كبريـاءه سبحانه ولا ينازع توحّده با لملك.

٤. الصفات الخبرية

لقـد شغلت الصفـات الخبريـة الكثير من المحـدّثين وبعض المتكلّمين، ككونه سبحانه مستوياً على العرش، وانّ له وجهاً، وعيناً، ويدين، فالتشاجر قائم على قـدم وساق من القـرن الثاني إلى يـومنا هـذا، حتّى أنّ الإمام الأشعـري جعل الاعتقـاد بها من عقائد أهـل السنّة، فقـال في رسـالته الّتي كتبهـا في عقيـدة أهل السنّة: من جملة قولنا....

وإنّ الله استوى على عرشه كما قال: ﴿**الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ**﴾.[1]

وإنّ لـه وجهـاً بـلا كيف، كما قـال: ﴿**وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالإِكْرامِ**﴾.[2]

وإنّ له يدين بلا كيف، كما قال سبحانه: ﴿**خَلَقْتُ بِيَدَيَّ**﴾ .[3]

وإنّ له عيناً بلا كيف كما قال سبحانه: ﴿**تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا**﴾ .[4][5]

ولسائل أن يسأل الشيخ الأشعري لماذا جعلتَ هـذه البنود من عقائد أهل السنّة؟ فإن كـان الملاك ورودها في القرآن الكـريم، فقد ورد في القـرآن أُمور كثيرة

---

١. طه:٥.

٢. الرحمن:٢٧.

٣. ص:٧٥.

٤. القمر:١٤.

٥. مقالات الإسلاميين: ٣٣٠ـ ٣٣٥.

حول موضوعات مختلفة، تصلح لأنْ تكون نواة للعقيدة فلماذا تركتها؟!

ثمّ هل كان النبي عند وفود النـاس إليه، يسألهم عن عقيدتهم في الصفات الخبرية؟!

فالعقيدة الإسلامية عند الشيخ الأشعـري بعدما تاب من الاعتزال والتحق بـالحنابلـة، عبارة عن عـدّة أُصول، دام فيهـا الخلاف بين المحدّثين وأهل الفكـر والوعي من الإسلاميين، ولولا الخلاف بينهم لما رأيت منها أثـراً في كتابيه: الإبانة، ومقالات الإسلاميين، فكأنّ العقيدة الإسلاميـة عبارة عن عدة مسائل، تضاربت فيها الآراء والأفكار، فصار الخلاف نواة للعقيدة.«ما هكذا تورد يا سعد الإبل»!!

٥. خلق القرآن وحدوثه

ومن أعظم الفتن الّتي ابتليت بها الأُمّـة الإسلاميـة في أوائل القرن الثـالث هو مسألة خلق القرآن وحدوثه، أو قدمه، وكان الأولى بمنهج أهل الحديث، عدم الخوض في هـذا الموضـوع، لأنّ مسلك أهل الحديث في اتّخاذ العقيـدة في مسـائل الدّين هـو اقتفاء كتاب الله وسنّة رسـوله، فما جاء فيهـا يؤخذ به، ومـا لم يجئ فيها يسكت عنـه ولا يبحـث فيـه، ولأجل ذلك ، حـرّم أهل الحديـث علم الكـلام ، ومنعوا البحث عن ما لم يرد في الكتاب والسنّة.

وعلى ضوء هذا كان الـلازم على أهل الحديث السّكوت وعدم النّبس ببنت شفة في هذه المسألة، لأنّ البحث فيها حـرام على أُصولهم، سواء أكان الموقف هو قدم القرآن أم حـدوثه، لأنّه لم يرد فيـه نصّ عن رسول الله ﷺ ولا عن أصحابه، ومع الأسف كـان مـوقفهم ــ وفي طليعتهم أحمد بن حنبل ـ سلبياً وقاموا بتكفير المخالف.

يقـول الإمـام أحمد بن حنبل في كتـاب «السنّـة»: «والقـرآن كـلام الله ليس بمخلوق، فمن زعم أنّ القرآن مخلوق فهو جهمـيّ كافر، ومن زعم أنّ القرآن كلام الله عزّ وجلّ ووقف ولم يقل مخلوق ولا غير مخلوق فهو أخبث من الأوّل، ومن زعم أنّ ألفاظنا بالقرآن وتلاوتنا له مخلوقة والقرآن كلام الله، فهو جهميّ، ومن لم يكفّر هؤلاء القوم كلّهم فهو مثلهم».[١]

إنّ السّلفيين وحتّى أتباعهم في هذه الأيّام يتحرّجون من القول بأنّ الله ليس بجسم، قائلين بأنّه لم يرد فيه نصّ في الشّريعة، ولكن يتشدّقون بقدم القرآن وعدم حدوثه بـلا اكتراث، سالفهم ولاحقهم حتّى جعلوه أصلاً يـدور عليه إسلام المرء وكفره.

وأنا أُجلّ الإمام أحمد، من هذا التطـرّف والتشدد الّذي أفضى به إلى تكفير من لم يكفّر هؤلاء القوم، ولعـل الرسالة موضوعة على لسـانه، كما عليه بعض أهل التحقيق.

ماذا يراد من قـدم القرآن؟ فإن أُريد قدم علمه سبحانـه فلا شكّ انّ علمه بما في القـرآن قديم، وإن أُريـد بـه قدم مـا نـزل بـه الروح الأمين على قلب سيـد المرسلين فلا شكّ أنّـه حادث، وكيف يمكن أن يكون قـديماً وهو فعله سبحـانه، وكلّ ما سواه فهو حادث و إن أُريد من نفي كونه مخلوقاً انّه غير مختلق فهو حقّ لا غبار عليه، كيف والاختـلاق تهمة ألصقها المشركون بالقـرآن فقالوا: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذا فِي المِلَّةِ الآخِرَةِ إِنْ هَذا إِلاّ اخْتِلاقٌ﴾ .[٢]

وكيف يعدّ القول بعدم حدوث القرآن أو حدوثه ملاكاً للإيمان والكفر مع

---

١. كتاب السنّة:٤٩.

٢. ص:٧.

أنّ محل النزاع غير واضح جدّاً؟!

هذه نماذج من المسائل الكلامية التي صارت ذريعة للمتطرّفين لئن يكفّروا مخالفيهم مع أنّها مسائل كلامية، لا صلة لها بالعقيدة التي يُسأل العبد عنها يوم الورود.

وهناك مسائل فقهية، تذرّعت بها المتطرّفة لتكفير من يخالفهم، وإليك عناوينها:

٤

التكفير والمسائل الفقهية

ما عشت أراك الدهر عجباً، والعجب العجاب أن تصبح المسائل الفرعية محوراً للإيمان والكفر أو التوحيد والشرك،خصوصاً ما اختلفت فيها كلمة الفقهاء، فنرى أنّ المتخصّصين في توزيع الكفر والشرك والألقاب البذيئة، ينثرونها على مخالفيهم في المسائل الفقهية مرفقة بشيء من السب والشتم، كالدجل والخرف. أعاذنا الله وإيّاكم من التنابز بالألقاب وسباب المؤمن وشتمه.

لقد خفي على هؤلاء أو تجاهلوا حقيقة الأمر، فإنّ الإيمان والكفر لا يدور على المسائل الفرعية، بل على المسائل العقائدية، فالاختلاف في الفروع لا يورث كفراً ولا شركاً، فغاية ما يُقال في هذا الشأن، أن يوصف المخالف بالخطأ، والجهل بحكم الله الشرعي، ومع ذلك يكون القائل به معذوراً إلاّ إذا كان الحكم الشرعي من ضروريات الدين على نحو يكون إنكاره ملازماً لإنكار الرسالة، وهذا خارج عن محلّ البحث.

وها نحن نذكر رؤوس بعض المسائل الفقهية الّتي صارت ذريعة للرمي بالشرك:

١. زيارة القبور.

٢. شدّ الرحال إلى زيارة القبور.

٣. البناء على القبور.

٤. بناء المسجد على القبور، والصلاة فيه.

٥. الاحتفال بميلاد النبي.

٦. البكاء على الميت.

٧. التوسّل بالأنبياء بأقسامه.

٨. التبرّك بآثار الأنبياء.

٩. صيانة الآثار الإسلامية .

١٠. الاستغاثة بالنبيّ.

هذه المسائل كلّها مسائل فرعية عملية، ولكلّ من القائل بالجواز وعدمه دليله الذي يطرحه على صعيد النقاش العلمي كسائر المسائل الفقهية، وليس لواحد من الطرفين رمي الآخر بالشرك، وإنّما له نقد دليل المخالف وإرشاده إلى الحقّ المهيع، شأن عامة المسائل الفقهية الّتي لم تزل محلاً للخلاف بعد رحيل الرسول إلى يومنا هذا.

ونحن إذا طالعنا كتاب «الفقه على المذاهب الأربعة» للشيخ الجزيري، لرأينا فجوة الخلاف فيه متّسعة بين فقهاء المذاهب، ومع ذلك نجد آراء الجميع فيه محترمة.

ولا نريد هنا الخوض في هذه المسائل الفرعية لأنّنا أشبعنا الكلام فيها في محاضراتنا، وإنّما نودّ أن نسلّط بصيص ضوء عليها ليتاح للقارئ معرفة دليل القائل بالجواز.

١ . زيارة القبور

تنطوي زيارة القبور على آثـار تربوية هامّة، وقـد أشار الرسول الأعظم إلى بعضها، فقال «زوروا القبور فإنّها تذكّركم بالآخرة».[١]

وفي كتاب «الفقـه على المذاهب الأربعة»: زيـارة القبور منـدوبة لـلاتّعاظ وتذكّـر الآخرة وتتأكـد يوم الجمعـة، وينبغي للزائر الاشتغـال بالـدعاء والتضرّع، والاعتبار بالموتىٰ، وقراءة القرآن للميت فإنّ ذلك ينفع الميت على الأصحّ، وبما ورد أن يقول الزائر عنـد رؤية القبور:«السّلام عليكم دار قوم مـؤمنين و إنّا إن شاء الله بكم لاحقون» ولا فـرق في الزيارة بين كـون المقابر قريبـة أو بعيدة[٢]، بل يندب السفر لزيارة الموتىٰ خصوصاً مقابر الصالحين.[٣]

٢ . شدّ الرحال إلى زيارة القبور

فإذا كانت زيارة القبور أمراً مستحبـاً فتكون مقدّمته أمراً مستحباً، أو على الأقلّ مباحاً لا حراماً.

وتخصيص الحديث النبـوي الحاث على زيارة القبـور بالقبـور القريبـة على خـلاف الإطلاق أوّلاً، وعلى خـلاف إطـلاق الحكمة الّتـي ذكرهـا النبي لها، لأنّ التذكير بالآخرة يشارك فيه القبر القريب والبعيد.

إنّ النبيّ الأعظم كان يشدّ الرحال إلى زيارة قبور شهداء أُحد ويقول: هذه قبور إخواننا.[٤]

---

١ . سنن ابن ماجة: ١/ ١١٧، باب ما جاء في زيارة القبور.

٢ . إلاّ الحنابلة فقالوا: إذا كانت القبور بعيدة فزيارتها مباحة لا مندوبة.

٣ . الفقه على المذاهب الأربعة:١/ ٣٤٠، خاتمة في زيارة القبور.

٤ . سنن أبي داود:٢/ ٢١٨برقم ٢٠٤٣، آخر كتاب الحجّ.

وقد جرت سيرة المسلمين عبر القرون على شدّ الرحال إلى زيارة قبر النبي في المدينة المنورّة، والقصص والأخبار في ذلك كثيرة لا يسع المجال لنقل معشارها.

وأمّا ما رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ أنّه«لا تشدّ الرحال إلاّ إلى مساجد ثلاثة: مسجدي هذا، والمسجد الحرام، والمسجد الأقصى»[1] فليس له مساس بشدّ الرحال إلى زيارة القبور، لانّ الاستثناء فيه مفرّغ والمستثنى منه محذوف وهو المسجد، فالنهي فيه متوجّه إلى شدّ الرحال إلى مسجد غير هذه المساجد الثلاثة، لا إلى شدّ الرحال إلى مكان من الأمكنة غير هذه المساجد الثلاثة، لوضوح جواز شدّ الرحال إلى التجارة، والسياحة، وصلة الأرحام، وتحصيل العلم، والإصلاح بين الفئتين إلى غير ذلك، وهذا يُعرب عن أنّ مصب النهي هو المساجد، جوازاً أو منعاً، لا مطلق الأماكن. فكأنّه ﷺ قال: لا تشدّ إلى مسجد من المساجد إلاّ إلى ثلاثة....

٣. البناء على القبور

المراد من القبور في العنوان هو قبور الأنبياء والشهداء والأئمّة والأولياء الذين لهم مكانة عالية في قلوب المؤمنين، فهل هو أمر جائز أو لا؟

وهذه المسألة كالمسألتين السابقتين لا تمتّ إلى العقيدة الإسلامية بصلة حتّى تكون ملاكاً للتوحيد والشرك، وإنّما هي من المسائل الفقهية التي يدور أمرها بين الإباحة والكراهة والاستحباب وغيرها.

ولا يصحّ لمسلم واع أن يتّخذ هذه المسألة ذريعة لتوزيع تُهم الشرك والتكفير والابتداع، فكم من مسائل فقهية اختلفت فيها كلمة الفقهاء، ومن

---

١. صحيح مسلم:٤/ ١٢٦، باب لا تشد الرحال، كتاب الحجّ.

حسن الحظ لم يختلف في هذه المسألة فقهاء الأئمّة الأربعة ولا فقهاء المذهب الإمامي، ودليلهم على جواز البناء على قبور تلك الشخصيات، هو ما اتّفق عليه المسلمون منذ رحيل النبيﷺ إلى يومنا هذا من صيانة الأبنية على قبور الأنبياء والصالحين والبناء على قبور الأولياء.

مضت القــــرون،وذي القبــــاب مشيّـــــد
والنـــــــاس بين مـــــــؤسّس ومجدّد

مـن كلّ عصر فيــــه أهل الحلّ والـــــــ
ـــــــعقد الـــذيـن بغيرهم لم يعقـــــد

لم ينكـــــروا أبـــداً على مــــا شـــادهـــا
شيـــــدت ولا من منكـــــر ومفنّـــــد

فبسيرة للمسلمين تتــــــــــــابعت
في كـلّ عصر نستــــدلّ ونقتـــــدي[1]

أضف إلى ذلك، انّ البناء على قبور الأنبياء والأولياء من مظاهر حبّ الرسول ومودة آله، فصيانة آثارهم والعناية بكلّ ما يتّصل بهم من مظاهر الحب والودّ. قال رسول اللهﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتّى أكون أحبّ إليه من والده وولده والناس أجمعين».[2]

نعم من مظاهر الحب، الاتّباع، ولكن تخصيص المظهرية بالاتّباع فقط، قول بلا دليل، بل له مظاهر أُخرى كما عرفت.

---

١. ذيل كشف الارتياب.

٢. صحيح البخاري:١/ ٨، باب حب الرسولﷺ من الإيمان، من كتاب الإيمان.

٤ . بناء المسجد على القبر والصلاة فيه

إنّ بناء المساجد على القبور أو عندها والصلاة فيها مسألة فقهية فرعية لا تمتُّ إلى العقائد بصلة.

فالمرجع في هذه المسائل هم أئمّة المذاهب وفقهاء الدين ــ أعني: الذين يستنبطون أحكامها من الكتاب والسنّة ـ و ليس لنا تكفير أو تفسيق واحد من الطرفين إذا قال بالجواز أو بعدمه، ونحن بدورنا نعرض المسألة المذكورة على الكتاب والسنّة لنستنبط حكمها من أوثق المصادر الفقهية.

الذكر الحكيم يشرح لنا كيفية عثور الناس على قبور أصحاب الكهف وانّهم ـ بعد العثور ـ اختلفوا في كيفية تكريمهم وإحياء ذكراهم والتبرّك بهم على قولين: فمن قائل: يُبنى على قبورهم بنيان ليُخلّد ذكرهم بين الناس.

إلى قائل آخر: يبنىٰ على قبورهم مسجد يصلّى فيه.

وقد حكى سبحانه كلا الاقتراحين من دون تنديد بواحد منهما.

قال سبحانه: **﴿وَكَذٰلِكَ أَعْثَرْنٰا عَلَيْهِمْ لِيعْلَمُوا أَنّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَانّ السَّاعَةَ لاٰ رَيْبَ فِيهٰا إِذْ يَتَنٰازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْياناً رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً﴾**.[1]

قال المفسّرون: إنّ الاقتراح الأوّل كان لغير المسلمين ويؤيده قولهم في حقّ أصحاب الكهف: **﴿رَبّهُم أَعْلَمُ بِهِمْ﴾** حيث حوّلوا أمرهم إلى ربّهم.

وأمّا الاقتراح الثاني فنفس المضمون(اتّخاذ قبورهم مسجداً) شاهد على أنّ المقترحين كانوا من المؤمنين، وما اقترحوا ذلك إلاّ للتبرّك بالمكان الذي دفنت فيه

---

١. الكهف:٢١.

أجساد هؤلاء الموحّدين.

والقرآن يـذكر ذلك الاقتراح من دون أن يعقب عليه بنقد أو رد،وهـو يدلّ على كونه مقبولاً عند مُنزل الوحي.

إنّ المسلمين من عهد قـديم أي من سنة ٨٨هـ و الّتي وُسِّع فيهـا المسجد النبويّ ودخل مرقد النبيّ الشريف فيه ـ، مـازالوا يصلّون في المسجد النبوي وفيه قبر النبي الأعظم، ولم يخطر ببال أحد، انّه تحرم الصلاة في مسجد فيه قبر إنسان.

٥. الاحتفال بميلاد النبي

الاحتفال بمـواليد الأنبيـاء والأولياء خصـوصاً ميـلاد النبيﷺ، كلّـه من مظاهر الحب والـودّ، قال رسول اللهﷺ: «ثلاث مـن كنّ فيه وجـد حلاوة الإيمان وطعمه: أن يكون الله ورسوله أحب إليه من سواهما...».[١]

وعلى ذلك جرت سيرة المسلمين عبر قرون.

ففي «تـاريخ الخميس»: لا يـزال أهل الإسـلام يحتفلـون بشهـر مـولـده، ويعملون الـولائم، ويتصدّقـون في لياليـه بأنـواع الصدقـات، ويُظهرون السرور، ويزيدون في المبرّات، ويعتنـون بقراءة مولده الشريف ويظهر عليهم من كـراماته كلّ فضل عظيم.[٢]

وقال القسطـلاني: ولا زال أهل الإسلام يحتفلون بشهر مـولدهﷺ يعملون الـولائم، ويتصدّقـون في لياليـه بأنواع الصـدقات، ويظهـرون السرور، ويزيـدون المبرّات، ويعتنـون بقراءة مـولـده الكـريم، ويظهر عليهم من بـركـات كلّ فضل

١. جامع الأُصول:٨/٣٣٨رقم ٢٢.

٢. تاريخ الخميس:١/ ٣٢٣للديار بكري.

عميم... فرحم الله امرئ اتّخذ ليالي شهر مولده المبارك أعياداً ليكون أشدّ علّة على من في قلبه مرض وأعياه داء.[١]

٦. البكاء على الميت

الحزن والتأثّر على فقد الأحبّة أمر جبلت عليه الفطرة الإنسانية وربّما يتعقبه ذرف الدموع على صفحات الوجه دون أن يملك الإنسان حزنه أو بكاءه،والإسلام دين الفطرة ولا يكون حكمه مخالفاً لها.

وهذا رسول الله يبكي على ولده إبراهيم ويقول:«العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلاّ ما يُرضي ربّنا، وإنّا بك يا إبراهيم لمحزونون».[٢]

وقد بكى النبي وأصحابه في مواقف كثيرة على فقدان أحبّتهم وأفلاذ أكبادهم، ولا يسع المجال لبيانها.[٣]

٧. التوسل بالأنبياء والصالحين

قد وصلت تهمة الشرك للمتوسّلين بأنبياء الله والصالحين من عباده ذروتها، وظهرت بأشدّ صورها، فصار المتوسّلون بهم، دعاة للشرك والضلال، ومجددي نحلة «عمرو بن لُحَيّ» الّذي هو أوّل من دعا إلى عبادة غير الله سبحانه في مكّة المكرمة، فكأنّهم نسوا قول الله سبحانه: ﴿**ٱدْعُ إِلىٰ سَبيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالّتي هِيَ أَحْسَن إِنّ رَبّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ**

---

١. المواهب اللدنية:١/ ٢٧.

٢. سنن أبي داود:١/ ٥٨؛ سنن ابن ماجة:١/ ٤٨٢.

٣. لاحظ: بحوث قرآنية: ١٤٠ـ١٤٧.

سَبِيلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ .[١]

وبالتالي نسوا أُسلوب الدعوة، وأدب الحوار في الإسلام، وطرق النقاش في الشريعة، فعادوا يكيلون للمتوسّلين ـ و هم جمهرة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ــ أنواع التهم من التكفير، والشرك، والبدعة، والانحراف عن الحنيفية، إلى غير ذلك من ردود وكلمات تحوّلت إلى عناد شخصيّ ورغبة إلى إلصاق التهم، لجمهور المسلمين.

ثمّ مَن المستفيد من هذا الهجوم في الكلام، وإلحاق جماهير المسلمين بالمشركين؟!

لا شكّ انّها فتنة يستغلّها أعداء الإسلام حيناً بعد حين.

فإذا بلغ السيل الزبىٰ، لا محيص من بسط الكلام لأجل إيقاف القارئ على واقع التوسّل الدائر بين المسلمين من عصر الرسولﷺ إلى يومنا هذا، كلّ ذلك من منظار التوحيد والشرك. فنقول انّ للتوسل أقساماً:

الف. التوسّل بدعاء الرسولﷺ في حال حياته

إنّ التوسل بدعاء النبيﷺ حال حياته، أمر اتّفق على جوازه المسلمون، ودعا إليه الكتاب وقال: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوّاباً رَحِيماً﴾ .[٢]

فتجد انّه سبحانه يدعو الظالمين إلى المجيء إلى مجلس الرسول كي يستغفر لهم النبي.

---

١. النحل:١٢٥.

٢. النساء:٦٤.

ب. التوسّل بدعاء الرسول ﷺ بعد رحيله

التوسّل بدعاء الرسول بعد رحيله لا يمكن أن يصبح شركاً، وإلاّ يكون التوسّل بدعائه في حياته شركاً أيضاً، لأنّ الحياة والموت ليسا مدار التوحيد والشرك، بل هما مدار كون الفعل (الدعاء) مفيداً أو غير مفيد، فلو كان نبيّ الشهداء ورسولهم، كنفس الشهداء حياً، فيكون طلب الدعاء منه كطلبه في حياته الدنيوية.

فإذا كان النبيّ ﷺ يسمع كلام المتوسّل، يصبح التوسل مفيداً لا لغواً، موافقاً لأُصول التوحيد لا شركاً، مع أنّ الكلام في إلصاق تهمة الشرك بالمتوسّل بدعاء النبي بعد رحيله، لا في كونه مفيداً أو غير مفيد.

ومن حسن الحظ أنّ المسلمين اتّفقوا على أنّه ﷺ حيّ، وعلى الرغم من الخلافات المذهبية بينهم في فروع الدين، يسلّمون على رسول الله ﷺ في الصلاة في تشهدهم، ويقولون:

«السّلام عليك أيّها النّبيّ ورحمة الله وبركاته».

وقد أفتى الإمام الشافعي وآخرون بوجوب هذا السلام بعد التشهد، وأفتى الآخرون باستحبابه، لكن الجميع متّفقون على أنّ النبيّ ﷺ علّمهم السلام وانّ سنّة النبيّ ﷺ ثابتة في حياته وبعد وفاته.[1]

فلو انقطعت صلتنا بالنبي ﷺ بوفاته، فما معنى مخاطبته والسلام عليه يومياً؟!

---

١. تذكرة الفقهاء:٣/ ٣٣٣، المسألة ٢٩٤؛ الخلاف:١/ ٤٧.

ج. طلب الشفاعة من النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم

وقد اتّضحت بما ذكرنا حقيقة طلب الشفاعة من النبيّ بعد رحيله، إذ هو من أقسام طلب الدعاء منه، فلو جاز طلب الدعاء منه لجاز طلب الشفاعة، مضافاً إلى أنّ سيرة المسلمين تكشف عن جواز طلب الشفاعة في عصر النبي صلى الله عليه وآله وسلم وبعده.

أخرج الترمذي في سننه عن أنس قال: سألت النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يشفع لي يوم القيامة، فقال: أنا فاعل، قال: قلت: يا رسول الله فأين أطلبك؟ فقال: «اطلبني أوّل ما تطلبني على الصراط».[1]

ونقل ابن هشام في سيرته: انّه لما توفّي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كشف أبو بكر عن وجهه وقبله، وقال: بأبي أنت وأُمّي أمّا الموتة التي كتب الله عليك فقد ذقتها، ثمّ لن تصيبك بعدها موتة أبداً.[2]

وقال الرضي في «نهج البلاغة» لمّا فرغ أمير المؤمنين عليه السلام من تغسيل النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال كلاماً وفي آخره: «بأبي أنت وأُمّي طبت حياً وطبت ميتاً، اذكرنا عند ربّك».[3]

إنّ طالب الشفاعة من الشفعاء الصالحين ـ الذين أذن الله لهم بالشفاعة ـ إنّما يعتبرهم عباداً لله مقربين لديه، وجهاء فيطلب منهم الدعاء، وليس طلب الدعاء من الميت عبادة له، وإلاّ لزم كون طلبه من الحيّ عبادة لوحدة واقعية العمل.

---

١. سنن الترمذي: ٤/ ٦٢١، كتاب صفة القيامة.

٢. السيرة النبوية: ٢/ ٦٥٦، ط عام ١٣٧٥هـ. وهو يدلّ على وجود الصلة بين الأحياء والأموات، وقد جئنا به لتلك الغاية.

٣. نهج البلاغة، رقم الخطبة ٢٣.

وقياس طلب الشفاعة من النبيّ ﷺ بطلب الوثنيين الشفاعة من الأصنام قياس مع الفـارق، لأنّ المشركين كانوا على اعتقاد بـأُلوهية معبوداتهم وربـوبيتها، وأين هذا من طلب الموحـد الذي لا يراه إلهاً ولا ربّاً ولا ممّن بيـده مصير حياته؟! وإنّما تعتبر الأعمال بالنيات لا بالصور والظواهر.

د. التوسّل بذات النبي وقدسيّته

وهناك من لا يرى التـوسّل بدعاء النبي أو طلب الشفاعة منـه حياً وميّتاً، عبادة له، لأنّ أقصاه، هـو طلب الدعاء وأمره يدور بين كـونه مفيداً أو غير مفيد، ولكن ربّما يدور في خلـده انّ التوسّل بـذاته وشخصيتـه، أو قدسيّتـه ومنزلتـه أمر ممنوع أو شرك خفي، ويتوهّم انّ هذا النوع من الخضوع عبادة للنبي.

ولكن التفريق ما بين التوسّلين، تفريق بـلا فارق، لأنّ التوسّل بدعاء النبي في كلتا الحالتين إنّما هـو لأجل كونه ذا مقام محمـود ومنزلة كبيرة عنـد الله، بل هو الرصيد لأمره سبحانه بالمجيء إليه ﷺ وطلب الدعاء والاستغفار منه ثمّ استجابة دعائه، فلولا طهارة روحه، وقدسية نفسه، لكان هو وسائر الناس سواء، فالتوسّل بدعـائه، في الحقيقة تـوسّل بقربـه منه، ومنـزلته لـديه، ﴿وَكَـانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً﴾.(١)

وقد أحسّ أولاد النبي يعقـوب بذلك، فعندمـا تبيّن أنّهم عصاة التجأوا إلى والدهم فقالوا: ﴿يَا أَبَانَـا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّـا كُنّا خَاطِئِينَ﴾، فاستجاب الأب لدعوتهم و﴿ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.(٢)

---

١. النساء:١١٣.

٢. يوسف:٩٧ـ٩٨.

ثمّ كيف يوصف هذا النوع من الخضوع عبادة للنبي، مع عدم صدق حدّها عليه، فإنّها عبارة عن الخضوع لشخص بما أنّه إله العالمين، أو لمن فوّض إليه أُموره سبحانه فصار إلهاً صغيراً، بيده التدبير والنصر، والعزّ، والذلّة، والمغفرة، والشفاعة، كما كان عليه المشركون في عصر الرسالة حيث كانوا يسوّون بين الأوثان و إله العالمين كما يحكي عنهم سبحانه بقوله:﴿تَاللهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ .(١)

وكانوا يعبدون الأوثان، بتصوّر انّ العزة في الحياة الدنيا، أو الانتصار في الحرب بأيديهم وقد فوّض الله سبحانه ذلك لهم. كما يقول سبحانه:﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزّاً﴾ .(٢)

وقال عزّ من قائل:﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ﴾ .(٣)

وأين هذا من التوسّل بقدسية النبي ومنزلته عند الله، بما أنّه من عباد الله الصالحين، فالعبودية جوهره، والحاجة إلى الله سبحانه، طبيعته، لم يفوّض إليه شيء من الشفاعة والتدبير.

يا لله وللأفهام الصافية والأذهان المستقيمة، الّتي تجعل التوسّل بالنبيّ بما هو عبد صالح مقرّب عند الله، والتوسل بالآلهة المزعومة ـ الّتي يتخيل المتوسل انّه فوض إليها أمر التكوين والتشريع، والشفاعة والمغفرة ـ في كفّ واحد!!

وهاهنا وثيقة تاريخية ننقلها بنصّها تعرب عن توسّل الصحابة بدعاء النبيّ ﷺ في حال حياته أوّلاً، وبقدسيّته وشخصيته ثانياً، والمقصود من نقلها هو الاستدلال على الأمر الثاني.

---

١. الشعراء:٩٧ـ٩٨.

٢. مريم:٨١.

٣. يس:٧٤.

روى عثمان بن حنيف أنّه قال: إنّ رجلاً ضريراً أتى النبي فقال: ادع الله أن يعافيني؟

فقال ﷺ: «إن شئت دعوت، وإن شئت صبرت وهو خير».

قال: فادعه، فأمره ﷺ أن يتوضّأ فيُحسن وضوءه ويصلّي ركعتين ويدعو بهذا الدعاء: «**اللّهمّ إنّي أسألك وأتوجّه إليك بنبيّك نبيّ الرحمة، يا محمد إنّي أتوجّه بك إلى ربّي في حاجتي لتُقضىٰ، اللّهمّ شفّعه فيّ**».

قال ابن حنيف: فو الله ما تفرقنا وطال بنا الحديث حتّى دخل علينا كأن لم يكن به ضرّ.

وهذه الرواية من أصحّ الروايات، قال الترمذي: هذا حديث حق، حسن صحيح.[١]

وقال ابن ماجة: هذا حديث صحيح.[٢]

ويستفاد من الحديث أمران:

الأوّل: يجوز للإنسان أن يتوسّل بدعاء النبيﷺ ويدلّ على ذلك قول الضرير: ادعُ الله أن يعافيني، وجواب الرسولﷺ: إن شئتَ دعوتُ، وإن شئت صبرتَ وهو خير.

الثاني: انّه يجوز للإنسان الداعي أن يتوسّل بذات النبيﷺ في ضمن دعائه، وهذا يستفاد من الدعاء الذي علّمه النبيﷺ للضرير، والإمعان فيه يثبت هذا المعنى، وانّه يجوز لكلّ مسلم في مقام الدعاء أن يتوسل بذات النبيﷺ ويتوجه به إلى الله.

---

١. صحيح الترمذي:٥، كتاب الدعوات، الباب١١٩ برقم ٣٥٧٨.

٢. سنن ابن ماجة:١/ ٤٤١برقم ١٣٨٥؛ مسند أحمد٤/ ١٣٨؛ إلى غير ذلك.

وإليك الجمل التي تدلّ على هذا النوع من التوسّل:

١ . اللّهمّ إنّي أسألك وأتوجّه إليك بنبيّك .

إنّ كلمة «بنبيّك» متعلّق بفعلين«أسألك» و «أتوجّه إليك» والمراد من النبي ﷺ، نفسه القدسية وشخصيته الكريمة لا دعاؤه.

٢ . محمد نبي الرحمة .

نجد انّه يذكر اسم النبي ﷺ ثمّ يصفه بنبي الرحمة معرباً عن أنّ التوسّل حصل بذات النبي ﷺ بما لها من الكرامة والفضيلة.

٣ . يا محمّد إنّي أتوجّه بك إلى ربّي .

إنّ جملة : «يا محمّد إنّي أتوجّه بك إلى ربّي» تدلّ على أنّ الضرير حسب تعليم الرسول، اتّخذ النبي ﷺ نفسه وسيلة لدعائه وتوسّل بذاته بما لها من المقام والفضيلة.

إلى هنا تمّ بيان أحكام التوسل على وجه موجز فلنذكر سائر الأُمور التي صارت ذرائع للتكفير.

٨. التبرك بآثار الأنبياء والصالحين

جرت سنّة الله الحكيمة على إجراء فيضه إلى الناس بالطرق والأسباب العادية، فالله سبحانه مع أنّه «هو الرازق ذو القوة المتين»، أمرنا بطلب الرزق عن طريق العمل، فمن جلس في البيت وطلب الرزق فقد أخطأ في فهم سنّة الله.

ومع ذلك ربّما تقتضي المصلحة جريان فيضه بطرق وأسباب غير مألوفة، خارقة للعادة لغايات قدسية، فتارة تكون الغاية هو إثبات النبوة ـ كما في المعاجز

ـ و أُخرى، إجلال الشخص و إظهار كرامته عند الله.

أمّا الأوّل فلا حاجة إلى البيان، فقد حكى الذكر الحكيم معاجز الأنبياء وتحدّيهم للمخالفين. وأمّا الثاني فالنموذج الواضح له في الذكر الحكيم هو قصة مريم في محرابها أوّلاً، وبعد مخاضها ثانياً.

يقول سبحانه: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنّىٰ لَكِ هَذا قالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.[١]

وقال أيضاً: ﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً﴾.[٢]

كلّ ذلك كان تفضّلاً من الله على مريم في فترات متلاحقة دون أن يعدّ ذلك من معاجزها وتحدّياتها.

وهذا ما نلاحظه أيضاً في قصة النبي يعقوب عليه السلام الذي ابتلي بفراق ابنه يوسف، وصبّ عليه أنواع المحن والغصص، فبكى عليه حتّى ابيّضت عيناه من الحزن فهو كظيم[٣]، وقد ردّ الله سبحانه بصره إليه بسبب غير مألوف، وهو تبرّكه بقميص ابنه يوسف فارتدّ بصيراً.

والذكر الحكيم يحكي تفصيل ذاك التبرّك وانّه قال يوسف: ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذٰا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ... ❊ فَلَمّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾.[٤]

لكن أيّة صلة هنا بين إلقاء القميص و ارتداد البصر؟ وهو شيء لا تؤيّده

---

١. آل عمران:٣٧.

٢. مريم:٢٥.

٣. يوسف:٨٤.

٤. يوسف:٩٣ـ٩٦.

التجربـة العلمية، ولا يمكن تفسيره وتعليلـه إلاّ عن طريق التمسّك بعلـل غيبية فوق تلك الحسابات، فالله سبحانه ربّما يخرق سنّتـه وعادته بتدبير الأُمور عن طرق غير مألوفة.

وقد كان التبرّك بآثار الأنبياء من الأشيـاء الثابتة في الأُمم السابقة على نحو يحكيه القرآن بتحسين.

تبرّك بني إسرائيل بصندوق العهد

لمّا أخبر نبي بني إسرائيل قومه بـ﴿إِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً﴾ حتّى يقاتلوا العدو بأمره، طلبوا منه آية تدلّ على أمره سبحانه، فبعث إليهم ملكاً فقال لهم: ﴿إِنَّ آيَة مُلْكِـهِ أَنْ يَأْتِيَكُـمُ التَّابُوتُ فِيـهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُـمْ وَبَقِيَّةٌ مِمّـا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنينَ﴾ .[١]

قال ابن كثير في تفسير الآية:

فالله سبحـانه يصف الصندوق الّـذي فيه آثـار موسى وهارون بـالأوصاف التالية:

١. فيه سكينة من ربّكم وطمأنينة لقلـوبكم حيث كانوا يستفتحون به على عدوهم ويقدّمونه في القتال ويسكنون إليه.

٢. فيـه بقية ممّـا ترك آل مـوسى وآل هـارون، حيث كان فيـه: نعلا مـوسى وعصـاه وعمامة هـارون وقفيـز من المنّ الّذي ينـزل عليهم من السماء ورضـاص الألواح.[٢]

٣. تحمله الملائكة فحملتـه الملائكة بين السماء والأرض وهم ينظرون حتّى

---

١. البقرة:٢٤٨.

٢. تفسير ابن كثير:١/ ٣٠١.

وضعته أمام طالوت.

فإذا جاز التبرّك بصندوق فيه نعلا موسى وعمامة أخيه هارون وغير ذلك، وقد بلغ شرفاً وكرامة إلى درجة كانت الملائكة تحمله، فلماذا لا يجوز التبرّك بآثار النبي والصالحين من عباد الله سبحانه؟!

٩. صيانة الآثار الإسلامية

تسعى الأُمم المتحضّرة المعتزّة والمهتمة بماضيها وتاريخها بما فيه من شخصيات و مواقف وأفكار، إلى إبقاء كلّ أثرٍ تاريخيٍ يحكي عن ذلك الماضي لتدلّل به على واقعية ماضيها، وتُبقي على أمجادها وأشخاصها في القلوب والأذهان.

ولا شكّ أنّ لهدم الآثار والمعالم التاريخية الإسلامية وخاصّة في مهد الإسلام: مكّة، ومهجر النبي الأكرمﷺ المدينة المنورة، نتائج وآثاراً سيئة على الأجيال اللاحقة التي سوف لا تجد أثراً لوقائع التاريخ الإسلامي وربّما ينتهي بها الأمر إلى الاعتقاد بأنّ الإسلام قضية مُفتعلة، وفكرة مُبتدعة ليس لها أيّ أساس واقعي، تماماً كما أصبحت قضية السيد المسيح عليه السلام في نظر الغرب، الذي بات جُلُّ أهله يعتقدون بأنّ المسيح ليس إلاّ قضية أُسطورية حاكتها أيدي البابوات والقساوسة، لعدم وجود أيّة آثار ملموسة تدلّ على أصالة هذه القضية ووجودها التاريخي.

فالواجب على المسلمين تشكيل لجنة من العلماء من ذوي الاختصاص للمحافظة على الآثار الإسلامية وخاصّة النبويّة منها، وآثار أهل بيته والعناية بها وصيانتها من الاندثار، أو عمليات الإزالة والمحو، لما في هذه العناية والصيانة من

تكريم لأمجاد الإسلام وحفظ لذكرياتها في القلوب والعقول وإثبات لأصالة هذا الدين، إلى جانب ما في أيدي المسلمين من تراث ثقافي وفكري عظيم.

وليس في هذا العمل أيُّ محذور شرعي فحسب، بل هو أمر محبّذ كما عرفت، بل هو أمر وافق عليه المسلمون الأوائل.

فهذا هو السلف الصالح قد وقف ـ بعد ما فتح الشام ـ على قبور الأنبياء ذات البناء الشامخ... فتركها على حالها من دون أن يخطر ببال أحدهم وعلى رأسهم عمر بن الخطاب بأنّ الإبقاء على الآثار أمرٌ محرّمٌ فيجب أن يهدم، وهكذا الحال في سائر القبور المشيَّد عليها الأبنية في أطراف العالم، وإن كنت في ريب من هذا فاقرأ تواريخهم وإليك نصّ ما جاء في دائرة المعارف الإسلامية:

إنّ المسلمين عند فتحهم فلسطين وجدوا جماعةً في قبيلة «لخم» النصرانية يقومون على حرم إبراهيم بـ«حبرون» ولعلّهم استغلّوا ذلك ففرضوا اتاوة على حجّاج هذا الحرم ... وربّما يكون توصيف تميم الداري أن يكون نسبة إلى الدار أي الحرم، وربّما كان دخول هؤلاء اللخميين في الإسلام، لأنّه قد مكّنهم من القيام على حرم إبراهيم الذي قدّسه المسلمون تقديس اليهود والنصارى من قبلهم. [١]

محافظة الخلفاء على خاتم النبي صلى الله عليه وآله وسلم

روى البخاري بسنده عن ابن عمر قال: «اتّخذ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خاتماً من ورق وكان في يده، ثمّ كان بعد في يد أبي بكر، ثمّ كان بعد في يد عمر، ثمّ كان بعد في يد عثمان، حتّى وقع بعد في بئر أريس، نقشه محمد رسول الله».

---

١. دائرة المعارف الإسلامية: ٥/ ٤٨٤، مادة «تميم الداري».

عبد الله بن عمر والاعتناء بآثار النبيﷺ

اشتهر ابن عمر بتتبّعه للآثار واعتنائه بها ومحافظته عليها، قال الشيخ ابن تيمية: سئل الإمام أحمد بن حنبل عن الرجل يأتي هـذه المشاهد؟ فأجاب وذكر في جـوابه: أنّ ابن عمـر كان يتتبع مـواضع سير النبيﷺ حتّى أنّـه رُئي يصب في موضع ماء، فسئل عن ذلك، فقال: كان النبيﷺ يصب هاهنا ماء.

وروى البخاري في صحيحه عن موسى بن عقبة قال: رئي سالم بن عبد الله يتحرّى أماكن من الطريق ويصلّي فيها، ويحدّث أنّ أباه كان يصلّي فيها وأنّه رأى النبيﷺ يصلّي في تلك الأمكنـة، قال مـوسى: وحـدّثني نـافع أنّ ابن عمر كـان يصلّي في تلك الأمكنة.[١]

١٠. الاستعانة بالنبيﷺ

ونركّز في المقام على أُمور ثلاثة:

١. إذا كانت الاستعانة بحكم قوله سبحانه:﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ مختصة به سبحانه، فكيف نستعين في قضاء الحوائج بالأولياء ونستعين بهم؟

٢. هل الاستعانة بالنبي ـ مثلاً ـ عبادة له؟

٣. هل للصالحين القدرة على الإجابة عند الاستعانة والاستغاثة بهم؟

وإليك دراسة الجميع واحداً بعد الآخر:

الف. الاستعانة المختصّة بالله، غير الاستعانة بالمخلوق

إنّ الاستعـانة، مختصّـة بالله سبحـانه وقـد أمـرنا الله سبحـانه أن نقـول في

---

١. اقتضاء الصراط المستقيم: ٣٨٥.

صلواتنا:﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ، ومع ذلك كلّه، فإنّ حياة البشر ــ فضلاً عن المسلمين ــ لا تستغني عن الاستعانة بالغير. فكيف الجمع بين حصرها في الله، وكون التعاون أساس الحياة؟

وبعبارة أُخرى إنّ الاستعانة بالغير تشكّل الحجر الأساس للحضارة الإنسانية حيث إنّ حياة البشر في هذا الكوكب قائمة على أساس التعاون، وإنّ العقلاء يتعاونون في أُمورهم الحيوية.

وهذا هو العبد الصالح ذو القرنين استعان في بناء السد وقال: ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً﴾[١]، ومع ذلك كيف تحصر الاستعانة بالله سبحانه؟!

والجواب: انّ المُعين حقيقة وفي عامّة الصور، هو الله سبحانه، فلو قام شخص بإعانة غيره، فانّما يُعين بقدرة مكتسبة وبإرادة من الله سبحانه.

وعلى ضوء هذا فالاستعانة بمن يعين بذاته، وبقدرته الّتي هي عين ذاته، مختصة بالله سبحانه؛ وأمّا الاستعانة بمن يعين بقدرة مكتسبة من الله سبحانه، لا تؤثر إلاّ بإذنه فهو يختص بالمخلوق. وكم في القرآن الكريم نظائر لهذا الأمر، مثلاً انّه سبحانه ينسب التوفّي لنفسه ويقول: ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾.[٢]

وفي ذات الوقت ينسبه إلى الملائكة ويقول:﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ﴾.[٣]

فالتوفّي المنسوب إلى الله غير المنسوب إلى رسله، فالتوفّي الصادر عن شخص بقدرة ذاتية غير محددة، هو قائم بالله سبحانه لا يعمّ غيره؛ وأمّا التوفّي

١. الكهف:٩٥.

٢. الزمر:٤٢.

٣. الأنعام:٦١.

الصادر عن الرسل بقدرة مكتسبة محددة، فهو للرسل.

وقس على ذلك كثيراً من الأفعال الّتي نسبت إلى الله سبحانه وفي الوقت نفسه نسبت إلى المخلوق.

ب. الاستعانة بالأولياء ليست عبادة لهم

إنّ طلب الإعانة أو الاستعانة بالأولياء ليست عبادة لهم، وإنّما يكون عبادة لهم إذا استعان الإنسان واستغاث بهم بما أنهّم آلهة، أو فُوّض إليهم تدبير العالم في عامّة الجهات أو بعضها، وتحدّثنا بالتفصيل في محاضراتنا عن معنى العبادة ومواردها، وقلنا : إنّ الاعتقاد بالإلوهيّة والربوبيّة هو الّذي يصبغ العملَ بصبغة العبادة، ومن الواضح أنّ المتوسّل بأولياء الله لا يعتقد بإلوهيتهم ولا بربوبيّتهم، ولا بتدبيرهم لشؤون الكون ولا بقيامهم بأفعال الله ـ بالاستقلال والاختيار ـ بل يعتبرهم عباداً مكرمين، أطهاراً طيّبين، وُجَهاء عند الله، مطيعين له، غير مرتكبين لأدنى ذنب ومعصية.

إنّ التواضع والخضوع أمام قبور أولياء الله هو ـ في الحقيقة ـ تواضعٌ لله وخضوعٌ له، وإن كان في ظاهره تواضعاً لذلك الوليّ الصالح، إلاّ أنّه لو كشفنا الستار عن قلب ذلك المتواضع لرأينا أنّه يتواضع لله من خلال تواضعه لوليّه الصالح، وأنّه يطلب حاجته من الله بواسطة هذا الوليّ الصالح وبسببه، فالتوسُّل بالأسباب هو عين التوسّل بمسبِّب الأسباب ـ وهو الله سبحانه ـ وهذا واضح لأهل البصيرة والمعرفة.

وأنت لو سألتَ المتوسِّل بأولياء الله عن الّذي دعاه إلى التوسُّل به، لأجابك ـ فوراً ـ بأنّه «وسيلة» إلى الله سبحانه، كما قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وابْتَغُوا إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا في سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.[1]

فكما أنّ الإنسان يتوسَّل إلى الله بالصلاة والصوم والعبادات والطاعات، كذلك يتوسَّل إليه سبحانه بأوليائه الصالحين المكرَّمين لديه.

والخلاصة: أنّ المؤمن يعتقد ـ في قرارة نفسه ـ بأنّ توسُّله بالنبيّ وغيره من المعصومين والصالحين يدفع المتوسَّل به إلى السؤال من الله تعالى لقضاء حاجة من توسَّل به، سواء أكانت الحاجة غفران ذنب، أو أداء دَين، أو شفاء مريض، أو رفاهيّة عيش، أو غير ذلك.

ج. هل للصالحين القدرة على الإعانة؟

إذا تبيّن انّ الاستعانة بالخالق غير الاستعانة بالمخلوق، كما أنّها ليست عبادة للمستعان مادام المستعين يعترف بكونه عبداً، لا يقدر على الإعانة إلاّ بما قدّره سبحانه ومكّنه منه.

فعندئذٍ ينتهي البحث إلى الأمر الثالث وهو كون الصالحين قادرين على إنجاز ما يطلب منهم ـ إذا شاء الله ـ و دراسة الحياة البرزخية، يزيح الستار عن وجه الحقيقة. و إليك موجز الكلام فيه.

هل الموت انعدام وفناء مطلق، أو انّه انتقال من دار إلى دار ومن عالم ضيق إلى عالم فسيح؟

فالماديون على الأوّل، فالموت عندهم عبارة عن فناء الإنسان وضلاله في الأرض، فلا يبقى بعد الموت إلاّ الذرات المادية المبعثرة في الطبيعة، وهي غير

---

١. المائدة: ٣٥.

كافية في إعادة الإنسان، إذ ليس هنا شيء متوسط بين المبتدأ والمعاد.

والإلهيون على الثاني، وأنّ الموت خروج الروح من البدن العنصري وتعلّقه ببدن آخر يناسبه، وهو أمر يدعمه كتاب الله الأكبر، ويدلّ عليه بأوضح دلالة، ويفنّد دليل المشركين القائلين: ﴿أإذا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَإِنّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ بقوله: ﴿قُلْ يَتَوَفّاكُمْ مَلَكُ الْمَوتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلىٰ رَبِّكُمْ تُرْجعُون﴾ .[١]

ومعنى الآية: هو أنّ الموت ليس ضلالاً في الأرض وأنّ الشخصية الإنسانية ليست هي الضالّة الضائعة في ثنايا التراب، إنّما الضال في الأرض هو أجزاء البدن العنصري المادي، فهذه الأجزاء هي التي تتبعثر في الأجواء والأراضي، ولكن لا يشكّل البدنُ حقيقةَ الشخصية الإنسانية، ولا يكون مقوّماً لها، وإنّما واقعيتها هي نفس الإنسان، وروحه، وهي لا ينتابها ضلالٌ، ولا يطرأ عليها تبعثر، بل يأخذها الله سبحانه ويحتفظ بها كما قال:﴿ قُلْ يَتَوَفّاكُمْ مَلَكُ الْمَوتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلىٰ رَبِّكُمْ تُرْجعُون﴾.

ويتجلّ معنى الآية بوضوح إذا عرفنا أنّ التوفّي في الآية يعني الأخذ في مثل قوله سبحانه: ﴿اللهُ يَتَوفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ في مَنامِها فَيُمْسِكُ الّتي قَضىٰ عَلَيْهَا الْمَوتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرىٰ إِلىٰ أَجَلٍ مُسَمّىً إِنَّ في ذَلِكَ لآياتٍ لِقَومٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ .[٢]

والمعنى : هو أنّ الله يقبض الأنفس ويأخذها في مرحلتين: حين الموت، وحين النوم، فما قضى عليها بالموت أمسكها ولم يردّها إلى الجسد، وما لم يقض عليها بالموت أرسلها إلى أجل مسمّى.

---

١. السجدة: ١٠ـ١١.

٢. الزمر: ٤٢.

كلّ ذلك يكشف عن أنّ الموت ليس علامة الفناء وآية العدم، بل هناك انخلاع عن الجسد، وارتحال إلى عالم آخر، ولولا ذلك لما كانت الآية جواباً على اعتراض المشركين، ورداً على زعمهم.

فإذا كانت الحياة البرزخية، حياة واقعية، فالمسيح الّذي كان يبرئ الأكمه والأبرص بإذن الله، هو نفس المسيح في الحياة البرزخية، فيستطيع قطعاً أن يقوم بنفس ما كان يقوم به في حياته المادّية.

كلّ ذلك بإذنه سبحانه.

فإذا كان الاستسقاء بالنبي ﷺ ـ في حياته المادية ـ سبباً، لاستجابة الدعاء وانفتاح أبواب الرحمة، كما قاله أبو طالب:

وأبيض يُستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

فالاستسقاء به في الحياة البرزخية لا ينقص عن الاستسقاء به في حياته المادية، لأنّ سبب استجابة دعائه، هو منزلته ومكانته عند الله وقربه لديه، والجميع محفوظ في كلتا الحالتين.

٥

الآن حصحص الحق

الآن حصحص الحقّ، وتجلّت الحقيقة بأجلى مظاهرها وتبيّن أنّ تكفير أهل القبلة لأجل الاختلاف في المسائل الكلامية أو الأحكام العملية، على خلاف الكتاب والسنّة النبوية، وسيرة علماء الإسلام خصوصاً إذا صدر المخالف فيها عن دليل، لا عن الهوى والعصبية.

والعجب انّ هؤلاء المتطرّفين، يرون أنفسهم أتباع أحمد بن تيمية، ولكنّه بريء منهم حسب فتاواه الّتي جمعها عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي.

فعلى هؤلاء ـ الذين يقتلون الأبرياء ولا يقيمون لدمائهم وأعراضهم وأموالهم وزناً ـ أن يرجعوا إلى فتاوى إمامهم حتّى يقفوا على أنّه يعذِّر المخالف إذا صدر عن اجتهاد، وقد ذكر عدّة مسائل عذّر فيها المخالف ـ بما ليس معذوراً عند المتطرفين ـ و إليك نصّ كلامه:

«والخطأ المغفور في الاجتهاد هو نوعي المسائل الخبرية والعلمية كما قد بُسط في غير موضع، كمن اعتقد ثبوت شيء لدلالة آية أو حديث، وكان لذلك ما

يعارضه ويبين المراد ولم يعرفه.

مثل من اعتقد أنّ الذبيح إسحاق، لحديث اعتقد ثبوته، أو اعتقد أنّ الله لا يُرى، لقوله: ﴿**لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ**﴾، ولقوله: ﴿**وَما كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَراءِ حِجْابٍ**﴾، كما احتجّت عائشة بهاتين الآيتين على انتفاء الرؤية في حقّ النبيﷺ، وإنّما يدلّان بطريق العموم.

وكما نقل عن بعض التابعين أنّ الله لا يُرىٰ، وفسّروا قوله: ﴿**وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلىٰ رَبِّها نَاظِرَةٌ**﴾ بأنّها تنتظر ثواب ربّها، كما نقل عن مجاهد وأبي صالح.

أو من اعتقد أنّ الميت لا يعذب ببكاء الحي؛ لاعتقاده أنّ قوله: ﴿**وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرىٰ**﴾ يدلّ على ذلك؛ وأنّ ذلك يقدّم على رواية الراوي، لأنّ السمع يغلط، كما اعتقد ذلك طائفة من السلف والخلف.

أو اعتقد أنّ الميت لا يسمع خطاب الحي؛ لاعتقاده أنّ قوله تعالى: ﴿**إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتىٰ**﴾ يدلّ على ذلك.

أو اعتقد أنّ الله لا يعجب، كما اعتقد ذلك شريح؛ لاعتقاده أنّ العجب إنّما يكون من جهل السبب والله منزّه عن الجهل.

أو اعتقد أنّ عليّاً أفضل الصحابة؛ لاعتقاده صحّة حديث الطير؛ وأنّ النبيّ ﷺ قال: «اللّهمّ ائتني بأحبِّ الخلق إليك؛ يأكل معي من هذا الطائر».

أو اعتقد أنّ من تجسّس للعدو وعلّمهم بغزو النبيﷺ فهو منافق؛ كما اعتقد ذلك عمر في حاطب وقال: دعني أضرب عنق هذا المنافق.

أو اعتقد أنّ من غضب لبعض المنافقين غضبة فهو منافق؛ كما اعتقد ذلك أُسَيْد بن حُضَيْر في سعد بن عبادة وقال: إنّك منافق! تجادل عن المنافقين.

أو اعتقد أنّ بعض الكلمات أو الآيات أنّها ليست من القرآن؛ لأنّ ذلك لم

يثبت عنده بالنقل الثابت، كما نقل عن غير واحد من السلف أنّهم أنكروا ألفاظاً من القرآن، كإنكار بعضهم: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ﴾، وقال: إنّما هي «ووصيّ ربّك». وإنكار بعضهم قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾، إنّما هو ميثاق بني إسرائيل، وكذلك هي في قراءة عبد الله. وإنكار بعضهم: ﴿أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إنّما هي أو لم يتبين الذين آمنوا. وكما أنكر عمر على هشام بن الحكم، لما رآه يقرأ سورة الفرقان على غير ما قرأها. وكما أنكر طائفة من السلف على بعض القراء بحروف لم يعرفوها، حتّى جمعهم عثمان على المصحف الإمام.

وكما أنكر طائفة من السلف والخلف أنّ الله يريد المعاصي، لاعتقادهم أنّ معناه أنّ الله يحب ذلك ويرضاه ويأمر به. وأنكر طائفة من السلف والخلف أنّ الله يريد المعاصي، لكونهم ظنوا أنّ الإرادة لا تكون إلاّ بمعنى المشيئة لخلقها، وقد علموا أنّ الله خالق كلّ شيء، وأنّه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، والقرآن قد جاء بلفظ الإرادة بهذا المعنى، ولكن كلّ طائفة عرفت أحد المعنيين وأنكرت الآخر.

وكالذي قال لأهله: إذا أنا متُّ فأحرقوني، ثمّ ذرّوني في اليمّ فوالله لئن قدر الله عليّ ليعذبني عذاباً لا يعذبه أحداً من العالمين. وكما قد ذكره طائفة من السلف في قوله: ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾، وفي قولِ الحواريّين: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾.

وكالصحابة الذين سألوا النبيﷺ: هل نرى ربّنا يوم القيامة؟ فلم يكونوا يعلمون أنهّم يرونه، وكثير من الناس لا يعلم ذلك، إمّا لأنّه لم تبلغه الأحاديث، وإمّا لأنّه ظن أنّه كذب وغلط». (1)

---

١. ابن تيمية: أحمد، مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي الحنبلي: ٢٠/ ٣٣ـ٣٦.

معنى كلامه: انّ هنا مجموعة من المسائل اتّفق جمهور الأُمّة فيها على رأي واحد، ومع ذلك عذّر المخالف حتّى لم يرَ اعتقاد المخالف بتحريف القرآن خروجاً عن الدين.

يا أُمّه اثكليه

يعاني العصر الراهن من الإرهاب الواسع الّذي من ثمراته: قتل الأبرياء، وإراقة دماء الشيوخ الرُّكّع، والأطفال الرُّضّع، وتمارسه كوادر سياسية ـ لا دينية ـ عليها سمة الإسلام، فصار ذلك سبباً لتشويه سُمْعة الإسلام في مختلف الأقطار، وعاد الشياطين يشهّرون بالإسلام، ويزعمون أنّه دين الإرهاب وانّهما وجهان لعملة واحدة.

وقد قام غير واحد من علماء الإسلام بإدانة هؤلاء والتبرّي منهم، وأكّدوا على أنّها فتنة استغلها أعداء الإسلام للإيقاع بالمسلمين وضرب بعضهم ببعض، عبر خطابات من عُلى المنابر، ووسائل الإعلام، حتّى وقف الأبكم والأصمّ على أنّ هذه الأعمال الوحشية، تغاير مبادئ الإسلام في عقيدة عامة طوائفه.

ولكن ما عشتَ أراك الدهر عجباً، فقد قام في هذه الظروف العصيبة أحد دكاترة السعودية[1] بمهمة التحقيق والتعليق على كتاب يحمل اسم «**كيف كان ظهور شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب**» والكتاب حافل بذكر الأعمال الدموية والإرهابية وملخّص الكتاب: انّ انتصار الشيخ كان قائماً على شنّ الغارات على الطوائف العربية في داخل نجد وخارجها وأحياناً على القبائل البعيدة، وكلّ هؤلاء كانوا من أهل القبلة، يصلّون ويصومون، وعلى ذلك درج آل

١. الدكتور عبدالله الصالح العثيمين بجامعة الملك سعود، نشرته دار الملك عبد العزيز.

سعود أيضاً بعد رحيل الشيخ.

وها نحن نقتطف من الكتاب، نموذجاً يوقف القارئ على عامّة محتوياته.

غزوات بإذن محمد بن عبد الوهاب

لما التجأ ابن عبد الوهاب ـ هرباً من حاكم الإحساء ـ إلى الدرعية الّتي كان يحكمها محمد بن سعود، قال له الأمير: يا شيخ ما يكون لك قعود[١] عندنا ولا مسكن، فأنا رجل متعوّد على أكل الحرام، وأنت عالم زاهد. هل عندك أن تفتينا؟[٢] قال له الشيخ محمد: نعم أنا أبقيك على ما أنت عليه من أكل الحرام وأنت تتركني أسكن عندك، أُقوّم الدين. فرضي ابن سعود بذلك. وقام ابن سعود و غزا من بلده على أربع ركائب. فوجد غنماً لقوم يسمّون القرينية، فذبح راعي الغنم وأخذها... ثمّ بعدها أرسل ثماني ركائب على أهل القرينية لأنّهم قريبون منه. ثمّ [غزا] هذه القرية الّتي تسمّى عرقة. و[حارب ثانية، وغزا] بقدر أربعين ذلولاً. وبعث إلى جماعة له بالعيينة ثمانية رجال، وذبح عثمان بن معمّر وعبيداً حوله أربعين. ثمّ إنّه ضجّت القوم، وقالوا: مريدون. ولا اختلف منهم أحد. وملك العيينة والجبلية. وهذه تبعد عن الدرعية بقدر ست ساعات. والله أعلم بالصواب.

وبعدما قتل ابن معمر خاف ابن سعود منه، وقال: أخاف أن يقتلني. وأمّا الشيخ كان بذلك الوقت إذا خرج من بيته إلى المسجد يمشي خلفه مقدار مائتي رجل. و إذا دخل كذلك.[٣]

١. (قعود): إقامة.

٢. (هل عندك أن تفتينا؟): هل عندك لنا فتوى بحلّ ذلك.

٣. كيف كان ظهور محمد بن عبد الوهاب:٥٨ـ٥٩.

نموذج آخر

إنّه لمّا أراد الجهاد تجهز معه مائة وعشرون جملاً، فحارب قرية تسمّى الهلالية. وأخذها وأخرج أهلها منها ودخلها. وهي بأرض القصيم تبعد عن الدرعية بقدر سبعة أيام. وأسلم رياض العارض وضرما. الرياض حاكمها ابن دوّاس، وأهل «ضرما» حاكمها ناصر بن إبراهيم. وصارت غزوته مقدار ثلاثمائة ذلول. وطاعوا له بنو سبيع، وهم بدو و أصحاب بيوت شعر. وتبعوا الدين الظفير.[١]

وهكذا ساق المؤلّف غزوات آل سعود طيلة سنين وكلّها تخريب ودمار، اغتيال و إغارة، لا على الكافرين والمشركين ولا على أهل الكتاب من اليهود والنصارى، بل على المسلمين الذين يخالفون تطرّف ابن عبد الوهاب في التكفير والاتّهام بالشرك!!

إنّ نشر هذا الكتاب وأمثاله، هو الّذي أعطى بعض المبرّرات للأعداء والمتربّصين بنا للنيل من إسلامنا العظيم، وفتح لهم أبواب الطعن عليه لتشويه صورته الناصعة.

كما لعبت هذه الكتب دوراً فاعلاً في تهيئة الأرضية المناسبة لبث الأحقاد والأضغان في النفوس المريضة الّتي انطلقت لتزرع الرعب والقتل والدمار في كلّ زاوية، غير مكترثة بالضحايا الأبرياء الذين لا ذنب لهم سوى نشدان الأمن والراحة والسلام، تلك الآمال الّتي حرص إسلامنا العزيز على تحقيقها من خلال تجسيد مبادئه وقيمه ومفاهيمه السامية على أرض الواقع.

---

١. المصدر نفسه: ٦١ـ ٦٢.

ولعل المحقّق ـ سامحه الله وإيّانـا ـ لم يكن يحسب لهذه المضاعفات الخطيرة والنتائج المأساوية الّتي يسببها نشر مثل هذه الكتب. والله العالم.

بيان هيئة كبار العلماء في الأراضي المقدسة

لمّا أحسّت هيئـة كبـار العلماء في الأراضي المقدّسـة، بخطـورة الموقف، وانّ التكفير ثمّ التفجير وما ينشأ عنه من سفك الدماء وتخريب المجتمعات و... يضاد أُصول الإسلام ومبـادئه، أصدرت بياناً يُعرب عن وقوفهم في وجـه أعداء الإسلام والمغفّلين المشغولين بالمسائل الخلافية، مكان التركيز على المسائل المتّفق عليها.

وإليك نصّ البيان:

أعلن مجلس هيئة كبارالعلماء في بيان أصدره عن ما يجري في كثير من البلاد الإسلاميـة وغيرها من التكفير والتفجير، وما ينشأ عنه من سفك الـدماء وتخريب المنشـآت. وما يترتّب عليـه من إزهاق أرواح بـريئـة، وإتلاف أمـوال معصومـة، وإخافة الناس،وزعزعة الأمن والاستقرار.

أعلن أنّ الإسلام بريء من معتقـد التكفير الخاطئ، وإنّ ما يجري في بعض البلـدان من سفك للـدماء البريئـة وتفجير المسـاكن والمركبات والمرافـق العامـة والخاصة وتخريب للمنشـآت هو عمل إجرامـي والإسلام بريء منـه وكذلك كلّ مسلم يؤمن بالله واليوم الآخر.

وأوضح البيـان أنّ مَـن يقـوم بمثل هـذه الأعمال مـن التفجير والتخـريب بحجـة التكفير إنّما هو تصرّف من صـاحب فكر منحـرف، وعقيدة ضـالّة. فهـو يحمل إثمـه وجرمـه فـلا يحتسب عملـه على الإسلام ولا على المسلمين المهتـدين بهدى الإسلام، المعتصمين بالكتاب والسنّة، المتمسكين بحبل الله المتين، وإنّما هو

محض إفساد و إجرام تأباه الشريعة والفطرة. ولهذا جاءت نصوص الشريعة قاطعة بتحريمه محذرة من مصاحبة أهله.

قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ* وَإِذَا تَوَلَّى سَعَىٰ فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الْفَسادَ* وَإِذا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾.[١]

وأوضح بيان مجلس هيئة كبار العلماء أنّ التكفير حكم شرعي مردّه إلى الله ورسوله، فكما أنّ التحليل والتحريم والإيجاب إلى الله ورسوله، فكذلك التكفير، وليس كلّ ما وصف بالكفر من قول أو فعل يكون كفراً أكبر مخرجاً من الملّة.

ولمّا كان مردّ حكم التكفير إلى الله ورسوله لم يجز أن نكفّر إلاّ من دلّ الكتاب والسنّة على كفره دلالة واضحة، فلا يكفي في ذلك مجرد الشبهة والظن لما يترتب على ذلك من الأحكام الخطيرة.

و إذا كانت الحدود تدرأ بالشبهات مع أنّ ما يترتّب عليها أقلّ ممّا يترتّب على التكفير فالتكفير أولى أن يدرأ بالشبهات، ولذلك حذر النبيﷺ من الحكم بالتكفير على شخص ليس بكافر فقال:«... أيّما امرئ قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما إن كان كما قال و إلاّ رجعت عليه...».[٢]

نشكر الله سبحانه على وجود هؤلاء العلماء الواعين، الذين لا تأخذهم في الله لومة لائم. فشكراً لهم ثمّ شكراً شكراً.

---

١. البقرة:٢٠٤ـ٢٠٦.

٢. اقرأ البيان بتمامه في رسالة «التحذير من المجازية بالتكفير»: د ـ ج.

٦

ذرائع واهية

في تضليل الشيعة

ما تقدّمت الإشارة إليه من ذرائع التكفير أو التفسيق، لم تكن مختصة بطائفة دون طائفة، بل كانت تستهدف عامّة المسلمين بفرقهم المختلفة. ونريد أن نتحدّث هنا عن أُمور يُضلّل بها طائفة خاصّة من المسلمين وهم الشيعة الإماميّة المتمسّكون بالنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته.

وقد أخذ الجُدَد من الكُتّاب ــ الذين لهم ولع بتمزيق الشمل وتفريق الصف ـ بنشرها وترويجها، مركّزين على الفوارق، ومُعرضين عن المشتركات، وكأنّه ليس بين تلك الطائفة وسائر المسلمين سوى هذه الفوارق.

إنّ الشيعة تشارك السنّة في أغلب الأُصول والفروع وتفارقها في أُمور كلّها عند السنّة من الفروع وليست من الأُصول، والاختلاف في الفروع بين العلماء قائم على قدم وساق منذ رحيل النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى يومنا هذا، ونحن ندرسها على ضوء الكتاب والسنّة، وسيظهر للقارئ الكريم أنّ الخلاف في هذه المسائل لا يمتّ إلى الإيمان والكفر بصلة على أنّ بعضها ممّا أُلصق بالشيعة وهم منه برآء براءة يوسف ممّا اتّهم به.

١ . عدم الاعتراف بخلافة الخلفاء

إنّ الشيعة ترفض خلافة الخلفاء وتعتقد بإمامة الأئمّة الاثني عشر.

أقول: إنّ الشيعة لا تعترف بخلافة الخلفاء، لأنّ الإمامة عندهم ــ بعد رحيل الرسول ﷺ ـ مقام تنصيبيّ، لا انتخابي، وقد قام النبي ﷺ حسب الأخبار المتواترة بتنصيب وصيّه عند منصرفه من حجة الوداع إلى المدينة في أرض الغدير وقال مخاطباً أصحابه البالغين إلى ثمانين ألفاً أو أزيد:

«ألستُ أولى بكم من أنفسكم»؟ قالو: بلى.

قال:«من كنت مولاه فهذا عليٌّ مولاه، اللّهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله». ثمّ قال: «اللّهم اشهد أنّي قد بلّغت».

وهو حديث متواتر رواه الصحابة والتابعون والعلماء في كلّ عصر وقرن، وقد احتفلت بنقله كتب التفسير والحديث والتاريخ والسير. كما أُلّف في هذا الموضوع عشرات الموسوعات ومئات الكتب، وصاغه الشعراء في قصائدهم عبر القرون.[١]

ونحن نضرب عن ذلك صفحاً ونركّز على أمر آخر وهو:

هل الاعتقاد بخلافة الخلفاء من الأُصول؟ وهل كان إسلام الصحابة وإيمانهم في عصر الرسول ﷺ مشروطاً بالإيمان بخلافة الخلفاء؟ وهل كان النبي يسأل الوافدين لاعتناق الإسلام عن إيمانهم بخلافتهم؟ أو انّها عند أهل السنّة

---

١ . لاحظ الغدير للأمين في ١١ جزءاً. يُذكر أنّ الحافظ المؤرخ شمس الدين الذهبي ممّن جزم بصدور حديث الغدير، حيث قال عند ترجمته للمؤرخ الشهير أبي جعفر الطبري: جمع طرق حديث غدير خمّ في أربعة أجزاء، رأيت شطره، فبهرني سعة رواياته، وجزمت بوقوع ذلك. سير أعلام النبلاء: ١٤/ ٢٦٧ برقم ١٧٥.

من الفروع ومن شعب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حيث إنّهما من الواجبات المطلقة ولا يتحقّقان إلاّ بنصب الإمام. فيكون واجباً بحكم وجوب مقدّمته؟

وإن كنت في شكّ فاستمع لما نتلو عليك من كلمات أكابر أهل السنّة:

قال الغزالي: «اعلم أنّ النظر في الإمامة أيضاً ليس من المهمّات، وليس أيضاً من فنّ المعقولات، بل من الفقهيّات».(١)

وقال الآمدي: «واعلم أنّ الكلام في الإمامة ليس من أُصول الديانات، ولا من الأُمور اللابدّيّات، بحيث لا يسع المكلَّف الإعراض عنها والجهل بها».(٢)

وقال الايجي: وهي عندنا من الفروع، وإنّما ذكرناها في علم الكلام تأسّياً بمن قبلنا».(٣)

وقال التفتازاني: «لا نزاع في أنّ مباحث الإمامة، بعلم الفروع أليق، لرجوعها إلى أنّ القيام بالإمامة، ونصب الإمام الموصوف بالصفات المخصوصة، من فروض الكفايات، وهي أُمور كليّة تتعلّق بها مصالح دينية أو دنيوية، لا ينتظم الأمر إلاّ بحصولها، فيقصد الشارع تحصيلها في الجملة من غير أن يقصد حصولها من كلّ أحد. ولا خفاء في أنّ ذلك من الأحكام العملية دون الاعتقادية».(٤)

وإذا كانت الإمامة، بعامّة أبحاثها من الفروع، فما وجه إقحام ذلك في عداد المسائل الأُصولية، كما صنع إمام الحنابلة، وقال: «خير هذه الأُمّة بعد نبيّنا،

---

١. الاقتصاد في الاعتقاد: ٢٣٤.

٢. غاية المرام في علم الكلام: ٣٦٣.

٣. المواقف: ٣٩٥.

٤. شرح المقاصد: ٢/ ٢٧١.

أبـو بكر؛ وخيرهم بعـد أبي بكر، عُمَـر؛ وخيرهم بعـد عُمر ، عُثْمان؛ وخيرهـم بعـد عثمان، عليّ؛ رضوان الله عليهم، خلفاء راشدون مهديُّون».[١]

ومثله، أبو جعفر الطحاوي الحنفـي في العقيدة الطحاوية، المسمّاة بـ«بيان عقيـدة السنّـة والجماعة»، حيث قـال: «وتثبت الخلافـة بعـد النبيﷺ لأبي بكـر الصِّدّيق، تفضيـلاً، وتقديماً على جميع الأُمّة، ثم لِعُمـر بن الخطاب، ثم لعثمان بن عفّان، ثمّ لعليّ بن أبي طالب».[٢]

وقـد اقتفى أثـرهما الشيخ أبـو الحسن الأشعـري، عنـد بيـان عقيـدة أهل الحديث وأهل السُّنة، والشيخ عبد القاهر البغدادي في بيان الأُصول التي اجتمع عليها أهل السنّة.[٣]

وهذا الصراع في المسـألة الفـرعيّة، أراق الـدماء الطـاهرة، وجـرّ على الأُمّة الويلَ والثُّبُور، وعظائم الأُمور، فما معنى إقحام الاعتقاد بالأحكام الفرعية في قائمة العقائد؟ وإن هذا إلاّ زَلّة لا تُقال.

٢. نظرة الشيعة إلى أصحاب الرسول نظرة سيّئة

وممّا يؤاخذ به الشيعة هو أن نظرتها إلى أصحاب رسول الله نظرة سيّئة.

---

١. كتاب السنّـة: ٤٩، المطبوع ضمن رسـائل بإشراف حامـد محمد الفقـي. وهذا الكتاب أُلّـف لبيان مذاهب أهل العلم وأصحـاب الأثر وأهل السُّنـة،ووصف مَن خالف شيئـاً من هذه المذاهب أو طغى فيها أو عاب قـائلها، بأنّه مخالف مبتدع وخـارج عن الجماعة، زائل عن منهج السنّة وسبيل الحق.

٢. شرح العقيدة الطحاويـة، للشيخ عبد الغني الميداني الحنفي الدمشقي:٤٧١، وأخـذنا العبارة من المتن. وتوفّي الطحاوي عام ٣٢١هـ.

٣. لاحظ «الإبـانة عن أُصـول الديـانة»: ١٩٠، البـاب١٦؛ و«الفَرْق بين الفِـرَق»: ٣٥٠. ولاحظ «لُمَع الأدلّة» للإمام الأشعري: ١١٤؛ و «العقائد النَّسَفية»:١٧٧.

أقول: إنّ نظرة الشيعة إلى أصحاب رسول الله ﷺ إنّما هي نفس نظرة أئمتهم الهداة إليهم، فهذا هو الإمام علي عليه السلام يقول في حقّهم:

«أين إخواني الذين ركبوا الطريق ومضوا على الحق؟ أين عمّار، وأين ابن التيهان، وأين ذو الشهادتين، وأين نظراؤهم من إخوانهم الذين تعاقدوا على المنية؟».[1]

وهذا هو الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام يدعو لأصحاب جدّه رسول الله ﷺ الذين أحسنوا الصحبة ويقول: «اللّهم وأصحاب محمد خاصّة الذين أحسنوا الصحبة والذين أبلوا البلاء الحسن في نصره، واستجابوا له حيث أسمعهم حجّة رسالاته وفارقوا الأزواج والأولاد في إظهار كلمته، وقاتلوا الآباء والأبناء في تثبيت نبوّته، وانتصروا به، ومَنْ كانوا منظوين على محبته، يرجون تجارة لن تبور في مودته» إلى أن قال: «اللّهمّ وأوصل إلى التابعين لهم بإحسان الذين يقولون ربّنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان خير جزائك».[2]

إنّ الّذي يميّز الشيعة عن غيرهم، هو قولهم بأنّ حكم الصحابة، حكم التابعين، فكما أنّ فيهم الصالح والطالح، والعادل والفاسق، فهكذا الصحابة ففيهم عدول اتقياء بهم يستدرّ الغمام، وفيهم من سماه سبحانه، فاسقاً وقال: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا**﴾ .[3]

وفيهم من ترك النبي قائماً وهو يخطب وأعرض عن الذكر والصلاة واشتغل بالتجارة، قال سبحانه: ﴿ **وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِماً قُلْ مَا**

١. نهج البلاغة: الخطبة ١٨٢.

٢. الصحيفة السجادية: الدعاء رقم ٤.

٣. الحجرات: ٦.

عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ .[١]

لنفترض أنّ بين الشيعة من لا يحب بعض الصحابة لا لكونهم صحابة النبي ﷺ بل لما صدر عنهم من أعمال لا تنطبق على موازين الشريعة، وعلى كلّ تقدير فالشيعي إمّا مصيب في اعتقاده واجتهاده و إمّا مخطئ؛ وعلى الأوّل له أجران، وعلى الثاني له أجر واحد.

كيف لا وقد حدث هذا التشاجر والتعارض بين صحابة النبي ﷺ أنفسهم، فهذا هو الإمام البخاري ينقل لنا مشاجرة حامية بين سعد بن عبادة الذي قال لسعد بن معاذ في محضر النبي ﷺ «كذبتَ لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله، ولو كان من أهلك ما أحببتَ أن يُقتل، فقام أسيد بن حُضير ـ و هو ابن عم سعد بن معاذ ـ و قال لسعد بن عبادة: كذبت، وعمر الله لنقتلنّه، فإنّك منافق تجادل عن المنافقين».[٢]

وكم لهذه المشاجرات الساخنة والتراشق بالاتّهامات بين الصحابة من نظير، ومع ذلك لم يعتبرها أحد موجباً للكفر أو الخروج عن ربقة الإيمان.

ثمّ ماذا يفعل الشيعة إذا وجدوا في أصحّ الكتب عند أهل السنّة بعد كتاب الله عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «يرد عليّ يوم القيامة رهط من أصحابي فيُحلَّؤن عن الحوض، فأقول: يا ربّ أصحابي، فيقول إنّك لا علم لك بما أحدثوا بعدك، إنّهم ارتدوا على أدبارهم القهقرى»، وغير ذلك من الروايات الّتي أخرجها الإمام البخاري في صحيحه في باب الحوض وغيره.[٣]

---

١. الجمعة:١١.

٢. صحيح البخاري:٥/ ١١٨ـ ١١٩، في تفسير سورة النور.

٣. لاحظ جامع الأُصول:١١/ ١٠.

وما ذنب الشيعي إذا وجد في أصحّ الكتب لدى إخوانه السنة انّ صحابياً جليلاً كأسيد بن حُضير يصف سعد بن عبادة ذلك الصحابي الجليل بالنفاق ويقول: إنّك منافق تجادل عن المنافقين؟!

فإذا صحّ ذلك العمل من الصحابي بحجّة أنّه وقف على نفاق أخيه الصحابي الآخر، فلماذا لا يصحّ صدوره من الآخرين إذا وقفوا على أنّ بعض من كان حول النبيﷺ قد اقترف مالا يرضى به الله ورسولهﷺ فيبدي عدم رضاه عن عمله كما أبداه أسيد بن حُضير؟!

أفبعد هذه الحقائق، يصحّ أن يعدّ الاعتقاد بطهارة كلّ صحابي من الأُصول ممّا يناط بها الإيمان والكفر.

ثمّ هل كان النبي يسأل الوافدين من مختلف الأقطار عن اعتقادهم بعدالة أصحابه وطهارتهم أو انّها مسألة تاريخية، يجب أن تطرح على صعيد البحث، ولكلّ دليله ونظره دون أن يخرج أحد الطرفين عن حظيرة الإسلام.

ثم إنّ لعضد الدين الإيجي في «المواقف» وشارحه السيد الجرجاني في شرحها كلاماً في عدم جواز تكفير الشيعة بمعتقداتهم نأتي بنصهما متناً وشرحاً قد ذكرا الوجوه وردّها:

الأوّل: أنّ القدح في أكابر الصحابة الذين شهد لهم القرآن والأحاديث الصحيحة بالتزكية والإيمان (تكذيب) للقرآن و (للرسول حيث أثنىٰ عليهم وعظّمهم) فيكون كفرا.

قلنا: لا ثناء عليهم خاصة، أي لا ثناء في القرآن علىٰ واحد من الصحابة بخصوصه وهؤلاء قد اعتقدوا انّ من قدحوا فيه، ليس داخلاً في الثناء العام الوارد فيه وإليه أشار بقوله: (ولاهم داخلون فيه عندهم) فلا يكون قدحهم تكذيباً

للقرآن، وأمّا الأحاديث الواردة في تزكية بعض معين من الصحابة والشهادة لهم بالجنّة فمن قبيل الآحاد، فلا يكفّر المسلم بإنكارها أو تقول ذلك، الثناء عليهم، وتلك الشهادة لهم مقيّدان، بشرط سلامة العاقبة ولم توجد عندهم، فلا يلزم تكذيبهم للرسول.

الثاني: الإجماع منعقد من الأُمّة، علىٰ تكفير من كفّر عظماء الصحابة، وكلّ واحد من الفريقين يكفّر بعض هؤلاء العظماء فيكون كافراً.

قلنا: هؤلاء، أي من كفّر جماعة مخصوصة من الصحابة، لا يسلّمون كونهم من أكابر الصحابة وعظمائهم، فلا يلزم كفره.

الثالث: قوله ﷺ: «من قال لأخيه المسلم يا كافر، فقد باء به ـ أي بالكفر ـ أحدهما».

قلنا: آحاد، وقد أجمعت الأُمّة علىٰ أنّ إنكار الآحاد ليس كفراً، ومع ذلك نقول: المراد مع اعتقاد أنّه مسلم، فإنّ من ظن بمسلم أنّه يهودي أو نصراني فقال له ياكافر لم يكن ذلك كفراً بالإجماع .[١]

أقول: إنّ القدح في الصحابة غير تكفيرهم؛ ثم إنّ القدح في البعض منهم ـ الذين لا يتجاوزون عدد الأصابع ـ دون جميعهم.

ثم القدح ليس بما أنّهم صحابيون، بل بما أنّهم أُناس مسلمون، ولو كان القدح كفراً، فقد قدح فيهم القرآن فسمّىٰ بعضهم فاسقاً، وقال: ﴿**إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا**. . . ﴾ .[٢]

نعم إنّ الخلاف الذي دام قروناً، لا يرتفع بيوم أو اسبوع، ولكن رجاؤنا

١. السيد الشريف الجرجاني: شرح المواقف:٨/ ٣٤٤، ط مصر.

٢. الحجرات:٦.

سبحانه أن يُلمَّ شعث المسلمين ويجمع كلمتهم، ويفرّق كلمة الكفر وأهله.

٣. الشيعة لا تعمل بصحيحي البخاري ومسلم

إنّ الشيعة لا تعمل بالصحيحين لدى السنّة، أعني: صحيحي البخاري ومسلم!!

وهل الأمر كذلك، أو أنّها تعمل بما صحّ عندهم من السنّة من غير فرق بين الصحيحين وغيرهما من السنن: نحو سنن أبي داود، وسنن الترمذي، وسنن النسائي، وابن ماجة، وما صحّ عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام الذين جعلهم الله أعدال الكتاب وقرناؤه وقال:

«إنّي تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي».[1]

وأخيراً نقول: لم يكن الأخذ بالصحيحين ملاكاً للإيمان، بشهادة أنّ المسلمين كانوا يعملون بسنّة رسول الله ويروونها قبل أن يولد البخاري ومسلم ويكون لهما أثر في الوجود، فمتى أصبح البخاري ومسلم أصلاً ومناراً ومحوراً للإيمان والكفر؟! مع أنّ الأصل هو سنّة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وعند الشيعة سنّته صلى الله عليه وآله وسلم المروية عن طريق رجال عدول، خصوصاً ما روي عن طريق أهل بيته المطهرين بأسانيد عالية ونقية من كلّ شائبة.

٤. عصمة الأئمّة الاثني عشر

قالت الشيعة بعصمة الأئمّة الاثني عشر، والعصمة من خصائص الأنبياء.

أقول: إنّ الشيعة الإمامية على أنّ الأئمّة الاثني عشر معصومون من الذنب

---

١. حديث مستفيض أو متواتر. لاحظ مسند الإمام أحمد:٤/ ٣٧١؛ صحيح مسلم:٤/ ١٨٧٣؛ وسنن الترمذي:٥/ ٦٦٥.

والخطأ، ولا ينسون شيئاً من الأحكام.

ويقع الكلام في موضعين:

أ. ما هو الدليل على عصمتهم؟

ب. القول بالعصمة لا يلازم النبوة.

أمّا الأوّل: فهو خارج عن موضوع بحثنا، وموجز القول فيه: إنّه ليست عصمتهم فكرة ابتدعتها الشيعة، وإنّما دلّهم عليها في حقّ العترة الطاهرة كتاب الله وسنّة رسوله، قال سبحانه: ﴿**إِنّما يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً**﴾[1]، وليس المراد من الرجس إلاّ الرجس المعنوي، وأظهره هو الفسق.

وقال رسول الله ﷺ: «علي مع الحقّ والحقّ مع عليّ يدور معه كيفما دار».[2] ومن دار معه الحقّ كيفما دار لا يعصي ولا يخطأ.

وقوله ﷺ في حقّ العترة: «إنّي تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا أبداً».[3] فإذا كانت العترة عِدل القرآن، والقرآن هو كلام الله تعالى، فاللازم أن تكون معصومة كالكتاب، لا يخالف أحدهما الآخر.

ومن ألطف ما استُدلّ به على عصمة الإمام ـ بوجه مطلق ـ هو ما ذكره الرازي في تفسيره حول قوله: ﴿ **أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ**﴾[4] قال ما هذا نصّه: إنّ الله تعالى أمر بطاعة أُولي الأمر على سبيل الجزم في هذه الآية، ومن أمر الله بطاعته على سبيل الجزم والقطع لابدّ وأن يكون معصوماً عن الخطأ؛

---

١. الأحزاب: ٣٣.

٢. حديث مستفيض، رواه الخطيب في تاريخه: ١٤/ ٣٢١ والهيثمي في مجمعه: ٧/ ٢٣٦ وغيرهما.

٣. تقدّم بعض مصادره.

٤. النساء: ٥٩.

إذ لو لم يكن معصوماً عن الخطأ كان بتقدير إقدامه على الخطأ يكون قد أمر الله بمتابعته، فيكون ذلك أمراً بفعل ذلك الخطأ، والخطأ لكونه خطأ منهيّ عنه، فهذا يفضي إلى اجتماع الأمر والنهي في الفعل الواحد بالاعتبار الواحد، وأنّه محال، فثبت أنّ الله تعالى أمر بطاعة أُولي الأمر على سبيل الجزم، وثبت أنّ كلّ من أمر الله بطاعته على سبيل الجزم وجب أن يكون معصوماً عن الخطأ، فثبت قطعاً أنّ أُولي الأمر المذكور في هذه الآية لابدّ وأن يكون معصوماً.[١]

وأمّا الثاني: أعني: انّ العصمة لا تلازم النبوة، فهو أمر واضح لمن درس حياة الصالحين والصالحات. ونذكر على سبيل المثال:

إنّ مريم العذراء كانت معصومة بنصّ الكتاب العزيز حيث طهّرها الله سبحانه من المساوئ والسيّئات واصطفاها على نساء العالمين مع أنّها لم تكن نبيّة، قال تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِساءِ الْعَالَمِينَ**﴾.[٢]

وهل المراد من التطهير هو تطهيرها من الذنوب و الآثام، أو تطهيرها من مسّ الرجال؟

الظاهر هو الأوّل.

لأنّ امرأة عمران أُمّ مريم طلبت من الله سبحانه أن يعيذ «مريم» وذرّيّتها من الشيطان الرجيم وقال: ﴿**وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**﴾[٣]. فاستجاب سبحانه دعوتها فصانها سبحانه من وساوس

---

١. مفاتيح الغيب: ١٠/ ١٤٤.

٢. آل عمران: ٤٢.

٣. آل عمران: ٣٦.

الشيطان ودعـوته إلى العصيان، فمن عُصِم من وسـاوسه ودعوته فهـو مطهّر من الذنوب.

والله سبحانه يشير إلى استجـابة دعوتها تارة بقـوله: ﴿فَتَقَبَّلَها رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً﴾.[1]

وأُخرى بقوله في المقام: ﴿ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ .

وتفسير التطهير بمسّ الرجـال ـ أعني: القسم المحـرم منه ـ لا دليل عليه بعد إطلاق الآية في أمر التطهير وصيانته سبحانه إيّاها من الشيطان الرجيم.

أضف إلى ذلـك اتّفـــاق المفسّرين على أنّ المراد من التطهير في قـــولـــه سبحانه: ﴿إِنّما يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ هو التنزيه من الذنوب ومساوئ الأخلاق وسيئات الأعمال.

من غير فـرق بين تفسير أهل البيت بالعترة الطـاهـرة الّذين جمعهم رسـول الله ﷺ تحت الكساء وقال: «اللّهمّ إنّ لكلّ نبي أهل بيت وهؤلاء أهل بيتي».[2] أو فسّرت بنساء النبي.

٥. التقية من المسلم المخالف

إنّ الشيعي يتّقي من المسلم الذي يخالفه في العقيدة، مع أنّ التقية الّتي نزل بها الذكر الحكيم، هي تقية المسلم من الكافر لا المسلم من المسلم، قال سبحانه: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللهِ مِنْ بَعْدِ إيمانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمانِ﴾.[3]

فقد نزلت الآية في حقّ عمّار الّذي أظهر الكفر وأبطن الإيمان تقيّة من كفّار

---

١. آل عمران: ٣٧.

٢. تفسير الطبري: ٢٢/ ١٢٥؛ والدر المنثور: ٥/ ١٩٨ـ ١٩٩.

٣. النحل: ١٠٦.

قريش لصيانة دمه.

ولكنّ الشيعي، يتّقي من المسلم المخالف، فيقول على خلاف عقيدته ويعمل على خلاف مذهبه.

أقول: التقية شعار كلّ مضطهد صُودرت حرياته وحقوقه، ولاقىٰ ضروبَ المحن وصنوف الضيق إلى درجة اضطرّ معها إلى استعمال التقية في تعامله مع المخالفين وترك مظاهرتهم، فلو كانت التقية أمراً مذموماً أو محرّماً فالأخ المسلم الّذي صادر حريات أخيه، هو الأولى بتحمل وزر عمل هذا المضطهد الضعيف الّذي ليس له سلاح في حفظ دمه وعرضه وماله إلاّ بالمسايرة والمداراة والتكتّم على معتقداته.

ولعمر الحق لو سادت الحرية جميع الفرق الإسلامية، وتحمّلت كلّ فرقة آراء الفرق الأُخرى، لتجدنّ الشيعة في طليعة الفرق التي تهتف بآرائها ومعتقداتها بكلّ صراحة ووضوح، ولأُلغيت هذه اللفظة (التقية) من قاموس حياتها، ولساد الوئام والانسجام، وولّى النزاع والخصام.

نعم مورد الآيات الواردة في القرآن حول التقية، هي التقية من الكافر لا من المسلم، لكن الملاك واحد، فانّ ملاك التقيّة هو التحرّز من الضرر المرتقب عند التظاهر بالخلاف، وهذا بنفسه موجود في التقية من المسلم الذي لا يحترم أخاه المسلم، وهذا ليس بأمر بديع، بل صرّح به جمع من الفقهاء والمفسّرين.

١. قال الشافعي: تجوز التقية بين المسلمين كما تجوز بين الكافرين محاماة عن النفس.[1]

٢. وقال الإمام الرازي في تفسير قوله سبحانه: ﴿أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾:

---

١. تفسير النيسابوري في هامش تفسير الطبري:٣/ ١٧٨.

ظاهر الآية يدلّ على أنّ التقية إنّما تحل مع الكفّار الغالبين، إلاّ أنّ مذهب الشافعي أنّ الحالة بين المسلمين إذا شاكلت الحالة بين المسلمين والكافرين حلّت التقية محاماة عن النفس، وقال: التقية جائزة لصون النفس، وهل هي جائزة لصون المال؟ يحتمل أن يحكم فيها بالجواز لقوله ﷺ: «حرمة مال المسلم كحرمة دمه»، وقوله ﷺ: «من قتل دون ماله فهو شهيد».[١]

٣. ونقل جمال الدين القاسمي عن الإمام مرتضى اليماني في كتابه «إيثار الحقّ على الخلق» ما نصّه: وزاد الحق غموضاً وخفاءً أمران: أحدهما: خوف العارفين ـ مع قلّتهم ـ من علماء السوء وسلاطين الجور وشياطين الخلق مع جواز التقية عند ذلك بنص القرآن، وإجماع أهل الإسلام، ومازال الخوف مانعاً من إظهار الحقّ، ولا برح المحقُّ عدوّاً لأكثر الخلق، وقد صحّ عن أبي هريرة أنّه قال ـ في ذلك العصر الأوّل ـ : حفظت من رسول الله ﷺ وعاءين، أمّا أحدهما فبثثته في الناس، وأمّا الآخر فلو بثثته لقطع هذا البلعوم.[٢]

٤. وقال المراغي في تفسير قوله سبحانه: ﴿**مَنْ كَفَرَ بِاللهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمانِ**﴾: ويدخل في التقية مداراة الكفرة والظلمة والفسقة، وإلانة الكلام لهم، والتبسّم في وجوههم، وبذل المال لهم، لكف أذاهم وصيانة العرض منهم، ولا يعدّ هذا من الموالاة المنهي عنها، بل هو مشروع، فقد أخرج الطبراني قوله ﷺ: «ما وقَى المؤمن به عرضَه فهو صدقة».[٣]

---

١. مفاتيح الغيب: ٨/ ١٣ في تفسير الآية.

٢. محاسن التأويل: ٤/ ٨٢.

٣. تفسير المراغي: ٣/ ١٣٦.

٦. قولهم بالبداء لله

وممّا يؤاخذ به الشيعة، إثباتهم البداءَ لله ومعناه: ظهور ما خفى عليه سبحانه، وهو يلازم جهله تعالى با لمستقبل.

أخي العزيز: لو أُريد من قولهم «بدا لله» ما فسّرتَ به، فالحقّ معك فإنّه عقيدة باطلة ولكن ـ يا للأسف ـ قد فسّرت كلام الشيعة بغير ما يقصدون منه، فإنّهم يريدون به أنّه سبحانه أبدىٰ للناس ما خَفي عليهم، وأمّا التعبير عن هذا المعنى الصحيح بقولهم «بدا لله» فهو من باب المجاز أوّلاً، أو من باب التأسّي بالنبي ﷺ ثانياً على ما رواه البخاري في صحيحه في باب حديث أبرص وأقرع وأعمى في بني إسرائيل عن أبي هريرة أنّه سمع من رسول الله ﷺ أنّ ثلاثة في بني إسرائيل: أبرص وأقرع وأعمى بدا لله أن يبتليهم....[1]

ولو احفيت الحقيقة من كتب الفريقين لوقفت على أنّ النزاع في البداء نزاع لفظي، فالقائل بعدم الجواز يريد به معناه الحقيقي الّذي يستلزم الجهل لله، والقائل بالجواز يريد معناه المجازي أي إبداء من الله لما خفى على الناس، وإن كان يتخيّل في بادئ الأمر انّه بداء له سبحانه.

وأمّا مورد البداء فهو عبارة عن تغيير مصير العباد، بحسن أفعالهم وصلاح أعمالهم من قبيل: الصدقة والإحسان، وصلة الرحم، وبرّ الوالدين، والاستغفار، والتوبة، وشكر النعمة وأداء حقّها، إلى غير ذلك من الأُمور التي تغيّر المصير وتبدّل القضاء، وتفرّج الهموم والغموم، وتزيد في الأرزاق والأمطار والأعمار والآجال؛ كما أنّ لمحرّم الأعمال وسيّئها من قبيل: البخل والتقصير، وسوء الخلق،

---

١. الصحيح: ٤/ ١٧١ـ ١٧٢، كتاب الأنبياء.

وقطيعة الـرحم، وعقوق الوالـدين، والطيش، وعدم الإنـابة، وكفران النعمـة، وما شابهـا تأثيراً في تغيير مصيرهم بعكس ذلك من إكثار الهمـوم، والقلق، ونقصان الأرزاق والأمطار والأعمار والآجال، وما شاكلها.

فليس للإنسان مصير واحد، ومقـدّر فارد؛ يصيبه على وجه القطع والبتّ، وينـالـه شـاء أو لم يشأ، بـل المصير أو المقـدر يتغيّر ويتبـدّل بـالأعمال الصـالحة والطالحة وشكر النعمـة وكفرانها، وبالإيمان والتقوى، والكفر والفسـوق. وهذا ممّا لا يمكن ـ لمن له أدنى علاقة بالكتاب والسنّة ـ إنكاره أو ادّعاء جهله.

وهذا ما نراه جلياً في عدة موارد من الذكر الحكيم:

منها: قوله سبحانـه حاكياً عن شيخ الأنبياء: ﴿**فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كانَ غَفّاراً* يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً* وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهاراً**﴾.[١]

ترى أنّه عليه السلام يجعل الاستغفـار علّـة مـؤثـرة في نزول المطـر، وكثـرة الأمـوال والبنين، وجـريـان الأنهار إلى غير ذلك، وأمّـا بيـان كيفيّـة تـأثير عمل العبـد في الكائنات الطبيعية، فيطلب من محلّه.

وقوله سبحانه: ﴿**إِنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ**﴾.[٢]

وقوله تعالى: ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَها عَلىٰ قَوْمٍ حَتّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ**﴾.[٣]

---

١. نوح:١٠ـ١٢.

٢. الرعد:١١.

٣. الأنفال:٥٣.

٧. اعتقادهم بالمهدي الموعود

إنّ الشيعة وإن كانت تعتقد بالإمام المهدي الّذي يُظهره الله سبحانه في آخر الزمان لبسط العدل، وإعلاء كلمة الحق، ولكن هذه العقيدة ليست مختصة بهم، بل هي عقيدة اتّفق عليها المسلمون إلاّ من أصمّه الله. وقد تضافر قول الرسول ﷺ: «لو لم يبق من الدنيا إلاّ يوم واحد لطوّل الله ذلك اليوم حتّى يخرج رجل من ولدي فيملأها عدلاً وقسطاً كما ملئت جوراً و ظلماً».

وليس هناك اختلاف بين الفريقين إلاّ أنّ الشيعة قاطبة وقليلاً من السنّة يقولون بأنّه ولد عام (٢٥٥هـ) وهو حيٌّ يُرزق وله حياة طبيعية والناس يرونه ولا يعرفونه، وأكثر السنّة يقولون: إنّه سيولد في آخر الزمان.

وقد ألّف عدّة من محقّقي السنّة ومحدّثيهم كتباً حول المهدي وألّف أخيراً الدكتور عبد الباقي كتاباً في نفس الموضوع أسماه«بين يدي الساعة» فقال: أمّا عقيدة السُّنة بالنسبة إلى المهدي فإنّ المشكلة ليست في حديث أو حديثين أو راو أو راويين، إنّها مجموعة من الأحاديث والأخبار تبلغ الثمانين تقريباً، اجتمع على تناقلها مئات الرواة، وأكثر من صاحب كتاب صحيح.

لماذا نردّ كلّ هذه الكمّية؟ أكلّها فاسدة؟ لو صحّ هذا الحكم لانهار الدين ـ والعياذ بالله ـ نتيجة تطرّق الشك والظن الفاسد إلى ما عداها من سنّة رسول الله ﷺ.

ثمّ إنّي لا أجد خلافاً حول ظهور المهدي، أو حول حاجة العالم إليه، وإنّما الخلاف حول من هو، حسني أو حسيني؟ سيكون في آخر الزمان، أو موجود الآن؟ خفي وسيظهر؟ ظهر أو سيظهر؟ ولا عبرة بالمدّعين الكاذبين، فليس لهم اعتبار.

ثمّ إنّي لا أجد مناقشة موضوعية في متن الأحاديث، والـذي أجده إنّما هو مناقشة وخلاف حول السند، واتّصاله وعدم اتّصاله، ودرجة رواته، ومن خرّجوه، ومن قالوا فيه.

إذا نظرنـا إلى ظهور المهـدي نظـرة مجرّدة فإنّنـا لا نجـد حرجـاً من قبـولها وتصـديقهـا، أو على الأقلّ عـدم رفضهـا. فـإذا تـؤيّـد ذلك بـالأدلّـة الكثيرة، والأحاديث المتعددة، ورواتها مسلمـون مؤتمنون، و الكتب التي نقلتهـا إلينا كتب قيمة، والترمذي من رجال التخريج والحكم، بالإضافة إلى أنّ أحاديث المهدي لها ما يصحّ أن يكـون سنداً لها في البخاري ومسلم، كحـديث جابـر في مسلم الذي فيـه: «فيقـول أميرهم (أي لعيسى): تعـال صلّ بنـا»[١]، وحـديث أبي هريـرة في البخاري، وفيـه: «كيف بكم إذا نزل فيكم المسيح بن مـريم وإمامكم منكم»[٢]، فلا مانع من أن يكون هذا الأمير، وهذا الإمام هو المهدي.

يضـاف إلى هذا انّ كثيراً من السلـف ـ رضي الله عنهم ـ لم يعـارضوا هـذا القـول، بل جـاءت شروحهم وتقـريـراتهم مـوافقة لإثبـات هـذه العقيـدة عنـد المسلمين.[٣]

٨. حلّية المتعة

وممّا يُشنع به على الشيعـة قولهم بجواز نكاح المتعة، وهـو عبارة عن تزويج المرأة الحرة الكاملـة نفسها ـ إذا لم يكن بينها و بين الـزوج مانع نسب أو سبب أو

---

١. صحيح مسلم: ١/ ٥٩، باب نزول عيسى.

٢. صحيح البخاري، بشرح الكرماني: ١٤/ ٨٨.

٣. بين يدي الساعة للدكتور عبد الباقي: ١٢٣ـ ١٢٥.

رضاع ــ بمهر مسمّى إلى أجل مسمّى بـالرضا والاتّفـاق، فإذا انتهى الأجل تبين المرأة من الزوج من غير طلاق، ويجب عليها مع الدخـول ـ إذا لم تكن يائسة ـ أن تعتد عدة الطلاق إذا كانت ممّن تحيض وإلاّ فبخمسة وأربعين يوماً.

وقد أجمع أهل القبلـة على أنّه سبحانـه شرّع هذا النكاح في صـدر الإسلام وعمل به الصحابة انّما الاختلاف في كونه على حليته أو أنّه منسوخ.

وقد ذهب أكثـر المفسرين إلى أنّ قوله سبحـانه: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾[1] نزل في هذا الشأن.[2]

وعلى كلّ تقدير سواء أقلنا بأنّها غير منسوخة أو قلنا بأنّها منسوخة فهي من المسائل الفقهية، الّتي تضاربت فيها الأقوال، وليس الخلاف فيها معياراً للتكفير، أو التفسيق.

هذه بعض المؤاخذات على عقائد الشيعة.

أكاذيب ومفتريات

وهناك أكاذيب ومفتريات نسبوها إلى الشيعة، نظير:

١. تأليههم لعلي وأولاده وأنّهم يعبدونهم و يعتقدون بإلوهيّتهم.

٢. تحريف القرآن الكريم وانّه حذف منه سور أو آيات.

٣. نسبة الخيانـة لأمين الوحي وانّه سبحـانه بعثه لإبلاغ الـرسالة إلى علي، فخان فجاء بها إلى محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

---

١. النساء:٢٤.

٢. تفسير الطبري:٥/ ٩؛ أحكـام القـرآن:٢/ ١٧٨؛ سنن البيهقي:٧/ ٢٠٥؛ وجـامع أحكـام القرآن:٥/ ١٣، إلى غير ذلك من كتب الحديث و التفسير.

إلى غير ذلك من المهازل والمنكرات التي افتعلها الكذّابون الأفّاكون الذين لا يخافون حساب الله يوم الورود، والشيعة منها براء؛ وهذه كتبهم، وهؤلاء علماؤهم وخطباؤهم كلّهم متّفقون على خلاف هذه النِّسب.

ونعم ما قال المرحوم محمد جواد مغنية:

إنّ لكلّ شيء دليلاً إلاّ الافتراء على الشيعة.

وإنّ لكلّ شيء نهاية إلاّ الكذب على الشيعة.

وفي الختام نقدّم كلمة فيها رضى الله ورضى رسوله وصلاح الأُمّة جميعاً.

نصيحة للمتطرّفين

إنّ لله سبحانه يوماً، تقام فيه الموازين، وتنشر فيه الصحف، وتتمثّل فيه الأعمال **﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَها وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَاللهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبادِ﴾**[1] يُحاسب فيه العباد على أعمالهم صغيرها وكبيرها.

فعلى مَن يرمي طائفة بالكفر والشرك وغيرها من مساوئ الأعمال وسيّئات الأفعال، أن يذكر ذلك اليوم العصيب، ثم يكتب عن عباد الله ما شاء وكيف شاء، وليعلم أنّ رمي أيّة طائفة من الطوائف الإسلامية بالكفر، تلاعب بدمائهم وأعراضهم وأموالهم، وهو عند الله ليس بالأمر الهيّن.

ثمّ إنّ في القرآن الكريم وسنّة الرسول الأعظمﷺ بياناً شافياً في كلّ ما يتنازع فيه، فعلى المتنازعين في المسائل المختلفة الرجوع إلى ذينك المصدرين،

---

١. آل عمران: ٣٠.

والصدور عنهما دون رأي مسبق فعندئذٍ تجدون فيهما بياناً شافياً.

كما أنّ على مفكّري الأُمّة الإسلامية وعلمائها الواعين عقد مؤتمر أو مؤتمرات لدراسة هذه المسائل ويُدعى إليها رؤوس الطوائف الإسلامية للمشاركة فيها.

وإذا صلُحت النيّات، فيكون التوفيق ــ بإذن الله ــ حليفاً لهم، يقول سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾.[1]

هذه كلمتي أُقدّمها لإخواني المسلمين عسى أن أكون مأجوراً بهذا التذكير كما يقول سبحانه:

﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرىٰ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.[2]

جعفر السبحاني

قم ـ مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام

عاشر شهر صفر الخير

من شهور عام ١٤٢٥هـ

١. العنكبوت:٦٩.

٢. الذاريات:٥٥.

الفصل الرابع

البدعة وآثارها الموبقة

١

البدعة

والاتجاهان في تفسيرها

البدعة في اللغة

هو الفعل أو القول لا عن سابق مثال، قال ابن فارس: البدعة: ابتداع الشيء وصنعه لا عن مثال، نحو قولهم: أبدعتُ الشيء قولاً أو فعلاً إذا ابتدعتَه لا عن مثال سابق. والله بديع السماوات والأرض؛ والعرب تقول: فلان بدع في هذا الأمر، قال تعالى: ﴿**مَا كُنْتُ بِدْعاً من الرُّسُلِ**﴾[١]، أي ما كنت أوّل.[٢]

وفي «النهاية» لابن الأثير: البديع: المخترع لا عن مثال.[٣]

وقال ابن منظور في «اللسان»: بَدَع الشيء يبدعه بدعاً وابتدعه: أنشأه وبدعه، والبديع والبدع: الشيء الذي يكون أوّلاً، والبدعة: الحدث وما ابتدع من الدين بعد الإكمال.[٤]

---

١. الأحقاف: ٩.

٢. المقاييس: ١/ ٢٠٩، مادة «بدع».

٣. النهاية: ١/ ١٠٧.

٤. لسان العرب: ١/ ٣٤٢، مادة «بدع»

وقد جمع ابن منظور في كلامه هذا، بين المعنى اللغوي: (الشيء الّذي يكون أوّلاً)، والمعنى الاصطلاحي:(ما ابتدع في الدين بعد الإكمال). ولإيضاح المعنيين نقول:

ثمّة اتّجاهان في تفسير البدعة:

الأوّل: التزم المعنى اللغوي، فشمل كلّ أمر مستحدث لم يكن في عصر الرسالة، سواء أكان صحيحاً أم باطلاً. وبعبارة أُخرى: كلّ فعل لم يعهد في عصر رسول الله ﷺ.

الثاني: التزم المعنى الاصطلاحي بين العلماء، وهو التّدخل في أمر الدين وإدخال ما ليس منه فيه.

الاتّجاه الأوّل: وعليه مضى جماعة من الشوافع كالعز بن عبد السلام، وجماعة من المالكية منهم القرافي.

وانتهى ذلك الاتجاه إلى تقسيم البدعة ـ وفق تقسيم الأحكام ـ إلى أقسام خمسة ، وهي:

بدعة واجبة، وبدعة محرمة، وبدعة مكروهة، وبدعة مباحة، وبدعة مندوبة.

وقد ضربوا لكلّ قسم منها أمثلة.

فالبدعة الواجبة مثّلوا لها بتعلّم العلوم التي يفهم بها كلام الله تعالى ورسوله ﷺ، بحكم أنّ ذلك مقدّمة لحفظ الشريعة والعمل بها، ومقدّمة الواجب أمر واجب.

والبدعة المحرمة مثّلوا لها بالعقائد الّتي ظهرت بعد رحيل النبي ﷺ والّتي تضاد الكتاب والسنّة الشريفة، والأفعال الّتي يؤتى بها باسم الشريعة لم يكن لها

أصل في الشرع المقدّس.

والبدعة المندوبة فمِثلُ إحداث المدارس وبناء القناطر.

والبدعة المكروهة كزخرفة المساجد.

والبدعة المباحة هو بناء ناطحات السحاب والتنوع في الملابس.

وممّا يلاحظ على الاتّجاه الآنف الذكر هـو أنّ المتبادر من البدعة في الكتاب والسنّة هو الأمر المذموم، والأمر القبيح كما سيوافك بيانه.

فإذا كان هـذا المتبادر منهـا فما هو المبرّر لـرفض ما هـو الشائع بـالكتاب والسنّة والأخذ با لمعنى اللغوي ثمّ تقسيمها إلى أقسام خمسة؟!

ويبدو أنّ الدافع لنشوء هذا الاتّجاه هو قول عمر في صلاة التراويح في شهر رمضان: نِعْمَتِ البدعةُ هذه كما أخرجـه البخاري عن عبد الرحمن بن عبد القاري أنّـه قال: خـرجت مع عمر بن الخطـاب ليلة في رمضـان إلى المسجد فإذا النـاس أوزاع متفرقون يصلّي الرجل لنفسه، ويصلّي الـرجل فيصلّي بصلاته الرهط، فقال عمر: إنّي أرى لو جمعتُ هؤلاء على قارئ واحد لكان أمثل، ثمّ عزم فجمعهم على أُبيّ بن كعب، ثمّ خـرجت معه ليلة أُخـرى والناس يصلّـون بصلاة قـارئهم، قال عمر: نعم البدعةُ هذه، والّتي ينامون عنها أفضل من الّتي يقومون.(١)

فلمّا سمّىٰ عمـر الأمر المسنـون عندهم بـالبـدعة، صـار ذلك سبباً لنشـوء الاتّجاه، ولولا ذلك لما كان لهذا الاصطلاح من أثر بين العلماء وفي كتبهم.

وربما يبرّر هـذا الاتّجاه (تقسيم البـدعـة) بما رواه مسلم عن النبي ﷺ أنّه قال:«من سنّ سنّة حسنة فله أجرهـا وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن سنّ

١. صحيح البخاري:٣/ ٤٤، باب فضل من قام رمضان من كتاب الصوم.

سنّة سيّئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة».(١)

وهذا التبرير في غير محلّه، للفرق الواضح بين البدعة والسنّة، لأنّ المتبادر من البدعة في عصر نزول القرآن هو الأمر المذموم كما يشهد بذلك الكتاب العزيز والسنّة النبوية، ولذلك صار تقسيمه إلى الأقسام الخمسة تقسيماً في غير محلّه و إن كان صحيحاً حسب المعنى اللغوي.

وأمّا السنّة في اللغة فهي الطريقة والسيرة من غير فرق بين كونها حسنة أو سيئة، و إنّما يعلم حالها عن طريق إضافتها إلى الشرع المقدّس أو غيره. قال الهذلي:

فلا تجزَعَنْ من سنّة أنتَ سرتَها　　　　فأوّل راض سنّةً من يسيرها

يقول ابن منظور: الأصل في السنّة: الطريقة والسيرة، فإذا أُطلقت في الشرع فإنّما يراد بها ما أمر به النبيﷺ ونهى عنه وندب إليه قولاً وفعلاً ممّا لم ينطق به الكتاب العزيز.(٢)

ولذلك نرى أنّ السنّة أُضيفت في القرآن الكريم إلى الله سبحانه و إلى غيره، فقال تعالى: ﴿**سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ**﴾.(٣)

وقال: ﴿**فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاّ سُنَّةَ الأَوَّلِينَ**﴾.(٤)

نعم اصطبغ لفظ السنّة في عصر الصحابة والتابعين بلون خاص من القداسة، فأصبح يستعمل في الأُمور المستحبة، فما كان النبي يداوم عليه سُمي

---

١. صحيح مسلم:٢/ ٧٠٥، ط. الحلبي.

٢. لسان العرب:٦/ ٣٩٦، مادة «سن».

٣. الأحزاب:٦٢.

٤. فاطر:٤٣.

سنّة، وما لم يداوم عليه سُمّي مندوباً.

ولذلك نرى ذلك التقسيم الرائج، أي تقسيم الفعل إلى سنّة وبدعة.

وعلى كلّ تقدير فهذا الاتجاه ليس فيه كثير فائدة.

الاتجاه الثاني: الّذي يأخذ بالمعنى الرائج في عصر الرسالة وحين نزول القرآن الكريم، وهو كلّ أمر دخل في الشريعة ولم يكن له رصيد فيها من غير فرق بين العبادات والمعاملات والعاديات.

وعلى هذا جرى الإمام الشاطبي في كتابه «الاعتصام» الّذي ألّفه في جزءين، عقد عامة مباحثه الّتي ترجع إلى البدعة بهذا المعنى.[1]

وقد عرّف البدعة وفق هذا الاتّجاه وقال: البدعة طريقة في الدين مخترعة تضاهي الشرعية يقصد بالسلوك عليها ما يقصد بالطريقة الشرعية.

وقال في إيضاحه: ولمّا كانت الطرائق في الدين تنقسم ـ فمنها ما له أصل في الشريعة، ومنها ما ليس له أصل فيها ـ خصّ منها ما هو المقصود بالحدّ وهو القسم المخترع، أي طريقة ابتدعت على غير مثال تقدّمها من الشارع، إذ البدعة إنّما خاصّتها أنّها خارجة عمّا رسمه الشارع، وبهذا القيد انفصلت عن كلّ ما ظهر لبادي الرأي أنّه مخترع ممّا هو متعلّق بالدين، كعلم النحو والتصريف ومفردات اللغة وأُصول الفقه وأُصول الدين، وسائر العلوم الخادمة للشريعة. فإنّها وإن لم توجد في الزمان الأوّل فأُصولها موجودة في الشرع، إذ الأمر بإعراب القرآن منقول، وعلوم اللسان هادية للصواب في الكتاب والسنّة فحقيقتها إذاً أنّها فقه التعبّد

---

١. يعدّ الشيخ الشاطبي(المتوفّى عام ٧٥٠هـ) من المفكّرين وصاحب منهج في الفقه الإسلامي، وله جهود متميزة في إرساء بعض القواعد الفقهية كمقاصد الشريعة وغيرها، ولكنّه كان مطنباً في الكلام، وقد خصّص كتابه «الاعتصام» بكلا جزءيه لمباحث البدعة.

بالألفاظ الشرعية الدالّة على معانيها كيف تؤخذ وتؤدّى... إلى آخر ما أفاد.[١]

وعلى ضوء هـذا الاتّجاه عرّفها أيضـاً ابن حجر العسقلاني بقـوله: إنّ المراد بالبـدعة ما أُحدث وليس لـه أصل في الشرع، وما كان له أصل يـدلّ عليه الشرع فليس ببدعة.[٢]

وقال ابن رجب الحنلبي: البدعة ما أُحـدث ممّا لا أصل له في الشريعة يدلّ عليه، أمّا ما كـان له أصل في الشرع يدلّ عليه فليس ببدعة شرعـاً وإن كان بدعة لغةً.[٣]

---

١. الاعتصام: ١/ ٢٧.

٢. فتح الباري: ٥/ ١٥٦، و ١٧/ ٩.

٣. جامع العلوم والحكم: ١٦٠، ط الهند.

٢

البدعة في الكتاب العزيز

استعمل الـذكر الحكيم لفظ (البـدع) بالمعنى اللغـوي مرّة واحـدة وقال: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ﴾[١]، أي لست بأوّل مُرسَلٍ، وإنّما بُعثت الرسل من قبلي تترا، فلست بأمر جديد حتّى تستنكروني....

إلاّ أنّه قد أشار إلى الاتّجاه الثاني إمّا بنفس لفظ «البدعة» أو بغيره.

فمن الأوّل قوله سبحانه: ﴿وَرَهْبانِيَّةً ابْتَدَعُوها مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوانِ اللهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِها﴾.[٢]

فقوله سبحـانه: ﴿مَا كَتَبْنَـاهَا عَلَيْهِمْ﴾ أي مـا فـرضنـاهـا عليهم ولكنّهم نسبوها إلينا كذباً.

وأمّا قوله: ﴿إلاّ ابتِغَاءَ رِضْوانِ الله﴾ ففيه وجهان:

١. الاستثناء منقطع، أي ما كتبنا عليهم الـرهبانية وإنّما كتبنا عليهم ابتغاء رضوان الله.

---

١. الأحقاف:٩.

٢. الحديد:٢٧.

٢. الاستثناء متصل، أي أنّه سبحانه قد كتب عليهم أصل الرهبانية لأجل كسب رضوان الله ولكنّهم لم يراعوا حقّها.

فعلى الأوّل تكون البدعة في نفس الرهبانية.

وعلى الثاني تكون البدعة في الخروج عن حدودها.

وأمّا الآيات الّتي تشير إلى واقع البدعة الّتي عمّت حياة المشركين وغيرهم فكثيرة، نشير إلى قسم منها.

فلنقدم ما ورد في المشركين ثمّ نتطرق إلى غيرهم.

القرآن وبِدَعُ المشركين

ذكر سبحانه وتعالى في أكثر من آية شيئاً من بدعهم وافتراءاتهم على الله سبحانه، وندّد بأعمالهم، وإليك قسماً من هذه الآيات:

الآية الأُولى والثانية

قال سبحانه: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ ءَالذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُوني بِعَلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ* وَمِنَ الإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ ءَالذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحامُ الأُنْثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَداءَ إِذْ وَصّاكُمُ اللهُ بِهذا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرىٰ عَلَى اللهِ كَذِباً لِيُضِلَّ النّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظّالِمينَ﴾.[1]

تطلق كلمة «زوج» على كلّ ما له قرين كأحد الزوجين وأحد النعلين، وذكر سبحانه وتعالى في هذه الآية أزواجاً أربعة: الضأن، والمعز، والإبل، والبقر... ومن

---

١. الأنعام:١٤٣ـ ١٤٤.

كلّ منها ذكر وأُنثى فتكون أزواجاً ثمانية.

أمّا «الضأن» فالكبش والنعجة، وأمّا «المعز» فالتيس والمعزاة، وأمّا «الإبل» فالجمل والناقة، وأمّا «البقر» فالثور والبقرة. فيكون الجميع ثمانية أزواج.

ثمّ إنّه سبحانه يردّ على تحريم المشركين ونسبة بعض هذه الأزواج إلى الله فيسألهم هل هو حرّم الذكرَ منها أو الأُنثى؟ أو هل هو حرّم ممّا اشتملت عليه أرحام الإناث؟ فيذمّهم بقوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِباً لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

فالآيتان ترشدان إلى أُمور:

١. أنّ المبدع مفترٍ على الله كذباً حيث ينسب إلى الله سبحانه حكماً من غير علم أو مع العلم بكذبه.

٢. الغاية من الابتداع هو إضلال الناس.

٣. فإذا استمر المبدع على موقفه فلا تشمله هدايته سبحانه، بل يبقى ضالاً مضلاً حتّى تختطفه المنية.

الآية الثالثة

قال سبحانه: ﴿وَجَعَلوا للهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعام نَصِيباً فَقَالُوا هَذا للهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذا لِشُرَكائِنَا فَما كانَ لِشُرَكائِهِمْ فَلاَ يَصِلُ إِلَى اللهِ وَمَا كانَ للهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلىٰ شُرَكائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.[1]

كان المشركون يجعلون شيئاً من زرعهم وثمارهم وأنعامهم لله تعالى، وشيئاً لأصنامهم تأخذه سدَنة الأصنام وحُرّاسها، فإذا أخصبت السنة أبقوا لكلّ

١. الأنعام:١٣٦.

نصيبه، و إذا أجدبت السنة جعلوا ما لله للأصنام قائلين بأنّها فقيرة لا شيء لها ولله كلّ شيء.

انظر كيف يجمع العقل البدائي بين المتناقضات؟! فالصنم أو الحجر الّذي ليس بشيء هو في نفس الوقت شريك للخالق في كلّ شيء!! فساء ما يحكمون في الجمع بين من يقول للشيء ﴿كُنْ فَيَكُون﴾ وبين الحجر الأصم!

الآية الرابعة

قال سبحانه: ﴿وَكَذٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَولادِهِمْ شُرَكاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾.[١]

المراد من الشركاء في الآية ﴿شُرَكاؤُهُمْ﴾ هو الكهنة وخدمة الأصنام وغيرهم من الرؤساء، الذين زيّنوا للمشركين قتل أولادهم، وكانت الغاية من تزيين هذا العمل القبيح هو إهلاكهم وتلبيس دينهم عليهم، أي تخليط دينهم عليهم.

الآية الخامسة

قال سبحانه: ﴿وَقَالُوا هٰذِهِ أَنْعامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُها وَأَنْعامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا افْتِراءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كانُوا يَفْتَرُونَ﴾.[٢]

الحجر هو الحرام، ومعنى ذلك أنّ المشركين كانوا يقتطعون قسماً من زرعهم وثمارهم وماشيتهم ويحرّمون التصرف فيه إلاّ على من يختارون، كما يحكي عنهم قوله

---

١. الأنعام:١٣٧.

٢. الأنعام:١٣٨.

سبحانه: ﴿هٰذِه أَنعامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ (أي حرام) لاَ يَطْعَمُها إلاّ مَنْ نَشاءُ بِزَعْمِهِمْ﴾.

كما كانوا يحرّمون ظهور بعض الأنعام فلا يركبونها ولا يحملون عليها شيئاً.

كما أنّهم كانوا يذبحون أنعاماً باسم الأصنام لا باسمه سبحانه.

فهذه الآيات إخبار عن الأُمم الماضية، وكلّها كانت افتراءً على الله سبحانه.

وقد ذكر القرآن الكريم تفصيل ما حرّموا من الأنعام في الآية التالية:

الآية السادسة

قال سبحانه: ﴿مَا جَعَلَ اللهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلاَ سائِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ وَلا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلى اللهِ الكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾.[1]

وكان العرب في الجاهلية يحرّمون الأنعام التالية:

١. البحيرة: المراد بها الناقة التي تنجب خمسة أبطن، فيشقّون أُذنها ويحرّمون ركوبها.

٢. السائبة، كان العربي الجاهلي يقول: إذا قدمتُ من سفري أو برئتُ من مرضي فناقتي سائبة، فتكون أيضاً كالبحيرة.

٣. الوصيلة: كانوا إذا ولدت الناقة ذكراً وأُنثى في بطن واحد قالوا: وصلتْ أخاها ولم يذبحوا الذكر لأجلها.

٤. الحام: كانوا إذا نتج من صلب الجمل عشرة بطون قالوا: قد حمى ظهره فلا يركَب ولا يُحمَل عليه شيء.

---

١. المائدة:١٠٣.

ولكن الله سبحانه يعدّ هؤلاء الكفرة من المفترين على الله الكذب وانّ افتراءَهم من قلّة عقلهم.

والعجب أنّ الرسولﷺ كان إذا دعاهم إلى ما أنزل الله أعرضوا عنه، وقالوا: تكفينا سنّة آبائنا وطريقتهم كما يقول سبحانه:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كانَ آباؤهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ ﴾.(١)

وهذه الأنعام الأربعة المحرمة افتراءً على الله هي المقصودة في قوله سبحانه: ﴿وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُها﴾.

الآية السابعة

أشار القرآن الكريم في آية أُخرى إلى أنّ أبالسة الإنس هم الذين كانوا يبتدعون و يفترون على الله.

قال سبحانه: ﴿وَلاَ تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّياطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيائِهِمْ لِيُجادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ .(٢)

فالآية تنهى عن أكل مالا يذكر اسم الله عليه عند الذبح معتبرة «الأكل» فسقاً ومعصيةً، وكان الشياطين ـ أي أبالسة الإنس ـ يعلّمون بعض أذنابهم أن يقولوا للمسلمين: كيف تأكلون الحيوان الذي ذبحتموه بأيديكم، ولا تأكلون الحيوان الّذي أماته الله؟ أليس قتيل الله أولىٰ بالأكل من قتيلكم؟

---

١. المائدة:١٠٤.

٢. الأنعام:١٢١.

الآية الثامنة

قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّما أَمْرُهُمْ إِلَى اللهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كانُوا يَفْعَلُونَ﴾.[١]

إنّه سبحانه وتعالى يهدّد في هذه الآية من يفرّق الأُمة الواحدة ويجعلها شيعاً ما، فخاطب النبيﷺبقوله: ﴿لَسْتَ مِنْهُم فِي شَيْءٍ إِنَّما أَمْرُهُمْ إِلَى اللهِ﴾، فهو وحده تعالى يتولّى عقاب من يثير العداء والبغضاء بين أهل الدين الواحد.

والمراد من هؤلاء المفرّقين هم المشركون، بقوله سبحانه: ﴿وَلاَ تَكُونوا مِنَ الْمُشْرِكينَ* مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾.[٢]

والآية وإن نزلت في شأن المشركين إلاّ أنّ شأن النزول لا يكون سبباً لتخصيص مفهوم الآية، فلو قام فريق من المسلمين(في أي عصر من العصور) بتفريق الأُمّة الواحدة بأهوائه وبدعه فهو من مصاديق الآية المتقدّمة.

الآية التاسعة

قال سبحانه:﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذاباً مِنْ فَوقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ أُنْظُر كَيْفَ نُصَرِّفُ الآياتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾.[٣]

لقد اعتبر سبحانه وتعالى تشتّت الأُمّة الواحدة إلى فرق وشيع بمثابة العذاب النازل من السماء (كالصواعق والطوفان) أو المنبعث من الأرض

---

١. الأنعام:١٥٩. ٢. الروم:٣١ـ ٣٢.

٣.الأنعام:٦٥.

(كالزلازل والخسف)، إذ عطف قوله ﴿أَوْ يَلْبِسكُمْ شِيَعاً﴾ على هذه الكوارث.

الآية العاشرة

قال سبحانه: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبيلِهِ ذَلِكُمْ وَصّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.[1]

فالآية المباركة تأمر الأُمّة باتّباع سبيل واحد، وهو صراط الله سبحانه وتنهى عن اتّباع سبل أُخرى تُفضي بها إلى التفرّق وبالتالي نزول العذاب عليها.

هذه بعض الآيات الواردة في ابتداع المشركين وذمّهم والتنديد بهم، والّتي يتّضح منها أنّ لفظة البدعة والابتداع وما يشابهها كانت في عصر نزول الرسالة تحمل معنى سلباً، ولذا لا يصحّ تقسيمها إلى الأقسام الخمسة الآنفة الذكر.

---

١. الأنعام:١٥٣.

٣

القرآن والبدعة عند أهل الكتاب

ولم يكن الابتداع منحصراً بالمشركين وإنّما عمّ أهل الكتاب، إذ ندّد بهم القرآن المجيد، وأشار إلى بعض بدعهم، ونقتصر هنا على ما يلي:

أمر سبحانه وتعالى جميع الأنبياء باتّباع إبراهيم عليه السلام في المعارف والعقائد وخاصّة التوحيد.

قال سبحانه: ﴿**قُلْ صَدَقَ اللهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً**﴾.[1]

وقال: ﴿**ثُمَّ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً**﴾.[2]

وقال سبحانه: ﴿**إِنَّ أَوْلَى النّاسِ بِإِبْراهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَـذا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ**﴾.[3]

ثمّ إنّ الخط الّذي رسمه إبراهيم عليه السلام لمن يأتي بعده هو خط التوحيد وعبادته سبحانه والاجتناب عن عبادة غيره، فجعلها كلمة باقية في عقبه، قال

---

١. آل عمران:٩٥.

٢. النحل:١٢٢.

٣. آل عمران:٦٨.

سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْراهيمُ لأَبِيهِ وَقَومِهِ إِنَّنِي بَراءٌ مِمّا تَعْبُدُونَ* إلاّ الّذِي فَطَرَني فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ* وَجَعَلَها كَلِمَةً باقِيَةً في عَقِبِه لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.[١]

ولكنّهم انحرفوا عن الصراط المستقيم وابتدعوا بدعاً، منها ما يلي:

١. بدعة التثليث

مع أنّ الخط الّذي رسمه إبراهيمعليه السلام هو خط التوحيد وتنزيه الله سبحانه عن الأمثال والأنداد وعن الأولاد ذكوراً وإناثاً، لكن بدعة التثليث لصقت بالنصارى فكانوا من دعاتها وبغاتها.

يقول سبحانه: ﴿يا أَهْلَ الْكِتابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّما الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انْتَهُوا خَيْراً لَكُمْ إِنَّما اللهُ إِلَهٌ واحِدٌ سُبْحانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الأَرْضِ وَكَفى بِاللهِ وَكِيلاً﴾.[٢]

أين التوحيد الّذي دعا إليه إبراهيمعليه السلام من القول بالتثليث، أي الأب والابن وروح القدس؟! فالأب عندهم هو الّذي خلق العالم بواسطة الابن، والابن هو الّذي أتمّ الفداء وقام به، وروح القدس هو الّذي يطهر القلب والحياةلله، وهذه هي الأقانيم الثلاثة.

ثمّ إنّه سبحانه نبّه على تنزيهه من الولد بقوله: ﴿سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾، فإنّ الولد عندهم إله، والإله لابداية له ولا نهاية، والمولود له بداية، وهي يوم ولادته، فكيف يكون إلهاً؟!

---

١. الزخرف:٢٦ـ٢٨.

٢. النساء:١٧١.

ويقول سبحانه في آيـة أُخرى منددا بفكرة التثليث: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلاثَـةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاّ إِلهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمّا يَقُـولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ﴾.[١]

وممّا يُثير العجب أنّ فكـرة التثليث واتّخاذ الولد فكرة مستـوردة، استعاروها من الهنـود البـوذيّين، والذكـر الحكيم يصرّح بأنّ النصـارى يضـاهئون في قـولهم بالتثليث قول القائلين به في الأُمـم الماضية، يقول سبحانه: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ وَقَـالَتِ النَّصَـارى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِـأَفْـوَاهِهِمْ يُضَـاهِئُونَ قَـوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنّى يُؤْفَكُونَ﴾.[٢]

وقد أثبت البـاحثون أنّ القـول بالتثليث رائج بين البراهمة والبـوذيين، وقد ألّف أحـد المحقّقين كتاباً في هـذا الصدد أسماه: «العقـائد الوثنيـة في الـديانـة النصرانيـة»، أثبت فيـه وجود عقيـدة التثليث عنـد البراهمة وهـم يسمّـونها بأسماء ثلاثة:

برهما: خالق العالم.

وشتو: الحافظ ورب العالم.

سيفا: المميت.

٢. بدعة اتّخاذ الرهبان أرباباً

وقد بلغت غـوايتهم حداً اتّخذوا أحبارهم ورهبـانهم أرباباً، قال سبحـانه: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبـارَهُمْ وَرُهْبانَهُمْ أَرْبـاباً مِنْ دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَـرْيَمَ وَمَا أُمِـرُوا إِلاّ

١. المائدة:٧٣.

٢. التوبة:٣٠.

لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لاَ إِلَهَ إِلاّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمّا يُشْرِكُونَ﴾.[١]

ويظهـر ممّا رواه الطبري وغيره أنّهم كـانوا مشركين في مسألـة التقنين، روي عن الضحاك أنّه قال: ﴿**اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ**﴾ أي قرّاءهم وعلماءهم﴿**أرباباً مِنْ دُونِ اللهِ**﴾يعني سـادة لهم من دون الله، يُطيعـونهم في معاصي الله، يحلّـون مـا أحلّوه لهم ممّا قد حرّمه الله عليهم، ويحرّمون ما يحرّمونه عليهم ممّا قد أحلّه الله لهم.

وروي أيضاً عن عـدي بن حاتم قـال: انتهيت إلى النبيﷺ و هو يقـرأ في سورة براءة: ﴿ **اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَرُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللهِ** ﴾قال: قلت: يا رسول الله إنّا لسنا نعبدهم، فقال: «أليس يُحرّمون مـا أحلّ الله فتحرّمونه، ويحلّون ما حرّم الله فتحلّونه؟» قال: قلت: بلى، قال: «فتلك عبادتهم».[٢]

هذه نماذج من بدع أهل الكتاب وأخص بالذكر النصارى منهم، ولغيرهم أيضاً بدع تحدّث عنها القرآن الكريم نُعرض عن ذكرها.

---

١. التوبة: ٣١.

٢. تفسير الطبري: ١٠/ ٨٠ـ ٨١.

٤

البدعة في السنّة

قـد وردت روايـات متضـافـرة عن النبيﷺوعترتـه الطاهـرة بشأن هـذا الموضوع، وهي على قسمين:

الأوّل منهما يذكر البدعة ويندّد بها، والآخر يذكرها ويحدّد وظيفة المسلمين من أصحابها.

ونحن نذكر في هذا المقام ما يتعلّق بالأمر الأوّل.

١ . روى الإمام أحمد عن جابـر قال: خطبنا رسول اللهﷺ فحمد الله وأثنى عليه كما هـو أهل له ثمّ قال: «أمّـا بعد: فإنّ أصـدق الحديث كتاب الله، وأفضل الهدي هدي محمد، وشرّ الأُمور محدثاتها، وكلّ بدعة ضلالة».[١]

٢ . وروى أيضاً عن جـابر قال: كـان رسول الله يقـوم فيخطب فيحمد الله ويُثني عليه بما هو أهلـه ويقول: من يهد الله فلا مضلّ له، ومـن يضلل فلا هادي له، إنّ خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هَدي محمّدﷺ، وشرّ الأُمور محدثاتها، وكلّ محدثة بدعة».[٢]

---

١ . مسند أحمد:٣/ ٣١٠، دار الفكر.

٢ . مسند أحمد:٣/ ٣٧١.

٣. وروى أيضاً عن العرباض بن سارية قال: صلّى بنا رسول الله الفجر ثمّ أقبل علينا فوعظنا موعظة بيّنة، قال: «أُوصيكم بتقوى الله... وإيّاكم ومحدثات الأُمور، فإنّ كلّ محدثة بدعة، وكلّ بدعة ضلالة».[1]

٤. روى ابن ماجة عن جابر بن عبد الله قال: كان رسول الله إذا خطب احمرّت عيناه ثمّ يقول: «أمّا بعد فإنّ خير الأُمور كتاب الله، وخير الهدي هَديُ محمد، وشرّ الأُمور محدثاتها، وكلّ بدعة ضلالة».[2]

٥. روى مسلم في صحيحه: كان رسول الله ﷺ إذا خطب: احمرّت عيناه، وعلا صوته، واشتدّ غضبه، حتّى كأنّه منذر جيشٍ، يقول: صبّحكم ومسّاكم»، ويقول: «بُعِثْتُ أنا والساعة كهاتين»، ويقرن بين اصبعيه: السبّابة والوسطى، ويقول:«أمّا بعد، فإنّ خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هَديُ محمد، وشرّ الأُمور محدثاتها، وكلّ بدعة ضلالة» ثمّ يقول: أنا أولىٰ بكلّ مؤمن من نفسه، من ترك مالاً فلأهله، و من ترك ديْناً أو ضياعاً فإليّ وعليّ».[3]

٦. روى النسائي عن جابر قال: كان رسول الله ﷺ يقول في خطبته: «نحمد الله ونثني عليه بما هو أهله»، ثمّ يقول: «من يهدِ الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، إنّ أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هَديُ محمّد، وشرّ الأُمور محدثاتها، وكلّ محدثة بدعة، وكلّ بدعة ضلالة، وكلّ ضلالة في النار»، ثمّ يقول: «بعثت أنا والساعة كهاتين»، وكان إذا ذكر الساعة احمرّت وجنتاه، وعلا صوته، واشتدّ غضبه، كأنّه نذير جيشٍ، ويقول: «صبّحكم ومسّاكم»، ثمّ قال: «من ترك

---

١. المصدر نفسه: ٤/ ١٢٦. ولاحظ أيضاً ص ١٢٧، ولاحظ البحار: ٢/ ٢٦٣ فقد جاءت فيها نفس النصوص وفي ذيلها: «وكلّ ضلالة في النار».

٢. سنن ابن ماجة: ١/ ١٧، الباب السابع، الحديث ٤٥، دار الفكر.

٣. صحيح مسلم: ٣/ ١١، باب تخفيف صلاة الجمعة و الخطبة، دار الفكر.

مالاً فلأهله، ومن ترك ديْناً أو ضياعاً فإليَّ(أو عليّ)، وأنا أولى با لمؤمنين».[١]

٧. قال رسول الله ﷺ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردّ».[٢]

قال الشاطبي: وهذا الحديث عدّه العلماء ثُلثَ الإسلام، لأنّه جمع وجوه المخالفة لأمره ﷺ، ويستوي في ذلك ما كان بدعة أو معصية.[٣]

٨. روى الكليني عن محمد بن مسلم، عن أبي جعفر عليه السلام قال: خطب أمير المؤمنين عليه السلام الناس فقال: «أيها الناس إنّما بَدْءُ وقوع الفتن، أهواءٌ تُتَبع، وأحكام تُبتدع، يُخالَف فيها كتاب الله، ويتولّىٰ عليها رجال رجالاً على غير دين الله، فلو أنّ الباطل خلص من مزاج الحق لم يخف على المرتادين، ولو أنّ الحق خلص من لبس الباطل انقطعت عنه ألسن المعاندين، ولكن يؤخذ من هذا ضغث ومن هذا ضغث فيمزجان، فهناك يستولي الشيطان على أوليائه، وينجو الذين سبقت لهم من الله الحسنى».[٤]

٩. وروى عن الحسن بن محبوب رفعه إلى أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «إنّ من أبغض الخلق إلى الله عزّ وجلّ لرجلين: رجل وكَله الله إلى نفسه فهو جائر عن قصد السبيل، مشغوف بكلام بدعة، قد لهج بالصوم والصلاة فهو فتنة لمن افتتن به، ضالّ عن هدى من كان قبله، مضلّ لمن اقتدى به في حياته وبعد موته، حمّال خطايا غيره، رهن بخطيئته؛ ورجل قمش رجلاً...».[٥]

---

١. السنن الكبرى: ١/ ٥٥٠ برقم ١٧٨٦؛ جامع الأُصول: ٥، الفصل الخامس، برقم ٣٩٧٤.

٢. مسلم: الصحيح: ٥/ ١٣٣، كتاب الأقضية، الباب ٨؛ مسند أحمد: ٦/ ٢٧٠.

٣. الاعتصام: ١/ ٦٨.

٤. الكافي: ١/ ٥٤ـ٥٥ ح ٢، ٣، ٤، ١، باب البدع. ولفظ الأخير مطابق لما في نهج البلاغة، الخطبة ٥٠، دون الكافي لكونه أتم.

٥. المصدر نفسه: ح ٦.

١٠. قـال أمير المؤمنين عليه السلام: «ما اختلفت دعـوتان إلّا كـانت إحـداهما ضلالة».[١]

١١. وقال عليه السلام:«ما أُحـدثت بدعة إلاّ تـرك بها سنّة، فـاتّقوا البدع وألـزموا المهيع، إنّ عوازم الأُمور أفضلها، و إنّ محدثاتها شرارها».[٢]

١٢. وقال عليه السلام:«من مشى إلى صـاحب بـدعـة فوقّـره فقـد مشى في هـدم الإسلام».[٣]

١٣. روي مرفوعاً عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «عليكم بسنّة، فعمل قليل في سنّة خير من عمل كثير في بدعة».[٤]

وللإمام عليّ عليه السلام في «نهج البـلاغـة» وراء مـا نقلنـاه كلمات درّيـة في ذمّ البدعة، نقتبس منها ما يلي:

١٤. «فاعلـم أنّ أفضل عباد الله عنـد الله إمام عـادل هُدِيَ وهَدىٰ، فـأقام سنّة معلومة وأمـات بدعة مجهولة؛ وإنّ شرّ الناس عنـد الله إمام جائر ضلّ وضُلّ به، فأمات سنّة مأخوذة وأحيا بدعة متروكة».[٥]

١٥. وقال: «أوّه على إخواني الـذين تلوا القرآن فأحكموه، وتـدبّروا الفرض فأقاموه، أحيوا السنّة وأماتوا البدعة».[٦]

١٦. وقال عليه السلام أيضاً: «إنّما الناس رجلان: متّبع شرعة، ومبتدع بدعة».[٧]

---

١. البحار:٢/ ٢٦٤، ح ١٤.

٢. البحار: ٢/ ٢٦٤، ح١٥.

٣. البحار:٢/ ٣٠٤، ح ٤٥.

٤. البحار:٢/ ٢٦١ ح ٣.

٥ـ٧. نهج البلاغة: الخطب١٦٤، ١٨٢، ١٧٦.

١٧ . وقال عليه السلام: «طوبىٰ لمن ذلّ في نفسه وطابَ كسبـه ـ إلى أن قال: ـ وعزل عن الناس شرّه وسَعتْه السنّة ولم ينسب إلى البدعة».[١]

١ . المصدر نفسه: قسم الحكم ـ رقم ١٢٣ .

٥

البدعة وآثارها الموبقة

و

واجب المسلمين تجاهها

إنّ صيانة الشريعة وحفظها من التحريف، رهن مكافحة المبدعين بشتّى الوسائل، ولولا ذلك لأصبحت فريسة لكلّ طامع، وغرضاً لكلّ حاقد، ولتسرّب الشك إلى أُصولها وفروعها، الأمر الّذي يؤول إلى مسخها وتشويه صورتها، وإلى تفرّق المسلمين إلى فرق وطوائف متخاصمة، لا تلجأ إلى ركن وثيق، ولا تتمسك بحبل الله المتين الّذي أمرت الأُمّة بأن تعتصم به.

وقد نبّه الذكر الحكيم إلى هذا المصير المرديّ بقوله سبحانه: ﴿**وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾.[1]

وكذا تبعته السنّة الشريفة فذكرت آثار البدعة الموبقة، ودعت الأُمّة الإسلامية إلى مكافحتها ومحاربتها بما تيسر؛ وإليك نزراً ممّا ورد في هذا المجال.

---

١. آل عمران:١٠٥.

أثر البدعة في مصير المبدِعْ

قد وردت أحاديث وافرة في تأثير البدعة في حياة المبدع ومصيره عاجلاً وآجلاً، نقتصر منها على ما يلي:

١. روى ابن ماجة: «قال رسول الله ﷺ: لا يقبل الله لصاحب بدعة صوماً ولا صلاة ولا صدقة ولا حجّاً ولا عمرة ولا جهاداً».[١]

٢. روى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أُجور من تبعه لا ينقص ذلك من أُجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من يتبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً».[٢]

٣. روى مسلم في «الصحيح» من حديث أبي هريرة: أنّ رسول الله ﷺ أتى المقبرة فقال: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين وإنّا إن شاء الله بكم لاحقون ـ إلى أن قال ـ : ألا ليُذادنَّ رجال عن حوضي كما يذاد البعير الضال، أُناديهم ألا هلمّ! ألا هلمّ! ألا هلمّ! فيقال: إنّهم قد بدّلوا بعدك، فأقول: سحقاً! سحقاً».[٣]

٤. روى الكليني عن محمد بن جمهور، رفعه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «أبى الله لصاحب البدعة بالتوبة» قيل: يا رسول الله وكيف ذلك؟ قال: «إنّه قد أُشرب في قلبه حبّها».[٤]

---

١. سنن ابن ماجة: ١/ ١٩.

٢. صحيح مسلم: ٨/ ٦٢، كتاب العلم؛ سنن أبي داود: ٢/ ٣٩٣ برقم ٤٦٠٩، باب من دعا إلى سنّة.

٣. صحيح مسلم: ١/ ١٥٠ـ١٥١، كتاب الطهارة.

٤. الكافي: ١/ ٥٤ـ٥٥، الحديث ٤، باب البدع.

واجب المسلمين تجّاه المبدعين

إذا تلاعب المبدع بالشريعة وألصق بها ما ليس منها، أو رفض منها ما هو من صحيحها ولم يكن يقف أمامه وازع يمنعه عن ذلك، تسربت الفكرة الموبقة إلى أوساط المسلمين، فيُصوّر الحقّ باطلاً والباطل حقّاً، ولذلك فرض الإسلام على المسلمين عامة وعلى حُكّامهم وعلمائهم خاصة مكافحة المبدعين بما تيسّر.

ومن المعلوم أنّ مسؤولية الحاكم ذي المنعة والقدرة غير مسؤولية الناس العاديين، و إليك بعض ما ورد من ذلك في السنّة الشريفة:

١. روى مسلم في صحيحه أنّ رسول الله ﷺ قال: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردّ».[١]

٢. روى الكليني عن محمد بن جمهور، رفعه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا ظهرت البدع في أُمّتي فليظهر العالم علمه، فمن لم يفعل فعليه لعنة الله».[٢]

٣. وبنفس الإسناد قال: قال رسول الله ﷺ: «من أتى ذا بدعة فعظّمه فإنّما يسعى في هدم الإسلام».[٣]

٤. روى عمر بن يزيد، عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «لا تصحبوا أهل البدع ولا تجالسوهم فتصيروا عند الناس كواحد منهم، قال رسول الله: المرء على دين خليله وقرينه».[٤]

---

١. صحيح مسلم: ٥/ ١٣٣، كتاب الأقضية، الباب٨؛ ورواه أحمد في مسنده: ٦/ ٢٧٠.

٢. الكافي : ١/ ٥٤ـ ٥٥، الحديث٢، باب البدع.

٣. نفس المصدر: الحديث٣.

٤. الكافي: ٢/ ٣٧٥.

٥. وروى داود بن سرحان، عن الإمام الصادق عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ إذا رأيتم أهل الريب والبدع من بعدي فأظهروا البراءة منهم، وأكثروا من سبّهم والقول فيهم والوقيع...».(١)

٦. وروى المجلسي أنّ الإمام الصادق عليه السلام قال: «من تبسّم في وجه مبتدع فقد أعان على هدم دينه».(٢)

١. نفس المصدر.

٢. بحار الأنوار:٤٧/ ٢١٧؛ عن مناقب آل أبي طالب:٣/ ٣٧٥.

٦

البدعة ومقوّماتها الثلاثة

قد تعرفت فيما سبق على أنّ الموضوع ليس هـو نفس لفظ البدعة ومفهومها حتّى يشمل الأُمور العادية؛ وإنّما هو يخصّ البدعة في الدين؛ ولكن قسماً كثيراً من علماء السنّة جعلوا الموضوع نفس البدعة وقسّموها إلى قسمين: حسنة وسيئة، وما ذلك إلاّ لتصحيح ما أقدم عليه عمر بن الخطاب في مسألة صلاة التراويح، ووصف إقامتها بالجماعة وبإمام واحد، بدعة حسنة، ولولا ذلك لما خطر في بالهم هذا التقسيم للبدعة.

وكما عرفت أنّ المتبادر من البدعة وما ورد في الذكر الحكيم من مرادفاتها هو الفعل المذموم.

ومع ذلك نرى أنّ الإمام الشافعي يقول: البدعة بدعتان: بدعة محمودة، وبدعة مذمومة؛ فما وافق السنّة فهو محمود، وما خالف السنّة فهو مذموم.[1]

وعلى هذا المنوال نسج غير واحد من علماء أهل السنّة[2]، كالغزالي في

---

١. فتح الباري:١٧/ ١٠.

٢. لا حاجة لذكر الكثير من التفاصيل.

الإحياء[١]، وغيره.

غير أنّ أصحابنا ــ إلاّ النادر منهم ـ حينما يتناولون موضوع البدعة، فإنّهم يقصدون بها خصوص البدعة في الدين، ويذهبون إلى أنّ لها قسماً واحداً، وإليك بعض كلماتهم في هذا الصدد:

١. قال السيد المرتضى(٣٥٥ـ ٤٣٦هـ): البدعة: الزيادة في الدين، أو نقصان منه مع إسناد إلى الدين.[٢]

٢. وقال العلاّمة(٦٤٨ــ ٧٢٦هـ): كلّ موضع لم يشرع فيه الأذان فإنّه يكون بدعة.[٣]

٣. وقال الشهيد الأوّل (٧٣٤ــ ٧٨٦هـ): محدثات الأُمور بعد عهد النبي صلى الله عليه وآله تنقسم أقساماً، لا يطلق اسم البدعة عندنا إلاّ على ما هو محرّم منها.[٤]

٤. وقال الطريحي(...ـ ١٠٨٦هـ): البدعة: الحدث في الدين وما ليس له أصل في كتاب ولا سنّة، وإنّما سمّيت بدعة لأنّ قائلها ابتدع هو نفسه، والبِدَع ـ بالكسر والفتح ـ جمع بدعة، ومنه الحديث: «من توضأ ثلاثاً فقد أبدع» أي فعل خلاف السنّة، لأنّ ما لم يكن في زمنه صلى الله عليه وآله فهو بدعة.[٥]

٥. وقال المجلسي رحمه الله(١٠٣٧ـ ١١١٠): البدعة في الشرع ما حدث بعد الرسول صلى الله عليه وآله ولم يرد فيه نص على الخصوص، ولا يكون داخلاً في بعض العمومات، أو ورد نهيٌ عنه خصوصاً أو عموماً.[٦]

---

١. إحياء علوم الدين:٢/ ٣، ط . الحلبي.

٢.الرسائل:٣/ ٨٣.

٣. المختلف:٢/ ١٣١.

٤. القواعد والفوائد:٢/ ١٤٤ـ ١٤٥، القاعدة ٢٠٥.

٥. مجمع البحرين: ج١، مادة «بدع».

٦. بحار الأنوار:٧٤/ ٢٠٢.

إلى غير ذلك من التعاريف الّتي تركّز على أنّ البدعة هو التدخّل في الدين بزيادة أو نقيصة، وأمّا إيجاد ما لم يكن له مثال في السابق ولا في عهد الرسول ﷺ ولم يكن له أي صلة بالدين، فلا يدخل في إطار البدعة، وإنّما يطلب حكمه من الكتاب والسنّة، فتارة يكون حلالاً وأُخرى حراماً لكن لا بما هو «بدعة» بل بما هوهو.

مقوّمات البدعة

المهم في المقام هو التعرف على مقومات البدعة، وإن ظهر بعضها ممّا سبق. إنّ البدعة تتقوّم بقيود ثلاثة:

١. التدخّل في الدين عقيدة وشريعة بزيادة أو نقيصة.

٢. أن لا يكون لها دليل في الشرع يدلّ على جوازها خصوصاً أو عموماً.

٣. أن تكون هناك إشاعة ودعوة من المبدع.

وإليك دراسة القيود الثلاثة:

الأوّل: التدخّل في الدين بزيادة أو نقيصة

إذا كان الموضوع هو البدعة في الدين، فلا محالة أن تكون البدعة متقوّمة بالتدخّل في الدين بزيادة شيء فيه أو نقيصة شيء منه.

وقد تعرّفت فيما سبق على تضافر الآيات والروايات على أخذ هذا القيد (في الدين) في مفهومها. وأمّا ماتضافر نقله عن الرسول ﷺ من أنّ «شر الأُمور محدثاتها» فإنّما يريد الأُمور الّتي لها صلة بالدين، وأمّا الخارجة عنه فهي تتبع في كونها حلالاً وحراماً ما ورد بشأنها في الكتاب والسنّة.

فاختلاط الرجال ـ مثلاً ـ بالنساء السافرات في الأعراس، من البدع الغربية الّتي تسربت إلى الشرق الإسلامي، وهو بلا شكّ محرّم شرعاً، لكن لا بعنوان أنّه بدعة في الدين، لأنّ القائمين بهذه الأعمال غير متمسكين بأهداب الدين، وغير معنيّين بمسائله، فهم يمارسون مثل هذه الأعمال تأثّراً بالغرب واقتداءً بالغربيين، لا بأنّه من الدين.

ولأجل تحقيق الحقّ وإيضاحه نذكر نصّ الحديث الّذي صرّح به الرسول الأكرمﷺ ونُقل بصور مختلفة حتّى يبين أنّ القائل لا يريد من الأُمور إلاّ الأُمور الّتي لها صلة بالدين، وأمّا الأُمور العادية وما شابهها فمحدثاتها قد تكون حلالاً و قد تكون حراماً، لكن لا من حيث كونها من مصاديق البدعة.

روى الإمام أحمد عن جابر: قال: خطبنا رسول اللهﷺ فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهل له، ثمّ قالﷺ: «فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأفضل الهدي هدي محمد، وشر الأُمور محدثاتها، وكلّ بدعة ضلالة».[1]

تفسير قولهﷺ: شرّ الأُمور محدثاتها

إنّ الذكر الحكيم دعا المسلمين إلى التفكير في خلق السماوات والأرض وقال: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا باطِلاً﴾[2]، كما أمر سبحانه في موضع آخر بالنظر ـ بتدبّر ـ إلى ما في السماوات والأرض، فقال سبحانه: ﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّماواتِ وَالأَرْضِ﴾.[3]

إلى غير ذلك من الآيات الّتي تدعو الإنسان إلى النظر والتفكّر والتدبّر في عالم الطبيعة.

١. مسند أحمد:٣/ ٣١٠.

١. آل عمران:١٩١.

٢. يونس:١٠١.

هذا من جـانب ومن جانب آخر دعـا الإسلام إلى التعلّم ونشر العلم وإن اقتضى ذلك السفر إلى البلاد النائية كالصين مثلاً.

والآيات والروايات الواردة في هـذا المجال كثيرة لا حاجة لبيانها والتفصيل في ذكرها.

والنتيجـة الّتي تسفــر عن هـذين الأمـريـن: التفكير والتعلّم، هي كشف كوامن الطبيعـة، وسنن الله سبحانـه في عالم الحياة، وبـالتالي التطـور والتكامل في حياة الإنسان في مختلف شؤونها ومتطلّباتها.

ولـذلك نرى أنّـه قـد طرأت في حيـاة المسلمين بعـد رحيل النبيﷺ أُمور جديدة تلقّاها الصحابة والتابعون بالقبول بلا غمز واعتراض، وخاصة بعد اتّساع دائرة الفتوحات الإسلامية واحتكاك المسلمين بسائر الشعوب كاليهود والنصارى والمانويين والزرادشتية والبراهمة والصابئة، وكانت لديهم علوم ومعارف و عادات وتقاليد اقتبسها المسلمون منهم (باستثناء ما ورد نهي عنها في الشرع) خصوصاً ما يرتبط منهـا بالعلـوم الكونية والـرياضيات والتـاريخ، وعند ذلك حـدثت أطوار وأنماط في الحياة العمرانية والعادات الاجتماعية والأنشطة الاقتصادية على وجه لم يكن لها أي مثال في عصر الرسول الأكرمﷺ.

يقـول أحد الكتّـاب المعاصرين في هـذا الصدد: أخـذ المسلمون يشيّـدون الأبنية بـاللبن والحجارة والجص، بعد أن كـانت تقام بـالقصب وخوص النخل، وتدعم باللبن فيما بينهـا ثمّ تسقف بالإذخر ونحوه. وأخـذ الأُمراء يبنون لأنفسهم قصوراً ذات حمى وأبهاء، لممارسة وظائف الحكم والنظر في مصالح المسلمين فيها، وراح المهندسون يخطّطون لإقامة المدن وتشييدها، الكوفة والبصرة أبرز مثالين لها، فقد نظموا الشوارع الرئيسية فيها بعـرض أربعين ذراعاً، والشوارع الفرعية بعرض

ثلاثين، والأزقـة الداخليـة بعرض سبعـة أذرع، كما وضعوا نظـاماً لارتفـاع الأبنية حسب مكان وجودها.

نشطت الأعمال التجارية نشـاطاً بيّناً بين الصحابة بعـد أن كانت التجارة محتقرةً عنـد العرب، ...ظهرت الصناعـات بأنواعها المختلفـة وأخذت تنتشر بين الصحابة فمن بعدهم تباعاً.

تطـوّرت صنـاعات الأطعمـة وأسـاليب استحضـارها فـاستعملـوا دقيق الحواري، وهو خـلاصة الـدقيق ولبابـه خالياً من النخـالة، كـانوا يجلبـونه في أوّل معـرفتهم له وعهـدهم بـه من بـلاد الشام وغيرهـا، ثمّ مـا لبثـوا أن أتقنوا صنعـه وتحضيره، واتّخذوا طعاماً لهم: الخبز الرقاق آناً، وأنواع الحلوى كالتي كانت تسمى بالخبيص والفالوذج آناً آخر.[١]

لقد ظهـرت المناخل بينهم فجأة، وما كـان لهم عهد بها من قبل. وهي من أدوات التنعم والترفه في المأكل، ممّا لم يكن يعرفه العرب ولا المسلمون من قبل. فما الّـذي ينبغي أن يتخـذوه؟ أيتبعـون في ذلك سنن الصحـابـة الـذين من قبلهم، فيتجنبون استعمال المناخل في نخل الدقيق، نظراً لأنّ ذلك بدعة مستحدثة، وكلّ بدعة ضلالة، أم يجارون الزمن وتطوراته وينظرون إلى المسألة على أنّها من الأعراف المرسلة عن قيـود الاتباع وعدمه، ولا عـلاقة لها بشيء من الأحكام التعبـدية الّتي قضى بها الإسلام؟ وأيـاً كان الموقف المتَّخَذُ، فما هو الميـزان أو البرهان المعتمد في ذلك؟[٢]

جرى المسلمـون على هذا المنوال عبر قرون متطـاولة ولم يخطر ببـال أحد أنّ

١. السلفية مرحلة زمنية للدكتور البوطي:٣٧ـ٣٨.

٢. السلفية مرحلة زمنية :٤٦.

هـذه الأُمور ــ من أبسط التحـوّلات إلى أعمقهـا ـ أنّها مـن محدثات الأُمـور وأنّها بدعة، وهذه قرينـة منفصلة على تفسير حديث الرسول ﷺ بأنّ المراد من قولهﷺ «شر الأُمور محدثاتها»[1] هو الأُمور المحدثة في متن الشريعـة بالزيادة أو النقيصة ويشهد على ذلك أيضاً صدر الحديث وذيله.

ففي صـدره: «انّ أصـدق الحديث كتــاب الله»، وفي ذيلـه:«وكلّ بـدعـة ضلالة».

فالصدر والذيل شاهدان على أنّ الرسول ﷺ بصدد المحافظة على الشريعة والدعـوة الإسلامية حتّى لا يتـلاعب فيها المبدع بأهوائه، فيـزيد فيها شيئـاً باسم الشريعة أو ينقصه أيضاً كذلك.

وأمّـا الأُمور الّتي لم يحرّمهـا الشـارع في أصل الشريعة، لا في كتـابها ولا في سننها، ولكن وصل إليهـا المسلمون من جراء عوامل شتى، فـلا صلة لهذه الأُمور المحدثة بالحديث الشريف المذكور.

روى مسلم في صحيحـه أنّ رسـول اللهﷺ إذا خطب احمرّت عينـاه وعـلا صـوته، واشتـد غضبه كأنّـه منذرُ جيش ثمّ يقـول: «أمّا بعـد، فإنّ خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد...».

ومن الواضح أنّ سبب غضبه ليس إلاّ تدخّل المبتدع في شريعته، لا مطلق التدخل في شؤون الحياة وأن لم تمسّ دينه خصوصاً إذا كان فيه مصلحة الإنسان.

كيف يمكن للصـادع بالحق أن يـوقف عجلـة الحياة عن السير إلى الإمـام حتّى يعيش المسلمون عيشة بـدائية، مع أنّه يأمر بالتسلّح بما استطـاعوا من قوة، وهو يـلازم التجاوز عن الحيـاة البدائيـة، و إعداد أفتك الأسلحـة وأعقدهـا أمام

---

١. مسند أحمد:٣/ ٣١٠، دار الفكر.

الأعداء؟ يقول سبحانه: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِباطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾.[١]

إلى هنا تمّ الكلام في بيان المقوّم الأوّل للبدعة، ويأتي الكلام في المقوّم الثاني.

المقوّم الثاني: أن لا يكون لها رصيد في الشريعة

وهذا هو العنصر الثاني لمفهوم البدعة، وهو عدم وجود رصيد لها في الشريعة بمعنى فقدان الدليل من الكتاب والسنّة على جوازها، لأنّه عند ذاك لا تصبح أمراً جديداً طارئاً على الدين، ولا تعدّ زيادة عليه ولا نقيصة.

فإنّ البدعة في الشرع: ما حدث بعد الرسول ﷺ ولم يرد فيه نص على الخصوص ولم يكن داخلاً في بعض العمومات، وإن شئت قلت: إحداث شيء في الشريعة لم يرد فيه نص، سواء أكان أصله مبتدعاً كصوم عيد الفطر، أم خصوصيّته مبتدعة كالإمساك إلى غسق الليل ناوياً به الصوم المفروض، معتقداً بأنّه الواجب في الشرع.

وقال ابن حجر العسقلاني: المراد بالبدعة ما أُحدث وليس له أصل في الشرع، وما كان له أصل يدلّ عليه الشرع فليس ببدعة.[٢]

قال ابن رجب الحنبلي: البدعة ما أُحدث ممّا لا أصل له في الشريعة يدلّ عليه، أمّا ما كان له أصل في الشرع يدلّ عليه فليس ببدعة شرعاً، وإن كان بدعة لغةً.[٣]

وانطلاقاً من ذلك، فإنّ ما واجهه المسلمون في خضم التيارات الحضارية

١. الأنفال: ٦٠.

٢. فتح الباري: ٥/ ١٥٦، ولاحظ ج ١٧/ ٩.

٣. جامع العلل والحكم: ١٦٠، ط الهند.

الّتي فرضها عليهم الاحتكاك الثقافي وغيره ولم يجدوا فيه منعاً من الشرع ولا تحريماً، تقبلوه بصدر رحب وقلب راض ونفس مطمئنة، وما ذلك إلاّ لأنّ الأصل في الأشياء الإباحة، والمحتاج إلى البيان هو الحرمة، يقول سبحانه: ﴿إِنَّما حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ﴾.[1]

ويقول سبحانه: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾.[2]

ويقول سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾.[3]

إلى غير ذلك من الآيات الدالّة على أنّ مهمة الرسول ﷺ هي بيان المحظورات والمحرمات، وأنّ الناس في سعة من أمرهم ما لم يحرّم الشارع منها شيئاً.

نعم لا ينحصر وجود الدليل الشرعي على الحلّية بأصل البراءة والإباحة، بل ربّما تكون هناك عمومات وإطلاقات اجتهادية تدلّ على أنّ حكم الموضوع، هو الحلّية بعموماتها وإطلاقاتها وإن لم يكن هناك دليل بالخصوص. وقد عرفت أنّ قوله سبحانه: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ كاف في تجويز التسلّح بالأسلحة الحديثة. لكون الجميع من مصاديق إعداد القوة، وهذا العنصر الثاني الّذي نبهنا عليه هو مفتاح حل كثير من المشاكل الّتي علقت بأذهان المسلمين في بلدانهم وخارجها وبها يتصورها بعض القشريين أنّها بدعة.

وعلى ضوء هذا فالخطّة العسكرية المتبعة في عصرنا الحالي لا تعدّ بدعة إذا

---

١. البقرة:١٧٢.

٢. الأنعام:١١٩.

٣. الأعراف:٣٣.

كـان فيهـا مصلحـة للشعب، وتحصيناً للبلـد، فإنّها مـن مصاديق قـولـه تعـالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ .

ولإيضـاح الحال نأتي هنا بأمثلـة ليتبين أنّ وجـود الدليل العـام أو المطلق، كاف في خروج الشيء عن كونه بدعة.

١ . السفر لمشاهدة الآثار الإسلامية

جرت السيرة في أيام الحجّ عبر قرون على السفر لمشاهـدة معالم وآثار معركة بدر وأُحد والحديبية والأحزاب وغيرها من أيام الله الّتي نصر بها رسولهﷺوعبادَه الصالحين وهزم الشرك والمشركين.

ولكن الهيئة العلميـة المتمثلة بالآمريـن بالمعروف والناهين عن المنكـر تعدّ ذلك بـدعة، لعـدم ورود الدليل على جـواز السفـر إلى هذه المشـاهد في الكتـاب والسنّة.

ولكن نظرتهم مبنية على لزوم وجود الدليل بالخصوص على العمل، وهو أمر غير تام لكفاية وجود الدليل العام وإن لم يكن ثمة دليل في المورد الخاص، ومثال ذلك أنّه تبـارك وتعالى يأمـرنا بأن نسير في الأرض لننظـر آثار المشركين فنعتبر بها، كعـاد وثمود الموجـودة في ديـار صالح قـرب المدينـة المنـورة والّتي لا تزال مـزاراً للسائحين، يقول سبحانه: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبينَ﴾.[١]

وقال تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَـةُ الَّذِينَ كَانُوا

---

١ . آل عمران:١٣٧ .

مِنْ قَبْلِهِمْ كانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثاراً في الأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كانَ لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ وَاقٍ* ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ العِقَاب﴾.[1]

فإذا كان السير في الأرض لمشاهدة آثار المشركين والاعتبار بها، أمراً محبوباً ومطلوباً أمر به الكتاب العزيز، كان السير إلى الأماكن الّتي فيها معالم النبوة وآثار الصالحين جائزاً بطريق أولى، وما ذلك إلاّ لتقف الأجيال المتعاقبة على الجهود الّتي بذلها المسلمون الأوائل في رفع راية التوحيد وقمع راية الشرك أوّلاً، وتكون على بصيرة من دينها ثانياً، وتتخذ أعمالهم وأفعالهم أُسوة في الحياة ثالثاً.

فالمنع عن السفر والسير إلى تلك المعالم لا يصدر إلاّ عن إنسان لا يعي الآثار الإيجابية المترتبة على ذلك.

أضف إلى ذلك: انّ السفر إلى تلك المساجد والمشاهد لرؤيتها والتعرّف عليها ليس سفراً عباديّاً، حتّى يحتاج إلى الدليل، وإنّما هو على غرار سائر الأسفار، لغايات محلّلة، وإذا لم يكن محرّماً بالذات أو بالغاية فيحكم عليه بالرخصة.

٢. الاحتفال بالمولد النبوي

جرت سيرة المسلمين منذ قرون على الاحتفال بالمولد النبوي، ويرشدك إلى هذا ما ذكره الدياربكري (المتوفّى ٩٦٦هـ) مؤلّف «تاريخ الخميس» إذ يقول: لا يزال أهل الإسلام يحتفلون بشهر مولده، ويعملون الولائم، ويتصدّقون في لياليه بأنواع الصدقات، ويظهرون السرور، ويزيدون المبرّات، ويعتنون بقراءة مولده

---

١. غافر: ٢١ـ ٢٢.

الشريف، ويظهر عليهم من كراماته كلّ فضل عظيم.[١]

وقال القسطلاني (٨٥١ـ ٩٢٣هـ): «لا زال أهل الإسلام يحتفلون بشهر مولده، ويعملون الولائم، ويتصدّقون في لياليه بأنواع الصدقات، ويظهرون السرور، ويزيدون في المبرّات، ويعنون بقراءة مولده الكريم، ويظهر عليهم من بركاته كلّ فضل عظيم... فرحم الله امرءاً اتّخذ ليالي شهر مولده المبارك أعياداً، ليكون أشدّ علّة على من في قلبه مرض وأعياه داء.[٢]

إلى غير ذلك من الكلمات الّتي تتحدث عن هذه السيرة الحسنة، ومع ذلك نرى ابن تيمية (ومن تبعه) يُنكر ذلك، ويقول: وكذلك ما يحدثه بعض الناس، إمّا مضاهاةً للنصارى في ميلاد عيسى عليه السلام، وإمّا محبة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم والله قد يثيبهم على هذه المحبة والاجتهاد، لا على البدع من اتّخاذ مولد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عيداً، مع اختلاف الناس في مولده، فإنّ هذا لم يفعله السلف، مع عدم قيام المقتضي له، وعدم المانع منه، ولو كان هذا خيراً محضاً أو راجحاً لكان السلف أحقّ به منّا، فإنّهم كانوا أشدّ محبةً لرسول الله وتعظيماً له منّا.[٣]

وقد تبع ابن تيمية لفيف من تلامذة منهجه، حتّى أنّ الفقي رئيس جماعة (أنصار السنّة المحمّدية) يقول في حواشيه على كتاب «الفتح المجيد»: الذكريات الّتي ملأت البلاد باسم الأولياء هي نوع من العبادة لهم وتعظيمهم.[٤]

وقد نسج على هذا المنوال المتأخّرون من أتباع مدرسة ابن تيمية الذين يشار إليهم بالبنان كالفوزان وغيره.

---

١. تاريخ الخميس:١/ ٣٢٣.

٢. المواهب اللدنية:١/ ١٤٨.

٣. اقتضاء الصراط المستقيم: ٢٩٤.

٤. الفتح المجيد: ١٥٤.

ولكن وقفة قصيرة في المقام تثبت أنّ ما زعموه من العلل أُمور واهية ستنهار قواعدها أمام الدليل القاطع، وذلك لأنّ ابن تيمية اعتمد على أمرين:

الأوّل: انّ الاحتفال مضاهاة للنصارى في الاحتفال بميلاد عيسى عليه السلام.

الثاني: أنّه من البدع، لأنّه لم يفعله السلف، ولو كان هذا خيراً محضاً لكانوا أحقّ به منّا.

لكن الوجهين غير صحيحين:

أمّا الأوّل: فلأنّه ادّعاء بلا دليل، والتوافق في العمل لا يعدّ دليلاً على المضاهاة للنصارى وأنّهم تبعوا النصارى في هذا العمل، وربّما يكشف التوافق عن أنّ الاحتفال نزعة إنسانيّة تنبعث من عوامل الحبّ والعاطفة ـ كما سيوافيك ـ من غير فرق بين المسلم والمسيحي.

ثمّ إنّ القائمين بالاحتفال لا يدور في خلدهم انّ عملهم مضاهاة وانّهم يقصدون بذلك التشبه بهم.

وإن كنت في ريب من هذا فاسأل القائمين به في أقطار العالم، دانيه وقاصيه، وستجد أنّ السبب الداعي للاحتفال هو حبّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم وتعظيمه وتكريمه.

وأمّا الثاني: فلأنّ عدّه من البدع غفلة عمّا ورد في الكتاب والسنّة الّذي يصحّ أن يكون رصيداً لهذا الاحتفال كما نلاحظه في الموارد التالية:

١. ما دلّ على وجوب تكريم النبي وتبجيله، يقول سبحانه: ﴿**فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾.[1]

والمراد من التعزير هو التعظيم والتوقير، وليس المراد منه هو النصرة

---

١. الأعراف:١٥٧.

المحضة، لأنّها مذكورة بعد التعزير حيث قال تعالى: ﴿عَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ﴾، ولذلك فسّره علماء التفسير بقولهم: أي عظّموه ووقّروه،[١] وفسّره أبو حيان الأندلسي بقوله: أثنوا عليه ومدحوه.[٢]

وقال ابن كثير: ونصروه أي عظموه ووقروه.[٣]

إلى غير ذلك من الكلمات الّتي تفسر الآية بتعظيم النبي وتوقيره وتكريمه.

وتخصيص مفاد الآية بحياة النبيﷺ بخس لحقّه وتنكّر لعظمته وشأنه، وتفسير لها بالرأي، فلو صحّ ذلك الزعم فليكن الأمر بالإيمان به واتّباع النور المذكور في الآية مختصاً أيضاً بحال حياته فقط.

وعلى ضوء ذلك فالاحتفال بمولد النبيﷺ في شهر ربيع الأوّل تجسيد لهذه الآية، أي أنّه تكريم وتبجيل للنبيﷺ.

٢. ما ورد حول ترفيع شأن النبيﷺ قال سبحانه: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾[٤]. فالآية تدلّ بصراحة على أنّه سبحانه رفع ذكر النبي بأساليب مختلفة، وتدلّ بالدلالة الالتزامية على أنّ رفع ذكره أمر مطلوب ومحبوب، فلو عدّ الاحتفال بذكرى ميلاده لدى الناس ترفيعاً، فيكون تجسيداً لمفادها.

فالاحتفال بنفسه تجسيد لهذه الآية، وهذا ما دعا المسلمين القدامى والجدد إلى الاحتفال بالمولد النبوي الشريف.

٣. كيف لا يصحّ للمسلمين أن يتّخذوا ولادة النبي أو يومه ﷺ عيداً وقد غمرتهم المائدة الإلهية والرحمة العالمية بميلاده وظهوره؟ إنّ المسيح عليه السلام

---

١. مجمع البيان:٤/ ٦٠٤.

٢. البحر المحيط:٥/ ١٩٦.

٣. تفسير ابن كثير:٣/ ٢٣٤.

٤. الانشراح:٤.

عندما دعا ربّه أن ينزل مائدة عليه، وعلى حواريّيه، بقوله: ﴿رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنا مائِدَةً مِنَ السَّماءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لأوّلنا وَآخِرِنا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾[1]، اتّخذ يوم نزول النعمة المادية الّتي تشبع البطون عيداً، والرسول الأكرم ﷺ هو أعظم نعمة منَّ الله بها على المسلمين، فكيف لا نتخذ يوم ولادته عيداً ويوم فرح وسرور؟

نعم لم يرد النص على الاحتفال في هذا اليوم أو هذا الشهر بالخصوصية الكذائية، فالاحتفال بهذا العنوان بدعة بلا شك، لأنّ الخصوصية ليست منصوصة، وإنّما المنصوص هو التكريم والتبجيل، وله أسباب وطرق ومظاهر، والاحتفال هو أحد هذه الطرق والوسائل. والمسلمون لا يحتفلون بنية ورود الأمر به في ذلك اليوم الخاص وإنّما يختارون يوم ميلاده لمناسبات عرفيّة نظير احتفال الإنسان بيوم ولادته.

وأخيراً: ما ذكره من أنّ السلف لم يحتفل بذلك مع قيام المقتضي له وعدم المانع منه، كلام خال عن التحقيق، وذلك للأُمور التالية:

أوّلاً: أنّ المسلمين قد احتفلوا بذكراه في أواسط القرن الرابع في القاهرة، وذلك في خلافة المعز لدين الله عام ٣٦١هـ، ثمّ درج عليه حكام الأقطار الإسلامية الأُخرى عدة قرون، وبذلك تحقّق الإجماع على جوازه واستحبابه قبل أن يولد ابن تيمية(٦٦٢ـ ٧٢٨هـ). وانعقد قبله بقرون، وإجماع المسلمين على جواز شيء في عصره حجّة في أعصار متوالية؟!

ثانياً: أنّ الصحابة لم تحتفل بذلك، ففيه أنّ عملهم دليل على الجواز، وأمّا عدم احتفالهم فلا يعدّ دليلاً على التحريم، وكم من مشاريع علمية وصناعية قام

---

١. المائدة: ١١٤.

بها المسلمون في أعصار متأخرة لم يقم بها الصحابة والتابعون.

ثالثاً: إذا اشتملت هذه الاحتفالات على أُمور محرّمة فلا شكّ أنّه حرام، ولذا يجب تنزيه الاحتفال عن كلّ أمر محرم، ولكنّه لا يكون دليلاً على حرمة الاحتفال إذا كان نزيهاً.

كلمتان قيّمتان في المقام

وفي هذا المقام كلمتان قيمتان إحداهما للعلاّمة الأميني والأُخرى للأُستاذ سعيد حوّىٰ.

قال العلاّمة الأميني : «لعلّ تجديد الذكرى بالمواليد والوفيات، والجري على مراسم النهضات الدينية، أو الشعبية العامّة، والحوادث العالمية الاجتماعية، وما يقع من الطوارق المهمة في الطوائف والأحياء، بعدّ سنيها، واتخاذ رأس كلّ سنة بتلكم المناسبات أعياداً وأفراحاً، أو مآتماً وأحزاناً، وإقامة الحفل السارّ، أو التأبين، من الشعائر المطّردة، والعادات الجارية منذ القدم، ودعمتها الطبيعة البشرية، وأسّستها الفكرة الصالحة لدى الأُمم الغابرة، عند كلّ أُمّة ونحلة، قبل الجاهلية وبعدها، وهلمّ جرّاً حتى اليوم.

هذه مراسم اليهود، والنصارى، والعرب، في أمسها ويومها، وفي الإسلام وقبله، سجّلها التاريخ في صفحاته.

وكأنّ هذه السُّنّة نزعة إنسانية، تنبعث من عوامل الحب والعاطفة، وتسقىٰ من منابع الحياة، وتتفرع على أُصول التبجيل والتجليل، والتقدير والإعجاب ، لرجال الدين والدنيا، وأفذاذ الملأ، وعُظماء الأُمّة إحياءً لذكراهم، وتخليداً لاسمهم، وفيها فوائد تاريخية اجتماعية، ودروس أخلاقية ضافية راقية، لمستقبل

الأجيــال، وعظـات وعبر، ودستــور عملي نـاجع للنــاشئـة الجديــدة، وتجارب واختبارات تولد حنكة الشعب، ولا تختصّ بجيل دون جيل، ولا بفئة دون أُخرى.

و إنّما الأيّام تقتبس نـوراً وازدهاراً، و تتوسّم بالكرامـة والعظمة، و تكتسب سعـداً ونحساً، وتتخـذ صبغة ممّـا وقع فيهـا من الحوادث الهامّة، وقـوارع الدهـر ونوازله....(١)

وقال الأُستاذ سعيـد حوّىٰ: والّذي نقولـه: أن يعتمد شهر المولد كمنـاسبة يُذكّر بها المسلمون بسيرة رسول الله ﷺ وشمائله، فذلك لا حـرج فيه، وأن يعتمد شهر المولد كشهر تهيج فيه عواطف المحبة نحو رسول الله ﷺ فذلك لا حرج فيه، وأن يُعتمد شهر المولد كشهر يكثر فيه الحديث عن شريعة رسول الله ﷺ فذلك لا حرج فيه، وانّ ممّا أُلّف في بعـض الجهات أن يكون الاجتماع على محاضرة وشعر، أو إنشادٍ في مسجـد، أو في بيت بمناسبة شهر المولـد، فذلك ممّا لا أرى حرجـاً فيه، على شرط أن يكون المعنى الّذي يُقال صحيحاً.

إنّ أصل الاجتماع على صفحـةٍ من السيرة، أو على قصيـدة في مدح رسـول الله ﷺ جائز، ونرجـو أن يكون أهله مأجورين، فإن يُخصـص للسيرة شهر يُتحدث عنها فيه بلغة الشعر والحب فلا حرج.

ألا ترى لـو أنّ مدرسة فيها طـلاّب خصصت لكل نوعٍ من أنواع الثقـافة شهراً بعينه، فهل هي آثمة؟ ما نظن أن الأمر يخرج عن ذلك.

ويضيف إلى ذلك القول:

لقد كـان الأُستاذ حسن البنا رجل صـدق، وثاقب نظر، وإمـاماً في العلم، وكـان يرى إحيـاء المناسبـات الإسـلامية في عصر مضطـرب مظلم قد غفل فيـه

---

١. سيرتنا وسنتنا:٣٨ـ ٣٩، الطبعة الثانية.

المسلمون، وجهلوا فيه كثيراً من أُمور دينهم، ومن كلامه رحمه الله في مذكّراته: إحياء جميع الليالي الواجب الاحتفال بها بينَ المسلمين، سواء بتلاوة الذكر الحكيم، وبالخطب، والمحاضرات المناسبة....

إلى أن قال:

والمتشدّدون في مثل هذه الشؤون تشدّدهم في غير محلّه، فليس الأصل في الأشياء الحرمة، بل الأصل فيها الإباحة، حتّى يرد النصّ بالتحريم، وفهمهم لحديث:«كلّ ما ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ» فهم خاطئ....[1]

٣. حفظ الآثار الإسلامية

إنّ لصيانة الآثار الإسلامية من عصر الرسول ﷺ إلى يومنا هذا سببين:

١. الحب: فإنّ حبّ النبي ﷺ وحبّ شريعته وما تمتّ إليه بصلة، يدفع الإنسان إلى العناية بكلّ ما يتّصل بها، حتّى الألبسة الّتي صلّوا فيها والآنية الّتي شربوا بها، كلّ ذلك انعكاس طبيعي لهذا الحب الكامن في النفوس والود المكنون في الطبيعة البشرية.

وليس هذا أمراً مختصّاً بالمسلمين، بل الأُمم المتحضّرة المعتزّة بماضيها وتاريخها تسعى إلى صيانة كلّ أثر تاريخي باق من الماضي.

٢. انّ لهدم الآثار والمعالم التاريخية الإسلامية لا سيّما في مهد الإسلام مكّة ومهجر النبي ﷺ المدينة المنورة، نتائج سيئة ومضاعفات خطيرة على الأجيال اللاحقة، الّتي سوف لا تجد أثراً لوقائع التاريخ الإسلامي، والأمر الّذي قد يدفعها

---

١. كي لانمضي بعيداً عن احتياجات العصر:٣٦ـ ٣٩، الفصل ٦؛ السيرة بلغة الحبّ والشعر، كما في البدعة للدكتور الباقري: ٢٦١ـ ٢٦٢.

إلى الاعتقاد بأنّ الإسلام قضية مفتعلة وفكرة مبتدعة ليس لها جذور في التاريخ.

ولنعتبر بما مرّ على الديانة المسيحية، فقد تحولت في الغرب إلى أُسطورة تاريخية، وذلك لأنّ قسماً من المحقّقين يشكّكون مبدئياً في وجود رجل اسمه المسيح وأُمّه مريم وكتابه الإنجيل، لماذا؟ لأنّهم لا يجدون أي أثر ملموس لصاحب الشريعة: المسيح، ولا لأُمّه، ولا لتلامذته وأصحابه، وأصبح (الإنجيل) كتاب ترجمة لحياته وليس كلاماً موحىً به إليه لبيان المعارف والشريعة.

إنّ رسالة الإسلام رسالة خالدة ودائمة إلى يوم القيامة، والله سبحانه يعلم مدى عمر الرسالة الّذي يمتدّ إلى يوم البعث والنشور.

فرسالة هذا شأنها تفرض على كلّ جيل أن يحافظ على كلّ ما يمتّ إليها بلا تحوير ولا تخريب ليكون الطريق وضّاءً للأجيال القادمة، ولكي لا تنقطع صلتهم بالماضي.

ولذا اهتم المسلمون منذ أربعة عشر قرناً بصيانة الآثار الإسلامية، كمرقد النبيّ ﷺ ومراقد آله وأصحابه، والمساجد الّتي صلوا فيها، والمصاحف الّتي خطّوها بأيديهم، والآبار الّتي شربوا منها، والألبسة والأواني الباقية بعدهم، وكلّ ما يرتبط بهم.

ولكن ـ يا للأسف ـ استولى على هذه المعالم والآثار رجال لا يعرفون البدعة ولا حدودها الصحيحة، فتصوّروا أنّ وجود هذه الآثار من البدع الّتي ينبغي مكافحتها، فراحوا يهدمون قبور الصحابة وأُمّهات المؤمنين وآل البيت حتّى تركوها قاعاً صفصفاً، لا يعلم ولا يعرف قبر هذا من هذا.

وفي ظل هذه الرؤى الضيّقة هدم البيت الّذي تأرّج بأنفاس السيدة خديجة الكبرى أُمّ المؤمنين وحبيبة رسول الله ﷺ وسطع بمولد الزهراء عليها السلام فيه، البيت الّذي

كان مهبط الوحي الأوّل على الرسول ﷺ من ربّ العزة والجلال.

وقد كان هذا البيت وراء المروة وقد تبدّل الآن إلى ما ترى، فأين الخوف من الله تعالى؟!

وقد كانت البقعة الشريفة الّتي ولد فيها النبي ﷺ باقيةً إلى أعصارنا، فهدّمت وجُعلت سوقاً للبهائم، إلى أن وفق الله رجلاً من الصالحين فحوّلها بطريقة ذكية إلى مكتبة، وهي مكتبة مكة المكرمة الرائجة، قريباً من فندق الرواسي.

إنّ صيانة الآثار أمر نابع من حب النبي وهو السبب للإبقاء عليها وصيانتها وترميمها.

والعجب أنّ المعاول تهدم آثار نبي التوحيد والداعي إليه وتقضي عليها باسم التوحيد!!

ماذا يريدون من التوحيد؟ هل يريدون التوحيد في العبادة؟ فالمسلمون جميعاً يعبدون الله وحده لا غيره. وهل صيانة آثار النبي ـ حبّاً له ـ عبادة للآثار؟ لا أدري ولا المنجم يدري!!

المقوّم الثالث: الإشاعة والدعوة

اقتصر المحقّقون في تفسير البدعة على العنصرين السابقين:

١. التدخّل في الدين بالزيادة والنقيصة.

٢. عدم وجود رصيد لها في الدين.

ولم يذكروا العنصر الثالث، وهو دعوة الناس إلى البدعة و إشاعتها بين الناس.

إنّ قيام شخص بإضافة شيء إلى الدين أو حذف شيء منه دون أن يكون له

دعوة إليهما يعدّ عملاً محرماً، ولا يوصف بـالبدعة إلاّ بعد دعوة الناس إلى العقيدة والفكرة الخاطئة الّتي يحملها.

وهذا هو الظاهر من بعض الروايات.

روى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أُجور من تبعه، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام مَنْ يتبعه لا ينقص من آثامهم شيئاً».[1]

ويدلّ على ذلك أيضاً قول القائل يوم القيامة مخاطباً النبي ﷺ عند الحوض: «أنّهم قد بدّلوا بعدك»[2] فإنّ تبديل الدين ليس عمـلاً قائماً بالشخص، بل عمل قائم به وبمن حوله.

وقد كان الإمام السيد الخميني ﭬ يركّـز على هذا القيد، ويرى أنّ البـدعة وراء العنصرين السابقين تمتلك هذا العنصر أيضاً، ولـولاه لما صدق عليها عنوان البدعة و إن كانت تعدّ أمراً محرّماً.

---

١. صحيح مسلم:٨/ ٦٢، كتاب العلم.

٢. صحيح مسلم:١/ ١٥٠، كتاب الطهارة.

٧

سنّة الخلفاء الراشدين

هل كانت ثمّة سنّة، وراء سنّة النبي؟

يظهر من بعض الروايات وكلمات بعض أهل السنّة أنّ هناك سنّة وراء سنّة النبي ﷺ وهي حجّة كسنّته.

واستدلّوا على ذلك بما رواه العرباض بن سارية قال: صلّى بنا رسول الله ﷺ صلاة الفجر، ثمّ وعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقال قائل: يا رسول الله كأنها موعظة مودّع فأوصنا، فقال: أُوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن كان عبداً حبشياً، فإنّه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنّتي و سنّة الخلفاء الراشدين المهديين عضّوا عليها بالنواجذ.[1]

وهذه الرواية تدلّ على أنّ للخلفاء سنّة كسنّة النبي ﷺ، وسنّتهم حجّة كسنّة رسول الله ﷺ.

---

١. سنن الترمذي:٥/ ٣٤٠، كتاب العلم، الباب السادس عشر، الحديث٢٦٧٦؛ سنن أبي داود:٤/ ٢٠٠، باب لزوم السنة، الحديث٤٦٠٧، إلى غير ذلك من المصادر.

روى السيوطي: قال حاجب بن خليفة شهدت عمر بن عبد العزيز يخطب وهو خليفـة، فقال في خطبتـه: ألا وإنّ ما سـنّ رسول الله ﷺ وصاحباه فهو دين نأخذ به وننتهي إليه وما سنّ سواهما فإنّا نرجئه.[١]

ويظهـر من الـذهبي: قبولـه للحـديث إذ قـال: السنّة مـا سنّـه النبي ﷺ والخلفاء الراشدون من بعده.[٢]

يقول مؤلّف كتاب «السنة قبل التدوين»: تطلق السنة أحياناً على ما عمل أصحاب رسول الله ﷺ وإن لم يكن في القرآن و في المأثـور عنه ﷺ، وقد كان يفرق بعض المحـدثين فيرى الحديثَ هـو مـا ينقل عن النبي ﷺ والسنّة ما كـان عليه العمل المأثور في الصدر الأوّل.[٣]

نرى هنـاك اختلافـاً بارزاً بين حـديث العربـاض وما ذكـره عمر بـن عبد العزيز، فالأوّل يوسّع الموضوع ويضفي الحجيـة على عامّة الخلفاء الراشدين، لكن الخليفة الأمـوي يخصّ الحجّية بـالشيخين ويُرجئ سنن الصهـرين، كما أنّ مؤلّف التدوين يفرط ويطلقها على عمل أصحاب رسول الله ﷺ من دون استثناء.

ولكن الجميع سراب لا ماء.

والأصل في ذلك هـو روايـة العـرباض بـن ساريـة، وهي مخدوشـة سنـداً ومضموناً.

أمّا الأوّل: فـإنّ أسانيد الحديـث تصل إليه وكلّهـا أسانيد غير نقيـة. يعلم بالرجوع إلى الأسانيد الّتي روى الحديث بها.

---

١. تاريخ الخلفاء: ١٦٠؛ كنز العمال: ١/ ٣٣٢.

٢. سير أعلام النبلاء: ٧/ ١١٦.

٣. السنة قبل التدوين: ٨.

ولو افترضنا صحّة الأسانيد فإنّ الجميع ينتهي إلى شخص واحد فلا يتجاوز الحديث عن كونه خبراً واحداً، والخبر الواحد لا يحتج به في الأُصول، وإن كان يحتج به في الأحكام، وذلك لأنّ إضفاء الحجّية على سنن الخلفاء الراشدين مسألة أُصولية ، ولا يقبل فيها إلاّ الدليل القطعي.

نعم دلّت الأدلّة القطعية على حجّية خبر الواحد في الأحكام الفرعية العملية، وأمّا العقائد أو المسائل الأُصولية فلا يحتج فيها بخبر الواحد. وأسانيد الحديث مهما كثرت فهي تصل إلى شخص واحد.

هذا ما يرجع إلى السند.

نظرة إلى مضمون الرواية:

وأمّا المضمون فهو مردود من وجوه:

١. إنّ العمل بمضمونه مستحيل، لاختلاف سيرة الخلفاء، وكيف يمكن أن يتعبّدنا الشارع بالمتناقضات من سيرتهم.

فهذا هو أبو بكر قد ساوى في توزيع الأموال الخراجية، وخالفه عمر حيث فرّق فيها، وكان أبو بكر يرى طلاق الثلاث واحداً، ورآه عمر ثلاثاً.

وأمّا الاختلاف بين سيرة الشيخين وعثمان فواضح جدّاً حتّى أنّ اختلافه معهما قد أودىٰ بحياته، حيث أثار حفيظة المسلمين على خلافته فقتل في عقر داره.

كما أنّ اختلاف سيرة علي عليه السلام مع عثمان، بل مع الجميع واضح لمن استقرأ التاريخ، فكيف يمكن للنبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يتعبّدنا بالعمل بالمتناقضات؟

وممّا يؤكّد ذلك أنّ عبد الرحمن بن عوف لمّا بايع علياً بشرط العمل بالكتاب

والسنّة وسيرة الشيخين، رفض علي عليه السلام بيعته، وقال: «أعمل بكتاب الله وسنّة نبيّه».

٢. إنّ من مراتب التوحيد، التوحيد في التشريع والتقنين، فهما حقّ لله تبارك وتعالى لا يشاركه فه أحد، والنبي صلى الله عليه وآله وسلم بحكم أنّه معصوم يحكي بقوله وفعله وتقريره، تشريعه سبحانه تبارك وتعالى وليس لأحد أن يشرع حكماً لقوله سبحانه: **﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاّ للهِ أَمَرَ أَلاّ تَعْبُدُوا إِلاّ إِيَّاهُ﴾**.(١)

والمراد من الحكم، هو الحكم التشريعي لا التكويني؛ بقرينة قوله: **﴿أَمَرَ أَلاّ تَعْبُدُوا إِلاّ إِيّاهُ﴾**.

فما أشبه قول من أثبت حقّ التشريع لغيره سبحانه تبارك وتعالى، بما عليه أهل الكتاب، كما حكاه سبحانه بقوله: **﴿ اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَرُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللهِ﴾**.(٢)

روى السيوطي في «الدر المنثور» عن عدّة من المحدّثين منهم البيهقي في سننه عن عدي بن حاتم قال: أتيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو يقرأ في سورة براءة **﴿اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَرُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللهِ﴾** فقال: أما إنّهم لم يكونوا يعبدونهم ولكن كانوا إذا أحلّوا لهم شيئاً استحلّوه، و إذا حرّموا عليهم شيئاً حرّموه.(٣)

وثمة كلمة قيّمة للشوكاني (وقد وقف على خطورة الموقف وأنّ إثبات السنّة لغير النبي قول بنبوتهم) جاء فيها: والحقّ انّه ـ رأي الصحابي ـ ليس بحجة، فإنّ الله لم يبعث إلى هذه الأُمّة إلاّ نبيّنا محمّداً صلى الله عليه وآله وسلم وليس لنا إلاّ رسول واحد وكتاب واحد، وجميع الأُمّة مأمورة باتّباع كتابه وسنّة نبيه، ولا فرق بين الصحابة ومن

---

١. يوسف: ٤٠.

٢. التوبة: ٣١.

٣. الدر المنثور: ٣/ ٣٣٠.

بعدهم في ذلـك، فكلّهم مكلّفون بالتكـاليف الشرعية وبـاتّباع الكتـاب والسنّة، فمن قـال: إنّها تقـوم الحجّـة في ديـن الله عـز وجلّ بغير كتـاب الله تعـالى وسنّـة رسولهﷺ وما يرجع إليها، فقد قال في دين الله بما لا يثبت.[١]

٣. كيف تكون سنّة الخلفاء سنّة شرعية إلهية يجب العمل بها مع أنّ الخلفاء لم يكونوا يرون لأنفسهم هذا المقام، وهذا هو عمر بن الخطاب كان يقول: إنّي لعلّي أنهاكم عن أشياء تصلح لكم، وآمركم بأشياء لا تصلح لكم.[٢]

ومن الكلمات الـرائجة المنقولـة عن أبي بكر: أقـول فيها بـرأيي فإن أصبت فمن الله، و إن أخطأت فمنّي أو من الشيطان.[٣]

فالـرأي الّذي يتردّد بين كـونه من الله أو من الشيطـان هل يمكن أن يكون سنّة شرعية يجب على الأجيال اتّباعها والعمل بها؟! لا والله.

٤. اتّفق أهل السنّـة عن بكرة أبيهم أنّ منصب الخلافـة منصب انتخابي، وأنّ المهاجـرين والأنصار أو أهل الحل والعقد أو غيرهم يختارون خليفـة الإسلام وقائد المسلمين وان ليـس هناك أيّ تنصيص من الـرسولﷺ على خليفته، ولكنّ الحديث يشير إلى أنّ للرسول خلفـاءً راشدين، وأنّ النبيّ ﷺ تنبّأ بهم، خاصّة إذا فسرنا قوله بالخلفاء الأربعة، لغاية إخراج سائر الخلفاء: الأُمويّين والعباسيّين.

فالتصريح من الرسول ﷺ باقتفاء سنّـة الخلفاء الراشديـن ، هو نوع تعيين للخليفة بعده وتنبأ عنـه لهم بالرشد، وهو على النقيض ممّـا أطبق عليه أهل السنّة من عدم وجود نصّ من النبيﷺ في أمر الخلافة لا تصريحاً ولا إيماءً و إشارة، و إنّما خوّل الأمر إلى الأُمّة.

---

١. إرشاد الفحول: ٢١٤. ٢. تاريخ بغداد: ١٤/ ٨١.
٣. سنن الدارمي: ٢/ ٣٦٦، باب الكلالة؛ سنن البيهقي: ٦/ ٢٢٣.

٨

البدعة في تحديد البدعة

قد تعرفت على أنّ البدعة هو التدخّل في أمر العقيدة والشريعة بزيادة شيء عليهما أو نقيصته منهما. والمرجع في التعرف عليهما على الوجه الصحيح هو المصادر القطعية التالية:

١. كتاب الله المنزل الذي هو تبيان لكلّ شيء، كما قال سبحانه: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشرىٰ لِلْمُسْلِمينَ﴾.[١]

٢. السنّة الشريفة التي رواها الثقات عن النبي الأكرم ﷺ في الأحكام الفرعية، والسنّة المتواترة في مجال العقائد والمعارف.

٣. ما أجمع عليه المسلمون في عامّة الأعصار.

٤. العقل الحصيف الذي به عرفنا الله سبحانه وصفاته وأفعاله.

وهناك من يرى أنّ ثمّة مرجعاً آخر تُحدّد به البدعة، وهو القرون الثلاثة الأُولى، فما حدث فيها فهو سنّة وما حدث بعدها فهو بدعة، فتكون تلك القرون ملاكاً لتمييز البدعة عن السنّة.

---

١. النحل: ٨٩.

وعلى هذا درج محمد بن عبد الوهاب وقال: إنّ البدعة ـ هي ما حدثت بعد القرون الثلاثة ـ مذمومة مطلقاً خلافاً لمن قال: حسنة وقبيحة، ولمن قسّمها خمسة أقسام إلّا ان أمكن الجمع بأن يقال: الحسنة ما عليها السلف الصالح شاملة للواجبة والمندوبة والمباحة وتكون تسميتها بدعة مجازاً، والقبيحة ما عدا ذلك شاملة للمحرمة والمكروهة فلا بأس بهذا الجمع.[١]

وقد ورث هذه الفكرة كثير ممّن يؤمن بمنهج ابن عبد الوهاب، ومنهم عبد الله بن سليمان بن بليهد الّذي قام باستفتاء علماء المدينة بشأن تخريب قباب الصحابة وأئمّة أهل البيت في بقيع الغرقد عام ١٣٤٤ هـ و جاء في مقاله: لم نسمع في خير القرون أنّ هذه البدعة ــ البناء على القبور ـ حدثت فيها بل بعد القرون الخمسة.[٢]

ولعلّ الأُستاذ والتلميذ وكلّ من اقتفى منهج الأُستاذ، استندوا في هذه الضابطة إلى ما رواه البخاري قال: سمعت عمران بن الحصين يقول: قال رسول الله ﷺ: خير أُمّتي قرني ثمّ الذين يلونهم ثمّ الذين يلونهم ـ قال عمران: فلا أدري أذَكَر بعد قرنه قرنين أو ثلاثة ـ ثمّ إنّ بعدكم قوماً يشهدون ولا يستشهدون، يخونون ولا يُؤتمنون، ويَنذرون ولا يفوُن، ويظهر فيهم السمن.

وروى أيضاً عن عبد الله بن عمر أنّ النبي قال: خير الناس قرني، ثمّ الذين يلُونهم، ثمّ يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته.[٣]

---

١. الهدية السنية، الرسالة الثانية:٥١.

٢. كشف الارتياب، للسيد الأمين العاملي:١/ ٣٥٧ـ٣٥٨.

٣. فتح الباري في شرح صحيح البخاري لابن حجر:٧/ ٦، باب فضائل أصحاب النبي، شرح صحيح مسلم للنووي:٨/ ٨٤ ـ ٨٥.

نظرة في مضمون الحديث

نحن لا نناقش سند الحديث، لأنّه مروي في صحيح البخاري ومسلم وهما فوق أن يناقشا على زعم القوم، إنّما الكلام في مضمونه حيث إنّه على فرض الصحّة لا يثبت ما رامه القائل من نزاهة القرون الثلاثة الأُولى عن وجود البدعة والتحريف. وذلك لأنّ القرن في اللغة بمعنى النسل.[1] وفي هذا المعنى استعمله الذكر الحكيم فقال سبحانه: ﴿**فَأَهْلَكْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ**﴾.[2]

فإذا كان القرن بمعنى النسل، فلنرجع إلى تفسير الحديث، المروي عن رسول الله ﷺ: خير أُمّتي قرني.

ثمّ الذين يلونهم.

ثمّ الذين يلونهم.

على ضوء تفسير القرن بالنسل يكون المراد من قوله «قرني» هو النسل الحاضر والمعاصر للرسول ﷺ والمنقرض برحيله، أو بعده بشيء.

ويكون المراد من قوله: ﴿**ثمّ الّذين يلونهم**﴾ هو النسل الثاني بعد رحيل الرسول ﷺ، كما يكون المراد من قوله ﷺ: ﴿**ثمّ الذين يلونهم**﴾ هو النسل الثالث بعد مضي سبعين سنة ـ مثلاً ـ من النسل الثاني.

فإذا افترضنا انّ كلّ نسل عاش سبعين سنة، فإنّ الاستدلال بالرواية لا يصحّ إذن لتنزيه من عاش بعد الرسول ﷺ بأكثر من (١٤٠) سنة.

فأين ذلك من صيانة من عاش خلال الثلاثمائة سنة الّتي أعقبت رحلة الرسول ﷺ؟!

---

١. لاحظ كتاب العين للخليل؛ لسان العرب لابن منظور، مادة «قرن».

٢. الأنعام:٦.

أقوال شرّاح الحديث

هذا، وقد اختلف شرّاح الحديث في تفسير الرواية على أقوال، لم يسعف أيّ واحد منها ما يتبنّاه الكاتب من رأي في هذا الموضوع.

قال بعضهم: إنّ المراد من القرن في قوله «قرني» هو أصحابه، ومن «الذين يلونهم» أبناؤهم، ومن الثالث أبناء أبنائهم.

وقال آخر: إنّه قرنه ما بقيت عين رأتهﷺ ومن الثاني ما بقيت عين رأت من رآه، ثمّ كذلك.

وذهب ثالث إلى: أنّ قرنه: الصحابة، والقرن الثاني: التابعون، والثالث: تابعو التابعين.

كلّ ذلك تخمينات وانطباعات شخصية ليس عليها دليل، وعلى تقدير صحتها لا ينطبق شيء منها على ما يتبنّاه الكاتب الّذي يريد إضفاء الصيانة والعصمة على أبناء ثلاثة قرون أي ٣٠٠ سنة.

ولأجل عدم انطباقه على ثلاثمائة سنة، قال ابن حجر العسقلاني في الفتح: وفي هذا الوقت (٢٢٠هـ) ظهرت البدع فاشيةً، وأطلقت المعتزلة ألسنتها، ورفعت الفلاسفة رؤوسها، وامتحن أهل العلم ليقولوا بخلق القرآن، وتغيّرت الأحوال تغيّراً شديداً، ولم يزل الأمر في نقص إلى الآن.[1]

ولا عتب على ابن حجر، لأنّه محدِّث وليس له باع في تاريخ العقائد أو في حقل الملل والنحل، فالبدع التي ادّعاها قد ظهرت في نفس القرن الأوّل وليس في القرون المتأخّرة عنه.

فقد ظهرت فكرة الإرجاء بمعنى تقديم الإيمان وتأخير العمل في أواخر

---

١. فتح الباري في شرح صحيح البخاري:٧/ ٤.

القرن الأوّل، كما ظهر الاعتزال في أوائل القرن الثاني وقبل وفاة الحسن البصري(١١١هـ) بقليل.[١]

خير القرون: ما ساد فيها الصلح والصفاء

ماذا يريد القائل من قوله: «خير القرون قرني...»؟ فإنّ خير القرون ما ساد فيه الصلح بين أفراد المجتمع، فهل كان الأمر كذلك؟ كلاّ، ولا، بشهادة أنّ المجتمع الإسلامي كان مسرحاً لحروب طاحنة.

ففي أي يوم ساد الصلح؟

أيوم معركة الجمل (عام ٣٦هـ) الّتي قُتل فيها الآلاف من الطرفين بين صحابي وتابعي، وما أسفر عن ذلك من ترميل النساء وإيتام الأطفال وحدوث الأزمة والشدّة؟

أم يوم صفّين (عام ٣٧هـ) الّذي نازع فيه معاوية الإمام عليّاً عليه السلام الذي بايعه المهاجرون والأنصار، بيعة لم ير لها نظير في التاريخ، وما تبع ذلك من صِدَام مسلّح بين الطائفتين أُريقت فيه دماء عشرات الأُلوف إلى أن انتهى بالتحكيم؟

أم يوم ظهور الخوارج(عام٣٨هـ) على الساحة الإسلامية يُغيرون ويقتلون الأبرياء، إلى أن انتهت فتنتهم بقتل مشايخهم في النهروان؟

وإن يُنسَ شيء فلا يُنسى ذلك اليوم الّذي أُغير فيه على آل رسول الله بكربلاء عام (٦١هـ) وقتل فيه أبناء المصطفى وفيهم سبطه وريحانته سيد شباب أهل الجنّة، وسُبيت بنات الزهراء ومن معهنّ من نساء أهل البيت حتّى لم يبقَ بيت

---

١. لاحظ بحوث في الملل والنحل:ج٢، فصول الإرجاء والاعتزال والمناهج الرجعيّة.

له برسول الله صلة إلاّ وقد ضجَّت فيه النوائح وعمّته الآلام والأحزان.

و إن شئت فاستمع للتاريخ يحدّثك عن وقعة الحرّة(سنة٦٢هـ) الّتي أُبيحت فيها مدينة رسول الله، وقتل فيها أصحاب النبيﷺ والتابعون، ونهبت الأموال، وبقرت بطون الحوامل، وهتكت الأعراض، حتى ولدت الأبكار لا يعرف من أولدهنّ.(١)

واقرأ ما حدث في (سنة ٦٤هـ) حيث حاصر جيش بني أُمية مكّة المكرمة والبيت العتيق ورموه بالحجارة، لأجل القضاء على عبد الله بن الزبير.

وما جرى في (سنة ٦٥هـ) فقد تسلّم فيها عبد الملك بن مروان منصّة الخلافة وعيّن الحجاج بن يوسف عاملاً على العراق، فأقدم هذا الطاغية على سفك الدماء الطاهرة وزجّ الأبرياء من الرجال والنساء في السجون من دون أن تظلّهم مظلّة تقيهم حرّ الشمس وبرد الليل القارس.

هذه الحوادث الدموية الّتي ذكرناها لك (وأعرضنا عن غيرها للاختصار) قد وقعت في القرن الأوّل، فكيف يعتبر ذلك القرن خير القرون وأفضلها و إن كان صاحب القرن هو الرسول الأعظم أفضل الخلق؟! وأين سيرته، من سيرة أُمّته التي وقفتَ على صورة مجملة من سيرتها الدموية.(٢)

خير القرون لأجل تمسّك أهلها بالدين

ولعلّ بين المحدّثين من يفسّر الخيرية، بكون أهلها متمسّكين بأهداب

---

١. راجع منهج في الانتماء المذهبي لصائب عبد الحميد: ٢٧٧.

٢. للوقوف على هذه الحوادث المرّة، لاحظ: تاريخ الطبري، و تاريخ اليعقوبي، ومروج الذهب للمسعودي، وتاريخ الكامل للجزري، والإمامة والسياسة لابن قتيبة وغيرها من المصادر.

الشريعة، لا يختلفون عنها قيد شعرة، بخلاف القرون التالية، فقد شاع فيها الارتداد، والفساد.

وهذا النوع من التفسير، لا يصدقه التاريخ الصحيح، وإن كنت في ريب فأقرأ ـ في صفحات التاريخ ـ ما حدث بعد رحيل النبي في نفس عام الرحلة، فإنّ كثيراً ممّن رأى النبيّ الأكرم وأدركه وسمع حديثه أصبح يمتنع عن أداء الزكاة، بل أصبح البعض مرتدّاً عن دين الإسلام لولا أنّ الخليفة الأوّل قام بقمعهم وردّ عاديتهم.

لا ندري هل نصدق هذا الحديث أم نؤمن بما حدّث به القرآن الكريم، حيث يعرّف قوماً بأنهم أفضل وأعرف بمبادئ الإسلام ممّن كان في حضرة النبيّ من الصحابة الكرام، يقول سبحانه: **﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَومٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلى الْمُؤْمِنينَ أَعِزَّةٍ عَلى الْكافِرينَ يُجاهِدُونَ فِي سَبيلِ اللهِ وَلا يَخافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَاللهُ واسِعٌ عَلِيمٌ﴾**[١] قل لي من هؤلاء الذين يعتزّ الله بهم سبحانه ويفضّلهم على أصحاب النبيّ؟ فلاحظ التفاسير.[٢]

لا ندري هل نؤمن بهذا الحديث الذي رواه الشيخان، أم نؤمن بما روياه هما أيضاً في باب آخر، قالا: قال رسول الله: «يرد عليَّ يوم القيامة رهط من أصحابي فيُحلّئون عن الحوض فأقول: يا ربّ أصحابي، فيقول: إنّه لا علم لك بما أحدثوا بعدك إنّهم ارتدّوا على أدبارهم القهقرى».[٣]

---

١. المائدة: ٥٤.

٢. الرازي: مفاتيح الغيب: ٣/ ٤٢٧؛ تفسير النيسابوري بهامش تفسير الطبري: ٦/ ١٦٥.

٣. جامع الأُصول: ١١/ ١٢٠ برقم ٧٩٧٣.

٩

الترامي بالابتداع

إنّ القرآن الكريم يأمر المسلمين بالاعتصام بحبل الله المتين ويقول: ﴿وَٱعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُوا وَٱذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْداءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْواناً﴾.[١]

وقد استخدم الذكر الحكيم لفظ «الحبل» في الآية الآنفة الذكر ولم يستعمل لفظ الدين أو ما يرادفه، وذلك لأنّ في استخدام «الحبل» نكتة بديعة وهي أنّ الأُمّة المتفرقة المختلفة، كالساقط في البئر لا يتمّ إنقاذه إلاّ بإرسال الحبل إليه ليتمسّك به ويخرج من البئر سالماً.

فالأُمّة الإسلامية إذا ما انضوت تحت لواء الوحدة في الفكر والعقيدة والعمل أُتيحت لها القوة وغمرتها السعادة، وأمّا إذا تفرقّت وتنافرت، فإنّها ستصبح كحال المتردّي في البئر، المشرف على الهلاك.

ارتحل النبي الأكرم ﷺ وترك شريعة ناصعة وطريقاً مهيعاً لا يضلُّ فيه سالكه. بيد أنّ الأحداث الّتي جرت بعده شتّتت وحدة المسلمين وجعلتهم

---

١. آل عمران: ١٠٣.

طوائف وفئات يكيل بعضها لبعض تُهم الابتداع والتكفير والتفسيق.

وهذا داء عضال ينخر في جسم الأُمّة الإسلامية إلى يومنا هذا ولا يعالج إلاّ بسعي رؤساء الطوائف الإسلامية لتوحيد الكلمة والأخذ بالمشتركات والإغماض عمّا يفرّق ويشتت، وهذا هو واجب المسلمين ووظيفتهم أمام التيّارات الإلحادية القادمة من الغرب، لأجل نشر التحلّل الديني.

ولا أظن أنّ من له مسيس معرفة بالأوضاع العالمية أن يتصوّر غير ذلك، ويسلك مسلكاً مغايراً.

ولهذه الغاية قام نخبة من فطاحل علماء الفريقين بتأسيس دار باسم «**دار التقريب بين المذاهب الإسلامية**» لأجل تقريب الخطىٰ وتوطيد الأُخوة الإسلامية، وفي طليعة من ساهم في تعزيز الإخاء وترسيخ الوفاق: الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء، والسيد عبد الحسين شرف الدين العاملي، والشيخ محمد جواد مغنية(من علماء الشيعة)، والشيخ عبد المجيد سليم شيخ الأزهر، والشيخ محمود شلتوت شيخ الأزهر، والشيخ محمد المدني(من علماء السنّة)، وغيرهم من الأفاضل الأفذاذ الذين كانت تنبض قلوبهم بتوحيد الكلمة ولمّ الشعث.

ولكن الّذي يثير العجب أن تظهر ـ في غضون تاريخ الأُمّة ـ طائفة توزّع تهمة الابتداع على عامة الفرق الإسلامية دون أن تحاسب كلّ فرقة بخصوصها.

فهذا هو ابن تيمية (٦٦٢ـ ٧٢٨هـ) يتكلّم في مسألة كلام الله سبحانه فيقول: ومن تدبّر هذا الباب وجد أهل البدع والضلال لا يستطيلون على فريق منتسبين إلى السنّة والهدى، إلاّ بما دخلوا فيه من نوع بدعة أُخرى، وضلال آخر، لا سيما إذا وافقوهم على ذلك، فيحتجون عليهم بما وافقوهم عليه من ذلك، ويطلبون لوازمه حتّى يُخرجوهم من الدين إن استطاعوا خروج الشعرة من

العجين، كما فعلت القرامطة الباطنية، والفلاسفة، وأمثالهم بفريق فريق من طوائف المسلمين.

والمعتزلة استطالوا على الأشعرية ونحوهم من المثبتين للصفات والقدر، بما وافقوهم عليه من نفي الأفعال القائمة بالله تعالى، فنقضوا بذلك أصلهم الّذي استدلّوا به عليهم، من أنّ كلام الله غير مخلوق، وأنّ الكلام وغيره من الأُمور إذا خلق[١] بمحل عاد حكمه على ذلك المحل، واستطالوا عليهم بذلك في مسألة القدر واضطرّوهم إلى أن جعلوا نفس ما يفعله العبد من القبيح، فعلاً لله ربّ العالمين دون العبد[٢] إلى آخر كلامه.

ترى أنّه يهاجم في كلامه هذا وفي غيره، عامة الفرق ويصفهم بالبدع والضلال، مع أنّ أكثر الفرق الإسلامية لم يفترقوا في الأُصول التي أُنيط بها الإيمان والإسلام، كالتوحيد والرسالة الخاتمة ومعاد يوم القيامة، وما لله سبحانه من صفات الجمال والجلال.

والمسائل الّتي شتّتت الأُمّة الإسلامية إلى طوائف، أكثرها يرجع إلى مسائل كلامية وأُمور نظرية لا تمسّ العقيدة الإسلامية الّتي فرضت على الأُمّة جمعاء.

فالاختلاف في الفلكيات والجواهر والأعراض، والمسائل النظرية المعقّدة لا يعدّ اختلافاً في الدين، ولا خروجاً عن الإيمان والإسلام. وأكثر المسائل الّتي شتّتت المسلمين، هي مسائل فكرية كلامية لا تمتّ بصلب الإيمان والعقيدة.

١. كذا في المطبوع ولعلّ الصحيح «حلّ».
٢. مجموعة الرسائل الكبرى لابن تيمية: ٣٦٥.

هل القول بالقدر بدعة؟

كلّما أطلق القدر ـ عند أهل الحديث ومؤرّخي العقائد ـ يراد به نفي القدر، وكلّما قيل: القدريـة، يراد به نفـاة القدر[1] وبالتـالي القائلون بكون الإنسـان حراً مختـاراً في فعلـه مسـؤولاً عن عملـه، والاختيـار بهذا المعنى هـو أسـاس الشرائع السماوية. فلولا أنّ الإنسان حـرّ في عمله لبطلت التكاليف وأُلغيت جهود علماء التربية.

ومع ذلك فقـد بلغ الجمود في فهم الإسـلام إلى حـدّ عُدّ فيـه القدريـة بهذا المعنى من الفرق المبتدعة، والقول بالقدر بالمعنى السابق بدعة، وهذا هو عمر بن عبد العـزيز يـرى أنّ الجبر نفس الإسـلام وأنّ القول بـالقدر ينـافي إحاطـة علمه سبحانه بأفعال العباد، وله رسالة في ذلك الصدد ذكرها أبو داود.

قال: كتـب رجل إلى عمر بن عبـد العزيز يسـأله عن القدر؟ فكتـب: أمّا بعـد؛ أوصيك بتقوى الله، والاقتصـاد في أمـر اتّبـاع سنّة نبيـه، وتـرك ما أحـدث المحدثون بعد ما جرت فيه سنته، وكُفُوا مؤونته. فعليك بلزوم السنّة فإنّها لك بإذن الله عصمة... إلى أن قال:

ما أعلم ما أحدث الناس من محدثة ولا مـا ابتدعوا من بدعة هي أبيَنُ أثراً ولا أثبت أمراً من الإقـرار بالقدر، لقد كـان ذكره في الجاهلية الجهلاء يتكلّمـون به في كلامهم وفي شعرهم، يُعَـزُّون به أنفسهم على ما فاتهم، ثمّ لم يـزده الإسلام بعدُ إلاّ شدّة، ولقد ذكـره رسول الله ﷺ في غير حـديث ولا حديثين، وقـد سمعه منـه

---

١. انّ استعمال القدرية بمعنى نفاة القدر، استعمال لا توافقه اللغـة ولا قواعدها، إذ اللازم هو أن يراد به القائلـون بالقضاء والقدر، لا نفاتها، ومـا اللفظة هذه إلاّ كالعـدلية، فهي تستعمل في القائلين بالعدل لا نفاته.

المسلمـون فتكلمـوا به في حيـاتـه وبعـد وفـاتـه، يقيناً وتسليماً لـربهم، وتضعيفـاً لأنفسهم، أن يكــون شيء لم يحط بـه علمـه، ولم يحصــه كتـابـه، ولم يمـض فيـه قدره....[1]

إنّ تحذير الخليفة الأُموي من القول بالقدر ورميـه القائل به بالابتداع، نابع عن أُمور:

أ. أنّه وليـد البيت الأُموي وإن كان يختلف مـع أبناء هذا البيت في النـزعة والسلوك، إلاّ أنّه يتأثر بآراء هذا البيت، فقـد كان الأُمويون على القول بالجبر ومن مروّجي ذلك المنهج الّذي يثبّت دعائم عروشهم.

ب. تصوّر أنّ القـول بالقدر يتنافى مع القـول بإحاطة علمه تعـالى بأفعال العباد، ولذلك كان يرمي القائل بالقدر بالابتداع.

ج. القول بالاختيار، ينـافي القول بالقضاء والقدر، فتقديـره سبحانه جار في الكون عامّة وفي حياة الإنسان خاصة، ومعه كيف لا يصحّ القول بالاختيار.

وهذه الأُمـور جرته إلى نفي القول بـالقدر بمعنى الاختيار، لأنّـه ينافي سبق علمه سبحانـه تبارك وتعالى بأفعال العباد. وبما أنّ علمـه تعالى لا يختلف فيكون الإنسان مجبوراً في سلوكه وحياته.

ولكن عزب عن المسكين أنّـه سبحانه كما أنّـه عالم بصـدور فعل من عبده عالم أيضـاً بكيفية صدوره والمبادئ الّتي تـؤثر في صدوره منـه، ومن تلك المبادئ حرية الإنسان واختياره، وعلى ضوء ذلك يعلم سبحانه في الأزل أنّ فلاناً يقوم بهذا الفعل في ظروف خاصة مختاراً.

---

١. سنن أبي داود: ٤/ ٢٠٣، الرقم ٤٦١٢. ونقله أبو نعيم في حلية الأولياء: ٥/ ٣٤٦.

هل الدفاع عن العقيدة بدعة؟

إنّ احتكاك المسلمين العرب بأُمم وشعوب البلدان المفتوحة، صار سبباً لانتقال كثير من الشبه والأفكار غير الصحيحة إلى أوساط المسلمين، ممّا دعا لفيفاً من كبار علماء الإسلام إلى الذبّ عن العقيدة والشريعة والدفاع عنهما دفاعاً علمياً معتمداً على المنطق والبرهان.

ولما لم يَرُق ذلك لبعض المحدِّثين وحُكّام العصر عادوا يرمون المتكلّمين بالابتداع، والذابّين عن حياض الشريعة بالخروج عن الكتاب والسنّة.

فالعجب كلّ العجب لهذا التهجّم الغريب! وهل دعا الكتاب والسنّة إلّا إلى التمسّك بالدليل والبرهان؟ ألم يقل سبحانه: ﴿**قُلْ هَاتُوا بُرهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقين**﴾؟[1]

لقد أقام بعض أهل الحديث القيامة على رؤوس المتكلّمين الذين كرّسوا جهودهم للدفاع عن الدين، ولأجل ذلك كتب الإمام الأشعري رسالة مبسوطة حول علم الكلام أثبت فيها أنّه ليس ببدعة.[2]

إنّ تكفير الطوائف الإسلامية ورميهم بالابتداع عدول عمّا عليه أئمّة الفقه، كأبي حنيفة والشافعي، وهذا هو ابن حزم يذكر رأيهم في ذلك فيقول:

ذهب طائفة إلى أنّه لا يكفّر ولا يفسّق مسلم بقول قاله في اعتقاد أو فتيا، وأنّ كلَّ من اجتهد في شيء من ذلك فدان بما رأى أنّه الحقّ، فإنّه مأجور على كلّ حال، إن أصاب الحقّ فأجران، وإن أخطأ فأجر واحد.

---

١. البقرة:١١١.

٢. اقرأ الرسالة في الجزء الثاني من موسوعتنا في الملل والنحل، ص٤٩ـ٥٨.

إلى أن يقول: وهذا قول ابن أبي ليلى، وأبي حنيفة والشافعي وسفيان الثوري، وداود بن علي رضي الله عنهم أجمعين، وهو قول كلّ من عرفنا له قولاً في هذه المسألة من الصحابة رضي الله عنهم، لا نعلم منهم في ذلك خلافاً أصلاً.[١]

نعم نحن لا نوافق ابن حزم فيما ذكره بشكل مطلق، ذلك أنّ من خالف في شيء يعدّ من ضرورات الكتاب والسنّة يجب أن يُفسّق أو يكفر، ومثال ذلك أنّ الأُمّة أجمعت على حبّ عليّ وأهل بيته، ويكفك في ذلك ما روته طائفة من الصحابة أنّ رسول اللهﷺ قال: «يا علي لا يحبك إلاّ مؤمن، ولا يبغضك إلاّ منافق».

وقالﷺ:«من أحبّ علياً فقد أحبّني، ومن أبغض علياً فقد أبغضني، ومن آذى علياً فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله».[٢]

فإذا كان حبّ عليعليه السلام بهذه المنزلة وهذه الدرجة من الوضوح، فلا ريب في أنّ من يخالفه إنّما يخالف ما ثبت بالضرورة من الدين.

نعم نوافقه في أكثر ما أفاده من أنّ الخلاف في المسائل العلمية النظرية الّتي لم يثبت أنّ أحد الرأيين فيها من ضروريات الدين لا يوجب التكفير والتفسيق ما لم يهدم أحد الأُصول الثلاثة.

وقد ذهب ضحيّة هذا التطرف أبو سهل محمد بن هبة الله العالم الكبير المعروف بأبي سهل (٤٢٣ـ ٤٥٦هـ) وإليك ما قاله بهذا الشأن عند ترجمة السبكي له في طبقاته:

أنّه لما بلغ من سُموّ المقام أرسل إليه السلطان الخِلَع، وظهر له القبول عند

١. الفِصَل، لابن حزم:٣/ ٢٤٧.

٢. الاستيعاب:٣/ ٢٠٤. ط دار الكتاب العلمية بيروت، ط ١، عام ١٤١٥هـ.

الخاصّ و العام حتّى حسده الأكابر وخاصموه، فكان يخصمهم ويتسلّط عليهم. فبدا لـه خصوم استظهـروا بالسلطـان عليه وعلى أصحـابه. وصـارت الأشعريّـة مقصودين بـالإهانة والمنع عن الـوعظ والتدريس، وعُـزِلوا من خطابـة المجامع. ونبغ من الحنفيّة طائفة أشربـوا في قلوبهم الاعتزال والتشيّع، فخيّلوا إلى أُولي الأمر الإزراء بمذهب الشافعي عموماً، وبالأشعريّة خصوصاً.

وهذه هي الفتنـة الّتي طار شررهـا، وطال ضررها، وعظم خطبهـا، وقام في سبّ أهل السنّـة خطيبها، فإنّ هـذا الأمر أدّى إلى التصريح بلعن أهل السنّـة في الجُمَع، وتوظيف سبّهم على المنابـر، وصار لأبي الحسن الأشعري بها أُسوة بعليّ بن أبي طالب عليه السلام واستعلى أُولئك في المجامع.

فقام أبـو سهل في نصر السنّة قيامـاً مؤزّراً، وتـردّد إلى المعسكر في ذلك ولم يفد، وجـاء الأمر من قبـل السلطان (طغرل بك) بـالقبض على الرئيـس الفراتي، والأُستـاذ أبي القـاسم القشيري، و إمــام الحرمين، وأبي سهل ابن الموفّق، ونفيهم ومنعهم عن المحافل.

وكان أبـو سهل غائباً في بعض النـواحي، فلمّا قُرِئَ الكتـاب بنفيهم أغرىٰ بهم الغاغـة والأوباش، فـأخذوا بالأُستـاذ أبي القاسـم القشيري والفراتي يجرّونهما ويستخفّون بهما، وحبسا بالقَهَنْدَز[١] وبقيا في السجن متفرّقين أكثر من شهر، وأمّا إمـام الحرمين فإنّـه كـان أحسّ بـالأمر فـاختفىٰ وخـرج على طـريق كـرمـان إلى الحجاز...إلى آخر ما ذكره.[٢]

---

١. القهنـدر في الأصل اسم الحصن أو القلعـة في وسـط المدينـة، وهـو في مـواضع كثيرة، بسمـرقنـد وبخارى وبلخ ومرو ونيسابور. معجم البلدان:٤/ ٢١٠.

٢. طبقات الشافعية:٤/ ٢٠٩ـ ٢١٠، ط دار إحياء الكتب العربيّة.

كلمة قاسية في حقّ الإمام القفّال الشاشي

يُعدّ محمد بن علي بن إسماعيل المعروف بـالقفّال الشاشي(٢٦١ـ ٣٦٥هـ) من كبار شيوخ الشافعية بما وراء النهـر، وله مذاهب في علم الأُصول على وفق آراء المعتزلة، نظير:

١. يجب العمل بالقياس عقلاً.

٢. يجب العمل بخبر الواحد فعلاً.

ومع أنّ القول بـوجوب العمل بهما، لا يمتُّ إلى صميم الدين بصلـة، نرى أنّ السبكي ينقل عن أبي سهل الصُّعلـوكي انّـه سئل عن تفسير الإمـام أبي بكـر القفّال فقـال«قدسـه من وجه ودنّسـه من وجه أي دنّسـه من جهة نصرة مـذهب الاعتزال».[١]

ولعمر القارئ، انّه يضـاد أدب الإسلام وأدب القرآن الكريم في الحوار مع المخالفين، ثمّ أي مساس بصميم الإسلام حتّى يصبح سبباً لدنس الرجل الّذي أنفق عمـره في دراسـة فقـه الشافعـي وأُصولـه، وكـان في من غـزا الـروم في أهل خراسان مع سيف الدولة، ولـه قصيدة غراء ردّ فيها على قصيدة وردت من نِقْفور (دُمُستق الـروم) فيهـا ضروب من الاتهامـات والتهـديـد والـوعيـد للمسلمين مستهلها:

من الملك الطهر المسيحي رسالةٌ ... إلى قـائم بالملك مـن آل هاشم

فأجاب الشيخ القفّال الشاشي قائلاً:

اتـانـي مقـال لأمـري غيـر عـالم ... بطرق مجاري القول عند التخاصم[٢]

---

١. طبقات الشافعية الكبرى: ٣/ ٢٠١.

٢. طبقات الشافعية:٣/ ٢٠٩.

وثيقة اعتقادية لحفظ النفس!!!

كان العلماء العظام الأحرار على وجل من الغاغة والأوباش، حيث كانوا يتّهمون العلماء الكبار بالفسق والكفر، وكان بعضهم يتأبّط دائماً وثيقة أحد القضاة لإثبات صحة إيمانه.

وإن كنت في شكّ من ذلك فاقرأ ما ذكره ابن حجر في «الدرر الكامنة» قال:

إنّ العالم الجليل الّذي هو زينة عصره، وتاج دهره، كان لا يأمن على نفسه من الإفك عليه، هوالسعاية به، فيما يكفّره ويحلّ دمه، حتّى صار يخشى على نفسه مَنْ أخذت منه السنّ، وأقعده الهرم، وأفلجته الشيخوخة، ولا من راحم أو منصف، كما نقرأ ذلك في ترجمة علاء الدين العطّار تلميذ الإمام النووي، وأنّه مع زمانته، وكونه صار حلس بيته، يتأبّط دائماً وثيقة أحد القضاة بصحّة إيمانه وبراءته من كلّ ما يكفّره.[1]

ولقد أُريقت دماء محرّمة، وعذّبت أبرياء بالسجون والنفي والإهانات باسم الدين، وروّعت شيوخ وشبّان أعواماً وسنين، حتّى عجّ لسان حالها بالدعاء إلى فاطر الأرض والسماوات، بكشف هذه الغمم والظلمات.

التاريخ يعيد نفسه

لقد حفل التاريخ بدعوات التكفير والتضليل و إلصاق التهم الجاهزة ببعض الفرق أو الأعلام، وقد استفحل هذا في عصرنا وأصبح أشدّ ممّا كان عليه في منتصف قرون الألف الأوّل من الهجرة، فالمسلمون بعامّتهم مضلّلون، إلاّ من

١. الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة: ٣/ ٧٤.

تبع نهج ابن تيمية أو محمد بن عبد الوهاب، لا تكاد عبارة الحديث الشريف: «كلّ بدعة ضلالة» تفارق ألسنتهم وأقلامهم، مشيرين بذلك إلى أنّ أعمالهم على وفق السنّة ولا تخالفها في شيء.

إنّ الذكر الحكيم يذكر ما تركه آل موسى وآل هارون بالتقديس وأنّه كان بمنزلة من الكرامة بحيث إنّ الملائكة تحمله وتنزله إلى بني إسرائيل.

يقول سبحانه: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.[١]

وقد صرح المفسرون بأنّ ما تركاه لم يكن يتجاوز العصا والألبسة.

هذا ما عليه الذكر الحكيم في تكريم تركة الرجلين النبيين عليهما وعلى نبينا وعلى آله السلام.

وأمّا المتشدّدون في العصر الحاضر، وخصوصاً من تحكّم منهم بالمدينة المنورة ومكة المكرمة، فبدل أن يبذلوا الجهود لحفظ آثار الرسالة ومآثر الصحابة وبيوت الآل، راحوا يضَعون المعاول الهدامة فيها لتخريبها و إزالتها من الوجود، فيالله ولسوء الأدب وسوء الفهم وسوء المنقلب.

١٠

نفثة مصدور

ربّما يَحْسِبُ من تغرّه القشور: أنّه قد مضى عصر التعصب بزَبْدِه وغُثائه، ودارت على دولته الدوائر، وأنّه يحكم الآن في الساحة فقهاء أُمناء على النفوس والأعراض والأموال ذوو طويّات صالحة ونفسيّات طيبة.

لكنّه سرعانَ ما يرجع عن قضائه وحكمه إذا وقف على الفتاوى الصادرة عن اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء ـ في المملكة العربية السعودية ـ الّتي كان يرأسها عبد العزيز بن عبد الله بن باز وينوب عنه عبد الرزاق العفيفي وغيرهما من الأعضاء كعبد الله بن قعود وعبد الله بن غديان، وقد جمع فتاواهم أحمد بن عبد الرزاق الدرويش ونشرت في مجلدات تناهز العشرين.

وفي الجزء الثامن عشر منها جاء السؤال التالي:

ما حكم الزواج من الرافضة، وإن حصل وتمّ فما هو الحكم الآن؟

فكان الجواب: لا يجوز للسنّي أن يتزوّج من نساء الرافضة، وإذا وقع النكاح وجب فسخه، لأنّ المعروف عنهم دعوة أهل البيت والاستغاثة بهم وذلك من الشرك الأكبر.[١]

---

١. فتاوى اللجنة:١٨/ ٣١٣.

لقد ألحق المجيبون فرقة كبيرة من المسلمين بمن يعبد الأوثان، ولكنّهم في الوقت نفسه جوّزوا نكاح النصرانية واليهودية، وإن كنت في شك فاقرأ جوابهم التالي:

يجوز للمسلم أن يتزوج الكتابية نصرانية أو يهودية (إذا كانت محصنة) والأصل في ذلك قوله سبحانه: ﴿**وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسافِحِينَ وَلاَ مُتَّخِذِي أَخْدانٍ**﴾.[١]
والمحصنة هي الحرة العفيفة، وأمّا قوله: ﴿**وَلاَ تَنْكِحُوا الْمُشْرِكاتِ حَتّىٰ يُؤْمِنَّ**﴾ فالمراد بها المشركات الوثنيات دون الكتابيات، لأنّ آية سورة المائدة صريحة في حل الكتابيات.[٢]

أرأيت مثل هذه الجرأة على الله في إصدار هذه الفتوى الجائرة الّتي يكاد لعُظمها تتزلزل الأرض وتسيخ الجبال الراسيات؟! أرأيت كيف تبيح للمسلم نكاح اليهودية الّتي تقول عزير ابن الله، والنصرانية الّتي تقول المسيح ابن الله وأنّ الله ثالث ثلاثة وانّ المسيح هو الإله، ولا تبيح له نكاح المسلمة المؤمنة الّتي تشهد الشهادتين وتصلّي إلى القبلة وتصوم شهر رمضان وتحج البيت وتحب أهل البيت حباً صادقاً لا مرية فيه؟!

وأمّا ما اتّخذه المجيب ذريعة لحكمه فهو أوهن من بيت العنكبوت، فإنّ دعوة أئمّة أهل البيت عليهم السلام إنّما تجري على لسان الشيعي باعتبارهم عباداً صالحين لا آلهة يُعبدون من دون الله.

فهناك فرق بين دعاء إنسان بما أنّه عبد لله سبحانه، محبوب عنده، مستجابة

---

١. المائدة:٥.

٢. فتاوى اللجنة:١٨/ ٣١٨.

دعوته، وبين دعائه بما أنّه إله، خالق، رازق، أو بيده الشفاعة والمغفرة.

فدعاء الشيعي من الضرب الأوّل وليس من الثاني. ولو صار الأوّل ذريعة للتكفير يلزم تكفير الصحابة العدول. وإليك نماذج من توسّلاتهم ودعواتهم للنبي ﷺ.

١. توسّل الضرير ودعاءه النبي

أخرج الترمذي بسند صحيح عن عثمان بن حنيف أنّه قال: إنّ رجلاً ضريراً أتى النبي ﷺ فقال: ادع الله أن يعافيني؟

فقال ﷺ: إن شئت دعوت وإن شئت صبرت فهو خير لك؟

قال: فادعه، فأمره ﷺ أن يتوضأ فيُحسن وضوءه ويصلّي ركعتين ويدعو بهذا الدعاء: «اللّهمّ إنّي أسألك وأتوجّه إليك بنبيك محمّد نبي الرحمة، **يا محمّد إنّي أتوجّه بكَ إلى ربّي في حاجتي لتُقضى اللّهم شفّعه فيَّ**».

قال ابن حنيف: فوالله ما تفرّقنا وطال بنا الحديث حتّى دخل علينا كأن لم يكن به ضرٌّ.

قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.[١]

وقال ابن ماجة: هذا حديث صحيح.[٢]

وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.[٣]

ورواه في موضع آخر بسندين آخرين وقال بعدهما: هذا حديث صحيح

---

١. سنن الترمذي: ٥/ ٢٢٩، كتاب الدعوات، الباب ١١٩ برقم ٣٦٤٩.

٢. سنن ابن ماجة: ١/ ٤٤١ برقم ١٣٨٥؛ ومسند أحمد: ٤/ ١٣٨.

٣. مستدرك الحاكم: ١/ ٣١٣.

الاسناد ولم يخرجاه.[١]

وفي موضع ثالث قال: تابعه شبيب بن سعيد الحبطي عن روح بن الهاشم في المتن والاسناد ـ إلى أن قال : ـ هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجه.[٢]

ترى أنّ الرجل الضرير يدعو محمّداً ويقول: يا محمد إنّي أتوجّه بك إلى ربي.

نعم انّ الضرير يدعوه بما أنّه نبي التوحيد وقائد الموحّدين، ودعوته مستجابة، وأنّ له مقاماً ومنزلة عند الله.

وقد استمرت الدعوة بالنحو الموجود في الرواية حتّى بعد رحيل النبيﷺ. و إليك نزراً منها:

٢. توسّل ودعاء ثان

روى الطبراني عن أبي أُمامة بن سهل بن حنيف عن عمّه عثمان بن حنيف، أنّ رجلاً كان يختلف إلى عثمان بن عفان في حاجة له، فكان عثمان لا يلتفت إليه ولا ينظر في حاجته، فلقي ابن حنيف فشكا ذلك إليه، فقال له عثمان ابن حنيف: إئت الميضأة فتوضّأ ثمّ ائت المسجد فصلّ فيه ركعتين ثمّ قل: «اللّهمّ إنّي أسألك وأتوجّه إليك بنبيّنا محمّدﷺ نبيّ الرحمة، يا محمّد إنّي أتوجّه بك إلى ربّي فتقضي لي حاجتي» فتذكر حاجتك، ورُحْ حتّى أروحَ معك.

فانطلق الرجل فصنع ما قال له، ثمّ أتى باب عثمان بن عفان، فجاء البوّاب حتّى أخذ بيده فأدخله على عثمان بن عفان فأجلسه معه على الطنفسة، فقال:

---

١. المستدرك:١/ ٥١٩.

٢. المستدرك:١/ ٥٢٦.

حاجتك؟ فذكر حاجته وقضاها له، ثمّ قال له: ما ذكرت حاجتك حتّى كان الساعة. وقال: ما كانت لك من حاجة فاذكرها.

ثمّ إنّ الرجل خرج من عنده فلقي عثمان بن حنيف فقال له: جزاك الله خيراً ما كان ينظر في حاجتي ولا يلتفت إليَّ حتّى كلّمتَه فيّ، فقال عثمان بن حنيف: والله ما كلّمته، ولكنّي شهدتُ رسول اللهﷺ أتاه ضريرٌ فشكا إليه ذهاب بصره فقال له النبيّﷺ: فتصبر؟ فقال: يا رسول الله ليس لي قائدٌ فقد شقّ عليّ.

فقال النبيّﷺ: ائت الميضأة فتوضّأ ثمّ صلّ ركعتين، ثمّ ادع بهذه الدعوات.

قال ابن حنيف: فوالله ما تفرّقنا وطال بنا الحديث حتّى دخل علينا الرجل كأنّه لم يكن به ضرّ قط.[1]

٣. بلال بن الحارث ودعاء النبيّ

هذا هو رسول اللهﷺ علّمنا كيفية التوسّل وهذه سيرة أصحابهﷺ.

روى البيهقي وابن أبي شيبة بإسناد صحيح: أنّ الناس أصابهم قحط في خلافة عمر، فجاء بلال بن الحارث ـ و كان من أصحاب النبيﷺ ـ إلى قبر النبيﷺ وقال: يا رسول الله استسق لأُمّتك فإنّهم هلكوا، فأتاه رسول اللهﷺ في المنام وأخبره أنّهم يُسقون.

وليس الاستدلال برؤية النبيﷺ فإنّ رؤياه وإن كانت حقّاً إلّا أنّها لا تثبت بها الأحكام، لإمكان اشتباه الكلام على الرائي، لا لشكّ في الرؤيا. وإنّما

---

١. المعجم الكبير للحافظ سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الطبراني(المتوفّى ٣٦٠هـ): ٩/ ١٦ـ ١٧، باب ما أُسند إلى عثمان بن حنيف برقم ٨٣١٠؛ والمعجم الصغير له أيضاً: ١/ ١٨٣ـ ١٨٤.

الاستدلال بفعل الصحابي وهو بلال بن الحارث، فإتيانه لقبر النبيﷺ ونداؤه له وطلبه منه أن يستسقي لامّته دليل على أنّ ذلك جائز، وهو من باب دعائه والتوسّل والتشفّع والاستغاثة بهﷺ، وذلك من أعظم القربات، وقد توسّل به ﷺ أبوه آدم عليه السلام قبل وجود سيدنا محمّدﷺ.(١)

٤. دعاء النبيّ ﷺ بحضور الصحابة

روى ابن أبي شيبة باسناد صحيح من رواية أبي صالح السمّان عن مالك الداري ـ و كان خازن عمر ـ قال:

أصاب الناس قحط في زمن عمر، فجاء رجل إلى قبر النبيﷺ، فقال: يا رسول الله هلك الناس، استسق لأُمّتك، فأتاه رسول اللهﷺ في المنام، [فقال:] إئت عمر فاقرأه منّي السلام، وأخبره أنّهم مسقون [مستقيون]، وقل له: عليك الكيس! عليك الكيس!

قال: فأتى الرجل عمر فأخبره، فبكى عمر، وقال: يا رب ما آلو إلاّ ما عجزت عنه.(٢)

قال ابن حجر: رواه ابن أبي شيبة باسناد صحيح.(٣)

وقال ابن كثير: هذا اسناد صحيح.(٤)

وأضاف ابن حجر وقال: روى سيف بن عمر التميمي في «الفتوح الكبير»

---

١. دلائل النبوة:٧/ ٤٧، باب ما جاء في رؤية النبيﷺ في المنام، ونقله مفتي مكة زيني دحلان في الدرر السنية:٩.

٢. المصنف لابن أبي شيبة:٧/ ٤٨٢. ولاحظ طبقات ابن سعد:٥/ ١٢.

٣. فتح الباري:٢/ ٤١٢، باب سؤال الناس الإمام الاستسقاء إذا قُحطوا.

٤. البداية والنهاية في حوادث سنة ثماني عشرة.

أنّ الذي رأى المنام المذكور هو بلال بن الحارث المزني أحد الصحابة.[١]

قلت: سواء أكان السائل هو بلال بن الحارث أم غيره، فإنّ دعاء النبي من قبل الرجل لم يكن أمراً سريّاً، بل كان بمرأى ومسمع من مالك الداري.

ونصّ ابن حجر أنّ لمالك إدراكاً ــ لعصر النبيﷺ ـ فهو صحابي صغير روى عنه أربعة من الثقات. ولو كان نداء النبي شركاً موجباً للخروج عن الدين لما خفي على خازن الخليفة، كونه شركاً ولنهاه عنه.

إنّ من هوان الدنيا على الله أن تكون العقيدة الشخصية مقياساً لصحّة الرواية وبطلانها، فهذا هو عبد العزيز بن باز ــ عفا الله عنا وعنه ـ لمّا رأى أنّ الرواية تخالف ما ورثه من ابن تيمية وابن عبد الوهاب ـ ومن أتى بعدهما ـ حول التوسّل بالنبي ودعائه، أخذ يناقش في صحّة الرواية فقال في تعليقته على فتح الباري: هذا الأثر على فرض صحّته ـ كما قال الشارح (يريد ابن حجر) ـ ليس بحجّة على جواز الاستسقاء بالنبيﷺ بعد وفاته لماذا؟:

١. لأنّ السائل مجهول.

٢. ولأنّ عمل الصحابة رضي الله عنهم على خلافه، وهم أعلم الناس بالشرع.

٣. ولم يأت أحد منهم إلى قبره يسأله السقيا ولا غيرها، بل عدل عمر عنه لمّا وقع الجدب إلى الاستسقاء بالعباس، ولم ينكر ذلك عليه أحد من الصحابة، فعلم أنّ ذلك هو الحقّ وأنّ ما فعل هذا الرجل منكر ووسيلة للشرك.[٢]

ولَعمر الحق أنّ الرجل لو لم يكن متمسّكاً بالعقيدة الموروثة، لما ردّ الرواية بما ذكر من الأُمور الثلاثة الواهية.

---

١. فتح الباري: ٢/ ٤١٢.

٢. فتح الباري: ٢/ ٤٩٥ قسم التعليقة.

أمّا الأوّل: من أنّ الرجل مجهـول، فهذا لا يضرّ، لأنّ أساس الاستـدلال هو دعاء النبي بمرأى ومسمع من مالك الداري الصحابي الذي كان خازن عمر.

وأمّا الثاني: من أنّ عمل الصحابة كان على خلافه، وأنّه لم يأت إلى قبره أحد يسأل السقيا، فمـوهون جداً، لأنّ من قال بمـرجعية الصحابة، فإنّما قـال بحجّية أقـوالهم وأفعالهم على الجواز والإبـاحـة، لا بحجّيـة تروكهم على الحرمـة والشرك، فعدم قيـام الصحابـة بهذا الفعل لا يعدّ دليـلاً على التحريـم ولا على كونـه شركاً وخروجاً عن الدين.

وأمّا الثالث: من أنّ عمـر تـوسّل بالعبـاس عم النبي، لا بـه ﷺ فموهون أيضاً، لأنّ التوسّل بعم الرسولﷺ لا يكون دليلاً على بطلان التوسّل بالرسول.

على أنّ العـارف إذا أمعن النظر في قـول عمر: «إنّـا نتوسّل إليك بعمّ نبيّنـا فاسقنـا»، يقف على أنّ التوسل كان في الحقيقة بـالرسول، وأنّ التوسّل في الظـاهر بالعباس كان لأجل صلته بالرسولﷺ.

تلك ـ و الله شقشقـة هدرت ثمّ قرّت ـ فإذا كان هذا هو الفقـه والفتوى، وهؤلاء هم الفقهاء المعنيون بحفظ الدين وصيانة أعراض المسلمين، فعلى الإسلام السلام وعلى الدنيا العفا.

وكأنّي بشاعر المعـرّة شهد ما يشابـه هذه الظروف القاسية فجـادت قريحته بالأبيات التالية:

إذا وصف الطـائيّ بـالبخل مـادرٌ ... وعيّر قُسّـاً بـالفهـاهـة بـاقلٌ
وقـال السُّهى للشمـس أنت خفيـة ... وقال الـدجىٰ للصُبح لونـك حائل
وطـاولت الأرض السماءَ تـرفّعـاً ... وفاخرت الشهبَ، الحصى والجنادلُ
فيـامـوت زُر انّ الحيـاة ذميمـة ... ويـا نفس جـدّي إن دهـرك هـازلُ

أين فتاواهم وأقوالهم وأعمالهم ممّا نصح به أمير المؤمنين عليّ عليه السلام أصحابه الكرام وأمرهم بالدعاء التالي في حقّ الناكثين والقاسطين:

اللّهُمَّ احْقِنْ دِمَاءَنَا وَدِمَاءَهُمْ، وَأَصْلِحْ ذَاتَ بَيْنِنَا وَبَيْنَهُمْ، واهْدِهِمْ مِنْ ضَلالَتِهِمْ، حتّى يَعْرِفَ الحَقَّ مَنْ جَهِلَهُ، ويَرْعَوِيَ عَنِ الْغَيِّ وَالْعُدْوَانِ مَنْ لَهِجَ بِهِ. (١)

١. نهج البلاغة: الخطبة رقم ٢٠٦.

١١

يقظة بعد سبات

يعدّ الاتّهام بالشرك والبدعة من الأُمور التـي كان يتردّد صداها باستمرار في الحرمين الشريفين، فلم يكـد الـوافـد إلى حرم الـرسـولﷺ يقف أمـام الضريح الشريف، ويسلّم على النبي ويقـول: يا رسـول الله اشفع لنا عند الله، حتّـى تعلو بوجهه صرخة شديدة من أحد مَن يُسمّـون بالآمرين بالمعروف، متّهماً إياه بالشرك والبدعة!!

وإذا ما هوى زائر للثم البـاب أو الضريح حبّاً وشوقاً للنبي وتبرّكـاً بكلّ ما يتصل بـه، فيواجـه بعنفٍ من أحـد هـؤلاء الغلاظ، فيُصـدّ ويُضرب، وربّما يُهان ويُساق إلى مركز الشرطة للاستجواب والمحاكمة!!

وإذا حلّ مسافر في أحد الأماكن المقدّسة كجبل أُحد أو غيره، لأجل المزيد من البصيرة في الدين وتاريخه، فإنّ مكبّرات الصـوت تقرع سمعه بعبارات تصف هذا السفر بالشرك والبدعة!!

إلى غير ذلك من كلمات جوفاء تتّهم عامّة المسلمين ـ باستثناء فرقة واحدة ـ بالابتداع والانحراف عن الصراط المستقيم.

وكان من نتيجـة هذا النوع مـن التطرّف في إلصاق هـذه التهم، أن ظهر في الساحة شباب متعصّبون أوقفوا أنفسهم لمحاربة ما يتصوّرونه شركاً وبدعة.

وممّا يبعث على الأسى والأسف أنّ هـؤلاء لم يدرسوا الكتاب والسنّـة دراسة معمّقة، وإنّما اغترّوا واكتفوا بما أخذوه من أساتذتهم في الثانويات والجامعات وما يثيرهُ خطباء المساجد في الجمع وصلاة الجماعة.

ولمّا جنت المجتمعـات ثمار تلك الأفكـار المتطرّفـة قتـلاً وإرهـاباً وتخريبـاً ودماراً، شعر العديد من المفكّرين و القادة بـأنّ الطريق الّذي كانوا يسلكونه عبر سنين طريق غير سـويّ، لا يُفضي إلاّ إلى زعزعـة كيان المسلمين وتبديـد وحدتهم وجعلهم فريسة للآخرين.

ولأجل معالجة هذه الأوضاع المستغلة بـالحقد والكراهية والتعصب، والتي أصـابهم منها بعض شررهـا، راحـوا يعظون الشبـاب في خطبهم وكلماتهم داعين إيّـاهم إلى الـرجـوع إلى الطريق الـوسطىٰ قـائلين بأنّ اليمين والشمال مضلّـة وأنّ الطريق الوسطى هي الجادة.

ومن أمثلة ذلك، البيان الّذي أصدرته هيئة كبار العلماء في المملكة العربية السعودية وأعـدّه للنشر أحمد بن عبد العزيز بن محمد التـويجري تحت عنوان «فتنة التكفير وخطرها على مستقبل الأُمّة الإسلامية»، وإليك نصّ المقدمة ومقاطع من البيان:

١٢

فتنة التكفير

وخطرها على مستقبل الأُمّة الإسلامية

بسم الله الرّحمن الرّحيم

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على نبيّنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أمّا بعد:

فإنّ التكفير شرّه عظيم، وخطره جسيم، وعواقبه وخيمة، ونهايته مؤلمة، وفواجعه لا تنتهي.

أخي القارئ الكريم: لا يسارع في التكفير من كان عنده مُسْكَةٌ من ورع ودين، أو شذرة من علم ويقين، ذلك بأنّ التكفير وبيلُ العاقبة، بشع الثمرة، تتصدعُ له القلوب المؤمنة، وتفزع منه النفوس المطمئنة. يقول العلاّمة الشوكاني في (السيل الجرار: ٤/ ٥٨): وهاهنا تُسكب العبرات، ويُناح على الإسلام وأهله بما جناه التعصّب في الدين على غالب المسلمين من الترامي بالكفر، لا لسنّةٍ، ولا لقرآنٍ، ولا لبيان من الله، ولا لبرهان، بل لمّا غلتْ به مراجل العصبية في الدين،

وتمكّن الشيطان الرجيم من تفريق كلمة المسلمين لقّنهم، إلزامات بعضهم لبعض بما هو شبيه الهباء في الهواء، والسراب بقيعة، فيالله وللمسلمين من هذه الفاقرة الّتي هي أعظم فواقر الدين، والرزية الّتي ما رزئ بمثلها سبيل المؤمنين....

والأدلّة الدالة على وجوب صيانة عرض المسلم واحترامه يدلّ بفحوى الخطاب على تجنب القدح في دينه بأي قادح، فكيف إخراجه عن الملّة الإسلامية إلى الملّة الكفرية، فإنّ هذه جناية لا تعدلها جناية، وجرأة لا تماثلها جرأة، وأين هذا المجترئ على تكفير أخيه من قول رسول الله ﷺ: «المسلمُ أخو المسلم، لا يَظلمه ولا يسلمه» وقوله ﷺ: «سبابُ المسلم فُسُوق وقِتالُهُ كُفْر»، وقوله ﷺ: «إنّ دماءَكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام».

والأحاديث الخاصة بالترهيب العظيم من تكفير المسلمين كثيرة نذكر منها على سبيل المثال:

١. قوله ﷺ: «أيُّما امرئ قال لأخيه: يا كافر، فقد باءَ بها أحدهما، إن كان كما قال، وإلاّ رجعتْ عليه».

٢. وقوله ﷺ: «مَن دعا رَجُلاً بِالكُفْرِ، أو قال: عَدُوُ اللهِ، ولَيْسَ كَذلك إلا حارَ عَلَيه». رواهما مسلم في (صحيحه).

٣. وقال ﷺ: «لا يَرْمِي رَجُلٌ رَجُلاً بالفُسُوق، ولا يَرْميه بالكُفْر، إلاّ ارتدّت عليه، إن لم يَكُنْ صاحِبُهُ كذلِك».

٤. وقال ﷺ: «ومَنْ رَمىٰ مُؤْمِناً بِكُفْرٍ، فهو كقَتْله» رواهما البخاري في (صحيحه).

أخي القارئ الكريم: التكفير حكم شرعي، مردّه إلى الله تعالى ورسوله ﷺ

ومن ثبت إسلامه بيقين، لم يَـزُلْ عنه ذلك إلاّ بيقينٍ، ولا يجوز إيقاع حكم التكفير على أي مسلم، إلاّ ما دلّ الكتـاب والسنّة على كفره، دلالة واضحـة، صريحة بينة، فلا يكفي في ذلك مجرد الشبهة والظن.

وقـد يَـرِدُ في الكتـاب والسنّة مـا يُفهم منـه أنّ هـذا القـول، أو العمل، أو الاعتقاد: كفـر، ولا يُكَفَّرُ به أحـدٌ عيناً إلاّ إذا أقيمت عليـه الحجة بتحقّق الشروط وانتفاء الموانع، وهي:

أوّلاً: العلم، وذلك بأن يعلم المسلم أنّ هذا العمل كفر ويقابله من الموانع الجهل، فمتى حلّ الجهـل ارتفع التكفير، قـال سبحـانــه وتعـالى: ﴿**وَمَنْ يُشاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الهُدىٰ وَيَتَّبِـعْ غَيْرَ سَبيلِ الْمؤمِنينَ نُوَلِّهِ مَا تَـوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً**﴾.[1]

فمن لم يتبيّن له الأمر فلا تُنزل نصوص الوعيد عليه.

ثانياً: قصـد القـول أو الفعل الكفـري، والمراد بـه تعمـد القـول أو الفعل ويقابله من الموانع الخطأ، أي: أن يقع القول أو الفعل دون قصد كسبق اللسان أو السهو ويدلّ له قوله تعالى: ﴿**رَبَّنَا لاَ تُؤاخِذْنا إنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأنَا**﴾[2] قال سبحانه وتعالى في الحديث القدسي: «قد فعلت» رواه مسلم.

ثالثاً: الاختيار ويقابله من الموانع الإكراه قال تعالى: ﴿**مَنْ كَفَرَ بِاللهِ مِنْ بَعْدِ إيمَانِهِ إلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌ بالإيمانِ**﴾.[3]

رابعاً: التأويل غير السائغ: ويقـابله من الموانع التأويل السائغ، ويـدلّ له

١. النساء: ١١٥.

٢. البقرة: ٢٨٦.

٣. النحل: ١٠٦.

اتّفاق الصحابة على عدم تكفير الذين استحلّوا الخمر، لأنّهم تأوّلوا قوله سبحانه: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِي مَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوا وَآمَنُوا﴾[1] بجواز شرب الخمر مع التقوى والإيمان. رواه عبد الرزاق في مصنفه بإسناد صحيح، على أنّ الخمر محرمة تحريماً قاطعاً ولكن الصحابة لم يكفروهم لوجود الشبهة وهي تأويلهم للآية الكريمة.

وهذا كلّه لأنّ التكفير حقّ لله ولرسوله ﷺ ومن لم يُصبْ في إطلاقه فإنّه يعود إليه كما قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قال لأخيه يا كافر إن كان كما قال وإلاّ حارت عليه». انظر (مخالفات في التوحيد، ص ١٥).

وإليك أخي القارئ الكريم: بيان هيئة كبار العلماء في المملكة العربية السعودية عن خطر التكفير وضوابطه:

بيان من هيئة كبار العلماء

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه، أمّا بعد:

فقد درس مجلس هيئة كبار العلماء في دورته التاسعة والأربعين المنعقدة بالطائف ابتداء من تاريخ ٢/ ٤/ ١٤١٩هـ ما يجري في كثير من البلاد الإسلامية وغيرها من التكفير والتفجير، وما ينشأ عنه من سفك الدماء، وتخريب المنشآت، ونظراً إلى خطورة هذا الأمر، وما يترتب عليه من إزهاق أرواح بريئة، وإتلاف أموال معصومة، وإخافة للناس، وزعزعة لأمنهم واستقرارهم، فقد رأى المجلس إصدار بيان يوضّح فيه حكم ذلك نصحاً لله ولعباده، وإبراءً للذمة،

---

١. المائدة: ٩٣.

وإزالة للبس في المفاهيم لدى مَن اشتبه عليه الأمر في ذلك، فنقول وبالله التوفيق:

أوّلاً: التكفير حكم شرعي، مردّه إلى الله ورسوله، فكما أنّ التحليل والتحريم والإيجاب إلى الله ورسوله، فكذلك التكفير، وليس كلّ ما وصف بالكفر من قول أو فعل، يكون كفراً أكبر مخرجاً عن الملّة.

ولمّا كان مَرَدّ حكم التكفير إلى الله ورسوله لم يَجُز أن نُكَفِّر إلاّ من دلَّ الكتاب والسُّنَّة على كُفْرِه دلالة واضحة، فلا يكفي في ذلك مجرّد الشبهة والظن، لِما يترتب على ذلك من الأحكام الخطيرة، وإذا كانت الحدود تُدْرَأ بالشبهات، مع أنّ ما يترتب عليها أقلّ ممّا يترتب على التكفير، فالتكفير أولى أن يُدْرَأ بالشبهات؛ ولذلك حذَّر النبيﷺ من الحكم بالتكفير على شخص ليس بكافر، فقال: «أيُّما امرئ قال لأخيه: يا كافر، فقد باء بها أحدهما، إن كان كما قال وإلاّ رجعت عليه». وقد يَرِد في الكتاب والسنّة ما يُفْهَم منه أنّ هذا القول أو العمل أو الاعتقاد كُفْر، ولا يكفَّر من اتّصف به، لوجود مانع يمنع من كفره، وهذا الحكم كغيره من الأحكام الّتي لا تتم إلاّ بوجود أسبابها وشروطها، وانتفاء موانعها كما في الإرث، سببه القرابة ـ مثلاً ـ وقد لا يرث بها لوجود مانع كاختلاف الدين، وهكذا الكفر يُكره عليه المؤمن فلا يكفر به. وقد ينطق المسلم بكلمة الكفر لغلبة فرح أو غضب أو نحوهما فلا يكفر بها لعدم القصد، كما في قصة الّذي قال: «اللّهمّ أنت عبدي وأنا ربّك» أخطأ من شدة الفرح.

والتسرُّع في التكفير يترتّب عليه أُمور خطيرة من استحلال الدم والمال، ومنع التوارث، وفسخ النكاح، وغيرها ممّا يترتّب على الرِّدَّة، فكيف يسوغ للمؤمن أن يُقدِم عليه لأدنى شبهة.

وجملة القول: إنّ التسرُّع في التكفير له خطره العظيم؛ لقول الله عزّ وجلّ:

﴿قُلْ إِنَّما حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وَما بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ ما لا تَعْلَمُونَ﴾.[١]

ثانياً: ما نَجَمَ عن هذا الاعتقاد الخاطئ من استباحة الدماء وانتهاك الأعراض، وسلب الأموال الخاصة والعامة، وتفجير المساكن والمركبات، وتخريب المنشآت، فهذه الأعمال وأمثالها محرَّمة شرعاً بإجماع المسلمين؛ لما في ذلك من هتك لحرمة الأنفس المعصومة، وهتك لحرمة الأموال، وهتك لحرمات الأمن والاستقرار، وحياة الناس الآمنين المطمئنين في مساكنهم ومعايشهم، وغدوهم ورواحهم، وهتك للمصالح العامة الّتي لا غِنى للناس في حياتهم عنها.

وقد حفظ الإسلام للمسلمين أموالهم وأعراضهم وأبدانهم وحرَّم انتهاكها، وشدَّد في ذلك وكان من آخر ما بلَّغ به النبي ﷺ أُمّته فقال في خطبة حجة الوداع: «إنّ دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا، في بلدكم هذا». ثمّ قال ﷺ: «ألا هل بلَّغت؟ اللّهم فاشهد». متّفق عليه.

وقال ﷺ: «كلّ المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه».

وقال عليه الصلاة والسلام: «اتّقوا الظلم فإنّ الظلم ظلمات يوم القيامة».

وقد توعَّدَ الله سبحانه مَن قَتَلَ نفساً معصومة بأشدّ الوعيد، فقال سبحانه في حقّ المؤمن: **﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزاؤُهُ جَهَنَّمُ خالِداً فِيها وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذاباً عَظِيماً﴾**.[٢]

وقال سبحانه في حقّ الكافر الذي له ذمّة في حكم قتل الخطأ: **﴿إِلاّ أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾**[٣] فإذا كان

---

١. الأعراف:٣٣. ٢. النساء:٩٣.

٣. النساء:٩٢.

الكافر الّذي له أمان إذا قُتِل خطأ، فيه الدية والكفّارة، فكيف إذا قُتل عمداً، فإنّ الجريمة تكون أعظم، والإثم يكون أكبر. وقد صحّ عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «من قَتَلَ معاهداً لم يَرح رائحة الجنة».

ثالثاً: إنّ المجلس إذ يبيِّن حكم تكفير الناس بغير برهان من كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ وخطورة إطلاق ذلك، لما يترتب عليه من شرور وآثام، فإنّه يُعلِن للعالم أنّ الإسلام بريء من هذا المُعْتَقَد الخاطئ، وأنّ ما يجري في بعض البلدان من سفك الدماء البريئة، وتفجير للمساكن والمركبات والمرافق العامة والخاصة، وتخريب للمنشآت هو عمل إجرامي، والإسلام بريء منه، وهكذا كلّ مسلم يؤمن بالله واليوم الآخر بريء منه، وإنّما هو تصرُّف من صاحب فكر منحرف، وعقيدة ضالَّة، فهو يحمل إثمه وجرمه، فلا يحتسب عمله على الإسلام، ولا على المسلمين المهتدين بهدي الإسلام، المعتصمين بالكتاب والسُّنَّة، المستمسكين بحبل الله المتين، وإنّما هو محض إفساد وإجرام تأباه الشريعة والفطرة؛ ولهذا جاءت نصوص الشريعة قاطعة بتحريمه، محذِّرة من مصاحبة أهله. قال الله تعالى:

﴿وَمَنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَولُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الخِصَامِ* وَإِذَا تَوَلَّى سَعى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرثَ وَالنَّسْلَ وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الْفَسَادَ* وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾.[١]

والواجب على جميع المسلمين في كلّ مكان التواصي بالحق، والتناصح والتعاون على البرّ والتقوى، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالحكمة والموعظة

١. البقرة: ٢٠٤ـ٢٠٦.

الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن، كما قال الله تعالى: ﴿**وَتَعاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوىٰ وَلاَ تَعاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوانِ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَديدُ الْعِقابِ**﴾.(١)

وقال سبحانه: ﴿**وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِناتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾.(٢)

وقال عزّ وجلّ: ﴿**وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنْسانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَتَواصَوْا بِالْحَقِّ وَتَواصَوا بِالصَّبْرِ**﴾.(٣)

وقال النبيّ ﷺ: «الدين النصيحة». قيل: لمَن يا رسول الله؟ قال: «لله ولكتابه ولرسوله ولأئمّة المسلمين وعامّتهم».

وقال عليه الصلاة والسلام: «مَثَل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحُمَّى». والآيات والأحاديث في هذا المعنى كثيرة.

رئيس المجلس

عبد العزيز بن عبد الله بن باز

صالح بن محمد اللحيدان	عبد الله بن عبد الرحمن البسام
عبدالله بن سليمان بن تقنيع	عبد العزيز بن عبد الله بن محمد آل الشيخ
محمد بن صالح العثيمين	ناصر بن حمد الراشد

١. المائدة:٢.

٢. التوبة:٧١.

٣. العصر:١ـ٣.

د. عبد الله بن محمد بن إبراهيم آل الشيخ	محمد بن عبد الله السبيل
محمد بن سليمان البدر	عبد الرحمن بن حمزة المرزوقي
راشد بن صالح بن خنين	د. عبد الله بن عبد المحسن التركي
عبد الله بن عبد الرحمن الغديان	د. عبد الوهاب بن إبراهيم أبو سليمان
محمد بن إبراهيم بن جبير	محمد بن زيد آل سليمان
د. صالح بن فوزان الفوزان	د. صالح بن عبد الرحمن الأطرم
حسن بن جعفر العتمي	د. بكر بن عبد الله أبو زيد

***

نقول: مع تقديرنا لموقفهم هـذا، ولكنّهم وضعوا الدواء بعد أن تفشّى الداء وانتشر، وأصاب ما أصاب من جسم الأُمّة الإسلامية:

وقد قال الشاعر:

تَـروحُ إلـى العطـار تبغي شبـابها   وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر

وإن ننس، لا ننسى ما جرى في سنة ١٣٦٢هـ من إزهاق روح حاج مسلم إيـراني يسمّـى بـ«أبو طـالب» بين الصفـا والمروة ببهتـان عظيم وهـو يتشهـد الشهادتين، وقد حجّ البيت واعتمر وأتى بالفرائض كلّها، فقُتل مظلوماً، من دون مانع ولا رادع ولا زاجر ولا مدافع.

والعجب أنّ عبد العـزيز بن عبد الله بن بـاز، ـ أحد الموقعين في بيـان هيئة كبـار العلماء ـ هـو نفسـه رئيس لجنـة الإفتاء التي أفتـت بكون الشيعـة مشركين مرتدين عن الإسلام، لا يحلّ الأكل من ذبـائحهم لأنّها ميتة ولو ذكروا عليها اسم الله.[1] فبأي القولين نؤمن يا شيـخ!! أبما جاء في البيان الماضي، أم بإفتائك في غير مقام بكفر طائفة كبرى من المسلمين!!

١. فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث برقم ١٦٦١.

فعلى الصـالحين من الموقعين وعلى كلّ عـالم واع ينبض قلبـه بعـز الإسـلام وشرف المسلمين أن يوحّدوا كلمتهم، ويشدّوا صفوفهم كبنيـان مرصوص لصيانة دماء المسلمين وأعـراضهم وأموالهم، وتحقيـق الوئام والسـلام، ولا يسمحوا بنشر هذه الكتب في بلادهم ـ البلد الحرام وحرم النبي ـ لكي لا تشوّه سمعتها في أرجاء الدنيا وهي ثغر الإسلام وملجأ المسلمين.

والسلام

جعفر السبحاني

قم ـ مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام

الفصل الخامس

في المسائل الفقهية والأُصولية

١. حقيقة الإحرام في كلمات الفقهاء

٢. من لا يمرّ بميقات من المواقيت

٣. المطاف بين السعة والضيق

٤. شبهات و إيضاحات

٥. التقية مفهومها، حدّها، دليلها

١

حقيقة الإحرام في كلمات الفقهاء

تحقيق المقام يتوقّف على البحث في أُمور ثلاثة:

١. الإحرام في كلمات أهل اللغة.

٢. ما هو حقيقة الإحرام في لسان الأصحاب، وما هو المستفاد من الروايات؟

٣. تصوير تعلّق النية بالإحرام.

وإليك الكلام فيها:

الأوّل: الإحرام في معاجم اللغة

قال الفيومي: الحرمة ـ بالضم ـ: ما لا يحلّ انتهاكه، وهذه اسم من الاحترام مثل الفرقة من الافتراق، والجمع حرمات، مثل «غرفة»: «غرفات» ، و شهر حرام وجمعه حرم ، بضمتين ، ـ إلى أن يقول: ــ وأحرم الشخص: نوى الدخول في حجّ أو عمرة، ومعناه أدخل نفسه في شيء حرم عليه ما كان حلالاً له، وهذا كما يقال: أنجد إذا أتى نجداً، وأتْهَم إذا أتى تهامة ــ إلى أن قال: ــ أحرم: دخل الحرم،

وأحرم: دخل في الشهر الحرام.[١]

والإمعان في كلامه يفيد انّ المعنى الأصلي للإحرام هو نية الدخول في حجّ أو عمرة، ولازمه، إدخال نفسه في شيء حرم عليه ما كان حلالاً، لا انّه المعنى الأصلي للإحرام. فلاحظ.

الثاني: ما هي حقيقة الإحرام؟

ما هي حقيقة الإحرام؟ فهل هو نقل لفظه من المعنى اللغوي ـ الذي صرّح به المصباح (نوى الدخول في حجّ أو عمرة) إلى معنى آخر ـ أو لا؟

الظاهر من كلمات أكثر الأصحاب ذلك، ولنشر إلى آراء السنّة في حقيقة الإحرام أوّلاً، ثمّ إلى آراء الأصحاب ثانياً، فنقول:

الإحرام عند الحنفية هو الدخول في حرمات مخصوصة غير أنّه لا يتحقّق شرعاً إلاّ بالنية مع الذكر أو الخصوصية.

والمراد بالدخول في حرمات: التزام الحرمات، والمراد بالذكر التلبية ونحوها ممّا فيه تعظيم الله تعالى.

والمراد بالخصوصية ما يقوم مقام التلبية من سوق الهدي، أو تقليد البدن.

وأمّا الإحرام عند المذاهب الثلاثة الباقية فهو نية الدخول في حرمات الحجّ والعمرة.[٢]

والظاهر عدم وجود الفرق الجوهري بين التعريفين، فالنية المذكورة في

---

١. المصباح المنير: مادة حرم: ١٦٢.

٢. الموسوعة الفقهية الكويتية: ٢/ ١٢٨، مادة «إحرام».

تعريف الثلاثة شرط عند الحنفية أيضاً، كما صرحوا به، والظاهر انّ مراد الحنفية من حرمات مخصوصة، هو حرمات الحجّ والعمرة.

هذا كلّه عند السنّة، وأمّا أصحابنا فقد اختلفت كلمتهم في تعريف الإحرام نذكرها تباعاً.

١. الإحرام أمر مركب من أُمور ثلاثة

يظهر من كلمات المحقّق في «الشرائع» والعلاّمة في غير واحد من كتبه: انّ الإحرام أمر مركب من أُمور ثلاثة: ١. النيّة، ٢. التلبيات الأربع، ٣. لبس ثوبي الإحرام.

ثمّ إنّ متعلق النية عبارة عن الأُمور الأربعة، أعني: ما يُحرم به من حجّ أو عمرة متقرباً، ونوعه من تمتع وقران أو إفراد، وصفته من وجوب أو ندب، وما يحرم له من حجة الإسلام أو غيرها.[1]

وعلى هذا فالإحرام أمر مركب من أُمور ثلاثة، وللجزء الأوّل منها ـ أعني: النيّة ـ متعلّقات أربعة، وبه صرّح العلاّمة في غير واحد من كتبه.

قال في «المختلف»: الإحرام ماهية مركبة من النية والتلبية ولبس الثوبين.[2]

وقال في «التذكرة»: واجبات الإحرام ثلاثة: النية والتلبيات الأربع، ولُبس ثوبي الإحرام ـ إلى أن قال: ـ والواجب في النية أن يقصد بقلبه إلى أُمور أربعة: ما يحرم به من حج أو عمرة. إلى آخر ما ذكره المحقّق في «الشرائع». [3]

---

١. الشرائع: ١/ ٢٤٥.
٢. المختلف: ٤/ ٤٣.
٣. التذكرة: ٧/ ٢٣١.

وقد فسّره في المنتهى بنفس عبارة «التذكرة».[١]

يلاحظ عليه أوّلاً: بأنّ نسبة الإحرام إلى هذه الأُمور الثلاثة لا يخلو من أحد وجهين:

١. أن يكون من قبيل المحصَّل إلى المحصِّل والمسبَّب إلى مسبب، فعندئذٍ تتعلّق به النية، لكونه وراء الثلاثة التي منها النية لكن لازمه وجوب الاحتياط في ما شكّ في جزئية شيء أو شرطيته للمحصِّل وهو كما ترى.

٢. أن يكون من قبيل العنوان المشير، والجمع في التعبير ، كما هو حال العشرة بالنسبة إلى الأفراد الواقعة تحتها، وحال الصلاة بالنسبة إلى الأفعال والأقوال، فعند ذاك، إذا شك في جزئية شيء أو شرطيته فالمرجع هو البراءة العقلية والشرعية، لكن لا تتعلّق به النية، إذ ليس الإحرام أمراً زائداً على الأجزاء الثلاثة التي منها النية، مع اتّفاقهم على أنّ الإحرام أمر قصدي، يعتبر فيه النية. فتأمّل.

وبذلك يعلم النظر فيما أفاده بعض الأعاظم حيث أوّل كلمات القدماء الظاهرة في أنّ الأُمور الثلاثة هي الإحرام قائلاً بأنّ وجوب تلك الأُمور، في الإحرام لا يلازم كونه عبارة عن تلك الأُمور لا غير، بل يدلّ على أنّ الإحرام بأي معنى كان، لا يصح بدونها.[٢]

وجه النظر واضح، إذ لو كان الإحرام أمراً غير الأُمور الثلاثة فلا تخلو الحال من أحد الوجهين اللّذين عرفت وجه الإشكال فيهما.

وثانياً: لم يظهر الاتفاق من القدماء على تفسير صاحب الشرائع وابن أُخته

---

١. المنتهى: ١٠/ ٢١٥ـ ٢١٦، مجمع البحوث الإسلامية، مشهد ـ ١٤٢٤هـ.

٢. كتاب الحج: ١/ ٢١٦.

العلاّمة ــ أعلى الله مقامها ـ من الأُمور الثلاثة، فقد قال في «المدارك»: اختلفت عبارات الأصحاب في حقيقة الإحرام، فذكر العلاّمة في «المختلف» في مسألة تأخير الإحرام عن الميقات أنّ الإحرام ماهية مركبة من النية والتلبية ولبس الثوبين.

وحكى الشهيد في الشرح عن ابن إدريس انّه جعل الإحرام عبارة عن النية والتلبية ولا مدخل للتجرد ولبس الثوبين فيه.

وعن ظاهر «المبسوط» و«الجمل» انّه جعله أمراً واحداً بسيطاً وهو النية.[1]

وثالثاً:انّه لم يدلّ دليل على وجوب بعض متعلّقات النية كقصد الوجه من كونه واجباً أو مندوباً، كما حقّق في محله، كما لم يدل دليل على لزوم قصد كونه حجة الإسلام، إذا لم تكن ذمّته مشغولة بحجّ آخر، فليس ذلك العنوان، كعنواني الظهر والعصر ممّا يجب قصده ، فإذا كان الرجل مستطيعاً ولم يحج من ذي قبل ونوى العمرة والحج، كفى ذلك، إذ الواجب عليه في هذه الحالة ليس إلاّ واقع حجّة الإسلام بأحد أقسامها الثلاثة.

٢. توطين النفس على ترك المنهيات

الإحرام عبارة عن توطين النفس على ترك المنهيات المعهودة إلى أن يأتي بالمناسك، وهذا القول هو الذي حكاه صاحب المدارك عن الشهيد ، قال: وكنت قد ذكرت في رسالة أنّ الإحرام هو توطين النفس على ترك المنهيات المعهودة إلى أن يأتي بالمناسك أو التلبية هي الرابطة لذلك التوطين نسبتها إليه كنسبة التحريمة إلى الصلاة.[2]

---

١ و٢. المدارك:٧/ ٢٣٩.

و نسبه المحقق الخوئي إلى الشيخ الأنصاري، بل إلى المشهور، ولذلك ذكروا انّه لو بنى على ارتكاب شيء من المحرمات، بطل إحرامه لعدم كونه قاصداً للإحرام.(١)

وربما يؤيد ذلك بما في صحيح معاوية بن عمار عن أبي عبد الله عليه السلام من أنّ المحرم يقول: «أحرم لك شعري و بشري ولحمي ودمي وعظامي ومخّي وعصبي من النساء والثياب والطيب، أبتغي بذلك وجهك والدار الآخرة».(٢)

يلاحظ عليه أوّلاً: أنّ كثيراً من الناس، يحرمون ولا يدور ببالهم، توطين النفس على ترك محظورات الإحرام من غير فرق بين العالم بها تفصيلاً، أو إجمالاً أو الجاهل بها.

وأمّا صحيح معاوية بن عمار، فهو دعاء قبل الإحرام، ولذلك يقول في ذيله: ثمّ قم ـ بعد الدعاء المذكور ـ «فامش هنيهة فإذا استوت بك الأرض، ماشياً كنت أو راكباً فلبّ»، فالإحرام يتحقّق بالتلبية، وبها تحرم الأُمور المذكورة، وكأنّه قبل الإحرام يتذكر ما يحرم عليه بالتلبية، فتحريم الأُمور المذكورة من آثار الإحرام وأحكامه لا حقيقته.

وثانياً: انّه ليس في الروايات أثر من هذا التوطين، فلاحظ أحاديث الباب١٧ من أبواب الإحرام لا تجد فيها أثراً منه، نظير:

١. خبر أبي الصلاح مولى بسام الصيرفي قال: أردت الإحرام بالمتعة فقلت لأبي عبد الله عليه السلام: كيف أقول؟ قال: «تقول: «اللّهم إنّي أُريد التمتع بالعمرة إلى الحجّ، على كتابك وسنّة نبيّك».(٣)

---

١. المعتمد: ٢/ ٤٧٧.

٢. الوسائل: ٩، الباب١٦ من أبواب الإحرام، الحديث١.

٣. الوسائل: ٩، الباب١٧ من أبواب الإحرام، الحديث ٢.

٢. صحيح يعقوب بن شعيب، قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام فقلت: كيف ترى أن أُهلّ (أي أحرم)؟ فقال: «إن شئت سمّيت، وإن شئت لم تسمّ شيئاً» فقلت له :كيف تصنع أنت؟ قال: «أجمعهما فأقول: لبيك بحجة وعمرة معاً لبيك». [1]

ولو كانت حقيقة الإحرام هي التوطين لجاء ذكره فيهما خصوصاً في الرواية الأُولى.

وربّما يورد على هذا القول باستلزامه الدور قائلاً بأنّه لا يعقل أخذ هذه المنهيات والمحرمات في معنى الإحرام وإلاّ لزم الدور، لأنّ حرمة هذه المحرمات متوقّفة على الإحرام، هذا من جانب، ومن جانب آخر كون الإحرام متوقّفاً على حرمة المحرمات، وبعبارة أُخرى: صيرورته محرماً تتوقّف على كون المحرمات محرمة عليه وتحريمها متوقف على كونه محرماً. [2]

يلاحظ عليه: بأنّ الإحرام وتوطين النفس على تحريم المنهيات، يتوقّف على تحريم هذه الأُمور في لسان الدليل.

وإن شئت قلت: يتوقّف على التحريم الإنشائي، لأنّ الحكم الشرعي لا يوصف بالفعلية إلاّ بعد وجود الموضوع، أي كون الشخص محرماً. والمفروض انّه مريد للإحرام، لا متلبس به، والتحريم الفعلي يتوقف على الإحرام وتوطين النفس وإعلامه بالتلبية.

٣. إدخال نفسه في حرمة الله بسبب التلبية

الإحرام عبارة عن إدخال النفس في حرمة الله، غاية الأمر إنّما يدخل في

---

١. الوسائل:٩، الباب١٧ من أبواب الإحرام، الحديث ٣.

٢. المعتمد:٢/ ٤٨٣.

حرمة الله بسبب التلبية، فما لم يلبّ لم يدخل في الإحرام وفي حرمة الله، كما أنّه إذا لم يكبّر لم يدخل في الصلاة، وإذا كبّر حرم عليه منافيات الصلاة، وفي المقام تحرم عليه الأُمور المعهودة إذا لبّى، ولا يتحلّل من ذلك إلاّ بالتقصير في العمرة والسعي في الحجّ.

وبعبارة أُخرى: الإحرام شيء مترتّب على التلبية لا انّه نفس التلبية، ولذا يعبّر عنها بتلبية الإحرام، ولا مدخل في هذه الحرمة الإلهية إلاّ بالتلبية.

والحاصل: انّ الإحرام أمر اعتباري يترتّب عليه هذه الأُمور بسبب التلبية، فحال الحجّ بعينه، حال الصلاة في كون التكبيرة أوّل جزء من أجزائها وبها يدخل في الصلاة ، وكذلك التلبية فإنّها أوّل جزء من أجزاء الحجّ وبها يدخل في تلك الحرمة الإلهية، كما في النصّ الدالّ على أنّ الذي يوجب الإحرام ثلاثة: التلبية، والإشعار، والتقليد.[1]

وحاصل كلامه ـ بعد الغض عن التهافت ـ هو انّ الإحرام أمر مسببيّ، يحصل بسبب التلبية، وله آثار بعدها.

ثمّ إنّ القائل استشهد لما ذكره بروايات:

١. صحيحة معاوية بن عمّار، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إذا فرغت من صلاتك وعقدت ما تريد فقم وامش هنيهة، فإذا استوت بك الأرض ـ ماشياً كنت أو راكباً ـ فلبّ».[2]

٢. صحيحة منصور بن حازم، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إذا صلّيت عند الشجرة فلا تلبّ حتّى تأتي البيداء حيث يقول الناس يخسف بالجيش».[3]

---

١. المعتمد: ٢/ ٤٨٣.

٢و٣. الوسائل: ٩، الباب ٣٤ من أبواب الإحرام، الحديث ٢ و ٤.

٣. صحيحة عبد الله بن سنان قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «إنّ رسول الله لم يكن يلبّي حتّى يأتي البيداء».[١] إلى غير ذلك من الروايات الدالّة على أنّ مفتاح الإحرام هو التلبية كتكبيرة الإحرام في الصلاة، ويؤيد ذلك أيضاً أمران:

الف. ما دلّ على جواز المواقعة بعد دخول المسجد والصلاة فيه، ولبس الثوبين، وقبل التلبية.[٢]

ب. ما سيوافيك من أنّ الإشعار والتقليد يقومان مقام التلبية.[٣]

كلّ ذلك يدلّ على أنّ مفتاح الإحرام والدخول في عمل العمرة، هو التلبية، فما لم يُلبّ لا ينعقد الإحرام بها فمع أنّها جزء من العمرة مفتاح لها، كتكبيرة الإحرام، ومثل هذا العمل يتحقّق بلا نية.

فإن قلت: إذا كان الإحرام غير متحقّق إلاّ بالتلبية فبماذا تفسر قول الراوي قال كتبت إلى أبي إبراهيم عليه السلام رجل دخل مسجد الشجرة فصلّى وأحرم وخرج من المسجد، فبدا له قبل أن يلبّي أن ينقض ذلك بمواقعة النساء... .[٤]

قلت: هو محمول على مجاز المشارفة، أي تهيأ للإحرام، كما أنّ الحال هو كذلك في بعض الروايات السابقة.

يلاحظ عليه أوّلاً: بأنّ ما استدلّ به من الروايات لا يدلّ إلاّ على أنّ مفتاح الإحرام هو التلبية، وأنّ الحاج ما لم يُلبّ لا يحرم عليه من المحظورات، وأمّا أنّ حقيقة الإحرام عبارة عن إدخال النفس في حرمة الله فلا يستفاد من هذه الروايات. وبعبارة أُخرى: أنّ ما أفاده أنّ التلبية سبب والإحرام أمر اعتباري يتولد

١. الوسائل:٩، الباب٣٤ من أبواب الإحرام، الحديث ٥.
٢. راجع الوسائل:٩، الباب١٤ من أبواب الإحرام.
٣. الوسائل:٨، الباب١٢ من أبواب أقسام الحجّ، الحديث ٩، ٢٠، ٢١.
٤. الوسائل:٩، الباب١٤ من أبواب الإحرام، الحديث ١٢.

من التلبية أمر لا يستفاد ممّا أورده من الأحاديث.

نعم لو أراد من «إدخال النفس في حرمة الله» مصداق الحرمة ـ أعني: العمرة والحج ـ لرجع إلى الوجه السادس الذي هو مختارنا، وعندئذٍ يلاحظ عليه: لماذا عدل عن التعبير الواضح إلى التعبير المعقّد؟

وثانياً: لو كان الإحرام أمراً اعتبارياً متحصلاً من التلبية التي نسبتها إليه نسبة المحصِّل إلى المحصَّل، يلزم الاحتياط في كلّ ما شك في جزئية شيء أو شرطيته للإحرام، وهو كما ترى.

٤. الإحرام أمر إنشائي يوجد بتحريم المحرمات

إنّ الإحرام صفة خاصّة تحصل للمحرم بتوسط الالتزام بترك المحرّمات أو نيّة ترك المحرّمات، فيكون الالتزام سبباً لإنشاء الإحرام وحصوله، نظير سائر المفاهيم الإيقاعية التي إيقاعها بالالتزام، لا انّه نفس الإحرام، كما أنّه ليس نفس الترك.[١]

هو أيضاً خيرة بعض الأساطين على ما في تقريرات درسه حيث قال: إنّ الإحرام أمر إنشائي يوجده المحرم بتحريم المحرمات على نفسه، وإن كان لا يؤثر في التحريم قبل التلبية، كما هو المستفاد من المحقّق في «الشرائع».

ثمّ إنّه ﷺ ذكر كلام المحقّق في «الشرائع» في إحرام الحجّ حيث جاء فيه: «ثمّ ينشأ إحراماً آخر للحج من مكة». وهو ظاهر في أنّ الإحرام أمر إنشائي، وعبر بذلك في التحرير والسرائر.[٢]

---

١. المستمسك: ١/ ٣٦١.

٢. كتاب الحج للسيد الگلپايگاني: ٢٤٦.

يلاحظ عليه: أنّ الإنشاء يحتاج إلى سبب، فما هو السبب؟ فإن كان السبب هو الالتزام القلبي بتحريم المحظورات ـ كما هو ظاهر كلامهما ـ فهو ممنوع، لأنّ الإنشاء يحتاج إلى سبب إمّا فعلي ـ كما في المعاطاة ـ أو قولي، والمفروض عدمهما، ولو قيل: إنّ السبب هو التلبية، فهو ليس بتام، لأنّها ليست سبباً عرفياً لتحريم المحرمات، بل هو إجابة لدعوة إبراهيم الخليل القريب والبعيد إلى زيارة البيت الحرام حيث إنّه سبحانه يخاطب إبراهيم بقوله: ﴿وَأَذِّنْ فِي النّاسِ بِالحَجّ يأتُوكَ رِجالاً وَعلى كُلّ ضامر يأتين مِنْ كُلّ فَجّ عَميق﴾.[1]

وأمّا ما استدل به من كلام الشرائع فالظاهر أنّ مراده من الإنشاء هو نفس الإحرام، أي يحرم إحراماً آخر وراء الإحرام للعمرة. لا انّ الإحرام من الأُمور الإنشائية مقابل الأُمور الواقعية التي يحكى عنها بالألفاظ، وعلى فرض صحّة إنشاء الأُمور النفسية بالالتزام فهو نفس عقلي غير مطروح لأكثر المحرمين.

٥. الإحرام حالة تمنع عن فعل شيء من المحظورات

عرّف الشيخ جعفر كاشف الغطاء الإحرام بقوله: هو عبارة عن حالة تمنع عن فعل شيء من المحرّمات المعلومة، ولعلّ حقيقة الصوم كذلك، فهما عبارة عن المحبوسية عن الأُمور المعلومة، فيكونان غير القصد، والترك، والكف، والتوطين، فلا يدخلان في الأفعال، ولا الأعدام، بل هما حالتان متفرعتان عليها، ولا يجب على المكلّفين من العلماء فضلاً عن الأعوام الاهتداء إلى معرفة الحقيقة، و إلاّ للزم بطلان عبادة أكثر العلماء وجميع الأعوام.[2]

---

١. الحج:٢٧.

٢. كشف الغطاء: ٤/ ٥٢١ـ٥٢٢.

يلاحظ عليه: بأنّه لو كانت حقيقة الإحرام هو ما ذكره، يجب تحصيل تلك الحالة عند الإحرام، لأنّ الأمر بالإحرام أمر به بما له من الواقعية مع أنّه اعترف بأنّ العلماء فضلاً عن العوام لا يهتدون إلى تلك الحقيقة حتّى يحصّلونها، فأي فائدة في جعل شيء موضوعاً للحكم مع عدم اهتداء أغلب المكلّفين إليه، ويرد عليه مثل ذلك في تعريف حقيقة الصوم.

٦. الإحرام هو الدخول في العمرة أو الحجّ لا غير

الظاهر كما هو اللائح من معاجم اللغة انّ الإحرام عبارة عن الدخول في العمرة والحج وإنّما أُطلق عليه الإحرام لكون المدخول من حرمات الله.

وتبيين ذلك رهن بيان أمرين:

١. الحرمة لغة، ما لا يجوز انتهاكه ووجبت رعايته، قال سبحانه في سورة الحج بعد ذكر مناسكه: ﴿**ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ * ذٰلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُماتِ اللهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ**﴾.[1]

قال الطبرسي: ﴿**ثم ليقضوا تفثهم**﴾ أي ليزيلوا، شعث الإحرام من تقليم ظفر وأخذ شعر، و﴿**ليوفوا نذورهم**﴾ بإنجاز ما نذروا من أعمال البر في أيام الحج﴿**ليطوفوا بالبيت العتيق**﴾ والبيت العتيق هو الكعبة ﴿**ومن يعظم حرمات الله...**﴾ والحرمات ما لا يحلّ انتهاكه، واختار أكثر المفسرين في معنى الحرمات هنا: انها المناسك لدلالة ما يتصل بها من الآيات على ذلك. وقيل معناها: البيت الحرام، والبلد الحرام، والشهر الحرام، والمسجد الحرام.[2]

---

١. الحج: ٢٩ـ ٣٠.

٢. مجمع البيان: ٤/ ٨٢ـ ٨٣، ولاحظ أيضاً، تفسير قوله سبحانه: ﴿**وَالْحُرُماتُ قِصاصٌ**﴾ البقرة: ١٩٤، في المجمع: ١/ ٢٨٧.

واللفظ يدلّ على أنّ كلّ شيء له مكـانة عند الله تجب رعايتهـا ، فهو الحرمة من غير فرق بين الأعمال كالمناسك، أو غيرها كالبيت والشهر والمسجد الحرام.

٢. وجود الفـرق الواضح بين التحـريم والإحرام كالفـرق بين قولـه «حرّم» و«أحرم».

أمّا الأوّل، فهـو عبارة عن المنع عن الشيء ، كقوله سبحـانه: ﴿كلُّ الطَّعام كـانَ حِـلاً لِبَني إسرائيلَ إلاّ ما حَـرَّمَ إسرائيلُ على نفسـه﴾[1] حيث حـرّم يعقوب بعض الأطعمة على نفسه وفاء للنذر.[2]

وأمّا الثاني ـ أي أحـرم ـ فهو عبارة عن الدخول في شيء له منـزلة وكرامة لا تهتك، فتارة يكـون المدخول فيه مكاناً لـه حرمة يقال أحـرم: دخل الحرم، وأُخرى يكون زماناً كذلك فيقال: أحرم: دخل الشهـر الحرام، وثالثة يكون عملاً له حرمة يقال: أحـرم: دخل العمرة والحج، والميـزان في صدق الإحـرام كون المدخـول فيه شيئاً يحرم انتهاكه، وبما انّ المدخول فيه في المقام هو العمل ـ لا المكان ولا الزمان ـ يكون معنى «أحرم» انّه دخل العمـرة والحجّ اللّذين لهما ذاك الشأن، وقد مرّ عن الفيومي أنّـه فسر قوله:«أحرم» الشخـص: نوى الدخول في حج أو عمـرة، ومثله ابن منظور في «اللسان». نعم لا يتحقّق الدخول في العمرة أو الحجّ إلاّ عن طريق خاص وهو التلبيـة، فكأنّها مفتاح الدخول في هذا العمل الـذي هو من محرّمات الله سبحانه.

وفي بعض الروايات ما يدل عليه، نظير: صحيحة معاوية بن عمار عن أبي عبد الله عليه السلام حيث وصف حجّ النبي في حـديث مبسوط وقال: «ثـمّ خرج حتى

---

١ .آل عمران:٩٣.

٢ .مجمع البيان:١/ ٤٧٥.

أتى المسجد الذي عند الشجرة، فصلىّ فيه الظهـر، وعزم بالحجّ مفرداً وخرج حتى انتهى إلى البيداء عند الميل الأوّل، فصف النـاس له سماطين، فلبّى بالحجّ مفرداً، وساق الهدي.[1] فقد بيّن الإمام إحرام النبي ﷺ بالجملتين:

١. عزم بالحجّ، وفي بعض النسخ: أحرم بالحجّ.

٢. فلبّى بالحجّ مفرداً.

وبما انّ «العـزم» يتعـدّى بنفسه يقـال: عـزمت الأمـر، فلعل الصحيح هـو الثاني، أي أحـرم بالحجّ، أي دخل الحجّ الـذي هو مـن حرم الله، فليس لـلإحرام واقعية سوى الدخول في واحـدة من الحرمتين : العمرة والحجّ، بطريق خاص وهو التلبيـة، وبما انّ النبيّ لبّـى في البيـداء، يحمل قـولـه: «أحــرم بـالحجّ» على مجاز المشارفة.

هذا هو حقيقة الإحرام، ومع ذلك يستحبّ معه أن يقول: أحرم لك شعري و بشري ولحمي ودمي وعظـامي ومخّي وعصبي من النسـاء والثيـاب والطيب.[2] والجميع من أحكام الإحرام ولوازمه، لا انّها حقيقته.

---

١. الوسائل:٨، الباب٢ من أبواب أقسام الحجّ، الحديث٤.

٢. الوسائل:٨، الباب١٦ من أبواب أقسام الحجّ.

٢

من لا يمرّ بميقات ولا بما يحاذيه

اتّفقت كلمة الفقهـاء على أنّ الآفاقي (النائي) يجب عليه الإحـرام لعمرته من أحد المواقيت الخمسة التي وقّتها رسول الله ﷺ لمن يمرّ بها [١]، أو ممّا يحاذيها، محاذاة عرفيّة كما إذا كان الحد الفاصل بين الميقات ومهلّه، بضع كيلومترات.

أخـرج الكليني بسنـــد صحيح عن عبـد الله بن سنـان الثقـــة عن الإمـام الصادق عليه السلام قال: «من أقام بـا لمدينة شهراً وهو يريـد الحجّ، ثمّ بدا له أن يخرج في غير طريق أهل المدينة الذي يأخذونه، فليكن إحرامه من مسيرة ستة أميال فيكون حذاء الشجرة من البيداء». [٢]

ولعلّ الحدّ الفاصل بين المدينة ومسجد الشجـرة يوم ذاك، كان ستة أميال، فلذلك أمـر الإمام بالإحرام بعد الابتعـاد عن المدينة ، مقدار سـتـة أميال، ليكون المهلّ، محاذياً للمسجد.

إنّما الكلام إذا ورد عن طريق لا يمرّ با لميقات، ولا بما يحاذيه محاذاة عرفية .

---

١ .الوسائل:٨، الباب١ من أبواب المواقيت، الحديث١ ، ٢ و ٣ و غيرها.

٢ . الوسائل:٨، الباب٧ من أبواب المواقيت، الحديث١ .

فإن قلنا بعدم تصوّر طريق لا يمر بالميقات[١] ولا يكون محاذياً لواحد منها، بحجة أنّ المواقيت محيطة بالحرم من الجوانب، وقلنا بكفاية مطلق المحاذاة وإن كانت عن مسافة بعيدة، يحرم ممّا يحاذي أحد المواقيت .

وأمّا لو قلنا بإمكان طريق لا يمر بميقات ولا بها يحاذيه محاذاة عرفية، عن مسافة قريبة، كما هو الحال في مدينة «جدة» فإنّها ليست بميقات كما هو واضح، ولا تحاذي أحد المواقيت ـ كالجحفة ـ محاذاة عرفية[٢]، فيقع الكلام فيما هو الواجب على الوافدين إلى جدة جويّاً أو بحريّاً ؟

والمسألة معنونة في كلمات الفريقين، وهي ذات قوانين منذ عهد بعيد. وإليك البيان:

دراسة فتوى السيد الخوئي قدس سره

ثمّ إنّ السيد الخوئي ـ رضوان الله عليه ـ أفتى في الموضوع بالأُمور التالية:

١ . لزوم الذهاب إلى أحد المواقيت مع الإمكان .

٢ . أو نذر الإحرام من بلده أو من الطريق قبل الوصول إلى جدّة بمقدار معتد به، ولو في الظاهر فيُحرم من محل نذره.

٣ . الذهاب إلى ـ رابغ ـ الذي هو في طريق المدينة والإحرام منه بنذر،

---

١ . قال المحقّق النراقي: وقد اختلفوا في حكم من سلك طريقاً لا يحاذي شيئاً من المواقيت، وهو خلاف لا فائدة فيه، إذ المواقيت محيطة بالحرم من الجوانب .(المستند:١١/ ٢٨٣)

و تبعه صاحب العروة الوثقى في مبحث المواقيت، والتصديق العلمي يحتاج إلى دراسة ميدانية، وأنّى لنا هذه.

٢ . وأمّا المحاذاة عن مسافة بعيدة، والتي نسمّيها محاذة غير عرفية فالظاهر من الخرائط الجغرافية انّ المطار الحديث للحجاج وساحل البحر، ومقدّم الجسر الكبير تحاذي الجحفة، فإنّ الخط الممتد من الجحفة إلى جدّة يمرّ على هذه الأمكنة أو على مقربة منها.

باعتبار أنّه قبل الجحفة التي هي أحد المواقيت.

٤. إذا لم يمكن المضي إلى أحد المواقيت ولم يحرم قبل ذلك بنذر، لزمه الإحرام من جدة بالنذر ثمّ يجدد إحرامه خارج الحرم قبل دخوله فيه.[١]

يلاحظ على ما أفاده بأُمور:

أوّلاً: انّ لزوم الذهاب إلى أحد المواقيت مع الإمكان، بلا ملزم، لما مرّ من أنّ الروايات الدالّة على لزوم الإحرام من المواقيت التي وقّتها رسول الله ﷺ ناظرة إلى من كان من أهل هذه المواقيت أو كان ممّن يجتازها، وأمّا من سلك طريقاً لا يؤدّي إلى أحدها فلا دليل على لزوم الذهاب إلى المواقيت.

ثانياً: انّ نذر الإحرام من بلده أو من الطريق قبل الوصول إلى جدة بمقدار معتد به أو في الطائرة، وإن كان يحل مشكلة الإحرام، لكن يبقى الإشكال في الاستظلال بعده بسقف الطائرة، ونحوها إذا كان الطيران في النهار أو في الليالي الممطرة أو ذات الرياح العاصفة .

وجه الإشكال: انّ حقيقة الإحرام عبارة عن العزم على ترك المحرمات، فكيف يجتمع ذلك العزم الجدي، مع العلم بنقضه في الطريق أو قبل ركوب الطائرة، ونحو ذلك، وهذه مشكلة يجب التخلّص منها على نحو لا يصادم حقيقة الإحرام الذي هو أمر قلبي قائم بالجزم والنية .

أضف إلى ذلك: انّ هذا الاقتراح ، لا ينفك عن وجوب الفدية عليه، وهو تكليف زائد وتحميل عليه، وهو رهن الدليل.

ثالثاً: انّه إذا تمكن من الذهاب إلى رابغ يتمكّن غالباً من الذهاب إلى الجحفة، فإنّها بمقربة من رابغ، والطريق: معبّد، ذلول، والمسافة قليلة جداً.

---

١. المعتمد:٣/ ٣٢٤، ولاحظ المناسك.

رابعاً: إذا لم يمكن المضي إلى أحد المواقيت ولم يحرم قبل ذلك بنذر، فقد أفتى بلزوم الإحرام من جدة بالنذر، ثمّ يجدد إحرامه خارج الحرم قبل دخوله فيه، ولم يعلم وجهه، لأنّ المورد خارج عن مصب روايات النذر، لأنّ مورد رواياته[١] هو نذر الإحرام قبل الميقات، ثمّ اجتيازه والمرور به. وأين هو من المفروض، وهو نذر الإحرام قبل الدخول في الحرم ثمّ الدخول فيه محرماً ؟! وقد ثبت في محله انّه لا يمكن تحليل الحرام ــ تكليفاً أو وصفاً ــ بالنذر واليمين والعهد، والإحرام قبل الميقات، أو بعده حرام تكليفاً وباطل وضعاً، خرجت منه صورة واحدة، وهو نذره قبل الميقات ثمّ المرور به محرماً والصور الأُخرى باقية تحت المنع.

والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات

٣

المطاف بين السعة والضيق

كان الحجيج في الأزمان المنصرمة يُعدّون بالأُلوف حيث لا يتجاوز عددهم مائة ألف حاج في أغلب السنين، ولم تكن آنذاك أية مشكلة باسم الازدحام في المطاف، إلاّ حين استلام الحجر الأسود، غير أن تطور وسائل النقل البحرية والبرية والجوية جعل هذا العدد يتضاعف كثيراً في كلّ سنة إلى أكثر من ميلوني حاج.

هذا وانّ عدد الحجاج في هذه السنة ١٤٢٥هـ ـ حسب وكالة الأنباء للمؤتمر الإسلامي في اليوم الثامن من ذي الحجة الحرام لهذه السنة ـ بلغ مليونين ومائتي وخمسين ألفاً (٠٠٠, ٢٥٠, ٢ ألف)، وكان عدد الحجاج الوافدين من سائر الأقطار يبلغ مليوناً وسبعمائة وخمسين ألفاً (٠٠٠, ٧٥٠, ١)، وهذا يعرب عن أن تطور وسائل المواصلات صار سبباً لتزايد عدد الوافدين إلى البيت الحرام.

وعلى ضوء ذلك، فإنّ عدد الحجاج سوف يشهد تزايداً ملحوظاً في المستقبل.

هذا من جانب ومن جانب آخر المشهور عند فقهاء الشيعة هو انّ المطاف عبارة عمّا بين البيت والمقام، وهو لا يزيد على ١٢ متراً أو ٢٦ ذراعاً ونصف ذراع. ومن المعلوم أنّ طواف هذا العدد الهائل من الحجاج في هذه المسافة الضيقة يوجب ازدحاماً وحرجاً كثيراً في أشهر الحج خصوصاً في الشهر الأخير.

وأشكل من ذلك تحديد المطاف خلف جدار حجر إسماعيل بثلاثة أمتار.

ومن المعلوم أنّ هذا التضييق يوجب العسر والحرج والزحام للشيعة الإمامية.

وهذا ما يلمسه كلّ من يحج في هذه السنوات ويعاني من هذه المشكلة.

وأمّا أهل السنّة فهم في يسر حيث جعلوا ساحة المسجد كلّها مطافاً للحاج حتى تحت الأروقة والسقائف بل قالوا لو وسع المسجد إلى الحل لكان الجميع مطافاً، كما سيوافيك.

ولذلك نطرح هاتين المسألتين على صعيد التحقيق.

المسألة الأُولى

في تحديد المطاف في الجوانب الثلاثة

ذهب أكثر فقهاء الشيعة إلى أنّ المطاف هو المسافة الفاصلة بين البيت والمقام الموجود حالياً ونص بذلك جلّ فقهائهم، وستوافيك كلماتهم.

وهناك قولان آخران:

١. جواز الطواف خارج المقام اختياراً على كراهة، وهو خيرة الصدوق والمحقّق الأردبيلي على وجه.

٢. جواز إدخال المقام في الطواف في حالة الضرورة، وهو خيرة ابن الجنيد والعلاّمة في «التذكرة»، فعلينا دراسة أدلة الأقوال بعد ذكر نصوص من أقوال الفقهاء.

القول الأوّل: المطاف هو الحدّ الفاصل بين الحدّين

تقدّم انّ المشهور بين فقهائنا انّ المطاف هو الحدّ الفاصل بين البيت والمقام، وتجد النص على ذلك في أغلب الكتب الفقهية، وإليك منها ما يلي:

١. قال الشيخ في «الخلاف»: إذا تباعد من البيت حتى يطوف بالسقاية وزمزم لم يجزه به. وقال الشافعي: يجزيه.[1]

---

١. الخلاف:٢/ ٣٢٤، المسألة ١٣٣.

٢. وقال في «المبسوط»: وينبغي أن يكون طوافه فيما بين المقام والبيت ولا يجوزه، فإن جاز المقام وتباعد عنه لم يصحّ طوافه.[١]

٣. وقال في «النهاية»: وينبغي أن يكون الطواف بالبيت فيما بين المقام والبيت ولا يجوزه، فإن جاز المقام أو تباعد عنه لم يكن طوافه شيئاً.[٢]

وذيل العبارة في الكتابين يدلّ على أنّ مراده من قوله:«ينبغي» هو الوجوب.

٤. وقال ابن البراج : ويجب أن يكون طوافه بين المقام والبيت.[٣]

٥. وقال ابن زهرة: والواجب في الطواف النية ـ إلى أن قال: ـ وان يكون، بين البيت والمقام فمن ترك شيئاً من ذلك لم يجزه الطواف.[٤]

٦. وقال ابن إدريس: ينبغي أن يكون الطواف بالبيت فيما بين مقام إبراهيم عليه السلام والبيت يُخرج المقام في طوافه، ويدخل الحجر في طوافه، ويجعل الكعبة في شماله، فمتى أخلّ بهذه الكيفية أو نسي منها بطل طوافه.[٥]

٧. قال العلاّمة: يجب عندنا أن يكون الطواف بين البيت والمقام ويدخل الحجر في طوافه، فلو طاف في المسجد خلف المقام لم يصحّ طوافه، لأنّه خرج بالتباعد عن القدر الواجب فلم يكن مجزئاً.

وقال الشافعي: لا بأس بالحائل بين الطائف والبيت كالسقاية والسواري ولا بكونه في آخر باب المسجد وتحت السقف، وعلى الأروقة والسطوح إذا كان البيت أرفع بناءً على ما هو اليوم، فإن جعل سقف المسجد أعلاه لم يجز الطواف

---

١. المبسوط:١/ ٣٥٧.

٢. النهاية:٢٣٧.

٣. المهذب:١/ ٢٣٣.

٤. الغنية:١٧٢.

٥. السرائر:١/ ٥٧٢.

على سطحه... إلى أن قال: ولو اتّسعت خطة المسجد اتّسع المطاف، وقد جعلته العباسية أوسع ممّا كان في عهد النبيﷺ.[١]

٨. وقال في «المنتهى»: ويجب أن يكون [الطواف] بين البيت والمقام.[٢]

٩. وقال في «المدارك»: وأمّا أنّه يعتبر كون الطواف واقعاً بين البيت والمقام بمعنى كونه في المحل الخارج عن جميع البيت والداخل عن جميع المقام، فهو المعروف من مذهب الأصحاب.[٣]

١٠. وقال في «الجواهر»: لا خلاف معتد به أجده في وجوب كون الطواف بينه و بين البيت، بل عن الغنية الإجماع عليه.[٤]

إلى غير ذلك من الكلمات الّتي يقف عليها المتتبع في الكتب، خلافاً للسنّة كما مرّ عن العلاّمة.

نعم المطاف عند فقهاء السنّة أوسع بكثير، كما مرّ عن العلاّمة في التذكرة. و في «الموسوعة الفقهية الكويتية»: مكان الطواف هو حول الكعبة المشرفة داخل المسجد الحرام قريباً من البيت أو بعيداً عنه، فلو طاف من وراء مقام إبراهيمعليه السلام أو من وراء حائل كمنبر أو غيره كالأعمدة أو على سطح المسجد الحرام أجزأه، لأنّه قد حصل حول البيت مادام ضمن المسجد و إن وسع المسجد ومهما توسع ما لم يبلغ الحلّ عند الجمهور، لكن خصّت المالكية الطواف بالسقائف بصورة الزحام.[٥]

---

١. التذكرة:٨/ ٩٣ـ ٩٤.

٢. المنتهى:٢/ ٦٩١، الطبعة الحجرية.

٣. المدارك:٨/ ١٣٠.

٤. الجواهر:١٩/ ٢٩٥.

٥. الموسوعة الفقهية الكويتية:٢٩/ ١٢٧.

والمعروف أنّ المسافة بين «شـاذروان» البيت والمقام هي ستة وعشرون ذراعاً ونصف ذراع، وأمّا حسب المتر فالحدّ الفاصل ١٢ متراً.

وكيف كـان فهذا هـو القـول المعروف بين الأصحـاب والـدليل الوحيـد ـ مضـافاً إلى الشهـرة ــ صحيحـة محمد بن مسلم حسب مـا رواه الكليني، قـال: سألته عن حـدّ الطواف بالبيت الّذي من خـرج منه لم يكن طائفاً بـالبيت؛ قال: «كان الناس على عهد رسول الله ﷺ يطوفون بالبيت والمقام، وأنتم اليوم تطوفون ما بين المقام والبيت، فكان الحدُّ موضعَ المقام اليوم، فمن جازه فليس بطائف، والحدّ قبل اليوم واليـوم واحد قـدر ما بين المقـام وبين نواحي البيت كلّهـا، فمن طاف فتباعد من نواحيـه أبعد من مقدار ذلك كان طائفاً بغير البيـت، بمنزلة من طاف بالمسجد، لأنّه طاف في غير حدّ، ولا طواف له».[١]

والاستدلال بالرواية فرع صحّة السند وإتقان الدلالة.

أمّا الأوّل فـرجال السند كلّهم ثقات سـوى «ياسين الضرير» فإنّـه لم يوثق، بل هـو مهمل من ذلك الجانب، والـرجل إماميٌّ بشهـادة عنـوان النجاشي لـه في رجاله.[٢]

وعنايـة المشايـخ بذكـره وذكر كتابـه، واستحصال السنـد إليه تعـرب عن صلاحية كتابه للاحتجاج. وقد ذكر النجاشي سنده إلى كتابه.

وأمّا اتقان الدلالة، فالدلالة واضحة.

إنّما الإشكـال في بعض المضمـون حيث دلّت على أنّ المقام كـان ملصقـاً بالبيت في عهد رسول الله ﷺ وصار بعده في المكان الّذي هو فيـه اليوم ويؤيده ما

---

١. الوسائل:٩، الباب٢٨ من أبواب الطواف، الحديث١.

٢. رجال النجاشي: برقم١٢٢٧.

نقل عن الطبري: أنّ قريشاً في الجاهلية، كانت قد ألصقته بالبيت خوفاً عليه من السيول، واستمر كذلك في عهد النبي وعهد أبي بكر، فلمّا ولي عمر ردّه إلى موضعه الحالي، الّذي هو مكانه في زمان الخليل عليه السلام.(١)

ولكن فيما ذكره الطبري ملاحظة واضحة، إذ لو كان الأمر كما ذكره الطبري فالنبي أولى بأن يأتي به إلى مكانه اليوم، فلماذا لم ينقله حتّى قام عمر بذلك؟! والمذكور في بعض التواريخ انّ المقام كان موجوداً في محلّه الّذي هو الآن فيه، في عصر النبي وفترة بعد رحيله.

قال أبو الوليد محمد الأزرقي (المتوفّى قريباً من عام ٢٢٢هـ) في كتابه «أخبار مكة وما فيها من الآثار»: حدّثني جدّي قال: حدّثنا عبد الجبار بن الورد، قال: سمعت ابن أبي مليكة يقول: موضع المقام هذا الّذي هو به اليوم هو موضعه في الجاهلية وفي عهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأبي بكر وعمر، إلاّ أنّ السيل ذهب به في خلافة عمر فجعل في وجه الكعبة حتّى قدم عمر فردّه بمحضر الناس.(٢)

وقال أيضاً: ... حتّى جاء سيل في خلافة عمر بن الخطاب يقال له: سيل أُم نهشل، فاحتمل المقام من موضعه هذا فذهب به حتّى وجد بأسفل مكة، فأُتي به فربط إلى أستار الكعبة في وجهها، وكُتب في ذلك إلى عمر، فأقبل عمر فدخل بعُمرة في شهر رمضان وقد غُبي موضعه وعفاه السيل، فدعا عمر بالناس فقال: أنشد الله عبداً عنده علم في هذا المقام، فقال المطلب بن أبي وداعة السهمي: أنا يا أمير المؤمنين عندي ذلك فقد كنت أخشىٰ عليه هذا فأخذت قدره من موضعه إلى الركن ومن موضعه إلى باب الحجر، ومن موضعه إلى زمزم بمقاط، وهو عندي في البيت، فقال له عمر: فاجلس عندي، وأرسل إليها، فأُتي بها فمدّها فوجدها

---

١. الجواهر: ١٩/ ٢٩٦.

٢. أخبار مكة: ٢/ ٣٥.

مستوية إلى موضعه هذا، فسأل الناس وشاورهم، فقالوا: نعم هذا موضعه، فلمّا استثبت ذلك عمر وحقّ عنده أمر به فاعلم ببناء ربضه تحت المقام ثمّ حوله فهو في مكانه هذا إلى اليوم.[١]

وما ذكره الأزرقي هو الأوفق بالقبول، لأنّ المقام هو العمود من الصخر الّذي كان إبراهيمعليه السلام يصعد عليه عند بنائه البيت، فلو كان هذا متّصلاً بالبيت في عصر النبي كان على الزائرين الصلاة وراءه وهي تزاحم طواف الطائفين، والروايات في المورد متعارضة، تحتاج إلى فحص أكيد يوصل إلى رأي حاسم، وعلى أي تقدير، فيجب علينا الطواف بين البيت والمقام الموجود حالياً برواية محمد بن مسلم الماضية، وضعف السند منجبر بعمل المشهور.

قولان آخران في المطاف

قد تقدّم أنّ في تحديد المطاف قولين آخرين، وإليك دراستهما:

الأوّل: جواز الطواف خارج المقام اختياراً على كراهة، وقد اختاره قليل من الفقهاء، منهم:

١. الصدوق في «الفقيه» حيث روى بسند صحيح عن أبان بن عثمان، عن محمد بن علي الحلبي، قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الطواف خلف المقام، قال: «ما أحب ذلك وما أرى به بأساً، فلا تفعله إلاّ أن لا تجد منه بُدّاً»[٢]. بناء على أنّ الصدوق يُفتي بكلّ ما نقله في الفقيه، لما صرّح به في أوّل الكتاب.

فلو قلنا بأنّ قولهعليه السلام: «ما أحب ذلك» ظاهر في الكراهة، وهي تزول مع

---

١. نفس المصدر: ٢/ ٣٣.

٢. الفقيه: ٢/ ٣٩٩، الباب٢١٩، ما جاء في الطواف خلف المقام.

الضرورة، ويكون دليلاً على أنّ الصدوق ممّن يجوِّز الطواف خارج المقام اختياراً وإن كان مكروهاً، وتزول الكراهة في الضرورة.

٢. وقال المحقّق الأردبيلي بعد نقل الرواية المذكورة: فإنّها ظاهرة في الجواز خلف المقام على سبيل الكراهة، وتزول مع الضرورة، ولكن قال في «المنتهى»: وهي تدلّ على ذلك مع الضرورة والزحام وشبهه.

وأنت تعلم انّ دلالتها على ما قلناه(جواز الطواف خلف المقام اختياراً) أظهر إلاّ أن يقال: إنّه لا قائل به فيحمل على ما قاله في «المنتهى» على أنّ «أبان» الظاهر انّه ابن عثمان، وفيه قول فلا يقبل منه ما ينفرد به.[١]

يلاحظ عليه: أنّ أبان بن عثمان من أصحاب الإجماع، وقد اتّفقوا على وثاقة هؤلاء.

فتلخّص ممّا ذكرنا أنّ الصدوق والأردبيلي ـ على وجه ـ ذهبا إلى جواز الطواف خلف المقام اختياراً.

الثاني: اختصاص الجواز بصورة الضرورة والزحام، وعليه ابن الجنيد والعلاّمة في بعض كتبه، وإليك كلماتهم:

١. قال العلاّمة في «التذكرة» بعد ما نقل خبر الفقيه: وهو يعطي الجواز مع الحاجة كالزحام.[٢]

٢. وقال في «المختلف»: المشهور انّه لا يجوز إدخال المقام في الطواف، وقال ابن الجنيد: يطوف الطائف بين البيت والمقام الآن، وقدره من كلّ جانب، فإن اضطر أن يطوف خارج المقام أجزأه.[٣]

---

١. مجمع الفائدة والبرهان:٧/ ٨٧.

٢. التذكرة:٨/ ٩٣.

٣. المختلف:٤/ ١٨٣.

وهذا القول هو الأقوى، و يدلّ عليه مضافاً إلى صحيح الحلبي :

انّه سبحانه يأمر مجموع الحجيج الحاضرين في المسجد بالطواف بقوله: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالبيت العَتيق﴾[1] هذا من جانب.

ومن جانب آخر يقول سبحانه: ﴿وَما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾.[2]

فمقتضى دعوة الحاضرين في المسجد إلى الطواف مع رعاية عدم تسبب الحرج هو كون المطاف في هذه الظروف أوسع من الحدّ المذكور مع ملاحظة الأقرب فالأقرب. بمعنى اتصال الطائف خارج المقام بالطائفين داخل المطاف.

وربما يقال بإيجاب الاستنابة، عند عدم الاستطاعة أو إذا كان حرجيّاً.

يلاحظ عليه: بأنّه إذا كان الابتلاء في مورد واحد صحّ ما احتمل، و إلاّ فلو كان ممّا تبتلي به العامّة، فنفس الاستنابة تكون حرجية، فكيف الطواف نفسه.

---

١. الحج:٢٩.

٢. الحج:٧٨.

المسألة الثانية

حدّ المطاف خلف حجر إسماعيل

هذه هي المسألة الثانية التي ألمعنا إليها.

وإليك توضيحها:

قد تقدم أنّ المطاف هو الحدّ الفاصل بين الكعبة ومقام إبراهيم، وقد حدّد بستة وعشرين ذراعاً ونصف ذراع، وهو يقرب من ١٢ متراً، فعلى الطائف ألاّ يخرج عن هذا الحدّ إلاّ عند الضرورة كما قلنا.

واتّفقوا على أنّ مبدأ هذا الحدّ في الأضلاع الثلاثة هو جدار الكعبة.

وإنّما الكلام في الضلع الذي يتصل به حجر إسماعيل فهل يُحسب الحد الفاصل من جدار الكعبة كما هو المشهور عند أكثر فقهائنا؛ أو يحسب من جدار الحجر إلى نهاية ١٢ متراً، كما عليه لفيف من المتقدمين والمعاصرين؟

فلو قلنا بالاحتمال الأوّل يكون مقدار المسافة للطواف نحو ثلاثة أمتار وهو يسبّب الحرج في أكثر الأوقات، وأكثر ممّا سبق، إذ لازم ذلك أن يكون المطاف في الأضلاع الثلاثة هو ١٢ متراً وفي الضلع المتصل بـ«حجر إسماعيل» ٣ أمتار.

وأمّا لو قلنا بالاحتمال الثاني، فبما أنّ مبدأ المسافة هو خارج الحجر

يكون المطاف نظير سائر الأضلاع، وبذلك يزول الحرج في غالب الأوقات غير أيّام الحجّ.

إنّما الكلام في استظهار أحد القولين من معتبرة محمد بن مسلم الماضية.

أقول: إنّ الرواية في النظرة الأُولى تحتمل أحد معنيين ولا يتعيّن المقصود النهائي إلاّ في الإمعان في الغرض الّذي سيقت له، وإليك الاحتمالين:

١. إنّ الرواية بصدد بيان حدي المسافة، ويكون غرضها مصروفاً إلى بيان المبدأ والمنتهى.

٢. إنّ الرواية بصدد بيان مقدار المسافة الّتي يطوف فيها الطائف بحيث لو خرج عنها في جانب المقام لبطل طوافه. وإنّما ذكر المبدأ ليتيسّر له ذكر المسافة الّتي لو خرج عنها الطائف لبطل طوافه.

فإذا كان المقصود هو الأوّل، لكانت الرواية مؤيدة للقول المشهور، غير أنّ القرائن المتوفرة تشهد بأنّ الغرض هو بيان مقدار المسافة الّتي لا يجوز الخروج عنها، وأمّا المبدأ فهو وإن تعرضت له الرواية بقولها: «قدر ما بين المقام وبين البيت من نواحي البيت كلّها» إلاّ أنّه لم تصبَّ اهتمامها عليه، وإنّما جاء ذكره ليكون مقدّمة لبيان حدّ المسافة الّتي لا يجوز للطائف الخروج عنها، لا لبيان الحدّ حتّى من الجانب الذي يُبدأ منه.

لكن القرائن تشهد بأنّ الغرض هو بيان مقدار المسافة لا بيان مبدأ المسافة، وإليك القرائن:

أ. نفس سؤال الراوي حيث ركّز على الحدّ الّذي لا يجوز الخروج عنه، وقال: سألته عن حدّ الطواف بالبيت الّذي «من خرج عنه» لم يكن طائفاً

بالبيت، فلابدّ أن يكون الجواب ناظراً إلى تلك الجهة أي بيان الحدّ الّذي لا يجوز الخروج عنه، والخروج يتحقّق من جانب المقام، لا من جانب البيت.

ب. انّ الإمام عليه السلام بيّن كيفية طواف الناس أيّام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالبيت والمقام، ثمّ بيّن انقلاب الأمر بعده حتّى صار الناس يطوفون بين البيت والمقام. ثمّ يؤكد بأنّ ذلك لا يؤثر في تغيير الحدّ بقوله: «فكان الحد، موضعَ المقام اليوم فمن جازه فليس بطائف» فهذه التعابير تشير كلّها إلى أنّ المقصود الأصلي في الرواية هو بيان المسافة الّتي يطاف فيها ولا يجوز الخروج عنها، وإنّ نقل المقام في العهود السابقة لا يؤثر في ذلك.

ج. «فالحدّ قبل اليوم واليوم واحد، قدر ما بين المقام وبين البيت» وهو ظاهر في أنّ تغيير مكان المقام لا يؤثر في تحديد المسافة ومقدارها فهي في جميع الظروف واحدة لا تتغير، وإن ذُكر المبدأ(بين البيت) فلأجل أن يتيسّر له بيان حدّ المسافة الّتي لا يجوز الخروج عنه.

ولقد لخّص العلاّمة المجلسي مفاد الحديث بقوله: والحاصل أنّ المعتبر دائماً مقدار، بين الموضع الّذي فيه المقام الآن وبين البيت، سواء أكان المقام فيه أم لم يكن.[1]

وعلى ضوء ما ذكرنا فالرواية تركّز على بيان الحدّ الفاصل الّذي لا يجوز الخروج عنه في عامة الجوانب لا على مبدئه.

إذا عرفت ذلك فنقول: إذا كانت الرواية ظاهرة في تبيين المسافة الّتي يسلكها الطائف، فيجب الأخذ بها في عامة الجوانب.

لكن الأخذ به واضح في الأضلاع الثلاثة، وإنّما الكلام في الأخذ به في

١. ملاذ الأخيار:٧/ ٣٩٣.

الضلع المتصل بحجر إسماعيل، فهو يتحقق بأحد أمرين:

الأوّل: أن يكون الحجر جزءاً من المسافة والمطاف، فيجوز للطائف سلوكه.

الثاني: ألاّ يكون الحجر جزءاً منها بل خارجاً.

وبما أنّ الروايات المتضافرة أبطلت الاحتمال الأوّل يتعيّن الاحتمال الثاني فيكون المبدأ خارج الحجر إلى نهاية اثني عشر متراً.

ثمّ إنّ المشهور وإن ذهب إلى أنّ المبدأ هو البيت في ذلك الضلع الخاص، غير أنّ جماعة من الفقهاء اختاروا ما ذكرناه، وإليك مقتطفات من كلماتهم:

١. قال الشهيد الثاني في «الروضة»: وتحتسب المسافة من جهة الحجر من خارجه وإن جعلناه خارجاً من البيت. [1]

٢. وقال أيضاً في «المسالك»: وتجب مراعاة هذه النسبة من جميع الجهات فلو خرج عنها ولو قليلاً بطل، ومن جهة الحجر تحتسب المسافة من خارجه بأن ينزله منزلة البيت وإن قلنا بخروجه عنه.

ثمّ إنّه ﷺ تردد فيما ذكر وقال: مع احتمال احتسابه(الحجر) منها على القول بخروجه وإن لم يجز سلوكه. [2]

يلاحظ عليه: أنّ المتبادر من الرواية جواز السلوك في المسافة المحدّدة في عامة الجوانب، فلو كان الحجر جزءاً من المسافة جاز السلوك فيه مع تضافر الروايات على المنع.

---

١. الروضة البهية في شرح اللمعة الدمشقية:٢/ ٢٤٩.

٢. مسالك الأفهام:٢/ ٣٣٣.

٣. وقال سبطه في «المدارك»: وقد قطع الأصحاب أنّه يجب مراعاة قدر ما بين البيت والمقام من جميع الجهات، وفي رواية محمد بن مسلم دلالة عليه، وتحتسب المسافة من جهة الحجر من خارجه وإن كان خارجاً من البيت، لوجوب إدخاله في الطواف، فلا يكون محسوباً من المسافة.(١)

٤. وقال المحقّق السبزواري في «الذخيرة»: وقد ذكر جماعة من المتأخّرين أنّه يحتسب المسافة من جهة الحجر من خارجه، ومنهم من قال: وإن كان خارجاً من البيت، ومنهم من علّله بوجوب إدخاله في الطواف فلا يكون محسوباً من المسافة.(٢)

٥. ما نقله المحقّق النراقي عن جماعة من المتأخّرين.(٣)

٦. وقال في «الجواهر»: نعم لا إشكال في احتساب المسافة من جهة الحجر من خارجه، بناءً على أنّه من البيت، بل في «المدارك» وغيرها وإن قلنا بخروجه عنه لوجوب إدخاله في الطواف فلا يكون محسوباً من المسافة.(٤) وإن استشكل في ما ذكره وزعم أنّه خلاف ظاهر الخبر.

ويؤيد ذلك أنّ النبيﷺ طاف في عمرة القضاء مع أصحابه الذين صدّهم المشركون في العام الماضي، فهل يمكن أن يطوف هذا الجمّ الغفير في مسافة قليلة لا تتجاوز عن ثلاثة أمتار؟

قال ابن هشام: ثمّ استلم النبيﷺ الركن وخرج يهرول ويهرول أصحابه معه حتّى إذا واراه البيت منهم واستلم الركن اليماني مشى حتّى يستلم الركن

---

١. مدارك الأحكام:٨/ ١٣١.
٢. ذخيرة المعاد في شرح الإرشاد:٦٢٨.
٣. مستند الشيعة:١٢/ ٧٦.
٤. الجواهر:١٩/ ٢٩٨.

الأسود، ثمّ هرول كذلك ثلاثة أطواف ومشى سائرها.[١]

وقد شارك النبي عام الحديبية حوالي ٧٠٠ رجل، ولما صُدُّوا في ذلك العام، قضوا عمرتهم في السنة القادمة، والظاهر أنّهم شاركوا في القضاء بلا استثناء.

قال ابن إسحاق: خرج معه المسلمون ممّن كان صدّ معه في عمرته تلك، وهي سنة سبع، فلمّا سمع به أهل مكة خرجوا عنها.[٢]

ومن المعلوم أنّ طواف هؤلاء في زمان قليل في تلك المسافة الضيّقة، لا يخلو من حرج ولو كان واجباً لنصّ به النبي الأكرمﷺ، كلّ ذلك يعرب عن أنّ المطاف من جانب الحجر أوسع ويساوي في السعة سائر الجوانب، فتدبّر.

أضف إلى ذلك: ان لو كان المطاف في الضلع المتصل بالحجر، ثلاثة أمتار لأوجب ذلك الزحام الشديد في عامّة الأعصار وانتهى إلى طرح السؤال على النبيﷺ وأئمّة أهل البيتعليهم السلام، مع أنّا لا نرى أي سؤال قد طرح حوله.

---

١. السيرة النبوية: ٢/ ٣٧١، عمرة القضاء.

٢. السيرة النبوية: ٢/ ٣٧٠.

٤

شبهات وإيضاحات

حول أُصول الفقه للشيعة الإمامية

لقد قمنا بـزيارة المملكة المغربية في مستهلّ عـام ١٤٢٥هـ، وتعرّفت على رجال الفكر والثقافة في تلك البلاد من خلال إلقاء المحاضرات في غير واحدة من جامعاتها حول مـواضيع مختلفة. وقد دُوّنت مذكّراتي حول هـذه الرحلة في كتاب سمّي «الرحلـة المغربيـة أو على ساحل جبل طارق» وسيصـدر قريبـاً إن شاء الله تعالى.

وممّا يجب ذكره: إنّي قد ألقيت محاضرة حول تطوّر أُصول الفقه عند الإمامية في جامعة القـرويين في مدينة فاس بتاريخ ٤ محرم الحرام ١٤٢٥هـ وذكرت فيها التطوّر الّذي أحـدثه علماء الإمامية في علم الأُصول عبر القـرون على نحو لا يُرى نظيره في المدارس الأُخرى، وذكـرنا نماذج من تقدم الحركـة الأُصوليـة، وقد أعقب هذه المحـاضرة مناقشـات واستفسارات أجبنـا عنها حسب مـا سمح لنا الـوقت بذلك.

وفي اليوم الأخير من سفرنا والّـذي غادرنا فيه المملكة المغربيـة زرنا صباحاً

مـؤسسـة «دار الحديث الحسنيـة» الّتي يـديـرها الـدكتـور أحمد الخمليشي، وقـد استقبلونـا بحفاوة وتكـريم، وتعرّفنا هنـاك على عدد من الأسـاتذة المحترمين من أصحاب الاختصاصات المتنوّعة، وقد دار الحديث خلال هذه الزيارة في مواضيع عديدة لا يسع المجال لذكرها هنا.

كلّ ذلك كان بفضل ربّنا سبحانـه وتعالى حيث التقينا بشخصيات علمية بارزة، ولمسنا منهم حب المعـرفة والاطّلاع على مذهب الشيعة الإمـاميّة والتقريب بين المسلمين، والاهتمام بـالتبـادل الثقـافي بين الجمهوريـة الإسـلاميـة والمملكـة المغربية.

وقد وقفنا في هـذه الأيام على مقال نشر في مجلة «الـواضحة»، الصادرة من «دار الحديث الحسنيـة» العـدد الثـاني من السنـة الأُولى ١٤٢٥هـ تحت عنـوان «أُصول الفقه عند الشعة الإمامية ـ تقديم وتقويم» بقلم: الدكتور أحمد الريسوني، الأُستاذ في جامعة محمد الخامس في الرباط.

ومن حسن الحظ أنّا قد التقينا بصاحب المقال مرتين:

الأُولى: خلال إلقاء محاضرة في كلية الآداب والعلوم الإسلامية جامعة محمد الخامس، وكان موضوعها: «الفقه الإسلامي وأدواره التاريخية».

الثانية: كانت خـلال الحفل الّذي أُقيم في سفـارة الجمهورية الإسـلامية في المغرب لتكريم ضيفها.

ونشكر الله الّذي هيّأ لنا هذه اللقاءات الأخوية.

وقد قـرأت المقال ووجدت أنّ المواضيع الّتي تخضع للبحث والنقـاش فيه عبارة عمّا يلي:

١. تأخّر الشيعة في تدوين علم الأُصول عن السنّة.

٢. أدلّـة الأحكام عنـد الشيعـة الإماميـة، ومنهـا سنّة الأئمّـة الاثني عشر والإجماع.

٣. الإمامية ترفض الأخذ بالقياس والاستصلاح لأنّها أدلّة ظنية، وفي الوقت نفسه يعملون بالظنّيات كالعمل بأخبار الآحاد.

٤. الإماميـة يقولون بحجّية الـدليل العقلي بينما يرفضون القيـاس وهو من بديهيات العقول وأوّلياتها.

٥. الإماميـة ترفض حجّيـة المصلحة؟! ولكنّهم يأخـذونها بأسماء وأشكال متعدّدة.

هذه هي المحاور الّتي يدور حولها مقال الدكتور الّذي مارس النقد البنّاء، واستعـرض وجهـة نظـره بعبارات مهـذّبـة، ونحن نتنـاول تلك الأُمـور بـالبحث والمناقشة ضمن فصول، خضوعاً لما أفاده في مقدّمة مقاله قائلاً:

على أنّني حين أضع هذا المقال في سياق التقـريب والسعي نحو التفاهم، فإنّي لا أنفي حتمية النقاش الصريح والنقد الحر المتبادل، لأنّ التقريب المنشود لا يمكن أن يبنى على المجاملة أو المحابـاة، ولكنّه بحاجة إلى تحسين الظن، وتهذيب الخطاب، وتحمّل النقد بحثـاً عمّا فيه من حق لقبوله، لا بحثاً ــ فقط ـ عمّا فيه من مداخل لنقضه وتسفيهه.

الأوّل

التقدّم في التأسيس أو التدوين

إنّ واقع العلم المنتشر قائم بأمرين:

١. إلقاء الأفكار الّتي تنقدح في أذهان المؤسّسين إلى تلاميذهم.

٢. تدوين الأفكار من قبل المؤسّسين أو تلاميذهم الذين اقتبسوا من أضوائهم واستلهموا تلك الأفكار.

وليس علم الأُصول شاذّاً عن هذه القاعدة.

إذا كانت الغاية من علم الأُصول هو تعليم الفقيه كيفية إقامة الدليل على الحكم الشرعي واستنطاق الأدلّة الشرعية لاستنباط الحكم الشرعي في الحقول المختلفة، فإنّ أئمّة أهل البيت عليهم السلام ـ لا سيّما الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام ـ هم السابقون في هذا الميدان، فقد أملوا على أصحابهم قواعد كلّيّة تتضمّن قواعد أُصولية تارة وقواعد فقهية تارة أُخرى، فربّوا جيلاً كبيراً من الفقهاء في مجال الاجتهاد والاستنباط حفلت معاجم الرجال والتراجم بأسمائهم وآثارهم.

فمن سبرَ ما وصل إلينا من آثار الفقهاء في القرن الثاني والثالث ممّن تربّوا في أحضان أهل البيت عليهم السلام، يقف على مدى رقيّهم في سلم الاجتهاد، فمن باب المثال انظر إلى ما بقي إلى هذا الوقت من اجتهادات تلاميذ الإمامين

الصادقين عليهما السلام ، نظير:

١ . زرارة بن أعين (المتوفّى عام ١٥٠هـ) الّذي يقول في حقّه ابن النديم: زرارة أكبر رجال الشيعة فقهاً وحديثاً.

٢ . محمد بن مسلم الثقفي (المتوفّى عام ١٥٠هـ).

٣. يونس بن عبد الرحمن (المتوفّى عام ٢٠٨هـ).

٤ . الفضل بن شاذان(المتوفّى عام ٢٦٠هـ)، مؤلف كتاب «الإيضاح» المطبوع.

إلى غيرهم من الفقهاء البارزين، الذين تركوا تراثاً فقهياً مستنبطاً من قواعد أُصولية وفقهية على نحو يبهر العقول، وقد ذكرنا شيئاً من فتاواهم واجتهاداتهم في كتابنا(تاريخ الفقه الإسلامي وأدواره، ج١، ص ١٩٥ـ ٢٠٢).

وقد كانت اجتهاداتهم واستنباطاتهم على ضوء قواعد تلقّوها عن أئمّتهم عليهم السلام واستضاءوا بنور علومهم. وقد جاءت هذه القواعد مبثوثة ضمن أحاديث موجودة في جوامعنا الحديثية.

وقد قام جماعة من المحدّثين بفصل هذه الروايات وجمعها في مكان واحد، نذكر منهم:

١ . العلاّمة المجلسي (١٠٣٧ـ ١١١٠هـ) الذي جمعها ضمن موسوعته الكبيرة «بحار الأنوار»، في كتاب العقل و العلم.[1]

٢ . الشيخ الحرّ العاملي (المتوفّى ١١٠٤هـ) الذي ألّف كتاباً مستقلاً في هذا المضمار أسماه «الفصول المهمة في أُصول الأئمّة» وقد اشتمل على ٨٦ باباً أودع فيها الأحاديث الّتي تتضمّن قواعد أُصولية وفقهية ممّا يبتنى عليها الاستنباط.

---

١ . بحارالأنوار:٢/ ٢٦٦ـ٢٨٣.

٣. المحدث الخبير السيد عبدالله شبّر (المتوفّى ١٢٤٢هـ) الذي صنّف كتاباً أسماه «الأُصول الأصلية والقواعد الشرعية» يحتوي على مائة باب، وقد طبع الكتاب في ٣٤٠صفحة.

٤. العلاّمة الفقيه السيد محمد هاشم الخوانساري الاصفهاني (المتوفّى ١٣١٨هـ) الّذي خاض بحار الأحاديث وصرف برهة من عمره في جمع هذا النوع من الروايات المروية عن أهل البيت عليهم السلام (والّتي تتضمن الأُصول والقواعد الّتي يبتني عليها الاستنباط) في كتاب سماه «أُصول آل الرسول» وأورد فيه خمسة آلاف حديث من هذا النوع، ولو أسقطنا المتكرر منها لكان في الباقي غنى وكفاية، وهذا يشهد على تقدّم أئمّة أهل البيت عليهم السلام في تأسيس الفكرة وهداية الأُمّة إلى تلك القواعد والأُصول.

هذا وإنّ كثيراً من أئمة الفقه كانوا سبّاقين في التأسيس لا في التدوين، وإنّما قام بالتدوين تلاميذ منهجهم. ومن المعلوم أنّ الفضل للمؤسّس لا للمدوّن.

هذا الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت(٨٠ـ ١٥٠هـ) أحد أئمّة المذاهب الأربعة، ومؤسّس الفقه الحنفي قد أسّس مدرسة فقهية توسّعت على يد تلاميذه، وأخصّ بالذكر منهم: تلميذه المعروف محمد بن الحسن الشيباني(١٣١ـ ١٨٩هـ)، وتلميذه الآخر القاضي أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصاري (١١٣ـ ١٨٢هـ) وهذان الفقيهان اتّصلا بأبي حنيفة وانقطعا إليه وتفقّها على يديه وبهما انتشر المذهب، والفضل للمؤسّس لا للمدوّن.

وهذا أحمد بن محمد بن حنبل (١٦٤ـ ٢٤١هـ) الحافظ الكبير الذي لم يصنّف كتاباً في الفقه يُعدّ أصلاً ومرجعاً، وإنّما جمع أُصوله تلميذ تلميذه

«الخلال» من الفتاوى المتشتّتة الموجودة بين أيدي الناس وجاء من جاء بعده فاستثمرها وبلورها حتّى صارت مذهباً من المذاهب.

يقول الشيخ أبو زهرة: إنّ أحمد لم يصنّف كتاباً في الفقه يُعدّ أصلاً يؤخذ منه مذهبه ويُعدّ مرجعه ولم يكتب إلاّ الحديث.[1]

ومع هذا فقد صقل تلاميذه مذهبه وألّفوا موسوعة فقهية كبيرة، كالمغني لابن قدامة....

وأمّا مسألة التدوين فهي وإن كانت أمراً مهماً قابلاً للتقدير لكن لا نخوض فيها، على الرغم من وجود تآليف في أُصول الفقه للشيعة الإمامية يعود تاريخها إلى نهاية القرن الثاني وأوائل القرن الثالث الهجري.

ومن سبر تاريخ الحديث والفقه ودور الأئمّة الاثني عشر وخاصّة الباقر والصادق عليهما السلام في حفظ سنّة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وتوعية الناس، يقف على أنّ حضور مجالسهم كان واسعاً جداً، فكان يحضر فيها فئات مختلفة من طوائف المسلمين، وكانت خطاباتهم موجهة إلى عامّة الحاضرين... فإنّ الفوارق الّتي نشاهدها اليوم بين السنّة والشيعة لم تكن في عصر الإمامين عليهما السلام على حد تصد غير شيعتهم عن الاختلاف إلى مجالسهم ومحاضراتهم، فقد كان يشهد حلقات دروسهم فريق من التابعين وتابعي التابعين، من غير فرق بين من يعتقد بإمامتهم وقيادتهم أو من يرى أنّهم مراجع للعقائد والأحكام.

هذا هو التاريخ يحكي عن أنّ حلقة درس الإمام الصادق كانت تضم عدداً كبيراً من رجال العلم، وها نحن نذكر فيما يلي أسماء البارزين منهم:

١. النعمان بن ثابت (المتوفّى ١٥٠هـ) صاحب المذهب الفقهي المعروف.

---

١. ابن حنبل حياته وعصره لأبي زهرة:١٦٨.

يقول محمود شكري الآلوسي في كتابه«مختصر التحفة الاثني عشرية»: هذا أبو حنيفة وهو من بين أهل السنّة كان يفتخر ويقول بأفصح لسان: لولا السنتان لهلك النعمان، يريد السنتين اللتين صحب فيهما ـ لأخذ العلم ـ الإمام جعفر الصادق عليه السلام.[١]

يقول أبو زهرة: وأبو حنيفة كان يروي عن الصادق كثيراً، واقرأ كتاب الآثار لأبي يوسف، والآثار لمحمد بن الحسن الشيباني فإنّك واجد فيهما رواية عن جعفر بن محمد في مواضع ليست قليلة.[٢]

٢. مالك بن أنس (المتوفّى ١٧٩هـ) وكانت له صلة تامّة بالإمام الصادق عليه السلام، وروى الحديث عنه، واشتهر قوله: ما رأت عين أفضل من جعفر بن محمد.

٣. سفيان الثوري(المتوفّى ١٦١هـ) من رؤساء المذهب وحملة الحديث وكان له اختصاص بالإمام الصادق، وقد روى عنه الحديث، كما روى كثيراً من آدابه وأخلاقه ومواعظه.

٤. سفيان بن عيينة(المتوفى١٩٨هـ) و هو من رؤساء المذاهب البائدة.

٥. شعبة بن الحجاج(المتوفّى ١٦٠هـ)، خرّج له أصحاب الصحاح والسنن.

٦. فضيل بن عياض(المتوفّى ١٨٧هـ)، أحد أئمّة الهدى والسنّة. خرّج له البخاري.

٧. حاتم بن إسماعيل(المتوفّى ١٨٠هـ) خرج له البخاري ومسلم، أخذ عن

---

١. مختصر التحفة: ص ٨، طبع عام ١٣٠١هـ.

٢. الإمام الصادق:٣٨.

الصادقعليه السلام وأخذ عنه خلق كثير.

٨. حفص بن غياث(المتوفّى ١٩٤هـ) روى عن الصادقعليه السلام وروى عنه أحمد وغيره.

٩. إبراهيم بن محمد أبو إسحاق المدني (المتوفّى ١٩١هـ) روى عن الصادق.

١٠. عبد الملك بن جريج القرشي (المتوفّى ١٤٩هـ).

هذه عشرة كاملة ومن أراد أن يقف على حملة علمه وتلامذة منهجه من السنّة، فعليه بكتاب «الإمام الصادق والمذاهب الأربعة» لأسد حيدر، ج١، ص ٤٠٠ـ٤٢١.

هذه نبذة ممّن استناروا بنور الصادقعليه السلام الوهّاج، وانتهلوا من نميره العذب، وتلقّوا عنه الفقه والحديث كما تلقّاهما عنه غيرهم من شيعته.

الثاني

أدلّة الأحكام عند الإمامية

اتّفقت الشيعة الإمامية على أنّ منابع الفقه ومصادره لا تتجاوز الأربعة، وهي:

١. الكتاب.

٢. السنّة.

٣. الإجماع.

٤. العقل.

وما سواها إمّا ليست من مصادر التشريع، أو ترجع إليها.

هذا هو فقيه القرن السادس محمد بن إدريس الحلّي (٥٤٣ـ٥٩٨هـ) يذكر الأدلّة الأربعة في ديباجة كتابه (السرائر) ويُحدّد موضع كلّ منها، ويقول: فإنّ الحقّ لا يعدو أربع طرق: إمّا كتاب الله سبحانه، أو سنّة رسولهﷺ المتواترة المتّفق عليها[1]، أو الإجماع، أو دليل العقل؛ فإذا فقدت الثلاثة فالمعتمد في المسائل

---

١. اشتراط التواتر نظرية خاصّة لقليل من علماء الإمامية، فالجمهور منهم يعملون بخبر العدل أيضاً.

الشرعية عند المحقّقين الباحثين عن مأخذ الشريعة، التمسّك بدليل العقل فيها، فإنّها مبقاة عليه وموكولة إليه، فمن هذا الطريق يوصل إلى العلم بجميع الأحكام الشرعية في جميع مسائل أهل الفقه، فيجب الاعتماد عليها والتمسّك بها.[1]

تقسيم الأدلّة إلى اجتهادية وأُصول عملية

تقسيم الأدلّة إلى اجتهادية وأُصول عملية من خصائص الفقه الشيعي، وأمّا الفرق بينهما فهو ما يلي:

إذا كان الملاك في اعتبار شيء حجّة على الحكم الشرعي هو كونه أمارة للواقع وطريقاً إليه عند المعتبر فهو دليل اجتهادي كالأدلّة الأربعة. فإنّ الملاك في حجّيتها هو ما ذكرنا، فإنّ كلاً من الكتاب والسنّة حتّى الخبر الواحد منها طريق إلى الواقع وكاشف عنه إمّا كشفاً تاماً كما إذا أفاد القطع، أو كشفاً غير تام كما في خبر العدل، وعلى كلّ تقدير فالملاك لاعتباره حجّة هو كاشفيته عن الواقع.

وأمّا إذا كان الملاك بيان الوظيفة ووضع حلول عملية للمكلّفين عند قصور يد المجتهد عن الواقع فهو أصل عملي، فالملاك لاعتبار هذا القسم من الأدلّة هو رفع التحيّر وإراءة الوظيفة عند اليأس عن العثور على دليل موصل للواقع، ولذلك أُخذ في لسان حجّيتها الجهل بالواقع وعدم توفر طريق في متناوله. وهذه الأُصول العامّة الّتي تجري في عامّة أبواب الفقه لا تتجاوز الأربعة، وهي:

١. أصالة البراءة.

٢. أصالة الاشتغال.

٣. أصالة التخيير.

---

١. السرائر: ١/ ٤٦.

٤. أصالة الاستصحاب.

ولكلّ منها مجرى خاص:

أمّا الأُولى: فمجراها هو الشكّ في التكليف، فإذا كان المجتهد شاكّاً في أصل الوجوب أو الحرمة، وتفحّص عن مظانّ الأدلّة ولم يقف على دليل وحجّة على الحكم الشرعي، فوظيفته الحكم بالبراءة عن التكليف، كما إذا شكّ مثلاً في وجوب الدعاء عند رؤية الهلال مثلاً أو ما أشبهه ذلك، والأصل له رصيد قطعي وهو:

أ. قول الرسولﷺ: رفع عن أُمّتي تسعة... وما لا يعلمون.

ب. حكم العقل بقبح عقاب الحكيم دون بيان واصل.

وأمّا الثانية: فمجراها فيما إذا علم بالحكم الشرعي، ولكن تردّد الواجب أو الحرام بين أمرين، فيجب عليه الجمع بين الاحتمالين بالإتيان بهما عند تردّد الواجب، والاجتناب عنهما عند تردّد الحرام.

مثلاً إذا علم بفوت صلاة مردّدة بين المغرب والعشاء يجب عليه الجمع بينهما، أو إذا علم نجاسة أحد الإنائين من غير تعيين يجب الاجتناب عن كليهما.

وأمّا الثالثة: فمجراها ما إذا دار حكم الشيء بين الوجوب والحرمة ولم يقف على دليل شرعي يوصله إلى الواقع، فالوظيفة العملية هي التخيير.

وأمّا الرابعة: فمجراها ما إذا علم بوجوب شيء أو بطهارته لكن شك في بقاء الحكم أو بقاء الموضوع وتفحّص ولم يقف على بقائه أو زواله، فالمرجع هو الأخذ بالحالة السابقة أخذاً بقول الإمام الصادقعليه السلام «لا يُنقض اليقين بالشك».

هذه هي الأُصول العملية الأربعة الّتي استنبطها المجتهدون من الكتاب والسنّة، ولا يرجع إليها إلاّ عند فقد النص على الحكم الشرعي، ولكلّ مجرى

خاصّ وليس الملاك في اعتبارها كونها كاشفة عن الواقع، بل كونها مرجعاً للوظيفة الفعلية.

تقسيم الأُصول إلى محرزة وغير محرزة

إنّ الأُصول العملية تنقسم إلى: أُصول محرزة، وأُصول غير محرزة. والمراد من الإحراز، هو إحراز الواقع والكشف عنه، وذلك لأنّ بعض الأُصول فيه جهة كشف عن الواقع، كشفاً ضعيفاً، لكن العقلاء لا يعتبرون في معاملاتهم وسياساتهم كونه حجّة لهذه الجهة، بل الملاك لاعتباره هو تسهيل الأمر في الحياة ووضع حلول عملية في ظرف الجهل والشكّ، كما أنّ الشارع الّذي أمضاه واعتبره حجّة في الفقه، لم يعتبره لهذه الغاية حتّى يكون أمارة عقلائية كخبر الثقة.

ومثّلوا لذلك بالأُصول العملية الثلاثة:

١. الاستصحاب.

٢. قاعدة اليد.

٣. قاعدة التجاوز.

فالأوّل منها أصل عام يجري في عامّة أبواب الفقه، بخلاف الأخيرين فإنّهما خاصان ببعض الأبواب.

وما سوى ذلك أصل غير محرز كأصالة البراءة والاشتغال والتخيير.

هذه هي أدلّة الأحكام عند الشيعة الإمامية، فهلمّ معي ندرس ما ذكره الأُستاذ حول أدلّة الأحكام عند الشيعة لنرى فيه مواقع الخطأ والالتباس على ضوء الدراسة الصحيحة لأُصول الفقه عند الإمامية.

١. مسلك الشيعة مسلك الغزالي

يقول الأُستاذ: جعلت الشيعة أدلّة الأحكام المعتمدة أربعة: الكتاب والسنّة والإجماع والعقل، ثمّ قال: ولا يخفى على الدارس أنّ هذا هو مسلك الإمام الغزالي في باب الأدلّة.[1]

يلاحظ عليه: لا نظن أنّ الأُستاذ يتّهم الشيعة بمتابعة الغزالي في حجّية الكتاب والسنّة، فإنّ المسلمين قاطبة يقولون بذلك. وإنّما مظنّة التهمة قولهم بحجّية العقل.

فنقول: هناك فرق واضح بين المسلكين: الإمامي والغزّالي، فإنّ الأوّل يعتمد على التحسين والتقبيح العقليين، والغزالي تبعاً لإمام مذهبه يرفض ذلك ويقول: إنّ الله عزّ وجلّ إيلام الخلق وتعذيبهم من غير جرم سابق، لأنّه متصرّف في ملكه....[2]

والعقل الّذي هو مصدر التشريع عند الإمامية أو كاشف عن التشريع الإلهي ـ على الأصح ـ هو العقل المعتمد على حكمين ينبعان من صميم العقل وهما:

١. التحسين والتقبيح العقليان.

٢. الملازمات العقلية.

وأين الغزّالي ومنهاج أُستاذه عن القول بهما؟!

وتضافرت الروايات عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام على حجّية العقل قبل أن يولد الغزالي بقرون، قال الإمام الصادق عليه السلام: «حجّة الله على العباد النبي، والحجّة فيما

---

١. الصفحة٨٦: مجلة الواضحة.

٢. قواعد العقائد: ٦٠ و ٢٠٤.

بين العباد و بين الله، العقل». (١)

وقال الإمام موسى بن جعفر عليه السلام (المتوفّى ١٨٣هـ) مخاطباً هشام بن الحكم: «يا هشام إنّ لله على الناس حجتين: حجّة ظاهرة، وحجّة باطنة؛ فأمّا الظاهرة فالرسل والأنبياء والأئمّة، وأمّا الباطنة فالعقول». (٢)

إنّ أئمّة أهل البيت عليهم السلام أعطوا للعقل أهمية كبيرة، فهذا هو الإمام الباقر عليه السلام يقول: «إنّ الله لمّا خلق العقل استنطقه ـ إلى أن قال: ـ و عزّتي وجلالي ما خلقت خلقاً هو أحبّ إليّ منك، ولا أكملتك إلاّ في مَن أُحب، أما إنّي إيّاك آمر و إيّاك أنهى، و إيّاك أُعاقب و إيّاك أُثيب». (٣)

فكان المترقب من الأُستاذ المحترم أن لا يقضي في الموضوع إلاّ بعد الإحاطة بأُصول الشيعة الإماميّة.

٢. تقييم تعريفه للأدلّة الاجتهادية والأُصول العملية

قد تعرّفت على ما هو الفرق بين الأدلّة الاجتهادية والأُصول العملية، وعلى تقسيم الأُصول إلى أصل محرز وغير محرز.

وللأُستاذ كلام في هذا الصدد نأتي به:

أ. الأدلة الأربعة المعتمدة المشار إليها آنفاً تسمّى الأدلّة المحرزة ـ الكتاب، السنّة، العقل ، والإجماع ـ و يقابلها الأُصول باعتبارها تعطي حلولاً عملية للمكلّفين حين يتعذر عليهم إحراز الحكم الشرعي من دليله.

---

١. الكليني: الكافي: ١/ ٢٥، كتاب العقل والجهل، الحديث٢٢.

٢. الكافي:١/ ١٦، كتاب العقل والجهل، الحديث١٢.

٣. الكافي:١/ ١٠، كتاب العقل والجهل، الحديث١.

يلاحظ عليه: أنّه أصاب في التفريق بين الأدلّة الأربعة والأُصول العملية إلاّ أنّ وصفَ الأدلّة الأربعة بالأدلّة المحرزة، خلاف المصطلح وإنّما يوصف بها بعض الأُصول، فمنها أصل محرز ومنها غير محرز. كما تقدّم في كلامنا، وإنّما توصف الأدلّة الأربعة، بالأدلّة الاجتهادية.

ب. ويدخل ضمن هذه الأُصول العملية جملة قواعد: أهمها قاعدة الاحتياط، انطلاقاً من أنّ الأصل هو شغل الذمّة بالتكليف وانّ لله في كلّ نازلة حكماً يتعيّن الالتزام به، وقاعدة البراءة الأصلية، انطلاقاً من أنّ الأصل براءة الذمّة من التكليف، وقاعدة الاستصحاب الّتي تقضي بإبقاء ما كان على ما كان انطلاقاً من أنّ اليقين لا يرتفع بالشكّ.[1]

يلاحظ عليه: أنّ قاعدة الاحتياط تنطلق من العلم القطعي بنفس التكليف في الواقعة بلا تردد فيه، والجهل بالموضوع، كما إذا علم بفوت إحدى الصلاتين المغرب أو العشاء، فيجب عليه قضاؤهما،وما ذكره من المنطلق يعني أنّ «الأصل هو شغل الذمّة بالتكليف» لا صلة له بقاعدة الاحتياط، بل أساسه هو العلم بالتكليف والجهل بالمتعلّق.

والعجب انّه عندما يفسّر قاعدة الاحتياط عند الإمامية، يقول: الأصل شغل الذمّة بالتكليف.

وعندما يفسّر قاعدة البراءة عندهم يقول: الأصل براءة الذمّة من التكليف، وهذا تناقض واضح، فلو كان الأصل هو الاشتغال فما معنى كون الأصل هو البراءة؟!

---

١. مجلة الواضحة: ٨٧ بتلخيص.

وهذا يكشف عن أنّ الأُستاذ لم يكن ملمّاً بأُصول الفقه عند الإمامية حيث ارتكب في بيانها التناقض.

كما أنّ ما ذكره: «أنّ لله في كلّ نازلـة حكماً يتعيّن الالتزام به» وجعله منطلقاً للاحتياط عجيب جداً، لأنّ العلم بـأنّ لله في كلّ نازلة حكماً لا يسبب الاحتياط، إذ من المحتمل أن يكـون حكم الله في المورد هـو الإبـاحـة أو الكـراهـة، أو الاستحباب.

الثالث

هل هناك سنّة وراء سنّة النبي صلى الله عليه وآله ؟

السنّة هي المصدر الثاني للعقيدة والشريعة، سواء أكانت منقولة باللفظ والمعنى، أو كانت منقولة بالمعنى فقط، إذا كان الناقل ضابطاً في النقل.

وقد خصّ الله بها المسلمين دون سائر الأُمم، إذ إنّهم اهتموا بنقل ما أُثر عن النبي صلى الله عليه وآله من قول وفعل وتقرير، وبذلك صارت السنّة من مصادر التشريع الإسلامي:

وقد أكد أئمّة أهل البيت عليهم السلام على أنّ السنّة الشريفة هي المصدر الرئيسي بعد الكتاب، وأنّ جميع ما يحتاج الناس إليه قد بيّنه سبحانه في الذكر الحكيم أو ورد في سنّة نبيّه صلى الله عليه وآله.

قال الإمام الباقر عليه السلام: «إنّ الله تبارك وتعالى لم يدع شيئاً تحتاج إليه الأُمّة إلاّ أنزله في كتابه وبيّنه لرسوله، وجعل لكلّ شيء حدّاً، وجعل عليه دليلاً يدلّ عليه، وجعل على من تعدّى ذلك الحدّ حدّاً».[1]

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «ما من شيء إلاّ وفيه كتاب أو سنّة».[2]

١و٢. الكافي: ١/ ٥٩، باب الرد إلى الكتاب والسنّة، الحديث ٢، ٤.

وروى سماعة عن الإمام أبي الحسن موسى الكاظم عليه السلام، قال: قلت له: أكل شيء في كتاب الله وسنّة نبيه، أو تقولون فيه؟

قال: «بل كلّ شيء في كتاب الله وسنّة نبيّه».[١]

روى أُسامة، قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام وعنده رجل من المغيرية[٢]، فسأله عن شيء من السنن؟ فقال: «ما من شيء يحتاج إليه ولد آدم إلاّ وقد خرجت فيه سنّة من الله ومن رسوله، ولولا ذلك، ما احتجّ علينا بما احتج؟»

فقال المغيري: وبما احتج؟

فقال أبو عبد الله عليه السلام: «قوله: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً**﴾[٣] فلو لم يكمل سنّته وفرائضه وما يحتاج إليه الناس، ما احتجّ به».[٤]

روى أبو حمزة، عن أبي جعفر، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله في خطبته في حجّة الوداع: «أيّها الناس اتّقوا الله ما من شيء يقرّبكم من الجنّة ويباعدكم من النار إلاّ وقد نهيتكم عنه وأمرتكم به».[٥]

إلى غير ذلك من النصوص المتضافرة عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام من التأكيد على السنّة والركون إليها.

---

١. الكافي:١/ ٦٢، باب الرد إلى الكتاب والسنّة، الحديث١٠.

٢. هم أصحاب المغيرة بن سعيد، الذي تبرّأ منه الإمام الصادق عليه السلام.

٣. المائدة:٣.

٤. البحار: ٢/ ١٦٨، ح٣.

٥. البحار: ٢/ ١٧١، ح١١.

أئمّة أهل البيت عليهم السلام حفظة سنن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم

كان النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم يقوم بأُمور ومهام لها صلة بالجوانب المعنوية ـ بالإضافة إلى إدارة دفّة الحكم ـ وهي:

١. تبيين الأحكام الشرعية والإجابة عن الحوادث المستجدَّة الّتي لم يُبيّن حكمها في الكتاب ولا في السنّة الصادرة إلى يومها.

٢. تفسير القرآن الكريم وتبين مجملاته وتقييد مطلقاته وتخصيص عموماته.

٣. الردّ على الشبهات والتشكيكات الّتي يطلقها أعداء الإسلام من اليهود والنصارى بعد الهجرة.

ومن المعلوم أنّ من يقوم بهذه المسؤوليات، سوف يُورث فقده فراغاً هائلاً في نفس هذه المجالات، ومن الخطأ أن نتّهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم ـ والعياذ بالله ـ بأنّه قد ارتحل من دون أن يفكّر في ملءِ تلك الثغرات المعنوية الحاصلة برحيله....

فإذا رجعنا إلى أحاديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم نقف على أنّه قد سدّ هذه الثغرات باستخلاف مَنْ جعلهم قرناء الكتاب وأعداله، وأناط هداية الأُمّة بالتمسّك بهما، ونذكر نماذج من كلماته صلى الله عليه وآله وسلم في هذا المجال:

١. روى ابن الأثير الجزري في «جامع الأُصول» عن جابر بن عبدالله، قال:

رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حجّة الوداع يوم عرفة وهو على ناقته القصواء يخطب، فسمعته يقول: «إنّي تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا: كتاب الله وعترتي أهل بيتي».[1]

---

١. جامع الأُصول: ١/ ٤٢٤.

٢. وأخرج مسلم في صحيحه عن زيد بن أرقم، قال:

قام رسول اللهﷺ يوماً فينا خطيباً بماء يُدعى خماً بين مكة والمدينة، وحمد الله وأثنى عليه ووعظ وذكر، ثمّ قال:

أمّا بعد: ألا أيّها الناس فإنّما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربّي فأُجيب، وأنا تارك فيكم ثقلين: أوّلهما: كتاب الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به. فحثّ على كتاب الله ورغب فيه.

ثمّ قال: وأهل بيتي أذكّركم الله في أهل بيتي، أذكّركم الله في أهل بيتي، أذكّركم الله في أهل بيتي.(١)

٣. أخرج الترمذي في صحيحه عن جابر بن عبدالله الأنصاري، قال: رأيت رسول اللهﷺ في حجّة يوم عرفة على ناقته القصواء يخطب فسمعته، يقول: يا أيّها الناس إنّي قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلّوا: كتاب الله وعترتي.(٢)

٤. أخرج الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول اللهﷺ: إنّي تارك فيكم الثقلين أحدهما أكبر من الآخر: كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، وانّهما لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض.(٣)

وهذا الحديث المعروف بحديث الثقلين رواه عن النبي أكثر من ثلاثين صحابياً، ودوّنه ما يربو على ثلاثمائة عالم في كتبهم في مختلف العلوم والفنون، وفي جميع الأعصار والقرون، فهو حديث صحيح متواتر بين المسلمين، وقد عيّن النبيﷺ ببركة هذا الحديث من يسدّ هذه الثغرات ويكون

---

١. صحيح مسلم:٢/ ٣٢٥.

٢. سنن الترمذي:٥/ ٦٦٢، باب مناقب أهل بيت النبيﷺ.

٣. مسند أحمد:٣/ ١٤.

المرجع العلمي بعد رحيله وليس هو إلاّ أهل بيته.

وبهذا يتبين أنّ العترةعليهم السلام عيبة علم الرسول وخزنة سننه وحفظة كَلِمه، تعلموها بعناية من الله تبارك وتعالى كما تعلّم صاحب موسى بفضل من الله دون أن يدرس عند أحد، ولذلك تمنّىٰ موسىعليه السلام أن يعلّمه ممّا عُلّم.

قال سبحانه حاكياً عن لسان نبيه موسى: ﴿**قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً**﴾.[1]

وعلى ضوء ذلك فليس لأئمّة أهل البيتعليهم السلام سنّة ولا تشريع، وما أثر عنهم من قول وفعل أو تقرير، فإنّما يعتبر لكونهم حفظة سنن النبيصلى الله عليه وآله وسلم، فلا يصدرون ولا يحكمونَ إلاّ بسنّته.

فلو قيل: إنّ قول الإمامعليه السلام أو فعله أو تقريره سنّة إنّما يراد به أنّهم تراجم سنّة النبيّصلى الله عليه وآله وسلم وأقواله وأفعاله.

فما قاله العلاّمة الشيخ المظفرقدس سره من أنّ المعصوم من آل البيتعليهم السلام يجري قوله مجرى قول النبيصلى الله عليه وآله وسلم من كونه حجة على العباد، إنّما يريد ذلك وما أحسن قوله: «يجري مجرى قول النبيصلى الله عليه وآله وسلم»، فلو كان أئمة أهل البيتعليهم السلام هم أصحاب سنن في عرض سنّة النبيصلى الله عليه وآله وسلم فلماذا قال«يجري قولهم مجرى قول النبيصلى الله عليه وآله وسلم»؟!

هذه عقيدة الإمامية من أوّلهم إلى آخرهم؛ فالتشريع لله سبحانه فقط، والنبيّ الأكرمصلى الله عليه وآله وسلم هو المبلّغ عن الله سبحانه في ما شرّعه، وأئمّة أهل البيت خلفاء رسول الله وحفظة سننه وتراجم كلمه، والمبلّغون عنه السنن حتى يجسّدوا إكمال الدين في مجالي العقيدة والشريعة.

---

١. الكهف:٦٦.

وحين قال سبحانه: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾[١] فإنّما هو لأجل نصب علي عليه السلام أوّل أئمّة أهل البيت عليهم السلام للخلافة لكي يقوم بنفس المسؤوليات الّتي كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قائماً بها طيلة أيّام رسالته، ويملأ الثغرات الّتي أعقبتها رحلته صلى الله عليه وآله وسلم غير أنّه نبي يوحى إليه وهذا وصي حافظ لسننه.

سنّة الصحابة في مقابل سنّة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم

لقد تبيّن لنا أنّ الأُستاذ قد عجب من وجود سنّة لأهل البيت عليهم السلام، وقد فسّرنا معنى ذلك عند الإماميّة، وقلنا: إنّه ليس للأئمّة سنّة سوى ما سنّه النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ولكن أُلفت نظره إلى أنّ أهل السنّة قد قالوا بوجود سنن أُخرى بعد سنّة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، وإليك ما يشير إلى ذلك:

١. الحديث المعروف عندهم: «عليكم بسنّتي وسنّة الخلفاء المهديين الراشدين، تمسكوا بها وعضّوا عليها بالنواجذ».

يقول ابن قيم الجوزية في تفسير الحديث: فقد قرن سنّة خلفائه بسنّته وأمر باتّباعها كما أمر باتباع سنّته، وهذا يتناوله ما أفتوا به وسنّوه للأُمّة وإن لم يتقدّم للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فيه شيء وإلاّ كان ذلك سنّة.[٢]

فالرواية تدلّ على أنّ للصحابة سنّة كسنّة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فعندهم سنّة أبي بكر وسنّة عمر وسنّة عثمان وسنّة علي.

٢. روى السيوطي: قال حاجب بن خليفة: شهدت عمر بن عبد العزيز يخطب وهو خليفة، فقال في خطبته: على أنّ ما سنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وصاحباه

---

١. المائدة:٣.

٢. إعلام الموقعين:٤/ ١٤٠.

فهو دين نأخذ به وننتهي إليه، وما سنّ سواهما فإنّا نرجئه.[١]

أبعد هذه النصوص يصحّ للأُستاذ أن يستغرب من وجود سنّة لأئمّة أهل البيت عليهم السلام: أعلام الهدى ومصابيح الدجى وقرناء الكتاب، وثاني الثقلين... .

ولولا المخافة من تكدير مياه الصفاء لبسطنا القول في ذلك.

طُرق علم الأئمّة بالسنّة

قد أشرنا إلى أنّه ليس لأئمّة أهل البيت عليهم السلام سنّة خاصّة، بل هم حفظة سنن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ولسائل أن يسأل: ما هي طرقهم إلى سنن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأكثرهم لم يعاصروه ولم يسمعوها منه مباشرة، ومن المعلوم أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قد عاصره الإمام علي والإمامان الحسن والحسين عليهم السلام، فقط؟

والإجابة عن هذا السؤال واضحة لمن عرف أحاديث الشيعة وأنس بجوامعهم، فإنّ لهم عليهم السلام طرقاً إلى سنن النبي صلى الله عليه وآله وسلم نأتي ببعضها:

الأوّل: السماع عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

إنّ الأئمّة عليهم السلام يروون أحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سماعاً منه بلا واسطة أو بواسطة آبائهم، ولذلك ترى في كثير من الروايات أنّ الإمام الصادق عليه السلام يقول: حدّثني أبي عن زين العابدين عن أبيه الحسين بن علي عن علي أمير المؤمنين عن الرسول الأكرم.

وهذا النمط من الروايات كثير في أحاديثهم.

فأئمّة أهل البيت عليهم السلام رووا أحاديث كثيرة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن هذا الطريق

---

١. تاريخ الخلفاء للسيوطي: ١٦٠.

دون أن يعتمدوا على الأحبار والرهبان أو على مجاهيل أو شخصيات متسترة بالنفاق.

الثاني: كتاب علي عليه السلام

كان لعلي عليه السلام كتاب خاص بإملاء رسول الله وقد حفظته العترة الطاهرة عليهم السلام وصدرت عنه في مواضع كثيرة ونُقِلتْ نصوصه في موضوعات مختلفة، وقد بث الحرّ العاملي في موسوعته الحديثية، أحاديث ذلك الكتاب حسب الكتب الفقهية من الطهارة إلى الديات، ومن أراد فليرجع إلى تلك الموسوعة.

وإليك شذرات من أقوال الأئمّة بشأن هذا الكتاب الّذي كانوا يتوارثونه وينقلون عنه ويستدلّون به:

قال الإمام الحسن المجتبى عليه السلام: «إنّ العلم فينا ونحن أهله، وهو عندنا مجموع كلّه بحذافيره، ومنه لا يحدث شيء إلى يوم القيامة حتّى أرش الخدش إلاّ وهو عندنا مكتوب، بإملاء رسول الله وخطّ علي بيده».[1]

وقال أبو جعفر الباقر عليه السلام لأحد أصحابه ـ أعني: حمران بن أعين ـ وهو يشير إلى بيت كبير: «يا حمران إنّ في هذا البيت صحيفة طولها سبعون ذراعاً بخطّ علي وإملاء رسول الله صلى الله عليه وآله، لو وُلّينا الناس لحكمنا بما أنزل الله، لم نعدُ ما في هذه الصحيفة».

وقال عليه السلام أيضاً لبعض أصحابه: يا جابر إنّا لو كنّا نحدِّثكم برأينا وهوانا لكنّا من الهالكين، ولكنّا نحدّثكم بأحاديث نكنزها عن رسول الله صلى الله عليه وآله».

وقال الإمام الصادق عليه السلام عندما سئل عن الجامعة: «فيها كلّ ما يحتاج

---

١. الاحتجاج: ٢/ ٦، بحار الأنوار: ٨٩/ ٤٧.

الناس إليه، وليس من قضية إلاّ فيها حتّى أرش الخدش».

وقال الإمام الصادق عليه السلام في تعريف كتاب علي عليه السلام: «فهو كتاب طوله سبعون ذراعاً إملاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من فَلَقِ فيه وخط علي بن أبي طالب عليه السلام بيده، فيه والله جميع ما يحتاج إليه الناس إلى يوم القيامة، حتّى أنّ فيه أرش الخدش والجلدة ونصف الجلدة».[1]

ويقول سليمان بن خالد: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «إنّ عندنا لصحيفة طولها سبعون ذراعاً، إملاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وخطّ علي عليه السلام بيده، ما من حلال ولا حرام إلاّ وهو فيها حتّى أرش الخدش».

وقد كان علي عليه السلام أعلم الناس بسنّة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وكيف لا يكون كذلك، وهو القائل: «كنت إذا سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أعطاني، و إذا سكت ابتدأني».[2]

الثالث: انّهم محدَّثون

لأجل إيقاف القارئ على المحدَّث في الإسلام ومفهومه نذكر شيئاً في توضيحه.

«المحدَّث» مَن تكلّمه الملائكة بلا نبوّة ورؤية صورة، أو يُلهم ويُلقىٰ في روعه شيء من العلم على وجه الإلهام والمكاشفة من المبدأ الأعلى، أو ينكت له في قلبه من حقائق تخفى على غيره.

فالمحدّث بهذا المعنى ممّا أصفقت الأُمّة الإسلامية عليه، بيد أنّ

---

١. قد جمع العلاّمة المجلسي ما ورد من الأثر حول كتاب علي في موسوعته بحار الأنوار:٢٦/ ١٨ـ٦٦ تحت عنوان، باب جهات علومهم وما عندهم من الكتب، الحديث١٢، ١، ١٠، ٢٠.

٢. المستدرك للحاكم:٣/ ١٢٥.

الخلاف في مصاديقه، فالسنّة ترى عمر بن الخطاب من المحدَّثين، والشيعة ترى علياً وأولاده الأئمّة منهم.

أخرج البخاري في صحيحه: عن أبي هريرة قال: قال النبيّ ﷺ: لقد كان قبلكم من بني إسرائيل رجالٌ يكلَّمون من غير أن يكونوا أنبياء؛ فإن يكن من أُمّتي منهم فعمر.[١]

وقد أفاض شرّاح صحيح البخاري الكلامَ حول المحدَّث.[٢]

وللمحدّثين من أهل السنّة كلمات حول المحدَّث نأتي بملخّصها:

يقول القسطلاني حول الحديث: يجري على ألسنتهم الصواب من غير نبوة.[٣]

وأخرج مسلم في صحيحه في باب فضائل عمر عن عائشة عن النبي ﷺ قد كان في الأُمم قبلكم محدَّثون، فإن يكن في أُمّتي منهم أحد فإنّ عمر بن الخطاب منهم.

وقال النووي في شرح صحيح مسلم: اختلف تفسير العلماء للمراد بـ«محدَّثون» فقال ابن وهب: ملهمون، وقيل: يصيبون إذا ظنّوا فكأنّهم حُدّثوا بشيء فظنّوه، وقيل: تكلّمهم الملائكة وجاء في رواية مكلّمون.[٤]

وقال الحافظ محب الدين الطبري في «الرياض»، ومعنى «محدّثون» ـ والله أعلم ـ أن يلهموا الصواب، ويجوز أن يحمل على ظاهره وتحدّثهم

---

١. صحيح البخاري:٤/ ٢٠٠، باب مناقب المهاجرين وفضلهم، دار الفكر، بيروت.

٢. لاحظ: إرشاد الساري، شرح صحيح البخاري للقسطلاني:٦/ ٩٩.

٣. ارشاد الساري في شرح صحيح البخاري:٥/ ٤٣١.

٤. شرح صحيح مسلم للنووي:١٥/ ١٦٦، دار الكتاب العربي، بيروت.

الملائكــة لا لـوحي، وإنّمـا بمـا يطلق عليـه اسم حـديـث، وتلك فضيلـة عظيمة.[١]

وحصيلة الكلام: انّـه لا وازع من أن يخصّ سبحـانه بعض عبـاده بعلـوم خـاصّـة يرجع نفعهـا إلى العـامّـة من دون أن يكـونوا أنبيـاء، أو معـدودين من المرسلين، والله سبحانه يصف مصاحب موسى بقوله: ﴿**فَوَجَدا عَبْداً مِنْ عِبادِنا آتَيْناهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا وَعَلَّمْناهُ مِنْ لَدُنّا عِلْماً**﴾ ولم يكن المصاحب نبيّاً، بل كان وليّاً من أولياء الله سبحانه وتعالى بلغ مـن العلم والمعرفة مكانةً، دعت موسى ـ و هو نبيّ مبعوث بشريعة ـ إلى القول: ﴿**هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمّا عُلِّمْتَ رُشْداً**﴾.[٢]

ويصف سبحانه وتعالى جليس سليمان ـ آصف بن برخيا ـ بقوله: ﴿**قالَ الَّذي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتابِ أَنَا آتيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمّا رَآهُ مُسْتَقِرّاً عِنْدَهُ قالَ هذا مِنْ فَضْلِ رَبّي**﴾.[٣]

وهذا الجليس لم يكن نبيّاً، ولكن كان عنده علم من الكتاب، وهو لم يحصّله من الطرق العـاديّة التي يتدرّج عليها الصبيـان والشبان في المدارس والجامعات، بل كان علماً إلهيـاً أُفيض عليه لصفاء قلبه وروحـه، ولأجل ذلك ينسب علمه إلى فضل ربّه ويقول: ﴿**هٰذا مِنْ فَضْلِ رَبّي**﴾.[٤]

والإمـام علي والأئمّة من بعـده، الّـذين أُنيطت بهم الهـداية في حـديث

---

١. الرياض النضرة: ١/ ١٩٩.

٢. الكهف: ٦٦.

٣. النمل: ٤٠.

٤. الانصاف في مسائل دام فيها الخلاف: ٢/ ٣٦٥ـ ٣٦٦.

الثقلين، ليسوا بأقلّ من مصاحب موسى عليه السلام، أو جليس سليمان، فأي وازع من أن يقفوا على سنن النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن طريق الإشراقات الإلهية؟!

الرابع: الاستنباط من الكتاب والسنّة

هذا هو الطريق الرابع، فقد كانوا يستدلّون على الأحكام الإلهية بالكتاب والسنّة بوعي متميز يبهر العقول ويورث الحيرة، ولولا خشية الإطالة في المقام لنقلنا نماذج كثيرة من ذلك، ونكتفي هنا بانموذج واحد وهو: قُدِّم إلى المتوكل رجل نصراني فجر بامرأة مسلمة فأراد أن يقيم عليه الحد، فأسلم، فقال يحيى ابن أكثم: الإيمان يمحو ما قبله، وقال بعضهم: يُضرب ثلاثة حدود، فكتب المتوكّل إلى الإمام علي الهادي عليه السلام [1] يسأله، فلمّا قرأ الكتاب، كتب: يُضرب حتى يموت، فأنكر الفقهاء ذلك، فكتب إليه يسأله عن العلة، فكتب: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحمن الرَّحيم* فَلَمّا رَأَوْا بَأْسَنا قَالُوا آمَنّا بِاللهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنا بِمَا كُنّا بِهِ مُشْرِكينَ* فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمانُهُمْ لَمّا رَأَوْا بَأْسَنا سُنَّةَ اللهِ الّتي قَدْ خَلَتْ فِي عِبادِهِ وَخَسِرَ هُنالِكَ الْكافِرُونَ﴾. [2]

فأمر به المتوكل فضرب حتّى مات. [3]

إنّ الإمام الهادي ببيانه هذا شقّ طريقاً خاصّاً لاستنباط الأحكام من الذكر الحكيم، طريقاً لم يكن يحلم به فقهاء عصره، وكانوا يزعمون أنّ مصادر الأحكام الشرعية هي الآيات الواضحة في مجال الفقه الّتي لا تتجاوز ثلاثمائة

---

١. الإمام العاشر وهو علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر الصادق عليهم السلام.

٢. غافر: ٨٤ـ ٨٥.

٣. مناقب آل أبي طالب: ٤/ ٤٠٥.

آية، وبذلك أبـان للقرآن وجهاً خاصّاً لدلالته، لا يلتفت إليـه إلاّ من نزل القرآن في بيته، وليس هـذا الحديث غريباً فـي مورده، بل له نظائر في كلمـات الإمام وغيره من آبائه وأبنائه عليهم السلام.

هذه إلمامة عابرة في بيان طرق أهل البيت عليهم السلام إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

فما روي عـن الإمام موسى بـن جعفر عليه السلام حول علمهم بـالسنّة فإنّمـا هو ناظر إلى ما سبق ذكره.

سئل الإمام موسى بن جعفر عليه السلام: أكل شيء في كتاب الله وسنّـة نبيه، أو تقولون فيه؟ فقال: «لا بل كلّ شيء في كتاب الله وسنّة نبيّه».[١]

فـالإمام يـريد بـالسنّة مـا ذكرنـا (مصادرهـا وطرقهـا) لا خصوص السنّـة الموجـودة في أفواه الناس وعلى ألسنتهم، وإن كان ربّمـا يلتقي علمهم بالسنن بما رواه الناس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في بعض المواضيع.

هذه الرواية العابرة توقفنـا على مدى ما تلقاه الأئمّة من سنن النبي، أفبعد هـذا يصحّ أن نعتمد على مـا رواه البخـاري عن أبي جحيفـة الّذي قـال: قلت لعلي: عندكم كتابٌ؟ قال: لا إلاّ كتاب الله، أو فهم أُعطيه رجلٌ مسلم، أو ما في هذه الصحيفـة. قال: قلت: فما فـي هذه الصحيفة؟ قـال: العقل وفكاك الأسير ولا يُقتل مسلم بكافر.[٢]

كيف لا يكون عنـد عليّ عليه السلام كتاب يجمع فيـه سنن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهؤلاء هم أبناء علي عليه السلام ينقلون عنه ويعتمدون عليه؟!

والعجب ممّا ورد في هـذه الروايـة من أنّ الصحيفة الّتي كـان يحتفظ بها

---

١. الكافي: ١/ ٦٢، باب الرد إلى الكتاب والسنّة، الحديث١٠.

٢. صحيح البخاري:١/ ٦٤، باب كتابة العلم، الحديث٥٢.

علي لم تشتمل إلاّ على جمل محدودة، فلو لم يكن عند علي وأبنائه المعصومين إلاّ ما جاء في هذه الرواية، فمن أين هذه العلوم الموروثة عنه وعن أبنائه الصادقين الّتي بهرت العقول؟!

كيف لا يكون عند علي عليه السلام سوى ما في هذه الصحيفة أو ما في ألسن الناس مع أنّ المسلَّم عند الفريقين أنّ علياً كانت عنده علوم وأسرار لم تكن عند غيره، وكان الصحابة يرجعون إليه في المشاكل والمسائل العويصة، فهذا عمر بن الخطاب وسائر الخلفاء كانوا يرجعون إليه ويسألونه، كيف لا وهو باب مدينة علم النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد قام زميلنا الجليل المغفور له الشيخ علي الأحمدي بجمع ما ورد في كتاب علي عليه السلام ممّا هو مبثوث في الجوامع الحديثية ورتّبه على ٢٦ باباً[1]، وما جمعه إنّما هو غيض من فيض وقليل من كثير ممّا كان في الأصل.

١. مكاتيب الرسول: ٢/ ١٣٥ـ ٣١٣.

٤

تقييم الإجماع عند الإماميّة

عدّ الأُصوليون الإجماع من أحد الأدلّة الشرعية، غير أنّهم اختلفوا في ملاك الحجيّـة فالمحقّقـون من السنّة قـالـوا: إنّ الإجماع يجب أن يكون مستنـداً إلى دليل شرعي قطعي أو ظنّي كالخبر الواحد والمصالح المرسلة والقياس والاستحسان.

فلو كـان المستند دليـلاً قطعياً من قـرآن أو سنّة متـواترة، يكـون الإجماع مؤيداً معاضداً له[1]؛ ولو كان المستند دليلاً ظنياً، فيرتقي الحكم بالإجماع من مرتبـة الظن إلى مرتبـة القطع واليقين. ومثله إذا كـان المستند هـو المصلحة أو دفع المفسدة، فالاتفـاق على حكم شرعي ـ استناداً إلى ذلك الـدليل ـ يجعله حكماً شرعياً قطعياً إلهياً وإن لم ينزل به الوحي.[2]

وعلى ضوء ذلك فالإجماع عند أهل السنّة من مصادر التشريع في عرض الكتاب والسنّـة، لكن بشرط أن يكـون الحكم مستنداً إلى دليل ظنـي، فعندئذٍ يجعله إجماع العلماء حكماً قطعياً.

---

١. لا يذهب عليك أنّـه إذا كان في المورد دليل قرآني أو سنّة متـواترة، فلا حاجة للتـأييد والتعضيد، والأولى أن تخص مورده بما إذا لم يكن في مورده إلاّ دليل ظنّي.

٢. الوجيز في أُصول الفقه لوهبة الزحيلي:٤٩.

وأمّا عند الشيعة فالإجماع بما هو هو ليس من مصادر التشريع و إنّما يكشف عن وجود الدليل، فالاتّفاق مهما كان واسعاً، لا يؤثر في جعل الحكم، شرعياً إلهيّاً و إنّما المؤثر في ذلك المجال، نزول الوحي به فقط.

نعم للإجماع دور في كشف الدليل الأعم من القطعي والظنّي، وقد اختلفوا في كيفية كشفه إلى أقوال يجمعها أمران:

١. استكشاف الدليل بالملازمة العادية بين فتوى المجمعين وقول الإمام.

٢. استكشاف موافقة الإمام عليه السلام من الإجماع لكونه من جملة المجمعين.

أمّا الثاني فمشروط بشرطين:

أ. أن يكون الإمام ظاهراً لا غائباً.

ب. أن تتوفر الحرية في الفتوى ويكون للإمام حرية تامة في إظهار رأيه، ومثل ذلك لم يتّفق في عصر الحضور إلاّ في فترة قليلة، وهي الّتي عاصرها الإمامان الصادقان: الباقر والصادق عليهما السلام. وبسبب عدم توفر هذين الشرطين في عصر الأئمّة لم يلتفت إليهما إلاّ القليل من العلماء، وإنّما المهم استكشاف وجود الدليل من إجماع المجمعين بأحد الطريقين التاليين:

أ. تراكم الظنون مورث لليقين بالحكم الشرعي، لأنّ فتوى كلّ فقيه و إن كانت تفيد الظن، إلاّ أنّها تعزز بفتوى فقيه ثان فثالث، إلى أن يحصل للإنسان من إفتاء جماعة على حكم، القطع بالصحة، إذ من البعيد أن يتطرق البطلان إلى فتوى هؤلاء الجماعة.

ب. الإجماع كاشف عن دليل معتبر.

إنّ حجّية الإجماع ليس لأجل إفادته القطع بالحكم، بل لأجل كشفه عن

وجود دليل معتبر وصل إليهم ولم يصل إلينا، وهذا هو الّذي اعتمد عليه صاحب الفصول، وعدّة من المتأخرين.

قال صاحب الفصول: سنكشف قول المعصوم عن دليل معتبر باتّفاق علمائنا الذين كان ديدنهم الانقطاع إلى الأئمّة في الأحكام وطريقتهم التحرّز عن القول بالرأي والاستحسان.[1]

قراءة صاحب المقال للإجماع عند الشيعة

إنّ الدكتور أحمد الريسوني «حفظه الله» بعد أن ذكر أنّ الإجماع عند الشيعة ليس حجّة بما هوهو وإنّما ملاك حجّيته كشفه عن الدليل، حاول أن يطبق نظرية أهل السنّة على نظرية الشيعة. فقال:

وهذا القول في حقيقة الإجماع وحقيقة حجّيته ليس بغريب على أُصوليّي السنّة، فهو بعض ما يتضمّنه قولهم: «الإجماع لابدّ فيه من مستند»، ثمّ ذكر كلام إمام الحرمين والشريف التلمساني.[2]

وما استنتجه من التوفيق بين النظريتين عمل مشكور عليه، إلاّ أنّنا نشير إلى أنّهما ليستا متحدتين بالشكل الّذي ذكره الأُستاذ، وإنّما هما متحدتان في شيء ومختلفتان في شيء آخر.

١. تشتركان في أنّ إجماع المجمعين لابدّ أن يكون على أساس دليل، ولا يصحّ إفتاؤهم بلا دليل.

٢. وتختلفان في أنّ للإجماع ـ عند أهل السنّة ـ دوراً في إضفاء

---

١. الفصول في علم الأُصول للشيخ محمد حسين الحائري.

٢. الصفحة:٩١ من المجلة المذكورة.

المشروعية على الحكم المجمع عليه، بحيث يجعله حكماً ـ كسائر الأحكام الواردة في الكتاب والسنّة ـ سواء أصح المستند الظني في الواقع أم لم يصح، وكأنّ الاتفاق، عملية كيمياوية تقلب النحاس ذهباً. إمّا مطلقاً وفي عامّة الموارد، أو فيما إذا كان مستند الإجماع مثل القياس والمصالح والمفاسد العامّة، وهذا ليس شيئاً خفياً على من له إلمام بأُصول الفقه لدى السنّة، وقد وقفت على كلام الفقيه المعاصر «وهبة الزحيلي» حتّى أنّ الكاتب صرح بذلك في مقاله الذي يقول فيه:

وقد يكون إجماعهم ناشئاً عن قياس ظنّي في أصله، ولكن الإجماع على الحكم أضفى عليه صواباً ويقيناً[1] لا يحتمل الشك.

وقد يكون الإجماع منعقداً عن نظر استصلاحي سديد، ومن خلال الإجماع عليه تأكّدت موافقته القطعية للشرع وللمصالح الّتي اعتبرها.

هذا الّذي عليه السنّة وأمّا الشيعة فهم عن بكرة أبيهم، لا يقيمون للإجماع دوراً سوى الكشف عن الدليل: القطعي أو الظنّي، وليس له دور في إضفاء الصواب على الدليل والمشروعية على الحكم ـ لو فرض عدم صحته ـ فلذلك ليس الإجماع بما هوهو، من مصادر التشريع.

نقد الإجماع الدخولي

قد عرفت أنّ ملاك حجّية الإجماع هو كشفه عن الدليل بأحد الوجهين التاليين:

أ. كشفه عن دخول الإمام في المجمعين.

---

١. أمّا اليقين فنعم، وأمّا الصواب فلا، فيما إذا كان غير صحيح.

ب . كشفه عن وجود الدليل والحجة .

أمّا القسم الأوّل فقد عرفت اختصاصه بعصر الحضور، لكن بشرط أن تسود الحرية عامّة أهل الفتوى في البلد الّذي يقيم فيه المعصوم ، كالمدينة المنورة كما كان ذلك في بعض الأعصار أيّام نشوب الصراع بين الأمويين والعباسيين .

فلو وصل إلينا أنّ كلّ من يؤخذ عنه الفتوى في المدينة أفتوا بحكم من الأحكام ولم يشذّ منهم أحد ، نكشف اتّفاق الإمام الباقر و الصادق معهم ، لأنّ لسان الإجماع هو كلّ من يؤخذ عنه الفتوى ، وهما من أبرز مَنْ يؤخذ منهم الفتوى .

وعلى ضوء ذلك نقف على مدى صحّة رأي الأُستاذ حول الإجماع الدخولي . قال :

ولست أدري كيف استساغ علماء الإمامية وأذكياؤهم هذا التناقض الواضح ، إذ يعتبرون الإجماع كاشفاً عن قول المعصوم ، ثمّ يشترطون دخول هذا المعصوم؟ وإذا دخل المعصوم في الإجماع ـ بحيث كان قوله معروفاً وثابتاً ـ فأي كشف بقي للإجماع أن يقوم به؟ ثمّ إذا كان قول المعصوم حجة في ذاته فأي حاجة وأي قيمة للإجماع مع ثبوت قول المعصوم؟(الصفحة ٩٣) .

ويلاحظ عليه: أنّه تصوّر أنّ الإجماع الدخولي عبارة عن معرفتنا بدخول الإمام شخصياً ضمن المجمعين فرتّب عليه ما رتّب ، حيث قال : «فعند ذلك أي كشف بقي للإجماع أن يقوم به» .

وبعبارة أُخرى : تصور انّ الإجماع الدخولي عبارة عن رؤية الإمام شخصياً بين المجمعين ، أو سماع صوته منهم ، أو ثبوت تواجده بين المجمعين بخبر

قطعي، فعند ذلك قال: «فأيّ دور يبقى للإجماع بعد معرفة الإمام».

ولكن خفي عليه واقع هذا القسم من الإجماع، فالمراد به ما إذا ثبت بخبر قطعي، أنّ علماء المدينة وكلّ من يؤخذ عنه الفتوى، اتّفقوا على حكم من الأحكام الشرعية وكان أهل البيت يتمتّعون بالحرية لإظهار رأيهم وإبداء ما عندهم، فعند ذلك نستكشف دخول الإمام المعصوم في المجمعين وتواجده فيهم على نحو لولا هذا الإجماع والاتّفاق بالنحو الّذي عرفت لم يكن لدينا طريق لمعرفة قول الإمام، وعندئذٍ يكون للإجماع دور الكشف عن دخولهم فيهم.

وبذلك تقف على ما هو المقصود للمحقّق حيث قال: «فلو خلت المائة من علمائنا من قوله، لما كان حجّة ولو حصل في اثنين كان قولهما حجة».

إنّ الممعن في كلامه من أوّله إلى آخره يقف على أنّ الغاية من هذا المقال، هو التركيز على أنّ حجّية الإجماع، لأجل وجود الإمام في المجمعين إمّا دخولاً، أو كشفاً عن دليل وصل إلى يد المجمعين، عنهمعليهم‌السلام فجاء قوله كمثال يبين مقصده.

٥

خبر الواحد والقياس ظنّيان

فلماذا التفريق بينهما؟

قـد عجب الدكتـور أحمد الريسـوني من تفـريق الإماميّـة بين خبر الواحـد والقياس في الحجّيـة قائلاً: انّهما ظنّيـان، فلماذا فرّق الإماميّـة بينهما وقالـوا بحجّية الأوّل دون الثاني؟ وقـد أطال الكلام في ذلك وما ذكـرناه لبّ إشكالـه، ولإيضاح المقام نقدّم أُموراً:

الأمر الأوّل: اتّفقت الأُمّـة الإسلاميـة على أنّ البدعة أمـر محرم كتابـاً وسنّة وإجماعاً وعقـلاً، وهي عبارة عن إدخال مـا لم يعلم أنّه من الدين في الـدين، هذا من جانب.

ومن جـانب آخـر أنّ الاعتماد على الظن ـــ الّـذي لم يقم على حجّيتـه دليل قطعي من الشارع ـــ والإفتاء على وفقه والالتزام بأنّ مؤدّاه حكـم الله تعالى في حقّه وحقّ غيره، هو نفس البدعة ومن مصاديقها، فبضـم الثاني إلى الأوّل يتشكّل قياس منطقي يُنتج حرمة العمل بالظن الّذي لم يقم الدليل القطعي على حجّيته، فتكون صورة القياس كالتالي:

العمل بالظن الّذي لم يقم على حجّيته دليل شرعي بدعة في الدين.

البدعة في الدين حرام بالاتّفاق.

فتكون النتيجة:

العمل بالظن الّذي لم يقم على حجّيته دليل شرعي حرام بالاتّفاق.

وعلى ضوء هذا تقول الإمامية :إنّ الضابطة الكلّية في العمل بكلّ ما لم يقم دليل على حجّيته، سواء أكان مفيداً للظن أو لا، هي المنع لكونه تشريعاً قولياً وبدعة فعلية وعملية، وتقوّلاً على الله بغير علم.

نعم لو قام الدليل القطعي على حجّية ظن مثلاً في مورد أو موارد يؤخذ بهذا الظن بحكم الشرع، لأنّه يكون العمل عندئذٍ بإذن الشارع وأمره فيخرج عن الضابطة الكلية:«العمل بالظن الّذي لم يقم دليل شرعي على حجّيته: بدعة».

الأمر الثاني: ذهب جمهور الإمامية إلى خروج عدّة من الظنون عن تحت الضابطة خروجاً عن الموضوع لا خروجاً عن الحكم، وهي الظنون الّتي قام الدليل على حجّيتها، ولأجل ذلك توصف بالظنون العلمية، أي إنّها ظنون ولكن دلّ الدليل العلمي على جواز العمل بها وهي عبارة عن:

١. خبر الواحد إذا أخبر عن حسٍّ.

٢. حجّية الظواهر على القول بأنّها ظنّية الدلالة.

٣. الإجماع المنقول ـ بخبر الواحد ـ في مقابل الإجماع المحصّل ـ إذا كشف نقل الإجماع عن وجود دليل معتبر عند المجمعين إلى غير ذلك.

هذا هو رأي جمهور الإمامية، نعم قد خالف في حجّية خبر الواحد قليل من المتقدّمين كالسيد المرتضى والقاضي ابن البرّاج وأمين الإسلام الطبرسي وابن إدريس الحلي رضي الله عنهم.

ثمّ إنّ القائلين بالحجية ألّفوا في ذلك المجـال كتباً ورسائل أجابوا فيها عن شبهات النافين، شأن كلّ مسألة نظرية لا تخلو من مخالف.

هذا إجمال الكلام حول حجّية خبر الواحد الّذي عليه بناء العقلاء، وعليه تدور رحى حياتهم ومعاشهم بالشروط المذكورة في محلها.

وأمّـا القياس فقـد رفضه علماء الإمـاميـة عن بكرة أبيهم إذا كـان مستنبط العلّة، لأجل أنّ القياس مفيد للظن، والضابطة الكلّية في الظن حرمة العمل به ما لم يقم دليل على حجّيته.

ثمّ إنّهم استثنوا من حرمة العمل بالقياس موارد أبرزها ما يلي:

١. إذا كـانت العلة منصـوصة من جـانب الشرع كأن يقـول الخمر حـرام لكونه مسكراً، فيحكم بحرمة كلّ مسكر.

قالوا: إنّ ذلك في الحقيقـة ليس عملاً بالقياس وإنّما هـو عمل بالسنّة، أي عموم العلّة كما لا يخفى.

٢. القياس الأولويّ، فـإذا قال الشارع: ﴿**فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ**﴾[١] يفهم منه حرمة الشتم والضرب بطريق أولى، لحصول القطع والعلم بالحكم.

ثمّ إنّ رفض الإمـاميـة العمل بـالقيـاس في مجال مستنبط العلّـة، لأجل أنّ استخراج علّة الحكم بالسبر والتقسيم مظنة للاشتباه، وذلك بالبيان التالي:

أوّلاً: نحتمل أن يكون الحكم في الأصل معلـلاً عند الله بعلّة أُخـرى غير ما ظنّه القائس، مثل كونه صغيراً أو قـاصر العقل، في قوله: «لا يُزوّج البكرَ الصغيرَة إلاّ وليّهـا» حيث ألحق بها أصحـاب القيـاس الثّيب الصغيرة، بل المجنـونـة والمعتوهة، وذلك بتخريج المناط وانّه هـو قصور العقل وليس للبكارة مدخلية في

١. الإسراء: ٢٣.

الحكم، فهل يمكن ادّعاء القطع بذلك، وقد قال سبحانه: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ ؟![١]

إنّ الإنسان لم يزل في عالم الحسّ تنكشف له أخطاؤه، فإذا كان هذا حال عالم المادة الملموسة، فكيف بملاكات الأحكام ومناطاتها المستورة عن العقل إلاّ في موارد جزئية كالإسكار في الخمر، أو إيقاع العداء والبغضاء في الميسر، أو إيراث المرض في النهي عن النجاسات؟ وأمّا ما يرجع إلى العبادات والمعاملات خصوصاً فيما يرجع إلى أبواب الحدود والديات فالعقل قاصر عن إدراك مناطاتها الحقيقية و إن كان يظن شيئاً.

قال ابن حزم: و إن كانت العلّة غير منصوص عليها، فمن أيّ طريق تُعرف ولم يوجد من الشارع نصّ يبينّ طريق تعرّفها؟ وتركُ هذا من غير دليل يعرّف العلّة، ينتهي إلى أحد أمرين: إمّا أنّ القياس ليس أصلاً معتبراً، و إمّا أنّه أصل عند الله معتبر ولكن أصل لا بيان له وذلك يؤدي إلى التلبيس، وتعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً، فلم يبق إلاّ نفي القياس.

ثانياً: لو افترضنا أنّ القائس أصاب في أصل التعليل، ولكن من أين يُعلم أنّها تمام العلّة، ولعلّها جزء العلّة وهناك جزء آخر منضم إليه في الواقع ولم يصل القائس إليه؟

ثالثاً: احتمال أن يكون القائس قد أضاف شيئاً أجنبياً إلى العلّة الحقيقية لم يكن له دخل في المقيس عليه.

رابعاً: احتمال أن يكون في الأصل خصوصية في ثبوت الحكم وقد غفل عنها القائس.

---

١. الإسراء:٨٥.

ولأجل وجـود هـذه الاحتمالات الّتي لا تنفـك عن ذهن القـائس، رفضت الإماميّة، العملَ بالقياس إذا كان مستنبط العلّة.

التفريق بين الظنّيين لماذا؟

إنّ الدكتور أحمد الريسوني ـ حفظه الله ـ قد أخذ على علماء الإمامية بموارد، قائلاً: إنّهم يقولون بعدم حجّية الظن ومع ذلك يعملون به في الموارد التالية:

١ . الخبر الواحد.

٢ . الظواهر.

٣.المرجّحات الظنية عند التعارض.

٤ . الأُصول العمليّة.

و إليك دراسة هذه الموارد من رؤية الدكتور وما يمكن القول حولها، ونذكر كلامه ضمن مقاطع قال:

١ . انّ الإمامية إذ يرفضون الأخذ بـالقياس والاستصلاح باعتبار أنّ إفادتهما ظنيّة، فإنّهم يقبلون الظنّيات في كثير من أُصولهم وقـواعدهـم، في مقدّمها أخذهم بأخبار الآحاد فإنهم يُسلّمون بكـون أخبار الآحاد لا تسلم من الظنية والاحتمال، وأذن الشرع استثناءً في اعتبارها. ويكون الإجماع لديهم على حجّيتها.[1]

أقول: هذا ملخّص كلامه، والقارئ الكريم ـ بعد الاطّلاع على ما ذكرنا من الأُمور ـ يقف على الفرق الواضح عنـدهم بين خبر الواحد العدل، والقياس، فإنّ الأخـذ بـالأوّل ليس بمـلاك إفـادتـه الظن، بل لأجل قيـام الـدليل الشرعي على حجّيته، ولو كان الدليل قائماً على حجّية القياس لأخذوا به.

---

١ . الصفحة ٩٤ من المجلة.

وبعبارة أُخرى: انّ خبر الواحد ممّا قام الدليل القطعي على حجّيته فصار ظناً علمياً، أي ظناً بالذات ولكن ذو رصيد علمي، بخلاف القياس إذ لم يرد عندهم دليل يثبت حجّيته لو لم نقل بقيام الدليل على خلافه.

ولأجل أن يقف الأُستاذ الكريم على الفوارق بين خبر الواحد والقياس نقترح عليه مراجعة كتابنا المعنون: «أُصول الفقه المقارن فيما لا نصّ فيه».

٢. ومن المواطن الّتي أخذوا فيها بالظنيات أيضاً قولهم بحجية الظواهر، أي أنّهم يعتمدون اعتماداً أساسياً على ما يفهم من ظواهر النصوص، والظواهر كما هو معلوم لا تكاد تسلم من الظنية والاحتمال.[1]

أقول: إنّ العمل بالظواهر ممّا أطبق العقلاء على العمل به، ولا نجد بينهم من ينكر حجّية الظواهر، فإن رحى الحياة في المجتمع الإنساني تدور عليها، وليس كلّ كلام، نصاً في مدلوله.

إنّ النبيّ الأكرمﷺ وأئمّة أهل البيت عليهم السلام وأصحابهم يعلّمون الناس بظواهر كلماتهم، والمستمعون يتلقّونها حجّة شرعية دون أن يناقشوا في حجّية الظواهر.

فأين الظواهر من القياس الظني الّذي تضاربت فيه الآراء وأنكر حجّيته أئمّة أهل البيت ولفيف من الصحابة والتابعين؟! أضف إلى ذلك قيام الدليل على حجّية الظواهر دون القياس، فهذا هو الفارق بينهما.

٣. انّ الترجيحات ـ عند تعارض الخبرين ـ كلّها أو معظمها ترجيحات ظنية تعليلية وتقريبية، فقد جرى ديدنهم على ترجيح ما ظهر أنّه الأقرب إلى واقع الحكم الشرعي الحقيقي، وهذا كما لا يخفى ليس إحرازاً للحكم الشرعي بالضرورة وإنّما هو ظني وتقريب.[2]

---

١. الصفحة ٩٥ من المجلة.

٢. المجلة: ص ٩٦.

أقول: هذا هـو المورد الثالث الّـذي أثار تعجّب الأُستـاذ من التفريـق بينه وبين القيـاس والاستحسان وأمثـالهما حيث أخـذوا با لمرجّحـات الظنية ورفضـوا القياس والاستحسان.

ولكن الإجـابـة عنـه واضحـة، وهي قيـام الحجّـة على لـزوم الترجيح بـا لمرجّحـات، وقـد تضـافـرت الأخبـار الّتي ثبتت حجّيتهـا على لـزوم الترجيح با لمرجحات المنصوصة كموافقة الكتاب وموافقة السنّة وموافقة المشهور وغيرها.

نعم هناك من يستنبط من هـذه الروايات لـزوم الترجيح بكلّ مرجّح و إن لم يكن منصوصاً كـالشيخ الأنصاري في فرائده، ومنهم من لا يقبل ذلك، وعلى كلّ تقدير فـالفارق بين العمل با لمرجّحات والقياس والاستحسـان وجود الدليل على لزوم الترجيح بها وعدمه في القياس والاستحسان.

ولو أنّ صاحب المقال أحاط بأُصول الفقـه عند الإمامية لما أثار عجبه هذا التفـريق، ولعمد إلى التركيـز على مـوضـوع آخر وهـو طـرح القياس على صعيـد البحث على ضـوء دراسـة أدلّـة المثبتين والنافين دون أن يـربط العمل بـالقيـاس بالعمل بخبر الواحد والظواهر.

٤. وممّا أخـذه الأُستاذ على الإمـامية هـو العمل بالأُصـول العملية، أعني: البراءة والاشتغال والتخيير والاستصحاب، فقد قال: إنّ ما يسمّونه أُصولاً عملية هي قواعد تـوصل إلى الظن، والرجحان، ومع ذلك أجازوا بـل أوصوا بالعمل بها عند عدم الدليل الصريح.[1]

أقول: أظن انّ القـارئ في غنى عن تكرار الجواب فإنّ الإشكـال في الجميع واحـد والجواب مثله، وهـو أنّ الفارق وجـود الدليل على حجّيـة الأُصول، سـواء

١. الصفحة ٩٦ من المجلة.

أكانت مفيدة للظن أم لا، ومن درس الأُصول العملية في الكتب الأُصولية للشيعة الإمامية يقف على أنّهم يستدلّون عليها بطرق مختلفة من الكتاب والسنّة والإجماع والعقل. فكيف يقاس ذلك بالقياس الّذي تواتر النهي عن العمل به عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام، وهذا هو قول الإمام الصادق عليه السلام لأبان بن تغلب: «إنّ السنّة إذا قيست محق الدين».[١]

استدلاله على حجّية القياس عن طريق العقل

إنّ الأُستاذ الفاضل يستدلّ على حجّيـة القياس عن طريق العقل قائلاً: إنّ الإمامية وبخاصة متأخّـريهم يجعلون من الأدلّة الشرعية «الدليل العقلي»، بينما هم يرفضـون القياس وهو من بـديهيات العقول وأوّلياتها،يقـوم على قاعدة لا ينكـرها عقل ولا عاقل، وهي«أنّ ما ثبت لشيء ثبت لمثله»، وهـذا هو العدل الّذي قامت به الأرض والسماوات وجاءت به الكتب والرسالات.

أقول: لا شكّ أنّ العقل أحد الحجج الشرعية، وذلك في مجالات خاصة، ممّا للعقل إليها سبيل، ونمثل لذلك بنموذجين:

الأوّل: إذا استقل العقل بحسن فعل بما هو فعل صادر عن الفاعل المختار أو قبحـه وتجرّد في قضـــائه عن كلّ شيء إلاّ النظـر إلى نفس الفعـل يكـون حكم العقل كـاشفـاً عن حكم الشرع، وهـذا نظير استقلال العقل بقبح العقـاب بـلا بيان، وحسنه معه، فيستكشف منه أنّ الشرع كذلك.

الثاني: إذا أمر المولى بشيء واستقلّ العقل بوجود الملازمة بين وجوب الشيء ووجوب مقدمتـه، أو وجوب الشيء وحرمة ضـده، أو امتناع اجتماع الأمر والنهي

١. الوسائل:١٨، الباب٦ من أبواب صفات القاضي.

على شيء واحد بعنـوانين، أو جوازه إلى غير ذلك من أنـواع الملازمات، فيكشف حكم العقل عن حكم الشرع.

ففي هـذين الموردين وما يشبههما يكـون العقل قـاطعاً بـالحسن والقبح أو الملازمة بين الوجوبين أو الحرمتين، وعند ذلك نستكشف من خلال كونه سبحانه حكيماً لا يعبث، الحكم الشرعي؛ للحسن والقبح، أو للمقدّمة وضد الواجب.

وأمّا القياس فهو ليس دليلاً عقلياً، وإنّما هو دليل ظني بشهادة أنّه لو كان دليلاً قطعياً لما اختلف فيه اثنان كما لم يختلفـوا في حجّية الخبر المتواتر أو المحفوف بالقرائن المفيدة للعلم.

فإنّ إطلاق الدليل العقلي على القياس على وجه الإطلاق غير صحيح، بل يجب أن يقال الدليل العقلي الظني، لأنّ الدليل العقلي ـ عند الإطلاق ـ ينصرف إلى الدليل العقلي المفيد للعلم.

الخلط بين المماثل والمشابه

والّذي أُلفت نظر الأُستاذ إليه هو أنّ القياس ليس من باب المماثلة، بل من باب المشابهة، وكم هو الفرق بين التماثل والتشابه، فما ذكره من أنّ «ما ثبت لشيء ثبت لمثله» راجع إلى المتماثلين، والفرق بينهما واضح، وذلك لأنّ التماثل عبارة عن دخـول شيئين تحت نوع واحـد وطبيعة واحـدة، فـالتجربـة في عدة من مصـاديق طبيعية واحـدة تفيد العلم بأنّ النتيجـة لطبيعة الشيء لا لأفـراد خاصـة، ولذلك يقولون: إنّ التجربة تفيد العلم، وذلك بالبيان التالي:

إذا أجرينا ـ مثـلاً ـ تجربة على جزئيات من طبيعـة واحدة، كالحديد، تحت ظروف معينـة من الضغط الجوي، والجاذبية، والارتفاع عن سطح البحـر، وغيرها

مع اتّحادها جميعاً في التركيب، فوجدنا أنّها تتمدد مقداراً معيناً، ولنسمّه(س)، عند درجة خاصة من الحرارة ولنسمّها (ح). ثمّ كررنا هذه التجربة على هذه الجزئيات، في مراحل مختلفة، في أمكنة متعددة، وتحت ظروف متغايرة، ووجدنا النتيجة صادقة تماماً: يتمدد الحديد بمقدار (س) عند درجة (ح)؛ فهنا نستكشف أنّ التمدد بهذا المقدار المعين، معلول لتلك الدرجة الخاصة من الحرارة فقط، دون غيرها من العوامل. فعندئذٍ يقال: «ما ثبت لشيء، ثبت لمثله» أو حكم الأمثال فيما يجوز وما لا يجوز واحد.

وأمّا التشابه فهو عبارة عن وقوع فردين مختلفي الطبيعة تحت صفة واحدة توجب التشابه بينهما، وهذا كالخمر والفقاع فإنّهما نوعان وبينهما تشابه في الإسكار. فلو أثبتت التجربة أنّ للخمر أثراً خاصاً، لا يمكن القول بثبوته للفقاع والنبيذ، بل لابدّ من التماس الدليل على المشاركة، وراء المشابهة.

وأوضح من ذلك مسألة الاستقراء، فإنّ ما نشاهده من الحيوانات البرية والبحرية، أنواع مختلفة، فلو رأينا هذا الحيوان البري وذلك الحيوان البحري كلّ يحرك فكّه الأسفل عند المضغ ربما نحكم ـ بلا جزم ـ بذلك على سائر الحيوانات من دون أن تكون بينها وحدة نوعية أو تماثل في الحقيقة ، والدافع إلى ذلك التعدّي في الحكم هو التشابه والاشتراك الموجود بين أنواع الجنس الواحد رغم اختلافها في الفصول والأشكال، ولكن لا يمكن الجزم بالحكم والنتيجة على وجهها الكلي لإمكان اختلاف أفراد نوعين مختلفين في الحكم.

وبذلك يعلم أنّ القياس عبارة عن إسراء حكم مشابه إلى مشابه لا حكم مماثل إلى مماثل، ومن المعلوم أنّ إسراء الحكم من طبيعة إلى طبيعة أمر مشكل لا يصار إليه إلاّ إذا كان هناك مساعدة من جانب العرف لإلغاء الخصوصية، و إلاّ

يكون الإسراء عملاً بلا دليل.

مثلاً دلّ الكتاب العزيز على أنّ السارق والسارقة تقطع أيديهما، والحكم على عنوان السارق، فهل يلحق به النبّاش الّذي ينبش القبر لأخذ الأكفان؟ فإنّ التسوية بين العنوانين أمر مشكل، يقول السرخسي:

لا يجوز استعمال القياس في إلحاق النبّاش بالسارق في حكم القطع، لأنّ القطع بالنصّ واجب على السارق.[1]

والحاصل: أنّ هناك فرقاً واضحاً بين فردين من طبيعة واحدة، فيصحّ إسراء حكم الفرد إلى الفرد الآخر لغاية اشتراكهما في الإنسانية، وأنّ حكم الأمثال في ما يجوز وما لا يجوز واحد، لكن بشرط أن يثبت أنّ الحكم من لوازم الطبيعة لا الخصوصيات الفردية.

وأمّا المتشابهات فهما فردان من طبيعتين ــ كالإنسان والفرس ــ يجمعهما التشابه والتضاهي في شيء من الأشياء، فهل يصحّ إسراء حكم نوع إلى نوع آخر؟ كلاّ ولا، إلاّ إذا دلّ الدّليل على أنّ الوحدة الجنسية سبب الحكم ومناطه وملاكه التام[2]، كما دلّ الدليل على أنّ سبب الحرمة في الخمر، هو الإسكار، وإلاّ فلا يصحّ إسراء حكم من طبيعة إلى طبيعة أُخرى بمجرد التشابه بينهما، أو الاشتراك في عرض من الأعراض.

---

١. اصول السرخسي:٢/ ١٥٧.

٢. أُصول الفقه المقارن فيما لا نصّ فيه:١٠٨ـ ١١٠.

٦

الدليل العقلي وحجّية المصلحة

قـد تعـرفت على أنّ العقل أحد مصـادر التشريع و ــ بـالأحرىٰ ــ أحـد المصادر لكشف الحكم الشرعي.

ومجال الحكم العقلي ـ غالباً ـ أحد الأُمور التالية:

١. التحسين والتقبيح العقليان.

٢. أبواب الملازمات مـن قبيل الملازمة بين وجوب الشيء ومقدمتـه وحرمة ضدّه، والملازمة بين النهي عن العبادة أو المعاملة وفسادها، إلى غير ذلك ممّا يرجع إلى باب الملازمة.

٣. أبـواب التـزاحم أي تـزاحـم المصـالح الّتي لابـدّ من أخـذهـا كإنقـاذ الغريقين مع العجز عن إنقاذ كليهما، أو تزاحـم المصالح والمفاسد كتترس العدو بـالمسلمين فإنّ للعقل دوراً فيهـا، ولـه ضـوابط لتقـديم إحـدى المصلحتين على الأُخرى، أو تقديم المصلحة على المفسدة أو بالعكس (وهي مذكورة في مظانّها).

ولا غبار على حجّيـة العقل في هذه الموارد، إنّما الكلام في حجّيـة المصلحة وعدّها من مصـادر التشريع فيما لا نصّ فيه؛ فقد ذهب عـدة من فقهاء السنّة إلى

حجّية المصلحة وسمّاها المالكية بالمصالح المرسلة والغزّالي بالاستصلاح، وحاصل دليلهم على حجّية المصلحة وكونها من مصادر التشريع ما يلي:

إنّ مصالح الناس تتجدّد ولا تتناهى، فلو لم تشرع الأحكام لما يتجدّد من مصالح الناس، ولما يقتضيه تطورهم واقتصر التشريع على المصالح الّتي اعتبرها الشارع فقط، لعطّلت كثير من مصالح الناس في مختلف الأزمنة والأمكنة، ووقف التشريع عن مسايرة تطورات الناس ومصالحهم، وهذا لا يتفق وما قصد بالتشريع من تحقيق مصالح الناس.[1]

وحاصل هذا الوجه ادّعاء وجود النقص في التشريع الإسلامي لو اقتصر في مقام الاستنباط على الكتاب والسنّة، لأنّ حاجات المجتمع إلى قوانين جديدة لازالت تتزايد كلّ يوم، فإذا لم تكن هناك تشريعات تتلاءم مع هذه الحاجات لم تتحقّق مقاصد الشريعة.

ثمّ إنّ السبب لجعلهم المصالح مصادر للتشريع هو الأُمور التالية:

١. إهمال العقل وعدم عدّه من مصادر التشريع في مجال التحسين والتقبيح العقليين.

٢. إقفال باب الاجتهاد في أواسط القرن السابع إقفالاً سياسياً، فقد صار ذلك سبباً لوقف الدراسات الفقهية منذ قرون، وفي ظل ذلك توهّم المتأخّرون وجود النقص في التشريع الإسلامي وعدم كفايته لتحقيق مقاصد الشريعة فلجأوا إلى عدّ المصالح المرسلة من مصادره، وبذلك وجّهوا قول من يعتقد بحجية المصالح المرسلة من أئمّة المذاهب.

٣. عدم دراسة عناوين الأحكام الأوّلية والثانوية، كأدلّة الضرر والحرج

---

١. علم أُصول الفقه، لعبد الوهاب الخلاّف: ٩٤.

والاضطرار والنسيان، فإنّ هذه العناوين وما يشابهها تحل أكثر المشاكل الّتي كان علماء السنّة يواجهونها من دون حاجة لعدّ الاستصلاح من مصادر التشريع.

٤. عدم الاعتراف بصلاحيات الفقيه الجامع للشرائط بوضع أحكام ولائية كافية في جلب المصلحة ودفع المفسدة أحكاماً مؤقتة مادام الملاك موجوداً.

والفرق بين الأحكام الواقعية والولائية هو أنّ الطائفة الأُولى أحكام شرعية جاء بها النبي ﷺ لتبقى خالدة إلى يوم القيامة، وأمّا الطائفة الثانية فإنّما هي أحكام مؤقتة أو مقررات يضعها الحاكم الإسلامي (على ضوء سائر القوانين) لرفع المشاكل المتعلّقة بحياة المجتمع الإسلامي.

هذه هي حقيقة المصالح المرسلة.

ثمّ إنّهم مثّلوا للمقام بأمثلة، نذكر منها ما يلي:

١. جمع القرآن الكريم في مصحف بعد رحيل النبيّ ﷺ.

٢. قتال مانعي الزكاة.

٣. وقف تنفيذ حكم السرقة في عام المجاعة.

٤. إنشاء الدواوين.

٥. سك النقود.

٦. فرض الإمام العادل على الأغنياء من المال ما لابدّ منه، لتكثير الجند وإعداد السلاح وحماية البلاد وغير ذلك.

٧. سجن المتهم كي لا يفر.

٨. حجر المفتي الماجن والطبيب الجاهل والمكاري المفلس.

ثمّ إنّ بعض المغالين ربّما يتجاوز فيمثّل بأُمور لا تُبرّرها أدلّة التشريع الواقعي كتنفيذ الطلاق ثلاثاً، مع أنّ الحكم الشرعي هو كونه طلاقاً واحداً في

عصر النبيّ ﷺ وبرهة بعد رحيله، وهذا من باب تقديم المصلحة على النص.

ثمّ إنّ للإمامية في العمل بالمصالح مذهباً وسطاً أوضحناه في كتابنا.[١] وليست الإماميّة ممّن ترفضه بتاتاً كما تصوّره الأُستاذ أو تقبله في عامّة الصور.

هذا إجمال الكلام في المصالح المرسلة ـ وتفصيل مالها وما فيها يُطلب من محله ـ إذا عرفت ذلك فهلمّ معي نقرأ ما ذكره الدكتور الريسوني حول هذا الموضوع، قال:

«أمّا حجّية المصلحة، فإنّهم وإن كانوا ينكرونها بالاسم إلاّ أنّهم يأخذون بها بأسماء وأشكال متعدّدة:

فتارة تدخل تحت اسم «الدليل العقلي» حيث يدرجون ضمنه ـ مثلاً ـ اعتبار «الأصل في المنافع الإباحة، وفي المضار الحرمة» وهذا عين اعتبار المصلحة. كما أنّ من القواعد المعتبرة عندهم ضمن دليل العقل قاعدة «وجوب مقدّمة الواجب» وهي المعبر عنها بـ«ما لا يتم الواجب إلاّ به فهو واجب» ذلك أنّ معظم المصالح المرسلة هي من قبيل «ما لا يتم الواجب إلاّ به» فهي مقدّمات أو وسائل لواجبات أُخرى، ومثلها قاعدة «كلّ ما هو ضد الواجب فهو غير جائز» فهذا ما يعبر عنه بدرء المفاسد. وأُخرى يدخلون العمل بالمصلحة من باب ما يسمّى عندهم السيرة العقلائية وبناء العقلاء، وهو في الوقت نفسه من المصالح المرسلة».[٢]

وحاصل كلامه: انّه تدخل تحت حجّية المصلحة القواعد التالية:

١. وجوب مقدّمة الواجب.

---

١. لاحظ أُصول الفقه المقارن فيما لا نصّ فيه .

٢. الصفحة: ٩٧ من المجلة المشار إليها.

٢. حرمة ضد الواجب.

٣. حجّية بناء العقلاء وسيرتهم.

٤. الأصل في المنافع الإباحة، وفي المضار الحرمة.

فهي نفس العمل بالمصلحة مع أنّهم يدخلونها تحت «الدليل العقلي».

يلاحظ عليه: أنّ اشتمال هذه القواعد على المصالح ودرء المفاسد، غير كون المصلحة سبباً لتشريعها ومبدأ لتقنينها، فإنّ الدليل على وجوب مقدّمة الواجب أو حرمة ضد الواجب حكم العقل بالملازمة بين الإرادتين، فمن حاول الوقوف على السطح، لا محيص له من إرادة نصب السلّم، أو ركوب المصعد.

فاشتمال المقدّمة على المصلحة أو اشتمال الضد على المفسدة أمر جانبي لا مدخلية له في الحكم بالوجوب والحرمة.

وأمّا حجّية بناء العقلاء، فإنّ أساسها كونه بمرأى ومسمع من الشارع وهو إمضاؤه، لهذا لو كان غير مرضيّ عنده، لما سكت عن النهي عنه، لقبح السكوت عمّا يوجب إغراء الأُمّة، ولولا إمضاؤه لما صحّ الاعتماد عليه في الفقه، كما هو الحال في السِّير الّتي رفضها الشارع كبيع الخمر والكلب والخنزير والتملك بالمقارنة.

وبه يظهر حكم القاعدة الرابعة، فإنّ الحكم بجلب المنفعة أو درء المفسدة هو العقل الحصيف، لا قاعدة المصالح المرسلة، وإن كان في الجلب والدرء مصلحة، وبالجملة: الأُمور الجانبية، ليست أساساً لحكم العقل في مورد هذه القواعد.

نحن نفترض أنّ لهذه المسائل طابعاً عقلياً كما أنّ لها طابعاً استصلاحياً، فلو كان الوصول إليها من دليل العقل أمراً غير صحيح فليكن الوصول إليها عن طريق الاستصلاح مثله، فلماذا يوجّه اللوم إلى الفريق الأوّل دون الثاني؟!

***

هذه بعض الملاحظات على كلام الأُستاذ، حفظه الله ونفعنا بعلومه. وبقيت في كلامه أُمور أُخرى يظهر النظر فيها من بعض ما ذكرنا.

وفي الختام ندعو له ولعامّة الإخوان في المملكة المغربية والأساتذة والطلاب في دار الحديث الحسنية بدوام التوفيق والسداد.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

جعفر السبحاني

قم المقدسة ـ إيران

غرّة ربيع الأوّل ١٤٢٦هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

٥

التقيّة مفهومها، حدّها، دليلها

الحمد لله ربّ العالمين ، والصلاة والسلام على أفضل خلقه وخاتم رسله محمّد وعلى آله الطيّبين الطاهرين الذين هم عيبة علمه وحفظة سننه .

أمّا بعد ، فانّ الإسلام عقيدة وشريعة ، فالعقيدة هي الإيمان بالله ورسله واليوم الآخر، والشريعة هي الأحكام الإلهية التي تكفل للبشرية الحياة الفضلىٰ وتحقّق لها السعادة الدنيوية والأُخروية .

وقد امتازت الشريعة الإسلامية بالشمول ، ووضع الحلول لكافّة المشاكل التي تعتري الإنسان في جميع جوانب الحياة قال سبحانه : ﴿**الْيَوم أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلام دِيناً**﴾ .[١]

غير أنّ هناك مسائل فرعية اختلف فيها الفقهاء لاختلافهم فيما أثر عن مبلّغ الرسالة النبي الأكرم ﷺ، الأمر الذي أدّى إلى اختلاف كلمتهم فيها، وبما أنّ الحقيقة بنت البحث فقد حاولنا في هذه الدراسات المتسلسلة أن نطرحها على طاولة البحث، عسى أن تكون وسيلة لتوحيد الكلمة وتقريب الخطىٰ في هذا

---

١. المائدة:٣.

الحقل، فالخلاف فيها ليس خلافاً في جوهر الدين وأُصوله حتّى يستوجب العداء والبغضاء، وإنّما هو خلاف فيما روي عنه ﷺ وهو أمر يسير في مقابل المسائل الكثيرة المتّفق عليها بين المذاهب الإسلامية.

ورائدنا في هذا السبيل قوله سبحانه: ﴿**وَٱعْتَصِمُوا بِحَبْلِ الله جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا وَٱذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعداءً فَأَلَّفَ بين قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْواناً ...**﴾.[1]

جعفر السبحاني

قم ـ مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام

التقيّة

من المفاهيم الإسلامية السامية

تُعدّ التقيـة من المفاهيم الإسـلامية الأصيلـة، المنسجمة مع حكم العقل، وروح الإسلام، ومرونة الشريعة المقـدسة وسماحتها، وضرورات العمل الإسلامي، وقـد وردت في القرآن الكـريم، وأكّدتها السنـة الشريفة، وآمن بمشروعيتهـا علماء المسلمين.

ولا ريب في أنّ الشيعة ــ و بحكم الظروف العصيبـة التي حاقت بهم على امتداد فترات تاريخية طويلة ـ اشتهروا بالعمل بالتقية، واللّياذ بظلها كلما اشتدت عليهم وطأة القهر والظلم.

وقد سعى الصائدون في الماء العكر من حُكّام الجور والمغرضين والمتعصّبين إلى استغلال هـذا الأمر، وذرّ الـرماد في العيـون من خلال إيجاد تصـوّرات وأوهام باطلة، وغرسها في أذهان الناس، بـدعوى أنّ التقية عند الشيعة ضرب من النفاق والخداع والتمويـه، وأنّها تجعل منهم منظّمة سريـة غايتها الالتفـاف على الإسلام وتشويه صورته وتهديم أركانه.

إنّ العمل بـالتقية والاحتراز عن الإفصـاح عن المبادئ والأفكـار لا يعنيان أبـداً أنّ للشيعة أسراراً وطـلاسم يتداولـونها بينهم، ولا يتيحـون للآخـرين فرصـة

الاطلاع عليها ومعرفتها،ولا يعنيان أيضاً أنّ لهم نوايا عدوانية ضدّ الإسلام وأهله، وإنّما يتعلّق الأمر كلّه بإرهاب فكري وسياسي مُورس ضدهم، وجرائم وحشية ارتكبت بحقهم، ألجاتهم إلى اتخاذ التكتّم والاحتراز أسلوباً لصيانة النفوس والأعراض والمحافظة عليها. ونحن إذا نظرنا إليهم في بعض العهود التي استطاعوا أن يتنفسوا فيها نسائم الحرية، نجد كيف أنّهم بادروا وبنشاط إلى نشر أفكارهم وآرائهم وبثّ مبادئهم وتعاليمهم، وكيف أنّهم ساهموا ــ مع إخوانهم من سائر المذاهب والطوائف ـ في صنع حضارة الإسلام الخالدة.

وإذا كان الإنصاف يدعو إلى تبرير موقف ضحايا القمع والاستبداد بالالتجاء إلى حمىٰ التقية لضمان السلامة والتوقّي من الشر المستطير... وإذا كان الضمير الحي يدعو إلى مواساة هؤلاء المظلومين الذين تُحصىٰ عليهم أنفاسهم ويعانون أفانين الضغط والإكراه، وأشكال التضييق والمحاربة، فإنّ شيئاً من هذا ولا ذاك لم يحصل، بل حصل العكس، إذ عمد الكثير من أهل السنّة والجماعة ـ ومع الأسف ـ إلى الإغضاء عن الجزّارين أو معاضدتهم، وإلى التنديد بالضحايا والتشهير بهم!!

وأخيراً، نحن نعتقد أنّ العمل بالتقية أمر لا مفرّ منه، وأنّ مجانبتها تماماً وفي كلّ الأحوال والعصور أمر لا واقع ولا حقيقة له. وأنت إذا رميت ببصرك إلى بعض الشعوب التي تحكمها أنظمة قمعية استبدادية، لوجدت أنّها ـ وفيها من هم من أهل السنّة ــ تتجنّب الإعلان عن آرائها وأهدافها جهرةً، وتسكت عمّا يُمارس بين ظهرانيها من أعمال منافية للإسلام، وما ذلك إلاّ خوفاً من البطش والقتل والأذى الذي سيصيبها لو أنّها نطقت بما يخالف إرادة المستبدين.

وهذه الرسالة المتواضعة، ستميط الستر عن وجه الحقيقة وتثبت ، انّ التقية

ثمرة البيئة التـي صودرت فيها الحريات، ولـو كان هناك لومٌ وانتقـاد، فالأجدر أن نتوجه بهما إلى من حمل المستضعفين على التقية، لا أنفسهم.

وستتضح للقارئ في غضـون هذه الرسالـة، انّ التقيّة من المفاهيم القـرآنية التي وردت في أكثـر من مـوضع في القـرآن الكـريم، وفي تلك الآيـات إشـارات واضحة إلى الموارد التي يلجأ فيها المؤمن إلى استخدام هذا المسلك الشرعي خلال حياته أثنـاء الظروف العصيبة، ليصون بها نفسه وعرضـه وماله، أو نفسَ من يمتُّ إليه بصلة وعرضَه ومالَه، كما استعملهـا مؤمن آل فرعون لصيانة الكليم عن القتل والتنكيل[١] ولاذ بها عمّـار عندما أُخـذ وأُسِر و هُدِّد بالقتل[٢]، إلى غير ذلك من الموارد الواردة في الكتاب والسنّة، فمن المحتّم علينا أن نتعرّف عليها، مفهوماً (لغة و اصطلاحـاً)، و تاريخاً وغـايةً ودليـلاً وحدّاً، حتى نتجنَّب الإفـراط والتفريط في مقام القضاء والتطبيق.

وتحقيق المسألة يتم ببيان أُمور:

١. القصص: ٢٠.

٢. النحل: ١٠٦.

١

التقية لغة

التقيـة اسم مصدر لــ«إتقى يتقي» و أصل اتقىٰ: إوتقىٰ فقلبت الـواو ياءً للكسرة قبلها، ثـمّ أُبدلت تـاءً وادغمت وقد تكـرر ذكر الاتقاء في الحديـث ومنه حديث علي: «كنّا إذا احمـرّ البأس اتقينا برسـول الله»، أي جعلناه وقايـة لنا من العدو.[١]

وقد أخذ «اتقى» من وقي الشيء، يقيه إذا صانه، قال الله تعالى: **﴿فَوقاهُ اللهُ سيّئاتِ ما مَكَرُوا﴾**[٢] أي حماه منهم فلم يضرّه مكرهم.

وربما تستعمل مكان التقية لفظة «التُّقاة» قال سبحانه: **﴿لا يَتّخِذِ المُؤمِنُونَ الكـافـرينَ أولِيـاءَ مِنْ دُونِ المؤمِنينَ ومَن يَفْعَلْ ذلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ في شيْءٍ إلاّ أن تَتَّقُوا مِنْهُم تُقاة﴾**.[٣]

قرأ الأكثر «تقاة» إلاّ يعقوب فقرأ «تقيّة» وكلاهما مصدر لفعل اتقى«فتقاة» أصلـه «وقية» أبـدلت الـواو تـاءً كما أبدلـوهـا في تُجاة وتكاة وانقلبـت الياء ألفـاً لتحركها وانفتاح ما قبلها، وهو مصدر على وزن فُعل كتؤدد وتخمة.[٤]

١.النهاية: مادة وقي.
٢.غافر:٤٥.
٣. آل عمران:٢٨.
٤. عن تعليق أحمد محمد شاكر على دائرة المعارف الإسلامية:٥/ ٤٢٣.

٢

التقية اصطلاحاً

التقية كما عرّفها السرخسي هي أن يقي الإنسان نفسه بما يظهره و إن كان ما يضمر خلافه.[١]

وقال ابن حجر: التقية: الحذر من إظهار ما في النفس من معتقد وغيره للغير.[٢]

وعرفها صاحب المنار بأنّها ما يقال أو يفعل مخالفاً للحقّ لأجل توقّي الضرر.[٣]

وعرفها الشيخ محمد أبو زهرة بأنّها أن يخفي الشخص ما يعتقد دفعاً للأذى.[٤]

والتعريف الثالث أشمل من الرابع لاختصاص الأخير بالعقيدة وعمومية الآخر لها وللفعل.

---

١. المبسوط للسرخسي: ٢٥/ ٤٥.

٢. فتح الباري: ١٢/ ٣١٤، ط المكتبة السلفية.

٣. تفسير المنار: ٣/ ٢٨٠.

٤. محمد أبو زهرة: الإمام الصادق: ٢٥٥.

وأمّا الشيعة فقد عرّفها الشيخ المفيد بقوله: التقية كتمان الحقّ وستر الاعتقاد فيه، ومكاتمة المخالفين وترك مظاهرتهم بما يعقب ضرراً في الدين أو الدنيا.

وفُرض ذلك، إذا علم بالضرورة أو قوي في الظن، فمتى لم يعلم ضرراً بإظهار الحقّ ولا قوي في الظن ذلك لم يجب فرض التقية.[١]

وعرفها الشيخ الأنصاري بقوله: التحفّظ عن ضرر الغير بموافقته في قول أو فعل مخالف للحقّ.[٢]

١. شرح عقائد الصدوق: ٦٦، ط تبريز.

٢. رسالة التقية للشيخ الأنصاري: ٣٧.

٣

التقية تاريخيّاً

ربما يتصوّر لأول وهلة انّ للتقية مبدأً تاريخياً ظهر في المجتمع الإنساني، ولكن هذا التصور يجانب الحقّ، فظاهرةُ التقية زامنت وجود الإنسان على هذا الكوكب يوم برز بين البشر القويّ و الضعيف، وصادر الأوّل حريات الثاني ولم يسمح له بإبداء ما يضمره عن طريق القول والفعل.

فظهور التقية في المجتمع البشري إذن، كان تعبيراً عن مصادرة الحريات، وسلاحاً لم يجد الضعيف بدّاً من اللجوء إليه للدفاع عن نفسه وعرضه وماله.

١. التقيّة في عصر الكليم

وأظهر مورد تبنّاه القرآن الكريم في هذا الصدد هو مؤمن آل فرعون، يقول الله تعالى:

﴿ وَقالَ رَجُلٌ مُؤمِنٌ مِنْ آلِ فِرعَوْنَ يكْتُمُ إِيمانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبّي اللهُ وقَدْ جاءَكُمْ بِالبَيِّناتِ مِنْ رَبّكُمْ وَإِن يَكُ كاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صادِقاً يُصِبكُمْ بَعْضُ الّذِي يَعِدُكُم إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذّاب﴾.(١)

---

١. غافر:٢٨.

وكانت عاقبة أمره أن﴿ **فَوقاهُ الله سيّئـاتِ ما مَكَرُوا وحَاقَ بآلِ فِـرْعَوْنَ سُوءُ العَذاب**﴾.(١)

ومـا كان ذلـك إلاّ لأنّه بتعميتـه، استطـاع أن ينجّي نبيَّ الله من القتل كما يحكيه سبحانه عنه ويقول: ﴿ **قالَ يا مُوسى إنَّ المَـلأَ يَأتمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاْخْرُجْ إنّي لَكَ مِنَ النّاصِحِين**﴾.(٢)

نقل الثعلبي عن السدي و مقـاتل انّ مؤمن آل فرعون كان ابـن عم فرعون وهو الذي أخبر الله تعالى عنه فقال: ﴿ **وجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أقْصَى المَدِينَةِ يَسْعَى**﴾.(٣)

وقال آخرون: كان إسرائيلياً، ومجاز الآيـة: وقال رجل مؤمن يكتم إيمانه من آل فرعونْ، واختلفوا أيضاً في اسمه.

فقال ابن عباس وأكثر العلماء: اسمه حزبيل.

وقال وهب بن منبه: اسمه حزيقال.

وقال ابن إسحاق: خبرل.(٤)

٢ . التقية في عصر الرسول

هناك حوادث تـاريخية تدلّ على شرعية التقيـة في عصر الرسولﷺ نكتفي بهذين النموذجين:

١ .يقول سبحانه: ﴿**مَنْ كَفَرَ بِاللهِ مِنْ بَعْدِ إيمـانِهِ إلاّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌ بِالإيمان**﴾.(٥)

قال المفسرون: قد نزلت الآية في جماعة أُكرِهُوا على الكفر، وهم عمّار و أبوه

---

١ .غافر:٤٥

٢و٣.القصص:٢٠.

٤ .تفسير الثعلبي:٨/ ٢٧٣.

٥.النحل:١٠٦.

ياسر وأُمّـه سُميّة، و قُتـل الأبوان لأنّهما لم يُظهــرا الكفـر ولم ينــالا من النبي، وأعطاهم عمّارُ ما أرادوا منه فأطلقوه، ثمّ أخبر بذلك رسول الله، وانتشر خبره بين المسلمين، فقال قوم: كفر عمار، فقـال الرسول ﷺ: «كـلاّ انّ عماراً ملئ إيمانـاً من قرنه إلى قدمه، واختلط الإيمان بلحمه ودمه».

وفي ذلك نزلت الآيـة السابقة، وكـان عمّار يبكي، فجعل رسول الله يَمْسَحَ عينيه، ويقول: «إن عادُوا لك فعُد لهم بما قلت».(١)

٢. أخرج ابن أبي شيبـة عن الحسن، انّ مسيلمة الكـذاب أخذ رجلين من أصحاب رسول الله ﷺ فقال لأحدهما:

أتشهد انّ محمّداً رسول الله؟ قال: نعم، قال: أفتشهد أني رسول الله؟ قال: نعم، ثمّ دعـا بالآخـر فقال: أتشهـد أنّ محمّـداً رسول الله؟ قـال: نعم، فقال لـه: أفتشهد انّي رسـول الله؟ قال: إنّي أصمّ. قـالها ثلاثاً، كـل ذلك يجيبه بمثل الأوّل، فضرب عُنقُه، فبلغ ذلـك رسول الله ﷺ فقال: أمّا ذلـك المقتول فقد مضى على صدقه ويقينه، وأخذ بفضله، فهنيئاً له.

وأمّا الآخر فقبلَ رخصة الله فلا تبعةَ عليه.(٢)

٣. التقية بعد رحيل الرسول ﷺ

قد استغل الأمـويُّون مسألة القضاء والقدر وركّـزوا على أنّ كلّ ما يجري في

---

١. مجمع البيان: ٣/ ٣٨٨

٢. مسند ابن أبي شيبة: ١٢/ ٣٥٨، ط السلفية؛ التبيان: ٢/ ٤٥٣، وقد علق الطوسي على الرواية وقال: وعلى هذا التقية رخصة، والافصـاح بالحق فضيلة، وظاهر أخبارنا يـدلّ على انها واجبة، وخلافها خطأ وسيوافيك أنّها على أقسام خمسة.

المجتمع الإسلامي بقضاء و قدر من الله سبحانه وليس لأحد فيه الاختيار ولا الاعتراض، وعلى ذلك فالفقر المدقع السائد بين أكثر المسلمين تقدير من الله، والترف الذي يعيشه الأمويون، والظلم الذي يُلحقونه بالمسلمين تقدير من الله.

ولما كانت تلك المزعمة مخالفة لضرورة الدين وبعثة الأنبياء، قام غير واحد بوجه هذه الفكرة، وسكت كثيرون خوفاً من بطش الأمويين، فكتموا عقيدتهم وسلكوا مسلك التقيّة.

١. هذا هو ابن سعد يروي عن الحسن البصري بأنّه كان يخالف الأمويين في القدر بالمعنى الذي تتبنّاه السلطة آنذاك فلما خوّفه بعض أصدقائه من السلطان، وعد أن لا يعود.

روى ابن سعد في طبقاته عن أيوب قال: نازلت الحسن في القدر غير مرة حتّى خوّفته من السلطان، فقال: لا أعود بعد اليوم.[١]

٢. كتب المأمون إلى إسحاق بن إبراهيم رئيس الشرطة في بغداد أن يُشخص إليه سبعة نفر من المحدثين منهم:

١. محمد بن سعد كاتب الواقدي، ٢. أبو مسلم، مستملي يزيد بن هارون، ٣. يحيى بن معين، ٤. زهير بن حرب أبو خثيمة، ٥. إسماعيل بن داود، ٦. إسماعيل بن أبي مسعود، ٧. أحمد بن الدورقي فامتحنهم المأمون وسألهم عن خلق القرآن، فأجابوا جميعاً انّ القرآن مخلوق فأشخصهم إلى مدينة السلام، وأحضرهم إسحاق بن إبراهيم داره فشهّر أمرهم وقولهم بحضرة الفقهاء والمشايخ من أهل الحديث فأقرّوا بمثل ما أجابوا به المأمون فخلّى سبيلهم. وقد فعل إسحاق بن إبراهيم ذلك بأمر المأمون.

---

١. طبقات ابن سعد: ٧/ ١٦٧، ط بيروت.

يذكر أن الرأي الـذي كان سـائداً بين المحدّثين هـو قدم القـرآن أو عدم حدوثه ولكنّهم اتّقوا واعترفوا بخلق القـرآن، و هذا هو نفس التقية التي يعمل بها الشيعة، وقد مارسها المحدِّثون في عصر المأمون.

وهناك رسـالة أُخرى للمأمـون إلى إسحاق بن إبراهيم رئيس الشرطـة، ومما جاء فيهـا: وليس يَرى أمير المؤمنين لمن قال بهذه المقـالة(القـرآن ليس بمخلوق) حظاً في الدين ولا نصيباً من الإيمان....

فلما جاءت الرسالة إلى إسحـاق بن إبراهيم أحضر لفيفاً من المحدّثين ربما يبلغ عددهم إلى ٢٦ فقرأ عليهم رسالة المأمون مرتين حتّى فهموها ثمّ انّ إسحاق دعا بهم رجلاً رجـلاً فأجاب القوم كلّهم واعترفوا بأنّ القرآن مخلـوق إلاّ أربعة نفر منهم:

أحمد بن حنبل، وسجادة، والقواريري، ومحمـد بن نوح المضروب، فأمر بهم إسحاق بن إبراهيم فشُدُّوا في الحديد، فلما كان من الغد دعا بهم جميعاً يساقون في الحديد فأعاد عليهم المحنة فأجابه سجادة إلى أنّ القرآن مخلوق فأمر بإطلاق قيده وخلّىٰ سبيله وأصرّ الآخرون على قولهم.

فلما كـان من بعـد الغـد عـاودهم أيضـاً فأعـاد عليهم القـول، فأجـاب القواريري بأنّ القرآن مخلوق فأمر بإطلاق قيده وخلّىٰ سبيله، وأصرّ أحمد بن حنبل و محمد بن نـوح على قولهما ولم يرجعا فشـدّا جميعاً في الحديد ووُجِّها إلى طـرسوس وكتب معهما كتاباً بإشخاصهما.

ثمّ لما اعتُرِض على الـراجعين عن عقيـدتهم، بـرّروا عملهم بعمل عمار بن ياسر حيث أكره على الشرك وقلبه مطمئن بالإيمان.[1]

---

١. لاحظ تاريخ الطبري: ٧/ ١٩٧، حوادث ٢١٨هـ.

كلّ ذلك يدلّ على انّ التقيــة أصل مشروع التزم بها المسلمون عنـد الشعور بالضعف أمام السلطة الغاشمة.

وبذلك يظهر انّ اتهام الشيعـة بتفرّدها بالقول بالتقية يضــادُّ الذكر الحكيم والسنة النبوية وسيرة المسلمين عبر التاريخ.

إنّ التقية سـلاح الضعيف، سلاح من صُودرتْ حقـوقه وحرّيـاته من قبل سلطة غاشمة، قاهرة، لا تُبدي أية مـرونة في مواقفها، وهذا هو حكم العقل وهو دفع الضرر عن النفس والنفيس بإظهار الموافقـة لساناً وعمـلاً حتّى يرتفع الضرر ثمّ يعود الإنسان إلى ما كان عليه.

ومثل هذا لا يمكن أن يختص بفرقة دون أُخرى.

٤

محنة الشيعة

في عصر الأمويين والعباسيين

اشتهرت الشيعة بالتقيّة أكثر من سائر الفرق، ولكونهم أكثر من غيرهم من حيث التعرّض للضغط، ومصادرة الحريّات، بـالظنّة، والتشريد والقتل تحت كلّ حجر ومدر.

إنّ الذي دفع بـالشيعة إلى التقية بين إخوانهم وأبنـاء دينهم إنّما هو الخوف من السلطات الغاشمـة، فلو لم يكن هناك في غابر القـرون ــ من عصـر الأمويين ثمّ العباسيين والعثمانيين ــ أيُّ ضغط على الشيعة، ولم تكن بـلادهم وعُقر دارهم مخضّبة بدمائهم (والتـاريخ خير شاهد على ذلك)، لأصبح من المعقول أن تَنْسى الشيعة كلمة التقيـة وأن تحذفها من قاموس حياتها، ولكن ـ يـاللأسف ـ إنّ كثيراً من إخوانهم كانوا أداة طيّعة بيد الأمويين والعباسيين الذين كانوا يرون في مذهب الشيعة خطـراً على مناصبهم، فكـانوا يـؤلِّبون العـامة من أهل السنّـة على الشيعة يقتلونهم ويضطهدونهم وينكلون بهم، ولذا ونتيجة لتلك الظروف الصعبة، لم يكن للشيعـة، بل لكل من يملك شيئاً من العقل وسيلـة إلاّ اللجوء إلى التقيـة أو رفع

اليد عن المبادئ المقدّسة التي هي أغلى عنده من نفسه وماله.

والشواهد على ذلك أكثر من أن تُحصى أو أن تعدَّ، إلاّ أنّا سنستعرض جانباً مختصراً منها: فمن ذلك ما كتبه معاوية بن أبي سفيان باستباحة دماء الشيعة أينما كانوا وكيفما كانوا، وإليك نص ما ذكرته المصادر عن هذه الواقعة لتدرك محنة الشيعة:

محنة الشيعة في العصر الأموي

روى أبو الحسن علي بن محمّد بن أبي سيف المدائني في كتاب «الأحداث» قال: كتب معاوية نسخة واحدة إلى عُمّاله بعد عام الجماعة: أن برئت الذمة ممن روى شيئاً من فضل أبي تراب وأهل بيته، فقامت الخطباء في كل كورة، وعلى كل منبر، يلعنون علياً ويتبرأون منه ويقعون فيه وفي أهل بيته، وكان أشد الناس بلاء حينئذ أهل الكوفة، لكثرة مَن بها من شيعة علي عليه السلام فاستعمل عليها زياد بن سمية، وضم إليه البصرة، فكان يتتبّع الشيعة وهو بهم عارف، لأنّه كان منهم أيام علي عليه السلام، فقتلهم تحت كل حجر ومدر، وأخافهم، وقطع الأيدي والأرجل، وسَمَلَ العيون، وصلبهم على جذوع النخل، وطردهم وشرَّدهم عن العراق، فلم يبق بها معروف منهم، وكتب معاوية إلى عمّاله في جميع الآفاق: ألاّ يجيزوا لأحد من شيعة علي وأهل بيته شهادة.

ثمّ كتب إلى عمّاله نسخة واحدة إلى جميع البلدان: انظروا من قامت عليه البيّنة أنّه يحبّ علياً وأهل بيته، فامحوه من الديوان، وأسقطوا عطاءه ورزقه، وشفع ذلك بنسخة أُخرى: مَن اتهمتموه بموالاة هؤلاء القوم، فنكّلوا به، واهدموا داره. فلم يكن البلاء أشد ولا أكثر منه بالعراق، ولا سيّما بالكوفة حتّى أنّ الرجل من

شيعة علي عليه السلام ليأتيه من يثق به، فيدخل بيتـه، فيُلقي إليه سرّه، ويخاف من خادمه ومملوكه، ولايحدّثه حتى يأخذ عليه الأيمان الغليظة، ليكتمنَّ عليه.

وأضـاف ابن أبي الحديـد: فلم يـزل الأمـر كـذلك حتى مـات الحسن بن علي عليه السلام، فازداد البـلاء والفتنة، فلم يبق أحد من هذا القبيل إلاّ وهـو خائف على دمه، أو طـريد في الأرض.

ثمّ تفاقم الأمر بعد قتل الحسين عليه السلام، وولي عبد الملك بن مروان، فاشتد على الشيعـة، وولّـى عليهم الحجـاج بن يوسف، فتقـرَّب إليه أهل النسك والصـلاح والـدين ببغض علي ومـوالاة أعـدائه، وموالاة من يـدعي من النـاس أنّهم أيضـاً أعداؤه، فأكثروا في الرواية في فضلهم وسوابقهم ومناقبهم، وأكثروا من البغض من علي عليه السلام وعيبه، والطعن فيه، والشنآن له، حتى أنّ إنسـاناً وقف للحجاج ـ ويقال إنّه جـد الأصمعي عبد الملـك بن قريب ــ فصاح بـه: أيّها الأمير إنّ أهلي عقوني فسمّـوني عليـاً، وإنّي فقير وبـائس وأنـا إلى صلـة الأمير محتـاج، فتضـاحك لـه الحجاج، وقال: للطف ما توسّلتَ به، قد ولّيتك موضع كذا.[1]

واستمـر الحزب الأمـوي في الإرهاب وسفـك الدمـاء على امتـداد مـراحل وجـوده في السلطة، حيث سجّل لنـا التاريخ حـوادث أُخرى تحكي أبشع صـور الإرهاب والاستخفاف بقيـم الحق والعدل أيام عبد الملك بن مـروان وقتله سعيد بن جبير. وقد جاء في كتاب عبد الملك بن مـروان الذي ولّى فيه خالد بن عبد الله القسري:

أمّا بعد، فانّي ولّيت عليكم خالد بن عبد الله القسري، فاسمعوا له وأطيعوا، ولا يجعلن امرؤ على نفسه سبيلاً، فإنّما هو القتل لا غير، وقد برئت الذمة من رجل

---

١. شرح نهج البلاغة: ١١/ ٤٤ـ٤٦.

آوى سعيد بن جبير، والسلام. ثمّ التفت إليهم خالد، وقال: والذي نحلف به، ونحجُّ إليه، لا أجده في دار أحد إلاّ قتلته وهدمت داره ودار كلّ من جاوره واستبحت حرمته،وقد أجّلت لكم فيه ثلاثة أيّام.(١)

ثمّ يُلقى القبض على سعيد بن جبير الذي كان من طلائع الموالين لآل البيت النبوي، ويُسلَّم إلى الحجاج السفّاح الشهير في تاريخ الإسلام الذي قتل عشرات الآلاف من معارضي السلطة، فيقتله.

وهذا هو الإمام الباقر عليه السلام يصف بيئته والمجتمع الذي كان يعيش فيه حيث قال لبعض أصحابه: يا فلان، ما لقينا من ظلم قريش إيانا، وتظاهرهم علينا، وما لقي شيعتنا ومحبونا من الناس... ـ إلى أن قال ـ ثمّ لم نزل ـ أهلَ البيت ـ نُستذل ونُستضام، ونُقصى ونُمتهن، ونُحرم ونُقتل، ونخاف ولا نأمن على دمائنا ودماء أوليائنا، ووجد الكاذبون الجاحدون، لكذبهم وجحودهم موضعاً يتقربون به إلى أوليائهم، وقضاة السوء وعمال السوء في كلّ بلدة، فحدثوهم بالأحاديث الموضوعة المكذوبة ورووا عنّا ما لم نقله وما لم نفعله، ليبغّضونا إلى الناس، وكان عُظم ذلك وكبره زمن معاوية بعد موت الحسن عليه السلام فقتلت شيعتنا بكلّ بلدة، وقطعت الأيدي و الأرجل على الظنة، وكان من يذكر بحبنا والانقطاع إلينا سُجن أو نُهب ماله، أو هدمت داره، ثمّ لم يزل البلاء يشتد ويزداد إلى زمان عبيد الله بن زياد قاتل الحسين عليه السلام ثمّ جاء الحجاج فقتلهم كلّ قتلة وأخذهم بكلّ ظنة وتهمة، حتّى انّ الرجل ليقال له زنديق أو كافر أحبّ إليه من أن يقال شيعة علي.(٢)

١. الإمامة والسياسة:٢/ ٤٧، ط مصر.

٢.شرح ابن أبي الحديد:١١/ ٤٣ـ ٤٤.

محنة الشيعة في العصر العباسي

لقد مارست السلطة العباسية سياسة البطش والقتل والتشريد كنظيرتها السلطة الأموية بل كانت أكثر بطشاً وتنكيلاً ، وهذا هو أبو الفرج الاصفهاني يقول في حقّ المتوكل :

كان المتوكل شديد الوطأة على آل أبي طالب ، غليظاً في جماعتهم ، شديد الغيظ والحقد عليهم ، وسوء الظن والتهمة لهم ... واستعمل على المدينة ومكة عمر بن الفرج الرخجي ، فمنع آل أبي طالب من التعرض لمسألة الناس ومنع الناس من البرّ بهم ، وكان لا يبلغه انّ أحداً أبرّ أحداً منهم بشيء ، وإن قل إلاّ أنهكه عقوبة ، وأثقله غرماً ، حتّى كان القميص يكون بين جماعة من العلويات يصلّين فيه واحدة بعد واحدة ثمّ يرقعنه ، ويجلسن على مغازلهن عواري حاسرات .[1]

هكذا شاء أميرالمؤمنين المتوكل على الله، أن تقبع العلويات في بيوتهن عاريات يتبادلن القميص المرقّع عند الصلاة، وان تختال الفاجرات العاهرات بالحلي وحلل الديباج بين الإماء والعبيد... لقد أرسل الرشيد إلى بنات الرسول من يسلب الثياب عن أبدانهن، أمّا المتوكّل فقد شدد و ضيق عليهن، حتّى ألجأهن إلى العري، وهكذا تتطور الفلسفات والمناهج مع الزمن على أيدي القرشيين العرب أبناء الأمجاد والأشراف!

لقد تفرق العلويون أيام المتوكل، فمنهم من توارى فمات في حال تواريه كأحمد بن عيسى الحسين و عبد الله بن موسى الحسيني، و منهم من ثار على القهر

١. مقاتل الطالبين: ٣٩٥ـ٣٩٦.

والجور كمحمد بن صالح و محمد بن جعفر.

ولم يكتف المتوكل بالتنكيل بالأحياء، حتّى اعتدى على قبور الأموات فهدم قبر الحسين عليه السلام وما حوله من المنازل والدور، ومنَع الناس من زيارته ونادى مناديه من وجدناه عند قبر الحسين عليه السلام حبسناه في المطبق ـ سجن تحت الأرض ـ فقال الشاعر:

تالله إن كانت أمية قد أتت ... قتل ابن بنت نبيها مظلوماً
فلقد أتاه بنو أبيه مثلها ... هذا لعمرك قبره مهدوماً
أسفوا على أن لا يكونوا شايعوا ... في قتله فتَتبّعوه رميماً[1]

نعم كانت التقية بين الشيعة تزداد تارة وتتضاءل أُخرى، حسب قوّة الضغط وضآلته، فشتّان بين عصر المأمون الذي يجيز مادحي أهل البيت، ويكرم العلويين، وبين عصر المتوكل الذي يقطع لسان ذاكرهم بفضيلة.

فهذا ابن السكيت أحد أعلام الأدب في زمن المتوكل، وقد اختاره معلّماً لولديه فسأله يوماً: أيّهما أحبُّ إليك ابناي هذان أم الحسن والحسين؟ قال ابن السكيت: والله إنّ قنبر خادم علي عليه السلام خير منك ومن ابنيك. فقال المتوكل: سلّوا لسانه من قفاه، ففعلوا ذلك به فمات. ولما مات سيَّر المتوكل لولده يوسف عشرة آلاف درهم وقال: هذه دية والدك!![2]

وهذا ابن الرومي الشاعر العبقري يقول في قصيدته التي يرثي بها يحيى بن عمر بن الحسين بن زيد بن علي:

---

١. الشيعة والحاكمون: ١٦٩ـ ١٧٠.
٢. ابن خلكان: وفيات الأعيان: ٣/ ٣٣. الذهبي: سير أعلام النبلاء: ١٢/ ١٦.

أكـلّ أوانٍ للنبـيّ محمّـــــــــــــــد
قتيـل زكيّ بـــــالــــدمــــاء مضرَّجُ
بني المصطفى كـم يأكل النـاس شلـــوكم
لبلـــــواكم عمّـــا قليـل مفــــرِّجُ
أبعــــد المكنّى بــــالحسين شهيـــدكم
تضيء مصــــــابيـح السماء فتسرجُ [١]

وكان العباسيون أشـدّ كرهـاً للعلـوييـــن مـن الأمويـيـــن، وأعظم بغضاً فأمعنوا فيهم قتلاً وحـرقاً واضطهاداً وتعذيبـاً، فهذا هو المنصور يُحمل إليه من المدينـة كلّ من كـان فيهـا مـن العلـويين مقيـدين بالسلاسل والأغـلال، ولما وصلوا إليه حبسهم في سجن مظلم لا يعرف فيـه ليل من نهار، و كـان إذا مات أحدهم تُرك معهم و أخيراً أمر بهدم السجن عليهم، وفي ذلك يقول أحد شعراء الشيعة:

والله مـا فعـلت أميـة فيهـم — معشار ما فعلت بنو العباس

وقال آخر:

يا ليت جـور بنـي مـروان دام لنـا — وليت عدل بني العباس في النار[٢]

وقال أبو فراس:

ما نال منهم بنو حرب وإن عظمت — تلـك الجـــرائم إلاّ دون نيلكـــم

---

١. ديوان ابن الرومي: ٢/ ٢٤٣.

٢. الشعر لأبي عطاء السندي.

وقال الشريف الرضي:

ألا ليس فعل الأولين و إن علا على قبح فعل الآخرين بزائد

وقال الشيخ الطوسي الذي كان يعيش في عصر ازدهار الخلافة العباسية، وهو يصف حال الشيعة:

لم تلق فرقة ولا بُلي أهل مذهب بما بُليت به الشيعة، حتّى إنّا لانكاد نعرف زماناً تقدّم سلمت فيه الشيعة من الخوف و لزوم التقية، ولا حالاً عريت فيه من قصد السلطان وعصبيته وميله وانحرافه.[١]

هذه لمحة خاطفة لمحنة الشيعة في العصر العباسي وقد دام الأمر على هذه الوتيرة في العصور المتأخرة لاسيما في عصر الأيوبيين والعثمانيين.

محنة الشيعة في العصرين: الأيوبي والعثماني

ما إن انتزع صلاح الدين الأيوبي الملك من الفاطميين حتّى قام بعزل القضاة الشيعة واستناب عنهم قضاة شافعية، وأبطل من الأذان «حي على خير العمل» وتظاهر الناس بمذهب مالك والشافعي، واختفى مذهب التشيع إلى أن نسي من مصر، و كان يحمل الناس على التسنن وعقيدة الأشعري، ومن خالف ضربت عنقه، وأمر أن لاتقبل شهادة أحد ولا يقدم للخطابة ولا للتدريس إلّا إذا كان مقلداً لأحد المذاهب الأربعة، قال الخفاجي في كتابه «الأزهر في ألف عام»[٢] ما نصه: فقد غالى الأيوبيون في القضاء على كلّ أثر للشيعة.

---

١. الطوسي: تلخيص الشافي: ٢/ ٥٩.

٢. الأزهر في ألف عام: ١/ ٥٨.

وأمّا في العصر العثماني فقد تولى السلطان سليم زعامة السنة واستحصل على فتوى من شيوخ السوء بأنّ الشيعة خارجون على الدين يجب قتلهم ولذلك أمر بقتل كلّ من كان معروفاً بالتشيع داخل بلاده.

وبهذا الأمر قُتل في الاناضول وحدها أربعون ألفاً وقيل سبعون، لا لشيء إلّا لأنّهم شيعة. وجاء في «الفصول المهمة» للسيد شرف الدين انّ الشيخ نوح الحنفي أفتى بكفر الشيعة ووجوب قتلهم، فقتل من جراء هذه الفتوى عشرات الألوف من شيعة حلب حتّى لم يبق فيها شيعي واحد وكان التشيّع فيها راسخاً ومنتشراً منذ كانت حلب عاصمة الدولة الحمدانية، وقد نشأ في حلب منذ القديم العديد من كبار العلماء وأئمة الفقه كبني زهرة وآل أبي جرادة وغيرهم ممن جاء ذكرهم في كتب السير والتراجم خاصة كتاب «أمل الآمل».[1]

وقتل العثمانيون الشهيد الثاني المشهور بفضله وورعه وكتبه العلمية الجليلة التي يدرس بعضها حتّى اليوم في جامعة النجف وقم، وفعل الجزار والي عكا بجبل عامل ما فَعل الحجاج في العراق.

وانتهب الجزار أموال العامليين ومكتباتهم، وكان في مكتبة آل خاتون خمسة آلاف مجلد و بقيت أفران عكا توقد أسبوعاً كاملاً من كتب العامليين، ولم يسلم من ظلم الجزار إلّا من استطاع الفرار، وفي عهده هاجر علماء جبل عامل مشردين في الأقطار، ومن هؤلاء الشاعر الشيعي إبراهيم يحيى الذي هرب إلى دمشق، و في نفسه لوعة وحسرة، وذكرى فظائع الجزار لا تفارقه بحال وقد صورها وهو شاهد عيان في قصائد تدمي الأفئدة والقلوب منها

١. راجع الفصول المهمة:٢٠٦، الفصل التاسع؛ غنية النزوع:١١، المقدمة.

قصيدة طويلة ، يقول فيها :

يعـــز علينـــا أن نـــروح ومصرنـــا   لفـــرعـــون مغنى، يصطفيـــه ومغنم
منـــازل أهل العـــدل منهم خليّـــة   وفيهـــا لأهل الجور جيش عـرمـــرم

هذه لمحة خاطفة لمحنـة الشيعة في العصر العثماني، وعلى الرغم من شيوع الحرية في عصرنـا الراهن فلم تزل الشيعـة في أكثر نقاط العـالم تمارس التقية، و إلاّ يضيق عليها الخناق.

يقول العلاّمـة السيّد هبة الدين الشهرستـاني: إنّ التقية شعار كلّ ضعيف مسلـوب الحريـة. إنّ الشيعـة قد اشتهـرت بـالتقيـة أكثـر من غيرهـا لأنّها مُنيت باستمرار الضغط عليهـا أكثر من أية أُمّة أُخرى، فكانت مسلـوبة الحرية في عهد الدولة الأموية كلّه، وفي عهد العباسيين على طوله، وفي أكثر أيام الدولة العثمانية، ولأجله استشعـروا بشعار التقية أكثـر من أيّ قوم، ولما كـانت الشيعة، تختلف عن الطوائف المخـالفة لها في قسم مهم من الاعتقادات في أُصـول الدين وفي كثير من الأحكام الفقهيّـة، والمخالفة تستجلب بـالطبع رقابـة وتصدقه التجـارب، لذلك أضحت شيعة الأئمّة من آل البيت مضطرّة في أكثر الأحيان إلى كتمان ما تختص به من عـادة أو عقيدة أو فتـوى أو كتـاب أو غير ذلك، تبتغي بهذا الكتمان، صيانـةَ النفس والنفيس، والمحافظة على الوداد والاخـوة مع سائر اخوانهم المسلمين، لئلاّ تنشق عصـا الطـاعـة، ولكي لا يحسّ الكفّـار بـوجـود اختـلاف مـا في المجتمع الإسلامي فيوسع الخلاف بين الأُمّة المحمدية.

لهذه الغايات النـزيهة كانت الشيعة تستعمل التقية وتحافـظ على وفاقها في الظـواهر مع الطـوائف الأُخـرى، متبعـة في ذلك سيرة الأئمّـة من آل محمـد

وأحكامهم الصارمة حول وجوب التقية من قبيل: «التقية ديني ودين آبائي»، إذ أنّ دين الله يمشي على سنّة التقية لمسلوبي الحرية، دلّت على ذلك آيات من القرآن العظيم. [١]

روي عن صادق آل البيت عليهم السلام في الأثر الصحيح:

«التقية ديني ودين آبائي».

لقد كانت التقية شعاراً لآل البيت عليهم السلام دفعاً للضرر عنهم، وعن أتباعهم، وحقناً لدمائهم، واستصلاحاً لحال المسلمين، وجمعاً لكلمتهم، ولمّاً لشعثهم، وما زالت سمة تُعرف بها الإمامية دون غيرها من الطوائف والأُمم. وكل إنسان إذا أحسّ بالخطر على نفسه، أو ماله بسبب نشر معتقده، أو التظاهر به لا بد أن يتكتم ويتقي مواضع الخطر. وهذا أمر تقتضيه فطرة العقول.

من المعلوم أنّ الإمامية وأئمّتهم لاقوا من ضروب المحن، وصنوف الضيق على حرياتهم في جميع العهود ما لم تلاقه أية طائفة، أو أُمّة أُخرى، فاضطروا في أكثر عهودهم إلى استعمال التقية في تعاملهم مع المخالفين لهم، وترك مظاهرتهم، وستر عقائدهم، وأعمالهم المختصة بهم عنهم، لما كان يعقب ذلك من الضرر في الدنيا.

ولهذا السبب امتازوا بالتقية وعرفوا بها دون سواهم. [٢]

حصيلة البحث

فحصيلة البحث انّ أوساط الشيعة شهدت مجازر بشعه على يد السلطات

---

١. غافر:٢٨؛ النحل:١٠٦.

٢. مجلة المرشد: ٣/ ٢٥٢، ٢٥٣ولاحظ تعاليق اوائل المقالات ص ٩٦.

الغاشمـة، فقتل الآلاف منهم، وأمّا من بقي منهم على قيد الحياة فقـد تعرض إلى شتى صنوف التنكيل والارهاب والتخويـف، والحقّ يقال: انّ من الأُمور العجيبة أن يبقى لهذه الطائفة باقية رغم كلّ ذلك الظلم الكبير والقتل الذريع بل العجب العجـاب أن تجد هـذه الطـائفـة قد ازدادت قـوة وعـدة وأقـامت دولاً وشيّـدت حضارات وبرز منها الكثير من العلماء والمفكرين.

فلو كـان الأخ السني يرى التقيـة أمراً محرمـاً فليعمل على رفع الضغط عن أخيه الشيعي وأن لا يضيق عليه في الحرية التي سمح بها الإسلام لأبنائه، وليعذره في عقيدتـه وعمله كما عذَرَ أُنـاساً كثيرين خالفوا الكتـاب والسنّة وأراقوا الـدماء ونهبوا الـديار فكيف بطائفـة تدين بـدينه وتتفق معه في كثير من معتقـداته، وإذا كان معاويـة وأبناء بيته والعباسيون كلّهم عنده مجتهـدين في بطشهم وإراقة دماء مخالفيهم فماذا يمنعه عن إعذار الشيعة باعتبارهم مجتهدين.

وإذا كانوا يقـولون ـ و ذاك هو العجيـب ـ انّ الخروج على الإمام علي عليه السلام غير مضرّ بعـدالـة الخارجين والثائريـن عليه، وفي مقـدمتهم طلحـة والـزبير وأُمّ المؤمنين عـائشـة، وإنّ إثـارة الفتـن في صفّين ـ التي انتهـت إلى قتل كثير من الصحابة والتابعين وإراقة دمـاء الآلاف من العراقيين والشاميين ـ لا تنقص شيئاً من ورع المحـاربين!! وهم بعـد ذلك مجتهـدون معذورون لهم ثـواب من اجتهـد وأخطأ، فَلِمَ لا يتعامل مع الشيعة ضمن هـذا الفهم ولايذهب إلى أنّهم معذورون ومثابون!!

٥

الغاية من تشريع التقية

الغـاية من التقيـة: هي صيـانـة النفس والعرض والمال، وذلك في ظـروف قاهرة لا يستطيع فيها المؤمن أن يعلن عن موقفـه الحق صريحاً خوفاً من أن تترتّب على ذلك مضـار وتهلكـة من قـوى ظـالمة غاشمـة تمارس الارهـابَ، والتشريـد والنفي، والقتل والتنكيل، ومصـادرة الأموال، وسلب الحقـوق الحقة، وعنـدئذٍ لا يجد صاحبُ العقيـدة ـ الذي يرى نفسه محقـاً ـ محيصاً عن إبطـانها، والتظاهر بما يوافق هوى الحاكم وتوجّهـاته حتى يسلم من الاضطهاد والتنكيل والقتل، إلى أن يُحدِث الله أمراً.

إنّ التقية سلاح الضعيف في مقابل القوي الغاشم، سلاح من يُبتلىٰ بمن لا يحترم دمه وعرضه وماله، لا لشيء إلاّ لأنّه لا يتفق معه في بعض المبادئ والأفكار.

إنّما يمارس التقية من يعيش في بيئة صودرت فيها الحرية في القول والعمل، والرأي والعقيـدة فلا ينجو المخالف إلاّ بـالصمت والسكوت مُرغماً أو بالتظـاهر بما يوافق هوى السلطة وأفكارها، أو قـد يلجأ إليها البعض كوسيلة لابد منها من أجل اغاثـة الملهوف المضطهد والمستضعف الـذي لا حول له ولا قوة، فيتظـاهر بالعمل إلى جانب الحكومة الظالمة وصـولاً إلى ذلك كما كان عليه مؤمن آل فرعون

الذي حكاه سبحانه في الذكر الحكيم.

إنّ أكثر من يَعيبُ التقية على مستعملها، يتصوّر أو يصوِّر أنّ الغاية منها هو تشكيل جماعات سرية هدفها الهدم والتخريب، كما هو المعروف من الباطنيين والأحزاب الإلحادية السرية، وهو تصوّر خاطئ ذهب إليه أُولئك جهلاً أو عمداً دون أن يرتكزوا في رأيهم هذا على دليل ما أو حجة مقنعة، فأين ما ذكرناه من هذا الذي يُذكر، ولو لم تستبد الظروف القاهرة والأحكام المتعسفة بهذه الجموع المستضعفة من المؤمنين لما كانوا عمدوا إلى التقية، ولما تحمّلوا عبء إخفاء معتقداتهم ولَدَعوا الناس إليها علناً ودون تردّد.

أين العمل الدفاعي بصورة بدائية من الأعمال التي يرتكبها أصحاب الجماعات السرية للإطاحة بالسلطة وامتطاء منصّة الحكم؟ وهي أعمال كلها تخطيطات مدبّرة لغايات ساقطة.

وهؤلاء هم الذين يحملون شعار «الغايات تبرّر الوسائل» فكل قبيح عقلي أو ممنوع شرعي يستباح عندهم لغاية الوصول إلى المقاصد المشؤومة.

إنّ القول بالتشابه بين هؤلاء وبين من يتخذ التقية غطاءً، وسلاحاً دفاعياً ليسلم من شر الغير، حتى لا يُقْتَل ولا يُستأصل، ولا تُنهب داره وماله، إلى أن يُحدث الله أمراً، من قبيل عطف المبائن على مثله.

إنّ المسلمين القاطنين في الاتحاد السوفيتي السابق قد لاقوا من المصائب والمحن ما لا يمكن للعقول أن تحتملها ولاأن تتصورها، فإنّ الشيوعيّين طيلة تسلّطهم على المناطق الإسلامية قلبوا لهم ظهر المِجَنّ، فصادروا أموالهم وأراضيهم، ومساكنهم، ومساجدهم، ومدارسهم، وأحرقوا مكتباتهم، وقتلوا كثيراً منهم قتلاً ذريعاً ووحشياً، فلم ينج منهم إلاّ من اتقاهم بشيء من التظاهر

بالمرونـة، وإخفاء المراسيم الـدينية، والعمل على إقـامة الصـلاة في البيوت إلى أن نجّاهم الله سبحانـه بانحلال تلك القوة الكافرة، فبرز المسلمـون إلى الساحة من جديد، فملكوا أرضهم وديارهم، وأخذوا يستعيدون مجدهم وكرامتهم شيئاً فشيئاً، وما هذا إلاّ ثمرة من ثمار التقية المشروعة التي أباحها الله تعالى لعباده بفضله وكرمه سبحانه على المستضعفين.

فإذا كان هذا معنى التقية ومفهومها، وكانت هذه غايتَها وهدفَها، فهي أمر فطريّ، يسوق الإنسان إليها قبل كل شيء عقلُه ولبُّه، وتدعوه إليها فطرته، ولأجل ذلك يلوذ بها كل من ابتُلي بـالملوك والساسـة الذين لا يحترمون شيئـاً سوى رأيهم وفكـرتهم ومطـامعهم وسلطتهم ولا يترددون عن التنكيل بكل من يعارضهم في ذلك، من غير فـرق بين المسلم ـ شيعيـاً كان أم سنيّاً ــ وغيره، ومن هنـا تظهر جدوى التقية وعمق فائدتها.

ولأجل دعم هذا الأصل الحيويّ، ندرس دليله من القرآن والسنّة.

٦

التقية في الكتاب العزيز

شرّعت التقية بنص القرآن الكريم، حيث وردت فيها جملة من الآيات الكريمة [١] سنحاول استعراضها في الصفحات التالية:

الآية الأُولى:

قال سبحانه: ﴿مَنْ كَفَرَ بِٱللهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإيمَانِ وَلَـٰكِن مَنْ شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾. [٢]

ترى أنّه سبحانه يجوّز إظهار الكفر كرهاً ومجاراةً للكافرين خوفاً منهم، بشرط أن يكون القلب مطمئناً بالإيمان، وصرّح بذلك لفيف من المفسرين القدامىٰ والجُدد، سنحاول أن نستعرض كلمات البعض منهم تجنّباً عن الإطالة والاسهاب، ولمن يبتغي المزيد فعليه مراجعة كتب التفسير المختلفة:

١. قال الطبرسي: قد نزلت الآية في جماعة أُكرهوا على الكفر، وهم عمّار

---

١. غافر: الآية ٢٨ و ٤٥، والقصص: الآية ٢٠، وستوافيك نصوص الآيات في ثنايا البحث.

٢. النحل:١٠٦.

وأبـوه ياسر وأُمّـه سميـة، وقُتلَ الأبـوان لأنّهما لم يظهرا الكفـر ولم ينـالا من النبيّ، وأعطاهم عمّـار ما أرادوا منه، فأطلقوه، ثمّ أخبر عمّـار بذلك رسول الله، وانتشر خبره بين المسلمين، فقال قـوم: كفر عمّــار، فقال الـرسول: «كـلاّ إنّ عمّـاراً مُلئ إيماناً من قرنه إلى قدمه، واختلط الإيمان بلحمه ودمه».

وفي ذلك نزلت الآية السابقة، وكان عمّـار يبكي، فجعل رسول الله يمسح عينيه ويقول: «إن عادوا لك فعد لهم بما قلت» .[١]

٢. وقال الزمخشري: روي أنّ أُناساً من أهل مكّـة فُتِنُوا فارتدّوا عن الإسلام بعد دخولهم فيه، وكـان فيهم من أُكره وأجرى كلمة الكفر على لســانه وهو معتقد للإيمان، منهم عمّـار بن ياسر وأبواه: ياسر وسمية، وصهيب وبلال وخبّاب.

أمّا عمّـار فأعطاهم ما أرادوا بلسانه مكرهاً ....[٢]

٣. وقال الحافظ ابن ماجة: والايتاء: معناه الاعطاء أن وافقوا المشركين على ما أرادوا منهم تقية، والتقية في مثل هذه الحال جائزة، لقوله تعالى: ﴿إِلاّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَـانِ﴾.[٣]

٤. وقال القرطبي: قـال الحسن: التقية جائزة للإنسان إلى يوم القيـامة ـ ثمّ قال: ــ أجمع أهل العلم على أنّ من أُكره على الكفـر حتّى خشى على نفسه القتل إنّه لا إثم عليـه إن كفر وقلبه مطمئن بالإيمان ولا تَبين منه زوجتـه ولا يُحكم عليه بالكفر، هذا قول مالك والكوفيين والشافعي.[٤]

---

١. مجمع البيان: ٣/ ٣٨٨.

٢. الكشاف عن حقائق التنزيل: ٢/ ٤٣٠.

٣. ابن ماجة: السنن: ١/ ٥٣، شرح حديث رقم ١٥٠.

٤. الجامع لأحكام القرآن: ٤/ ٥٧.

٥. قال الخازن: التقية لا تكون إلاّ مع خوف القتل مع سلامة النيّة، قال الله تعالى: ﴿**إلاّ من أُكره وقلبه مطمئن بالإيمان**﴾ ثمّ هذه التقية رخصة. [١]

٦. قال الخطيب الشربيني: ﴿**إلاّ من أُكره**﴾ أي على التلفّظ به ﴿**وقلبه مطمئن بالإيمان**﴾ فلا شيء عليه لأنّ محل الإيمان هو القلب. [٢]

٧. وقال إسماعيل حقّي: ﴿**إلاّ من أُكره**﴾ أُجبر على ذلك اللفظ بأمر يخاف على نفسه أو عضو من أعضائه ... لأنّ الكفر اعتقاد، والإكراه على القول دون الاعتقاد، والمعنى: «ولكن المكره على الكفر باللسان»، ﴿**وقلبه مطمئن بالإيمان**﴾ لا تتغير عقيدته، وفيه دليل على أنّ الإيمان المنجي المعتبر عند الله، هو التصديق بالقلب. [٣]

الآية الثانية:

قال سبحانه: ﴿**لا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللهِ ٱلْمَصِيرُ**﴾. [٤]

وكلمات المفسّرين حول الآية تغنينا عن أي توضيح:

١. قال الطبري: ﴿**إلاّ أن تتقوا منهم تقاة**﴾: قال أبو العالية: التقية باللسان، وليس بالعمل، حُدّثت عن الحسين قال: سمعت أبا معاذ قال: أخبرنا

---

١. تفسير الخازن: ١/ ٢٧٧.

٢. السراج المنير. في تفسير الآية.

٣. تفسير روح البيان: ٥/ ٨٤.

٤. آل عمران: ٢٨.

عبيد قال: سمعت الضحّاك يقول في قوله تعالى: ﴿ **إلاّ أن تتّقوا منهم تقاة** ﴾ قال: التقيّـة باللسـان من حُمِلَ على أمـر يتكلّم به وهـو لله معصيـة فتكلم مخافة نفسـه ﴿**وقلبه مطمئن بالإيمان**﴾ فلا إثم عليه، إنّما التقية باللسان. [١]

٢. وقال الزمخشري في تفسير قوله تعالى: ﴿ **إلاّ أن تتّقوا منهم تقاة** ﴾: رخّص لهم في موالاتهم إذا خافوهم، والمراد بتلك الموالاة: مخالفة ومعاشرة ظاهرة، والقلب مطمئن بالعداوة والبغضاء وانتظار زوال المانع. [٢]

٣. قال الرازي في تفسير قـوله تعالى: ﴿ **إلاّ أن تتّقوا منهـم تقاة**﴾: المسألة الرابعة: اعلم: أنّ للتقية أحكاماً كثيرة، ونحن نذكر بعضها:

ألف: إنّ التقيّـة إنّما تكون إذا كان الـرجل في قوم كفّـار، ويخاف منهم على نفسه، ومـاله، فيداريهم باللسـان، وذلك بأن لا يظهر العداوة بـاللسان، بل يجوز أيضاً أن يظهر الكلام الموهم للمحبـة والموالاة، ولكن بشرط أن يضمر خلافه وأن يعرض في كل ما يقول، فإنّ للتقيّة تأثيرها في الظاهر لا في أحوال القلوب.

ب: التقيّة جـائزة لصون النفس، وهل هي جـائزة: لصون المال؟ يحتمل أن يحكم فيها بالجواز، لقوله ﷺ: «حرمة مال المسلم كحـرمة دمه»، ولقوله ﷺ: «من قتل دون ماله فهو شهيد». [٣]

٤. وقال النسفي: ﴿ **إلاّ أن تتّقوا منهم تقاة** ﴾ إلاّ أن تخافوا جهتهم أمراً يجب اتّقاؤه، أي ألاّ يكـون للكافر عليك سلطـان فتخافه على نفسك ومـالك فحينئذ يجوز لك اظهار الموالاة وإبطان المعاداة. [٤]

---

١. جامع البيان: ٣/ ١٥٣.

٢. الكشاف: ١/ ٤٢٢.

٣. مفاتيح الغيب: ٨/ ١٣.

٤. تفسير النسفي بهامش تفسير الخازن: ١/ ٢٧٧.

٥. وقال الآلوسي: وفي الآيـة دليل على مشروعية التقية وعرّفوهـا بمحافظة النفس أو العرض أو المال من شر الأعداء. والعدو قسمان:

الأوّل: من كانت عداوته مبنية على اختلاف الدين، كالكافر والمسلم.

الثاني: من كانت عـداوته مبنية على أغراض دنيويـة، كالمال والمتاع والملك والامارة. [١]

٦. وقال جمال الدين القاسمي: ومن هذه الآية: ﴿ **إلاّ أن تتّقوا منهم تقاة**﴾ استنبط الأئمّة مشروعية التقية عند الخوف، وقد نقل الإجماع على جوازها عند ذلك الإمام مرتضى اليماني في كتابه (إيثار الحق على الخلق). [٢]

٧. وفسّـر المراغي قوله تعالى: ﴿ **إلاّ أن تتّقوا منهم تقاة**﴾ بقوله: أي انّ ترك موالاة المؤمنين للكافرين حتم لازم في كل حال إلاّ في حال الخوف من شيء تتّقونه منهم، فلكم حينئذ أن تتّقـوهم بقدر مـا يتقى ذلك الشيء، إذ القاعـدة الشرعية: «إنّ درء المفاسد مقدّم على جلب المصالح».

وإذا جازت موالاتهم لاتّقـاء الضرر فأولى أن تجوز لمنفعة المسلمين، إذاً فلا مانع من أن تحالف دولـة إسلامية دولـة غير مسلمة، لفائدة تعـود إلى الأُولى، إمّا بـدفـع ضرر أو جلب منفعـة، وليس لها أن تـواليهـا في شيء يضر المسلمين، ولا تختص هذه الموالاة بحال الضعف، بل هي جائزة في كل وقت.

وقد استنبط العلماء من هذه الآية جواز التقية بأن يقول الإنسان أو يفعل ما يخالف الحق، لأجل التوقّي من ضرر يعـود من الأعداء إلى النفس، أو العرض، أو المال.

---

١. روح المعاني: ٣/ ١٢١.

٢. محاسن التأويل: ٤/ ٨٢.

فمن نطق بكلمة الكفر مكرهاً وقاية لنفسه من الهلاك، وقلبه مطمئن بالإيمان، لا يكون كافراً بل يُعذر كما فعل عمّار بن ياسر حين أكرهته قريش على الكفر فوافقها مكرهاً وقلبه مطمئن بالإيمان، وفيه نزلت الآية:

﴿مَنْ كَفَرَ بِٱللهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإيمان﴾.(١)

هذه الجمل الوافية والعبارات المستفيضة لا تدع لقائل مقالاً إلاّ أن يحكم بشرعية التقيّة بالمعنى الذي عرفته، بل قد لا يجد أحد مفسّراً أو فقيهاً وقف على مفهومها وغايتها، وهو يتردد في الحكم بجوازها، كما أنّك ـ أخي القارئ ـ لا تجد إنساناً واعياً لا يستعملها في ظروف عصيبة، ما لم تترتّب عليها مفسدة عظيمة، كما سيوافيك بيانها عند البحث عن حدودها.

وإنّما المعارض لجوازها أو المغالط في مشروعيتها، فإنّما يفسّرها بالتقية الرائجة بين أصحاب التنظيمات السرية والمذاهب الهدّامة كالباطنية وأمثالهم، إلاّ أنّ المسلمين جميعاً بريئون من هذه التقية الهدّامة لكل فضيلة رابية.

الآية الثالثة:

قوله سبحانه: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إيمانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَاتِ مِن رَبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقَاً يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يهدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾.(٢)

وكانت عاقبة أمره أن: ﴿فَوَقَاهُ اللهُ سِيِّئَاتِ مَا مَكَرُواْ وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ

---

١. تفسير المراغي: ٣/ ١٣٦.

٢. غافر: ٢٨.

ٱلْعَذَابِ﴾.[١]

وما كان ذلك إلّا لأنّه بتقيّته استطاع أن ينجي نبيّ الله من الموت: ﴿قَالَ يَامُوسَىٰ إِنَّ ٱلملأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّاصِحِينَ﴾.[٢]

وهذه الآيات تدل على جواز التقية لإنقاذ المؤمن من شرّ عدوّه الكافر.

---

١. غافر: ٤٥.

٢. القصص: ٢٠.

٧

التقيّة في السنّة النبويّة

دلّت الروايات على أنّ الوجوب والحرمة ترتفع عند طروء الاضطرار، الذي تعدّ التقية من مصاديقه وأوضح دليل على ذلك هو حديث الرفع الذي رواه الفريقان.

١. روى الصدوق بسند صحيح في خصاله عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «رفع عن أُمّتي تسعة: الخطأ، والنسيان، وما أُكرهوا عليه، وما لا يطيقون، وما لا يعلمون، وما اضطروا إليه، والحسد، والطيرة، والتفكّر في الوسوسة في الخلق ما لم ينطق بشفة».[1]

إنّ للحديث دوراً في مبحث البراءة والاشتغال في علم الأُصول، وقد فصلنا الكلام حوله في بحوثنا الأُصولية.[2]

وعلى كلّ تقدير فالحديث صريح في أنّ الاضطرار يبيح المحظور.

٢. روى الكليني بسند صحيح عن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «التقية

---

١. الخصال: ٤١٧.

٢. لاحظ إرشاد العقول: ١/ ٣٤٧ـ ٣٦٤.

في كلّ ضرورة، وصاحبها أعلم بها حين تنزل به».[١]

٣. روى الكليني عن محمد بن مسلم و زرارة قالوا: سمعنا أبا جعفر عليه السلام يقول: «التقية في كلّ شيء يضطر إليه ابن آدم فقد أحلّه الله له».[٢]

٤. وعن الإمام الصادق عليه السلام انّه قال:«وكلّ شيء يعمل المؤمن بينهم لمكان التقية ممّا لا يؤدي إلى الفساد في الدين فانّه جائز».[٣]

٥. وعنه عليه السلام انّه قال: «ولا حنث ولا كفّارة على من حلف تقية يدفع بذلك ظلماً عن نفسه».[٤]

٦. وعنه عليه السلام قال: «وانّ التقية لأوسع ممّا بين السماء والأرض».[٥]

إلى غير ذلك من الروايات الواردة في هذا الموضوع.

ولك أن تضيف إلى ذلك الاستدلال بالآيات التي رخصت عند الاضطرار، قال تعالى: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ باغٍ ولاَ عَادٍ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[٦] ومورد الآية وإن كان الاضطرار لأجل الجوع، ولكن الموضوع هو الاضطرار، سواء أكان العامل داخلياً كاضطراره إلى أكل الميتة، أو خارجياً قاهراً مُلْزِماً على العمل بالخلاف على نحو لو لم يفعله لأدّى إلى إلحاق الضرر بنفسه ونفيسه.

التقية في كلمات العلماء

١. قال ابن عباس: التقيّة باللسان والقلب مطمئن بالإيمان ولا يبسط يده

---

١. الوسائل:١١، الباب٢٥ من أبواب الأمر والنهي، الحديث١.

٢. الوسائل:١١، الباب٢٥ من أبواب الأمر والنهي، الحديث٢.

٣. الكافي:٢/ ١٦٨.

٤. الخصال:٦٠٧.

٥. بحارالأنوار:٧٥/ ٤١٢.

٦. البقرة:١٧٣.

للقتل.[١]

٢. قال الحسن البصري: التقية جائزة للمؤمن إلى يوم القيامة إلاّ في قتل النفس.[٢]

٣. وقال الرازي: تجوز التقية لصون المال على الأصح كما يجوز صون النفس.[٣]

٤. وقال السيوطي: يجوز أكل الميتة في المخمصة وإساغة اللقمة في الخمر، والتلفظ بكلمة الكفر، ولو عمّ الحرام قطراً بحيث لا يوجد فيه حلال إلاّ نادراً فانّه يجوز استعمال ما يحتاج إليه.[٤]

وقد أنكر الشاطبي على الخوارج إنكارهم التقية في القول والفعل، وعدّها من جملة مخالفاتهم للكليات الشرعية أصلية أو عملية.[٥]

٥. وقال الطوسي: والتقية عندنا واجبة عند الخوف على النفس، وقد روي رخصة في جواز الإفصاح بالحق عنده.[٦]

٦. وقال العلاّمة الطباطبائي: الكتاب والسنّة متطابقان في جوازها في الجملة، والاعتبار العقلي يؤيده، إذ لا بغية للدين ولا همَّ لشارعه إلاّ ظهور الحقّ وحياته، وربما يترتّب على التقية و المجاراة مع أعداء الدين ومخالفي الحقّ حفظ مصلحة الدين وحياة الحق ما لا يترتب على تركها وإنكار ذلك مكابرة وتعسف.[٧]

---

١. فتح الباري:١٢/ ٢٧٩.
٢. تفسير النيسابوري في هامش الطبري:٣/ ١٧٨.
٣. التفسير الكبير:٨/ ١٣.
٤. الأشباه والنظائر:٧٦.
٥. الموافقات:٤/ ١٨٠.
٦. التبيان:٢/ ٤٣٥.
٧. الميزان:٣/ ١٥٣.

مجال التقية هو الأُمور الشخصية

عُرِفَتِ الشيعة بالتقية وأنّهم يتّقون في أقوالهم وأفعالهم، فصار ذلك مبدأ لوهمٍ عَلِقَ بأذهان بعض السطحيين والمغالطين، فقالوا: بما أنّ التقية من مبادئ التشيّع فلا يصح الاعتماد على كلّ ما يقولون ويكتبون وينشرون، إذ من المحتمل جداً أن تكون هذه الكتب دعاياتٍ والواقع عندهم غيرها. هذا ما نسمعه منهم مرّة بعد مرّة، ويكرّره الكاتب الباكستاني «إحسان إلهي ظهير» في كتبه السقيمة التي يتحامل بها على الشيعة.

ولكن نلفت نظر القارئ الكريم إلى أنّ مجال التقية إنّما هو في حدود القضايا الشخصية الجزئية عند وجود الخوف على النفس والنفيس، فإذا دلّت القرائن على أنّ في إظهار العقيدة أو تطبيق العمل على مذهب أهل البيت ما يُلحق بالمؤمن الضرر، يُصبح هذا المورد من مواردها، ويحكم العقل والشرع بلزوم الاتقاء حتى يصون بذلك نفسه ونفيسه عن الخطر. وأمّا الأُمور الكلّية الخارجة عن إطار الخوف فلا تتصوّر فيها التقية، والكتب المنتشرة من جانب الشيعة داخلة في هذا النوع الأخير، إذ لا خوف هناك حتى يكتب خلاف ما يعتقد، حيث ليس هناك أيُّ مُلْزم للكتابة أصلاً في هذه الأحوال فله أن يسكت ولا يكتب شيئاً.

فما يدعيه هؤلاء أنّ هذه الكتب دعايات لا واقعيات ناشئ عن قلّة معرفتهم بحقيقة التقية عند الشيعة.

والحاصل: أنّ الشيعة إنّما كانت تتّقي في عصر لم تكن لهم دولة تحميهم، ولا قدرة ولا منعة تدفع عنهم الأخطار. وأمّا هذه الأعصار فلا مسوّغ ولا مبرّر للتقية

إلاّ في موارد جزئيّة خاصة.

إنّ الشيعة كما ذكرنا لم تلجأ إلى التقية إلاّ بعد أن اضطرّت إلى ذلك، وهو حق لا أعتقد أنّ أحداً ينظر إلى الأُمور بلبّه لا بعواطفه يخالفها فيه، إلاّ أنّ من الأُمور المسلّمة في تاريخ التشيّع، كثرة التقية على مستوى الفتاوى، وأمّا على المستوى العمليّ فالشيعة من أكثر الناس تضحية، وبوسع كل باحث أن يرجع إلى مواقف رجال الشيعة مع معاوية وغيره من الحكّام الأمويين، والحكام العباسيين، أمثال حجر بن عدي، وميثم التمار، ورشيد الهجري، وكميل بن زياد، ومئات من غيرهم، وكمواقف العلويين على امتداد التاريخ وثوراتهم المتتالية و قد مرّ تفصيله في بعض الفصول.

٨

أقسام التقية

تنقسم التقيـة حسب انقسـام الأحكـام إلى خمسة، والمهم هـو الإشـارة إلى الأقسام الثلاثة:

١ . **التقية الواجبة**: وهي ما كانت لدفع الخوف على نفس أو عرض محترمين، أو ضرر لا يتحمل عن نفسه أو غيره من المؤمنين.

٢ . **التقية المنـدوبة**: وهي مـا كانت لـدفع مـا يرجح دفعـه من ضرر يسير يتحمّل عادة، سواء تعلق بنفسه أو بغيره.

٣ . **التقية المحرمة** وهي ما يترتّب عليها مفسدة أعظم، كهدم الدين وخفاء الحقيقـة على الأجيـال الآتيـة، وتسلّط الأعداء على شـؤون المسلمين وحـرمـاتهم ومعابـدهم، ولأجل ذلك تـرى أنّ كثيراً من أكابـر الشيعة رفضوا التقيـة في بعض الأحيـان وقدّمـوا أنفسهم وأرواحهم أضـاحي من أجل الـدين، فللتقية مـواضع معينة، كما أنّ للقسم المحرم منها مواضع خاصة أيضاً.

إنّ التقية في جوهرها كتم ما يحذر من إظهاره حتى يزول الخطر، فهي أفضل السبل للخـلاص مـن البطش، ولكن ذلك لا يعني أنّ الشيعـي جبـان خـائر العـزيمة، خـائف متردّد الخطوات يمـلأ حنايـاه الذل، كـلاّ إنّ للتقية حـدوداً لا

تتعـداها، فكما هي واجبـة في حين، هي حـرام في حين آخر، فـالتقية أمـام الحاكم الجائر كيزيد بن معاويـة مثلاً محرّمة، إذ فيها الذل والهوان ونسيان المُـثُل والرجوع إلى الوراء، فليست التقية في جـوازها ومنعها تابعـة للقوّة والضعف، و إنّما تحددها جوازاً ومنعاً مصالح الإسلام والمسلمين.

إنّ للإمام الخميني ﷺ كلاماً في المقام ننقله بنصّه حتى يقف القارئ على أنّ للتقية أحكاماً خاصة وربّما تحرم لمصالح عالية. قال ﷺ:

تحرم التقيـة في بعض المحـرّمـات والـواجبـات التي تمثّل في نظـر الشـارع والمتشرّعة مكـانة بالغـة، مثل هدم الكعبة، والمشـاهد المشرّفة، والـرد على الإسلام والقرآن والتفسير بما يفسد المذهب ويطابق الإلحاد وغيرهـا من عظائم المحرّمات، ولا تعمّها أدلة التقية ولا الاضطرار ولا الإكراه.

وتدلّ على ذلك معتبرة مسعـدة بن صدقـة وفيها: «فكلّ شيء يعمل المؤمن بينهم لمكان التقية ممّا لا يؤدي إلى الفساد في الدين فإنّه جائز». [١]

ومن هذا الباب ما إذا كان المتقي ممن له شأن وأهمية في نظر الخلق، بحيث يكون ارتكـابه لبعض المحـرّمات تقية أو تـركه لبعض الواجبـات كذلك ممـا يعد موهنـاً للمذهب وهـاتكاً لحرمه، كما لـو أُكره على شرب المسكـر والزنـا مثلاً، فإنّ جواز التقية في مثله متمسّكاً بحكومة دليل الرفع [٢] وأدلّة التقية مشكل بل ممنوع، وأولى من ذلك كلّه في عدم جـواز التقية، ما لو كـان أصل من أُصول الإسلام أو المذهب أو ضروري من ضروريات الدين في معرض الزوال والهدم والتغيير، كما لو أراد المنحرفـون الطغاة تغيير أحكـام الإرث والطلاق والصـلاة والحج وغيرها من

١. الوسائل: ١٠، الباب٢٥ من أبواب الأمر والنهي، الحديث٨.

٢. الوسائل: ١٠، الباب٥٦ من أبواب جهاد النفس، الحديث١.

أُصول الأحكام فضلاً عن أُصول الدين أو المذهب، فإنّ التقية في مثلها غير جائزة، ضرورة أنّ تشريعها لبقاء المذهب وحفظ الأُصول وجمع شتات المسلمين لإقامة الدين وأُصوله، فإذا بلغ الأمر إلى هدمها فلا تجوز التقية، وهو مع وضوحه يظهر من الموثقة المتقدمة.[1]

وعلى ضوء ما تقدّم، نخرج بالنتائج التالية:

١. إنّ التقية أصل قرآني مدعم بالسنّة النبوية، وقد عمل بها في عصر الرسالة من ابتلي من الصحابة، لصيانة نفسه، فلم يعارضه الرسول، بل أيّده بالنص القرآني كما في قضية عمّار بن ياسر، حيث أمره ﷺ بالعودة إذا عادوا.

٢. انّ التقيّة ليست بمعنى تشكيل جماعات سرية لغاية التخريب والهدم، وهذا لا يمتّ إلى التقية بصلة.

٣. اتّفق المفسّرون عند التعرّض لتفسير الآيات الواردة في التقية على ما ذهبت إليه الشيعة من إباحتها للتقية.

٤. تنقسم التقية حسب انقسام الأحكام إلى أقسام خمسة، فبينما هي واجبة في موضع، تجدْها محرّمة في موضع آخر.

٥. إنّ مجال التقية لا يتجاوز القضايا الشخصية، وهي فيما إذا كان الخوف قائماً، وأمّا إذا ارتفع الخوف والضغط، فلا مجال للتقية.

وفي ختام هذا البحث نقول:

نفترض أنّ التقية جريمة يرتكبها المتقي لصيانة دمه وعرضه وماله، ولكنّها في الحقيقة ترجع إلى السبب الذي يفرض التقيّة على الشيعي المسلم ويدفعه إلى أن

---

١. رسالة في التقية مطبوعة ضمن الرسائل العشر: ١٤، باب حول موارد استثنيت من الأدلّة.

يتظاهر بشيء من القول والفعل الذي لا يعتقد به، فعلى من يعيب التقية للمسلم المضطهد، أن يسمح له بالحرية في مجال الحياة ويتركه بحاله، وأقصى ما يصح في منطق العقل، أن يسأله عن دليل عقيدته ومصدر عمله، فإن كان على حجّة بيّنة يتبعه، وإن كان على خلافها يعذره في اجتهاده وجهاده العلمي والفكري.

نحن ندعو المسلمين للتأمّل في الدواعي التي دفعت بالشيعة إلى التقية، وأن يعملوا قدر الإمكان على فسح المجال لإخوانهم في الدين فإنّ لكل فقيه مسلم، رأيَه ونظرَه، وجهدَه وطاقتَه.

إنّ الشيعة يقتفون أثر أئمّة أهل البيت في العقيدة والشريعة، ويرون رأيهم، لأنّهم هم الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً، وأحد الثقلين اللّذين أمر الرسول ﷺ بالتمسّك بهما في مجالي العقيدة والشريعة، وهذه عقائدهم لا تخفى على أحد، وهي حجّة على الجميع.

نسأل الله سبحانه، أن يصون دماء المسلمين وأعراضهم عن تعرض أي متعرض، ويوحّد صفوفهم، ويؤلّف بين قلوبهم، ويجمع شملهم، ويجعلهم صفّاً واحداً في وجه الأعداء، إنّه على ذلك قدير وبالإجابة جدير.

٩

شبهات حول التقية

لقد تعـرفت على حقيقة التقيـة: لغة واصطـلاحاً وتـاريخاً، كما تعرفت على أدلّتها من الكتاب والسنّـة وظهر انّ سيرة المسلمين جرت على ممارسـة التقية عند الشدة، وبقيت ثَمّة شبهات تدور حول التقية، نطرحها على طاولة البحث.

الشبهة الأُولى: التقية من شعب النفاق

إذا كانت التقية إظهـارَ ما يُضمر القلبُ خلافَـه أو ارتكاب عمل يخالف العقيدة، فهي إذن شعبـة من شعب النفاق، لأجل انّ النفاق عبارة عن التظـاهر بشيء على خلاف العقيدة.

والجواب عنهـا واضح: لأنّ مفهـوم التقيـة في الكتاب والسنّـة هـو إظهـار الكفر وإبطان الايمان، أو التظاهر بالباطل وإخفاء الحق، وإذا كان هذا مفهومها، فهي تقابل النفاق، تقابلَ الإيمان والكفر، فانّ النفـاق ضدها وخلافها، فهو عبارة عن إظهار الإيمان و إبطان الكفـر، والتظاهر بالحق وإخفـاء الباطل، و مع وجود هذا التباين بينهما فلا يصحّ عدّها من فروع النفاق.

وبعبارة أُخـرى: انّ النفاق في الـدين ستر الكفر بـالقلب، وإظهار الإيمان

بـاللسان، وأين هـذا من التقية التي هي على العكس تماماً **﴿إلاّ من أكـره وقلبه مطمئن بالإيمان﴾** فهي إظهـار الكفر و إخفـاء الإيمان و ستره بـالقلب، وأمّا تقيـة الشيعة فهي تَكْمُنُ في إخفاء الاعتقاد بالإمامة والولاية لأهل البيت عليهم السلام يعني ستر التشيع مع التظاهـر بموافقة الآخريـن في عقيدتهم تجاه الإمامة وفي الـوقت نفسه يشـاركـون المسلمين في الشهـادتين والإيمان بـالقيـامـة، ويمارسـون العبـادات ويعملون بـالفروع ويعتقـدون ذلك بقلـوبهم ويعيشون هـذه العقيدة بـوجدانهم وبأرواحهم.

نعم من فسر النفاق بمطلق مخالفة الظاهر للباطن وبه صوّر التقية ـ الواردة في الكتاب والسنّة ـ من فروعه، فقد فسره بمفهوم أوسع ممّا هو عليه في القرآن، فانّه يعرف المنافقين بـالمتظاهرين بالإيمان و المبطنين للكفر بقـوله تعالى: **﴿إِذا جاءَكَ الْمُنافِقُـونَ قَالُـوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَـرَسُولُ اللهِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَـرَسُولُـهُ واللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنافِقينَ لَكاذِبُون﴾**[1] فإذا كان هذا حـدّ المنافق فكيف يعمّ من يستعمل التقية تجاه الكفار والعصاة فيُخفي إيما نه أو عقيـدته في ولاء أهل البيت و يظهر الموافقة لغاية صيانة النفس والنفيس والعرض والمال من التعرض؟!

ويظهر صدق ذلك إذا وقفنا على ورودها في التشريع الإسلامي، ولو كانت من قسم النفاق، لكان ذلك أمراً بـالقبيح ويستحيل على الحكيم أن يأمر به **﴿قُلْ إِنّ اللهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُون﴾**.[2]

---

١. المنافقون:١.

٢. الأعراف:٢٨.

الشبهة الثانية : لماذا عُدَّت التقية من أُصول الدين؟

قد نقل عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام انّهم قالوا: التقيـة ديني و دين آبائي، ولا دين لمن لا تقية له.[1]

وظاهـر هذه الـروايات انّ الاعتقاد بـالتقية وتطبيق العمل على ضـوئها من أُصول الدين فمن لم يتق فقد خرج عن الدين وليس له من الإيمان نصيب.

يلاحظ عليه: بأنّ التقية من الموضوعات الفقهية، تخضع كسائر الموضوعات للأحكام الخمسة، فتارة تجب وأُخـرى تحرم، وثالثة...، ومعه كيف يمكن أن تكون من أُصول الـدين، وقد ذكرهـا فقهاء الشيعـة في باب الأمر بـا لمعروف والنهي عن المنكر.

وأمّـا الروايـات التي عـدتها من الدين فهي من بـاب الاستعـارة وغايتهـا التأكيـد على أهميتها وتطبيقهـا في الحيـاة لصيانـة النفس والنفيس، وبما انّ بعض الشيعة كانـوا يجاهرون بعقائدهم وشعائرهم، الأمر الـذي يؤدّي إلى إلقاء القبض عليهم وتعذيبهـم وإراقة دمائهم، فـالإمام وللحيلـولة دون وقوع ذلـك يقول بأنّ (التقية ديني ودين آبـائي) لحثّهم على الاقتداء بهم، وأمّـا ما ورد في الحديث «لا دين لمن لا تقيّة له» فالغاية التأكيد على الالتزام بالتقيّة، نظير قوله: لا صلاة لجار المسجد إلاّ في المسجد.

وبعبارة أُخرى: ليس المراد من الدين هو الأُصول العـامة كالتوحيد والنبوة والمعاد التي بالاعتقاد بها يرد إلى حظيرة الإسلام وبإنكارها أو إنكار واحد منها أو إنكار مـا يلازم إنكار أحد الأُصـول الثلاثة يخرج عنها، وإنّما المراد بـه هو الشأن

---

١. الوسائل: ١٠، الباب ٢٤ من أبواب الأمر با لمعروف، الحديث ٣، ٢٢.

الذي يتعبد به الإمام ويعمل بدين الله، فقوله : «التقية ديني و دين آبائي» أي هو من شؤوننا أهل البيت عليهم السلام فاقتدوا بنا، وأمّا من يتصور انّ التقية تمس كرامته فهو إنسان جاهل خارج عن هذا الشأن الذي عليه تدين الأئمة به.

الشبهة الثالثة : التقية تؤدي إلى محق الدين

إذا مارست جماعةٌ التقية فترة طويلة في أُصول الدين وفروعه، ربما يتجلى للجيل المقبل بأنّ ما مارسه آباؤهم من صميم الدين وواقعه، فعند ذلك تنتهي التقية إلى محق الدين واندثاره.

يلاحظ عليه: أنّ الظروف مختلفة وليست على منوال واحد، فربما يشتد الضغط فلا يجد المحقّ مجالاً للإعراب عن رأيه وعقيدته وشريعته ، وقد تتبدّل الظروف إلى ظروف مناسبة تسمح بممارسة الشعائر بكلّ حرية، وقد عاشت الشيعة بين الحين والآخر في هذه الظروف المختلفة، وبذلك صانت أُصولها وفروعها وثقافتها والله سبحانه هو المعين لحفظ الدين وشريعته.

وبعبارة أُخرى: انّ للتقية سيطرة على الظاهر دون الباطن، فالأقلّية التي صودرت حرياتها يمارسونها في الظاهر، و أمّا في المجالس الخاصة فيقومون بواجبهم على ما هو عليه ويربّون أولادهم على وفق التعاليم التي ورثوها عن آبائهم عن أئمتهم.

ولو افترضنا انّ مراعاة التقية فترة طويلة تنتهي إلى محق الدين فالتقية عندئذٍ تكون محرمة يجب الاجتناب عنها. وقد مرّ انّ التقية لها أحكام خمسة، فالتقية المنتهية إلى محق الدين محظورة.

الشبهة الرابعة : التقية تؤدي إلى تعطيل الأمر بالمعروف

إنّ التقية فكرة تحوّل المسلم إلى إنسان يتعايش مـع الأمر الواقع على ما فيه من ظلم وفساد وانحـراف، فتعود إلى الـرضا بكلّ ما يحيـط بها من الظلم والفساد والانحراف.

يلاحظ عليه: أنّ الأمر بـا لمعروف والنهي عن المنكر مشروط بـالتمكن منه، فمرتبة منه وظيفة الفرد و هو الأمر با لمعروف بكراهية القلب و اللسان، ومرتبة منه وظيفة المجتمع وعلى رأسـه الدولة صـاحبة القـدرة والمنعة، فالممارس للتقيـة يأمر بالمعروف وينهى عن المنكـر حسب مقدرته ولولا القـدرة فلا حكم عليه، لأنّ الله سبحانه لا يكلف نفساً إلاّ وسعها.

ومع ذلك فالممارس للتقيـة يتحيّن الفرص للانقضاض على الواقـع الفاسد وتغييره، فلو ساعدته الظروف على هذا التغيير فحينها يتخـلّى عن التقيـة ويجاهر بالحقّ قـولاً وعـملاً.

الشبهة الخامسة : التقية من المسلم من البدع

ربما يتصور انّ التقية من اختلاقات الشيعة وانّها لا دليل عليها من الكتاب والسنّة، وذلك لأنّ الآيات الواردة في التقية ترجع إلى اتّقاء المسلم من الكافر، وأمّا اتّقاء المسلم من المسلم فهذا ما لا دليل عليه من الكتاب والسنة.

الجواب

إنّ مورد الآيـات وإن كان هـو اتّقاء المسلم من الكـافر، ولكن المورد ليس بمخصّص لحكم الآيـة فقط، إذ ليس الغـرض من تشريع التقيـة عنـد الابتـلاء

بالكفار إلاّ صيانة النفس والنفيس من الشر، فإذا ابتُلي المسلم بأخيه المسلم الذي يخالفه في بعض الفروع ولا يتردد الطرف القوي عن إيذاء الطرف الآخر، كأن ينكل به أو ينهب أمواله أو يقتله، ففي تلك الظروف الحرجة يحكم العقل السليم بصيانة النفس والنفيس عن طريق كتمان العقيدة واستعمال التقية، ولو كان هناك وزر فإنّما يحمله من يُتّقى منه لا المتّقي. ونحن نعتقد أنّه إذا سادت الحرية جميع الفرق الإسلامية، وتحمّلت كل فرقة آراء الفرقة الأُخرى لوقفت على أنّ الرأي الآخر هو نتيجة اجتهادها، وعندها لا يضطر أحد من المسلمين إلى استخدام التقية، ولساد الوئام مكان النزاع.

وقد فهم ذلك لفيف من العلماء وصرّحوا به، وإليك نصوص بعضهم:

١. قال الشافعي: تجوز التقية بين المسلمين كما تجوز بين الكافرين محاماة عن النفس.(١)

٢. يقول الإمام الرازي في تفسير قوله سبحانه: ﴿**إلاّ أن تتّقوا منهم تقاة**﴾: ظاهر الآية يدل على أنّ التقية إنّما تحل مع الكفّار الغالبين، إلاّ أنّ مذهب الشافعي ــ رضي الله عنه ــ: أنّ الحالة بين المسلمين إذا شاكلت الحالة بين المسلمين والكافرين حلّت التقية محاماة عن النفس، وقال: التقية جائزة لصون النفس، وهل هي جائزة لصون المال؟ يحتمل أن يحكم فيها بالجواز لقوله ﷺ: «حرمة مال المسلم كحرمة دمه»، وقوله ﷺ: «من قتل دون ماله فهو شهيد» .(٢)

٣. ينقل جمال الدين القاسمي عن الإمام مرتضى اليماني في كتابه «إيثار الحق على الخلق» ما نصّه: وزاد الحق غموضاً وخفاءً أمران: أحدهما: خوف

---

١. تفسير النيسابوري في هامش تفسير الطبري:٣/ ١٧٨.

٢. مفاتيح الغيب:٨/ ١٣ في تفسير الآية.

العارفين ـ مع قلّتهم ـ من علماء السوء وسلاطين الجور وشياطين الخلق مع جواز التقية عند ذلك بنص القرآن، و إجماع أهل الإسلام، وما زال الخوف مانعاً من إظهار الحق، ولا برح المحق عدوّاً لأكثر الخلق، وقد صحّ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنّه قال ـ في ذلك العصر الأوّل ـ: حفظت من رسول الله ﷺ وعاءين، أمّا أحدهما فبثثته في الناس، وأمّا الآخر فلو بثثته لقطع هذا البلعوم. (١)

٤. وقال المراغي في تفسير قوله سبحانه: ﴿**مَنْ كَفَرَ بِٱللهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ**﴾: ويدخل في التقية مداراة الكفرة والظلمة والفسقة، و إلانة الكلام لهم، والتبسّم في وجوههم، وبذل المال لهم، لكف أذاهم وصيانة العرض منهم، ولا يعد هذا من الموالاة المنهي عنها، بل هو مشروع، فقد أخرج الطبراني قوله ﷺ: «ما وَقَى المؤمن به عرضَه فهو صدقة» . (٢)

إنّ الشيعة تتقي الكفّار في ظروف خاصة لنفس الغاية التي لأجلها يتّقيهم السنّي، غير أنّ الشيعي ولأسباب لا تخفى، يلجأ إلى اتّقاء أخيه المسلم لا لتقصير في الشيعي، بل في أخيه الذي دفعه إلى ذلك، لأنّه يدرك أنّ الفتك والقتل مصيره إذا صرّح بمعتقده الذي هو عنده موافق لأُصول الشرع الإسلامي وعقائده، نعم كان الشيعي و إلى وقت قريب يتحاشى أن يقول: إنّ الله ليس له جهة، أو أنّه تعالى لا يُرى يوم القيامة، و إنّ المرجعية العلمية والسياسية لأهل البيت بعد رحلة النبي الأكرم، أو أنّ حكم المتعة غير منسوخ. إنّ الشيعي إذا صرّح بهذه الحقائق ـ التي استنبطت من الكتاب والسنّة ـ سوف يُعرّض نفسه ونفيسه للمهالك والمخاطر. وقد مرّ عليك كلام الرازي وجمال الدين القاسمي والمراغي الصريح في

١. محاسن التأويل: ٤/ ٨٢.

٢. تفسير المراغي: ٣/ ١٣٦.

جواز هـذا النوع من التقية، فتخصيص التقيـة بالتقية من الكـافر فحسب، جمود على ظاهر الآيـة وسد لباب الفهم، ورفض للملاك الذي شُـرّعت لأجله التقية، وإعدام لحكم العقل القاضي بحفظ الأهم إذا عارض المهم.

وقد مرّ الكلام عن لجوء جملة من كبار المحدّثين إلى التقية في ظروف عصيبة أوشكت أن تودي بحياتهم وبما يملكون، وخير مثال على ذلك ما أورده الطبري في تاريخه[1] عن محاولـة المأمون دفع وجـوه القضـاة والمحدّثين في زمـانه إلى الإقـرار بخلق القـرآن قسراً وقـد علمـوا انّ إنكـاره يستعقب قتل الجميع دون رحمة، ولما أبصر أُولئك المحدّثـون لَمَعان، حد السيف عمـدوا إلى مصانعة المأمـون في دعواه وأسرّوا معتقدهم في صـدورهم، ولمّا عُوتبوا على مـا ذهبوا إليه من موافقـة المأمون برّروا عملهم بعمل عمّـار بن يـاسر حين أُكره على الشرك وقلبه مطمئن بالإيمان، والقصّة شهيرة وصريحة في جواز اللجوء إلى التقية التي دأب البعض بالتشنيع فيها على الشيعة وكأنّهم هم الذين ابتدعوها من بنات أفكارهم دون أن تكون لها قواعد وأُصول إسلامية ثابتة ومعلومة.

١ .تاريخ الطبري:٧/ ١٩٥ـ٢٠٦.

١٠

الآثار البنّاءة للتقية

إذا ساد الاستبداد المجتمعَ الإنساني وصودرت فيه الحريات وهُضمت فيه الحقـوق وأُخمدت فيه أصـوات الأحرار، فحينئـذٍ لا تجد الأقلية المهضـومة، حيلـة سوى اللجوء إلى التقية والتعايش مع الأمـر الواقع، وهذا الأمر وان يتلقّاه البعض أمراً مرغوباً عنه، ولكن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ـ كما سيوافيك كلامه ـ يصفه بأنّه رخصـة من الله تفضّل الله بها على المؤمنين. كيف و قد يترتّب على ممـارسة التقيـة آثار بنّاءة تتلخّص في الأُمور التالية:

١ . حفظ النفس والنفيس

إنّ ممـارسـة التقية والمداراة مـع الظالم المستبـد يصـون الأقليـة من البطش والكبت والقتل ومصـادرة الأموال بخـلاف عدم ممـارستهـا فانّـه يعرِّضهـا للقتل والفناء، ولذلـك يعبر عنها بالترس والجُنّة ، قـال الإمام الصادق عليه السلام: «إنّ التقية ترس المؤمن، ولا إيمان لمن لا تقية له».(١)

وقال عليه السلام: «كان أبي يقـول: وأي شيء أقرّ لعيني مـن التقية، انّ التقيـة جُنّة المؤمن».(٢)

---

١ و٢. الوسائل:١١، الباب٢٤ من أبواب الأمر بالمعروف، الحديث٤ و٦.

روى شيخنا المفيد قال: كتب علي بن يقطين (الـوزير الشيعي للرشيد) إلى الإمام الكاظم عليه السلام يسأله عن الـوضوء؟ فكتب إليـه أبو الحسن عليه السلام :«فهمت ما ذكرت من الاختـلاف في الوضوء، والـذي آمرك به في ذلك أن تمضمض ثـلاثاً، و تستنشق ثـلاثـاً، وتغسل وجهك ثلاثـاً، وتخلّل شعـر لحيتك، وتغسل يـديك من أصابعك إلى المرفقين ثـلاثاً، وتمسح رأسك كلّه، وتمسح ظاهـر أُذنيك وباطنهما، وتغسل رجليك إلى الكعبين ثلاثاً، ولا تخالف ذلك إلى غيره.

فلمّا وصل الكتاب إلى علي بن يقطين تعجب مما رسم له أبو الحسن عليه السلام فيه ممّا أجمع العصابة على خلافه، ثمّ قال: مولاي أعلم بما قال: وأنا أمتثل أمره، فكان يعمل في وضـوئه على هذا الحد، ويخالـف ما عليـه جميع الشيعـة امتثالاً لأمـر أبي الحسن عليه السلام ، وسُعِيَ بعلي بن يقطين إلى الـرشيـد، و قيـل: إنّـه رافضي، فـامتحنـه الرشيد من حيث لا يشعر، فلما نظر إلى وضـوئه ناداه: كذب يا علي بن يقطين من زعم أنّك من الرافضـة، وصلحت حاله عنده، وورد عليـه كتاب أبي الحسن عليه السلام: «ابتدأ مـن الآن يا علي بن يقطين و توضّـأ كما أمرك الله تعالى، اغسل وجهـك مرة فريضة وأُخرى إسباغاً و اغسل يديك من المرفقين كذلك، وامسح بمقدم رأسك وظـاهر قـدميك من فضل نداوة وضـوئك، فقـد زال ما كنّـا نخاف منـه عليك، والسلام».[1]

ترى أنّ الإمام أنقذ علي بن يقطين من الموت من خلال أمره بالتقية وكم له في التاريخ من نظير، و كفى شاهداً قصة عمّار و أبيه وأُمّه المتقدّمة.

---

١ . الوسائل:١، الباب٣٢ من أبواب الوضوء، الحديث٣.

٢ . حفظ وحدة الأُمّة

لا شكّ انّ وحدة الكلمـة هي مصدر قـوة الأُمّة وازدهـارها، وهي حبل الله الوثيق الذي لابدّ من الاعتصام به، حيث قال في محكم كتابه: ﴿**وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُوا**﴾.(١)

فقد عدّ سبحانه التفريق والتشرذم والتشتت عذاباً يستأصل الأُمّة ويستنفد قواها، قال سبحانه: ﴿**قُلْ هُوَ الْقادِرُ عَلىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَـذاباً مِنْ فَوقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرجُلِكُمْ أَو يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً ويُذِيقَ بَعضَكُمْ بَأْسَ بَعْض**﴾.(٢)

إلى غير ذلك من الآيات الحاثّة على الوحدة والمحذِّرة من التفرق والتبدد.

وتشـريع التقيـة يعين على الـوحدة ويمسك الأُمـة عن التبـدد، فلـذلك يصفها الإمام بأنّها «رخصة تفضّل بها الله على المؤمنين رحمة لهم».

وهذا لا يعنـي الإفراط في ممـارسة التقية حتّـى إذا توفـرت الفرص المناسبة للتعبير عن رأيه ومنهجه، فعند ذلك تحرم التقيـة، لأنّه يترتب عليها طمس الدين وكتمان الحقيقة.

٣ . الحفاظ على القوى من الاستنزاف

إنّ الجماعة المهضومة، بممارسة التقية تحمي قـواها وطاقاتها من الاستنزاف، وبالتالي تـربّي جماعة واعية لأهدافهـا، فإذا هبّ على مجتمعهانسيم الحرية فيتيسّر عندهـا أن تجُاهر بأفكـارها وآرائها دون أي خـوف أو وجل و تطالب بحقـوقها، وهذا من آثار التقية حيث صانت الجماعة الضعيفة من استنزاف قواها.

---

١ . آل عمران:١٠٣.

٢ . الأنعام:٦٥.

وبما انّ هذه الآثار البنّاءة تعبير واضح للـرحمة، التي أشار إليها الإمام أمير المؤمنين، نأتي بنص كلمته:

روى الشريف المرتضى في رسـالـة «المحكم والمتشـابـه» نقـلاً عن «تفسير النعماني» عن علي عليه السلام أنّه قال: «و انّ الله منّ على المؤمن بإطلاق الـرخصة له عند التقية في الظاهر، أن يصوم بصيامـه ويفطر بإفطاره ويصلّي بصلاته ويعمل بعمله ويظهر لـه استعمال ذلك، موسعـاً عليه فيه، وعليـه أن يدين الله تعـالى في الباطن بخلاف ما يظهر لمن يخافه من المخالفين المستولين على الأُمّة، فهذه رخصة تفضّل الله بها على المؤمنين رحمة لهم ليستعملوها عند التقية في الظاهر».[1]

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات

١. الوسائل:١، الباب ٢٥ من أبواب مقدمة العبادات، الحديث١.

الفصل السادس

في الحديث والتراجم

١. الاستنارة بالتاريخ لكشف الخطأفي الحديث

٢. الإمام شرف الدين باحثاً ومجاهداً وداعية للإصلاح والوفاق

٣. حياة المحقّق اللاهيجي وآراؤه وتصانيفه

٤. الخطوط البارزة في الحياة العلمية للشهيد المطهري

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١

الاستنارة بالتاريخ

لكشف الخطأ في الحديث

نشرت مجلة بصائر الرباط في عددها الأوّل من السنة الأُولى، الصادر في محرّم عام ١٤٢٦هـ مقالاً بقلم الدكتور عبد الكريم عكيوي بعنوان: «علم الرجال وفائدته» تناول فيه بيان فائدة علم الرجال في تقويم المعرفة الإسلامية وترشيد الحياة البشرية....

وممّا لفت نظرنا في هذا المقال هو مسألة اكتشاف كذب الرواة عن طريق التاريخ، وقد استشهد بقول النووي: «لما استعمل الرواة الكذب استعملنا لهم التاريخ».

يقول الكاتب في هذا الصدد: فالمحدّثون عندما ينظرون في حديث الرجل يستحضرون زمانه وعمره، من مولده إلى وفاته،وبلده ورحلاته والبلدان الّتي دخلها ومن لقيه بها من الشيوخ والأقران وأخبار شيوخه وأقرانه وتواريخهم ورحلاتهم، وكثيراً ما يكتشفون كذب الراوي باعتبار ذلك.[1]

---

١. مجلة بصائر الرباط:العدد١/ ١٠٦.

لا شكّ انّ السنّة النبوية هي المصدر الثاني للعقيدة والشريعة، وانّ المسلمين بذلوا جهودهم لجمع ما روي عنه ﷺ من قول أو فعل أو تقرير بنحو لا مثيل له في الأُمم السابقة.

ولكن هذا لم يكن مانعاً من وضع ضوابط لتمييز الصحيح من السنّة عن السقيم، وقد لجأ الأكثرون في تمحيص السنّة المتداولة إلى سبيل النقاش في مسانيد الحديث ورجاله وخرجوا بنتائج باهرة وصار التوفيق حليفاً لهم إلى حدّ ما.

وهناك طريق آخر للتمحيص، وهو جمع القرائن والشواهد من طرق مختلفة لبيان موقع الحديث من حيث الصحّة والكذب.

ومن هذه القرائن ما ذكره الدكتور عبد الكريم ـ حفظه الله ـ في مقالته وهو اكتشاف كذب الراوي عن طريق التاريخ.

وقد مثّل لذلك بانموذجين لا نريد تكرارهما، ولأجل تعزيز هذه القاعدة وتوسيع نطاقها نأتي بمثالين آخرين ثمّ نعرضهما على صعيد البحث. ولكن لا نعبّر بما ذكر الدكتور: اكتشاف كذب الراوي بالتاريخ ، بل نقول: اكتشاف تسرّب الخطأ إلى الحديث وطروء العلّة عليه بعرضه على التاريخ.

النموذج الأوّل

أخرج البخاري عن عروة أنّ النبي ﷺ خطب عائشة إلى أبي بكر فقال له أبو بكر: إنّما أنا أخوك، فقال له: إنّما أنت أخي في دين الله وكتابه، وهي لي حلال.[1]

ولإيضاح تسرب الخطأ نذكر أمرين:

---

١. صحيح البخاري:٧/ ٥، باب تزويج الصغار والكبار من كتاب النكاح، الباب الحادي عشر، الحديث ٥٠٨١.

١. النبيّ ﷺ تزوج بعائشة في مكّة

تزوج النبي ﷺ بعائشة في مكّة المكرمة وهي بنت ستّ سنين.

روى البخاري عن عروة عن أبيه عن عائشة: إنّ النبيّ ﷺ تزوجها وهي بنت ست سنين، وبنى بها وهي بنت تسع سنين، وأُنبئت أنّها كانت عندهُ تسع سنين. وفي رواية: ومكثت عنده تسعاً.(١)

وبما أنّها مكثت عند النبي تسع سنين، فقد بنى بها النبي في السنة الثانية من الهجرة، وعلى هذا فالنبيّ ﷺ تزوّجها في مكّة المكرّمة بعد وفاة السيّدة خديجة بعامٍ، يتراوح بين الحادي عشر و الثاني عشر من البعثة.

يقول الذهبي في «تاريخ الإسلام»: قال أبو أسامة عن هشام عن أبيه، قال: توفّيت خديجة قبل مخرج النبي ﷺ إلى المدينة بثلاث سنين فلبث سنتين أو قريباً من ذلك، ونكح عائشة وهي بنت ست سنين، ثمّ بنى بها وهي ابنة تسع.(٢)

٢. النبيّ ﷺ آخى بين المسلمين في المدينة

آخىٰ النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار في المدينة المنوّرة، فآخىٰ كلاً مع الآخر على أساس المشاكلة في الدرجات والنفسيّات.

قال ابن هشام: وآخى رسول الله ﷺ بين أصحابه من المهاجرين والأنصار فآخى بين حمزة بن عبد المطلب وزيد بن حارثة، وبين الزبير وعبد الله بن مسعود، وبين عثمان بن عفان وأوس بن ثابت، وبين طلحة بن عبيد الله وكعب بن مالك،

---

١. صحيح البخاري: ١٣١٩ـ١٣٢٠، كتاب النكاح، باب إنكاح الرجل ولده الصغار، الحديث ٥١٣٣ و ٥١٣٤ دار الفكر، بيروت ـ ١٤٢٤هـ.

٢. تاريخ الإسلام: ٢٨٢، قسم السيرة النبوية.

وبين سعد بن زيد بن عمرو بن نفيل وأُبي بن كعب، وبين مصعب بن عمير وأبي أيوب خالد بن يزيد، وبين أبي حذيفة عتبة بن ربيعة وعباد بن بشر، وبين عمار بن ياسر وحذيفة اليماني، وبين أبي ذرّ والمنذر بن عمرو.[١]

إذا تبيّن هـذان الأمران فنقـول: التاريخ المسلّم بين المحـدّثين يكشف عن تسرّب تحريف أو تصحيف أو وجـود سقم وعلّة في هـذا الحديث، وذلك بالبيـان التالي:

ترى أنّ أبـا بكر اعتـذر عن تزويج بنتـه النبيﷺ بقوله: «إنّما أنـا أخوك»، ويعني أنّ بنت الأخ لا تصلح للعمّ.

يروي ابن حجر القصة كما يلي: إنّ النبيﷺ أرسل خولة بنت حكيم إلى أبي بكر يخطب عائشة فقال لها أبو بكر: فهل تصلح له؟ إنّما هي بنت أخيه، فرجعت وذكرت ذلك للنبيﷺ فقال لها: ارجعي فقـولي له: أنت أخي في الإسـلام وابنتك تصلح لي، فرجعت إلى أبي بكـر فذكرت ذلـك له، فقال: ادعي رسـول الله، فجاء فأنكحه.[٢]

فعندئذٍ يتوجه السؤال التالي:

ماذا أُريد من الأخوّة في كلام أبي بكر؟ فهناك احتمالات:

١. الأُخوّة النسبية.

٢. الأُخوّة الإسلامية.

٣. المؤاخاة الّتي أجـراها النبيﷺ بين كلّ اثنين من أصحـابـه في المدينـة المنوّرة.

---

١. السيرة النبوية: ٢/ ١١٩ـ ١٢٠، جعل المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار.

٢. فتح الباري: ٩/ ١٢٤.

أمّا الأُولى، فهي منتفية قطعاً ولا تحتاج إلى بيان.

وأمّا الثانية، أعني الأُخوّة الإسلامية المتجلية في قوله سبحانه: ﴿إنّما الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾.[1] فلا شكّ أنها غير مانعة من النكاح، وإلاّ يلزم عدم صحّة نكاح المسلمين قاطبة.

فانحصر المراد بالأُخوّة الخاصّة الّتي أجراها النبيﷺ بين كلّ شخصين من أصحابه كما مرّ في السيرة النبوية، ومن المعلوم أنّها تحقّقت في المدينة المنوّرة في أوائل الهجرة (السنة الأُولى أو الثانية) فإذن كيف يخطب النبي ﷺ عائشة في مكة المكرمة قبل الهجرة ويعتذر أبوها بالأُخوّة الخاصة المتحقّقة في المدينة؟!

قد تنبّه لذلك بعض المحدّثين ، فقد نقل ابن حجر عن بعضهم أنّه قال: في صحّة هذا الحديث نظر، لأنّ الخلّة لأبي بكر إنّما كانت بالمدينة، وخطبة عائشة كانت بمكّة، فكيف يلتئم قوله: إنّما أنا أخوك؟!

وأجاب ابن حجر عن هذا: المذكور في الحديث، الأُخوّة، وهي أُخوّة الدين والّذي اعترض به الخلّة وهي أخصّ من الأخوة، ثمّ الّذي وقع بالمدينة إنّما هو قولهعليه السلام: لو كنت متخذاً من أُمّتي خليلاً لاتّخذت أبا بكر، ولكن أخي وصاحبي.[2]

ويُردّ على ابن حجر بما يأتي:

أوّلاً: انّ الأُخوّة الإسلامية العامّة غير مانعة من التزويج فكيف فسّر كلام أبي بكر بها؟!

وثانياً: انّ الأخوة الخاصة الدائرة بين كلّ شخصين تحقّقت في المدينة، إمّا

---

١. الحجرات: ١٠.

٢. صحيح البخاري: ٨٩٤، الحديث رقم ٣٦٥٦، كتاب فضائل الصحابة.

في أوائل الهجرة كما عليه أصحاب السيرة، أو آخرها في مورد خاص حسب ما يرويه البخاري عن عكرمة عن ابن عباس: انّ رسول الله قالها في مرض موته.[١]

روى البخاري عن ابن عباس، قال: خرج رسول الله ﷺ في مرضه الّذي مات فيه عاصباً رأسه بخرقة، فقعد على المنبر فحمد الله وأثنىٰ عليه ثمّ قال: إنّه ليس من الناس أحد أمنّ عليّ في نفسه وماله من أبي بكر بن أبي قحافة، ولو كنت متخذاً من الناس خليلاً لاتّخذت أبا بكر. هذا وللحديث طرق ذكرها البخاري في مقام آخر وهو قوله:«ولكن أخي وصاحبي».

ولا يصحّ الحديث إلّا إذا ثبت انّ رسول الله ﷺ آخىٰ بينه وبين أبي بكر قبل الهجرة بسنتين، في مكّة المكرمة، حتّى يعتمد عليه أبو بكر ويعتذر عن تزويج بنته، ولم يذكر المحدثون وأصحاب السير شيئاً من ذلك، ولو كان لبان، لأنّها فضيلة، لا يكتمها هو ولا عشيرته وأُسرته على أنّ الظروف السائدة في مكّة المكرمة من العيش بين الخوف والرجاء لم تكن تساعد بمثل هذه التصريحات.

نعم الّذي ثبت بالتضافر انّ النبيّ ﷺ قال: «تآخوا في الله أخوين أخوين» ثمّ أخذ بيد علي بن أبي طالب فقال: «هذا أخي». فكان رسول الله ﷺ سيد المرسلين و إمام المتقين ورسول ربّ العالمين الّذي ليس له خطير ولا نظير في العبادة وعلي بن أبي طالب عليه السلام أخوين.[٢]

إنّ الامعان في ما ذكرنا يكشف عن تسرّب الخطأ والاشتباه إلى الحديث ووجود العلّة فيه، وإنّا لا نتّهم صاحب الجامع ولا الرواة في الاسناد وإنّما نعرضه

---

١. صحيح البخاري:١٢٥، الحديث رقم ٤٦٧، كتاب الصلاة؛ وأطرافه في ٣٦٥٦ و ٣٦٥٧ و ٦٧٣٨، كتاب فضائل الصحابة.

٢. السيرة النبوية:٢/ ١١٨.

على التاريخ لنستكشف وجود الخطأ.

والعصمة لله ولمن عصمه الله.

النموذج الثاني

أخرج مسلم في صحيحه في كتاب فضائل الصحابة عن ابن عباس قال: كان المسلمون لا ينظرون إلى أبي سفيان ولا يقاعدونه، فقال للنبي ﷺ: يا نبي الله ثلاث أعطنيهنّ.

قال: نعم.

قال: عندي أحسن العرب وأجمله أُمّ حبيبة بنت أبي سفيان، أزوجكها؟

قال: نعم.

قال: ومعاوية تجعله كاتباً بين يديك؟

قال: نعم.

قال: وتؤمّرني حتى أُقاتل الكفار كما كنت أُقاتل المسلمين؟

قال: نعم.

قال أبو زميل: ولولا انّه طلب ذلك من النبي ﷺ ما أعطاه ذلك، لأنّه لم يكن يسأل شيئاً إلاّ قال: نعم.[1]

أقول: لا يشك أي باحث متضلّع في التاريخ الإسلامي انّ الحديث عليل، لاتّفاق المسلمين على أنّ النبيّ تزوج بأُمّ حبيبة قبل فتح مكة، وانّ أبا سفيان دخل المدينة بغية لقاء النبي ﷺ قبل إسلامه وكانت أُمّ حبيبة زوجته، وإنّما استسلم أبو سفيان بعدما اجتثت جذور الشرك من جزيرة العرب وفتحت معاقله.

---

١. صحيح مسلم: ٧/ ١٧١، باب فضائل أبي سفان بن حرب.

حكى ابن هشام في ذكر الأسباب التي دعت النبيّ ﷺ إلى المسير نحو مكة في شهر رمضان سنة ٨هـ وقال: ثمّ خرج أبو سفيان حتّى قدم على رسول الله ﷺ المدينة، فدخل على ابنته أُمّ حبيبة بنت أبي سفيان، فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله طوته عنه، فقال: يا بُنَيَّة ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش، أم رغبت به عني؟

قالت: بل هو فراش رسول الله وأنت رجل مشرك نجس، ولم أحب أن تجلس على فراش رسول الله.[١]

وقد اتّفق كُتّاب السير على أنّ أُمّ حبيبة أسلمت في مكة المكرمة قبل الهجرة، وهاجرت مع زوجها إلى الحبشة، وذكرها ابن هشام من المهاجرات إلى الحبشة.

قال ابن هشام: ومن بني أُميّة عبيد الله بن جحش بن رئاب الأسدي حليف بني أُميّة ابن عبد شمس معه امرأته أُمّ حبيبة بنت أبي سفيان، فلما قدم عبيد الله أرض الحبشة تنصّر بها وفارق الإسلام ومات هناك نصرانياً، فخلف رسول الله على امرأته من بعده أُمّ حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب.[٢]

ثمّ إنّ ابن حزم ممّن تنبه إلى الإشكال في الرواية وقال: والآفة فيه من عكرمة بن عمار الراوي عن أبي زميل.

وأنكر الشيخ أبو عمرو بن الصلاح على ابن حزم، فقال: لا نعلم أحداً من أئمّة الحديث نسب عكرمة بن عمار إلى وضع الحديث، وقد وثقه وكيع ويحيى بن معين وغيرهما، ثمّ حاول أن يصحح مضمون الحديث بأنّ أبا سفيان سأل تجديد

---

١. السيرة النبوية لابن هشام: ٢/ ٣٩٦، وغيرها من المصادر المتوفّرة.

٢. السيرة النبوية لابن هشام: ٢/ ٣٦٢.

عقد النكاح تطييباً لقلبه، لأنّه كان ربما يرى عليها غضاضة من رياسته ونسبه أن تـزوج بنتـه بغير رضـاه، أو أنّـه ظـن انّ إسـلام الأب في مثل هـذا يقتضي تجديـد العقد.[1]

يلاحظ عليه أوّلاً: إنّ إذن الولي معتبر في تزويج البكر لا الثيّـب وقد تزوجها ابن جحش فلما مات في الحبشة، تزوجها النبي ﷺ وقد قال ﷺ: «ليست للوليّ مع الثيّب أمر».[2]

وثانياً: إنّ ما ذكره النـووي تأويل لو ارتكبه غيره لرمي بـالجهمية، فلم يكن أبو سفيـان بعد إسـلامه على درجة عـالية من التقوى حتّـى يتسنّى لابن الصلاح إبداء مثـل هذه الظنون. ومن أراد أن يقـف على حياته فليرجع إلى المصـادر الّتي ترجمت حياته.

وفي الختام أرجو من أساتذة الحديث وصيارفتـه عرض ما ذكرت على طاولة التحقيق عسى أن أكون مخطئاً في ما استنتجت أو مصيباً.

والعصمة لله سبحانه ولمن عصمه.

---

١. شرح صحيح مسلم للنووي:١٦/ ٢٩٦.

٢. سنن أبي داود:٢/ ٢٣٣ برقم ٢١٠٠؛ والسنن للنسائي:٦/ ٨٥؛ ومسند أحمد بن حنبل:١/ ٣٣٤.

٢

الإمام شرف الدين

باحثاً ومجاهداً وداعية للإصلاح والوفاق

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على خير خلقه محمّد وآله الطاهرين.

قال الله تعالى: ﴿ **يَرْفَعِ اللهُ الّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ دَرَجاتٍ** ﴾.[1]

أمّا بعدُ، فإنّي أتقدّم بالشكر والتقدير إلى الإخوة المسؤولين في مكتب الاعلام الإسلامي لما بذلوه من جهود في عقد هذا المؤتمر الدولي المخصَّص لتكريم العلاّمة السيّد شرف الدين العاملي قدس سره.

إنّها ـ والله ـ لفرصة طيبة وجميلة أن نلتقي في رحاب العلاّمة السيد شرف الدين لنُحيي مآثره الخالدة في حقول الدين والمذهب والأُمّة، ونقتطف منها أزاهير نُعطِّر بأريجها الزاكي، هذا الحفل المبارك الّذي يجتمع فيه العلماء الأعلام والأساتذة والأُدباء والفضلاء، فأهلاً بكم جميعاً ومرحباً.

ونَوَدُّ في هذا الوقت الّذي تهبّ فيه أعاصير الشرّ والطغيان لتستأصل

---

١. المجادلة:١١.

المبادئ والقيم الرفيعة، وتسلب حقّ الشعوب في تحقيق كرامتها وحريتها واستقلالها...نودّ في هذا الوقت العصيب أن نحيّي بألسنتنا وقلوبنا وعواطفنا الصادقة الوفدَ الكريم الّذي حلّ علينا ضيفاً من ربوع العلم والفكر والجهاد والتضحية والفداء، تلك الربوع التي أنبتت فطاحل العلماء والفقهاء والمفكرين والأُدباء. كما نحيّي الإخوة الأفاضل الأماجد الوافدين من العراق، فشكراً للجميع.

لا شكّ في أنّ الأُمّة الّتي تتسلّح بالعلم والإيمان واليقْظة والوحدة، لا يمكن أن تضعُف أو تُستَفَلّ مهما كانت الخطوب والمحن الّتي تداهمها.

وفي هذا العصر أثبت علماء لبنان المجاهدون وأحراره وصناديده أنّهم أعزّ وأمنع من أن تتطاولَ عليهم الذئاب، أو تنطليَ عليهم أحابيل الأفاعي مهما لان مسُّها، أو تخدعهم شعارات الديمقراطية المزيفة الّتي رأينا صوراً منها في مُدن العراق المُستباحة، وسجونه الحافلة بكلّ ما يبعث على التقزّز والاشمئزاز.

لقد اتضح تماماً أنّ أحرار لبنان ومجاهديه على مستوى المسؤولية في شتى الظروف والأحداث، فبالأمس وثبَ رجاله الأشاوس لتحرير أرضهم من دنس العدو الصهيوني الّذي ردّد الكثيرون ـ جهلاً وجبناً وطمعاً ـ مقولة أُسطورة جيشه الّذي لا يُقهر، ولكن لم يمضِ وقت طويل حتّى رأى العالم فرارَ جنوده من الميدان فرار الحُمُر من بطشة الليث الهصور.

لقد كان لهذا الانتصار والمظاهرات الحاشدة صدى واسع ووقع مؤثر في نفوس الجماهير الّتي بدأت تقترب من الإيمان بأن جولة الباطل لابدّ أن تنتهي بصولة الحق والإيمان والوحدة والإقدام، وأخذت تدنو من الاعتقاد بواقعية قول الشاعر:

إذا الشعب يـــومـــاً أراد الحيـــاة فـــلابـــدّ أن يستجيبَ القَـــدَر
ولابـــــــــدّ للّيـل أن ينجلي ولابـــــدّ للقيـــــد أن ينكسر

واليـوم، وثأراً للهزيمـة الّتي مُني بها الصهاينـة، وتنفيذاً لسيـاسة إخضـاع الشعـوب وإذلالها ومسخ هويتهـا ونهب ثـرواتها، تمّت حياكـة مـؤامرة خبيثـة في مصانع الكيان الصهيوني ودوائره العالميـة وبتأييد بعض الفئات المخدوعة ببريق الـديمقراطيـة الخادع أو المتـاجرة بضمائرهـا لـلالتفاف على الإنجـازات الكبيرة للشعب اللبنـاني وسـوقِـه إلى دائرة الشرق الأوسط الكبير الّـذي تسعى أمـريكـا خاسئة لتحقيقه.

وهنا أيضـاً، انطلقت الجموع لصنع ملحمة جـديدة لإحباط هـذه المؤامرة وإخماد الفتنة، والكشف عن زيف الادّعـاءات والشعارات الكـاذبة الّتي راحت تنزوي وتختفي أمام الحضـور الجماهيري الحاشد الّذي أجبر الأعداء على الاعتراف بمرارةٍ بحقيقة قـوة ووعي وتلاحم الشعب، وعلى التفكير بأساليب جـديدة تمهّد الطـريق لأغـراضهم الشريـرة، ولكن الله تعـالى والمؤمنين والأحـرار لهم دائماً بالمرصاد«وما النصر إلاّ من عند الله العزيز الحكيم».

***

برز في تـاريخ الأُمّة الإسـلامية عامـة والشيعة الإماميـة خاصـة في كلّ قرن وعصر علماء كبار وعباقرة عظام، بذلـوا جهودهم في ترسيخ العقيدة الإسلامية في قلـوب النـاس وكشـف حجب الـريب والشكّ عن وجـه الحقيقـة، فكأنّهم هم المعنيون في حديث رسول الله ﷺ، إذ يقول:

«يحمل هـذا الدين في كلّ قـرن عـدول ينفون عنـه تأويل المبطلين وتحريف

الغالين، وانتحال الجاهلين كما ينفي الكير خبث الحديد».[١]

وفي القرن الرابع عشر نجد رجالاً أحيوا الـدين وأماتوا البدع وصدوا سهام الأعداء المرشوقة، تشهـد على جهادهم العلمي المتواصل كتب التراجم، ومعاجم الرجال.

ومن هـؤلاء؛ الأجلاء الأربعـة الذين عـاشوا في عصر واحـد وبيئة واحـدة وتخرجوا من مدرسة واحدة ولمسوا حلوا الحياة ومرّها في العراق والشام، أعني:

١. آية الله الشيخ محمد جواد البلاغي (١٢٨٤ـ ١٣٥٢هـ).

٢. آية السيد محسن الأمين العاملي (١٢٨٤ـ ١٣٧٣هـ).

٣. آية الله الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء (١٢٩٤ـ ١٣٧٣هـ).

٤. آية الله السيد عبد الحسين شرف الدين العاملي (١٢٩٠ـ ١٣٧٧هـ).

فهـؤلاء الأجلّـة هم حجج الإسـلام بحق، ورافعو ألـويـة الجهـاد العلمي ببيانهم وبنـانهم بلا شك، فقد ثـابروا في عملهم لأجل هدايـة الأُمّة، وصبروا على مضض الحياة من غير اكتراث بما يصيبهم في طريق هذا الهدف.

وحيث إنّ هذا المؤتمر ينعقـد إجلالاً لأحد هـؤلاء العباقـرة الأربعة، أعني: العلاّمة الحجّـة آية الله العظمى السيد عبد الحسين شرف الـدين العاملي، فنود أن نلقي أضواءً على جوانب من حياته.

١. كان رجلاً عالمياً

العالِم الإسلامي تارة تتعلق رغبته ببلد خاص أو بأقليم معيّن، يبذل جهده في إنـارة الطـريق لأهلـه فقط، ولكن هنـاك قليـل من المصلحين يحملـون هموم

---

١. رجال الكشي: ١٠.

المسلمين جميعاً فيحررون أفكارهم عن قيد الإقليمية ويعطفون رغبتهم إلى العالم الإسلامي كلّه، فيكتبون للمسلمين عامة ويحاورونهم كذلك، فالمسلمون لديهم كأسنان المشط، من غير ميز بين أقليم دون أقليم أو فئة دون فئة.

وفي طليعة هؤلاء سيدنا الجليل عبد الحسين شرف الدين العاملي قدس سره الذي يهدف في كلّ أثر حبّره يراعه إلى تماسك المسلمين وتعاونهم وتمسكهم بالكتاب والسنّة، فترى أنّه يؤلف كتاباً باسم: «الفصول المهمة في تأليف الأُمّة» وهو من أجل الكتب الكلامية، تناول فيه مسائل الخلاف بين الطائفتين على ضوء العقل والاستنتاج والتحليل، وقد ألفه في أيام شبابه وتم في عام ١٣٢٧هـ.

ومن دلائل كونه رجلاً عالمياً لا إقليمياً أنّه ركب البحر عندما لم تكن أي طائرة في المنطقة، وتحمّل جهد هذا النوع من السفر، فتوجّه من لبنان إلى مصر عام ١٣٢٩هـ والتقى فيها بأفذاذ الحياة العقلية في مصر وعلى رأسهم الشيخ سليم البشري المالكي شيخ الجامع الأزهر ، ودارت بينه و بين رئيس الأزهر مساجلات ومراجعات سوف نتحدّث عنها فيما بعد.

ولم تكن هذه الرحلة فريدة في حياته وإن كان لها آثار جميلة، فقد زار عام ١٣٣٨هـ دمشق ومصر وفلسطين مرّة أُخرى، وألقى خلالها محاضرات قيّمة واجتمع هناك مع مشايخ العلم وعباقرته.

كما أنّه زار عام ١٣٤٠هـ الأراضي المقدسة في عهد الملك حسين وكان الموسم في ذلك العام من أحفل مواسم الحج، وكان للسيد بين جموع الحجاج مكانة شامخة بشهادة أنّه أمّ المسلمين في المسجدالحرام، وكان المسجد مكتظاً بألوان المسلمين، وصلّى من غير تقية.

وقد كان لهذه الرحلات أثر بارز في تعريف الأُمّة وتعريف الشيعة

لأخوانهم، وتبيان أنّ الشيعة هم أخوانهم الّذين افتقدوهم منذ قرون.

٢. الاهتمام بتوعية الشيعة

إنّ الإمام شرف الدين لمّا أكمل دروسه عند أعلام العصر وجهابذة الوقت، كالمحقّق الخراساني (١٢٥٥ـ ١٣٢٩هـ)، والسيد كاظم اليزدي(١٢٤٧ـ ١٣٣٧هـ)، وشيخ الشريعة (١٢٦٦ـ ١٣٣٩هـ)، وغيرهم من أعلام النجف ومراجعها، غادر العراق ونزل بلاده فوجد أنّ الأُمّية متفشية بين المسلمين عامّة، وعند الشيعة خاصّة، ولاحظ أيضاً أنّ المناصب العليا بيد المسيحيّين، والمهن الّتي لا يرغب فيها المثقفون تركت للشيعة، فهم يمارسون المهن والحرف البسيطة.

فأحسّ السيدﷺ بواجبه فجعل توعيتهم وتثقيفهم نصب عينيه، فقام بتأسيس المدرسة الجعفرية في صور وجعلها نواة لفتح مدارس أُخرى في هذا المضمار، وقال عند مراسم الافتتاح كلمة قيّمة دارت على الألسنة منذ أن قيلت إلى يومنا هذا، وهي: «لا ينتشر الهدى إلاّ من حيث ينتشر الضلال».

وقد رسم بذلك الخط الّذي يجب أن يسير عليه قادة المسلمين، فإن التأثّر بالمسيحية أو المادية الّتي راجت في ذلك الزمان أو بعده انّما حدث في أوساط المسلمين عن طريق المراكز الثقافية كالمدارس والجامعات، فأخذ أساتذة العلوم يبشرون بالمسيحية تارة وبالمادية أُخرى في ثنايا دروسهم ومحاضراتهم. فإذا دخل الخصم في تحقيق مآربه عن هذا الطريق، فعلينا أن نسلك نفس هذا المنهج لتحقيق أهدافنا، لأنّه طريق معبّد ومنتج...

وإذا كان في ناموس الخلقة أن يرث الأبناء ما للآباء من الفضائل والمناقب فإنّ كلمة السيد هذه، هي أشبه ما تكون بكلمات جدّه الإمام عليعليه السلام ، فلو

وجدناها مكتوبة في ثنايا قصار الكلم للإمام في «نهج البلاغة» لما شككنا في صدورها عنهعليه السلام، وهذه فضيلة رابية للإمام الراحل شرف الدين.

٣. فتح باب الحوار بين الطائفتين

سادت على المسلمين بعد رحيل الرسولصلى الله عليه وآله وسلم فكرتان مختلفتان:

إحداهما: انّ المرجعية السياسية الدينية منصب إلهي يضعه سبحانه أين يشاء، وقد شاء أن تكون مختصة بأئمّة أهل البيتعليهم السلام، فهم الذين لهم الحق في تولّي أُمور المسلمين في شتى الحقول والمجالات.

ثانيهما: أنّ هذه المرجعية منصب بشري يمارسها من يختاره الصحابة من المهاجرين والأنصار، وقد قاموا بدورهم هذا في سقيفة بني ساعدة.

هاتان الفكرتان سادتا على المسلمين إلى يومنا هذا، ولهم في هذا المجال؛ رسائل وكتب وموسوعات لا يمكن إحصاؤها.

إنّ أتباع هاتين الفكرتين يشتركون في أُصول وفروع كثيرة تسهّل لهم التمسك بعرى الوحدة الوثيقة، ولكنّهم ــ و للأسف ـ تناسوا المشتركات، وضخّموا الأمر الّذي يفرّق بينهم، فأسفر ذلك عن عدم اطّلاع طائفة على ما عند الطائفة الأُخرى، ولذا نادىٰ سيدنا شرف الدينقدس سره بفتح باب الحوار لأجل تقريب الخطى بين الطائفتين، قائلاً: بأنّ ما يجمعنا أكثر ممّا يفرقنا.

إنّ باب الحوار، كان مفتوحاً إلى أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس، فهذا هو الشيخ المفيد(٣٣٦ــ ٤١٣هـ) قد ملأ كتبه وأماليه بالحوارات العلمية، وتبعه في ذلك تلميذاه الشريف المرتضى (٣٥٥ــ ٤٣٦هــ) والشيخ الطوسي (٣٨٥ـ ٤٦٠هـ)، ولكن بعد هذه الفترة انسد باب الحوار بين أعلام المسلمين ولم

يفتح إلاّ في موارد يسيرة لا تكاد تذكر، فنهض السيـد الراحل إلى فتحه من جديد عن طــريق المكـاتبـة مع أحـد أعــلام أهل السنــة، أعنـي الشيخ سليم البشري(١٢٨٤ــ ١٣٣٥هــ) شيخ الأزهـر في عصره، وذلك بعـدمـا هبط مصر أواخر عـام ١٣٢٩هـ مؤملاً في ذلك تحقيق الأُمنيـة الّتي أمّلها. فوجد تـربة مصر تربـة خصبة بـالعلم والـذكاء، وقـد جمع الحظ السعيد بينـه و بين أحد أعـلامها المبرزين المتميـزين: «بعقل واسع، وخلق وادع ،وفـؤاد حيّ، وعلم عيلم، ومنـزل رفيع» كما عبرﷺ في مقدمة مراجعاته وهو يصـف لقاءه معه بقوله: «شكوت إليه وجـدي، وشكا إليّ مثل ذلك وجـداً وضيقاً، وكـانت سـاعة مـوفقة أوحت إلينـا التفكير فيما يجمع الله به الكلمـة، ويلمّ به شعثَ الأُمّـة، فكان ممّا اتفقنـا عليه أنّ الطائفتين ـ الشيعة والسنّة ـ مسلمون يدينون حقاً بدين الإسلام الحنيف، فهم فيما جاء الـرسول به سواء، ولا اختـلاف بينهم في أصل أساسي يفسد التلبّس بـا لمبدأ الإسلامي الشريف... ».

فترتب على ذلك اللقـاء الجميل مكـاتبـات ومراجعـات بلغ عـددهـا ٦٥ مـراجعـة، أي أنّ السيد قـد تلقّى خمسـاً وستين سـؤالاً من شيخ الأزهـر ليجيب عليها، وقـد أجاب بعـدد الأسئلة، فصـار المجموع كتابـاً علمياً تـاريخياً حـديثياً كلامياً كان له صدى واسع عندما طبع عام ١٣٥٥هـ.

يُشـار إلى أنّ المتحـاورين لم يخرجـا عن أدب الإسلام وأدب المنـاظـرة قيـد شعرة، بل انّهما تبادلا عبارات التقدير والاحترام، وهذا ما نلمسه في ثنايا كلامهما، فهذا شيخ الأزهر يبدأ مراجعته الأُولى بقوله: «سلام على الشريف العلاّمة الشيخ عبد الحسين الموسـوي ورحمة الله وبركـاته» ثمّ إنّـه يكتب في ثنايـا تلك المراجعة: وإنّي لواقف على سـاحل بحرك اللجي، استأذنك في خوض عبابـه والغوص على

درره، فإن أذنت غصنا على دقائق وغوامض تحوك في صدري منذ أمد بعيد، وإلاّ فالأمر إليك، وما أنا فيها أرفعه بباحث عن عثرة، أو متبع عورة، ولا بمفند أو مندد، وإنّما أنا نشّاد ضالة، وبحّاث عن حقيقة، فإن تبيّن الحقّ فإنّ الحق أحق أن يتّبع، وإلاّ فأنا كما قال القائل:

نحن بما عندنا وأنت بما عنـ ـدك راض والرأي مختلف

فبادله السيدؒ الجواب الجميل وقال: «رميتني بآمالك ونزعت إليّ برجائك، وأنت قبلة الراجي، وعصمة اللاجي، وقد ركبت من سوريا إليك ظهور الآمال، وحططت بفنائك ما شددت من الرحال، منتجعاً علمك، مستمطراً فضلك، وسأنقلب عنك حي الرجاء، قوي الأمل، ـ ثمّ يقول له ـ : فسل عما أردت، وقل ما شئت، ولك الفضل، بقولك الفصل، وحكمك العدل».[1]

هكذا كان العلمان في سماء الأدب، وهذا هو تقديرهما لحقوق كلا الطرفين.

٤. اهتمامه بالفقه الأكبر

اهتم سيدنا الراحل بالفقه الأكبر نظير اهتمامه بالفقه الأصغر، فإن قائمة أسماء مؤلّفاته تشير إلى أنّ اهتمامه بعلم الكلام والعقائد ومسائل البنية التحتيّة للدين الإسلامي كان بنفس مستوى اهتمامه بمسائل الفقه الإسلامي، ويشهد على ذلك كتبه ومحاضراته في العقائد والكلام.

وهوؒ يذكر في إجازته لآية الله السيد شهاب الدين المرعشي النجفيؒ أنّ من شيوخ إجازته الإمام الفقيه المحدث محمد المعروف بالشيخ بدر الدين الدمشقي شيخ الإسلام في دمشق وأعلم أعلامها، قال: فقد لقيته في شعبان

---

١. المراجعات: الأُولى والثانية.

سنة١٣٣٨هـ بدمشق وحضرت درسه ليالي رمضان من تلك السنة وجرت بيننا مذاكرة تتعلق بمباحث الحسن والقبح العقليين وبإمكان رؤية الله تعالى وامتناعها وبقدم القرآن وحدوثه، فآل البحث إلى ميله التام إلى رأينا في كلّ من المسائل الثلاث....[1]

نعم قد بذل‏ جهوده الكثيرة في مسألة الإمامة والخلافة الّتي هي من الأُصول عندنا ومن الفروع عند أهل السنّة، حيث إنّ تنصيب الإمام عندهم من فروع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٥. تبيين المسائل الخلافية

نحن نعتقد بأنّ الخط الفاصل بين الطائفتين السنَّة والشيعة أمر واحد لا غير، وهو أنّ الشيعي يرى أنّ المرجعية السياسية والعلمية بعد رحلة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم تعود إلى أئمّة أهل البيت من سلالته، وترى الطائفة الأُخرى خلاف ذلك، هذا هو الفارق الأصيل بين الطائفتين.

وأمّا سائر المسائل فلا تمتّ إلى الخلاف الجوهري بين الطائفتين، فهي إمّا مسائل كلامية أو مسائل فقهية.

مثلاً: المسائل الثلاث الّتي خاض فيها الإمام شرف الدين في دمشق وأقنع المخالف بما يراه الإمامية ليس شيئاً ممّا يختص بالإمامية، فإنّ المعتزلة أيضاً شاركت الإمامية بالتحسين والتقبيح العقليين، وامتناع رؤية الله تعالى في الآخرة، وحدوث القرآن وعدم قدمه، ونظير ذلك المسائل الفقهية فإنّ الشيعي يرى عدم نسخ نكاح المتعة أو بطلان العول والتعصيب، كلّ ذلك خلافات فقهية لا تمت

١. مجلة آينه پژوهش« مرآة التحقيق»:٦:٢٠٦.

إلى أُصول الدين بصلة.

فكلّ من يـريـد أن يعمّق الخلاف أو الشقـاق فإنّما يتمسّك بـا لمسـائل الكلاميـة أو الفقهية، أو يتهّم الطـائفة بما هم بـراء عنه بـراءة يوسف من الـذنب الّذي أُلصق به.

وعلى ضوء ذلك بحث السيد شرف الديـن بعض المسائل الفقهية الخلافية تبعاً للقـدماء مـن كلتا الطـائفتين، فهذا هو أبـو جعفر محمـد بن جـرير الطبري (المتوفـى سنة ٣١٠هـ) يؤلّف كتاباً باسم اختلاف الفقهاء، كما أنّ أبا جعفر أحمد ابن محمد الطحاوي (المتـوفّى ٣٢١هـ) ألف كتاباً باسم اختـلاف العلماء، هذا ما عند السنّة.

وعند الشيعـة نرى أنّ السيد المرتضى (٣٥٥ــ ٤٣٦هـ) ألف كتابـاً باسم «مسـائل الخلاف في الفقــه»، وتبعـه تلميــذه أبــو جعفــر محمــد بن الحسن الطوسي(٣٨٥ــ ٤٦٠هــ) فألف كتـاب «الخلاف في الأحكـام»، ذكـر فيـه آراء الموافق والمخالف بسعة صدره وطول باعه.

إنّ هذه الكتب الّتـي قام بتأليفها فطـاحل العلماء من الطرفين كـانت أداة التقريب بينهما، إذ مـا من مسألة إلاّ وللشيعة الإمـامية موافق من أحـد الطوائف الأربعة أو أحد المذاهب البائدة، ولم يكن لهذه الكتب أي أثر سيِّئ.

كما ألّف محمد بن حسن الشيباني (المتوفّى ٢٩٨هـ) كتاباً باسم «الحجة على أهل المدينة» وقد طبع في أربعة أجزاء طرح فيه المسائل الخلافية بين مدرسة الرأي الّذي هو من أعـاظم أتباعها ومدرسة أهل الحديث الّتي كان عليهـا المحدثون في المدينـة كمالك واتباعـه، ولم تـوصف هـذه الكتب بشق العصـا أو توسيع نطـاق الخلاف، لأنّها كانت بحوثاً علمية فكرية توجب تقدم عجلة الفقه إلى الأمام.

وفي القرن السـابع قام أحد الفطاحل من علماء الشيعـة الّذي قلّما يتّفق في

الزمان أن يسمح بمثله وهو الإمـام العلاّمة الشيخ الحسن بن يوسف المطهر الحلّي (٦٤٨ـ٧٢٦هـ)، قام بتأليف كتابين قيّمين ، وهما:

١ . تذكرة الفقهاء.

٢ . منتهى المطلب في تحقيق المذهب.

أورد فيهما آراء الصحابة والتـابعين والفقهاء، بصدر رحب، ونقلَ دليل كلّ طائفة على رأيه وذكر مذهبه مع دليله.

فنحن نتلقىٰ هذه الكتب تحقيقاً للفقه و إنارة للمذهب.

فتبعاً لسيرة هؤلاء الأعـاظم قام سيدنا شرف الدين بـالبحث حول المسائل الفقهيـة الخلافيـة، وهـو وإن لم يستقصهـا جميعـاً ولكنّـه أدلى بمهمات المسـائل الخلافية، وألف في ذلك كتاباً طبع باسم: المسائل الفقهية.

وعلى ضـوئه سرنـا في كتـابنـا «الانصـاف في مسـائل دام فيهـا الخلاف» فاستقصينـا المسائل الخلافية الّتي اشتهـرت بها الشيعة الإماميـة كالمنع عن مسح الخفين، وغسل الأرجل والّتي لم تتجاوز عن ٢٦ مسألة.

إنّ اختلاف الفقهاء في المسائل العملية نابع عن الاختلاف في المدارك الّتي يعتمدونها في استنباط الأحكام، وكلّ منهم يطلب الوصول إلى الحكم الواقعي بنية خالصة. فرحم الله علماءنا الماضين وحفظ الله الباقين.

ولعلّ اختـلافهم كان مثـل اختلاف نبي الله داود وسليمان في قصـة الحرث الّتي ذكـرها الله سبحـانه في كتـابه الكـريم، إذ يقول عنهـا: **﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمـانَ إِذْ يَحْكُمانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدينَ* فَفَهَّمْناهَا سُلَيْمانَ وَكُـلاًّ آتَيْنا حُكْمـاً وَعِلْماً وَسَخَّرْنـا مَعَ داوُدَ الْجِبالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْـرَ وَكُنّا**

فَاعِلِينَ﴾.[١]

وقد ذكر المفسرون حكمهما على وجه لا يصادم عصمتهما، فمن أراد تفصيل ذلك فليرجع إلى التفاسير.

٦. تأسيس منهج لتمييز الصحيح من الأحاديث

إنّ حديث الرسولﷺ كالقرآن الكريم حجتان عند الأُمّة الإسلامية، غير أنّ القرآن وحي بلفظه ومعناه، وأمّا حديث الرسولﷺ فوحي بالمعنى دون اللفظ، وقد ارتحل الرسول الأكرمﷺ وترك في الأُمّة وديعتين ثمينتين، وهما: كتاب الله وعترته الذين هم حفظة سنّته ومبلّغو أحاديثه.

غير أنّ تحريم كتابة السنّة والتحدّث بها في عصر الخلفاء الثلاثة (خاصّة الثاني منهم) أفرز مشكلةً كبيرة هي ذهاب كثير من حفظَة الحديث مع أحاديثهم دون أن يكتب أو ينقل، فحلّ محلهم مستسلمة أهل الكتاب، فروّجوا الإسرائيليات والمسيحيات والمجوسيات، فتلقّتها الأُمّة علماً ناجعاً ملأوا به كتبهم.

وفي نهاية القرن الأوّل تنبّه عمر بن عبد العزيز إلى الخسارة الفادحة المتوجهة إلى التراث النبوي من ترك كتابة الحديث والتحدّث به، فكتب إلى عامله في المدينة المنورة أبي بكر بن حزم قائلاً: أُنظر ما كان من حديث رسول اللهﷺ فاكتبه، فإنّي خفتُ دروس العلم وذهاب العلماء، ولا تقبل إلاّ حديث النبيﷺ، ولتفشوا العلم ولتجلسوا حتّى يعلم من لا يعلم، فإنّ العلم لا يهلك حتّى يكون سرّاً.[٢]

١. الأنبياء:٧٨ـ٧٩.

٢. صحيح البخاري:١/ ٢٧، باب كيف يقبض العلم، من كتاب العلم.

ومع الحثّ الأكيد من جانب الخليفة الأموي لم تكن هناك حركة سريعة بالنسبة إلى هذا الموضوع، إلى أن دالت دولة الأمويين وقامت محلّها دولة العباسيين وأخذ أبو جعفر المنصور بمقاليد الحكم، فعندئذٍ قام المحدّثون بتدوين الحديث عام ١٤٣هـ.[١]

وفي خلال الفترة الّتي أُهملت فيها (باستثناء شيء يسير) السنّة النبوية كتابة وتحديثاً، دخلت الإسرائيليات والمسيحيات والمجوسيات والمكذوبات على لسان رسول الله ﷺ عن طريق تجار الحديث والمستأكلين به، فاحتاج المحقّقون إلى تمييز الصحيح عن غيره، و الصادق عن الكاذب بعلم الرجال الباحث عن صفات الراوي ضبطاً وثقةً.

فمن ذلك العصر صار المحور في نقد السنّة في ألسن الرواة وتمحيص الأحاديث النبوية هو صفات الراوي، من حيث كونه عادلاً حافظاً ضابطاً مسنداً إلى غير ذلك من الصفات.

ولكن القوم غفلوا عن أنّ هناك طريقاً آخر في جنب الطريق الأوّل وهو نقد مضمون الحديث بأُصول علمية وهي:

١. عرض الحديث على الكتاب.

٢. عرض الحديث على السنة القطعية المتواترة.

٣. عرض الحديث على العقل الحصيف الّذي به يخاطبنا سبحانه في كتابه، ويحتج به علينا.

٤. عرض الحديث على التاريخ المتواتر المتضافر.

٥. عرض الحديث على ما اتّفق عليه المسلمون.

---

١. تاريخ الخلفاء للسيوطي: ٢٦١.

فإذا كـان الحديث مخالفاً لأحـد هـذه الأُسس القطعية فإنّنـا نعلم ضعف الحديث وعـدم صـدقه وتسرب الـوضع إليـه من إحـدى النـواحي دون أن يُتَّهـم الصحابي أو التابعي أو مؤلّف الكتاب به.

نعم الشرط هـو عـدم مخالفتـه، لا مـوافقته لأحـد هـذه الموازين، لـوجـود موضوعـات مختلفة حفلت بها الأحاديث الكثيرة، دون أن يرد في القـرآن الكريم ـ حسب أفهامنا ـ منها شيء.

فهذا النوع من دراسة الحديث ممّا رسمه سيدنا الراحل في كتابه «أبو هريرة» الّذي نُسب إليه أكثر من خمسة آلاف حديث، مع أنّه لم يدرك من حياة النبي أكثر من ثلاث سنوات.

وهذا النـوع من التحقيق بِكر في بابـه، وقد سار عليه أحـد أعلام مصر ألا وهو محمـد الغزالي ، حيث ألّف كتـابه «الحديث النبـوي بين أهل النقل والفهـم» الذي أثـار ضجة عنـد بعض المتحجّرين، وقـام أئمة الجمعـة والجماعة في بعض المساجد بالتنديد والتشهير بهذا الكتـاب، وما ذلك إلاّ لأنّهم ألِفوا وأنِسوا بصحّة عامّة ما في الصحاح والسنن على وجه لا يقبل النقاش.

رحم الله سيدنا الراحل الّذي شق لنا هذا الطريق الّذي سرنا على ضوئه في كتابنـا «الحديث النبـوي بين الرواية والـدراية» فقمنـا بدراسـة أحاديث ثلـة من الصحابـة تربو على الأربعين بعد ذكـر نبذة مختصرة عن سيرتهم ونماذج من روائع حديثهم، ثمّ أخذنـا بالأحاديث الزائفة المخالفـة لأحد هذه الأُسس دون أن نتّهم الصحابي أو التـابعي بشيء، وانّما اتّهمنا مضمون الحديـث بالوضع والـدس، وممّا ذكرناه في هذا الكتاب انموذج لما لم نـذكر، وإلاّ فهذا النوع من التحقيق يحتاج إلى دراسة مبسطة منهجية في ضوء سعي لجنة عالمة بأُصول التحديث وقواعده.

٧. مواجهة المستعمرين

لم يقتصر جهاد السيد ﵀ على الجانب العلمي والفكري فقط، بل ضمّ إليه نضاله ضد الاستعمار، وذلك عندما انسحبت قوات الخلافة العثمانية عن البلاد العربية بعد الحرب العالمية الأُولى عام ١٩١٧م، وحلّت مكانها قوات الحُلفاء وتقسّم العالم الإسلامي إلى دويلات صغيرة تقاسمها الحلفاء بينهم، وصارت بلاد الشام تحت الانتداب الفرنسي.

فعند ذلك أحس السيد شرف الدين﵀ بأنّ الأخطار محدقة بالإسلام والمسلمين، فنهض بعزم صارم إلى محاربة الاستعمار ودعوة الجماهير(السنّة منهم والشيعة) إلى طرد الحكام ورفض حكومة الانتداب فلاقىٰ في هذا الطريق ما لاقىٰ ممّا لا يمكن تبيينه في هذا المقال.

يقول المحقّق الخبير بحياة السيد (الشيخ مرتضى آل ياسين): ولعل المحن الّتي كابدها هذا السيد الجليل في سبيل إسعاد قومه لم يكابد نارها إلاّ أفذاذ من زعماء العرب وقادتهم ممّن أبلوا بلاءه وعانوا عناءه... ثمّ إنّه بعدما يذكر الأحداث المرّة الّتي مرت بحياة السيد يقول: تلا هذا الحادث أحداث وأحداث اتّسع فيها الخرق، وانفجرت فيها شقّة الخلاف، حتّى أدّت إلى تشريد السيد بأهله ومن إليه من زعماء عاملة إلى دمشق، وقد وصل إليها برغم الجيش الفرنسي الّذي كان يرصد عليه الطريق، إذ كانت السلطة الغاشمة تتعقّبه بقوة من قواتها المسلحة لتحول بينه وبين الوصول إلى دمشق، وحين يئست من القبض عليه، عادت فسلّطت النار على داره في (شحور) فتركتها هشيماً تذروه الرياح، ثمّ احتلت داره الكبرى الواقعة في (صور) بعد أن أباحتها للأيدي الأثيمة، تعيث بها سلباً ونهباً، حتّى لم تترك فيها غالياً ولا رخيصاً، وكان أوجع ما في هذه النكبة تحريقهم مكتبة

السيد بكلّ ما فيها من نفائس الكتب وأعلاقها، ومنها تسعة عشر مؤلفاً من مؤلفاته، كانت لا تزال خطية إلى ذلك التاريخ.

ظل السيد في دمشق في أُبهة من نفسه وجهاده، وكان في دمشق يومئذ اجتماعات سياسية وحفلات وطنية، وكان السيد في جميعها زعيماً من زعماء الفكر وقائداً من قادة الرأي، وله في هذه الميادين مواقف مذكورة وخطابات محفوظة.

ثمّ إنّ السيد لم يجد بدّاً من مغاردة دمشق إلى فلسطين ومنها إلى مصر دفعاً لمؤامرات حيكت عليه....

ولمّا ورد مصر احتفلت به وعرفته بالرغم من تنكّره وراء كوفية وعقال.

وقد كانت له مواقف في مصر وجهت إليه نظر الخاصّة من شيوخ العلم وأقطاب الأدب ورجال السياسة على نحو ما تقتضيه شخصيته الكريمة. ثمّ حدثت ظروف سمحت له لأن يغادر مصر أواخر سنة ١٣٣٨هـ فهاجر إلى قرية في فلسطين تسمّى «علمى» تقع على حدود جبل عامل، إلى أن أُبيح للسيد أن يعود إلى عاملة على أثر مفاوضات أدّت إلى العفو عن المجاهدين عفواً عامّاً.[١] والحديث ذو شجون.

٨. كلمات الأعاظم في حق السيد

الحق أنّ شخصية شرف الدين ومكانته العلمية وشخصيته الجليلة ونضاله ضد المستعمرين والملحدين أظهر من أن تخفى على من له إلمام بتاريخ العلم والعلماء.

ونقتصر في المقام ــ إكمالاً للبحث ـ ببعض كلمات الثناء والتقدير الّتي

---

١. مقدمة المراجعات، بقلم مرتضى آل ياسين: (ط ـ ي).

ذكرها العلماء في حقّه.

هذا هو آية الله المحقّق الخراساني (١٢٥٥ـ ١٣٢٩هـ) صاحب المدرسة الأُصولية، المعروف بكثرة الانتاج والتخريج، يعرّف تلميذه الجليل شرف الدين في إجازة خاصّة له، بما يلي:

كلمة المحقّق الخراساني في حقّه

«وإنّ سيادة السيد السند، والثقة الفقيه المجتهد المنزّه من كلّ شين، سيد عبد الحسين شرف الدين الموسوي ــ شد الله أركانه وأعطاه يوم القيامة أمانه ـ مجتهد مطلق، وعدل موثّق قد أصبح من أهل الذكر الذين ترجع إليهم العباد، وترقّى من حضيض التقليد إلى أوج الاجتهاد، فخفقت ألوية النيابة عليه، وألقت بأزمّتها إليه، وحرم عليه التقليد، ووجب عليه العمل برأيه السديد، فليمتثل المؤمنون أمره ونهيه، وليرجعوا إليه في أموالهم، ويفزعوا إليه في سائر أفعالهم، فإنّه حجّة عليهم، ماضية فيهم حكومته ونافذ قضاؤه، ويحرم الردّ عليه فإنّ الرادّ عليه رادّ على الله، وهو على حدّ الشرك بالله؛ والمأمول منه أن يسلك جادّة الاحتياط فإنّها سبيل النجاة، والله الموفق وهو حسبنا ونعم الوكيل».

كلمة الحجّة الطهراني

يقول الشيخ آقا بزرك الطهراني في ترجمته: لقد كان المترجم له مأثرة من مآثر الوقت، وآية كبرى ازدهر بها العصر الحاضر، وحسْب هذا القرن مفخرة أن ينبغ فيه مثل هذا العبقري الفذّ، وحسْب «عاملة» أن تقل باحتها علَماً خفاقاً للدين وسيفاً مشهوراً للهدى مثله من بقايا العترة الطاهرة عليهم السلام.

فلقد فاق أقرانه بثروة علمية طائلة، وقوة في العارضة، وفلج في الحجة، ورصانة في الاسلوب، وجودة في السرد، واهتداء إلى المغازي الشريفة والدقائق البعيدة المرمى، و الغايات الكريمة، فماذا يقول الواصف فيه، أهو مجتهد فاضل، أم متكلم بارع، أم فيلسوف بحر محقّق، أم أُصولي ضليع، أم مفسر كبير، أم محدث صدوق، أم مؤرخ ثبت، أم خطيب مصقع، أم باحث ناقد، أم أديب كبير؟ نعم هو كلّ ذلك أضف إليه: أنّه ذلك المجاهد الدائب على المناضلة دون الدين والمكافح المتواصل دفاعه عن المذهب الحق، تشهد له بذلك كلّه المحابر والمزابر، والكتب والدفاتر، والخطب والمنابر، وأعماله الناجعة، ومحاضراته البديعة، وحجاجه الدامغ.[١]

ولعلّ في هذه الكلمة من معاصره الخبير بالرجال، الغنىٰ والكفاية.

وقد ترجم في «موسوعة طبقات الفقهاء» ووصف فيها بالنحو التالي:

كان فقيهاً مجتهداً محدثاً خطيباً مفوهاً أديباً بارعاً من كبار الدعاة إلى الوفاق بين المسلمين.[٢]

٩. مؤلفاته وآثاره

امتازت مؤلفات السيد بالعمق والاستيعاب والمتانة والأدب الرفيع، نذكر منها ما هو الأهم:

١. شرح تبصرة المتعلّمين في الفقه للعلاّمة الحلي في ثلاثة أجزاء.

٢. المسائل الفقهية.

---

١. نقباء البشر:٣/ ١٠٨٣.

٢. موسوعة طبقات الفقهاء: ١٤/ ٣١٨.

٣. تحفة الأصحاب في طهارة أهل الكتاب.

٤. رسالة في منجزات المريض.

٥. رسالة في المواريث.

٦. تعليقة على مبحث الاستصحاب من فرائد الأُصول للشيخ الأنصاري.

٧. المراجعات.

٨. تعليقة على صحيح البخاري في مجلد واحد.

٩. تعليقة على صحيح مسلم في مجلد واحد.

١٠. أبو هريرة.

١١. النص والاجتهاد.

١٢. الفصول المهمة في تأليف الأُمّة.

١٣. المجالس الفاخرة في مآتم العترة الطاهرة، في أربعة أجزاء.

١٤. رسالة حول الرؤية.

١٥. رسالة فلسفة الميثاق والولاية.

١٦. رسالة الكلمة الغراء في تفضيل الزهراء.

١٧. بغية الراغبين في سلسلة آل شرف الدين.

١٨. أجوبة مسائل موسى جار الله.

١٩. تحفة المحدّثين في من أخرج عنه السنّة من المضعّفين.

٢٠. سبيل المؤمنين في الإمامة في ثلاث مجلدات.

ومن رغب الاطلاع على كافة مؤلفاته فليرجع إلى كتاب «نقباء البشر» ج٣، ص١٠٨٦ـ١٠٨٧.

١٠. السيد البروجردي وكتاب المراجعات

صدر كتاب المراجعات إلى الأسواق عام ١٣٥٥هـ ثمّ تلت الطبعة الأُولى طبعات أُخرى بعد مضي عقد من السنين، ولم يكن السيد البروجردي مطّلعاً عليه، وقد قدّم الكتاب إليه أحد أساتذة الحوزة العلمية وهو آية الله السلطاني ﷺ، فأخذه السيد بإجلال و إكبار، فلمّا جلس لمطالعته ليلاً أسرته جاذبيته وأخذت بمجامع قلبه، فاستغرق في مطالعته إلى أن بلغ الصفحة الأخيرة من الكتاب وقد مضى هزيعاً من الليل.

ولما التقى صبيحة تلك الليلة بالسيد السلطاني أعرب له عن إعجابه بالكتاب، وتقريره الهادئ وفي الوقت نفسه الصارم والقاطع لحجة المناظر.

ثمّ إنّ السيد السلطاني أخبر السيد البروجردي أنّ للسيد شرف الدين كتاباً آخر وهو كتاب «النص والاجتهاد»، أثبت فيه أنّ المسلمين الأُول خصوصاً المُنتمين منهم لمدرسة الخلفاء كانوا يقدّمون المصالح على النصوص، وانّ السيد رحمه الله قد استقصى موارد هذا النوع من الاجتهاد بمعنى العمل بالسلائق في مقابل الكتاب والسنة، فسعد السيد البروجردي بهذا الكتاب وتحمّل نفقة طبعه وصدر إلى الأسواق مرات عديدة.

١١. الإمام الخميني والسيد شرف الدين

قضى السيد الراحل حياته بجلائل أعماله وعظيم مواقفه إلى أن لبّىٰ دعوة ربه عاشر جمادى الآخرة سنة ١٣٧٧هـ، فخسره المسلمون زعيماً كبيراً من رجالات الأُمّة وبطلاً من أشهر ابطالها، وقد أحدثت وفاته، ثلمة في الدين، وأُقيمت له الفواتح في مختلف البلاد، ومنها مجلس الفاتحة الذي أقامه السيد البروجردي في

مسجد الحرم الشريف لكريمة أهل البيت عليهم السلام في قم المقدسة، ولم يطلع السيد الإمام الخميني قدس سره على إقامة الفاتحة ذلك اليوم، فجاء بنية إلقاء درسه اليومي في أحد المساجد المعروفة في قم (مسجد السلماسي) والذي يلقي فيه دروسه يومياً، فأخبرناه بمجلس الفاتحة، فقال: نحن نجمع بين الحقّين: الدراسة والحضور في الفاتحة، فألقى شيئاً من محاضرته، ثمّ تحدّث عن خدمات السيد شرف الدين، و ممّا ذكره: «أنّه كان سيفاً مسلولاً على أعداء الله»، ثمّ توجّه بعد ذلك هو وطلاب درسه إلى مجلس الفاتحة لأجل المشاركة فيه.

وعند وصولنا إلى المجلس نُبِّئنا أنّ الفاتحة كانت في وقتها الأخير، فلمّا ورد السيد الإمام المجلس والتلاميذ من ورائه فكأنّه قد انعقد مجلس الفاتحة من جديد للسيد الراحل.

ختامه مسك

السيد شرف الدين والتقريب بين المسلمين

إنّ التقـريب بين المسلمين من الآمال الّتي يطمح إليهـا كلّ مسلم مخلص عارف بالقضايـا الراهنة، وممّا يحز بالنفس أن نرى أبنـاء أُمّة واحدة تجمعها روابط كثيرة، متشتّتين مختلفين لا يتعـاونون تعـاون الإخـوة، وقـد خاطبهـم الله سبحانـه وتعالى بقوله: ﴿إِنَّ هٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُون﴾.[1] وجعلهم الكتاب إخوة متعاطفين وقال: ﴿إِنّما المُؤْمِنُونَ إِخْوَة﴾[2]، ومع ذلك نرى التشتت والتمزق متفشّيْن فيهم.

ولدرء هذا الخطـر قام في أواسط القرن الرابع عشر جماعة ــ إحساساً منهم بخطورة الموقف ـ بتأسيس دار التقريب بين المذاهب الإسـلامية في القاهرة، وعلى رأسهم الشيخ محمود شلتوت شيخ الأزهر من أهل السنّة والسيد شرف الدين من الشيعة.

وقد نشرا مقالات حول التقريب وتبيين المشتركات، وأنّ المسائل الخلافية لا تضر بوحدة الكلمة وتوحيد الأُمّة.

وهذا ما يظهر من مقالاته المنتشرة في مجلة رسالة الإسلام.

---

١. الأنبياء: ٩٢.

٢. الحجرات: ١٠.

ومع ذلك كلّه ليس التقريب عنده بمعنى تذويب السنّة في الشيعة أو بالعكس، فإنّ التقريب شيء والتذويب شيء آخر، فالسيد من دعاة التقريب لا من دعاة التذويب، فإنّ الثاني أمر مستحيل في الظروف الحاضرة والأوّل أمر ممكن.

ولذا نراه ـ مع أنّه يكتب مقالات في التقريب وألّف كتاب: «الفصول المهمة في تأليف الأُمّة» الّذي طبع في صيدا عام ١٣٣٠هـ ـ يرد على موسى جار الله الّذي افترى على الشيعة برسالة خاصّة أسماها: «أجوبة مسائل موسى جار الله» الّتي طبعت في صيدا عام ١٣٥٥هـ، كما أنّه ألّف رسالة باسم: «رسالة إلى المجمع العلمي العربي بدمشق» والّتي طبعت في صيدا سنة ١٣٧٠هـ، وقد ردّ بها على الأُستاذ محمد كرد علي رئيس المجمع عندما تعرض لآل البيت عليهم السلام في مقال نشره في مجلة المجمع.

هذا بعض ما تيسّر لنا كتابته تقديماً للمؤتمر الّذي أُقيم إجلالاً له في اليومين الثالث و الرابع من صفر المظفر عام ١٤٢٦هـ في قم المشرفة في قاعة مدرسة الإمام الخميني رحمه الله.

ونحن نعترف بتقصيرنا أو قصورنا عن بيان ما للسيد الراحل من فضائل ومناقب وخدمات وبطولات.

فسلام الله عليه يوم ولد ويوم مات ويوم يبعث حياً.

جعفر السبحاني

قم المشرفة

صفر المظفر ١٤٢٦هـ

٣

حياة المحقّق اللاهيجي و آراؤه

وتصانيفه

إنّ شرف كلّ علم بشرف موضوعه والغاية الّتي تُتوخىٰ منه، ولمّاكان موضوع علم الكـلام، هو معرفـة الله سبحانـه وصفاتـه وأفعالـه، فإنّ هذا العلم يعـدّ من أشرف العلوم.

ولذلك اشتهر علم الكـلام بالفقه الأكبر، ومعرفة الوظـائف العمليّة بالفقه الأصغر.

إنّ الكتاب العـزيز هو الّـذي فتح باب التّفكير في المعـارف الإلهيّة، وحثّ الإنسـان عليه في نصـوص كثيرة، حتّى أنّـه أشـار في مجال إثبـات المبدأ و إبطـال بعض الفروض المزعومة إلىٰ أتقن البراهين وألطفهـا، قال سبحانه: **﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخالِقُونَ﴾**.[1]

ونحن إذا تدبّرنا الذكر الحكيم وقرأنا حِجاجَ إبراهيم عليه السلام وحواره مع عبدة الأجرام السماويّة، لوجدنا فيه أنصع البراهين وأتقنها في إبطال ربوبيّتها.

قال جلّ شأنه: **﴿وَكَذٰلِكَ نُرِي إِبْراهيمَ مَلَكُوتَ السَّماوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ* فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَءَا كَوْكَباً قَالَ هٰذا رَبِّي فَلَمّا أَفَلَ قَالَ لاَ أُحِبُّ**

---

١. الطور: ٣٥.

الآفِلِينَ* فَلَمَّا رَءَا الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هٰذا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوم الضَّالِّينَ* فَلَماَّ رَءَا الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هٰذا رَبِّي هٰذا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّماواتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ* وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللهِ وَقَدْ هَدانِ وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَنْ يَشاءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ * وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾.(١)

ثمّ يقول: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنا آتَيْناهَا إِبْراهِيمَ عَلى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.(٢)

إنّ الإمعان في تلك الآيات يرشدنا إلى النقاط المهمّة التّالية:

١. إنّ توحيده سبحانه بمعنى أنّه الربّ، ولا ربّ سواه، هو عبارة أُخرى عن ملكوت السماوات والأرض الّذي أراه سبحانه لإبراهيمعليه السلام، فكأنّ لصحيفة الكون من السماوات والأرض وجهين، هما:

أ. وجه ظاهري، وهو ما يشاهده الإنسان ويستكشف أسراره ومكامنه.

ب. ووجه غيبي، وهو قيام الكون بالله سبحانه قياماً صدوريّاً لا غنى له عنه حدوثاً وبقاءً. وهذا هو المراد من ملكوتهما.

٢. إنّ الحجج الدّامغة والبراهين السّاطعة المعتمدة على أدوات المعرفة الرّصينة، لها من الشرف والكرامة منزلة عالية ومكانة رفيعة بحيث يصفها بكونها

---

١. الأنعام: ٧٥ـ ٨٢.

٢. الأنعام: ٨٣.

حجّته: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاها﴾.

٣. إنّ المعرفة القائمة على البراهين السّاطعة الرّصينة تكون سبباً لرفع الدرجة وتفضيل حاملها على غيره، ولذلك فُضِّل إبراهيم عليه السلام بها على غيره ﴿نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.[1]

٤. إنّ المتألهين في حكمته سبحانه والبراهين الّتي توصلهم إلى معرفته هم مظاهر أسمائه سبحانه وصفاته، ولذلك يقول سبحانه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

***

إنّ القرآن الكريم هو المنطلق الأوّل لعلم الكلام، ثمّ السنّة النبويّة وخُطب الإمام علي عليه السلام، وأحاديث العترة الطّاهرة عليهم السلام.

فقد روي عنهم عليهم السلام في مجال البرهنة على العقائد و الأُصول، ما يُبهر العقول ويهزّ الشعور. وممّا يثير العجب أنّ جماعة من السّلفيّين في القرون الأُولى منعوا التفكير ودعوا النّاس إلى الأخذ بالظّواهر، بحجّة: «أنّا أُعطينا العقل لإقامة العبوديّة لا لإدراك الرّبوبيّة، فمن شغل ما أُعطي لإقامة العبوديّة بإدراك الرّبوبيّة، فاتته العبوديّة ولم يدرك الرّبوبيّة».[2]

فلو أخذنا بقول هذا القائل، لَلَزم حذف كثير من الآيات الّتي تحتوي على براهين واضحة في مجال الإلهيّات، ومعرفة الحقّ صفات وأفعالاً.

ولأجل ذلك قام علماء الإسلام (من الشّيعة والسنّة) بتدوين مسائل علم الكلام منذ أواخر القرن الأوّل إلى يومنا هذا، وإن كان سهم الشّيعة في الدّعوة إلى التّفكير ومكافحة الجمود هو السهم الأكبر.

---

١. الأنعام: ٨٣.

٢. الإثبات والتفويض لرضا نعسان معطي نقلاً عن الحجة في بيان المحجة: ٣٣.

وفي هذا الإطار قامت اللّجنة العلميّة في مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام بترجمة متكلّمي الشّيعة منذ القرن الأوّل إلى نهاية القرن الرابع عشر ضمن موسوعة في خمسة أجزاء بتقديم منّا، وذكرنا في مقدّمة الجزء الأوّل أهميّة التّفكير ونقدنا أدلّة المخالفين للتفكّر المنطقي على وجه لا يبقي للقارئ المنصف أيّ شكّ وريب في لزوم التدبّر و التّفكير في المعارف الإلهيّة، فمن أراد التّفصيل فليرجع إلى الجزء الأوّل من كتاب «معجم طبقات المتكلّمين».

المحقّق الطوسي و«تجريد الكلام»

يُعدّ نصير الدّين المعروف بـالمحقّق الطوسي(٥٩٧ـ ٦٧٢هـ) من النوابغ القلائل الذين لا يسمح بهم الزمان إلاّ في فترات يسيرة. وإليك كلمات بعض الأعلام في حقّه:

قال تلميذه العلاّمة الحلّي (٦٤٨ــ ٧٢٦هـ): كان أفضل أهل زمانه في العلوم العقليّة والنقليّة، وله مصنّفات كثيرة في العلوم الحكميّة والأحكام الشرعيّة على مذهب الإماميّة، وكان أشرف مَن شاهدناه في الأخلاق.

وقال الصفدي: كان رأساً في علم الأوائل، لا سيّما في الإرصاد والمجسطي. ثمّ وصفه: بالجود والحلم وحسن العشرة والدهاء.

وقال بروكلمان الألماني: هو أشهر علماء القرن السابع، وأشهر مؤلّفيه إطلاقاً.[1]

وقال الدّكتور مصطفى جواد البغدادي: أنشأ نصير الدّين الطوسي دار العلم والحكمة والرّصد بمراغة من مدن آذربيجان، وهي أوّل مجمع علميّ

---

١. معجم طبقات المتكلّمين: ٢/ ٤١٠ برقم ٢٧٩؛ موسوعة طبقات الفقهاء: ٧/ ٢٤٣ برقم ٢٥٨٩.

حقيقيّ «أكاديمية» في القرون الوسطى بالبلاد الشرقيّة، فضلاً عن الأقطار الغربية الجاهلة أيامئذ.[١]

وقد قام بترجمته العديد من المحقّقين حتّى المستشرقين، ولا يمكن لنا في هذه العجالة بيان ما للمحقّق من علم وفضل وذكاء ودهاء وآثار وتآليف، وما كان له من دور مهم في خدمة الدين ودفع خطر المغول عن الإسلام والمسلمين بعد استيلائهم على الحواضر الإسلاميّة.[٢] إذ لا يسع المقام لشرح ذلك، وإنّما المهمّ هو الإشارة إلى أحد آثاره المهمّة.

تجريد الكلام في تحرير عقائد الإسلام

يُعتبر كتاب «تجريد الكلام في تحرير عقائد الإسلام» مع وجازته من أشهر كتبه، والّذي لم يزل منذ تأليفه إلى يومنا هذا مطمحاً للمفكّرين وكبار المتكلّمين، وقد توالت عليه الشّروح والتّعاليق عبر ثمانية قرون، وهو مع صغر حجمه يشتمل على أُمّهات المسائل الكلامية، ويبحث في ثلاثة محاور:

الأوّل: الأُمور العامّة الّتي يطلق عليها «الإلهيّات بالمعنى الأعمّ» ويبحث فيه عن الوجود والعدم وأحكام الماهيات، والموادّ الثّلاث ـ الوجوب والإمكان والامتناع ـ والقدم والحدوث، والعلّة والمعلول، وغيرها من المسائل الّتي تبحث عن أحكام الوجود بما هوهو.

الثاني: الجواهر والأعراض الّتي يطلق عليها «الطبيعيّات»، ويبحث فيه عن

١. في مقدمته لكتاب «مجمع الآداب في معجم الألقاب»: ٢٠.
٢. راجع الجزء الرابع من موسوعتنا «بحوث في الملل والنحل» فقد دفعنا عنه سهام التهم والطعن من الحاقدين عليه.

الأقسام الفلكيّة والعنصريّة والأعراض التّسعة، على وجه التفصيل.

الثالث:«الإلهيّات بالمعنى الأخص» ويبحث فيه عن الأُصول الخمسة.

وهذا هو الشيخ علاء الدّين علي بن محمد(المتوفّى ٨٧٩هـ) المعروف بـ«القوشجي» يعرفه في شرحه له بقوله: إنّ كتاب التّجريد الّذي صنّفه في هذا الفنّ المولى الأعظم، والحبر المعظم، قدوة العلماء الرّاسخين، أُسوة الحكماء المتألّهين، نصير الحقّ والملّة والدّين محمّد بن محمّد الطّوسي ــ قدّس الله نفسه، وروّح رمسه ــ تصنيف مخزون بالعجائب، وتأليف مشحون بالغرائب، فهو وإن كان صغير الحجم، وجيز النّظم، فهو كثير العلم، عظيم الاسم، جليل البيان، رفيع المكان، حسن النظام، مقبول الأئمّة العظام، لم تظفر بمثله علماء الأعصار، ولم يأت بشبهه الفضلاء في القرون والأدوار، مشتمل على إشارات إلى مطالب هي الأُمّهات، مشحون بتنبيهات على مباحث هي المهمّات مملوّ بجواهر كلّها كالفصوص، ويحتوي على كلمات يجري أكثرها مجرى النّصوص، متضمّن لبيانات معجزة، في عبارات موجزة، وتلويحات رائعة لكلمات شائقة، يفجر ينبوع السّلاسة من لفظه، ولكن معانيه لها السّحرة تسجد، وهو في الاشتهار كالشّمس في رائعة النّهار، تداولته أيدي النظّار، وسابقت في ميادينه جياد الأفكار.[1]

أقول: قلّما يتّفق لكتاب أن يكون له ذلك الحظ الّذي ناله كتاب «تجريد الاعتقاد» من إقبال المحقّقين عليه ـ من الفريقين ـ بالشّرح والتّعليق، والتّحشية.

وهذا من فضل الله سبحانه يؤتيه من يشاء من عباده الصالحين. وإليك بيان شروحه وتعاليقه.

---

١. شرح تجريد العقائد للقوشجي:١.

شروح التجريد

تصدّى لشرح هذا الكتاب والتّعليق على شروحه الكثير، من العلماء والمفكّرين والطبقة العليا من المتكلّمين والفلاسفة، فلنذكر أسماءهم وأسماء شروحهم:

١. **كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد**: للعلاّمة الحلّي الحسن بن يوسف(٦٤٨ـ ٧٢٦هـ) وهو أوّل شرح كُتِبَ عليه.

وقد أصبح المتن والشّرح كتاباً دراسياً في الحوزات العلميّة الشّيعيّة، ولكاتب هذه المقدّمة تعاليق على قسم الإلهيّات منه وقد بيّن معضلاته وأخرج مصادره.[١]

٢. **تعريد الاعتماد في شرح تجريد الاعتقاد**: للشّيخ شمس الدين محمّد البيهقي الإسفرائيني، على ما في «الذريعة»؛ أو أبي العلاء محمّد بن أحمد البهشتي الإسفرائيني البيهقي، على ما في فهرس مخطوطات مجلس الشورى، والّذي كان حيّاً سنة ٧٤١هـ.

وذكر شمس الدّين محمود بن عبد الرّحمن في شرحه على التّجريد: أنّ العلاّمة الحلّي هو أوّل من شرحه.

ثمّ قال: ورأيت له شرحاً آخر مزجياً لا يتبيّن المتن منه، وهو للشّيخ شمس الدّين محمّد البيهقي الإسفرائيني.

هذا ما ذكره شيخنا الطّهراني في «الذريعة»[٢] وأسماه في فهرس مخطوطات

١. تم طبع هذا الكتاب في عام ١٤١٨هـ ضمن منشورات مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام.
٢. الذريعة: ٣/ ٣٥٣، برقم ١٢٧٨.

مجلس الشورى بـ«تفريد الاعتماد في شرح تجريد الاعتقاد».

وجـاء في كتـاب «وقـائع السنين» للخـاتـون آبـادي أنّ الملاّ البهشتي الاسفرائيني كان من تلامذة الخواجه، وله شرح على كتابه تجريد العقائد.[١]

وأوّل هـذا الشرح: «الحمد لله الفيّـاض الجود، الـوهّـاب الوجـود، القيّـوم المعبود، الديموم المسجود، والصلاة على محمّد المسعود با لمقام المحمود».

وقال في المقدّمـة: وسمّيته «تفريد الاعتماد في شرح تجريـد الاعتقاد». وخُتم الشرح المذكور بالعبارة الآتية: «وكان فراغ مؤلّفه من نقله من السواد إلى البياض يـوم الأحـد، الثـاني والعشرين مـن ربيع الآخـر لسنـة إحـدى وأربعين وسبعمائة ببلدة«إسفـراين» شكر الله جميل مسـاعيه، وقدّر حصـول مباحثه، وغفـر لذنـوبه ومساويه آمين».

وتحتفظ مكتبة مجلس الشورى الإسلامـي بنسختين من هذا الشرح، بالرقم ٣٨٣٠ و ٣٩٦٣، وهما قـديمتان جـدّاً. وكـانتا في عـداد كتب المرحـوم فضل الله المعروف بـ«شيخ الإسلام الزنجاني»، الّتي نقلت إلى المكتبة المذكورة.

وقال المرحوم المغفـور له شيخ الإسلام الزنجـاني ـ طاب ثراه ــ في انتقاداته الّتي وجّههـا إلى الصفحات ٥٦ــ ٦٦ من كتـاب آثـار الشيعة: «الشرح الموسـوم بــ" تفريد الاعتماد في شرح تجريـد الاعتقاد " ألّفـه حسـام الـدّين محمّـد بن أحمد البهشتي الإسفرائيني أحد علماء الشّيعة في القرن الثامن الهجري. ونسخة من هذا الشرح في مكتبتي».[٢]

٣. تسـديد القـواعـد أو تشييد القـواعـد في شرح تجريد العقـائد: للشيخ

---

١. وقائع السنين: نسخة مكتبة المجلسي:٣٦٥.

٢. دائرة المعارف الإسلامية، العدد الأوّل، تأليف عبد العزيز جواهر الكلام:١٦.

شمس الـدين محمـود بـن عبدالـرحمن بن أحمد الاصفهـاني الشـافعي(٦٩٤ـ ٧٤٩هـ).

قـال الشيخ الطهراني: تـوجـد نسخـة منه بخط الشيخ يـاسين بن صـلاح الـدين علي بن نـاصر البحراني، شرع في كتـابتـه سنة ١١٢٤هــ وفـرغ منها سنـة ١١٢٦هـ في مكتبة الشيخ محمد السماوي، ونقـش خاتمه (سلام على آل ياسين)، ويعرف هو بـ« الشرح القديم».[١]

وفي مكتبة مجلس الشـورى الإسلامي نسخة منـه تاريخ تحريرهـا ٨١٩هـ وفي مكتبة مدرسة الشهيـد المطهري العالية نسخة أُخرى تـاريخ كتابتها ٨٧٦هـ وللشريف الجرجاني (المتـوفّى سنة ٨١٦هـ) حـاشية محقّقـة على « الشرح القديم» تعـرف بــ«حاشية التّجـريد» كما دوّن جمع من العلماء حـواشيَ أُخـرى على هـذه الحاشية ذُكر أكثرها في كتاب « كشف الظنون».[٢]

وتسميته بـ «الشرح القديم» في قبال الشرح الرابع الّذي سنذكره لاحقاً.

٤. **شرح تجريد العقـائد**: للشيخ عـلاء الـدين علي بن محمـد القـوشجي (المتوفّى ٨٧٩هـ)، ويُعرف بـ«الشرح الجديد».

وقــد كثـرت الحواشي والتّعليقــات على هــذيـن الشّرحين "القــديم" و"الجديد" ولا سيّما ثانيهما لمزيد اعتناء المحقّقين به.

ومن أهمّ الحواشي على هـــذا الشّرح، ثــلاث حــواش بعنــوان "**حاشية التّجريد**" للملاّ جلال الدّين محمد بن أسعد الصديقي الدّواني (المتوفّى٩٠٧هـ). واشتهرت حاشيته الأُولى بـ"الحاشية القديمـة"، كتبها في البداية باسم السلطان

١. الذريعة:٣/ ٣٥٤.

٢. كشف الظنون:١/ ٢٥١.

يعقوب بايندري آق قوينلو(٨٨٣ـ ٨٩٦هـ)، ثمّ أهداها إلى السلطان بايزيد.

كما أنّ هناك حاشية أُخرى للسيّد صدرالدّين محمّد الدشتكي الشيرازي(٨٢٨ـ ٩٠٣هـ) سجّل فيها مؤاخذته على حاشية الدّواني المتقدّم، فقام الدّواني بكتابة حاشية ثانية على ذلك الشرح، دوّن فيها اعتراضاته على حاشية الدشتكي الشيرازي، واشتهرت هذه الحاشية بـ«الحاشية الجديدة».

ثمّ كتب صدر الدّين حاشيته الثانية وأجاب فيها عن اعتراضات الدّواني. فردّ عليه الدّواني بحاشيته الثالثة المشهورة بـ«الحاشية الأجد».

وتعتبر هذه الحواشي أيضاً من أفضل الحواشي المكتوبة على الشرح المذكور. وتعرف حواشي الدّواني الثلاث، وحاشيتا صدر الدّين بين العلماء باسم «الطبقات الجلاليّة والصدريّة».

٥. **شرح التجريد**: لزين الدّين عليّ بن عبدالله البدخشي بالفارسيّة، وعنوانه «تحفه شاهي و عطيّه الهي». وألّفه صاحبه للسلطان محمّد قطب شاه.

وأوّله: «شكر و سپاس پادشاهى را سزد، و حمد و ثناى بى قياس خالقى را رسد».[1]

وقد فرغ المؤلّف من تأليفه في جمادى الآخرة سنة ١٠٢٣هـ. ويحوم هذا الكتاب حول شرح إلهيّات التجريد. توجد نسخة منه في مكتبة جامعة طهران، وهي من الكتب الّتي أهداها الأُستاذ «مشكاة» إلى المكتبة المذكورة. كما توجد نسخة أُخرىٰ منه في مكتبة مجلس الشورى الإسلامي رقمها ٢٠٥٨، وتاريخ تحريرها١٢٠٧هـ، وتبدأ بالمقصد الثالث في إثبات الصانع.

---

١. كشف الحجب والأستار:١٠٦. وترجمة أوّله: ينبغي الشكر والحمد والثناء الّذي لا يقاس للخالق ربّ الأرباب.

٦. **شوارق الإلهام في شرح تجريد الكلام**: للحكيم المتألّه والمتكلّم الحاذق عبد الرّزاق بن علي بن الحسين اللاّهيجي القمي، وهذا هو الكتاب الماثل بين يدي القارئ، والّذي نحن بصدد تعريفه وتعريف مؤلّفه.

٧. **مشارق الإلهام في شرح تجريد الكلام**: للحكيم عبد الرّزاق اللاّهيجي المذكور، وقد شرح فيه الأُمور العامّة فقط. ذكره «صاحب الرّياض» مشعراً بأنّه غير شوارق الإلهام، ولم نقف على نسخة منه.

ولعلّ الشرحين شرح واحد اختلفا في الاسم مع وحدتهما في المسمّى.

٨. **شرح التجريد**: لمحمّد جعفر بن سيف الدّين الاسترآبادي المقيم بطهران (المتوفّى ١٢٦٣هـ)، وعنوانه: «البراهين القاطعة في شرح تجريد العقائد السّاطعة». فرغ المؤلّف منه في يوم الجمعة ١٩ جمادى الأُولى ١٢٥٤هـ.

وأوّله: «الحمد لله الواجب الوجود بالذات، الواحد من جميع الجهات، الّذي يكون صفاته الذاتيّة عين الذات».

تحتفظ مكتبة مدرسة الشهيد مطهّري العالية بنسخة تامّة من هذا الشرح رقمها ١٣٥٢ و تاريخ تحريرها ١٢٥٨هـ.

كما أنّ في مكتبة جامعة طهران نسخة أُخرى تحتوي على الجزء الثاني والثالث منه، وهي في عداد الكتب الّتي أهداها السيد محمّد المعروف بـ«مشكاة» إلى المكتبة المذكورة.

٩. **شرح التجريد**: لمحمّد كاظم بن محمّد رضا الطبري، كتبه باسم محمّد شاه قاجار.

وأوّله : «سبحان من أظهر الأشياء لكمال وجوده، وأفاض عليها سجال

الآثار لغاية جوده».

تحتفظ مكتبة مجلس الشورى الإسلامي بنسخة منه، ورد اسم المؤلّف في مقدّمتها كالآتي: «فيقول الراجي إلى رحمة ربّه الوفيّ محمّد قاسم بن الرضا الكاظم الطبري».

ولهذا الشارح كتاب آخر عنوانه «حلّ التركيب»، فسّر فيه بعض التراكيب العربيّة. توجد منه نسخة في مكتبة مجلس الشورى الإسلامي، رقمها ١١٧٦.

١٠. **شرح الأردبيلي**: كتب المولى أحمد بن محمّد الأردبيلي (المتوفّى سنة ٩٩٣هـ) شرحاً على إلهيّات التجريد سمّاه «التوحيد على التجريد».[١]

١١. **شرح تجريد**: للميرزا عماد الدّين محمود الشريف بن ميرزا مسعود السمناني صدر دار السرور (برهان پور) بالفارسية. فرغ المؤلّف منه سنة ١٠٦٨هـ.

١٢. **شرح التجريد**: للمولى بلال الشاختي القائني.

١٣. **شرح التجريد**: للملاّ محمّد بن سليمان تنكابني مؤلّف «قصص العلماء» (المتوفّى سنة ١٣٠٢هـ) بالفارسيّة. وأوّله: «الحمد للمحمود الوجود الفعّال، الّذي لا يحويه ماض ولا استقبال».[٢]

١٤. **تحرير تجريد العقائد**: للتبريزي، ويحتوي على زبدة المسائل الكلاميّة وفقاً لمذهب الإماميّة الناجية. توجد نسخة منه في مكتبة مجلس الشورى الإسلامي ورقمها ٣٩٦٨. وأوّلها: وما هو ذاك الشرح المسؤول عن الله تعالى أن ينفع الطلاّب، وأن يجعل ذخراً لي في يوم الحساب المبتدي بأنّه تعالى لما أوجب على كلّ

---

١. دانشمندان آذربايجان: ٣١؛ هديّة العارفين: ١/ ٣١٨. وطبع بعضها في حاشية شرح التجريد للقوشجي وطبع مستقلاً ضمن الرسائل للأردبيلي.

٢. فهرس الجامعة: ٢٧٢٩.

ما أنعم عليه شكر.

١٥. **شرح أبي عمرو أحمد بن محمّد المصري**(المتوفّى سنة ٧٥٧هـ) المسمّى بـ«المفيد».

وتحتفظ مكتبة الآستانة الرضويّة المقدّسة بنسخة من هذا الشرح رقمها ٩١٥، وهي ناقصة من أوّلها وآخرها. ويذكر أبو عمرو أحمد بن محمّد المصري في هذا الشرح أُستاذه العلاّمة الحلّي كثيراً.

١٦. **شرح العلاّمة أكمل الدّين محمّد بن محمود البابرتي الحنفي**(المتوفّى سنة ٧٨٦هـ) وهو بعنوان «عقيدة الطوسي».[١]

١٧. **شرح الفاضل خضر شاه بن عبد اللطيف المنشوري**(المتوفّى سنة ٨٥٣هـ).[٢]

١٨. **شرح قوام الدّين يوسف بن حسن المعروف بقاضي بغداد**(المتوفّى ٩٢٢هـ).[٣]

١٩. **تنقيح الفصول في شرح تجريد الأُصول**: للملاّ أحمد بن محمّد مهدي النّراقي الكاشاني (المتوفّى سنة ١٢٤٥هـ).[٤]

٢٠. **نهاية التحرير في شرح التجريد**: ذهب صاحب الذريعة إلى أنّ الشارح هو السيّد محمّدتقي بن أمير مؤمن بن أمير محمّد تقي بن أمير رضا الحسيني القزويني(المتوفّى سنة ١٢٧٠هـ). توجد نسخة من هذا الشرح المنظوم في

---

١. كشف الظنون:٢/ ١١٥٨.

٢. المصدر نفسه:١/ ٣٥١ و ٢/ ٩٥.

٣. كشف الظنون:١/ ٣٥١و ٢/ ٩٥.

٤. إيضاح المكنون:١/ ٣٣١.

مكتبة الآستانة الرضويّة المقدّسة برقم (٩٤٩)، وذكر منظِّم الفهرس فيها أنّ الناظم مجهول. وتاريخ تحرير هذه النسخة: ١٢٢٥هـ. والكتاب المشار إليه أُرجوزة في شرح تجريد الاعتقاد، فرغ الناظم منها سنة ١٢٢٣هـ. أوّلها:

وبعد حمد الله واجب الوجود ... على فيوضات مرائي الجود
والصلوات والسّلام مطلقا ... على محمّد وآله التقىٰ
لا سيّما أكرم من به اهتدىٰ ... باب مدينة العلوم والهدىٰ
فهذه نهاية التحرير في ... علم الكلام بالنظام الأشرف[1]

***

٢١. **تجريد التجريد**: لابن كمال الدّين باشازاده شمس الدّين أحمد بن سليمان (المتوفّ سنة ٩٤٠هـ) وهو إصلاح لكتاب التجريد، كما كتب أيضاً شرحاً على تحريره. توجد نسخة من هذا المتن والشرح في مكتبة باريس الوطنيّة.[2]

٢٢. **علاقة التجريد**: وهو ترجمة وشرح بالفارسية لتجريد العقائد للسيّد محمّد أشرف بن عبد الحسيب بن أحمد بن زين العابدين الحسيني(المتوفّى سنة ١١٤٥هـ).

وأوّلها: «حمد مر خداى را كه تجريد علايق جسمانيه و تهذيب اخلاق ايمانيّه را صراط مستقيم ابواب جنان قرار داد».[3]

وتحتفظ المكتبة المركزيّة لجامعة طهران بنسخة من هذه الترجمة الفارسيّة.

---

١. الذريعة:٢٤/ ٣٩٧برقم ٢١٢٢.

٢. الذريعة:١٥/ ٣١٠برقم ١٩٨٠.

٣. الذريعة:١٥/ ٣١٠برقم ١٩٨٠. وترجمة العبارة: الحمد لله الّذي جعل تجريد العلائق الجسمانيّة وتهذيب الأخلاق الإيمانيّة صراطه المستقيم إلى أبواب الجنان.

الحواشي على التجريد وشروحه

ودُوّنت على متن التجريد وشروحه حواش أُخرى كثيرة أيضاً.

منها: حاشية الخفري على إلهيّات التجريد.

وأوّلها : «الحمد لله ربّ العالمين والصلاة على سيّد المرسلين وآله الطاهرين، فيقول الفقير إلى الله الغنيّ محمّد بن أحمد الخفري: هذه تعليقات...».

ومنها: حاشية فخر الدّين الحسيني.

وأوّلها: «الحمد لله الغفور الرحيم، والسلام على حبيبه المنعوت بالخلق العظيم محمّد الباقر لعلوم الأوّلين والآخرين، وآله الطيّبين وصحبه الأكرمين وبعد. فيقول الحقير الفقير إلى عفو ربّه الغفور الغنيّ محمّد بن حسين الشهير بفخر الدّين الحسيني».[١]

ترجمة الشارح

قد عرفت أنّ المحقّق اللاّهيجي من شرّاح «تجريد الكلام» فلنذكر شيئاً من ترجمته على وجه الإيجاز كما أوجزنا الكلام في ترجمة الماتن، فنقول:

إنّ التاريخ قد بخس حق هذا العالم الجليل، ولم يذكر شيئاً من حياته إلاّ القليل، ولم يسجّل تاريخ ولادته مع الاختلاف كذلك في تاريخ وفاته.

---

١. قد صدرنا في تبيين شروح التجريد وشرّاحه وتعليقاته عن المعاجم، كالذريعة، وكشف الظنون، ومعجم التراث الكلامي، الصادر عن مؤسستنا في خمسة أجزاء، وأخصّ بالذكر ما ألّفه المحقّق: محمد تقي المدرسي الرضوي حول حياة نصير الدين وآثاره، ونقله إلى العربية: الأُستاذ علي هاشم الأسدي في مجمع البحوث الإسلامية في مشهد الإمام الرضا عليه السلام.
وأمّا التعليقات على شروح التجريد فقد اختصرنا الكلام فيها، ومن أراد التفصيل فليرجع إلى ذيل كتاب «سبع رسائل».

فقد ذكر صاحب الروضات وتبعه السيد الأمين في أعيانه أنّه توفّي عام ١٠٥١هـ[١]، أي بعد سنة من وفاة صدر المتألّهين، ولكنّ الحقّ أنّه توفّي عام ١٠٧٢هـ.

ويشهد على ذلك أمران:

أ. أنّه ألّف كتاب «گوهر مراد» وأهداه إلى الشاه عباس الصفوي الثاني الّذي حكم بين ١٠٥٢ ــ ١٠٧٧هــ فكيف يمكن أن يكون من المتوفّين عام ١٠٥١هـ؟!

ب. أنّه لخص كتابه گوهر مراد عام ١٠٥٨هـ وأسماه بـ«سرمايه إيمان».

وأمّا ميلاده فلم نقف فيه على شيء، وبما أنّه من تلاميذ المحقّق الداماد (المتوفّى عام ١٠٤١هـ) وصدر المتألّهين(المتوفّى عام ١٠٥٠هـ)، فيمكن أن يقال أنّه من مواليد العشرة الأُولى من القرن الحادي عشر.

مكانته في الفلسفة والكلام

إنّ المتتبّع لآثار اللاهيجي الفلسفية والكلامية يعرف أنّه قد بلغ في فلسفة المشاء والإشراق، والإحاطة بأقوال المتكلّمين من المعتزلة والأشاعرة مرتبة سامية لا تجد لها نظيراً بعد أُستاذيه المذكورين، فهو بحق ثالث الحكماء المتكلّمين.

وحيث إنّ الرائج في المدارس الفلسفية هو مؤلّفات صدر المتألهين أو المحقّق الداماد، فقد صار ذلك سبباً لخفاء مكانة الحكيم اللاهيجي، وإن كان هو قد تربّى في أحضان أُستاذيه المذكورين.

---

١. روضات الجنات: ٤/ ١٩٧؛ أعيان الشيعة: ٧/ ٢٧٠.

خصائصه الفكرية

إنّ الحكيم المتألّه اللاهيجي قد بحث وتتبع آراء وأفكار الفلاسفة والمتكلّمين، كابن سينا والفخر الرازي والمحقّق نصير الدين الطوسي وعضد الدين الإيجي وسعد الدين التفتازاني وعلاء الدين القوشجي وسائر متكلّمي الفرق والمذاهب الإسلامية، وناقشهم في بعض الموارد، ونشير إلى أبرز ما يتميّز به بحثه وتفكيره ضمن أُمور:

١. الاستقلال في التفكير

إنّ تعمّق الحكيم اللاهيجي في تلك المناهج والمشارب لم يجعله ناقلاً وتابعاً فقط، وإنّما جعله ناقداً للأقوال ومحقّقاً للأفكار ومستقلاً في التفكير والتحقيق.

ولذلك نرى أنّه لم يقفُ تماماً آراء أُستاذيه، وإنّما سلك في بعض الموارد مسلكاً يخالف منهجهما، كما نلاحظه في مسألة أصالة الوجود أو الماهية الّتي تعتبر من رؤوس المسائل الفلسفية والّتي تترتب عليها آثار وفروع مختلفة.

فالسيد الداماد من المتحمّسين لأصالة الماهية ، ولكنّ صدر المتألّهين من القائلين بأصالة الوجود بعدما ظل مدة معتقداً بأصالة الماهية.

أمّا شارحنا الجليل فقد ألّف كتاباً سمّاه «الكلمات الطيبة» حاكم فيه النظريتين، وانتهى أخيراً إلى الجمع بين الرأيين، وانّ القول بأصالة الماهية لغاية رد نظرية المعتزلة القائلة بتقرر الماهيات في مواطنها قبل الوجود. كما سيوافيك تفصيله.

٢. الاستشهاد بالكتاب والسنّة

إنّ الحكيم المتألّه اللاهيجي استهدى بهدى الكتاب والسنّة في غير مورد، فهو من القائلين بأنّ الكتاب والسنّة والعقل تصب في مصب واحد وليس بينها أي خلاف، وما يتراءى من بعض الظواهر ما يخالف البرهان فانّما هي ظواهر بدئية غير مستقرة: كقوله تعالى: ﴿**الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ**﴾[١]، ولكن لو أعطى القائل حق النظر في هذه الآية، لوقف على أنّها كناية عن معاني سامية، وهي استيلاؤه سبحانه على صحيفة الكون بعد إنشائه.

٣. الاهتمام بكلتا اللغتين

كانت الكتابة باللغة العربية في عصر المؤلف دليلاً على ثقافة المؤلف وسموّ مقامه في المعارف والعقائد، وقلّما يتّفق لعالم أن يؤلّف كتاباً بلغة أهله، لعامة الناس أو لطائفة خاصة، ولكن الشارح الشهم قد تحرر من ذلك القيد وأخذ يؤلف باللغتين: العربية والفارسية، فألّف «**شوارق الإلهام**» في الكلام بالعربية، كما ألّف «گوهر مراد» الّذي هو نسخة ثانية للشوارق باللغة الفارسية، ثمّ لخّصه في كتاب وأسماه «سرمايهٔ ايمان».

فهذه الطبقة من العلماء الذني يحملون هموم أمّتهم هم المكرّمون عند الله سبحانه، ولذلك نرى أنّه قد توالى التأليف باللغة الفارسية من عصر المؤلف وعصر المجلسي إلى يومنا هذا في مختلف البلاد.

آثاره العلمية

ترك الحكيم اللاهيجي آثاراً علمية تتلألأ على جبين الدهر، وإليك سرداً لما

---

١. طه:٥.

وقفنا عليه من مؤلّفاته رحمه الله:

١. شوارق الإلهام في شرح تجريد الكلام (مطبوع).

٢. مشارق الإلهام في شرح تجريد الكلام.

٣. تعليقته على حاشية شمس الدين الخفري على قسم الإلهيات من شرح القوشجي للتجريد المذكور (مخطوط).

٤. گوهر مراد (بالفارسية)(مطبوع).

٥. سرمايهٔ ايمان بالفارسية(مطبوع).

٦. التشريقات (مخطوط) في التوحيد و العدل والمحبة.

٧. رسالة حدوث العالم.

٨. الكلمات الطيبة في المحاكمة بين الداماد وملا صدرا.

٩. تعليقته على شرح الإشارات في الفلسفة للمحقّق الطوسي.

١٠. ديوان شعره بالفارسية(مطبوع).

١١. مختصر حاشية الشرح الجديد للتجريد. يوجد في مكتبة الوزيري في يزد.

١٢. حدوث العالم.

وللأسف أنّ أكثرها رهين محبسين: محبس عدم معرفة الأكثر بكتبه، ومحبس رداءة الطبع أو عدمه، الأمر الّذي جعلها بعيدةً عن متناول الأيدي.

وهذا ما دعا مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام إلى تحقيق كتاب «شوارق الإلهام» وتصحيحه والتعليق عليه وطبعه طبعة جديدة لائقة.

التعاليق على الشوارق

وقد علّق على هذا الشرح من جاء بعده من المحقّقين، نذكر منهم ما يلي:

١. التعليقة عليه للمولى إسماعيل بن المولى سميع الاصفهاني من تلاميذ المولى علي النوري (المتوفّى عام ١٢٧٧هـ).

٢. التعليقة عليه للمولى عبد الرحمن بن الميرزا نصر الله الشيرازي المدرس في الرضوية، ولد عام ١٢٦٨هـ.

٣. التعليقة عليه للمولى محمد نصير بن زين العابدين اللاهيجي الچهاردهي، والد الشيخ الميرزا محمدعلي المدرسي(المتوفّى عام ١٢٧٠هـ)، كتبه في بلدة اصفهان.

وقد علّق على كلا المقصدين: الأُمور العامة، والجواهر والأعراض، وفرغ منه عام ١٢٤٣هـ، نقل كثيراً من حواشي المولى إسماعيل الاصفهاني المذكور.[١]

٤. وهناك تعليقة أُخرى للمولى آقا علي المدرس الزنوزي، كما سيوافيك بيانه.

بعض آرائه وأفكاره

وها نحن نذكر نموذجين من آرائه وأفكاره، وهما يدلاّن على نبوغه واستقلاله في التفكير، وهما:

أ. الجمع بين الرأيين: أصالة الماهية والوجود

كان النزاع بين الرأيين: أصالة الوجود وأصالة الماهية، على قدم وساق إلى عصر أُستاذيه: السيد المحقّق الداماد وصدر المتألّهين، فقد كان أُستاذه الأوّل قائلاً بأصالة الماهية ذابّاً عن رأيه بحماس.

وكان أُستاذه الثاني صدر المتألّهين قائلاً بأصالة الوجود بعدما كان قائلاً

١. الذريعة:٦/ ١٤٤.

بأصالة الماهية، وقد شاد صَرحَ رأيـه بأدلّة محكمة رصينة في أسفاره، وذكر ملخّص الأدلّة في كتابه المشاعر.

والمحقّق اللاهيجي قـد تتلمذ لديهما، وفي الـوقت نفسه كان صهـراً لصدر المتألّهين، الّذي لقّبـه بـ«الفيّاض» كما لقّب صهره الآخر بــ«الفيض»، أعني: «ملا محسن» المعروف بـ«الفيض الكاشاني».

وقد اختار نظـرية أُستاذه الثاني وقـال بأصالة الوجـود، ومع ذلك فقد فسر نظرية أصالة الماهية الّتي كان عليهـا أُستاذه الآخر، ووجّهها بشكل يلائم النظرية الأُخرى، ولا يتعارض معها. وخلاصة التوجيه كالآتي:

إنّ هنا مسألتين:

الأُولى: ما هو الأصيل في الخارج هل الوجود أو الماهية؟

الثانية: ما هو المجعول والصادر عن المبدأ الأوّل ومبدأ المبادئ؟

ومن المعلوم أنّ ما هو الأصيل هو الصادر من المبدأ الأوّل. هذا من جانب. ومن جـانب آخر فإنّ المعتـزلـة ذهبت إلى تقرر الماهيـات منفكـة عن الوجـود في ظروفها الخاصة.

ولمّا كان هذا القول يضاد أُصـول التوحيد، إذ معنى ذلك غناء الماهيات في وعائهـا وتقررها عـن المبدأ، وكان القـول بأصالة الـوجود، بظاهـره يدعم نظـرية المعتزلة، من كون الماهيات فوق الجعل وانّها متقررة في وعائها، جنح بعض الحكماء إلى القول بأصالة الماهية ردّاً لنظرية المعتزلة.

ولو أُغمض النظر عن هذا فلا شـكّ في أنّ الأصيل والمجعول هو الوجود، وهذا هو الّذي يصرح به المحقّق اللاهيجي في عبارته التالية:

إنّ المراد بكـون المجعول هـو الماهيات هـو نفي تـوهم أن تكون الماهيـات

ثابتـات في العدم، بلا جعل ووجـود؛ ثمّ يصدر عن الجاعل، الوجـود أو اتّصاف الماهية بالوجـود، فإذا ارتفع التوهّم فلا مضايقة في الذهـاب إلى جعل الوجود أو الاتّصاف بعد أن تيقّن أن لا ماهيات قبل الجعل، و إلى هذا يؤول مذهب أُستاذنا الحكيم المحقّق الإلهي ﷺ في القـول بجعل الوجـود، فإنّـه يصرّح بكـون الوجـود مجعولاً بالذات والماهيات مجعولة بالعرض على عكس ما يقوله القوم».

ثمّ إنّه استشهد بكلام المحقّق الطوسي التالي:

«إذا صـدر عن المبدأ الأوّل شيء كـان لذلك الشيء هـوية مغـايرة لـلأوّل بالضّرورة، ومفهـوم كونـه صادراً عن الأوّل، غير مفهـوم كونـه ذا هويـة ما، فإذن هاهنـا أمران معقولان: أحدهما: الأمـر الصادر عن الأوّل وهو المسمّى بالـوجود؛ الثاني: هو الهوية اللازمة لذلك الوجود وهو المسمّى با لماهية».[١]

وهـذه التعابير تحكي عن أنّ القـول بأصالـة الماهية إشـارة إلى مجعوليتهـا، والقول بمجعوليتها لأجل الردّ على النظرية الّتي تذهب إلى ثبوتها قبل الوجود.

ولولا أنّ القول بأصـالة الوجود يوهم غنـاء الماهية عن الجعل، الموهم أيضاً لتقررها قبل الوجود، لم يكن هناك أيّ داع للقول بأصالة الماهية، و إنّما اختاروا هذا العنوان (أصالـة الماهية) لأجل نفي الثبوت لها قبل الوجـود، وذلك لأجل تعلّقها بالجعل.

ب. ملاك التحسين والتقبيح العقليين

إنّ مسألـة التحسين والتقبيح العقليين من أهـمّ المسـائل الكـلاميـة التي تبتني عليها أُصول أُخرى ولها ثمرات كثيرة ذكرناها في موضعها.[٢]

---

١. الشوارق: ١ / ١٠٨ طبع طهران، المسألة ٢٧.

٢. انظر كتاب رسالة في التحسين والتقبيح العقليين ـ لكاتب هذه السطور ـ: ٨٦ ـ ٩٨، الفصل ١١.

وقد اختلفت كلمة المثبتين والنافين في ما هو الملاك لقضاء العقل بالحسن والقبح، فقد ذكروا للحسن والقبح ملاكات نذكرها إجمالاً:

١. ملائمة الطبع ومنافرته.

فالمشهد الجميل بما أنّه يلائم الطبع يعدّ حسناً، كما أنّ المشهد المخوف بما أنّه منافر للطبع يعدّ قبيحاً، والطعام اللذيذ والصوت الناعم لأجل موافقتهما الطبع حسنان كما أنّ الدواء المرّ ونهيق الحمار قبيحان.

٢. موافقة الغرض والمصلحة الشخصية أو النوعية ومخالفتهما.

فالعدل بما أنّه حافظ لنظام المجتمع حسن، والظلم بما أنّه هادم للنظام ومخالف لمصلحة النوع فهو قبيح.

٣. كون الشيء كمالاً للنفس أو نقصاً لها، كالعلم والجهل، فالأوّل زين لها والثاني شين.

٤. كون الشيء حسناً أو قبيحاً عادة، كتحسين خروج الجندي بالبزة العسكرية وتقبيح خروج العالم بنفس ذلك اللباس.

وليعلم أنّ هذه الملاكات التي تكلّم بها المثبت والنافي ليست ملاكاً للتحسين والتقبيح العقليين، وذلك لأنّ الغرض من القاعدة معرفة أفعاله سبحانه تبارك وتعالى ومعرفة ما هو حسن أو قبيح بالنسبة له، فلو كانت الغاية هي تلك، فلا معنى لجعل طبع الإنسان المادّي ملاكاً للحسن والقبح كما هو الملاك الأوّل.

كما لا معنى لاتّخاذ الثاني (كونه محصّلاً لغرض النوع أو هادماً له) ملاكاً للحسن والقبح، وذلك لأنّ الغاية هي معرفة صفاته سبحانه وأفعاله قبل أن يخلق العالم والمجتمع الإنساني. فكون العدل حافظاً للنظام، والظلم هادماً، لا صلة لهما بفعل الله تعالى.

وأمّا الثالث، أي كونه كمالاً للنفس أو شيناً له فلا أظن أنّه محل للنزاع.

وأمّا الرابع فهو واضح البطلان، لأنّ الأُمور العادية تختلف حسب الظروف والبيئات.

ولأجل هذا فقد أنكر مؤلّفنا البارع المحقّق اللاهيجي تلك الملاكات كلّها وأبدع نظراً خاصاً حاصله: أنّ نفس الشيء بما هوهو ـ مع قطع النظر عن كون فاعله واجباً أو ممكناً، ومع قطع النظر عمّا يترتّب عليه من المصالح والمفاسد ـ إذا لاحظه العقل يستقل بحسنه أو قبحه مطلقاً.

وإن شئت قلت: إنّ الفعل الصادر من الفاعل المختار ـ سواء أكان واجباً أم ممكناً ـ إذا نظر إليه العقل وتجرّد عن كل شيء يستقل إمّا بحسنه وأنّه يجب أن يفعل، أو بقبحه وأنّه يجب أن يترك بغضّ النظر عمّا يترتّب عليه من المصالح والمفاسد، أو بغضّ النظر عن موافقته لغرض الفاعل أو مخالفته، فإنّ كلّ هذه الضمائم ممّا لا حاجة إليها في قضاء العقل بالحسن والقبح، فكأنّ نفس الفعل علّة تامة ـ عند اللحاظ ـ لحكم العقل بالحسن أو القبح.[١]

نبوغ الشارح في الأدب الفارسي

ربّما يتصوّر القارئ أنّ المحقّق اللاهيجي، كان متوقّد الفكر في الجانب الفلسفي والمناقشات الكلامية فقط، ولم يكن له حظ في القريض ونظم الشعر، ولكنّه سرعان ما يرجع عن تلك الفكرة الخاطئة إذا عطف نظره إلى ديوانه الضخم الّذي يقع في حدود ٧٨٠ صفحة، ويشتمل على الكثير من الغزليات و القصائد

١. سرمايهٔ ايمان: ٦٠ـ ٦٢.

والمدائح باللغة الفارسية، نقتطف منه ما يلي:

يقول في مدح الرسول صلى الله عليه وآله وسلم:

چشم دارد بـــر متـــاع مـــا سپهـــر چنبـــرى
يـــوسف مـــا بهتـــر از گـــرگى نـــدارد مشتـــرى

ويقول في منقبة بنت المصطفى فاطمة الزهراء عليها السلام:

چنـــان بـــه صحن چمن شـــد نسيم روح‌افـــزا
كـــه دم ز معجـــز عيسى زنـــد نسيم صبـــا

ويقول في مدح صاحب العصر والزمان (عجّل الله فرجه الشريف):

كنـــون خـــوشست كشيـــدن شـــراب خنـــدهٔ گل
كـــه شستـــه است چمن رو در آب خنـــدهٔ گل

إلى غير ذلك من المدائح والقصائد الّتي تسمو به قدس سره إلى الطبقة العليا من الشعراء الهادفين الذين وصفهم سبحانه بقوله: ﴿**إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللهَ كَثِيراً وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ**﴾.[1]

***

وممّا يجدر ذكره، هو أنّ كتاب التجريد يشتمل على مقاصد ستة:

المقصد الأوّل: في الأُمور العامّة.

المقصد الثاني: في الجواهر والأعراض.

المقصد الثالث: في إثبات الصانع تعالى وصفاته وآثاره.

المقصد الرابع: في النبوة العامّة والخاصّة.

---

١. الشعراء:٢٢٧.

المقصد الخامس: في الإمامة.

المقصد السادس: في المعاد والوعد والوعيد وما يتّصل بذلك.

وقد وُفِّق المحقّق اللاهيجي في الشوارق لشرح المقصدين الأوّلين بتمامهما وشيئاً من المقصد الثالث، وقد جفَّ قلمه في نهاية المسألة السادسة في أنّه تعالى متكلم، وبذلك صار الكتاب شرحاً غير كامل.

ومن اللائق أن يتصدّى عباقرة علم الكلام لإكمال هذا الشرح (الشوارق)، ولكنّنا لم نعثر على من تصدّى لذلك، إلاّ ما قام به العلاّمة الحجّة آية الله محمد المحمديّ الگيلاني دامت بركاته، حيث شرح ما بقي من الكتاب، وأسماه بـ«تكملة شوارق الإلهام» طبع عام ١٤٢١ هـ. ق، فسدّ بذلك الفراغ الموجود في هذا الشرح، وقد أعاننا ـ حفظه الله ـ في تحقيق هذا المشروع بوضع النسخ المطبوعة والمصورة الّتي كانت بحوزته، في متناول المحقّقين في المؤسسة، فشكر الله مساعيه ومساعي الجميع في إرساء صرح هذا العلم والذب عن حياض الدين بالبيان والبنان.

كما نقدِّر جهود العلاّمة المحقّق زين العابدين «قرباني» اللاهيجي ـ دامت بركاته ـ في إحياء ذكرى المؤلف بإقامته مؤتمراً في مدينة «لاهيجان» في شمال إيران عام ١٤١٤ هـ باسم المحقّق اللاهيجي، شارك فيه جمع من العلماء والمفكّرين ببحوث أشادوا فيها بمكانة المؤلف وفضله وتفوقه الفكري، كما أنّه قام بطبع أحد كتب المؤلف أعني «گوهر مراد» بعد أن ترجم له في مقدمته ترجمة ضافية... فحيّاه الله وبيّاه.

انّ إحياء ذكرى علمائنا أمر مرغوب جدّاً، إذ فيه إحياء للعلم وترغيب الجيل

الحاضر للتعرّف على نتاج أفكار عظماء هذه الأُمّة، وخاصّة إذا قام المشرفون على هذه المؤتمرات بنشر آثار أصحاب الذكرى بعد تحقيقها بالشكل الصحيح واللائق بهم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين

جعفر السبحاني

قم ـ مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام

١٨ شوال المكرّم من شهور عام ١٤٢٥هـ

٤

بسم الله الرحمن الرحيم

في الحياة العلميّة للشهيد المطهري

(١٣٣٨ـ ١٣٩٩هـ)

التحق نبي الإسلام صلى الله عليه وآله بالرفيق الأعلى تاركاً بين أُمّته عقيدة بيضاء وشريعة سهلة سمحة، يقف عليهما من قرأ كتاب الله سبحانه بإمعان وتدبّر وراجع السنّة النبوية الشريفة.

وكان أئمّة أهل البيت عليهم السلام ومن تربّىٰ في مدرستهم هم السبّاقون في الذبّ عن الإسلام وحياض الشريعة ... استجابة لقول رسول الله صلى الله عليه وآله: «**يحمل هذا الدين في كلّ قرن عدول ينفون عنه تأويل المبطلين وتحريف الغالين وانتحال الجاهلين كما ينفي الكير خبث الحديد**».[1]

ونحن إذا درسنا تاريخ حياة الأئمّة المعصومين عليهم السلام وحياة تلامذتهم لرأينا أنّ مناظراتهم واحتجاجاتهم دفاعاً عن حياض الشريعة والعقيدة كانت تتصدّر قائمة اهتماماتهم، وتقع في أعلى سلّم الأولويات لديهم.

ولمّا غاب نجم الإمامة بعد مرور ٢٦٠ سنة من هجرة الرسول صلى الله عليه وآله انتقلت

---

١. رجال الكشي: ١٠.

هـذه المسؤوليـة المهمـة إلى عاتق العلماء المجاهـدين في ذلك المضمار، فهذا هـو الشيخ الصـدوق يذبّ عن العقـائد بتأليف كتب في مجالات مختلفة، منهـا كتابـه المعروف:«كمال الدين» الّـذي أجاب فيه عن الشبهات المثارة حـول ميلاد الإمام الثاني عشر عليه‌السلام و تناول فيه حياته عليه‌السلام وكيفية انتفاع الأُمّة منه في غيابه.

وقد ظهر في مختتم القـرن الرابع وأوائل القرن الخامس نابغـة العراق ونادرة الزمان الشيخ محمد بن محمد بـن النعمان المفيد(٣٣٦ـ ٤١٣هـ) والّذي فتح باب المنـاظـرات والحوارات بين مختلف الطوائف، فكـان مجلس درسـه ملتقىً لـلآراء والأفكـار المختلفة، وكـان الشيخ يستمع إلى أقوال الحاضرين وآرائهم ووجهـات نظرهم، ثمّ يبادر إلى التفكير فيها ودراستها وتحليلها والإجابة عنها.

وقد تخرّج على الشيخ المفيد جموعٌ من المتكلّمين الذابّين عن الشريعة منهم:

١. السيد المرتضى (٣٥٥ـ٤٣٦هـ).

٢. سلاّر بن عبد العـزيز صاحب «المراسم العلويـة» ناقض نقض الشافي لأبي الحسين البصري المتوفّى سنة ٤٤٨.

٣. الشيخ محمد بن الحسن الطوسي(٣٨٥ـ ٤٦٠هـ).

وغيرهم من عباقرة الفكر الذين ربّاهم الشيخ في مدرسته، وقاموا هم أيضاً بدورهم وتحمّلوا أعباء هذه الوظيفة.

ولـو حـاول أحـد أن يذكـر أسماء العلماء المنـاضلين والـذابّين عن الـدين بقلمهم ولسـانهم لاحتـاج إلى تأليف كتـاب حـافل، ولعل في «**معجم طبقات المتكلمين**»[1] غنى وكفاية في هذا المضمار.

---

١. موسوعة تتضمن ترجمة رجالات العلم والفكر عبر أربعة عشر قرناً، طبعت في خمسة أجزاء، تأليف اللجنة العلمية في مؤسسة الإمام الصادق عليه‌السلام بإشراف منّا.

وممّن يعدّ من الطبقة العليا من هؤلاء الفطاحل في مختتم القرن الرابع عشر، المفكّر الإسلامي الكبير الشيخ الشهيد المطهري رحمه الله، فقد شمّر عن ساعد الجدّ للذبّ عن المبادئ والقيم حينما رأى هجوم الأفكار المادية الماركسية والمسالك المشتقة عنها والمغطاة بغطاء إسلامي، نهض بمسؤوليته المتمثّلة في الحضور في ساحات الجامعات والتركيز على المفاهيم الرائجة فيها. فصرف رحمه الله مدة طويلة من عمره في هذا المجال على نحو أوجدت شهادته فراغاً هائلاً.

ومنذ أن التحق الشيخ الشهيد بالرفيق الأعلى كُتب حول حياته الكثير من الرسائل والمقالات، وكلّ منها قد درس حياته منطلقاً من جوانب خاصّة.

والّذي نطرحه في هذه المقالة هو الإشارة إلى الخطوط البارزة من جهاده العلمي وتفكيره.

١. التركيز على التفكير

إنّ ما يميّز الإنسان عن سائر ذوات الحياة هو التفكير و الاهتداء بالمقدّمات وصولاً إلى النتائج، ولذلك عُرّف الإنسان بأنّه حيوان ناطق، وليس المقصود من النطق هو التكلّم، بل هو التكلم النابع عن التفكير، فكأنّ كلامه وجود تجسيدي لفكره ورأيه.

وكان شيخنا الشهيد مفكراً غائراً في أعماق المواضيع الّتي يريد أن يكتب فيها أو يلقي محاضرة عنها.

ولذا يجد المُطالع في جُلّ آثاره نوعاً من التجديد وشيئاً بارزاً من التطوير بحيث أتت مقالاته ورسائله حلقة وصل بين القديم والجديد.

ولا أنسىٰ أنّه قد شرح وعلّق على كتاب «أُصول الفلسفة الإسلامية» للسيد

العلاّمة الطباطبائي بعامّة أجزائه، ولكنّه أخّر نشر ما يتعلّق بمباحث الحركة والّتي هي من أعقد البحوث الفلسفية بين القدماء والمتأخّرين.

ولما سُئل عن سبب التأخير أجاب بأنّي لم استطع هضمها حتّى أكون قادراً على كتابتها، ولذلك فإنّي أُراجع مواضيعها مرة بعد أُخرى حتّى تتّضح لي معالمها وآثارها ثمّ اكتب.

كان رحمه الله قليل التكلّم كثير التفكير، وكان يحضر دروس سيدنا الأُستاذ الإمام الخمني قدس سره، وكنّا نرى أنّه لا يناقش آراء أُستاذه إلاّ مرة واحدة في الأُسبوع، ولكنّه في تلك المرة يصل إلى نقطة يكاد يخضع فيها الأُستاذ إلى إيراده وإشكاله، فكان يحاول الجمع بين ما تبنّاه وما أورد عليه تلميذه النابغة، وهذا ما كنت أُشاهده أيّام حضوري معه دروس الإمام الراحل رحمه الله.

٢. الاستقامة في تحليل المواضيع

التفكير موهبة إلهية عمّت كافّة عباده وبحسب درجات استعدادهم، والمهم هو أن يستخدم الإنسان هذه الموهبة الإلهية في الكشف عن الواقع والحقيقة دون أن يتأثر بالبيئة أو بالدوافع المادية أو النزعات النفسية.

وهكذا كان شيخنا العلاّمة المطهري فهو ينظر إلى المسائل الفلسفية أو العقائدية متجرداً عن كلّ تحيّز أو تأثر بالبيئة أو نزعة طائفية، فيأتي بما هو لُبّ اللباب ويدافع عنه بحماس.

وفي مقابل ذلك نجد كاتباً إسلامياً يحمل طابَع الإسلام، ولكنّه يتخذ الإسلام غطاءً لأفكاره وواجهة أمام الشعب حتّى لا يُتّهم بالإلحاد والانحراف عن المحجّة البيضاء، مع أنّه يبث الإلحاد في كتاباته ورسائله ويريد إخضاع العقائد الإسلامية والأحكام العملية للأُصول المادية لكي تنطلي أغراضه على

أذهان المسلمين.

وكان الشهيد الراحل في منأىٰ عن هذا النوع من التفكير الّذي لا يفارق النفاق قيد شعرة، ومن هنا انبرى الأُستاذ المطهري لمناهضة هذا النوع من التفكير المادي الّذي غلافه الإسلام ومحتواه الإلحاد، قائلاً بأنّ ضرر هذه الزمرة أكثر من ضرر المعتقدين بالمادية الماركسية أو غيرهم.

٣. تلبية الحاجات الثقافية

ألّف الشيخ الشهيد عشرات الكتب والمقالات والرسائل في مواضيع مختلفة، وكان الحافز الّذي يدعوه للكتابة والتأليف هو تلبية الحاجات الثقافية في المجتمع وسدّ الفراغ الموجود في المكتبة الإسلامية، فكلّ أثر من آثاره إنّما يحمل هذا الطابع، فما تآليفه إلّا وسيلة لتحقيق غرض خاص من غير فرق بين كتبه الفلسفية أو التاريخية أو العقائدية.

ومن هذا المنطلق نرى الشهيد المطهري ـ و هو المفكّر و الأُستاذ الكبير ـ يؤلّف كتاباً قصصياً للشباب لأجل اطّلاعهم على سيرة الصالحين.

هذا ما دفع بعضهم إلى انتقاده معتبراً أنّ هذا النوع من التأليف غير لائق بمن هو في الرعيل الأوّل من أساتذة الفلسفة وممّن يشار إليه بالبنان في التعقّل والتفكير، فأجاب رحمه الله بما هذا مثاله:

إنّي ما أمسكت بالقلم منذ أعوام إلّا لأخدم المسلمين والعقيدة الصحيحة، والّذي دفعني إلى تحرير أُصول الفلسفة الإسلامية هو الّذي دفعني إلى كتابة هذا النوع من الكتب[١] والّذي يتراءى أنّه دون شأني، فإنّي وجدت

---

١. إشارة إلى كتاب «داستان راستان».

فراغاً هائلاً في الكتب التربوية ، لأنّ الآخـرين يركّزون على قصص روائية خيالية لا واقع لهـا إلاّ في ذهن الكاتب ولهـا أثرهـا الخاص في عـالم التربيـة ، ولكنّي عمدت في هذا التأليف إلى استخراج سيـرة الصالحين من بطون الكتب لتكون مصباحاً للشباب وداعياً لهم إلى انتهاج مسالكهم .

خذ من باب المثال كتـابه الطائر الصيت«**خدمات متقابل اسلام و ايران**» الذي ألّفه دفـاعاً عن الإسلام والمسلمين ، ذلك أنّ الدعايات الكـاذبة في عهد النظام السابق كانت تركّز على الرجوع إلى الثقافة البهلوية الّتي سبقت الإسلام ، ولتحقيق هذه الغاية استخـدموا كتّاباً من الجامعات وغيرهـا ليشيّدوا هذه الفكرة ولـلإيحاء بأنّ المسلمين العـرب إنّما جـاءوا لهـدم الحضارة الإيـرانية والإغـارة عليها .

كانت الفكرة القومية آنذاك سائدة في عامّة البلاد الإسلامية ، ولها في كلّ بلد لون خاص . فالقومية العربية الفارغة عن الإسلام هي الّتي كان يتبنّاها عملاء الاستعمار والمخدوعـون به في البلاد العربيـة لغرض إبعاد الشعب المسلم عن الإسلام وسَوْقه نحو العربيـة المحضة الّتي تجمع كلّ عربي تحت هذا الغطاء ، سواء أكان مسلماً أم مسيحياً أم غير ذلك .

هكـذا كانـت الدعـايـات الغربيـة تعمل وراء الستـار في كلّ بلـد بشكل خاص . وفي معترك هذه الأزمة الفكرية قام المطهريرحمه الله بإلقاء محاضرات في الجامعات وغيرها بيّن فيها عطاءات الإسلام للإيرانيين وأوضح ـ في نفس الوقت ـ خدمة الإيرانيين للغة الإسلام وكتابه وسنّته .

فكان هناك تأثير متبادل وعطاء غير منقطع . ويُعدّ كتابه هذا من أفضل ما أُلّف في هذا الموضوع .

وما دفعه إلى ذلك النوع من التأليف إلاّ تلبية حاجة المجتمع .

٤. كان ملجأً للجامعيّين

عاش الشيخ الشهيد في عصر أتاح فيه النظام الحاكم آنذاك للمتأثّرين بالمبادئ الغربية من أساتذة الجامعات، المجال لطرح آرائهم ونظرياتهم حول الدين وجذوره والشريعة وفروعها.

وكانت الغاية من هذه الحرية هو ضرب فئات الشعب بعضها ببعض كي تتلهّىٰ بالحوار والنقض والإبرام دون أن تفكّر في المسائل السياسية المصيرية.

إنّ الحرية بهذا المعنى وإن كان لها أثر في نمو الأفكار وتقدّم الثقافة، ولكنّها ربّما تضرّ بالمبادئ والقيم الّتي تقابل النظرات الغربية في الأخلاق والشريعة، وكان الشهيد الراحل ملجأ للجامعيين يرجعون إليه في حلّ الشبهات ورفع الإشكالات.

وبما أنّه كان أحد الأساتذة في الجامعة، فقد كان يتمتع بفرصة عقد محاضرات وجلسات يردّ فيها الأفكار السامة بأسلوب علمي رصين وخلق رفيع. وقد أوجدت شهادته فراغاً هائلاً في هذا الجانب لولا أن منّ الله سبحانه بأساتذة أفاضل سدّوا هذا الفراغ حفظهم الله من كلّ مكروه.

٥. انفتاحه على آراء الآخرين

من السمات الّتي يمتاز بها الباحث عن الحقيقة، هو الانفتاح على آراء الآخرين، والإصغاء إليها بوجه طلق لا يبدو عليه أي امتعاض، موحياً إلى المتحدّثين أنّه يسمع إلى آرائهم ويحترمها، وأنّها ستحظى بقبوله إذا ما دعمها البرهان والدليل، وعلى ذلك سار الأنبياء والأولياء في مواجهة المخالفين والمعاندين، بقوله سبحانه: ﴿**وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ**

حَوْلِكَ﴾[١]. فالمراد من قوله: ﴿فَبِما رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ﴾ هو سعة صدره في مجابهة أقوال الآخرين.

وإليك هذه القصة الّتي تنطلق بك إلى آفاق رحيبة في حسن الاستماع للآخرين:

كان ابن أبي العوجاء كبير الملحدين في عصر الإمام الصادق عليه السلام يبث دعاياته الإلحادية في مسجد الرسول صلى الله عليه وآله، ولمّا سمع المفضل بن عمر الجعفي ـ أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السلام ـ ما يبثّه من سموم في مركز الدعوة الإلهية، هجم عليه وكلّمه بعنف وقال: يا عدو الله ألحدتَ في دين الله وأنكرت الباري جلّ قدسه الّذي خلقك في أحسن تقويم وصوّرك في أتم صورة، ... إلى آخر ما قال. فأجابه ابن أبي العوجاء. بقوله:

يا هذا إن كنت من أهل الكلام كلّمناك، وإن ثبت لك حجة تبعناك، وإن لم تكن منهم فلا كلام لك، وإن كنت من أصحاب جعفر بن محمد الصادق عليه السلام فما هكذا يخاطبنا، ولا بمثل دليلك يجادلنا، ولقد سمع من كلامنا أكثر ممّا سمعت، فما أفحش في خطابنا، ولا تعدّىٰ في جوابنا، وانّه للحكيم الرزين العاقل الرصين، لا يعتريه خرق ولا طيش ولا نزق، ويسمع كلامنا ويصغي إلينا ويستعرف حجتنا حتى استفرغنا ما عندنا وظننا أنّا قد قطعناه، أدحض حجّتنا بكلام يسير وخطاب قصير يلزمنا به الحجّة، ويقطع العذر، ولا نستطيع لجوابه ردّاً، فإن كنت من أصحابه فخاطبنا بمثل خطابه.[٢]

وهكذا كانت سيرة فقيدنا الشهيد في حواراته ومناظراته وعامّة تآليفه،

١. آل عمران:١٥٩.

٢. بحارالأنوار: (كتاب التوحيد): ٣/ ٥٨.

وإليك نموذجاً من هذا النوع من الانفتاح على المخالف:

ألّف الشيخ المطهري كتاب «نظام حقوق المرأة في الإسلام» في مقابل ما كان ينشره الدكتور إبراهيم المهدوي الزنجاني حول حقوق المرأة الّتي كان أكثرها مخالفاً للقرآن والشريعة الإسلامية، وقد نشر هذا الدكتور لائحة في أربعين مادة في هذا الصدد من على صفحات مجلة (زن روز) المهتمة بالأُمور النسوية.

وبعد مباحثات بين الطرفين اتّفقا على أن يكتب الدكتور مقالاته في الدفاع عن أُطروحته المسمّاة بالأربعين مادة في حقوق المرأة وحرّيتها، وذلك في مجلة (زن روز)، ويكتب الشهيد المطهري آراءه ونظراته في كلّ مادة يذكرها الدكتور في صفحات مقابلة لصفحات مقال الدكتور.

وقد كان لتلك المساجلات والمناظرات صدى واسع يوم ذاك بشكل أصبح واضحاً عند الجامعيّين والحقوقيّين تفوّق منطق المطهري وقدرة تفكيره وبيانه على منطق الطرف الآخر، ممّا سبب انفعالاً عند الدكتور الزنجاني فأُصيب بسكتة قلبية كانت سبب وفاته، وذلك بعد العدد السادس من بدء المحاورة. ولكن الشيخ استمر في كتابة مقالاته، حول نظام حقوق المرأة في الإسلام، وأصبحت هذه المقالات ـ بعد أن جمعت ـ كتاباً ومصدراً لمن يريد أن يكتب في هذا الموضوع.

وهذا النوع من المرونة من الشيخ والاتّفاق على الكتابة في موضوع واحد مع كاتب بعيد عن منطق الإسلام أفضل دليل على أنّ هذا الشهيد﵀ كان منفتحاً على آراء الآخرين، وكان مطمئناً أنّه سوف يخرج في النهاية منتصراً مسدداً.

٦ . الغيرة على الدين

قد تطلق لفظة (الغيرة) ويراد بها التعصّب الأعمى المنطلق من العصبية العرقية أو القومية أو ما يشابههما . فالتعصّب بهذا المعنى يخالف منطق العقل وطريق الشرع .

وقد تطلق هذه اللفظة ـ مرة أُخرى ـ و يراد بها التعصّب للحق دفاعاً عنه وعن أهله ، سواء أكان لصالح المتعصّب أم لا، فالتعصّب بهذا المعنى هو حميّة عقلية وغيرة دينية يوصف به الصالحون من عباد الله تبارك وتعالى حيث يضحّون بأنفسهم في طريق إحياء الحق .

هذا هو الإمام أمير المؤمنين عليه السلام يتكلّم حول التعصّب وينـدّد به فيقول : أمّا إبليس فتعصّب على آدم لأصله ، وطعن عليه في خلقته فقال : أنا ناري وأنت طيني .

وأمّا الأغنياء من مترفة الأُمم فتعصّبوا ، لآثار مواقع النعم ، فقالوا : نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين .

فإن كان لابدّ من العصبية فليكن تعصّبكم بمكارم الخصال ، ومحامد الأفعال ، ومحاسن الأُمور الّتي تفاضلت فيها المُجداء النجداء من بيوتات العرب ويعاسيب القبائل ذوي الأخلاق الرغيبة والأحلام العظيمة والأخطار الجليلة والآثار المحمودة . [1]

كان شهيدنا الراحل مظهراً للتعصّب للحق لا يعادل به شيئاً حتى شخصه وشخصيته ، فلذلك سجن واعتقل مرة بعد أُخرى ، لإظهاره الحق والإجهار بالمعتقد و إن بلغ ما بلغ .

---

١ . نهج البلاغة، الخطبة ١٩٢ .

لم يكن الشيخ المطهري رحمه الله من أهل المساومة، فلا يتراجع عن الأُصول والفروع الشرعية قيد شعرة ولو كلّفه ذلك نتائج باهضة.

عكف الشهيد الراحل على دروس الإمام الخميني سنين متمادية، واختلف إلى أندية دروسه صباحاً ومساءً حتى أصبح من أعاظم تلاميذه، وأفضل من برع على يديه، ولكن حبه للإمام وأُستاذه لم يكن بشكل يثير فيه العصبية العمياء للتنكّر للآخرين، فهو في الوقت نفسه يعظّم الآخرين من غير فرق. ولذلك نراه عندما ينقل شيئاً عن العلاّمة الطباطبائي الّذي كان أحد أساتذته يقرن اسمه بجملة (روحي فداه).

هكذا كان الشهيد الراحل يتبع الحق ويتّخذه مصباحاً يمشي على ضوئه، فإذا عرف الحق عرف أهله وجلّلهم، وإذا عرف الباطل عرف أهله وأعرض عنهم وعن باطلهم ونقدهم.

فكان الشهيد الراحل مثالاً لما ذكره الإمام علي عليه السلام في حرب الجمل عندما تقابل الجيشان للقتال وفي الجيش المقابل الزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله (وهما من شيوخ الصحابة) وأُمّ المؤمنين عائشة حرم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فأوجد ذلك حالة من الشك عند البسطاء، فحاولوا الانعزال عن الجيشين، لأنّ في كلّ طرف شخصية عظيمة لا تنكر، ولمّا سأل أحد القادة الإمام عليه السلام قبل نشوب الحرب واشتعال نارها: كيف تقاتلون يا أمير المؤمنين مع هذه الجماعة وفيهم من تعرفه؟

فأجابه الإمام بكلمة قيّمة تعدّ من أفضل الكلمات وأعظمها:

«إنّك رجل ملبوس عليك.

إنّ الحقّ والباطل لا يُعرفان بأقدار الرجال.

اعرف الحق تعرف أهله، واعرف الباطل تعرف أهله».

وقد أخذت هذه الكلمة بمجامع قلوب الأُدباء والكُتّاب من المصريّين حتى قال الدكتور طه حسين في حقّها: هذه الكلمة أعظم كلمة سمعتها أُذن الدنيا بعد الوحي.

صلّى الله عليك يا أمير المؤمنين يا أمير البيان.

٧. العارف بزمانه

كان الشهيد المطهري عارفاً بزمانه وبالظروف الّتي يعيش فيها، والأساليب الّتي يجب أن يتّخذها أداة للتبليغ والتعليم.

فإنّ الحقيقة لم تزل أمراً واحداً ولكن العرض قد يختلف حسب الظروف، فربَّ حقيقة رائعة إذا عرضت بأُسلوب لا يوافق أذواق المخاطبين، لا تؤثر شيئاً، بل ربما توجب بُعداً.

يقول الإمام الصادق عليه السلام في بعض نصائحه: «العالم بزمانه لا تهجم عليه اللوابس».[١]

والمراد من اللوابس هو الفتن والحوادث المرة الّتي تحيط حياة الإنسان، وربّما تقضي عليه إذا لم يكن مستعداً من ذي قبل على ردّها ودفعها.

يقول سبحانه: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَااسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾.[٢]

صحيح أنّه يقول: ﴿مِنْ رِبَاطِ الْخَيلِ﴾ ولكن لا يكتفي به، ولكن يذكر معه ﴿مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾، ومعنى ذلك أنّ القائد الإسلامي يجب أن يتدرّع

---

١. الكافي: ١/ ٢٧، الحديث ٢٩، كتاب العقل والجهل.

٢. الأنفال: ٦٠.

بكلّ قوة ما استطاع، ومن المعلوم أنّ لكلّ عصر جهاز ووسيلة دفاعية تتناسب معه، ويزيد سبحانه على هذا بقوله: ﴿تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾. ومعنى ذلك أنّ النظام الإسلامي يجب أن يكون على استعداد تام يملأ قلوب الآخرين بالرهبة والخوف، وكلّ ذلك رهن كون الجهاز الحاكم عارفاً بزمانه وبما يجري في الشرق والغرب من الحوادث الّتي قد تكون لصالح الإسلام أو بضرره.

وعلى ضوء ذلك فإنّه يجب تقليد المجتهد الحي دون المجتهد الميت، لأنّ الأوّل عارف بالزمان وبحلول المسائل المستجدة، بخلاف الميت المنقطع عن الدنيا غير المتنبئ بمستقبل الحوادث.

وقد تحدّثنا عن ذلك مفصّلاً في أحد محاضراتنا الّتي ألقيناها في إحدى جامعات المغرب العربي خلال سفرنا إلى هناك في محرم ١٤٢٥هـ.

نرى أنّ الشيخ المطهري يجسّد ذلك في حياته وهو لم يزل يطالع كتب الشرقيّين والغربيين من الموافقين والمخالفين، ولذلك أحاط برؤى الغربيّين في قسم من المسائل الفلسفية، وجمع بين الثقافة الإسلامية والثقافة الغربية، غير أنّه لم يتأثر بالأفكار الغربية قيد شعرة.

و إنّما استخدمها لنقد الحضارة الغربية، وبيان مشاكلها، وما في الإسلام من حلول لهذه المشاكل العويصة.

٨ . المثابرة في العمل

كان الشيخ الراحل ساعياً إلى هدفه، دؤوباً على العمل، لم يُرَ منه الكسل والضجر في كافّة الأوقات، وكان يواصل أعماله في شتّى الحقول، على نظام خاص، وكان جهده وسعيه في سبيل نيل الضالّة المنشودة، وهي التعليم

والتعلّم منذ شبابه إلى أن لبّى دعوة ربّه على وتيرة واحدة.

كيف لا وهو يقرأ قوله سبحانه: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسانِ إِلاّ مَا سَعىٰ﴾.[1]

كيف لا وهو ربيب بيت العمل والسعي والجدّ والمثابرة، وقد هاجر من مسقط رأسه مشهد الرضا إلى قم المشرفة وهو في أوان شبابه ليس له معين إلاّ كدّه وتعبه حتى في ضروريات حياته، وبذلك أصبح نتيجة تلك الظروف العصيبة كزبر الحديد ـ بعد أن تعرض إلى حرارة النار ـ رغم مواجهته لأنواع المشاكل والعوائق.

رحم الله السيد المجاهد الأمين العاملي الّذي قال في قصيدة يصف فيها حياته وكأنّه يرسم بريشته حياة شهيدنا الراحل، إذ يقول:

لئن كان قد ولّى الشبابُ عصره ونافٍ على الستين لي سنتان
فما شاب لي عزم ولا فُلّ ساعد ولا حلّ بي ركب بدار هوان
وإنّي لنزاع إلى درك غاية هي الغاية القصوى ونيل أماني
ولستُ إلى خفض من العيش نازعاً فما مستريح غيرُ من هو عانِ

هكذا كان العلماء الراسخون في العلم الذين بلغوا أسمى المدارج والدرجات.

قال أُستاذنا الكبير السيد حسين البروجردي (١٢٩٢ـ ١٣٨٠ هـ) في أحد دروسه: كنت طالب علم في مدينة اصفهان أسكن مدرسة الصدر، وقد جلست للمطالعة في ليلة من الليالي بعد صلاة العشاء، وكنت أدرس مسألة الترتب الّتي هي من المسائل الأُصولية الغامضة، وكنت أفكر وأكتب وأُمحي،

١. النجم:٣٩.

وقد استغرقت في عملي إلى أن سمعت صوت المؤذن يؤذّن لصلاة الصبح .

وهكذا كان الإمام الخميني رحمه الله ينزل في الصيف بعض المدن القريبة من قم المشرفة للاصطياف، وقد سافر في عام ١٣٧٠هـ إلى مدينة محلاّت الّتي هي قريبة من قم، وهي ذات هواء معتدل، وفيها حدائق أزاهير عطرة ومياه معدنية، وهناك أيضاً مارس جهاده العلمي قراءة وكتابة ليلاً ونهاراً، وقلّما يتفق أن يكون له احتكاك بعامّة الناس أو بعلماء المدينة، إلاّ في وقت خاص وهو قريب من المغرب .

فقد سمعت منه رحمه الله عندما سألته عن كيفية اشتغاله فقال: كنت ابتدأ بالمطالعة والكتابة من الساعة السادسة صباحاً إلى الساعة الثانية عشر دون أن يطرأ عليّ كسل أو ضجر، غير أني أُنوّع عملي بين المطالعة والكتابة .

فإذا كان هذا هو حال الأُستاذين فيجب أن يكون مَن تربّى في أحضانهما مثلهما، إذ في ناموس الخلقة أن يخطوا التلميذ خطوات أُستاذه .

٩ . منهجية التحقيق

نرى أنّ كثيراً من العلماء والكتاب يبذلون جهودهم في القراءة والكتابة ولكن لا يتمكّنون من استثمار جهودهم فتذهب سدى ادراج الرياح .

وانّما يكون التوفيق حليف من له منهجية في التحقيق، وهذه موهبة إلهية .

وكان الشيخ المطهري ممّن رزقه الله ذوقاً خاصاً للتحقيق وتنظيم المذكرات واستثمارها في مواقعها، على نحو لو قام أحد بنشر بعض مذكراته في موضوع معين لأصبحت كتاباً دون أن يظهر فيه نقص .

هكـذا كـان شهيدنـا الـراحل وهكـذا كان العلمـاء المحقّقـون من ذوي المواهب الكبيرة .

١٠ . موسوعيته في العلوم

إنّ كثيراً من العلماء يبذلون جهودهم في تعلّم فن خاص ، وليس لهم في بقية العلوم إلاّ حظ قليل .

ولكن في المقـابل يوجـد أُناس استثنـائيـون لهم في كلِّ علم حظ باهـر ، والشيخ المطهـري كـان من هـذه الفئـة ، فهـو متكلّم بـارع ، وحكيم واع ، وفي الوقت نفسه كان فقيهاً أُصولياً صرف شطراً من عمره في تحصيل ذينك العلمين حتى برع واجتهد ، كما أنّه كان له في اللغة العربية يد طوى حيث إنّه يقرأ الكتب المؤلّفة في السيرة والتاريخ والآداب والسياسة ، كما أنّ له إلماماً بالأدب العربي المعاصر .

فهو رجل موسـوعي جامع لأغلب الفنون والعلوم ، يتمتّع بحـافظة وذاكرة قوية .

هذه إضاءات على أبـرز ما تميّزت به حياة الشهيد الراحـل الفكرية ، وأمّا البحث عن خصائصه في الجوانب الأُخرى فهو موكول إلى وقت آخر .

فلنقتصـر على ذلك ونـرفع آيـات الاعتـذار عن التقصيـر في البيـان بمـا يستحقه شأنه ومقامه .

والعذر عند كرام الناس مقبول .

فسلام الله عليه يوم ولد ويوم استشهد ويوم يبعث حيّاً

جعفر السبحاني

قم ـ مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام

١٠ ربيع الثاني من شهور عام ١٤٢٦ هـ

الفصل السابع

رسائل ومكاتبات

١. ملاحظات حول ندوة الاهتمام بالسنّة والسيرة النبوية

٢. معاوية بن أبي سفيان في الميزان

٣. رسالة رئاسة شؤون الحرمين الشريفين

٤. التأليف حول الفقه على ضوء المذاهب الستة

٥. رسالة تأبينية بوفاة السيد محمد بن علوي المالكي

٦. تقدير وتقويم للجز ءالأوّل من موسوعة الفقه الإسلامي

٧. توضيح حول قوله سبحانه: ﴿في بيوتٍ﴾

٨. صورة تقريظ لكتاب أُصولي

٩. ملاحظات حول كتاب جمهرة القواعد الفقهية في المعاملات المالية

١٠. مقال حول: القواعد الفقهية للشيخ مرتضى الترابي

١١. ملاحظات الدكتور عبدالوهاب حول موسوعة طبقات الفقهاء وجوابنا

١

ملاحظات حول ندوة الاهتمام بالسنّة والسيرة النبوية

أُقيمت في المدينة المنورة نـدوة علمية حول الاهتمام بالسنّـة والسيرة النبوية بتاريخ ١٥ـ ١٧ ربيع الأوّل عام ١٤٢٥ هـ، وقـدّم المعنيّون بالسنّة والسيرة النبوية حوالي ثمانين مقالاً في مواضيع مختلفة تجمعها العناية بهما.

وقد شـارك في هذه النـدوة أساتـذة السنّة والسيرة من مختلف بلـدان العالم الإسلامي، إلاّ أنّنـا ـ و للأسف ـ لم نجـد بينهم عالماً شيعياً يعـرض جهود محدّثي الشيعة للحـاضرين حتّى يقفوا على دور الشيعة في تدوين السنّـة والسيرة ومقدار الاهتمام بهما.

وكنّا قد كتبنا إلى الصـديق الدكتور عبد الوهـاب أبو سليمان وطلبنا منه أن يبعث إلينا بمقالات المؤتمر، فقام مشكوراً بإرسالها، وحين وصولها إلينافأطلعنا على بعضهـا، وكتبنا حـولها بعض الملاحظات الّتي تجدهـا في رسالتنـا اللاحقـة والّتي أرسلناها إلى صديقنا المتفضّل علينا حفظه الله.

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى الأُستاذ الفاضل المحقّق الدكتور عبد الوهاب إبراهيم أبو سليمان دامت معاليه

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أرجو من الله سبحانه أن يكون سيدنا العزيز في غاية الصحّة وتمام العافية، وأن يوفقه الله تبارك وتعالى لما يحبه ويرضاه.

وصلتنا رسالتكم الكريمة مشفوعة بالكتب التالية: ١. تصوير مقاصد الشريعة للشيخ علال الفاسي. ٢. نظرية المقاصد للدكتور الريسوني، ٣. مجموع ما أُلقي في ندوة (السنّة والسيرة النبوية) وكان حافلاً بثمانين رسالة قد قرأت بعضها، وسأقوم بقراءة الباقي إن شاء الله تعالى.

والّذي لفّت انتباهي في هذه الرسائل هو إصرار عدد من المحاضرين في الندوة على حجية الخبر الواحد في العقائد والمعارف وراء حجيته في الأحكام والفروع العملية. منهم: محمد بن جميل مبارك، وعامر بن حسن صبري.

أقول: أمّا حجّيته في الفروع والأحكام فممّا لا غبار عليها، إنّما الكلام في حجيته في الأُصول والعقائد، والحق ـ وفاء للمحقّقين ـ عدم حجّيته فيها؛ وذلك: لأنّ المطلوب من العقيدة هو الإذعان القلبي، كما أنّ المطلوب من الشريعة هو العمل، فكأنّ الشريعة ثمرةُ العقيدة، وكلّ إنسان ينطلق في سلوكه من عقيدته وإيمانه. والسلوك العملي وتطبيق الحياة على الحكم الشرعي ليس رهن الإذعان بصحّة الحكم الشرعي، بل ربّما يعمل به الإنسان أو يتركه مع الشكّ والترديد في صحّة حكم ما، بشهادة أنّ جميع الأحكام الفرعية ليست من القطعيات، بل هي

بين مقطوع ومظنون بها، كما أنّ له تلك الحالة مع الظن بصحّة الحكم دون اليقين بها، لكن العمل والتطبيق في متناول الإنسان في أيّ وقت شاء، سواء أشك في صحّة الحكم أو ظنّ أو قطع بها.

وأمّا العقيدة بمعنى عقد القلب على شيء وأنّه الحقّ تماماً دون غيره ـ كما هو المطلوب في العقائد ـ فتختلف عن الأحكام الفرعية، فهي رهن أُسس ومبادئ تقود الإنسان إلى الإذعان على نحوٍ لولاها لما حصلت له تلك الحالة وإن شاء وأصرّ على حصول اليقين. وأين خبر الواحد، من هذه الأُسس والمبادئ التي تنتج العلم شاء الإنسان أم لم يشأ.

وبعبارة أُخرى: العمل بالأحكام من مقولة الفعل وهو واقع تحت إرادة الإنسان، فربّما يعمل بما لا يجزم بصحته كما يعمل مع الجزم بها، ومثال ذلك أنّ أئمّة المذاهب الفقهية مختلفون في الآراء والمصيب منهم واحد، ومع ذلك فأتباع كلّ إمام يعملون بفقهه مع علمهم بخطئه إجمالاً في بعض الآراء لعدم عصمته.

ولكن الإذعان من مقولة انفعال النفس بالمبادئ الّتي تؤثر في طروء هذه الحالة على صحيفتها، ولولا تلك المبادئ لما ترى له أثراً في الذهن.

يقول سبحانه: ﴿لاٰ إِكراهَ فِي الدِّين قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِ﴾[1]. ماذا يريد الله سبحانه من هذه الجملة؟ يريد أنّ الدين (العقيدة) لا يمكن أن يتعلّق به إكراه؟! لأنّه من شؤون القلب الخارجة عن القدرة، تماماً كالتصورات الذهنية، وانّما يتعلّق الإكراه بالأقوال والأفعال التي يمكن صدورها عن إرادة القائل والفاعل.

إنّ الدين وهو سلسلة من المعارف العلمية الّتي تتبعها أُخرى عملية،

١. البقرة:٢٥٦.

يجمعها أنّها اعتقادات، والاعتقاد والإيمان من الأُمور القلبية الّتي لا يحكم فيها الإكراه والإجبار، فإنّ الإكراه إنّما يؤثّر في الأعمال الظاهرية والأفعال والحركات البدنية المادية.

وأمّا الاعتقاد القلبي فله علل وأسباب أُخرى قلبية من سنخ الاعتقاد والإدراك، ومن المحال أن ينتج الجهل علماً، أو تولّد المقدّمات غير العلمية تصديقاً علمياً.

فما ادّعاه أعداء الإسلام من: «أنّ الإسلام قام بالسيف والقوة» ما هو إلاّ ادّعاء فارغ يجانب العقل، لأنّ السيف لا يؤثر في العقيدة والإذعان و إن كان يؤثر في تطبيق العمل وفق الشريعة.

وعلى ضوء ذلك قال المحقّقون بحجية خبر الواحد العادل في الأحكام العمليّة دون الأُصول والعقائد، لأنّه لا يفيد العلم واليقين الّذي هو أساس العقيدة إلاّ إذا احتفّ بقرائن خارجية تورث العلم والجزم، وما هذا إلاّ لأنّ المطلوب في الأحكام هو العمل، وهو أمر اختياري يقوم به الإنسان حتّى في حالتي الشك والتردد في صحّة الحكم.

وأمّا الأُصول والمعارف فالمطلوب فيها عقد القلب والإذعان على نحو يطرد الطرف النقيض بإحكام، والخبر الواحد بما هوهو- و إن كان الراوي ثقة خصوصاً إذا كان بعيداً عن مصدر الوحي ـ لا يورث إلاّ الظن، وهو لا يغني في مجال العقيدة عن الحقّ شيئاً. ومن عجيب الكلام انّ المحاضرين ادّعيا أنّ خبر الواحد، يفيد العلم (ذكره محمد بن جميل في رسالته ، ص ٤٤، وعامر بن حسن في ص ٩) وكأنّ الكاتبين خلطا بين الحجية و إفادة العلم وشتان بينهما وكون الظن حجة، لا يعني قطعية مدلوله، بل كون العمل به مبرئاً للذمّة.

وفي الختام اعتذر إليكم عن طول الكلام في المقـام، فإنّ الباعث لذلك هو حبي وتقديري لكم انطلاقاً من قـول النبي الكليم حيث أطال في الجواب عندما سأله الباري عمّا في يده فقال: ﴿هِيَ عَصايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْها وَأَهُشُّ بِها عَلى غَنَمي وَلِي فِيها مَآرِبُ أُخْرى﴾[1].

وهذه الرسالة مرفقة بالكتب التالية:

١. فقـه الرضـاع، ٢. أحكام السفـر، ٣. السيرة المحمـدية، ٤. الأمثـال في القرآن الكريم.

وفي الختام نرجو القبول مع فائق الاحترام ولكم منّا جزيل الشكر.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

جعفر السبحاني

قم المقدسة ـ مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام

السادس عشر من جمادى الأُولى ١٤٢٥هـ

٢

معاوية بن أبي سفيان في الميزان

قـام الشيخ يوسف القـرضاوي حفظـه الله في بعض خطب صلاة الجمعـة بالدفاع عن معاوية بن أبي سفيان.

وقـد كتبنا إليـه رسـالـة ألفتنا نظـره فيهـا إلى عدم ضرورة طـرح مثل هـذه المواضيع والمسلمون في هذا الـوقت يعانون ما يعانـون من ظلم وإبادة، كما ألفتنا نظره إلى أنّ مواقف معـاوية في حياته والّتي يـذكرها التاريخ لا تـؤهّله لأن يدافع عنه أحد.

ولما وصلت الرسالة إلى يد العلاّمة عبـد الوهاب إبراهيم أبو سليمان حفظه الله كتب رسالة يوصينا فيها بترك التعرض إلى الصحابة.

وقد أجبنا عن هذه الرسالة بجواب يوضح موقفنا من الصحابة.

وإليك قارئنا الكريم تلك الرسائل الثلاث:

الأُستاذ الفاضل الشيخ يوسف القرضاوي المحترم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

نثمّن جهودكم العلمية وما قدّمتموه للأُمّة الإسلامية من تآليف وآثار قيمة في مختلف المجالات.

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يأخذ بيدكم لما يحب ويرضى ويوفّقكم لصالح الأعمال، كما نثمِّن مواقفكم الإيجابية في مسألة التقريب والوحدة بين المذاهب الإسلامية.

ولكن ذلك لا يمنعنا من الإشارة إلى بعض الكلمات الّتي صدرت عنكم في بعض المناسبات.

١ . قد طرحتم إيمان سيد الأباطح أبي طالب وقلتم إنّه مات كافراً، مع أنّ أفعاله وأعماله طيلة عشر سنين في مكّة المكرمة ، وقصائده الفاخرة، تشهد على أنّه مات مؤمناً، وعاش كعيشة مؤمن آل فرعون، وقد أرسلنا إليكم رسالة حول هذا الموضوع سابقاً، وركزنا على أنّ المسألة ليست من الضروريات حتّى تطرح من على المنابر.

٢ . قرأنا في إحدى الصحف دفاعكم عن معاوية بن أبي سفيان في خطبة صلاة الجمعة.

ولنا أن نتساءل:

ما هي جدوى الانتصار لمعاوية في هذه الأيام الّتي تتعرض فيها الأُمّة الإسلامية إلى تحديات كبيرة وهجمات شرسة؟! ونتطلّع فيها إلى تقديم فهم

صحيح للإسلام، وتصوّر واضح لمفاهيمه وأفكاره، وموقف سليم وجريء إزاء قضاياه ورجاله وشخصياته، يُتحرّىٰ في كلّ ذلك الحق، ويُلتزم فيه بالموقف الشرعي والأخلاقي، بعيداً عن التأثيرات العاطفية، والقناعات الّتي ربما نشأت على أساس من المفاهيم المغلوطة والمعلومات المزيّفة.

هل خلا تاريخنا الإسلامي من رجالٍ تبنّوا الإسلام شعاراً وهدفاً ومنهجاً وسلوكاً، واسترخصوا الأرواح والدماءفي سبيله ...؟! هل خلا من هؤلاء حتّى يُعمد إلى مثل معاوية ليُبعث من بين هذا الركام الهائل من الخطايا والأخطاء من أجل أن يُبرّأ ويلمّع وجهه البشع؟!

فهذا عليّ والأهازيج باسمه ... تشقّ الفضا النائي فهاتوا معاويا
أعيدوا ابن هند إن وجدتم رُفاته ... رُفاتاً وإلاّ فانشروها مخازيا[1]

لا أدري ماذا يقتبس (جيل النصر المنشود) الّذي يسعى الأُستاذ القرضاوي إلى صُنعه، من معاوية الّذي ناوأ الحقّ، وناجز الهدىٰ، وأراق دماء الصالحين، وأشاع السبّ واللعن، وأدنى الانتهازيّين والنفعيّين وأصحاب القلوب المريضة الذين آثروا الحياة الدنيا على الّتي هي خير وأبقى؟!

هل يُرجىٰ من جيل النصر المنشود إذا زُيّنت له صورة معاوية واقتدىٰ به واقتفىٰ آثاره، أن (تتحقق على يديه الآمال وتستحيل الهزائم والنكسات إلى انتصارات، وينتقل من الغوغائية إلى العلمية، ومن التشاحن إلى التعاون) على حدّ تعبير الدكتور القرضاوي؟!

إنّ معاوية لم يرحل عن دنياه المظلمة بالفتن والأحقاد والمكر والاستبداد

---

١. للعلاّمة الشاعر الشيخ عبد الحميد السماوي رحمه الله.

حتّى ختمها بجريمة كبرى لا تُغتفر استجابة لنزعة شريرة وأهواء مُضلّة، عبّر عنها بقوله: «لولا هواي في يزيد لأبصرت طريقي».

ونحن نسأل الداعية الكبير وصاحب الروح الشفافة الأُستاذ القرضاوي: هل من الحقّ إسدال الستار على مقترف هذه الجريمة النكراء المتمثّلة بتسليط يزيد الفجور والخمور على رقاب المسلمين؟ وارتكابه تلك المجازر الوحشية بقتل ابن بنت رسول الله ﷺ وأهل بيته وأصحابه، وسفك دماء المسلمين في وقعة الحرّة وانتهاك حرماتهم وأعراضهم؟!

ونودّ أن نذكر هنا بعض ما ورد في حقّ قائد الفئة الباغية معاوية:

قال الذهبي: وقُتل عمار مع علي، وتبيّن للناس قول رسول الله ﷺ: تقتله الفئة الباغية.[1]

قال محقّق الكتاب المذكور: وهو حديث صحيح مشهور بل متواتر، ولما لم يقدر معاوية على إنكاره، قال: إنّما قتلَه الذين جاءُوا به، فأجابه علي عليه السلام، بأنّ رسول الله إذن قتل حمزة حين أخرجه، وهذا منه إلزام مفحم لا جواب عنه، وحجة لا اعتراض عليها.

وروىٰ مسلم في صحيحه عن عامر بن سعد بن أبي وقاص، عن أبيه، قال: أمر معاوية بن أبي سفيان سعداً فقال: ما منعك أن تسبَّ أبا التُّراب؟ فقال: أمّا ما ذكرتُ ثلاثاً قالهن له رسول الله ﷺ، فلن أسبَّه. لأن تكون لي واحدةٌ منهنّ أحبُّ إليَّ من حُمْرِ النَّعم. سمعتُ رسول الله ﷺ يقول له، وقد خلَّفَهُ في بعض مغازيه، فقال له عليّ: يا رسول الله، خلّفتني مع النساء والصبيان؟ فقال له رسول الله ﷺ: «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من

١. سير أعلام النبلاء: ٣/ ١٤٢ ترجمة معاوية برقم ٢٥.

موسى، إلاّ أنّه لا نبوّة بعدي».

وسمعته يقول يوم خيبر: «لأعطينَّ الرّاية رجلاً يحبُّ الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله»، قال: فتطاولنا لها فقال: «ادعوا لي عليّاً»، فأُتي به أرمد. فبصق في عينه ودفع الرّاية إليه، ففتح الله عليه.

ولمّا نزلت هذه الآية ﴿**فَقُلْ تَعَالَوا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ**﴾[١] دعا رسول الله ﷺ عليّاً وفاطمة وحسناً وحسيناً عليهم السلام فقال: «اللّهُمَّ هؤلاءِ أَهْلي».[٢]

وقال ابن أبي نجيح، قال: لما حجّ معاوية طاف بالبيت ومعه سعد، فلمّا فرغ انصرف معاوية إلى دار الندوة فأجلسه معه على سريره، ووقع معاوية في عليّ، وشرع في سبّه، فزحف سعد ثمّ قال: أجلستني معك على سريرك ثمّ شرعت في سبّ عليّ، والله لأن يكون لي خصلة واحدة من خصال كانت لعلي أحبّ إليّ من أن يكون لي ما طلعت عليه الشمس.

إلى آخر الحديث، وفيه من قول سعد: وأيم الله لا دخلت لك داراً ما بقيت. ونهض.[٣]

لقد بدّل معاوية الخلافة الراشدة إلى ملك عضوض، وأخذ البيعة لابنه يزيد على كره من أهل الحلّ والعقد وتحت بوارق الإرهاب وأطماع أهل الشره والشهوات، وقد حجّ في سنة خمسين واعتمر في رجب سنة ٥٦، وكانت الغاية من السفرين أخذ البيعة من المهاجرين والأنصار لولده يزيد، وقد دار بينه و بين أهل الشرف والكرامة من الجيلين كلمات يقف عليها مَن قرأ التاريخ.

---

١. آل عمران:٦١.

٢. صحيح مسلم:١١٩٨، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل علي بن أبي طالب عليه السلام، الحديث ٦١١٤، دار الفكر، بيروت ـ ١٤٢٤هـ.

٣. مروج الذهب:٣/ ٢٤؛ البداية والنهاية:٨/ ٨٣ حوادث سنة ٥٥هـ.

ولا نذكر من ذلك شيئاً، لأنّه في متناول الجميع، وقد وقف على ذلك الأصم والأبكم حتى الغربيون.

قال السيد محمد رشيد رضا في المنار: قال أحد كبار علماء الألمان في الاستانة لبعض المسلمين وفيهم أحد شرفاء مكة:

إنّه ينبغي لنا أن نقيم تمثالاً من الذهب لمعاوية بن أبي سفيان في ميدان كذا من عاصمتنا(برلين)، قيل له: لماذا؟ قال: لأنّه هو الذي حوّل نظام الحكم الإسلامي عن قاعدته الديمقراطية إلى عصبية الغلب، ولولا ذلك لعم الإسلام العالم كلّه، ولكنّا نحن الألمان وسائر شعوب أوروبا، عرباً مسلمين.[1]

أليس هو الذي قتل الأبرياء من صحابة النبي ﷺ وغيرهم مثل حجر بن عدي وأصحابه وعمرو بن الحمق الخزاعي وشريك بن شداد الحضرمي وغيرهم، وقد كان أصحابه ﴿**أَشِداءُ عَلى الْكُفّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُمْ**﴾.[2]

ولم يكن لهم أي ذنب سوى أنّهم كانوا من أصحاب علي عليه السلام ومحبيه.

وفي هذا الصدد كتب الإمام الطاهر الأبيّ الضيم الحسين بن علي سيد الشهداء عليه السلام رسالة إلى معاوية، قال فيها:

«ألست قاتل حُجر وأصحابه العابدين المخبتين الذين كانوا يستفظعون البدع، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر؟! فقتلتهم ظلماً وعدواناً من بعد ما أعطيتهم المواثيق الغليظة والعهود المؤكّدة جرأةً على الله واستخفافاً بعهده.

أوَ لستَ بقاتل عمرو بن الحمق الذي أخلقت وأبلت وجهه العبادة، فقتلتَه من بعد ما أعطيته من العهود ما لو فهمته العُصم نزلت من شعف الجبال؟

---

١. تفسير المنار:١١/ ٢٦٠.

٢. الفتح:٢٩.

أو لستَ قاتل الحضرمي الذي كتب إليك فيه زياد: إنّه على دين عليّ كرّم الله وجهه. ودين عليّ هو دين ابن عمّه ﷺ الذي أجلسك مجلسك الذي أنت فيه، ولولا ذلك كان أفضل شرفك وشرف آبائك تجشّم الرحلتين: رحلة الشتاء والصيف، فوضعها الله عنكم بنا، منّةً عليكم». (١)

نعم قام غير واحد من المغفلين بتبرير أعماله بالاجتهاد حتّى أثبتوا له أجراً، معتمدين على القول المعروف: للمصيب أجران وللمخطئ أجرٌ واحد. وقد عزب عنه انّ هذا لو صحّ فإنّما هو للاجتهاد المعتمد على الكتاب والسنّة الذي هو رمز بقاء الدين وسرّ خلوده لا الاجتهاد في مقابل الأدلّة الشرعية.

فوا عجباً أيُكتب الأجر لمن سنّ سب المرتضى عليه السلام صنو النبي وأخيه الذي لم يفارقه منذ نعومة أظفاره إلى أن التحق النبي ﷺ بالرفيق الأعلى؟!

ولله درّ الشاعر المبدع الأُستاذ محمد مجذوب، القائل في قصيدته العصماء:

أين القصور أبا يزيد ولهوُها ... والصافناتُ وزهوُها والسؤددُ
أين الدهاء نحرتَ عزّته علىٰ ... أعتاب دنيا حرها لا ينفد
نازعته الدنيا ففزتَ بوِرْدها ... ثمّ انطوىٰ كالحلم ذاك المورد
هذا ضريحك لو بصرتَ ببؤسه ... لأسالَ مدمعَكَ المصيرُ الأسود
كُتلٌ من الترب المهين بِخَرْبةٍ ... سكر الذباب بها فراح يُعربد
حتّى المصلّىٰ مظلم فكأنّه ... مذ كان لم يجتز به متعبّد
ما كان ضرّكَ لو كففتَ شواظها ... وسلكتَ نهج الحق وهو معبّد
ولزمتَ ظلّ أبي تراب وهو من ... في ظلّه يُرجى السداد ويُنشَد

١. الإمامة والسياسة: ١/ ١٦٠؛ جمهرة خطب العرب: ٢/ ٢٥٥، رقم ٢٤٦.

ولعلّ في هذه الكلمات القصيرة التي هي غيض من فيض وقليل من كثير تذكرة للأُستاذ المعظم. ودمتم موفقين.

جعفر السبحاني

قم المقدسة ـ مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام

العاشر من جمادى الأُولى ١٤٢٤هـ

ولمّا وصلت هذه الرسالة إلى يد العلاّمة الدكتور عبد الوهاب إبراهيم أبو سليمان كتب إلينا الرسالة التالية يوصينا بإيقاف البحث عن الصحابة، وإليك نصّها وجوابنا عنها:

بسم الله الرحمن الرحيم

سماحة العلاّمة الشيخ جعفر السبحاني حفظه الله

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

فأسأل المولى جلّ وعلا لسماحتكم دوام الصحة والسعادة. أشكر لسماحتكم تفضّلاتكم العديدة، وهداياكم الثمينة من المؤلفات القيّمة الّتي هي أغلى من كلّ شيء عدا ما بعثتموه لي من خيرات البلد الشقيق إيران صانها الله من كلّ مكروه.

سيدي: كما يقول الشاعر (لعل له عذراً وأنت تلومه).

أمّا عن خطابكم الأوّل فقد وصلني مع ما بعثتموه لي وكنت قد عزمت

على السفر في اليوم بعد وصول خطابكم الكريم، ولمّا عدت إلى الوطن تسلّمت خطابكم الثاني، وقد ضمّنتموه طلب إرسال كتاب التحصيل، و قد بحثت عنه في مكتبات مكة المكرمة فما وجدته، وكلفت بعض الإخوة من أصحاب المكتبات للبحث عنه في مدن المملكة، وكنت دائم التردد عليه لحثّه على حضوره، وقد أحضره لي الأُسبوع الماضي، وكنت خارج مكة المكرمة لمدة أُسبوع وهاأنذا سعيد بحصول طلبتكم، هذا هو سبب تأخر إجابتي على خطابيكم الكريمين. شكر الله عنايتكم واهتمامكم.

سيدي: تأملت رسالتكم للشيخ القرضاوي، وما جاء من قضايا علمية سطرها قلمكم الرفيع.

بخصوص خبر الواحد وما شرحتم حوله فرأيكم الّذي عرضتموه هو رأي علماء أهل السنّة والجماعة بالنسبة للعقيدة والأخذ به في الفروع فقط.

أمّا موقفكم من بعض صحابة رسول الله ﷺ فالواقع أنّنا ونحن نسعى للتقريب بين المذاهب أليس الأولى والأجدر بنا أن نتمثل الآية الكريمة ﴿**تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَها مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمّا كانُوا يَعْمَلُونَ**﴾، وقد كررها المولى جلّ وعلا في موضعين متقاربين من سورة البقرة، ولا أُريد أن أذكركم وأنتم الأعلم بقوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ جاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنا اغْفِرْ لَنا وَلِإِخْوانِنا الَّذِينَ سَبَقُونا بِالإِيمانِ وَلا تَجْعَلْ في قُلُوبِنا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا**﴾ الآية.

سيدي: إنّ الكف عن التعرض لصحابة رسول الله ﷺ وغيرهم ممّن سبقونا هو أدب القرآن، وهو بداية التقريب الصحيح، ولا أريد أفيض وأسهب في هذا الأمر، فإنّ أصحاب رسول الله ﷺ كافة اختارهم المولى جلّ وعلا لرسوله ﷺ، وما هي ثمرة محاكمتهم، وقد انتقلوا إلى الدار الآخرة والله يتولى

حساب الجميع؟

وأسرتني في خطابكم الثاني عبارة (ما يجمعنا أكثر ممّا يفرقنا) هذا صحيح، وأسأل الله عزّ وجلّ أن يزيل أسباب الفرقة الّتي مزقتنا ويحقق الألفة، والحقّ لا شكّ أبلج.

سيدي: أطلت عليكم فمعذرة إليكم ولسماحتكم ومن حولكم خالص المحبة والتقدير والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

المخلص

عبد الوهاب أبو سليمان

١٢/ ٧/ ١٤٢٥هـ



سماحة الأُستاذ الفذ الدكتور

عبد الوهاب إبراهيم أبو سليمان حفظه الله

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أرجو من الله سبحانه أن يحفظكم من كلّ سوء، ويوفقكم لما يحبه ويرضاه.

وصلتني رسالتكم الكريمة المؤرخة ١٢/ ٧/ ١٤٢٥هـ وفيها عظة ونصيحة من أخٍ لأخيه الّذي لم يزل يسمع لكلامكم بشوق وقبول وينظر إلى رسائله نظر الظامئ إلى الماء والصائم إلى الهلال.

ولكنّني أستجيزكم في أن أُعرب عن عقيدة الشيعة الإمامية في صحابة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، وهي عقيدة معتدلة بين الإفراط والتفريط، وهي أنّ منزلة الصحابة كمنزلة التابعين، وقد أخذ المسلمون عقيدتهم وشريعتهم عنهم جميعاً، والتفكيك بين الطائفتين يحتاج إلى دليل.

إنّ أئمّة أهل البيت عليهم السلام كانوا باستمرار يدعون للصحابة ويترضّون عليهم، فهذا هو الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في بعض خطبه مدح أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قائلاً: «أين القوم الذين دُعوا إلى الإسلام فقبلوه، وقرأوا القرآن فأحكموه، وهيجُوا إلى القتال فولهوا ولَهَ اللقاح إلى أولادها، وسلبوا السيوف أغمادها، وأخذوا بأطراف الأرض زحفاً زحفاً، وصفاً صفاً، بعضٌ هلك، وبعض نجا، لا يُبشَّرون بالأحياء، ولا يُعَزَّوْنَ بالموتى، مُرْهُ العيون من البكاء، خُمصُ البطون من الصيام، ذُبَّل الشفاه

من الدعاء، صُفرُ الألوان من السَّهَر، على وجوههم غبرة الخاشعين، أُولئك إخواني الذاهبون، فحقَّ لنا أن نظمأ إليهم، ونعضَّ الأيدي على فراقهم».[١]

وهذا هو الإمام علي بن الحسين عليه السلام المعروف بالإمام السجاد، يخص أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في بعض أدعيته في الصحيفة السجادية ويقول: «اللّهم وأصحاب محمد خاصة الذين أحسنوا الصحبة، والذين أبلوا البلاء الحسن في نصره، وكاتفوه وأسرعوا إلى وفادته، وسابقوا إلى دعوته، واستجابوا له... إلى آخر دعائه».[٢]

هؤلاء أئمتنا وأئمّة المسلمين وهم القدوة والأُسوة، وقد اقتفينا أثرهم في التقريب والتأليف بين الأُمّة بتأليف كتاب باسم «موسوعة طبقات الفقهاء» في ١٦ جزءاً ذكرنا فيه من يؤخذ عنهم الفتيا من الصحابة والتابعين.

ثمّ ذكرنا فقهاء الطوائف الإسلامية المختلفة، وذكرنا تراجمهم ومؤلّفاتهم ومكانتهم العلمية من دون نظر إلى طائفة دون أُخرى، فتجد فيهم الحنفي والشافعي والمالكي والحنبلي في جنب الزيدي والإسماعيلي والإمامي.

هذا يا شيخنا الجليل حفظك الله ورعاك، فنحن من دعاة التقريب لا التفريق وكتبنا الفقهية تشهد على ذلك، فنحن نذكر فيها آراء الفقهاء المسلمين، ونقدّر جهود كلّ مسلم يسعى لملء الفراغ وتقريب الخطى، وهتافنا كلّ يوم:

«قاربوا الخطى أيّها المسلمون».

ومع ذلك كلّه فليس لنا ترك دراسة حياة الصحابة على ضوء القرآن والسنّة والتاريخ الصحيح اقتداءً بالذكر الحكيم والسنّة النبوية وسيرة المسلمين، فدراسة

---

١. نهج البلاغة، الخطبة ١٧.

٢. الصحيفة السجادية، الدعاء رقم ٤.

حياة رجال المسلمين شيء وبخس حقوقهم والإساءة إليهم شيء آخر.

إنّ إيقاف البحث والدراسة حول الصحابة يستلزم تعطيل قسم من الآيات النازلة في حقّهم، كما يستلزم تعطيل بعض السنّة النبوية الّتي تهتم بشؤونهم وحياتهم.

كما أنّ ذلك يستلزم إغلاق صحائف التاريخ، مضافاً إلى أنّها على خلاف السيرة الرائجة بين المسلمين.

وأمّا ما ذكرتم في رسالتكم الكريمة الغالية أنّ:«الأولى بنا أن نتمثّل الآية الكريمة: ﴿**تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمّا كانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ وقد كررها المولى جلّ وعلا في موضعين متقاربين من سورة البقرة...». إلى آخر ما تفضلتم به شكر الله مساعيكم.

أقول: لا شكّ أنّ هذه الآية قد وردت في الذكر الحكيم ـ كما ذكرتم في موضعين متقاربين ـ ولكن لا صلة لها بما تبنّيتم، فإنّ الآية بصدد نقد ما يقع في أذهان بني إسرائيل من أنّهم ينتفعون بما لسلفهم من المكانة ويسعدون يوم القيامة بمجرد الانتساب إليهم، فبيّن الله سبحانه في هذه الآية أنّ سنّته في عباده أنّ الإنسان لا يجزىٰ إلاّ بكسبه وعمله ولا يسأل إلاّ عن كسبه وعمله.

وقد جاء هذا المضمون في سورة النجم قال سبحانه: ﴿**أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا في صُحُفِ مُوسىٰ * وَإِبْراهيمَ الّذي وَفّىٰ * أَلاّ تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرىٰ * وَأَنْ لَيْسَ لِلإنْسانِ إلاّ ما سَعَىٰ**﴾.[1]

فالآية في كلا المقامين ناظرة إلى بني إسرائيل، وغاية ما يمكن هو إلغاء الخصوصية وشمولها بمناطها للأُمّة الإسلامية، ونحن معترفون بأنّ كلّ إنسان

---

١. النجم:٣٦ـ٣٩.

مسؤول عن عملـه ولا يُسأل عن أعمال الآخرين يوم القيـامة، يوم يضع سبحـانه الموازين القسط، فمن ثقلت موازينـه فأُولئك هم المفلحون ومن خفّت مـوازينه فأُولئك هم الخاسرون.

وأمّا دراسة أحوال الأُمم السالفة من الصحابة إلى التابعين وتابعي التابعين إلى يومنا هـذا على ضوء الذكر الحكيم والسنّة النبـوية والتاريخ الصحيح، فليس هـذا ممّا تمنع عنـه الآيـة الكريمـة، إذ ليس معنى الدراسـة انّـا نتحمل مسؤوليـة أعمالهم، بل بمعنى تقـديـرهم وتكـريمهم وإعطـاء كلّ ذي حقّ حقّـه، والنـاس معادن كمعادن الذهب والفضة.

فلو كان معنـى قوله: ﴿لا تُسألون عَمّا كـانُوا يَعْمَلُون﴾ هو تـرك التعرض لأحوال السلف وحياتهم ، لـزم إخراج المعاجم الرجالية والتـاريخية من المكتبات، لأنّ الجميع يهتم بشـؤون السلف مبتـدئاً مـن الصحـابـة إلى التـابعين ثمّ تـابعي التابعين إلى يومنا هذا.

ولا أظن أنّ قائلاً يخصّ قوله: ﴿لا تُسألون عَمّا كانُوا يَعْمَلُون﴾ بخصوص الطبقة الأُولى ـ أعني الصحابة ـ دون التابعين ومن جاء بعدهم.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

جعفر السبحاني

قم ـ مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام

٣

رسالة إلى رئاسة شؤون الحرمين الشريفين

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سماحة العالم الجليل الشيخ صالح بن عبد الرحمن المحترم ـ دامت معاليه ـ

رئاسة شؤون الحرمين الشريفين

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أرجو من الله سبحانه أن يوفّقكم لما فيه مرضاته، ويسدّد خطاكم، على طريق تحقيق الوحدة الإسلامية إنّه على ذلك قدير.

تقديراً لأخلاقكم السامية وعزيمتكم الصادقة في تقريب الخطىٰ بين المسلمين أُهدي إليكم الجزء الأوّل من كتاب الحجّ وهو جزء من محاضراتي في الفقه المقارن في الحوزة العلمية، والنظرة الثاقبة في المسائل المعنونة تكشف عن أنّ المشتركات بين الفريقين أكثر من غيرها، وما أصدق قول القائل: «ما يجمعنا أكثر ممّا يفرقنا».

أرجو من الله سبحانه لفضيلتكم الصحّة والعافية والسعي وراء الصالح العام للمسلمين.

ودمتم سالمين للإسلام وأهله

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

جعفر السبحاني

قم المقدسة ـ مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام

الحادي عشر من جمادى الآخرة ١٤٢٥ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

سماحة العلاّمة النحرير الفقيه المحقق الشيخ جعفر السبحاني دام علاه

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

وأدعو الله أن يديم عليكم نعمة الصحة والعافية، وقد تلقيت رسالتكم اللطيفة بتاريخ ١١ جمادى الثانية ١٤٢٥هـ ومعها هديتكم القيمة «الحجّ في الشريعة الإسلامية الغرّاء» و لا شكّ كما تفضلتم بأنّ عبادة الحجّ تتميز بكثرة مسائلها وتشعب فروعها وأكثر مسائلها غير مأنوس ولا متكرر، كما لا أشك انّ هذا الكتاب القيم وإن لم تتح لي قراءته بعد، فإنّه ينطبق عليه الوصف (وافر المقاصد جم المطالب) كيف لا وهو تحرير عالم واسع الاطّلاع عميق التفكير صبور على مكابدة البحث، حريص على ما يجمع ولا يفرق.

وكما دعا السيد المحقّق البروجردي فإنّي أدعو الله أن يؤلف بين قلوب المسلمين ويجعلهم يداً على من سواهم ويوجههم إلى أن يعملوا بقوله تعالى: ﴿**وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُوا**﴾ وأن يجزيكم على ما قدمتم عظيم الأجر و الثواب.

أكرر شكري لكم وتقبلوا لائق التحية والسلام من أخيكم.

صالح بن عبد الرحمن الحصين

في ٦/ ٧/ ١٤٢٥هـ

٤

رسالة أرسلناها إلى أحد الأشراف في الحجاز



الفاضل الفقيه صاحب الموسوعة الفقهية حفظه الله

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أرجو من الله سبحانه الصحة والعافية لكم ولمن حولكم من الأعزاء.

أخبرني الصديق العزيز الأُستاذ «رضواني» حفظه الله أنّ جنابكم بصدد تأليف كتاب حول المذاهب الإسلامية، مضيفاً إلى المذاهب الأربعة المذهب الإمامي والمذهب الزيدي.

فسررت بسماع ذلك فكيف بمشاهدته إن شاء الله تعالى، وهو خطوة كبيرة على طريق التقريب بين المذاهب الإسلامية.

إنّ الفقه الإسلامي ثروة كبيرة تركها فقهاء الإسلام جيلاً بعد جيل حتّى وصل إلى القمّة من الكمال وهو بحمد الله مستعد لحلّ الأزمات القانونية الّتي يعاني منها الغرب والشرق.

وقد أرسلنا إليكم عن طريق الصديق كتاب «الإنصاف في مسائل دام فيها

الخلاف» في أجـزائه الثلاثـة، والّذي يتنـاول المسـائل الفقهية الّتي اختلف فيهـا الفريقان تماماً وطرحنا هناك أدلة المذهب الإمـامي فليكن هذا مساهمة صغيرة في مشروعكم السامي.

والّـذي اقترحـه عليكم هـو أن تتخذوا مسـاعـداً في تـدوين هـذا المشروع خصوصاً بما يتعلق بالمذهب الإمامي والـزيدي ليركزوا على الرأي السائد بينهم لا على كتاب خاص، وهذا أمر تخصصي لا يقـوم به إلاّ الأمثل فالأمثل في حق الفقه الإمامي.

وختاماً أسألكم الـدعاء في مواقع إجابته خـاصة في الحرم النبوي الشريف سلام الله على صاحبه سلاماً لا نهاية له ولا أمد.

والسلام عليكم ورحمة الله بركاته

جعفر السبحاني

مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام

قم ـ ايران

١٨ ذي القعدة الحرام عام ١٤٢٥هـ

رسالة الأخ الفاضل الفقيه صاحب الموسوعة الفقهية ـ حفظه الله ـ



سماحة آية الله الشيخ جعفر السبحاني دام ظله

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

من جوار قبر المصطفى وأهل بيته الأطهار أئمة الهدى في بقيع الغرقد عليهم الصلاة والسلام. وتلك الروضة الشريفة والقبة الخضراء، وذكريات الرعيل الأوّل من بيت النبوة حيث بيت النبي الأعظمﷺ ودار الزهراء وزوجة الإمام المرتضى ابن عم المصطفى ومحلة الهاشميين وانطلاق الدعوة وهم منبع الرسالة ومعدن الحكمة، الشجرة اليانعة الّتي أحكمت عروقها، فصلى الله على محمّد وآل محمد وعجّل فرجهم.

بهذه العبارات بدأت هذه الرسالة وتلك المعاني الّتي يجهلها كثير من المسلمين ولا يعرفون حقيقة الأمر، فأسأل الله الكريم ربّ العرش العظيم أن يرزقنا وإيّاكم محبة نبيه وأهل بيته الخالصة إلى يوم الدين.

لقد سعدت كثيراً برسالتكم الّتي سلّمني إياها الأُستاذ رضواني ـ حفظه الله ـ وتمعنت بها وقد كانت دافعاً وتشجيعاً كبيراً للاستمرار في العمل على إخراج

موسوعتي الفقهية على المذاهب المشتهـرة، وأقول: ولو انّنا لم نلتقي من قبل لكنني أعرفك جيـداً ولي بك صلة وثيقة ممّـا تعلمته من مؤلفاتك النـافعة وموسـوعاتك الـدينية الّتي وصلت إلى أيـدينـا وعرفتنـا كثير من الحقـائق، ومنها أحببنـا الشيخ السبحاني ذلك العـلامة الّـذي أغنى المكتبة الإسـلامية با لمؤلفـات النافعـة، وهو إضافة إلى ذلك يعد في مقدمة علماء العصر.

سماحة الشيخ أود أن أوضح لكم انّ عملي في الموسـوعة يعتمـد على أُصول الكتب، وهو بصفة مبسطة إلى جميع طبقـات المجتمع، فقد اعتمدت على أُمّهات الكتب لأُصول المذاهـب، وقد أضفت أخيراً إلى المذاهب الستة المذهـب السابع الإسماعيلي لتقـاربـه في كثير من الأحكـام والعبـادات والمعـامـلات مع المذاهب الستة، وإنّني على عجل أكتب لكم هـذه الرسالة وسـوف أثقل عليكم قليلاً بأنّي حـال انتهــائي من الكتـاب ســوف أرسلـه لكم لأتشرف بمــراجعتكم ووضع الملاحظات ان وجدت.

على كلّ حال أُؤكد لكم مدى سعـادتي بالتخاطب معكم وأتمنى أن يكتب الله لكم الزيارة للمـدينة المنورة في موسم العمـرة لنتشرف بخدمتكم سائلاً المولى أن يحفظكم من كلّ ســوء، وأوصيكم ان لا تنســوني من الــدعـاء في الخلــوات والجلوات وصلّى الله على محمد وآل محمد.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

١٨/ ١٢/ ١٤٢٥هـ

يوم الغدير وعيد الولاية

٥

رسالة تأبينية بوفاة السيد محمد بن علوي المالكي

بسم الله الرحمن الرحيم

سماحة العالم الجليل الدكتور عبد الوهاب إبراهيم أبو سليمان حفظه الله

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

وبعد أرجو من الله سبحانه أن تكونوا في سرور وحبور وصحّة وعافية وعزّ وكرامة.

أدام الله ظلكم وحفظكم من كلّ سوء ومكروه.

استلمنا بكلّ تكريم وتبجيل تهنئتكم الخالصة بحلول عيد الفطر السعيد الذي جعله الله سبحانه عيداً للمسلمين كافة.

وفي الوقت الذي نعرب عن شكرنا وسرورنا بذلك، نهنّئكم بهذه المناسبة المباركة، وندعو الله تبارك وتعالى العزة للمسلمين والأمن والسلام لبلدانهم، ورفع راية الإسلام خفاقة.

ونقدم أحر تحياتنا وأخلص تبريكاتنا لمن حولكم من الأعزاء الكرام وننتهز هذه الفرصة بتقديم التعازي بمناسبة رحيل العلامة السيد محمد بن علوي المالكي ذلك الرجل الصامد بوجه الباطل الذي لم تأخذه في الله لومة لائم.

وكنا قد أرسلنا رسالة مواساة إلى بيته الرفيع وإليكم نصها:

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى أُسرة العلم والشرف بيت السيد محمد بن علوي المالكي

دام عامراً بالعلم والتقى

ببالغ من الحزن والأسىٰ تلقينا نبأ وفاة العالم الجليل الدكتور السيد محمد بن علوي المالكي رحمه الله وحشره مع أجداده الطاهرين.

لقد كان المغفور له مثالاً للصلاح وأُنموذجاً للخلق السامي، وقد عشنا معه فترة قصيرة في أحد المؤتمرات القرآنية عام ١٤٠٠ هـ في مكة المكرمة فوجدناه إنساناً مثالياً يتمتع بسعة الصدر، وتعرّفنا عليه من خلال آثاره الخالدة وبطولاته العلمية، ووقوفه أمام الأفكار الزائفة.

نقدم أحرّ التعازي إلى أُسرة الفقيد، وعلى رأسها أخوه الأُستاذ الفاضل السيد عباس بن علوي المالكي المحترم راجين من الله سبحانه أن يرزق الجميع الصبر الجميل والأجر الجزيل.

كما ندعوه سبحانه أن يلم شعث المسلمين، ويوحّد كلمتهم، ويدفع عنهم شر الأعداء بمنه وكرمه.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

جعفر السبحاني

مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام

قم ـ ايران

١٩ رمضان المبارك ١٤٢٥ هـ

وقد بعثنا هذه الرسالة عن طريق السفارة، ونتمنى أن تكون قد وصلت إلى بيته الرفيع.

ونحن إذ نستشعر الخسارة الفادحة على المملكة والأُمة الإسلامية، فإنّنا نؤكّد ايمانَنا وتسليمنا بقضاء الله وقدره، كما نؤكّد على حاجة الأُمّة الإسلامية لاستمرار نهج الفقيد الراحل في الانفتاح على الطوائف والاهتمام بوحدة الأُمّة الإسلامية تغمده الله بواسع رحمته ومغفرته.

وختاماً نتقدم لكم بالشكر و الامتنان.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

مخلصكم

جعفر السبحاني

٤ شوال ١٤٢٥هـ

٦

تقدير وتقويم للجزء الأوّل من موسوعة الفقه الإسلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

الإخوان الأعزاء في دائرة معارف الفقه الإسلامي

طبقاً لمذهب أهل البيت عليهم السلام

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

استلمنا بيد التكريم والتبجيل قبل يومين الجزء الأوّل من موسوعة الفقه الإسلامي، بواسطة أحد الإخوة.

نشكر الله سبحانه الّذي قيّض جماعة من ذوي الهمم العالية لإخراج هذه الموسوعة إلى المكتبة الإسلامية.

كما وفقهم من ذي قبل لإخراج معجم كتاب الجواهر وأخيراً تعجيم الكتب الفقهية للشيخ الطوسي... هذه الموسوعات الكبيرة الّتي سيكتب لها الخلود والبقاء عبر القرون إن شاء الله تعالى.

وندعو الله سبحانه تبارك وتعالى أن يديم توفيقه للقائمين بهذا العبء الثقيل حتى تتم الموسوعة، بخروج الجزء الأخير منها.

وهذا لا يمنع من أن نشير إلى بعض الملاحظات الجزئية الّتي لا تنقص من قيمة الكتاب:

الأُولى: استدل (في صفحة ٢٢) على أنّ الكتاب والسنة يفيان بكلّ ما يحتاجه الإنسان في حياته بقوله سبحانه: **﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ**

شَيْءٍ﴾(الأنعام:٣٨).

والظاهر أنّ (الكتاب) الوارد في الآية هو الكتاب التكويني لا التشريعي، ويدلّ على ذلك قوله سبحانه في نفس الآية: ﴿وَمَا مِنْ دابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طائِرٍ يَطيرُ بِجَنَاحَيْهِ إلاّ أُمَمٌ أَمْثالُكُمْ مَا فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شيْءٍ ثُمَّ إلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾.

فالبحث عن الدابة والطير ووصفهم بأنّها أُمم، قرينة واضحة على أنّ المراد من الكتاب هو الكتاب التكويني.

الثانية: جاء لفظ «لاسيما » في المقدمة في غير واحد من المواضع مجرداً عن لفظ «لا» مع أنّ الفصيح هو «لا سيما» و لا تستعمل «سيما» منفردة إلاّ في كتب المتأخرين غير العرب كثيراً....

الثالثة: ذكرتم (في صفحة ٤٩) أنّه مرّ فقه أهل البيتعليهم السلام على أيدي فقهاء هذه المدرسة في عصره الثاني بمراحل عديدة من الانطلاق و التطور والكمال يمكن بيانها ضمن الأدوار التالية:

١. دور التأسيس...وقلتم من أهمّ فقهاء هذه المرحلة محمد بن يعقوب الكليني(المتوفّى ٣٢٩هـ).

ولكن الظاهر أنّ مبدأ هذا النوع من التأليف يرجع إلى عصر الإمام الهادي والعسكريعليهما السلام، وفي طليعة هؤلاء الفضل بن شاذان (المتوفّى ٢٦٠هـ) صاحب كتاب الايضاح(وهو مطبوع)، فبمراجعته يعلم مدى نضوج الفقه الإمامي في عصره.

وعلى ذلك فمن تخرج على يده أقدم من الكليني والصدوقين ولا نناقش في سائر الأدوار، إلاّ ما سمّيتم الدور الرابع دور التطرف، فهذا التعبير القاسي لا يناسب ما بذله فقهاء هذا العصر في تطوير الفقه وتنقيحه من حيث الدلالة

والمسانيد... على أنّ فقهاء هذا الدور غير منحصرين بالأردبيلي وتلميذيه، فإنّ المحقّق الثاني (المتوفّى ٩٤٠هـ) والشهيد الثاني (المتوفّى ٩٦٥هـ) وغيرهما ممن تخرج على يديهما من فقهاء هذا الدور.

إلاّ أن يكون المقصود تخصيص هذا الدور بأشخاص ثلاثة هم الأردبيلي وتلميذيه، فتكون تسميته دوراً للفقه الإمامي غير صحيحة.

وهناك اقتراح آخر وهو الرجوع إلى الأدوار الستة الّتي قمنا ببيانها في القسم الأوّل من مقدّمتنا لموسوعة طبقات الفقهاء وهو بعنوان أدوار الفقه الإسلامي.

وكان المترقب من الأعزاء الإشارة إليها.

الرابعة: اقترح على الأعزاء تخصيص الموسوعة للعناوين الفقهية وترك البحث عن المسائل الكلامية أو الأُصولية باسم الملحق الأُصولي.

فإنّ استيعاب هذه المسائل يحتاج إلى تخصّصات مختلفة وإلى أوقات طويلة ربّما تعوق عن إكمال الكتاب.

فالبحث عن الإمام والأئمّة أو عن أهل البيت عليهم السلام أو سائر المسائل الأُصولية الّتي تمرّون عليها يترك لموسوعات أُخرى وآونة أُخرى عسى أن يكون ذلك سبباً لسرعة العمل وإنجازه في وقت مناسب، خصوصاً أنّ الأزمات في حياتنا كثيرة كما تعلمون.

وفي الختام أتقدم بالتحية إلى كافة الأعزاء.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

جعفر السبحاني

مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام

قم ـ ايران

٢١ ذي القعدة الحرام عام ١٤٢٥هـ

٧
تفسير قوله سبحانه: ﴿في بيوت﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

سماحة العلاّمة الحجة ...... دام ظلّه الوارف

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أرجو من الله سبحانه أن يديم عليكم ثوب الصحّة والعافية، ويوفّقكم فيما قمتم بـه من مشروع المدرسة الفقهيـة الّتي نتمنّى أن يتربّى فيهـا جيل كبير يحمل راية الاجتهاد الصحيح في المستقبل إن شاء الله.

أبلغني أحد السادة دام علاه بأنّ سماحتكم أشكلتم على استـدلالنا بالآية المباركة: **﴿وَلَوْلاَ أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً لَجَعَلْنا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ وَمَعارِجَ عَلَيْها يَظْهَرُونَ* وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْواباً...﴾**.[1]

على أنّ البيت لا ينفك عن السقـف، وتفضّلتم حسب مـا حكــاه السيـد العزيز بأمرين:

١. انّه لو أمر الآمر بإنشاء دار فيه سرداب، فهو لا يدلّ على أنّ كلّ بيت فيه سرداب.

---

١. الزخرف: ٣٣ـ ٣٤.

٢. قوله سبحانه: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّـذِي بِبَكَّةَ مُبَـارَكاً﴾[١] ولم يكن له سقف... .

نعود إلى بيانكم السامي بالتعليق التالي:

البيت كما نص عليه اللغويون، ومنهم ابن فارس في «معجم مقاييس اللغة» هو المأوى والمآب ومجمع الشمل، ومن المعلوم أنّ المأوى ومجمع العائلة لا يخلو عن سقف، فإنّ الجدران الأربعة بلا سقف لا تصون الإنسان عن الحر والبرد، والغاية من الحلول في البيت هو الاستراحة وتجنّب الحر والبرد.

وقال ابن منظور في «اللسان»: الخباء بيت صغير من صوف أو شعر، فإذا كان أكبر من الخباء فهو بيت، ثمّ مِظَلَّـة إذا كبرت عن البيت، وبيت الرجل داره وبيته قصره.[٢]

فالخباء، لا ينفك عمّا يُظلل، فإذا كبر مع هذا الوصف يكون بيتاً، فإذا كبر يسمّى مظلّة.

هذا حسب اللغة.

وأمّا كيفية الاستدلال بالآية المباركة على أنّ البيت لم يكن ينفك عن السقف يوم ذاك فهي متوقفة على إيضاح مفاد الآية السابقة، وهو كالتالي:

«لولا أن يجتمع الناس على الكفر حينما يروا تنعّم الكافرين وحرمان المؤمنين، لجعلنا لبيوتهم سقفاً من فضة، ودرجات يصعدون عليها إذا أرادوا الظهور عليها وجعلنا لبيوتهم أبواباً من فضة».

ولكنّه سبحانه لم يفعل ذلك لئلا يجتمع الناس على الكفر، بمشاهدة انّ

---

١. آل عمران:٩٦.

٢. لسان العرب:٢/ ١٤.

الكفّار يتمتعون بزخارف الدنيا. والإمعان في الآيـة وما بعدها يثبت أنّ بيوت عامّة الناس ومنهم من يكفر بالرحمن كانت تشتمل على :

ـ السقف.

ـ و الباب.

وكـان مـادتها غير الفضـة. فلولا مخافـة اجتماع النـاس على الكفـر لجعل سبحانه سقف بيوتهم وأبوابها من الفضة.

فلو دلّت الآيـة على شيء فإنّما تدلّ على أنّ السقف والباب يلازمـان الدار يـوم ذاك، ولم يكن هناك دار بـلا سقف ولا باب. فيكـون ذلك قرينـة على تفسير قوله سبحانه: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُـرْفَعَ﴾[1]، على أنّ المراد بـالبيوت، هـو غير المساجد، إذ لا يشترط فيها السقف، بخلاف البيت فإنّه يلازم السقف.

وأمّا مـا تفضّلتم به حسب مـا سمعناه من السيـد الجليل من أنّ البيت في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنّاسِ﴾ كان فاقداً للسقـف، فهو غير ظاهر من الآية إذ لا تدلّ على أنّه كان فاقداً للسقف عند البناء.

إلاّ إذا كان في تاريخ بناء البيت تصريح بذلك، فيكون إطلاق البيت عليه من باب مجاز المشارفة.

على أنّ في الروايات أحكاماً لسطح الكعبة.

فقد عقـد الشيخ الحرّ العـاملي باباً في الـوسائل أسماه «حكـم الصلاة على ظهـر الكعبـة» وجاء في إحـدى روايتيـه عن الصـادق عن آبـائه عليهم السلام في حـديث المناهي: نهى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن الصلاة على ظهر الكعبة.

وفي روايـة أُخرى عـن الرضـا عليه السلام في الـذي تـدركه الصـلاة وهـو فـوق

---

١. النور:٣٦.

الكعبة....[١]

هذا ما قـدّمته لسماحتكم عسى أن تُبدوا رأيكم السامي حـوله، مدّ الله في عمركم، وعمّر بكم مدارس الفقه والفقاهة، وحفظكم من كلّ سوء.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

جعفر السبحاني

قم ـ مؤسسة الإمام الصادق

الخميس ٢٤ ذي القعدة الحرام، عام ١٤٢٥هـ

---

١. الوسائل: ٤/ ٣٤٠، الباب ١٩ من أبواب القبلة.

٨

صورة تقريظ لكتاب أُصولي

بسم الله الرحمن الرحيم

التقريظ لغة هو الإطراء والمدح، وهو أمر جميل، يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «ولا يكونّن المحسنُ والمسيءُ عندك بمنزلة سواء، فإنّ في ذلك تزهيداً لأهل الإحسان في الإحسان وتدريباً لأهل الإساءة على الإساءة».[١]

ومع ذلك فالإطراء المطلق مع الغض عن الجوانب السلبية بخس لحقوق الممدوح، فالتقريظ عند المحقّقين هو التحسين والإطراء مقروناً بالنقد البنّاء.

وعلى ضوء ذلك فالكتاب الّذي بين يدي القارئ، جهد مبارك يدور حول مفهوم الحكم في محاور ثلاثة:

١. تعريف الحكم الشرعي.

٢. مبادئ الحكم الشرعي.

٣. أقسام الحكم الشرعي.

وقد بذل المؤلف ـ حفظه الله ـ جهداً كبيراً في الرجوع إلى المصادر المتوفرة في

---

١. نهج البلاغة، عهد الإمام إلى مالك الأشتر.

إيضاح هذه المحاور بأفضل وجه؛ فصارت نتيجة هذا الجهد هذه الرسالة المتميزة بحسن التبويب ورصانة البيان، مرفقة بذكر المصادر الكثيرة.

ونحن نبارك للمؤلف هذه الخطوة ونـرجو أن يُتبعها بخطوات أُخرى حول سائر المسائل الأُصولية.

ولكن ذلك لا يصدّنا عن إبداء بعض الملاحظات حول ما ورد في الكتاب:

١. انّ مؤلفنا المكـرّم فسر الحكم في أوّل الرسالة بالعلم والتفقّـه ناقلاً ذلك عن المعجم الوسيط، ولكن الحقّ أنّ الحكم بمعنى المنع والفصل والقضـاء، يقول حسّان:

فنحكُم بالقوافي مَن هجانا ... ونضربُ حين تختلط الدماء

أي نمنع بالقوافي من هجانا.

وقال آخر:

أبني حنيفة حكِّموا سفهاءكم ... أنّي أخـاف عليكم أن أُغضبـا

أي؛ امنعوا سفهاءكم.

ولـو صحّ إطلاقـه على العلم والتفقّـه فإنّما هـو بضرب من المجاز، كما هـو الحال في إطلاق الحكمة على الفلسفة، والحكيم على العاقل المتّزن.

٢. إنّ المؤلف ـ حفظه الله ـ قسم الحكم إلى واقعي وظاهري ولم يذكر بعض الأقسام الأُخرى، مثل:

الحكم الـولائي، الحكم القضائي، فإنّهما من أقسـام الحكم وكان عليـه أن يذكرهما.

٣. ذكر أنّ القرآن ظنّي الـدلالة وفاقاً لأكثـر الأُصوليين أو جميعهم، ولكنّه أمـر غير صحيح، بل القـرآن قطعي الدلالـة بـالنسبـة للمراد الاستعمالي كسـائر

الظواهـر وقد شرحنا ذلك في محاضراتنـا الأُصوليـة، والقائلون بكـون القرآن ظني الدلالة غفلوا عن بعض مضاعفات ذلك القـول، وهو استلزامه كون القرآن ظني الإعجاز لا قطعيّه.

٤. قسّم الإجماع إلى بسيط ومـركّب ومحصّل ومنقول وهـذا تقسيم صحيح، ثمّ ذكر من أقسـامه الإجماع التشرفي أو اللطفي أو الـدخولي، ولكن هـذه الأقسام الثلاثة ليست في عرض التقسيم الأوّل، فإنّ التشرف أو اللطف أو الدخول ـ حتّى الحدس بموافقة الإمامعليه السلام ـ من دلائل حجّية الإجماع لا من أقسامه.

وهذه الملاحظات البسيطة لا تقلل من قيمة الكتاب، وإنّما ذكرناها تحقيقاً للتقريظ الّذي هو عندنا بمعنى النقد البنّاء.

جعفر السبحاني

قم ـ مؤسسة الإمام الصادقعليه السلام

السابع عشر من محرم الحرام من عام ١٤٢٥هـ

٩

ملاحظات حول كتاب جمهرة القواعد الفقهية في المعاملات المالية

وجواب الدكتور أبو سليمان عليها



فضيلة الشيخ العلّامة الفقيه عبد الوهاب

إبراهيم أبو سليمان دامت معاليه وتواترت بيض أياديه

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أمّا بعد:

فقد وصلت رسالتكم الميمونة (والمؤرخة ٧/ ١٢/ ١٤٢٤هـ)، معربة عن طيب أعراقكم وشريف أخلاقكم، فسررت بها كثيراً.

وصلت رسالتكم وفيها نَشْرُكم ... متضوِّعاً يحكي أريج الزَّنبقِ

كما وصلتنا هديتكم الثمينة المسماة بـ«جمهرة القواعد الفقهية في المعاملات المالية» تأليف تلميذكم النابه الدكتور علي أحمد الندوي، ولعلّه من أقارب الشيخ أبو الحسن الندوي الحسني مؤلف كتاب «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين»، فلو صحّ ظني فهو:

من بيت علم شُيّدت أركانه ... بمعالم موروثة من أحمد

وعلى كلّ تقدير فقد بذل المؤلف تحت رعايتكم جهوداً كبيرة في تأليف هذه الموسوعة وجمع شوارد القواعد من شتى الأبواب فيها، فنحن نبارك له ولأُستاذه المشرِف هذه الخطوة الفقهية القيّمة، فمرحباً بهمته القعساء وعزيمته الّتي لا تثنى، ولولاهما لما خرجت هذه الموسوعة بهذا الشكل القشيب إلى عالم الوجود.

ولكنّ ثناءنا العاطر للمؤلّف والمؤلَّف لا يمنعنا من تسجيل بعض الملاحظات الّتي لا تنقص من قيمة الكتاب شيئاً، وهي كما يلي:

الملاحظة الأُولى

كان على المؤلّف تعريف القواعد الفقهية وإيضاح الفرق بينها وبين المسائل الأُصولية، ثمّ الفرق بينها و بين المسائل الفقهية، فهناك أُمور ثلاثة يجب أن تحدد وتميز:

١. المسائل الأُصولية.

٢. القواعد الفقهية.

٣. المسائل الفقهية.

ففيما أتى في فهرس الجمهرة الّتي تناهز عددها ٢٥٠٣ خلط بين هذه الأُمور الثلاثة والمؤلف بصدد بيان القواعد الفقهية فقط، لا المسائل الأُصولية والفقهية. وقد عطف الأخيرتين على الأُولى فجاء بالجميع في موسوعته المباركة.

الملاحظة الثانية

انّه ذكر من القواعد الفقهية ــ الّتي وردت نصوصها في كلام النبي

الأكرم ﷺ ـ شيئاً يسيراً مع أنّـه لو كان قد راجع مـا ورد عن النبي الأكرم ﷺ عن طريق أئمّة أهل البيت عليهم السلام لوقف على كثيرٍ من النصوص الّتي تشتمل على قواعد فقهية أُخرى، ونشير هنا إلى نماذج من ذلك:

١. حرمة مال المؤمن كحرمة دمه.

٢. كلّ ما كان في أصل الخلقة فزاد أو نقص فهو عيب.

٣. لا بيع إلاّ في ما تملك.

٤. البيّعان بالخيار حتّى يفترقا.

٥. ليس على المؤتمن ضمان.

٦. الصلح جائز بين المسلمين إلاّ صلحاً حرم حلالاً أو أحل حراماً.

٧. رفع القلم عن ثلاثة: عن الصبي حتّى يبلغ، وعن النائم حتّى يستيقظ، وعن المعتوه حتّى يبرأ.

٨. حلال محمّد ﷺ حلال أبداً إلى يوم القيامة، وحرامه حرام إلى يوم القيامة.

٩. كلّ شيء فيه حلال وحرام فهو لك حلال أبداً حتّى تعرف الحرام منه بعينه فتدعه.

١٠. كلّ مجهول ففيه القرعة.

١١. الوقوف تكون على حسب ما يوقفها أهلها.

١٢. لا يكون الربا إلاّ فيما يكال أو يوزن.

١٣. رفع عن أُمّتي تسعة: الخطأ والنسيان، وما أُكرهوا عليه، وما لا يُطيقون، وما لا يعلمون، وما اضطروا إليه، والحسد، والطيرة، والتفكر في الوسوسة في الخلق ما لم ينطق بشفة.

١٤ . ليس شيئاً ممّا حرم الله إلاّ أحله لمن اضطرّ إليه.

١٥ . كلّ أجير يعطى الأجر على أن يصلح فيفسد وهو ضامن.

هذه نماذج من النصوص النبويـة الّتي رواها أئمّة أهل البيت كعلي وأبنائه الطاهرين عليهم السلام وهي مذكورة في الجوامع الحديثية عندنا بأسانيدها.

وكـان على المؤلف الّـذي هـو غصن من الـدوحـة الحسنيـة ــ حسب مـا استظهرناه ـ، أن يرجع إلى ما رواه أجداده عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم من النصوص الّتي تتعلق با لمعاملات المالية تعلّقاً قريباً أو غير قريب.

وفي قاموس الخلقـة أن يرث الأبناء ما ورثه الآباء، وحقيق لـه ـ لا لمثلي ـ أن يترنم بقول الفرزدق:

أولئك آبـائي فجئني بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير المجامـعُ

أو بقول البحتري:

شرف تتـابع كـابراً عـن كابـرٍ كالـرمح أُنبـوباً علىٰ أُنبـوب

الملاحظة الثالثة

لقد طرح الـولد البارّ قاعـدة «الخراج بالضمان»، وحاصل القـاعدة كما هو المعروف: انّ منافع العين المضمونة هي للضامن فالخراج في مقابل الضمان.

وهل هذه القاعدة تعمّ كلّ ضمان سواء أكان بسبب مشروع كالبيع، أم غير مشروع كالغصب والسرقة؟ أو تختص بالأسبـاب الصحيحة فقط مثلاً: لو غصب رجل دابـة شخص فـانتفع بها مدّة شهـر فهل يمكن أن يقـال أنّ منـافع الدابـة للغـاصب؟ فلـو قلنـا بـذلـك فهـذا يعني إعطـاء الضـوء الأخضر للغـاصبين والسارقين، ليستثمروا أموال الناس في مقابل ضمانهم لقيمة الأعيان.

وبمثل هذه الفتيا تمنع السماء ماءها والأرض بقلها؟

الملاحظة الرابعة

إنّ المؤلّف نقل النصّ النبوي«لا ضرر ولا ضرار» مبتوراً ولم يرشد إلى سبب صدوره من النبي الخاتم، فكان عليه الإلماع إلى ما نقله الحافظ أبو داود السجستاني في سننه في ذلك الصدد عن واصل مولى أبي عيينه قال: «سمعت أبا جعفر محمّد بن علي يحدّث عن سمرة بن جندب أنّه كانت له عضد من نخل في حائط رجل من الأنصار قال: ومع الرجل أهله قال: فكان سمرة يدخل إلى نخله فيتأذّى به ويشق عليه، فطلب إليه أن يبيعه، فأبى، وطلب إليه أن يناقله، فأبى، فأتى النبي ﷺ فذكر [ذلك] له، فطلب إليه النبيﷺ أن يبيعه، فأبى فطلب إليه أن يناقله فأبى، قال: «فهبه له ولك كذا وكذا» أمراً رغبة فيه، فأبى، فقال: «أنت مضار». فقال رسول الله ﷺ للأنصاري:«إذهب فاقلع نخله».[1]

هذه لمحة خاطفة قدّمناها للمؤلف القدير، وكفى له فخراً أنّه ثمرة من ثمار عمركم، وأنّه اتبع الخط الّذي رسمتموه.

وفي الختام نتقدم إليكم ببالغ الشكر لما أسديتموه لمكتبتنا (مكتبة الإمام الصادق عليه السلام).

فشكراً للوالد والولد وللأُستاذ والتلميذ شكراً يناطح السماء.

والسلام عليكم وعلى من حولكم من الأحبّة والأعزّة ورحمة الله وبركاته

جعفر السبحاني

قم المقدسة

مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام

٢٥/ ١٢/ ١٤٢٤هـ

---

١. سنن أبي داود:٣/ ٣١٥، أبواب القضاء.

بسم الله الرحمن الرحيم

صاحب الفضيلة العلّامة الشيخ جعفر السبحاني حفظه الله

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

فقد تسلمت رسالتكم الكريمة بيد الشكر والامتنان وأسأل المولى جلّ وعلا أن تكونوا ومن يلوذ بفضيلتكم في صحّة وسعادة.

سيدي: لقد استمتعت برسالتكم الّتي تفيض علماً وأدباً، وتشع نوراً ومكرمات، وليس هذا غريباً على علماء الإسلام ذوي القدم الراسخة في العلم.

سيدي: أعترف بالثغرات والملاحظات العلمية الّتي أبديتموها على كتاب «الجمهرة للقواعد الفقهية»، ولا أنتحل لمؤلفها العذر. والّذي قد يُدافع به بأنّه قرر ما ذكرتموه من الفروق بين القواعد الفقهية والأُصولية والضوابط في كتاب له سابق نال به درجة الماجستير وقد طبع ثلاث طبعات، كذلك ما ذكرتموه من عدم اطّلاعه على مؤلفات آل البيت في هذا المجال، ولا إخالفكم كما تعلمون لعدم توفر مؤلفاتهم رضي الله عنهم بيننا، وهي آفة كبيرة كان المفروض كسر الحواجز المذهبية المتعصبة بيننا وإنا لله وإنّا إليه راجعون، وأن نركز على جوانب الاتفاق بدلاً من تعميق جوانب الاختلاف، وهذه مسؤوليتنا جميعاً أمام الله وأمام التاريخ.

إنّ زمرة القواعد الّتي ذكرتموها الواردة عن رسول الله ﷺ عن طريق أهل البيت معظمها مسطور أيضاً ضمن القواعد الفقهية عند أهل السنّة، والّذي لفت نظري انّه بينها القاعدة التاسعة:

«كلّ شيء فيه حلال وحرام فهو لك حلال أبداً حتّى تعرف الحرام منه بعينه فتدعه».

هذه خلاف القاعدة الفقهية الموجودة لدى أهل السنّة إذ ينصّون: «إذا اجتمع الحلال والحرام غلب الحرام» يبدو لي أنّ موضوع القاعدتين واحد، والموضوع بحاجة إلى دراسة متعمقة لعلي أقف على مصادر القاعدة الأُولى توثيقاً من الكتب الموجودة لدي في القواعد الفقهية.

إنّ ملاحظاتكم العلمية مهمة جداً، وسأوافيها للأخ علي الندوي ولفضيلتكم عظيم الشكر وخالص الدعاء.

وأود أن ألفت نظر فضيلتكم الكريم إلى أنّ كلمة الندوي لا تعني صلة القرابة بينه و بين الشيخ أبي الحسن الندوي فالنسبة إلى (ندوة العلماء) وهي مؤسسة علمية بالهند ينسب إليها كلّ متخرج منها.

سبق لي في الحجّ أن بعثت لفضيلتكم بكتاب «الإرشاد» للإمام الباقلاني حسب طلبكم، وقد بعثته مع أحد أفراد بعثة الحج الرسمية وهو من قم وأخبرني بمعرفته بمؤسستكم أرجو أن تكونوا قد استلمتموه، أسأل الله لفضيلتكم تمام الصحة وأن لا تنسوني في دعائكم.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

عبد الوهاب إبراهيم أبو سليمان

١/ ٢/ ١٤٢٥هـ

١٠

مقال حول: القواعد الفقهية للشيخ مرتضى الترابي

كنّا قد أرسلنا مقالة ولدنا الروحي الشيخ الفاضل مرتضى الترابي حول القواعد الفقهية إلى فضيلة الشيخ الدكتور عبدالوهاب أبوسليمان وقد قرنا الرسالة بالجزء الثالث من كتابنا «الانصاف في مسائل دام فيها الخلاف» فأجاب فضيلته برسالة تحكي عن خلقه السامي وأدبه الجمّ حفظه الله ورعاه وإليك الرسالتين .

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى الأخ في الله الأُستاذ الفاضل الدكتور عبد الوهاب إبراهيم أبو سليمان المحترم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أمّا بعد: فقد وافتني رسالتكم الميمونة معربة عن طيب أعراقكم، وشريف أخلاقكم.

وصل الكتاب فمرحباً بوصوله

أشكره سبحانه على هذه النعمة المتمثلة بنشوء العلاقة بيني وبين فقيه من فقهاء الإسلام، يقضي بالحق ويقدّمه على العواطف.

وفي هذه الفرصة أود أن أخبركم بوصول كتاب «الإرشاد» للباقلاني فشكراً لك على هذه الهدية الثمينة.

وانطلاقاً من المثل المعروف: «الحقيقة بنت البحث» فقد طلبت من أحد حضّار درسي وهو الشيخ مرتضى الترابي أن يكتب رسالة تسلّط الضوء على الفرق بين القواعد الفقهية والمسائل الأُصولية، ويذكر فيها آراء فقهاء الإمامية في هذا المضمار، ويذكر ما هو المختار لدي.

ويختم الرسالة بذكر ما لفقهاء الإسلام من مؤلفات حول القواعد الفقهية، وقد أنصف الكاتب إذ قال: بأنّ فقهاء السنّة سبقوا الإمامية بالتأليف في هذا المضمار، لسبب أشار إليه هناك.

ولو أُتيحت الفرصة ورفعت الحواجز عن إرسال الكتب لأرسلنا إليكم

قسماً من هذه المؤلفات، وعندئذٍ يقف إخواننا على أنّ الشُّقّة بين الطائفتين ليست بكبيرة، وانّ اختلافهما أشبه باختلاف المذاهب الأربعة بعضها مع بعض.

إنّا لتجمعنا العقيدة أُمّة ويضمنا دين الهدىٰ أتباعاً

ويؤلّف الإسلام بين قلوبنا مهما ذهبنا في الهوىٰ أشياعا

وهذه الرسالة المتواضعة مرفقةٌ بكتاب «الانصاف في مسائل دام فيها الخلاف» والّذي طرحنا فيه المسائل الّتي اختلفت فيها الطائفتان وشرحناها بمشراط علمي لا يثير العواطف، ولعلّه يكون خطوة متواضعة للتقريب حتّى يقف الإخوان على ما لدى الآخرين من فكر وفقه. نعم الخلاف الذي دام قروناً لا يرتفع باسبوع أو شهر ولكنّه ربما يعبّد طريق التقريب.

وأخيراً إذا تمكّنتم من الحصول على الكتب التالية فنرجو إرسالها، لنضمها إلى مكتبة مؤسستنا:

١. مقاصد الشريعة: تأليف علال الفاسي.

٢. الشاطبي وكتابه: تأليف أحمد الرويسي.

٣. مقاصد الشريعة: تأليف طه جابر العلواني.

بلغوا سلامنا إلى ولدكم الروحي الندوي والرجاء أن يقرأ الرسالة بإمعان ودقّة، فيشير إلى بعض الآراء المذكورة فيها، في الطبعة الجديدة لكتابه «جمهرة القواعدالفقهية».

أسأل الله سبحانه التوفيق والسداد لكم ولمن حولكم من الأعزاء، ودمتم موفقين

جعفر السبحاني

قم ـ مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام

العاشر من ربيع الأوّل من شهور سنة ١٤٢٥هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

صاحب الفضيلة العلّامة الشيخ جعفر السبحاني حفظه الله

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

وبعد

فأدعو الله عزّ وجلّ من جوار البيت الحرام أن يمدّكم بعونه، ويديم عليكم نعمه وإفضالاته وبعد.

فقد وافتني رسالتكم الكريمة الّتي تزخر علماً وفضلاً، وتحمل درراً نفيسة، ولا غرابة، فهي من بحر علومكم مستمدة، ومن صفاء فكركم معدة، استفدت منها أيما فائدة، وإنّي أسأل المولى جلّ وعلا أن يمنحني بعضاً من الوقت، وفسحة من الأجل لأتأمل كتاب (الإنصاف) مؤلّفكم الجليل الّذي لا شكّ أنّه مكتوب مداد الإخلاص لأتطفل على مائدتكم العلمية، وأغرف من معينكم الصافي، وإنّي حريص كلّ الحرص أن يكون ضمن اهتماماتي العلمية، ومشروعاتي الدراسية، لأني أعتقد فيما أعتقد أن الّذي فرق بيننا هو الجهل ببعضنا أوّلاً، ومصالح لبعض الفئات المستغلة يحزنها أن تجتمع كلمتنا. لكن المسؤولية قبل كلّ شيء أمام الله جلّ وعلا تقع على عاتق علماء الفريقين في تضييق شقة الخلاف، ورفع موجبات النزاع والشقاق، وهم المسؤولون أمام الله والتاريخ.

سيدي: أشرتم إلى موضوع القواعد الفقهية والبحث الّذي قام به الشيخ مرتضى الترابي حفظه الله، وهو لا شك جيد ونفيس، الجديد فيه بالنسبة للباحثين هنا هو ما يتصل بفقه السادة الإمامية، ولا يخفى على سماحتكم أنّ هذا الموضوع، أو على الأصحّ علم القواعد الفقهية سار خطوات طويلة موفقة في جامعتنا وفي طليعتها جامعة أُمّ القرى فقد اهتممنا به منذ ثلاثين عاماً، أو يزيد: تأليفاً جديداً، أو تحقيقاً لكتب التراث، وكانت البداية بسيطة جداً قمت بها بكتابة بحث متواضع أرفقه مع خطابي هذا، أو المؤلفات والكتب المحققة فإنّها كثيرة جداً. ومن الموضوعات العلمية الّتي نشطت فيها جامعاتنا في العقود السابقة علم المقاصد الشرعية فأصبح له حظ في المناهج الدراسية، والبحوث العلمية الرفيعة، ولا زالت الدراسات تترى وتتوالى، وقد ظهر أخيراً إلى الساحة العلمية تحقيق كتاب «مقاصد الشريعة الإسلامية» تأليف العلاّمة شيخ الإسلام محمد الطاهر بن عاشور رحمه الله بتحقيق تلميذه العلاّمة الشيخ محمد الحبيب بن الخوجة في ثلاثة مجلدات: المجلد الأوّل عن حياته العلمية والفكرية، الثاني بين علم المقاصد وأُصول الفقه، الجزء الثالث النص المحقّق، وهو جهد علمي فريد للشيخ محمد الحبيب بن الخوجة وهو تلميذ خاص للشيخ ابن عاشور، وقد عكف على هذا العمل ما يزيد على خمسة عشر عاماً، وقد أقمت حفلة علمية على شرف المحقّق حفظه الله لصدور هذا الكتاب، وعندما أحصل على نسخة سأبعث لفضيلتكم بها.

مقاصد الشريعة الإسلامية ومكانتها للشيخ علال الفاسي ليست موجوداً بالأسواق، ولهذا صورته لفضيلتكم من نسختي، كما أبعث لفضيلتكم بكتاب (نظرية المقاصد) للدكتور الريسوني، أمّا كتاب الدكتور جابر فلا أظنه إلاّ محاضرة

ألقاها في بعض المناسبات ولا أذكر إنّي اقتنيتها، ولو عثرت عليها صورتها لفضيلتكم، وإنّي أعتذر على التأخير، ولكن فقدت نسخة المقاصد للشيخ علال الفاسي بداخل المكتبة وقد عثرت عليها أخيراً.

سيدي: لا أدري إذا كان يتيسر لديكم شرحاً لكتاب (الخلاف)للإمام الطوسيرحمه الله الّذي قد زودتموني به سابقاً.

في الختام أسأل الله لفضيلتكم دوام الصحة والسعادة وأنّه يجمعنا على الحقّ.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

المخلص

عبدالوهاب أبو سليمان

٢١/ ٤/ ١٤٢٥هـ

١١

ملاحظات الدكتور عبدالوهاب حول موسوعة طبقات الفقهاء وجوابنا

إنّ موسوعة طبقات الفقهاء أكبر موسوعة في تراجم فقهاء الإسلام منذ رحيل الرسول الأكرم ﷺ إلى يومنا هذا، فقد ضمت أجزاؤها الستة عشر تراجم أُمّة كبيرة من فقهاء الإسلام من كافة المذاهب الموجودة والبائدة.

حضيت هذه الموسوعة بإعجاب المفكرين والمؤلفين، وقد نشرنا رسائلهم الّتي أرسلوها في هذا الصدد في طيات أجزائها.

كما نالت هذه الموسوعة موقع الرضا عند فضيلة الشيخ العلاّمة عبد الوهاب إبراهيم أبو سليمان، وقد أبدى بعض الملاحظات حولها.

لذا ننشر نصّ رسالته مرفقاً بجوابنا حولها.

بسم الله الرحمن الرحيم

سماحة العلاّمة الشيخ جعفر السبحاني حفظه الله

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

وبعد:

فأهنئكم بشهر رمضان المبارك سائلاً المولى جلّ وعلا أن يوفق الجميع لصيامه وقيامه وأن يتقبّل من الجميع صالح الأعمال، وأن يكتب النصر ووحدة الكلمة للأُمة الإسلامية.

سيدي: لقد أمطرتموني بإفضالاتكم، وأحطتموني برعايتكم، ولا أملك أمام هذا السيل المتدفق من كريم خصالكم إلاّ الدعاء أن يجزيكم الله خير الجزاء.

سيدي: أعتذر لسماحتكم عن تقصيري في عدم سرعة المخاطبة، وواجبكم كبير، ولا أكتمكم أنّي أقوم بأُموري العلمية، والمخاطبات الاجتماعية بنفسي بالإضافة إلى الالتزامات والاجتماعات الرسمية دون مساعد إلاّ الله جلّ وعلا.

أمامي ثلاث رسائل شريفة من قبل سماحتكم.

الأُولى: معنونة باسمي وفيها مناقشة بخصوص منزلة الصحابة والتابعين، ونحن جميعاً سنّة وشيعة متفقون على حبهم وتقديرهم، فالصحابة جميعهم رضوان الله عليهم اختارهم المولى جل وعلا أن يكونوا حواريي نبيه ﷺ ورفقته، وهم

متفاتـو الدرجات، وعقيـدتنا أن لا نخوض فيما شجـر بينهم فهذا أسلم وأحكم، وأن لا نوغر صدور أجيالنا ضـد بعضهم، وشعارنا الآية الكريمة: **﴿رَبّنا اغفِر لَنا ولإخواننا الَّذينَ سَبقُونا بِالإيمان ولا تَجْعَل فِي قُلُوبناغلاً لِلّذينَ آمنوا﴾**(الآية)

أمّـا أهل البيت رضـوان الله عليهم فموقفنـا: هـو الحب والتقـدير الـذي يستحقـونـه من الأُمـة، ولا تجد سنّيـاً على وجـه البسيطـة إلاّ وينظـر إليهم بعين الإجلال والإكبار من دون إفراط ومغالات، أو تفريط وتقصير، فهم سادتنا رضوان الله عليهم. أمّا بخصوص الموسوعة النفيسة طبقات الفقهاء فهي بحق مفخرة من مفـاخـركم جـزاكم الله خيراً، والعمل جليل مهما فيـه من هنـات، شأن الأعمال العظيمة، وقـد لاحظت بعض الملاحظات لا أُريـد أن أثيرها حتى لا يسـاء الظن منها:

١ . أنّ الكتابة عن فقهـاء أهل السنّة لم ترق إلى الدرجـة التي كتب فيها عن علماء الشيعة كماً وكيفاً.

٢ . وصلني من الكتاب حتى الجزء الـرابع عشر رقم ٢ و ينقص بينها الجزء الثامن. كان بودي أن أرى من النهاية قـائمة المصادر؛ لأنّـي أشعر بعدم استيفاء الموسوعة للكثير من علماء السنّة، وما من شك أنّ هذا سببه ربما يكون عدم توافر المصادر.

٣. لا يوجد ذكـر للفقهاء المكيين وبخاصة في القـرن الرابع عشر الهجري، ولهذا اسمحـوا لي أن أبعث لسماحتكم بكتـاب (أعـلام المكيين) وهنـاك كتب ومؤلفات عديدة آخرها كتـاب (الجواهر الحسان) من تأليف فقيه من كبار فقهاء البلد الحرام قمت بتحقيقه مع زميل من الزملاء لـربما يصدر العام القادم إن شاء الله، وقد دونت في المقـدمة عناوين كتب تراجم المكيين في (الـدراسة)، وسأوا في سماحتكم بنسخة منه لدى صدوره إن شاء الله.

٤. لاحظت أثناء تصفحي للكتاب وجود بعض الأخطاء مثلاً في ترجمة القاضي عياض ورد هذا العنوان (ترتيب المدارس) وصحته (ترتيب المدارك)، وأُخرى لا أذكرها، ومرجع هذا أن عناوينها ربما تكون ليست مألوفة لدى الباحثين لديكم. الكتاب في اعتقادي ومن خلال تصفحي السريع مهم ومفيد ومصدر في تراجم فقهاء الإمامية رحمهم الله، ومن يقرأه لأوّل وهلة سيكون لديه هذا الانطباع.

سيدي: لا أشك أنّكم من دعاه التقريب وجزاكم الله على نياتكم وحسن مقاصدكم.

الحديث في هذا المجال طويل جداً، ولكن العزيمة الصادقة والإخلاص لدين الله ولأُمّة الإسلام يستوجبان ذلك.

الثانية والثالثة: تسلمت من الصديق العزيز سيد نواب رسالتين فيهما بحث: (مسألة البيعتين في بيعة)، وقد جاء بحثكم فيه مستفيضاً، وتوصلت من دراسته إلى الاتفاق الكبير في هذا الموضوع بين الفقه الإمامي مع المذهبين المالكي والحنبلي، أفادكم الله، وإني أشكر سماحتكم أعظم الشكر على هذا الاهتمام الكبير، أدام المولى جلّ وعلا على سماحتكم نعمة الصحة والعافية ولا حرمنا منكم، ولا تنسونا من الدعاء في هذه الليالي المباركة.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

المخلص

عبد الوهاب أبو سليمان

١٤٢٥/٩/٧

بسم الله الرحمن الرحيم

صاحب الفضيلة سماحة العلاّمة الدكتور عبد الوهاب إبراهيم أبو سليمان المحترم

السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته

ورد الكتاب فمرحباً بوروده...

لقد سررنا بمطالعة رسالتكم الكريمة حول «اشتراط الربط بين عقود المصارف الإسلامية» وإذا هي رسالة حبّرتها يد فقيه محقّق و منفتح على المذاهب الفقهية، أخذ الله بيدكم ورعاكم.

كما وصلت إلينا هديتكم الثمينة المشتملة على الجزئين من «أعلام المكيّين»، ونحن ننتظر بفارغ الصبر أن تصل إلينا موسوعة أعلام المدنيين بإذن الله تعالى.

وقد ذكرتم في الرسالة المعنونة باسمي، أنّه وقع خطأ في ترجمة القاضي عياض، فجاء فيها «ترتيب المدارس» مكان «ترتيب المدارك» ونحن راجعنا الترجمة المذكورة في ج٦/ ٢٢٢ برقم٢٢٦١، فرأينا العنوان قد تكرر فيها مرّتين، وفي كلتيهما ورد صحيحاً.

وعلى فرض وروده، بالصيغة التي أشرتم إليها في موضع آخر، فلا ريب في كونه خطأ مطبعياً، لأنّ الكتاب ـ لا كما يظن صاحب الفضيلة ـ معروف لدى

الباحثين في مؤسستنـا، وهو من المصادر المعتمدة عنـدهم في ترجمة العشرات من فقهـاء أهل السنّة ، وقـد تكـرّر ذكـره على سبيل المثال في الصفحـات(٣٩، ٥١، ٦٤، ٧٦، ٩٦، ١٠٦، ١١٧، ...) من الجزء الرابع، والصفحات (٢٥، ٢٧، ٣٧، ٥٢، ٥٨، ٦٢، ١٢٧، ١٢٩، ١٣٠، ١٤٠، ١٥٢، ١٦٩، ١٧٥، ...) مـن الجزء الخامس.

أما بشأن قول فضيلتكم: انّ الكتابة عن فقهاء أهل السنّة لم ترق إلى الدرجة التي كتب فيها عن علماء الشيعة كماً وكيفاً، فنود أن نشير (قبل الإجابة عن ذلك) إلى حقيقة مهمة كنّا قد بيّناها في مقدمة الجزء الأوّل، وهي (بإيجاز) أنّ الطابع العام لفقه الشيعـة هو التقدّم والتطوّر قـرناً بعد قرن، وذلك بفضل فتح بـاب الاجتهاد عندهم، وأنّ الطابع العام لفقه السنّة كان هو التقدّم والتطور في القرون الأُولى ثمّ الميل إلى الركود منذ أواسط القرن السابع نتيجة إغلاق باب الاجتهاد عندهم.

وعلى ضوء هذه الحقيقة نقول: إنّ تراجم أهل السنة في القرون الأُولى لم تكن بأدنى من تراجـم الشيعة كماً وكيفاً، بل لعلّ تـراجمهم في بعض القرون قـد فاقت تراجم الشيعة من حيث العدد ومن حيث وفرة المعلومات وقيمتها.

ونحن إذا راجعنا القرن السـادس ـ مثلاً ـ لوجدنـا فيه (٣٣١) ترجمة، منها (٢١٦) ترجمة أو أكثر لفقهاء أهل السنة.

هذا من حيث الكمّ، أمّـا من حيث النوع، فلا أظن أن تـراجم الشيعة (بما فيهم الكبـار منهم) تفوق تـراجم السنة، فتراجم: ابن الجوزي (المرقمـة ٢١٨٤) وأبي يعلى الصغير (٢٣٣٧) و ابن فضـلان (٢٣٧٧) والقاضي عيـاض(٢٢٦١) والسمعاني (٢١٩٨) وغيرهم، هي أغـزر مادة من كثير من فقهاء الشيعـة في هذا القرن، وليست بأقلّ نوعاً من تراجـم أكابرهم كابن زهرة الحلبي (٢١٤٦) وريحان

الحبشي(٢١٥٣) والحقيقة التي ذكرناها آنفاً ألقت بظلالها على القرون المتأخرة، ففي القرن الثالث عشر كان عدد المترجَمين (٤٨٣) فقيهاً بينهم (١٤٦) فقيهاً سنياً (بما فيهم فقهاء الحجاز الذين بلغ عددهم ٣٦فقيهاً) والباقي لفقهاء الشيعة (الإمامية والزيدية).

ولابدع ـ كما يدرك سماحتكم ـ إذا ظهر لنا ميل إلى فقهاء الشيعة، وجاءت بعض تراجمهم بمستوى يفوق تراجم غيرهم، وذلك لمعرفتنا بهم وقربنا منهم أوّلاً، ولأنّ حب الرجل قومه أمر غير مذموم ما لم يبخس حق الآخرين، أو يسيء إليهم لهوىً يتّبعه.

ومهما يكن من أمر، فقد قدمنا العذر في مقدمة الجزء (١٤) وقلنا: إنّ هذه الموسوعة ليست سوى خطوة متواضعة على هذا الطريق، تستهدف التعريف بطائفة كبيرة من الفقهاء على اختلاف مذاهبهم، ناهيك عن الرغبة الأكيدة في تحقيق الأُلفة بين المسلمين وتوحيد صفوفهم. والعذر عند كرام الناس مقبول.

وكم نتمنى أن يتصدى أحد علماء السنّة لمثل هذا المشروع أو أفضل منه، ويدرج علماء الشيعة ـ حتى وإن اقتصر على مشاهير المشاهير منهم ـ جنباً إلى جنب مع علماء أهل السنة، تحقيقاً للهدف المنشود. والله المسدد للصواب.

وختاماً، بلغوا سلامي وتحياتي إلى الأُستاذ عبد الله عبد الرحمن مؤلف «أعلام المكيين»، وأرجو من الله تعالى أن يوفّقني لمطالعة الكتاب، والصدور عنه في مستقبل الأيام إذا قام المحقّقون في المؤسسة بمهمة تأليف استدراك للموسوعة.

تقبلوا تحياتنا العطرة

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

جعفر السبحاني

١٢ رمضان المبارك١٤٢٥هـ

الفصل الثامن

رسائل وحوارات

مع الشيخ صالح بن عبد الله الدرويش

دارت بيننا وبين الشيخ صالح بن عبدالله الدرويش القاضي بالمحكمة الكبرى بالقطيف رسائل ومساجلات حول مسائل مختلفة يجمعها ما اختلف فيه النظر بين السنّة والشيعة، وإليك الإشارة إلى رؤوس الموضوعات:

١. رسالتنا إلى الشيخ مرفقة بكتاب الحجّ مشيرةً إلى أنّ المشتركات في موضوع الحج بين الطائفتين كثيرة.

٢. رسالة الشيخ إلينا يذكر فيها بعض ملاحظاته حول نهج البلاغة وحول كتابنا في نقد كتاب «تأملات حول كتاب نهج البلاغة».

٣. رسالة منّا إلى الشيخ نذكر فيها أنّ صحابة الرسولﷺ الذين رأوا نور الرسالة ليسوا على وتيرة واحدة وعلى صعيد واحد من حيث العمل والسلوك والالتزام.

٤. الشيخ صالح الدرويش يهدي إلينا كتاب «الإمامة والنص» وقد قمنا بتقديم الشكر إليه ناقدين فصلاً واحداً من هذا الكتاب.

٥. طلب الشيخ صالح الدرويش تأليف كتاب يجمع الروايات الصحيحة عند الشيعة وجوابنا عن ذلك.

٦. جوابنا عن الرسالة الّتي أرسلها مؤلف «الإمامة والنص» حول ملاحظاتنا عليه.

٧. رسالة أحد محقّقي مؤسسة الإمام الصادقعليه السلام إلى الشيخ صالح الدرويش تشتمل نقداً للموقع الّذي يشرف عليه مؤلف كتاب «الإمامة والنص».

١

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى الأخ البارع البصير الشيخ صالح بن عبد الله الدرويش ـ دامت معاليه ـ القاضي في المحكمة الكبرى بالقطيف

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أمّا بعد؛

فقد جرت بيني و بينكم ــ في سالف الزمان ــ مساجلات ومراجعات طرحت خلالها أفكار وتساؤلات، كان مبعثها ودّ الحقيقة والدفاع عن العقيدة، وقد قيل: «انّ الحياة عقيدة وجهاد».

وعلى كلّ تقدير فهذه الرسالة الموجزة مرفقة بكتاب «الحجّ» الذي هو جزء من محاضراتي الفقهية حول الحجّ والكتاب يقع في عدة أجزاء، وهو أقوى شاهد على أنّ المشتركات في الحجّ بين المذاهب أكثر، وما أصدق قول القائل: «ما يجمعنا أكثر ممّا يفرقنا».

ونحن نعتقد أنّ الّذي فرّق بيننا هو الجهل بالآراء والنظريات الّتي يتبنّاها

الطـرف الآخر، ولـو وقف الأخ السنّي على آراء أخيـه الشيعي لأذعن أنّه هـو الأخ الّذي افتقده عبر قرون.

ودمتم سا لمين للإسلام وأهله

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

جعفر السبحاني

قم المقدسة

مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام

الثالث عشر من جمادى الآخرة ١٤٢٥هـ

٢

بسم الله الرحمن الرحيم

سماحةالشيخ جعفر السبحاني وفقه الله

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى آله الأطهار وصحبه الأخيار . وبعد، فعليكم السلام ورحمة الله وبركاته

* فقد سعدت بوصول ردكم إلي والمعنون بـ (حوار مع صالح الدرويش) وقد اطّلعت عليه وقيدت أثناء التصفّح بعض الملحوظات عليه، وارتأيت أنّها كثيرة ترجأ لحينها! ومن أهم ما استوقفني فيه و آسف له، وهو أنّ المؤلف لا يفرق بين من هم (الصحابة) الذين جاءت النصوص في مدحهم والثناء عليهم بأوضح العبارات وأبلغ الآيات، ومن هم (المنافقون) الذين جاءت النصوص بذمّهم وأنّهم في الدرك الأسفل من النار؟!

* ودونك سماحة الشيخ: كتاب الله تعالى، تأمل في آياته لترى الصراحة في القصد من الثناء على المهاجرين، ولم يذكر أحد من المؤرخين قاطبة ـ فيما أعلم ـ أي منافق أو علامة للنفاق قبل غزوة بدر!

* وقد رأيت سماحتكم: نحا وسلك مسلكاً آخر في أصل الحوار... ولأجل

أنّ الأمر فيه بون شاسع بيني وبينكم ـ وفقكـم الله ـ حول تحرير أصل المسألة؛ لذا تركت الرد أو الحوار فيما يتعلق بـرسالتنا (صحبة رسـول الله) عليه وعلى آله أزكى تحية وسلام.

* أمّـا فيما يتعلق بالحوار حـول رسـالة (تأمّـلات في نهج البـلاغة) لمؤلفـه الأُستاذ محمد الصادق ـ وفقـه الله ـ فسماحتكم يعلم أنّـي إنّما قدّمت للمؤلف... و من ثم جعلتم كلّ الحوار معي وفي مخاطبتي!

*ومن هنا فقـد أعطيت حواركم فيـه لمؤلفه للنظر فيـه وموافاتنـا بمرئيـاته حيالـه، ولم يوافني ليومي هذا بشيء خـاصة وأنّه أخبرني بالطبعـة الثانية للرسـالة وأنّها تحت الإعداد، هناك رسالة أُخرى في نفس الموضوع وهي قراءة راشدة في نهج البلاغة أتمنّى أن تبحثوا عنها وتنظروا فيها. والله الموفق.

* كما أنّه لا يخفى على شريف علمكم الكلام في نسبة الكتاب كلّه إلى أمير المؤمنين رضي الله عنـه وأرضاه، والصنعـة الأدبية ظـاهرة على أبـوابه ومحتـوياتـه، فيمكن لكم المقارنة بين البلاغة العربيـة في عهد النبوة وما كان عليه أمير المؤمنين من فصاحة وبلاغة، وكتـاب النهج وما فيه من سجع متكلف، وغرائب في بعض الألفاظ وما سـاد في بلاغة القرن الرابع ــ زمن جامع الكتاب ـ وأقل مـا يقال فيه أنّه: زاد فيه!

وأيضاً انقطاع السند بين جامعه وقائله وبين ذلك خرط القتاد.

ولكني إنّما قـدمت للكتيب على قـاعـدة التسليم في حجـة الخصم ــ على افتراض صحتها ـ و كما قيل: «من فمك أُدينك».

* سماحة الشيخ الكريم: أُفيدكم أنّ رسالتكم مع كتابيكم قد وصلتني من يد الشيخ هاني المسكين.

وهي هديـة مقبولـة أمّا الـرسالـة فلي عليها ملحـوظات يسيرة لا يحسن ان نذكرها من باب حسن الظن بكم.

* هـذا وقـد التقيت بنخبة مـن الآيات وبعـدد كبير ممّن دونهم الموسـومين بحجة الإسـلام، ومع قناعتـي التامة بعـدم وجود ضـابط لديكم نحتكـم إليه في ثبوت النصوص من عدم ثبوتها، ولمعرفة المقبول فيُعمل به، والمردود فلا يُعمل به.

* وأنا مع ذلك حريص على الالتقاء ومقابلة العقلاء، فإن زان عقلهم علماً فقد زاد شرفهم فجمعوا بين العقل و العلـم... وانّي أرجو أن يكون سماحتكم من هذاالصنف.

سماحة الشيخ: إن من أهم المسائل الّتي يعاني منها كثير من المشايخ الذين التقينا بهم سلفاً هي:

عدم وجود نصوص عن الأئمّـة يتفق الشيعة عليها. فهذا يضعف وذاك!! وبالتالي لا تستطيع إلزام أحدٍ بنص إذ يقول وبكلّ سهولة ويسر «أنا أرى ضعف هذه الرواية»!!

وكما قال صـاحب مقـدمة صحيح الكـافي: محمد بـاقر البهبـودي... بـ أن الزنادقة...و....

قاموا بوضع مرويات مكذوبة على الأئمّة، وتصل في الكافي إلى أكثر من ... كذا ... وكذا.

وكتـابه الآن بعيـد عن متناول يـدي، فأنـا أكتب هذه الـرسالـة على عجل ــ وأستسمحكم لكثرة مشـاغلي ـ ولكني أتـذكر أنّـه قال: يـدسون الأكـاذيب و الترهات من خلال الصحائف و الأُصول... فيختلط الحق بالباطل.

* لـذا فإنّنا من محل المسؤولية وتحمل الأمـانة نـاشدكم الله عـزّو جل أن

تجعلوا اهتمامكم بتصحيح الروايات عن الأئمّة، فهذه أكبر خدمة لهم، وهو مصداق محبتهم.

وتأمل معي يا سماحة الشيخ هذا:

كيف يتعبد عوام الشيعة بمرويات لا يعلمون ثبوتها من عدمه، على مر هذه القرون. وما حجتهم في هذا؟

إنّ باب الاجتهاد مفتوح، وعلى المجتهدين أن ينظروا فيها. وهذا عند الأُصوليين أمّا الأخباريين فالأمر لا يخفى على مثلكم.

وإليكم: مثال واحد بسبب عدم الضوابط، ما حصل من خروج الشيخ / أحمد الأحسائي ومن تبعه، ثمّ خروج المعروف بالباب وقرة العين، وما حصل في النجف في ذات التاريخ؟!!

وأخيراً / أعتذر إليكم مرّة أُخرى لعدم تمكنّني من إيفاء الأمر حقّه وذلك لكثرة المشاغل...وبرفقته كتاب فيه دراسة لمسألة النص والإمامة وهو كتاب «الإمامة والنص»، ونأمل أن يتسع وقتكم للاطّلاع عليها وإفادتنا بما ترونه من ملاحظات.

أخوكم

صالح بن عبدالله الدرويش

٣



أصناف الصحابة في القرآن الكريم

إلى الأخ البارع البصير الشيخ صالح بن عبدالله الدرويش

ـ دامت معاليه وتواترت بيض أياديه ـ

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أمّا بعد:

فقد وافتني رسالتكم الكريمة ــ عبر الفاكس ـ و الّتي تعرب عن وصول رسالتنا إليكم الّتي كانت مرفقة بالجزء الأوّل من كتاب الحجّ من محاضراتي الفقهية، وكانت الغاية من إرساله إليكم هو الحث على الوقوف على فقه الشيعة ليتضح لديكم مدى المشتركات بين الفريقين، ولكن المؤسف أنّكم، لم تذكروا شيئاً من انطباعاتكم عنه، والّتي مازلنا ننتظرها بفارغ الصبر.

وأود أن أشير إلى أُمور تتعلق بما ذكرتموه في رسالتكم الكريمة تلك:

١ . ذكرتم: أنّنا في كتابنا «حوار حول الصحبة والصحابة»، لم نفرق بين

الصحابة الذين جاءت النصوص في مدحهم والثناء عليهم بأوضح العبارات وأبلغ الآيات، والمنافقين الذين جاءت النصوص بذمهم وأنّهم بالدرك الأسفل من النار.

ولي هنا نظرة وهي: كيف يصف الشيخ الكريم المؤلَف بعدم التفريق بين الفريقين مع أنّ المؤلف قد صنف الصحابة إلى عشرة أصناف اثنان منهم المنافقون والمندسّون، والثمانية الباقون من غيرهم وقد ورد التنديد والذم في الكتاب والسنة بهم وهم:

١. مرضى القلوب (الأحزاب:١٢).

٢. السماعون (التوبة:٤٥ـ٤٧).

٣. الذين خلطوا العمل الصالح بغيره (التوبة:١٠٢).

٤. المشرفون على الارتداد(آل عمران:١٥٤).

٥. الفاسق (الحجرات:٦).

٦. المسلمون غير المؤمنين (الحجرات:١٤).

٧. المؤلفة قلوبهم (التوبة:٦٠).

٨. المولّون ادبارهم في زحف الكفار (الأنفال:١٥ـ١٦)

ولا شكّ أنّ هؤلاء الذين وضعنا البنان عليهم لم يكونوا من المنافقين، فإن وردت أبلغ الآيات في مدح الصحابة والثناء عليهم بأوضح العبارات، فقد وردت أيضاً أبلغ الآيات وأوضح العبارات بالتنديد بهذه الأصناف الثمانية منهم.

فإذا كانت الآيات بحق الصحابة على قسمين مادحة وذامّة فلا محيص من القول بوجود صالح وطالح، وعادل وفاسق بينهم، ومن يقبل قوله ومن يجب أن يترك قوله، فيكون حال الصحابة كحال التابعين، وهذا هو نفس عقيدة الشيعة

الإمامية في حقّ صحابة النبي الأكرم ﷺ.

٢. إذا اعترفتم بأنّ صحابة النبي ﷺ يشكل لحمتهم وسداهم طائفتان هما الصحابة العدول، والمنافقون المعروفون والمندسّون فيهم الذين لم يكن الناس يعرفونهم، وحتّى النبي الأكرم ﷺ، كذلك لقوله سبحانه: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ (التوبة: ١٠١).

فإذا كان الأمر كذلك فكيف تعتبرون روايات الصحابة وأحاديثهم بل وآراءهم وسننهم حجة على الإطلاق من دون أن تتعرفوا على أحوالهم وتتأكدوا من انتمائهم إلى الطائفة الأُولى أو الثانية.

إنّ في علم الأُصول بحثاً ضافياً حول العلم الإجمالي وأنّه ينجز كالعلم التفصيلي، مثلاً كما أنّ العلم التفصيلي بغصبية شيء ينجز التكليف، فهكذا العلم الإجمالي بوجود الأموال المغصوبة ضمن الأموال الحلال الكثيرة ينجز التكليف أيضاً، فيجب الفحص و التنقيب حتّى يتميز الحلال عن الحرام، وعلى ضوء هذا يجب الفحص عن أحوال الصحابة، ليتميز العادل عن الطالح، والمؤمن عن المنافق، ومن يستدرّ به الغمام، عمن يحبس دعاؤه ولا يستجاب.

لم يكن عدد المنافقين في عصر النبي قليلاً حتّى يغمض عنهم، بل كانوا أُمّة كبيرة يتآمرون على الإسلام ليلاً ونهاراً والدليل على كثرتهم بين الصحابة هو عناية القرآن بذكر أحوالهم والتنديد بأفعالهم في كثير من السور نظير: البقرة، آل عمران، النساء، المائدة، الأنفال، التوبة، الحج، العنكبوت، الأحزاب، الفتح، الحديد، المجادلة، الحشر، المنافقون، التحريم، فلو كان عددهم قليلاً وكانوا غير مؤثرين لما اهتمّ القرآن بهم إلى هذا الحدّ.

إنّ القرآن لم يقتصر على التنديد بهم ضمن هذه السور، بل أنّه قد خصّهم

بسورة كاملة، أعني (المنافقون).

كما أنّ الكاتب المصري إبراهيم علي سالم قد جمع آيات النفاق والمنافقين على نظم خاص، وادّعى أنّ عدد الآيات الواردة في حقّهم يعادل أجزاءً ثلاثة من أجزاء القرآن الثلاثين.

والعجب أنّه لم يكن لهم أي دور بعد رحيل الرسول ﷺ أيام الخلفاء، وهذه ظاهرة تاريخية تستوجب التوقّف عندها، فلماذا غاب نجمهم وخابت حيلتهم بعد رحيل الرسول ﷺ.

٣. ذكرتم أنّه لم يذكر أحد من المؤلفين قاطبة ـ فيما أعلم ـ أيّ منافق أو علامة للنفاق قبل غزوة بدر.

إنّكم بحمد الله على سعة من العلم بالتاريخ وتعلمون أنّ نطفة النفاق قد انعقدت يوم نزول النبي ﷺ في المدينة المنورة حيث قابله عبد الله بن أُبيّ المعروف برأس المنافقين بقوله: يا هذا اذهب إلى الذين غروك وخدعوك وأتوا بك فانزل عليهم ولا تغشنا في ديارنا.[1]

فأصبح هذا نواة النفاق، ثمّ اجتمع حوله جماعة من المتظاهرين بالإسلام، حتّى صاروا كتلة قوية في المدينة المنورة، على نحو يتحدث التاريخ عن كثرتهم، وإليك ما يشهد على ذلك:

إنّ النبيّ ﷺ حينما خرج من المدينة إلى غزوة أُحد بجيش يناهز الألف نفر، وقع التشاجر بين النبي ﷺ وعبد الله بن أُبيّ فرجع هو بثلث الجيش إلى المدينة وتركوا النبي في طريقه إلى أُحد، وهذا يعرب عن بلوغ المنافقين ومَن تأثّر بهم في السنة الثالثة من الهجرة حدّاً يعادل ثلث الناهضين إلى الحرب، فمن العجب

١. تاريخ الخميس: ١/ ٣٤١.

القول بأنّه لم يكن للنفاق وجود قبل غزوة بدر مع أنّ الفاصلة الزمنية بين الغزوتين كانت قليلـة، لا يمكن خلالها أن يتشكّل حزب النفـاق ويصل إلى ذلك المستوى في هذا الزمن القصير. حيث كـانت غزوة بدر في رمضان السنة الثـانية من الهجرة وغزوة أُحد، في شوال السنة الثالثة.

وان كنت في شكّ من ذلك فـاقرأ نـص السيرة النبويـة لابن هشام يقـول: حتّى إذا كان بالشوط الأوّل بين المدينة وأُحد، انعزل عنه عبد الله بن أُبي بن سلول بثلث وقال أطاعهم وعصاني، ما ندري عـلام نقتل أنفسنا هاهنا أيّها الناس فرجع بمن اتبعه من قومه من أهل النفاق والريب.[1]

وقـد كـان للمنافقين وعلى رأسهم عبـد الله بن أُبيّ دور في أمـر بني قينقـاع وكان بعد غزوة بدر، وقبل غزوة أُحد حيث قال للنبي الأعظمﷺ: أربعمائة حاسر، وثلاثمائة دارع قد منعوني من الأحمر والأسود تحصدهم في غداة واحدة.

وفي حقهم نزل قـوله سبحـانه: ﴿**يَـا أَيُّها الَّـذِينَ آمَنُـوا لاَ تَتَّخِـذُوا الْيَهُـودَ وَالنَّصارىٰ أَوْلياءَ بَعْضُهُمْ أَوْلياءُ بَعْضٍ**﴾[2]. [3]

كلّ ذلك يعـرب عن تغلغل النفاق بين الصحـابة عنـد إجلاء بني قينقـاع وكان ذلك بعد غزوة بدر بقليل.

***

حول انعدام النصوص الّتي تتفق عليها الشيعة

الموضوع الثـاني الّذي ركزتم عليـه في الرسالـة هو عدم اتّفـاق الشيعة على

---

١. السيرة النبوية:٢/ ٦٤، ط. مصطفى البابي الحلبي.

٢. المائدة:٥١.

٣. السيرة النبوية:٢/ ٤٩.

النصوص، حتّى نحتكم إليها، وقلتم حـول ذلك: إنّ من أهمّ المسائل الّتي يعاني منها كثير من المشايخ الذين التقينا بهم سلفاً هي: عدم وجود نصوص عن الأئمّة يتفق الشيعة عليهـا... فهذا يضعف وذاك!! وبالتالي لا نستطيع إلـزام أحد بنص إذ يقول وبكل سهولة ويسر «أنا أرى ضعف هذه الرواية».

وكما قـال صاحب مقـدمة صحيح الكـافي: محمد بـاقر البهبودي...بـــ«أنّ الزنادقة ... و...».

قاموا بوضع مرويات مكذوبة على الأئمّة، وتصل في الكافي إلى أكثر من ... كذا ... وكذا.[١]

أقول: ركّزتم ـــ حفظكم الله ـ على أمـرين، ندرسهما واحـداً بعد الآخـر أمّا عدم وجود كتاب صحيح لدى الشيعة فهذا هو أحد مميزات منهجهم عن السنّة، لأنّ أهل السنّة قـد التزموا بكتـابين صحيحين بعد كتاب الله تعـالى وهما صحيحا البخاري ومسلم، وقد اعتقدوا بصحة أحـاديثهما، ولاقوا في ذلك ما لاقوا، لأنّ في الصحيحين أحـاديث تضـاد القـرآن الكـريم والسنّة النبـويـة المتـواتـرة والعقل الحصيف الّذي به عرفنا الله تعالى.

وإن شئتم أن تتعرفوا على مواضيع هذه الـروايات فعليكم بكتابنا«الحديث النبوي بين الرواية والدراية» فقد درسنا فيه أحاديث أربعين صحابياً، ذكرنا روائع أحاديثهم ثمّ أردفنـاها بأحاديث رويت عنهم تضاد الكتـاب والسنة والعقل، ولا يسع المقـام هنا لـذكر شيء منهـا وقـد طبع الكتاب ووزع في بيروت، ولـولا المنع الموجـود في الجمارك السعوديـة لأرسلنا إليكم نسخـة منـه عن طريق البريـد لكي تقفـوا على صدق مـا عـرضنا ويمكنكم مطـالعتـه عبر موقعنـا في الانترنيت على

١. كما ورد في الصفحة الرابعة من رسالتكم.

الرابط:

www.imamsadeq.org/book/sub1/al-hadith-al-nabavi/index.htm

وأمّا الشيعة فليس عندهم كتاب صحيح من أوّله إلى آخره سوى كتاب الله العزيز الّذي نزل به الروح الأمين على قلب سيد المرسلين، وهو الكتاب الّذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه مازاد وما نقص.

ومع ذلك فقد وضع الشيعة ضوابط لتمييز الصحيح عن الزائف، والمقبول عن المردود، وهذه كتبهم في الرجال والدراية والحديث تملأ المكتبات.

ولكن مهما صحّ الحديث سنداً فانّما يؤخذ به في الأحكام العملية والفروع الشرعية، وأمّا العقائد فالمرجع فيها هو الكتاب والسنة المتواترة المفيدة للقطع واليقين والعقل الحصيف.

وهنا يفترق طريق السلفية عن الشيعة، فإنّ الطائفة الأُولى يعتبرون الخبر الواحد حجة في العقائد ويستدلّون به، وأمّا الشيعة فلا يرون للخبر الواحد وإن صحّ أسناده دوراً في مجال المعارف، لأنّ المطلوب فيها هو الاعتقاد وهو رهن أُمور تنتج اليقين وتستوجبه والخبر الواحد ــ مهما صحّ ــ لا يلازم اليقين بخلاف الأحكام العملية فانّ المطلوب فيها هو العمل وهو أمر ممكن مع عدم الإذعان بمطابقتها للواقع.

لقد جرت عادة مشايخكم ــ زادهم الله شرفاً وعزاً وعلماً وتُقى ــ على الاحتجاج بروايات الآحاد الصحاح في أكثر الساحات، فصار ذلك سبباً لدخول أُمور منكرة في الشريعة المقدسة، نظير:

١. نزوله سبحانه إلى السماء الدنيا.

٢. الشؤم في المرأة.

٣. بول النبي قائماً.

٤. سلطان إبليس على النبي ﷺ في حال صلاته.

٥. طواف النبي على نسائه التسع في ليلة واحدة.

٦. وضع الرب رجله في نار جهنم ليملأها مع أنّه سبحانه وعد بإملائها من الجنة والناس لا بإدخال الرِّجْل.

٧. انّه سبحانه ليس بأعور.

إلى غير ذلك من أُمور لا يقيم لها وزناً من له أدنى إلمام بالمعارف الإسلامية السامية.

وإن أردتم الاطّلاع على عقائد الشيعة الإمامية في مختلف المجالات فبإمكانكم الرجوع إلى كتابنا «العقيدة الإسلامية على ضوء مدرسة أهل البيت»، والّذي اتبعنا فيه منهجاً شفافاً موجزاً، وتستطيعون مطالعته من خلال موقعنا في الانترنيت على الرابط:

www.imamsadeq.org/book/sub3/al-aghibeh/index.htm

إنّ كاتب هذه السطور مستعد للقائكم في أيّ مكان تريدون من غير فرق بين المدنية المنورة أو مكة المشرفة، لنجري الحوار حول عقائد الشيعة الّتي اتفقت عليها فطاحل علمائهم وعظمائهم.

وأمّا الأمر الثاني: أعني الاستدلال بما رواه محمد باقر البهبودي ـ حفظه الله ـ بأنّ الزنادقة قاموا بوضع روايات مكذوبة على الأئمّة... الخ.

فهو من أخطاء الشيخ البهبودي، فلو صحت القضية وقلنا بحجية قول الفاسق أو الكافر كابن أبي العوجاء فهو إنّما دسّ في كتب حمّاد بن سلمة الّذي كان ربيباً له، لا في كتب الشيعة فأين هو من كتب الشيعة؟!

وإن شئت توضيحاً أكثر، نقول:

روى المرتضى في أماليه أنّه لما قبض على عبد الكريم بن أبي العوجاء، محمد بن سليمان وهو والي الكوفة من قبل المنصور واحضره للقتل، وأيقن بمفارقة الحياة قال: «لئن قتلتموني فقد وضعت في أحاديثكم أربعة آلاف حديث مكذوبة مصنوعة».[١]

وهنا نكتتان نلفت نظركم السامي إليهما:

١. أفيصح الاستدلال بقول الفاسق فضلاً عن الكافر، ومن المعلوم أنّ الإنسان الآيس من الحياة المحكوم عليه بالقتل والصلب يطول لسانه ويأتي بالغث والسمين ويثير غضب الحاكم من دون أن يكون ملتزماً بصدق مقاله وقد قيل:

إذا يئس الإنسان طال لسانه   كسنّور مغلوب يصول على الكلب

٢. لو صحّ ما نقله المرتضى فإنّما أراد القائل الدسّ في حديث أهل السنّة، وقد صرّح بذلك ابن الجوزي في كتاب «الموضوعات» انّ ابن أبي العوجاء كان ربيباً لحماد بن سلمة المتوفّى عام (١٦٧ أو ١٦٩هـ) وقد دسّ في كتب حماد (الموضوعات: ٣٧ طبع المدينة المنورة). كما نص على ذلك الذهبي في ميزانه (ج١، ص ٥٩٠ـ٥٩٥) وابن حجر في تهذيبه(ج٣، ص ١١ـ١٦).

والجميع ينصّون على أنّ الرجل قد دسّ ما دسّ في كتب من ربّاه الّذي كان من محدّثي السنّة، وأين ذلك من الدس في كتب الشيعة.

ما هكذا تورد يا سعد الإبل.

---

١. أمالي السيد المرتضى: ١/ ١٢٨.

التشكيك في نسبة نهج البلاغة إلى الإمام علي عليه السلام

كان في كلامكم إلماعاً إلى الشك والترديد في نسبة نهج البلاغة كلّه إلى أمير المؤمنين علي(رضي الله عنه و ارضاه) قلتم في رسالتكم:... والصنعة الأدبية ظاهرة على أبوابه ومحتوياته، فيمكن لكم المقارنة بين البلاغة العربية في عهد النبوة وما كان عليه أمير المؤمنين من فصاحة وبلاغة... وكتاب النهج وما فيه من سجع متكلف، وغرائب في بعض الألفاظ وما ساد في بلاغة القرن الرابع ـ زمن جامع الكتاب ـ وأقل ما يقال فيه أنّه: زاد فيه، وأيضاً انقطاع السند بين جامعه وقائله وبين ذلك خرط القتاد.[١]

أقول: ما ذكرتم من التشكيك أمر قد سبقكم إليه أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن أبي بكر المعروف بابن خلكان المولود في مدينة اربل عام ٦٠٨، فهو أوّل من أثار الشكوك في قلوب الباحثين بنسبته الكتاب إلى الشريف الرضي تأليفاً.

ثمّ جاء بعده الصفدي وهو من كتّاب التراجم إلى أن انتقلت الشبه إلى الكتّاب المعاصرين، وهم يدّعون القول بأنّ الكتاب من صنع جامعه وتأليفه بأدلّة منها ما ذكرتم من ظهور الصنعة الأدبية، والسجع المتكلّف.

وقد تحدثنا عن ذلك في الحوار الأوّل معكم بالتفصيل في ص ١٤ـ ٢٠ وممّا قلناه هناك:

بأنّ الشريف الرضي ليس أوّل من جمع كتب الإمام ورسائله وكلماته، بل سبقه جمهور من الكتاب ذكرنا أسماءهم وكتبهم، وقد صدر عنها وعن غيرها

---

١. الصفحة الثانية من الرسالة.

الشريف الرضي. حتّى أنّ الشريف الرضي قد ذكر مصادر بعض خطبه ورسائله وكلماته، وترك ذكر مصادر الكثير وما ذلك إلاّ لكون الشريف الرضي كان على ثقة بصحة سائر ما ذكره فلم يرَ حاجة لذكر المصادر. وإنّما ذكر بعض المصادر فيما لم يكن على ثقة بصدوره. وأمامكم كلام الكاتب الكبير الرحالة المسعودي (المتوفّى عام ٣٤٥هـ) قبل أن يولد الرضي مؤلف «مروج الذهب» يقول: والّذي حفظ الناس عن الإمام من خطبه في سائر مقاماتهم هو أربعمائة ونيف وثمانون خطبة يوردها على البديهة تداول الناس ذلك عنه قولاً وعملاً.[1]

وقد أشبعنا الكلام في ذلك في الحوار المذكور. والمظنون أنّه لم تتح الفرصة لكم لمطالعة الحوار الأوّل وعاقتكم عن ذلك كثرة المشاغل، وقد أشرتم إلى ذلك في رسالتكم حيث قلتم: «إنّي أكتب هذه الرسالة على عجل واستسمحكم لكثرة مشاغلي».

فلنرجع إلى ما ذكرتم من وسائل التشكيك: أعني: ظهور الصنعة الأدبية:

وهذا هو أحد الإشكالات الأربعة التي جمعها المحقّق محمد محيي الدين المصري الّذي كتب مقدمة لشرح نهج البلاغة لمحمد عبده (المطبوع في مصر) وقال: الثاني: أنّ فيه من السجع والنميق اللفظي وآثار الصنعة ما لم يعهده عصر علي، ولا عرفه، وإنّما ذلك شيء طرأ على العربية بعد العصر الجاهلي وصدر الإسلام، وافتتن به أدباء العصر العباسي و الشريف الرضي جاء من بعد ذلك على ما ألفوه فصنف الكتاب على نهجهم وطريقتهم.

وقد أجاب هو عن هذا الإشكال في ذات المقدمة قائلاً: وأمّا عن السبب الثاني فليس ما في الكتاب كله سجعاً، وما فيه من السجع فهو ممّا لم تدع إليه

١. مروج الذهب: ٢/ ٤٥.

الصنعة، ولا اقتضاه الكلف با لمحسنات، وأكثره ممّا يأتي عفواً بلا كد خاطر ولا تجشم هول، ومثله في عبارات عصره واقع، ومن عرف أنّ ابن أبي طالب كان حامي عرين الفصاحة وابن بجدتها لم يعسر عليه التسليم.(١)

ونضع أمام الشيخ نموذجاً من السجع المتكلّف الرائج في العصر العباسي حتّى يعلم أنّ ما جاء في نهج البلاغة نتج عفواً وبلا تكلّف.

هذا هو الحريري أبو محمد القاسم بن علي بن محمد بن عثمان البصري صاحب «المقامات» المشهور، وتعمقه في الصناعة يغنينا عن إيراد كثير من نثره ونظمه. فمن نثره قوله:

«فمذ اغبر العيش الأخضر، وازوّر المحبوب الأصفر، اسودّ يومي الأبيض، وابيض فؤادي الأشيب، حتّى رثى لي العدو الأزرق، فياحبذا الموت الأحمر».

فيا شيخنا القاضي بالحق: قسْ هذا الكلام بقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في عدم الاغترار بالدنيا أعني قوله: فإنّ الدنيا قد أدبرت، وآذنت بوداع، و إنّ الآخرة قد أشرفت باطّلاع، ألا و إنّ اليوم المضمار وغداً السباق، والسبقة الجنة، والغاية النار، أفلا تائب من خطيئته قبل منيته؟(٢)

وكأن المشكّكين ينكرون على أصحاب المواهب أن يبتكروا ويجودوا بعطاءاتهم الفذة، وأمير المؤمنين ـ كما أصفق الجميع ـ من العباقرة الذين جاءوا في زمن غير زمانهم، ويُبدعوا فلا بِدْعَ أن يكون عطاؤه متميزاً في النحو (وهو مؤسسه) والبلاغة والفقه والكلام والتفسير وغيرها من المجالات.

وأنت ترى أنّ أرباب الأدب و اللغة والفصاحة والبيان من لدن جمعه إلى

---

١. نهج البلاغة شرح الإمام محمد عبده، قم المقدسة، ص«و».

٢. نهج البلاغة، الخطبة:٢٧.

وقتنا الحاضر قد وقفوا مبهورين أمام سحر تلك الألوان والصور الّتي أبدعتها ريشة أمير البيان وسيد البلغاء وهو ينظم تلك الفرائد.

ولا اعتقد أنّ أحداً ممن يحترم ذوقه وأدبه لا يعشو إلى تلك الأنوار الّتي تتلألأ بها تلك الفرائد، ويخضع لجلالها.

إنّ الشريف الرضي الجامع لنهج البلاغة، قد ألف كتاباً باسم «المجازات النبوية» وقد طبع غير مرة، والفرق بينه و بين «نهج البلاغة» هو انّ الأوّل ألّف باسم النبي الأعظمﷺ والثاني ألّف باسم تلميذه وربيب القرآن، ولم يشك في الأوّل أي مشكك دون الثاني.

فما هو الوجه، والمؤلف واحد، وكلا التأليفين على غرار فارد.

وفي الختام أقدّم اعتذاري عن الإسهاب في الكلام، راجياً من سماحتكم الإمعان في هذه الرسالة وما تقدمها من الحوارين فإنّ الحقيقة بنت البحث.

وتقبّلوا فائق احترامي وخالص سلامي لكم ولكافة الأخوة المؤمنين الذين من حولكم، وأرجو منكم الدعاء في أيام شهر رمضان ولياليه المباركة، لخلاص المسلمين من الظلم والعدوان، ودسائس الكفار....

وفقكم الله

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

جعفر السبحاني

قم ـ مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام

٣ رمضان المبارك ١٤٢٥ هـ

أهدىٰ إليّ سماحة الشيخ صالح الـدرويش كتاب «الإمامة والنص» وكتب ما هذا نصّه:

«إهداء للشيخ العلاّمـة جعفر السبحاني ـ وفّقـه الله ـ آمل أن يتّسع وقتكم للاطـلاع عليه ودراستـه بإنصاف وأسألـه سبحانـه وتعالى أن ينفعني وإيّـاكم بما نسمع ونقرأ ويجعله حجة لنا يوم القيامة لا علينا، اللّهم آمين.

وصلّى الله على نبيّنا محمد وآله وصحبه أجمعين».

القاضي بالمحكمة الكبرى بالقطيف

صالح بن عبد الله الدرويش



سماحة الأخ في الله الشيخ صالح بن عبد الله الدرويش

حفظه الله ورعاه

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أرجو من الله سبحانه أن تكونوا في صلاح وفلاح وسرور وحبور، وفي خدمة الدين الحنيف وإصلاح المجتمع.

جعلكم الله مصباحاً منيراً للدرب، وأخذ بيدكم إلى ما فيه رضاه.

استلمت بيد التكريم والتبجيل قبل بضعة أيّام (عاشر شوال المكرم) هديتكم، أعني الكتاب الموسوم بـ«الإمامة والنص» وقلت: في نفسي هدية حلوة من بلاد التمور والحلويّات، وفتحت الغلاف فاستوقف نظري إليه في بادئ الأمر خطكم الشريف والّذي جاء فيه: «**إهداء للشيخ العلاّمة جعفر السبحاني ـ وفقه الله ـ آمل أن يتّسع وقتكم للاطلاع عليه ودراسته بإنصاف...**».

ثم لاحظت تقريظ الكتاب بقلم الشيخ سعد بن عبد الله الحميد حيث ابتدأ كلامه ـ بعد البسملة والحمد ـ بقوله: فإنّ من الأُمور الّتي يبغضها الله لأهل الإسلام الفرقة والاختلاف كما قال سبحانه: **﴿وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾** إلى أن قال:«وكل غيور على دين الله ينفر من

الاختلاف ويكرهه ويسعى إلى درئه ما استطاع».

فتفألت بمستهل التقريظ وقلت في نفسي: إنّ المقرّظ من دعاة التقريب، والكتاب المهدى في طريقه، ثمّ سبرت فهرس الموضوعات فأخذتني الحيرة بين التعبير الماضي للمقرّظ ومحتويات الكتاب، فأيقنت انّ المقرظ من رجال التفرقة وحماتها، وانّه اتّخذ التعبير المذكور واجهة لدعمه موقف الكتاب، الّذي يفرّق ولا يجمع، ويشتّت ولا يلمّ، ويؤجج نار الشحناء والعداء بين المسلمين، ولا يعمل على توطيد علائق الأُخوة بينهم.

وممّا لفت انتباهي عند سبر فهرس الموضوعات عنوان «تعظيم الشيعة لليهود و النصارى» فتحيّرت: كيف ينسب الكاتب إلى الشيعة تعظيم اليهود والنصارى مع أنّ إمام الشيعة وإمام المسلمين علي بن أبي طالب عليه السلام هو الذي استأصل شأفة اليهود في قلاعهم، وسقاهم كؤوس الذلّ بسيفه وسنانه، وقتل أبطالهم، وفي مقدّمتهم مرحب الخيبري مرتجزاً:

أنا الّذي سمتني أُمّي حيدرة ضرغام آجام وليث قسورة

وقد كرّمه الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم عندما بعثه لقتال الخيبريين بقوله: «لأُعطينّ الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله يفتح على يديه ، كرار غير فرار»، وقد أطاح بقوله: «غير فرار» باللذَيْن أخذا الراية، من قبَل ثمّ رجعا منهزمينَ، واتُّهما بالجبن والفرار.

ثم عدتُ إلى متن الكتاب حتّى أقرأ ذلك الفصل عن كثب وأتعرّف على حقيقة هذه الدعوى، دعوى «تعظيم الشيعة لليهود والنصارى» أو ليس رجال الشيعة هم الذين أخرجوا اليهود عن الوطن الإسلامي ـ في جنوب لبنان ـ صاغرين، وبذلك صاروا أسوة لأبطال فلسطين وقدوة لأبناء الحجارة وعلّموهم

بأنّ التحرّر من ذلّ العدوان الصهيوني لا يُكتب إلاّ بالتضحية والعمليات الاستشهادية؟!

كنت أفكر بهذا الموضوع، فقرأت ذلك الفصل فلم أجد فيه سوى أنّ جماعة من اليهود سألوا الإمام عليّاً عليه السلام عن مسائل فأجابهم وأقنعهم فأسلموا غبّ ذلك وقالوا: «أشهد أن لا إلـه الله و...»، وكانت نتيجة الإجابة هي رفضهم للديانة اليهودية أو النصرانية ودخولهم حظيرة الإسلام.

شيخنا الجليل! أطال الله بقاءَك هل أنّ هذه الروايات ـ سواء أصحت أم لم تصحّ ـ تدلّ على تعظيم الشيعة لليهود والنصارى؟ أو أنّها تدلّ على سعة علم الوصيّ و إخضاعه اليهود والنصارى بالبيان الرصين لقبول الإسلام واللجوء إليه؟ ولا غرو في ذلك وهو عليه السلام باب علم النبيّ صلى الله عليه وآله وأقضى الأُمّة، نطقت بذلك الآثار والأخبار واحتفلت به المجامع والكتب.

بالله عليك! لو كانت هذه الروايات واردة في حقّ واحد من الصحابة أو أحد الشيخين، وكانت تشير إلى أنّ جماعة من اليهود أو النصارى سألوا أبا بكر أو عمر عن مسائل فأجاب عنها بأجوبة انتهت إلى إسلام السائلين، هل كان الكاتب عندئذٍ يتهم أهل نحلته بتعظيم اليهود والنصارى؟!

قليلاً من الإنصاف! قليلاً من الوعي!

وقد قال الله سبحانه: ﴿**وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوىٰ**﴾.[1]

فلو صحّ ما ادّعاه الكاتب من أنّ إسلام اليهود والنصارى على ضوء بيان الوصي عليه السلام، دليل على تعظيم الشيعة لليهود والنصارى، فالقرآن الكريم أوّل من

---

١. المائدة:٨.

عظّم اليهود والنصارى. حيث وصفَ لفيفاً منهم بالإيمان غبَّ سماع الآيات القرآنية، قال سبحانه: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ* يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.[١]

قل لنا يا أيّها الأخ في الله هل يصحّ لإنسان عاقل أن يتّهم الذكر الحكيم بتعظيم اليهود والنصارى بحجة انّه يصفهم بقوله:

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لاَ يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الحِسَابِ﴾.[٢]

لقد فرّق سبحانه وتعالى بين اليهود والنصارى ووصف الطائفة الثانية بأنّهم أقرب مودّة إلى المؤمنين وقال: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارىٰ ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ﴾.[٣]

إنّ القرآن الكريم يأمر المشركين بسؤال أهل الكتاب للتعرف على سمات الأنبياء ويقول: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾.[٤]

لا شكّ أنّ لأهل الذكر مفهوماً واسعاً يعم الأحبار والرهبان وغيرهم، ولكنّهما بلا شكّ من مصاديق الآية حسب سياقها، أفيكون الأمر بسؤالهم تعظيماً

---

١. آل عمران:١٣ـ ١٤.

٢. آل عمران:١٩٩.

٣. المائدة:٨٢.

٤. الأنبياء:٧.

لليهود والنصارى؟!

لا أدري ولا المنجم يدري ولا القرّاء يدرون!

كعب الأحبار وعاء العلم!

والحقيقة أنّ بعض الصحابة هم الذين عظّموا اليهود والنصارى، ـ على وفق الضابطة التي ذكرها المؤلف ـ هذا هو كعب بن ماتع الحميري الذي قالوا في حقه: هو من أوعية العلم ومن كبار علماء أهل الكتاب، أسلم في زمن أبي بكر، وقدم من اليمن في خلافة عمر، فأخذ عنه الصحابة وغيرهم، وأخذ هو من الكتاب والسنّة عن الصحابة، وتوفّي في خلافة عثمان، وروى عنه جماعة من التابعين، وله شيء في صحيح البخاري وغيره.

قال الذهبي: العلاّمة الحبر الذي كان يهودياً فأسلم بعد وفاة النبي ﷺ، وقدم المدينة من اليمن في أيام عمر، فجالس أصحاب محمد فكان يحدّثهم عن الكتب الإسرائيلية ويحفظ عجائب.

إلى أن قال: حدّث عنه أبو هريرة ومعاوية وابن عباس، وذلك من قبيل رواية الصحابي عن التابعي وهو نادر عزيز، وحدّث عنه أيضاً أسلم مولى عمر وتبيع الحميري ابن امرأة كعب.

وروى عنه عدّة من التابعين كعطاء بن يسار وغيره مرسلاً.

وقع له رواية في سنن أبي داود والترمذي والنسائي.[١]

---

١. سير أعلام النبلاء:٣/ ٤٨٩ ولاحظ تفسير ابن كثير:٣/ ٣٣٩ سورة النمل حيث قال ـ بعد ما أورد طائفة من الأخبار في قصة ملكة سبأ مع سليمان ـ : والأقرب في مثل هذه السياقات أنّها متلقاة عن أهل الكتاب، ممّا وجد في صحفهم كروايات كعب ووهب، سامحهما الله تعالى في ما نقلاه إلى هذه الأُمّة، من أخبار بني إسرائيل من الأوابد و الغرائب والعجائب ممّا كان وما لم يكن، وممّا حرّف وبدّل ونسخ، وقد أغنانا الله سبحانه عن ذلك بما هو أصحّ منه وأنفع وأوضح وأبلغ.

وترى الذهبي في كتابه «تذكرة الحفاظ» يعرفه أيضاً بأنّه من أوعية العلم.[١]

ومعنى ذلك أنّ الصحابة كانوا يعتقدون أنّه موئل العلم والفضل، ولهذا السبب أخذ عنه الصحابة وغيرهم. وعندئذٍ نسأل: إذا أخذ عنه الصحابة وغيرهم على أنّه من أوعية العلم، فما هو ذاك الذي أخذوه عنه؟ هل أخذوا عنه سوى الإسرائيليات المحرّفة والكاذبة؟! فإنّه لم يكن عنده ـ على فرض كونه صادقاً ـ سوى تلك الأساطير والقصص الموهومة. فهل تسعد أُمّة أخذت معالم دينها عن المحدّث اليهودي، المتظاهر بالإسلام المعتمد على الكتب المحرفة بنص القرآن الكريم؟! وهذا، مع افتراض كونه صادقاً، امّا إذا كان كاذباً فالخطب أفدح وأجل، ولا يقارن بشيء!!

والمطالع الكريم في روايات كعب يقف على أنّه يركز على القول بأمرين: التجسيم والرؤية، وقد اتّخذهما بعض أهل الحديث من الآثار الصحيحة، فبنوا عليهما العقائد الإسلامية وكفّروا المخالف.

والعجب أنّ عثمان بن عفان ربما كان يستفتيه في بعض الأُمور، فقد سأله عن المال المجتمع المؤداة زكاته هل هو من الكنز أو لا؟ وصار ذلك سبباً للمشاجرة بينه و بين أبي ذر وانتهى ذلك إلى تسيير أبي ذر الغفاري إلى الربذة.[٢]

وهب بن منبه ناشر الإسرائيليات

وليس كعب الأحبار هو أوّل من أخذ عنه الصحابة، فقد ابتلى المسلمون بعد كعب الأحبار بكتابيّ آخر قد بلغ الغاية في بثّ الإسرائيليات بين المسلمين

١. تذكرة الحفاظ:١/ ٥٢.

٢. مروج الذهب:٢/ ٣٤٩وغيره.

حول تاريخ الأنبياء والأُمم السالفة، وهو وهب بن منبه اليماني. قال الذهبي: ولد في آخر خلافة عثمان ، كثير النقل عن كتب الإسرائيليات، توفّي سنة ١١٤هـ و قد ضعّفه الفلاس.[١]

وقال في تذكرة الحفاظ: عـالم أهل اليمن، ولد سنة أربع وثلاثين وعنده من علم أهل الكتـاب شيء كثير، فإنّـه صرف عنـايتـه إلى ذلك وبـالغ، وحـديثـه في الصحيحين عن أخيه همام.[٢]

وتـرجمه أبـو نعيم في حلية الأوليـاء تـرجمة مفصلـة استغرقت قـرابـة ستين صفحة، وبسط الكلام في نقل أقواله وكلماته القصار.[٣]

وقد خدع عقول الصحابة بأفانين المكر، حيث صار يعرّف نفسه بأنّه أعلم ممّن قبله وممن عاصره بقوله لبعض حضّـار مجلسه: يقولون عبد الله بن سلام أعلم أهل زمانه، وكعب أعلم أهل زمانه، أفرأيت من جمع علمهما؟ يعني نفسه.[٤]

وقد تسنّم الرجـل، منبر التحدّث عن الأنبياء والأُمم السالفـة يوم كان نقل الحديث عن النبيﷺ ممنوعاً وأخذ بمجامع القلـوب فأخذ عنه من أخذ، وكانت نتيجـة ذلك التحـدّث، انتشـار الإسرائيليات حـول حيـاة الأنبيـاء في العـواصم الإسـلامية، وقـد دوّن ما ألقـاه في مجلـد واحد، أسماه في كشف الظنـون «قصص الأبرار وقصص الأخيار».[٥]

وكم هناك من مستسلمـة أهل الكتاب صـاروا مصادر للقصص والتفسير

١. ميزان الاعتدال: ٤/ ٣٥٢ـ٣٥٣.

٢. تذكرة الحفاظ: ١/ ١٠٠ـ١٠١.

٣. حلية الأولياء: ١/ ٢٣ـ٨١.

٤. تذكرة الحفاظ: ١/ ١٠١.

٥. كشف الظنون: ٢/ ٢٢٣، مادة قصص.

كتميم بن أوس الداري راوية الأساطير، وها هي الصحاح والسنن مليئة برواياتهم...وتذكر قصصهم.

فإذا صحّ زعم الكاتب أنّ إيمان أهل الكتاب ـ بعد ما أتم الإمام علي عليه السلام، الحجة عليهم ـ دلل على تعظيمهم، فليكن عكوف الصحابة والتابعين ومن ثمّ المحدثين على أبواب هؤلاء من أفضل الأدلة على تعظيمهم.

لماذا نُؤْمِنُ بِبَعضٍ وَنَكْفُر بِبَعضٍ؟!

الأخبار المتواترة ونقد أسانيدها

إنّ الكاتب يصبّ جهوده على تضعيف رواة الأحاديث المتواترة أو المتضافرة كما في الروايات الواردة حول آيتي الإكمال والبلاغ (ص٥٦٣ـ ٥٩٦، من نفس الكتاب).

فقد نقل فيه قرابة خمسين حديثاً وبذل جهوده لتضعيف أسانيد الروايات، ذاهلاً عن أنّ الضابط في الحديث المتواتر أو المتضافر هو «إخبار جماعة عن واقعة يفيد إخبارهم العلم» سواء أكانوا ثقاة أم لا، وإذا ضم إلى هذه الروايات الهائلة ما أخرجه أهل السنّة حول نزول الآيتين يوم الغدير لتجلّت الحقيقة بأجلى مظاهرها. وتكون دراسة سند الأحاديث أمراً زائداً.

المؤلف وأبجدية رجال الشيعة

وممّا يثير العجب انّ الرجل وهو بصدد تضعيف أحاديث الشيعة حول الإمامة أخذ ينقض ويبرم وهو لا يعرف مشاهير رجال الشيعة فضلاً عن غيرهم.

يقول حول رواية العلاء عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام: «والعلاء لم يصرح أحد بوثاقته وتوثيق الخوئي له انّما لوروده في اسناد كامل الزيارات» (لاحظ

ص ٥٦٩).

أقول: انّ العلاء بن رزين من مشاهير رواة الشيعة وهو راوية محمد بن مسلم الثقفي وقد ورد في أسانيد الكتب الأربعة بهذا العنوان،(٣٩٢) مورداً، يقول النجاشي: «روى عن أبي عبد الله، وصحب محمد بن مسلم وتفقه عليه وكان ثقة وجهاً»(رجال النجاشي، رقم ٨٠٩)، وقال الشيخ الطوسي: «العلاء بن رزين القلاء، ثقة جليل القدر، له كتاب وهو أربع نسخ»(فهرس الشيخ، رقم ٥٠٠).

والسيد المحقق الخوئي نقل هذه الكلمات وليس في كلامه أي إشارة إلى أنّ توثيقه لوروده في أسانيد كامل الزيارات وان ورد في أسانيده، لكن وثاقته أوضح من الشمس، وأبين من الأمس، هذا هو معجم رجال الحديث لسيدنا الأُستاذ الخوئي، لاحظ الجزء ١١ ص ١٦٧، رقم الترجمة ٧٧٦٣.

والعجب أنّه أحال إلى الجزء ٥/ ١٨٤ من معجم رجال الحديث للسيد الخوئي، ولم نجد أيّ أثرٍ ممّا ذكره هناك!!

اعتذار

إليك ـ أيّها الأخ في الله ـ أرفع آيات الاعتذار عمّا جرى به قلمي ولم يكن إلاّ نفثة مصدور، تجلّت على هذه الصحائف، وما دفعني إلى كتابتها سوى حبّ الإصحار بالحقيقة واستعتاب الشاغب لئلا ينطلي عليه انّ ما نسجه حقائق راهنة. بل هو علبة السبّ ووعاء الشتم، يشبّه علماء الشيعة ـ الذين خدموا الحضارة الإسلامية في مختلف الأصعدة ـ بالذباب الّذي يتتبع مواضع الدم والجروح!!... كبرت كلمة خرجت من فمه.

وقد تبيّن عندي طيلة حياتي:

إنّ لكلّ شيء دليلاً إلاّ الافتراء على الشيعة.

ولكلّ شيء نهاية إلاّ الكذب على الشيعة.

وليس في العالم الإسلامي ـ و فلسطين ترزح تحت العدوان الصهيوني ـ مشكلة سوى مشكلة الشيعة، ولذلك لم تزل تدور الردود والاطروحات في الجامعات حول نقد عقائد الشيعة.

﴿قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصحابُ الصِّراطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدى﴾.[1]

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

جعفر السبحاني

مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام

قم المقدسة

٢٣ شوال ١٤٢٥هـ

---

١. طه:١٣٥.

٥

طلب الشيخ صالح بتأليف كتاب يجمع الروايات الصحيحة عند الشيعة وجوابنا عن ذلك:



سماحة الشيخ آية الله العظمى جعفر السبحاني وفقه الله

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

وبعد..

فقد وصلني كتابيكم الكريمين[١] الأوّل فيما يتعلق بالرد على رسالتي لكم، ومع كلّ أسف رأيت سماحتكم ترك صلب الموضوع والفكرة التي طرحتها، وجعلتم محور رسالتكم للنقاش والرد، ولست من أصحاب الجدل واستعراض القوى، وأسأل الله سبحانه وتعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يجعلني وإيّاك من الناصرين لسنّة نبيّه الكريم السائرين على خطاه، المتمسّكين بسنّته العاملين بهديه.

لذا تركت الرد حتّى في بيان المغالطات العلمية التي وردت في الرسالة ومنها زعمكم ظهور النفاق قبل غزوة بدر حيث إنّكم ذكرتم قصة ابن أبي سلول

١. كذا في أصل الرسالة بالبريد الالكتروني.

مستدلّين بها على وجود النفاق قبل بدر والرجل في ذلك الوقت معلناً كفره ولم يعلن الإسلام بعد، والنبيﷺ زاره ليدعوه للإسلام فلا نفاق قبل بدر لا من المهاجرين ولا من الأنصار!!!!!

هذا على سبيل المثال فقط ولا أُريد الإطالة في مثل هذا لسابق ما ذكرت لكم أنّي لست في صدد الجدل والنقاش. ومع هذا أطلب من سماحتكم لكي تشعر بأهمية الفكرة والموضوع أطلب من سماحتكم أن تدلني على كتاب جمع أقوال أئمة أو بعضهم اتفق الشيعة على صحتها وقطعوا بما فيها، لكي أقرأ فيها ويقرأ فيها غيري من المثقفين الشيعة ليتعبد بها وكله ثقة في صدورها عن الأئمّة عليهم السلام.

فأنت أعلم مني با لمكتبة الشيعية ويكفي من مئات المجلدات مجلدين[1] أو مجلد في جمع الصحيح المقطوع صدوره من الأئمّة عليهم سلام الله فيها الكلام الخاص المصفى ولعل الفكرة وصلتكم ولا تحتاج إلى مزيد توضيح أو بيان.

وقد أعجبني كلام سماحة آية الله العظمى السيد محمد حسين فضل الله وفقه الله عند زيارتي له خلال الصيف الماضي حينما ذكر أنّ طرح هذه الأفكار ومناقشتها من الضرورة والأهمية بمكان ويجب العمل عليها وإخراجها للواقع لترى النور فيتميز الحق من الباطل والصحيح من السقيم والمتصل من المنقطع.

كما أشار جمع من الفضلاء من علماء الحوزة العلمية بأهمية هذا الموضوع وضرورته، وأنّ الموقف السلبي من التراث والجمود أمامه لا يخدم إلاّ أصحاب المصالح الشخصية، وسماحتكم فيما سمعنا عنكم أنّكم من أبعد الناس عن هذه النظرة الجامدة.

---

١. كذا في أصل الرسالة.

وما يدلك على بعد كبار المحققين والمراجع العلمية من تحقيق التراث عملياً مع دعوتهم إليه نظرياً ما تجده في كتب سماحة آية الله العظمى السيد محمد الشيرازي فهو في كتاباته وأطروحاته الفكرية يدعو بقوة إلى إعمال العقل والنظر في التراث كما يدعو للتجديد، وإذا ما نظرت إلى مؤلفاته الفقهية والعقدية تجده يستدل بالروايات دون تمييز!!!

أمّا خطابكم الثاني المتعلق بالنص والإمامة لمؤلفه فيصل نور فقد قمت بإيصال ملاحظاتكم إلى صاحب المصنف وهو من الشباب الجادين في البحث والتحقيق، وعنده طموحات كبيرة في إخراج مجموعة من المصنفات حول الموضوع، وهذا يعد أوّل نتاجه العلمي وهو باكورة إنتاجه في التصنيف، وميزته وفقه الله الحرص على اتباع الحق وتواضعه في قبول كلّ نقد وتوجيه، ومن خلال معرفتي به فانّه لا يضيره أن يعترف بالخطأ والرجوع عنه هذا ما نحسبه والله حسيبه ولا نزكي على الله أحداً.

وقد رد على كتابكم المحتوي على الملاحظات حول مؤلفه والتي تجدونها مرفقة مع رسالتي لكم وليس لي من الأمر إلاّ أنّي ناقل لكم منه ومنه لكم وفقكم الله تعالى لمرضاته وأحسن لنا ولكم الختام.

أخوكم

صالح بن عبدالله الدرويش

بسم الله الرحمن الرحيم

عنوان الفضل والفضيلة ورمز الأدب والأخلاق

الأخ في الله الشيخ صالح بن عبد الله الدرويش

ـ دامت معاليه وتواترت بيض أياديه ـ

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

نسأل الله لكم التوفيق في خدمة الدين وإصلاح المجتمع ولمّ الشعث وتوحيد الكلمة....

وصلني كتابكم الكريم مرفقاً برسالة من الشاب الجادّ في البحث والتحقيق ـ كما ذكرتم ـ فأشكر الله سبحانه على هذا التواصل وهذه العلاقات العلمية التي ستثمر في نهاية الأمر، وإن كانت في بدايتها مقترنة بالصعوبة.

أمرتم ـ وإليكم الأمر والنهي ـ ان أدلّكم على كتاب يجمع أقوال الأئمّة عليهم السلام أو بعضهم، اتّفق الشيعة على صحة هذه الأقوال وقطعوا بما فيها لكي تقرأوا فيها... الخ.

أنار الله برهانكم؛ فقد اعتذرنا عن ذلك في رسالتنا المؤرخة ٣رمضان المبارك ١٤٢٤هـ و كنا قد قلنا هناك انّه لا يوجد عند الشيعة كتاب اتّفق علماؤهم على صحته من أوّله إلى آخره، سوى القرآن الكريم.

والضابطة عندهم هي:

إنّ العقائد والمعارف لا يحتج فيها إلاّ بخبر مفيد للعلم الجازم نظير: الخبر المتواتر أو الخبر الواحد المحفوف بالقرائن المفيدة للقطع واليقين.

وأمّا الأحكام العملية فيحتج فيها بهما وبالخبر الصحيح، وإن لم يفد العلم.

ووجه الفرق هو: انّ المطلوب في العقائد هو تحصيل اليقين، وهو رهن القسمين الأوّلين أو حكم العقل الحصيف.

بخلاف المطلوب في الأحكام فالمطلوب فيها هو العمل، وِفْقَ حجة شرعية، والخبر الصحيح أحد الحجج الشرعية.

ومع ذلك فقد بلغ فقهاء الشيعة النهاية في حقل الفقه فميّزوا الصحيح عن غيره.

فهذا هو المحقّق الشيخ حسن بن الشهيد الثاني(٩٥٩ـ ١٠١١هـ) قد ألف كتابه «منتقى الجمان في الصحاح والحسان».

كما ألف العلاّمة المجلسي(١٠٣٧ـ ١١١٠هـ) كتابه «مرآة العقول» فميز فيه بين الروايات بالتقسيم الرباعي الموجود في علم الدراية عند الشيعة من الصحيح والموثق والحسن والضعيف، وكذلك تجد في سائر الكتب الفقهية الإشارة عند الاستدلال بالرواية إلى صحّة السند وضعفه.

فإن كنتم تريدون قسم الصحيح وغيره في الفقه فهذا أمر ميسر، وإن أردتم القسم الصحيح فيما ورد حول العقائد فليس عندنا كتاب جامع لهذا الموضوع.

ومع ذلك كلّه فكاتب هذه السطور يفتخر بتلبية طلباتكم في حقل العقائد والأحكام وأدلتهما من الكتاب والسنة المتواترة أو المحفوفة بالقرائن أو الخبر الصحيح....

انّ باب الحوار الذي فتحتموه باب نافع للأُمّة الإسلامية إذ به يرتفع

حجاب الجهل عن البصر و البصيرة ، ويقف المسلمون على ما عند الطوائف الأُخرىٰ من ثقافة وعلم وأدب بشرط أن يكون هذا الحوار واجداً لشرائطه وأن يكون الهدف منه تحري الواقع وكشف الحقيقة.

وبعين الحق انّ أكثر الطوائف ــ بالنسبة إلى عقائد الإمامية ـ أُمّيون لا يعرفون منها شيئاً، هذا هو القصيمي صاحب كتاب «الصراع بين الإسلام والوثنية» يصف شيعة آل البيت عليهم السلام بالوثنية؛ ويأتي آخر فيقرّض هذا الكتاب بشعره لا بشعوره قائلاً:

فما للقوم دين أو حياءٌ ويكفيهم من الخزي «الصراع»

ومن أعجب التهم ــ و ما عشت أراك الدهر عجباً ــ اتهام شيعة آل البيت عليهم السلام بمهزلة «خان الأمين» مع أنّ هذا هو شعار اليهود بالنسبة للمسلمين لا شعار الشيعة.

فاليهود خذلهم الله هم القائلون بخان الأمين، ويعتقدون أنّ أمين الوحي نزل بالوحي إلى أولاد إسماعيل وكان مأموراً بحفظه في عقب إسحاق ويعقوب كما حكاه الرازي في تفسيره ... انظر كيف حرّفوا الكلم!!

ولا أزيدك بياناً سوى أنّي أذكر ما لاقيته عام ١٣٧٥ هـ ـ عُقْب وفاة الملك عبد العزيز بسنة ـ في مكّة المعظمة وكنا قد استأجرنا دار أحد المدرسين في الحرم الشريف وقد سألني عند زيارته لنا في منزلنا، فقال: شيخنا السبحاني هل للشيعة تأليف؟ قلت في نفسي يا سبحان الله هذا هو مدرس الحرم الشريف ويعيش في أُمّ القرى، وفي كلّ سنة يزور الكعبة آلاف من الشيعة ووفود عديدة منهم من أقطار الأرض كيف لا يعلم أنّ للشيعة جامعات ومكتبات ومدارس علمية ومؤلفات!!

عندما أرجع إلى نفسي وأتذكر هذه الذكريات المرة، فأني أثمّن الحوار الذي فتحتم بابه وولجتم منه إلى فسيح العلم والمعرفة.

هذا ما يتعلّق برسالتكم، أمّا ما يرجع إلى رسالة مؤلف كتاب «الإمامة والنص» فسنرفقها مع هذه الرسالة إن شاء الله.

حفظكم الله من كلّ سوء ورعاكم وجعلكم مصباحاً منيراً للدرب وأخاً رؤوفاً لي وأباً عطوفاً لعامة المسلمين.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

جعفر السبحاني

قم ـ مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام

السبت رابع ذي الحجة الحرام عام ١٤٢٥هـ

٦

بعد أن وصلت رسالتنا في نقد كتاب «الإمامة والنص» إلى يد المؤلف عن طريق العلاّمة الشيخ صالح الدرويش كتب المؤلف رسالة مطوّلة خرج فيها عن موضوع الحوار وتطرق إلى مواضيع لا صلة لها بالمقام،ولذا نعتذر عن نشرها كاملة ونكتفي بذكر ما له صلة بموضوع الحوار، ضمن جوابنا عليه، وقد قام الشيخ صالح الدرويش مشكوراً بإرسال رسالة المؤلف إلينا وكتب ما هذا لفظه:

بسم الله الرحمن الرحيم

سماحة آية الله العظمى جعفر السبحاني وفقه الله

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

وبعد:

فتجدون برفقه مرفقين حول الإجابة على رسالتكم كما تجدون مرفقاً آخر حول ملاحظاتكم على كتاب الإمامة والنص نسأل المولى أن يوفقنا وإياكم للحق والسداد ودمتم بخير وعافية.

أخوكم

صالح بن عبد الله الدرويش

وقد أجبنا على ملاحظات المؤلف، وكان خطابنا في هذا الجواب موجهاً للشيخ صالح الدرويش باعتباره هو المرسل إلينا.

بسم الله الرحمن الرحيم

الأخ الوجيه سماحة الشيخ صالح الدرويش حفظه الله

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

تهنئة عطرة، بمناسبة عيد الأضحى ذلك اليوم الّذي جعله الله سبحانه عيداً للمسلمين.

نسأل الله لكم التوفيق لما يرضاه.

أرجو أن تصل رسالتي هذه إلى من تتعلق، وسماحتكم أعرف به منّي.

أمّا بعد:

فقد وصلتني رسالته المفصلة والمؤرخة ٢٣ شوال ١٤٢٥هـ، المرفقة مع رسالة سماحة الشيخ صالح الدرويش حفظه الله تعالى.

وكانت الرسالة جواباً عما ذكرتُ من المآخذ والإشكالات على فصل واحد من كتابه المسمّى بالإمامة والنصّ.

وما قرأت من هذا الكتاب إلاّ ذلك الفصل وكلّ ما ذكرته يرجع إليه دون سائر الفصول وذلك لأنّي لم أوفق لقراءة غيره إلاّ عابراً.

وقبل أن أُشير إلى الأُمور والنكات التي ترفع الستار عما قلت، أُذّكره بضابطة كلية حول الحوار.

فالحوار المفيد عبارة عن التركيز على الموضوع المطروح والاجتناب عمّا لا علاقة له بالموضوع، وإلاّ فيعود الحوار غير مفيد ولا ناجع ويشبه المحاضرات الّتي ينتقل المتكلم فيها من موضوع إلى موضوع ويصير الحوار مظهراً للمثل السائر (الكلام يجر الكلام) وعلى ضوء تلك الضابطة في رسالتي السابقة ألفتنا نظره إلى أُمور:

١. وجود التناقض بين التقريظ ومحتويات الكتاب

إنّ التقريظ يعرب عن أنّ المقرّظ يحمل هموم المسلمين وينفر عن التفرقة، ويحب لمّ الشعث ووحدة الكلمة، ولكنّه في الوقت نفسه يقرّض كتاباً يؤدّي إلى خلاف ذلك.

هذا هو الإشكال الّذي أخذت على المقرِّظ فقط. وليس في رسالتي أيّ شيء ممّا نسبَه المؤلف إليّ، أعني «إظهاركم الحرص على التقريب» و «جمع كلمة المسلمين ونبذ الفرقة»....

وبعبارة أوضح: انّ مصب الإشكال هو وجود التناقض بين الأمرين، والإشكال إمّا وارد أو غير وارد، فكان عليه بيان تلك النقطة لا توجيه الإشكال إلى الكاتب، فانّه غير مطروح.

وأمّا وصفه كتبي بأنّها «ممّا يفرّق ولا يجمع» فهو ادّعاء على الغائب «والغائب على حجّته» (الأصل المسلم في القضاء) لا يحكم عليه بشيء حتّى يحضر.

٢. تعظيم الشيعة لليهود

انّ ما نقله من الروايات في الفصل الخاص المعنون بـ«تعظيم الشيعة لليهود والنصارى» لا يدلّ على ذلك العنوان، فالروايات أصحّت أم لم تصحّ إنّما تشير إلى سعة علم الإمامعليه السلام وقوة منطقه حتّى أسلَمَ في ظل بيانه جماعة من اليهود والنصارى كما أسلَمَ بيد الرسولصلى الله عليه وآله وسلم وبفضل رصانة منطقه، جموع من المشركين وغيرهم، فتأثير الدعوة والبيان من الإمام لا صلة له بهذا العنوان.

إنّ في وسع المحقّق، نقد هذه المرويات سنداً ومضموناً لكن ليس له ذلك الاستنتاج الخاطئ إلاّ إذا كان ذا رأي مسبق.

ولكنّه زعم أنّي أردت ان ارميه بالطعن في أئمّة أهل البيتعليهم السلام.

ولكنّي لم أكن بصدد هذا الطعن، إذ من الواضحات انّ أهل السنة من محبي أهل البيتعليهم السلام من غير حاجة إلى دليل وبرهان.

وما ذكرت حول مستسلمة أهل الكتاب نظراء «كعب الأحبار» فقد خفي عليه صلته بالمقام، فهؤلاء هم الكافرون حقاً والمظهرون للإسلام خداعاً لعقولنا، فقد لعبوا في التاريخ والحديث، فأدخلوا الإسرائيليات والمسيحيات، بل المجوسيات، في الحديث والتاريخ إلى حدّ شوهوا كتبنا، ولذا قام غير واحد من الباحثين بإخراجها عن كتب الحديث.

فهذا ابن كثير قد أظهر أسفه من إدخال هذه الأكاذيب في المصادر الإسلامية، ومع ذلك فقد تضافر المدح من علماء الرجال في حقّهم غافلين عن مقاصدهم الفاسدة، فهل يصحّ أن نصف أهل السنّة بتعظيم اليهود!!

٣. الخطأ في ترجمة العلاء بن رزين

وممّا الفت نظره إليه هو الخطأ في ترجمة العلاء بن رزين فقد سلّم بما ذكرت، ونعم ما فعل فالنسيان رفيق الإنسان، والمعصوم هو من عصمه الله سبحانه: ﴿وَما أبرأ نَفسي﴾.

٤. نقد الأخبار المتواترة

وممّا ذكرتُ في الرسالة أنّ الروايات المتواترة المتضافرة لا تخضع للنقد، وهذا أمر واضح لمن له أدنى إلمام بأُصول الحديث وأحكامه، ولكنّه بدل تصديق الإشكال أو نقده؛ ذكره في جوابه (هل يرى الشيخ ذلك في روايات تحريف القرآن عن طرق الشيعة التي أورد الطبرسي منها في فصل الخطاب أكثر من ١١١٢ رواية).

وبما أنّ روايات التحريف وقعت ذريعة للإطاحة بالشيعة ــ وإن نادوا وصرخوا بملء أفواههم بالبراءة من هذه الوصمة، وأنّ رأي واحد من علمائهم ليس دليلاً على رأي الطائفة ولا يُعبّر عن موقفهم في المسألة ــ نلفت نظره إلى أنّ قسماً كبيراً من هذه الأحاديث ـ و أكثرها مراسيل ـ أُخذت من تفاسير السنّة، وأمّا القسم الآخر فأكثره مأخوذ من كتب لا قيمة لها عند أهل العلم والحديث، وهاك أسماء بعض هذه الكتب:

١. رسالة مجهولة النسب نسبت إلى أُناس؛ كسعد بن عبد الله الأشعري (المتوفّى ٣٠١هـ) أو محمد بن إبراهيم النعماني (المتوفّى ٣٦٠هـ) أو السيد المرتضى (المتوفّى ٤٣٦هـ).

٢. كتاب القراءات لأحمد بن محمد السياري (المتوفّى ٢٦٨هـ) وهو ضعيف

الحديث، فاسد المذهب، مجفو الرواية، كثير المراسيل.

٣. تفسير أبي الجارود زياد بن المنذر السّرحوب (المتوفّى ١٥٠هـ)، والّذي ورد لعنه على لسان الإمام الصادقعليه‌السلام.

٤. كتاب الاستغاثة لعلي بن أحمد الكوفي (المتوفّى ٣٢٢هـ) الّذي قال عنه النجاشي: غلا في آخر عمره وفسد مذهبه، وصنف كتباً كثيرة أكثرها على الفساد.

٥. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكريعليه‌السلام، الّذي هو ليس منه وإنّما نسب إليه.

فإذا كانت الروايات الهائلة منقولة من هذه الكتب ونظائرها فلا قيمة لها ولا يصدق عليها وصف التواتر للعلم بضعف المصدر وانتهاء الروايات إلى أُناس لا عبرة بكتبهم.

ونحن لا نريد المقابلة بالمثل فإنّ اتهام كلّ طائفة، الأُخرى، بمعنى انعقاد الإجماع المركب من الطائفتين على تحريف القرآن وهو يتم لصالح الأعداء لا لصالح المسلمين، ولكن أُريد أن أُوقفه شخصياً بأنّه لو كان وجود الروايات دليلاً على التحريف فليكن وجود روايات التحريف عند السنّة دليلاً على عقيدتهم بالتحريف، وإن كان في شك فليطالع الموارد الموجودة في هذه القائمة في المعاجم الحديثية(الصحاح والسنن) والتفاسير لأهل السنّة.

١. آية الرجم.

٢. آية الرغبة.

٣. آية الجهاد.

٤. آية الفراش.

٥. القرآن (١٠٢٧٠٠٠) حرف.

٦. قد ذهب منه قرآن كثير.

٧. ذهاب القرآن بذهاب حملته يوم اليمامة.

٨. زيادة كانت في مصحف عائشة.

٩. آية الرضعات أكلها داجن البيت.

١٠. آيتان من سورة البيّنة.

١١. آيتان لم تكتبا في المصحف.

١٢. سورة كانت تعادل براءة وأُخرى تشبه المسبحات.

١٣. سورة الأحزاب كانت أطول من البقرة.

١٤. دعاء القنوت.

وهكذا ودواليك.

واني أجلّ علماء السنة وفطاحلهم من القول بالتحريف.

وأمّا تفسير هذه الروايات الواردة في كتب السنّة بوفرة عن طريق منسوخ التلاوة فهو مهزلة، أشبه بمنطق الصبيان، إذ لسائل يسأل لماذا نسخت؟ هل كان الإشكال في المحتوى فالمفروض أنّ الحكم باق كآية الرجم وغيرها، أو كان الإشكال في التعبير والركاكة في اللفظ فالمصيبة أعظم، والله سبحانه مبدأ الكمال والجمال، أجل من أن ينزل آية فيها ركاكة.

وكلّ من كتب حول عقيدة الشيعة ـ في السعودية ـ بعد قيام الثورة الإسلامية في إيران، استمات لإثبات انّ «تحريف الكتاب العزيز من عقائد الشيعة، معتمداً في ذلك على كتاب الشيخ النوري» وهؤلاء يرون القذى في عين الغير، ولا يرون الجذع في عيونهم، غافلين عن وجود أمثال هذا الكتاب في كتب أهل نحلتهم.

وإن كنت في شكّ ممّا ذكرت فاستمع إلى قول الشيخ محمد المدني رضي الله

عنه عميد كلية الشريعة في الأزهر الشريف يقول:

«وأمّا الإمامية فمعاذ الله أن يعتقدوا نقص القرآن،وإنّما هي روايات رُويت في كتبهم كما رُوي مثلها في كتبنا، وأهل التحقيق من الفريقين قد زيّفوها وبيّنوا بطلانها، وليس في الشيعة الإمامية أو الزيدية من يعتقد ذلك كما أنّه ليس في السنّة من يعتقده.

ويستطيع من شاء أن يرجع إلى مثل كتاب الإتقان للسيوطي ليرى فيه أمثال هذه الرّوايات الّتي نضرب عنها صفحاً.

وقد ألّف أحد المصريين في سنة ١٩٤٨م كتاباً اسمه «الفرقان» ملأه بكثير من أمثال هذه الروايات السقيمة المدخولة المرفوضة، ناقلاً إيّاها عن الكتب والمصادر عند أهل السنّة، وقد طلب الأزهر من الحكومة مصادرة هذا الكتاب بعد أن بيّن بالدليل والبحث العلمي أوجه البطلان والفساد فيه، فاستجابت الحكومة لهذا الطلب وصادرت الكتاب، فرفع صاحبه دعوى يطلب فيها تعويضاً، فحكم القضاء الإداري في مجلس الدولة برفضها.

أفيقال: إنّ أهل السنّة ينكرون قداسة القرآن؟ أو يعتقدون نقص القرآن لرواية رواها فلان؟ أو لكتاب ألّفه فلان؟ فكذلك الشيعة الإمامية، إنّما هي روايات في بعض كتبهم كالرّوايات الّتي في بعض كتبنا...».

ومع أنّ الكتاب صودر، يوم ذاك، فقد انتشرت نسخه في المكتبات.

وأمّا انتقاده كلامي بتعريف ابن تيمية بما نقلت فأُحيل جوابه إلى كلام الحافظ ابن حجر الّذي يقول في كتابه «الفتاوى الحديثية»:

«ابن تيميّة عبدٌ خذله الله وأضلّه وأعماه وأصمّه، وبذلك صرّح الأئمة الذين بيّنوا فساد أحواله وكذب أقواله، ومن أراد فعليه بمطالعة كلام الإمام

المجتهد المتّفق على إمامته وجلالته وبلوغه مرتبة الاجتهاد أبو الحسن السبكي وولده التاج والشيخ الإمام العز بن جماعة وأهل عصرهم من الشافعية والمالكية والحنفية، ولم يقصر اعتراضه ــ ابن تيميّة ـ على متأخّري الصوفية بل اعترض على مثل عمر بن الخطّاب وعليّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنهما ـ.

والحاصل: أنّه لا يقام لكلامه وزن، يرمي في كلّ وعر وحَزَن، ويعتقد فيه أنّه مبتدع ضالّ مضلّ غال عامَله الله بعدله وأجارنا من مثل طريقته وعقيدته وفعله ـ آمين ـ».[1]

وكم للفطاحل من علماء السنّة كلمات تعرب عمّا ذكرنا وليس المقام مناسباً لنقلها.

ونشير في الختام إلى أمرين:

١. كانت في رسالته إشارة إلى أنّ بعض ما تكتبه الشيعة ينطلق من باب التقية.

وهذه فكرة خاطئة جداً، لأنّ التقية من الأُمور الشخصية وهي سلاح الضعيف أمام العدو الغاشم الذي صادر حريّاته فيتدرع بالتقية فيظهر الموافقة، فإذا انتهت الظروف الحرجة فالرجل على حالته الأُولى.

هذه هي التقية التي وردت في الكتاب ونص عليها أئمّة الفقه في غير واحد من الموارد.

فلو كانت التقيّة أمراً مرغوباً عنه، فالوزر على من حمل الشيعة عليها، فلو لم يصادر حرياتهم، ولم يهدد حياتهم، لما رأيت أثراً من التقية في قاموس حياة الشيعة.

وأمّا تأليف كتاب على نسق التقية فهذا كذب وفرية، وعطف الباطنية على

---

١. الفتاوى الحديثية: ٨٦.

الإماميـة خطأ بعد خطأ، فـالشيعة الإماميـة بفضل الله تبارك وتعـالى وبجهادهم العلمي لم يكتبوا كتاباً واحداً على هذا المنوال.

فلو نص علماء الشيعة على عدم التحـريف فهو نابع من صميم فكرهم لا من بـاب التقية، وهـذه التهمة شنشنـة أعرفهـا من كلّ من لم يعرف معنى التقيـة وحدودها.

٢. إنّ التعرف على وثاقة الشخص تـارة يحصل من تقليد علماء الرجال كما هو الـرائج بين الفريقين، وأُخرى من جمع القـرائن والشواهد الحاكيـة على نفسية الشخص ووثاقته وضبطه ومدى اهتمامه بالحديث وغير ذلك.

فقد فتح ذلك الباب منذ أربعة قرون عدد من العلماء منهم:

١. الشيخ محمد الأردبيلي مـؤلف كتاب «جامع الرواة» المطبـوع في مجلدين ضخمين.

٢. السيد المحقّق البروجردي أُستاذنا الكبير البـارع في الفقه والرجال، فقد أكمل ما بدأ به الرجالي الأردبيلي بموسوعة كبيرة.

وبذلك يُعلم أنّ وثاقة المشايخ كإبـراهيم بن هاشم الكوفي ثمّ القمي ثابتة من هذا الطريق والتفصيل في محله.

والطريق الثاني طريق اجتهادي والأوّل طريق تقليدي ولكلّ أهل.

والسلام على عباد الله الصالحين ورحمة الله وبركاته

جعفر السبحاني

مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام

قم المقدسة

العاشر من ذي الحجة الحرام عام ١٤٢٥هـ

٧

بسم الله الرحمن الرحيم

رسالة أحد المحققين في مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام
إلى سماحة الشيخ صالح الدرويش ـ حفظه الله تعالى ـ

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أسعد الله أيامكم ومتعكم بالصحة والعافية وأطال عمركم في خدمة الإسلام والمسلمين.

نستميحكم العذر لما قد تقرأون في خطابنا هذا لكم ممّا يعكر مزاجكم ويزعج خاطركم المبارك.

منذ أن وجدنا كتاب «الإمامة والنص» في أحد رفوف مكتبة مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام ووجدنا أنّكم قد أرسلتموه إلى سماحة شيخنا آية الله جعفر السبحاني، خطر في بالنا أن نكتب لكم ونستفسر هل انّ لكم علماً بموقع مؤلف هذا الكتاب على شبكة المعلومات العالمية (الانترنيت) والموقع هو www.fnoor.com

ولكن احترامنا لسماحة العلاّمة السبحاني وحبنا له ولكم وللعلاقة الأخوية التي عرفناها من خلال خطابات الشيخ لكم وعبارات الود التي تتبادلونها، كلّ هذا منعنا من الكتابة لكي لا نؤثر على الجو العلمي السائد على ما يتبادل من

حوار بين قم والقطيف والذي نعلم بإخلاص نيّة الطرفين فيه.

لذا تخلينا عن فكرة الكتابة حول هذا الموقع والذي هو أحد مئات المواقع المنكرة والمشينة والمسيئة للإسلام وأهله، والذي يستخدمه أعداء الدين للاستشهاد به على سذاجة المسلمين وتفاهة أفكارهم وأساليبهم ـ كما يصورون لأتباعهم لعنهم الله ـ وهذا ما لمسناه من خلال تصفح المواقع اللا دينية الكثيرة، الذين يقولون: هؤلاء هم المسلمون كلّ يسقط الآخر ويتّهمه بأنّه ليس على حق، فيخرجون بنتيجة أنّ الكل (الإسلام والمسلمون وبكافة طوائفهم) على باطل، وعلى العاقل عدم اتّباعهم.

إنّ الانترنيت يجب أن يستغل للدفاع عن الدين وتنوير الأذهان ونشر الحقيقة والفضيلة، والذب عن المسلمين وعلمائهم، وإزالة الشبهات والتحريف عن حقائق الإسلام الناصعة، كذلك يُنتظر من المشرفين على هذه المواقع أن يكرموا علماء الإسلام ويبرزون دورهم الإيجابي في بناء الحضارة والفكر وحثّ الشباب على التمسك بالأخلاق الإسلامية وكسب المعارف الإسلامية والاعتقاد بالمعتقدات الحقة التي يدعمها الدليل القرآني والنبوي ويسندها العقل الحصيف.

ونحن يا سماحة الشيخ العزيز قد تصفحنا نوافذ موقع الكاتب فيصل نور فلم نجد فيه شيئاً ممّا ذكرناه، بل ـ وللأسف الشديد ـ وجدنا العكس تماماً.

فهو يجمع كلّ شاردة وواردة فيها تهجّم على الشيعة أو أحد علمائهم، وكلّ مقال أو أسطر فيها اعتداء أو سباب، أو رد لاذع أو نقد وقح، إلاّ ووضعه في طيّت مقالات موقعه. ولو أنّه قد اقتصر على تنزيل كتبه في الموقع لكان الأمر هيّناً، ولكن ما هو الهدف من نشر هذا الكم الهائل من مقالات نشرت هنا وهناك،

والكثير منها كتب بإقلام حاقدة على الإسلام وطـوائفه كلّها، وبأيدي من لا يروق لهم التفاف الشبـاب حول علماء الـدين، أو لا يعلم فيصل نور بأنّ بعض الـذين يكتبون في عـدد المواقع السنية ضـد الشيعة هم أنفسهم الـذين يكتبون في بعض المواقع الشيعية ضد السنة، ويهدفون من عملهم الخؤون هذا إيقاع الفرقة وتأجيج نار البغضاء والعداوة؟!

وجـدنا كثيراً من المقـالات قـد استقاهـا من أحـد المواقع الحاقدة والسيئـة الصيت و من يكتب فيـه هم علمانيون لا تهمهـم حرمـة عالم ولا احترام حقيقـة، فلماذا هذا التعـامي عن الحق، واتباع البـاطل؟ ما هي المصلحـة في نشر أكاذيب وأباطيل في موقع تصرف عليه أموال طاهـرة طيبة؟! ما هي المصلحة من نشر هذه الترّهـات التي جمعها عنـوان «صور وحقـائق ووثائق» ضمن نـافذة «مع الشيعـة الإمامية»، والتي تحمل ثمانية فصول أحدها حول المرجعية الشيعية ـ الوجه الآخر، والآخر حول الشيعة والقرآن، وحول إيران، وحول العراق وصدام، وغير ذلك؟!

ما هـو الهدف من نشر أحد المقالات التي وصف كـاتبها سماحة العـلاّمة جعفر السبحـاني بأنّه أحد دجاجلـة الروافض المسمّى جعفر السبحـاني، ويكرر هـذا اللفـظ مـرة ثـانيـة فيقـول: فيبـدأ هــذا الـدجـال كما هـي عـادتهم دائماً بالتبـاكي...[راجع مقال: الـرد على السبحاني الذي طعـن في فتوى ابن جبرين، كذلك انظـر مقال: إمـام العصر يرد على الـرافضي صاحب كتـاب السجود على التربة الحسينية، فهو يشتمل على ألفاظ وقحة مماثلة].

وما هـو الغرض من عرض قصائد شعـرية (بالصوت) وهي مـراثي الإمام الحسين عليه السلام وادّعاء انّها تحمل كفراً أو خروجاً عن الدين وهل أنّ المذهب الشيعي يعرف من خلال قصائد شعرية كتبت من قبل عوام الناس؟!

وهل انّ موقف الشيعة الإمامية من القرآن يتمثل في كتاب «فصل الخطاب» الذي خصّص صاحب الموقع صفحة كاملة لعرض صور بعض صفحاته، لو كان يتبع الإنصاف ويريد أن يحق الحق لكان عليه أن يذكر رأي علماء الشيعة في هذا الكتاب وموقفهم من قضية التحريف، هذا هو الحكم الصحيح لمن يريد أن يعطي انطباعاً صحيحاً عن عقيدة فرقة من الفرق ومذهب من المذاهب.

نحن نسأل ما هي الفائدة التي يحصل عليها القارئ فيما لو قرأ هذه المقالات؟! وهل يظن صاحب الموقع أنّ الشيعي يترك مذهبه ويتسنّن بقراءته لهذه المقالات؟ أو أنّها تساعد السنّي في ترسيخ اعتقاده بعقيدته أكثر؟ كلا ولا.

وما يهدف مَنْ يسعى لجمعها وإنزالها على صفحات الانترنت بهذا الشكل المبوب إلاّ بث الفرقة والتناحر وبيان المثالب؟!

ولو أراد أحدنا جمع أمثالها ممّا عند الطرف الآخر فانّه سوف يجمع أضعاف مضاعفة لعدد هذه المقالات، ولكن تأنف نفوسنا أن نقابل السيئة بأمثالها، ونحن نعرض مذهبنا ومن مصادره الصحيحة الواضحة، ونهدف لتعريف الناس عليه، ورد الشبهات عنه بالطرق الصحيحة وبالوسائل العلمية المؤدبة.

نرجو يا سماحة الشيخ تذكير صاحب هذا الموقع بهذه النقاط الأساسية ونكون لكم شاكرين، ولا يعتذر بأنّه يجمع هذه المقالات وهو لم يكتبها فإنّ من يجمعها وينزلها في موقعه فهو مسؤول عنها أيضاً.

والحمد لله ربّ العالمين.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أحد محققي مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام

قم المقدسة

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الفصل السابع

رسائل ومكاتبات

الموضوع	الصفحة
٩. ملاحظات حول كتاب «جمهرة القواعد الفقهية في المعاملات المالية»	٧٥٧
١٠. رسالة إلى الشيخ عبد الوهاب إبراهيم أبو سليمان مع مقال «القواعد الفقهية» لمرتضى الترابي وجواب فضيلة الشيخ	٧٦٤
١١. ملاحظات الدكتور عبد الوهاب إبراهيم أبو سليمان حول موسوعة طبقات الفقهاء وجوابنا	٧٧٠
الفصل الثامن	
رسائل وحوارات	
مع الشيخ صالح بن عبد الله الدرويش	
١. رسالة إلى الشيخ صالح بن عبد الله الدرويش مرفقة بكتاب الحج	٧٨٠
٢. رسالة الشيخ الدرويش يذكر بعض ملاحظاته حول نهج البلاغة	٧٨٢
٣. رسالة إلى الشيخ صالح الدرويش وموقفنا من الصحابة	٧٨٦
٤. الدرويش يهدي إلينا كتاب «الإمامة والنص» ونقدنا لهذا الكتاب	٧٩٩
٥. طلب الدرويش تأليف كتاب يجمع الروايات الصحيحة عند الشيعة وجوابنا	٨١٠